تفسير البغوي

(معالم التنزيل)

للإمام محيي السنة أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي
(المتوفى ٥١٦هـ)

حققه وخرج أحاديثه

محمد عبد الله النمر — د. عثمان جمعة ضميرية — سليمان مسلم الحرش

المجلد الثالث

الأنعام - الإسراء

دار طيبة

تفسير البغوي
(معالم التنزيل)

للإمام محيي السنة أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي
(المتوفى ٥١٦هـ)

حققه وخرج أحاديثه

محمد عبد الله النمر — د. عثمان جمعة ضميرية — سليمان مسلم الحرش

المجلد الثاني

الأنعام - الإسراء

دار طيبة للنشر والتوزيع

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
البغوي، الحسين بن مسعود
تفسير البغوي: معالم التنزيل. / الحسين بن مسعود البغوي، سليمان مسلم الحرش وآخرون- ط٢ - الرياض، ١٤٢٧هـ
٤مج، ٢٠×٢٨سم
ردمك: ٩ - ٨٧ - ٨٩١ - ٩٩٦٠ (مجموعة)
٥ - ٨٩ - ٨٩١ - ٩٩٦٠ (ج٢)
١ - القرآن - التفسير بالمأثور أ - الحرش، سليمان محمد (محقق)
ب - العنوان
ديوي: ٢٢٧,٣٢ ١٤٢٧/٣٢٠٢

الإصدار الأول
الطبعة الأولى (١٤٠٩هـ - ١٤١٢هـ)
الطبعة الخامسة (١٤٢٠هـ)
الإصدار الثاني
الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ)
الطبعة الثانية (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م)

دار طيبة للنشر والتوزيع
الرياض - السويدي - ش. السويدي العام - غرب النفق
ص. ب ٦١٢ الرمز البريدي ١١٤٧٢ هاتف ٤٢٥٢٧٣٧ فاكس ٤٢٥٨٣٧٧

تفسير البغوي

(معالم التنزيل)

٢

سورة الأنعام

مكية، وهي مائة وخمس وستون آية، نزلت بمكة جملة[(١)] ليلًا معها سبعون ألف ملك قد سدُّوا ما بين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتمجيد، فقال النبي ﷺ: «سبحان ربي العظيم، سبحان ربي العظيم» وخرَّ ساجدًا[(٢)].

ورُوي مرفوعًا: «من قرأ سورة الأنعام يصلي عليه أولئك السبعون ألف ملك ليله ونهاره»[(٣)].

وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت سورة الأنعام بمكة، إلا قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ إلى آخر ثلاث آيات، وقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، فهذه الستّ الآيات مدنيات[(٤)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ قال كعب الأحبار: هذه الآية أول آية في التوراة، وآخر آية في التوراة قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾[الإسراء: ١١١].

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: افتتح الله الخلق بالحمد، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وختمه بالحمد فقال: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بين الخلائق ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الزمر: ٧٥].

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) رواه الثعلبي، وفيه أبو عصمة، متهم بالكذب. وانظر: «الدر المنثور»: (٣/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤)، «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي: (١/ ٤٥٠)، «الفتح السماوي» للمناوي: (٢/ . . .).

(٣) أخرجه الثعلبي من حديث أُبيّ بن كعب، وفيه: أبو عصمة، وهو متهم بالكذب. وأوله عند الطبراني في «الصغير» . . . وفيه: يوسف بن عطية وهو ضعيف، وعنه أخرجه ابن مردويه في التفسير، وأبو نعيم في «الحلية».
انظر: «الكافي الشاف» لابن حجر: ص٦٣، «الدر المنثور»: (٣/ ٢٤٦)، «الفتح السماوي» للمناوي: (٢/ ٦٢٩).

(٤) أخرجه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» عن ابن عباس. «الدر المنثور»: (٣/ ٢٤٤).

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾

قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حمد الله نفسه؛ تعليمًا لعباده، أي: احمدوا الله الذي خلق السموات والأرض، خصَّهما بالذكر؛ لأنهما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد، وفيهما العبر والمنافع للعباد ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ والجعل بمعنى الخلق، قال الواقدي: كل ما في القرآن من الظلمات والنور فهو الكفر والإيمان، إلا في هذه الآية فإنه يريد بهما الليل والنهار.

وقال الحسن: «وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ»، يعني: الكفر والإيمان، وقيل: أراد بالظلمات: الجهل، وبالنور: العلم.

وقال قتادة: يعني الجنة والنار.

وقيل: معناه خلق الله السموات والأرض، وقد جعل الظلمات والنور؛ لأنه قد خلق الظلمة والنور قبل السموات والأرض.

قال قتادة: خلق الله السموات قبل الأرض، والظلمة قبل النور، والجنة قبل النار، ورُوي عن عبد الله ابن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ: «إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضلَّ»(١).

﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ أي: ثم الذين كفروا بعد هذا البيان بربهم يعدلون، أي: يشركون، وأصله من مساواة الشيء بالشيء، ومنه العدل، أي: يعدلون بالله غير الله تعالى، يقال: عدلت هذا بهذا إذا ساويته، وبه قال النضر بن شميل، «الباء» بمعنى «عن»، أي: عن ربهم يعدلون، أي: يميلون وينحرفون من العدول، قال الله تعالى: «عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ»[الإنسان: ٦]، أي: منها.

وقيل: تحت قوله «ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ» معنى لطيف، وهو مثل قول القائل: أنعمت عليكم بكذا وتفضَّلت عليكم بكذا، ثم تكفرون بنعمتي.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ يعني: آدم عليه السلام، خاطبهم به إذ كانوا من ولده، قال السدي: بعث الله تعالى جبريل عليه السلام إلى الأرض ليأتيه بطائفة منها، فقالت الأرض: إني أعوذ بالله منك أن تنقص مني، فرجع جبريل ولم يأخذ وقال: يا ربِّ إنها عاذت بك، فبعث ميكائيل، فاستعاذت فرجع،

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان، باب افتراق هذه الأمة: (٧/ ٤٠١)، وقال: هذا حديث حسن. وصححه ابن حبان: ص٤٤٩، والحاكم: (١/ ٣٠، ٣١)، وأخرجه الإمام أحمد: (٢/ ١٧٦، ١٩٧).

قال الهيثمي: رواه أحمد بإسنادين، والبزار والطبراني، ورجال أحد إسنادي أحمد ثقات. «مجمع الزوائد»: (٧/ ١٩٤)، وذكره الخطيب في «مشكاة المصابيح»: (١/ ٣٧)، وصححه الألباني.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾

فبعث ملك الموت فعاذت منه بالله، فقال: وأنا أعوذ بالله أن أخالف أمره، فأخذ من وجه الأرض فخلط الحمراء والسوداء والبيضاء، ؛ فلذلك اختلفتْ ألوان بني آدم، ثم عجنها بالماء العذب والملح والمرّ، فلذا اختلفت أخلاقهم، فقال الله تعالى لملك الموت: رحم جبريل وميكائيل الأرض ولم ترحمها، لا جرمَ أجْعَلُ أرواح من أخلق من هذا الطين بيدك.

ورُوي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «خلق الله آدم عليه السلام من تراب وجعله طينًا، ثم تركه حتى كان حمأً مسنونًا، ثم خلقه وصوّره وتركه حتى كان صلصالاً كالفخار، ثم نفخ فيه روحه»[(١)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾، قال الحسن وقتادة والضحاك: الأجل الأول من الولادة إلى الموت، والأجل الثاني من الموت إلى البعث، وهو البرزخ، ورُوي ذلك عن ابن عباس، وقال: لكل أحد أجلان أجل إلى الموت، وأجل من الموت إلى البعث، فإن كان بَرًّا تقيًا وَصُولاً للرحم زيد له من أجَل البعث في أجَل العمر، وإن كان فاجرًا قاطعًا للرحم نقص من أجل العمر وزيد في أجل البعث، وقال مجاهد وسعيد بن جبير: الأجل الأول أجل الدنيا، والأجل الثاني أجل الآخرة، وقال عطية عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا» يعني: النوم تقبض فيه الروح ثم ترجع عند اليقظة «وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ»، يعني: أجل الموت، وقيل: هما واحد، معناه: (ثم قضى أجلًا)[(٢)]، يعني: جعل لأعماركم مدة تنتهون إليها، «وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ» يعني: وهو أجل مسمًّى عنده، لا يعلمه غيره ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾ تشكُّون في البعث.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: وهو إله السموات والأرض، كقوله: «وَهُوَ ٱلَّذِى فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ»[الزخرف: ٨٤]، وقيل: هو المعبود في السموات والأرض، وقال محمد بن جرير: معناه: هو الله في السموات يعلم سركم وجهركم في الأرض، (وقال الزَّجّاج: فيه تقديم وتأخير تقديره: وهو الله ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ في السموات والأرض)[(٣)] ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾ تعملون من الخير والشر.

---

(١) رواه أبو يعلى مطولاً: (٦/ ٩٧)، وفيه إسماعيل بن رافع، قال البخاري: ثقة مقارب للحديث، وضعفه الجمهور، وبقية رجاله رجال الصحيح. «مجمع الزوائد»: (٨/ ١٩٧)، وأخرجه ابن حبان: ص٥٠٨ ـ ٥٠٩ من «موارد الظمآن»، واختصره النسائي في «عمل اليوم والليلة»: ص٢٣٨، وقال عنه: (منكر).

(٢) زيادة من «ب».

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب».

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٦﴾

﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾ يعني: أهل مكة ﴿مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ مثل: انشقاق القمر وغيره، وقال عطاء: يريد من آيات القرآن ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤﴾ لها تاركين، بها مكذبين.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ بالقرآن، وقيل: بمحمد ﷺ ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾ أي: أخبار استهزائهم وجزاؤه، أي: سيعلمون عاقبة / استهزائهم إذا عُذِّبوا. ١/١١٦

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ يعني: الأُمم الماضية، والقرن: الجماعة من الناس، وجمعه قرون، وقيل: القرن مدة من الزمان، يقال: ثمانون سنة، وقيل: ستون سنة، وقيل: أربعون سنة، وقيل: ثلاثون سنة، ويقال: مائة سنة؛ لِمَا رُوي أنَّ النبي ﷺ قال لعبد الله بن بُسْر المازني: «إنكَ تعيشُ قرنًا» فعاش مائة سنة(١).

فيكون معناه على هذه الأقاويل: من أهل قرنٍ ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ أي: أعطيناهم ما لم نعطكم، وقال ابن عباس: أمهلناهم في العمر، مثل: قوم نوح وعاد وثمود، يقال: مكَّنْتُه ومكنتُ له ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ يعني: المطر، مِفْعَال من الدَّر، قال ابن عباس: «مِّدْرَارًا»، أي: مُتتابعًا في أوقات الحاجات، وقوله: «مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ» من خطاب التلوين، رجع من الخبر من قوله: «أَلَمْ يَرَوْا۟» إلى خطابٍ، كقوله: «حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم»[يونس: ٢٢].

وقال أهل البصرة: أخبر عنهم بقوله: «أَلَمْ يَرَوْا۟» وفيهم محمد ﷺ وأصحابه، ثم خاطبهم معهم، والعرب تقول: قلت لعبد الله: ما أكرمه، وقلت لعبد الله: ما أكرمك ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا﴾ خلقنا وابتدأنا ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٦﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في «التاريخ الصغير»: ص٩٣، والإمام أحمد: (٤/ ١٨٩)، قال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٤٠٥): (رواه الطبراني وأحمد، ورجال أحمد رجال الصحيح غير الحسن بن أيوب وهو ثقة، ورجال الطبراني ثقات). وانظر: «الإصابة»: (٤/ ٢٣)، «أسد الغابة»: (٣/ ١٢٥).

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ...﴾ الآية، قال الكلبي ومقاتل[1]: نزلت في النضر بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية ونوفل بن خويلد، قالوا: يا محمد، لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون عليه أنه من عند الله وأنك رسوله، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ مكتوبًا من عندي ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: عاينوه ومسّوه بأيديهم، وذكر اللمس ولم يذكر المعاينة؛ لأنَّ اللمس أبلغ في إيقاع العلم من الرؤية[2]، فإن السحر يجري على المرئي ولا يجري على الملموس ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ معناه: لا ينفع معهم شيء لِمَا سبق فيهم من علمي.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ على محمد ﷺ ﴿مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: لوجب العذاب، وفُرِغ من الأمر، وهذا سنَّة الله في الكفار أنهم متى اقترحوا آية فأُنزلت ثم لم يؤمنوا استُؤصلوا بالعذاب ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨﴾ أي: لا يؤجلون ولا يمهلون، وقال قتادة: لو أنزلنا ملكًا ثم لم يُؤمنوا لعُجِّل لهم العذاب ولم يُؤخرُوا طرفةَ عين، وقال مجاهد: «لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ»، أي: لقامت القيامة، وقال الضحّاك: لو أتاهم مَلَك في صورته لماتُوا.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا﴾ (يعني: لو أرسلنا إليهم ملكًا)[3] ﴿لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ يعني: في صورة رجل[3] آدمي؛ لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة، وكان جبريل عليه السلام يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي، وجاء الملكان إلى داود في صورة رجلين.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ أي: خلطنا عليهم ما يخلطون، وشبَّهنا عليهم فلا يدرون أملَكٌ هو أم آدمي، وقيل: معناه: شَبّهوا على ضعفائهم فشبّه عليهم، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: هم أهل الكتاب فرقوا دينهم وحرَّفوا الكلم عن مواضعه، فلبس الله عليهم ما لبسوا على أنفسهم، وقرأ الزهري «وللبَّسنا» بالتشديد على التكرير والتأكيد.

---

(١) انظر: «أسباب النزول»: ص٢٣٦، «تفسير القرطبي»: (٦/ ٣٩٣).

(٢) في «ب»: (المعاينة).

(٣) زيادة من «ب».

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾
قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ كما استهزىء بك يا محمد ـ يعزِّي نبيه ﷺ ﴿فَحَاقَ﴾ قال الربيع (ابن أنس)[1]: فنزل، وقال عطاء: حلَّ، وقال الضحَّاك: أحاط ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي: جزاء استهزائهم من العذاب والنقمة.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المستهزئين: ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ معتبرين: يحتمل ـ هذا ـ السيرَ بالعقول والفكر، ويحتمل السير بالأقدام ﴿ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ أي: آخر أمرهم، وكيف أورثهم الكفرُ والتكذيبُ الهلاكَ، فحذَّر كفارَ مكة عذاب الأُمم الخالية.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإن أجابوك وإلاَّ فـ ﴿قُل﴾ أنتَ: ﴿لِّلَّهِ﴾ أمَرَهُ بالجواب عقيب السؤال؛ ليكون أبلغ في التأثير، وآكد في الحجة ﴿كَتَبَ﴾ أي: قضى ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ هذا استعطاف منه تعالى للمتولِّين عنه إلى الإقبال عليه، وإخباره بأنه رحيم بالعباد لا يعجل بالعقوبة، ويقبل الإنابة والتوبة.

أخبرنا أبو علي حسان بن سعيد المنيعي، أخبرنا أبو طاهر الزيادي، أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان، أنا أحمد بن يوسف السلمي، أنا عبد الرزاق، أنا معمر، عن همام بن منبه قال: ثنا أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى اللهُ الخلقَ كتبَ كتابًا فهو عنده فوق العرش: إنَّ رحمتي غلبت غضبي»[2].

وروى أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة: «إنَّ رحمتي سبقت[3] غضبي»[4].

أخبرنا الشيخ أبو القاسم عبد الله بن علي الكُرْكاني، أنا أبو طاهر الزيادي، أنا حاجب بن أحمد الطوسي، أنا عبد الرحمن المروزيّ، أخبرنا عبد الله بن المبارك، أنا عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء بن

(١) زيادة من «ب».
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾: (١٣/ ٣٨٤) وفي مواضع أخرى، ومسلم في التوبة، باب في سعة رحمة الله برقم ٢٧٥١: (٤/ ٢١٠٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٣٧٦).
(٣) في «ب»: (وسعت).
(٤) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: (١٣/ ٤٤٠).

﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾

أبي رباح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لله مائةَ رحمةٍ: واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوامِّ، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تتعاطف الوحوش على أولادها، وأخَّرَ الله تسعًا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»(١).

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا ابن أبي مريم، ثنا أبو غسان، حدثني زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنهم - قال: قدم على النبي ﷺ سبيٌ، فإذا امرأة من السبي قد تحلَّب ثديها، تسعى إذا وجدت صبيًّا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: «أترون هذه طارحةً ولدها في النار»؟ فقلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: «اللهُ أرحم بعباده مِنْ هذه بولدها»(٢).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾ اللام فيه لام القسم والنون نون التأكيد، مجازه: والله ليجمعنَّكم ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: في يوم القيامة، وقيل: معناه: ليجمعنكم في قبوركم إلى يوم القيامة ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾ غبنوا ﴿أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ أي: استقر، قيل: أراد ما سكن وما تحرك، كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، أي: الحرّ والبرد، وقيل: إنما خصَّ السكون بالذكر؛ لأن النعمة فيه أكثر، قال محمد ابن جرير: كل ما طلعت عليه الشمس وغربت فهو من ساكن الليل والنهار، والمراد منه: جميع ما في الأرض، وقيل: معناه: ما يمرّ عليه الليل والنهار ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأصواتهم ﴿ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾ بأسرارهم.

١١٦/ب قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا﴾؟ وهذا حين دعا إلى / دين آبائه، فقال تعالى: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد، أغير الله أتخذ وليًّا: (ربًّا ومعبودًا وناصرًا ومُعينًا)(٣)؟ ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: خالقهما ومُبدعهما ومبتليهما ﴿وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ﴾ أي: وهو يَرزُق ولا يُرزَق، كما قال: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب جعل الله الرحمة في مائة جزء: (١٠/ ٤٣١)، ومسلم في التوبة، في الموضع السابق برقم ٢٧٥٢: (٤/ ٢١٠٨)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٣٧٧).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته: (١٠/ ٤٢٦ - ٤٢٧)، ومسلم في التوبة، في الموضع نفسه برقم ٢٧٥٤: (٤/ ٢١٠٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٣٧٩).

(٣) زيادة من «ب».

قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

يُطْعِمُونِ»[الذاريات: ٥٧]، ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ يعني: من هذه الأمة، والإسلام بمعنى الاستسلام لأمر الله، وقيل: أسلم أخلص ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ يعني: وقيل لي: ولا تكوننَّ ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ (فعبدتُ غيره)[1] ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ يعني: عذاب يوم القيامة.

﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ يعني: من يُصرف العذابُ عنه، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ويعقوب «يَصْرِف»، أي: من يصرفِ اللهُ عنه العذابَ؛ لقوله: «فَقَدْ رَحِمَهُۥ»، وقرأ الآخرون بضم الياء وفتح الراء ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ أي: النجاة البينة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ بشدة وبلية ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ لا رافع ﴿إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ عافية ونعمة ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ من الخير والضر.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنا أبو عبد الله السلمي، أنا أبو العباس الأصم، أنا أحمد بن شيبان الرملي، أنا عبد الله بن ميمون القدَّاح، أنا شهاب بن خراش، (هو ابن عبد الله)[1]، عن عبد الملك بن عمير، عن ابن عباس قال: أُهدي للنبي ﷺ بغلة، أهداها له كسرى، فركبها بحبل من شعر، ثم أردفني خلفه، ثم سار بي مليًّا ثم التفت إليَّ فقال: يا غلام، فقلتُ: لبيك يا رسولَ الله، قال: «احفظِ الله يحفظك، احفظِ الله تجِدْهُ أمامك، تعرَّفْ على اللهِ في الرخاء يعرفْك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد مضى القلم بما هو كائن، فلو جهد الخلائق أن ينفعوك بما لم يقضه الله تعالى لك لم يقدروا عليه، ولو جهدوا أن يضروك بما لم يكتب الله تعالى عليك، ما قدروا عليه، فإن استطعتَ أن تعملَ بالصبر مع اليقين فافعلْ، فإن لم تستطع فاصبرْ، فإن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن مع الكرب الفرج، وأنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا»[2].

(١) زيادة من «ب».

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» من رواية حنش الصنعاني عن ابن عباس: (١/ ٣٠٧)، والترمذي مختصرًا في القيامة، باب حدثنا بشر بن هلال: (٧/ ٢١٩ ـ ٢٢٠)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. ومثله في «المسند»: (١/ ٢٩٣ ـ ٣٠٣)، وعبد بن حميد في «المنتخب»: ص٢١٤، وذكره ابن الأثير في «جامع الأصول» كما في سياق المصنف وقال: هذا الحديث ذكره رزين، ولم أجده في واحد من الأصول الستة، إلا ما أخرجه الترمذي، وهذا لفظه، ثم ساق رواية الترمذي. انظر: «جامع الأصول»: (١١/ ٦٨٦). =

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ القاهر: الغالب، وفي القهر زيادة معنى على القدرة، وهي منع غيره عن بلوغ المراد، وقيل: هو المنفرد بالتدبير الذي يُجْبِرُ الخلقَ على مُراده، «فَوْقَ عِبَادِهِۦ»: هو صفة الاستعلاء الذي تفرد به الله عزَّ وجلَّ ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في أمره ﴿ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ بأعمال عباده.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً. . .؟﴾ الآية، قال الكلبي: أتى أهل مكة رسولَ الله ﷺ فقالوا: أرنا من يشهد أنك رسول الله، فإنَّا لا نرى أحدًا يصدقك، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أنه ليس عندهم ذكر، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ﴾ أعظم ﴿شَهَـٰدَةً﴾؟ فإن أجابوك، وإلاَّ ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ هو ﴿شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ على ما أقول، ويشهد لي بالحق وعليكم بالباطل ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ لأخوّفكم به يا أهل مكة ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ يعني: ومن بلغه القرآن من العجم وغيرهم من الأمم إلى يوم القيامة.

حدثنا أبو الفضل زياد بن محمد بن الحنفي، أنا محمد بن بشربن محمد المزني، أنا أبو بكر محمد بن الحسن ابن بشر النقاش، أنا أبو شعيب الحراني، أنا يحيى بن عبد الله بن الضحاك البابلي، أنا الأوزاعي، حدثني حسان بن عطية، عن أبي كبشة السلولي[1]، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «بلِّغُوا عني ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومَنْ كذبَ عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعدَه مِنَ النار»[2].

أخبرنا أبو الحسن عبد الوهاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أنا أبو العباس الأصم، أنا الربيع، أنا الشافعي، أنا سفيان بن عيينة، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن عبد الله ابن مسعود، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «نَضَّر اللهُ عبدًا سمعَ مقالتي فحفظها ووعاها وأدَّاها، فَرُبَّ حامل فقه غير فقيه، ورُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يُغَلُّ عليهنَّ قلبُ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة للمسلمين، ولزوم جماعتهم، فإنَّ دعوتَهم تحيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»[3].

= ورواه ـ أيضًا ـ عبد بن حيد في «مسنده» بإسناد ضعيف، وعزاه ابن الصلاح في الأحاديث الكلية إلى عبد بن حيد وغيره، وقد روي هذا الحديث عن ابن عباس من طرق كثيرة . . . وطريق حنش التي خرجها الترمذي حسنة جيدة. انظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب: ص١٧٤.

(١) في «ب»: (السلوى).

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل: (٦/ ٤٩٦)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ٢٤٣).

(٣) أخرجه الترمذي في العلم، باب الحث على تبليغ السماع، بنحوه: (٧/ ٤١٧ ـ ٤١٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه في المقدمة، باب من بلَّغ علمًا برقم ٢٣٦: (١/ ٨٦)، والدارمي في المقدمة، باب كراهية أخذ الرأي: (١/ ٧٥)، والشافعي في كتاب العلم: =

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾

قال مقاتل: من بلغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير له، وقال محمد بن كعب القرظي: من بلغه القرآن فكأنما رأى محمدًا ﷺ وسمع منه ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾؟ ولم يقل أخر؛ لأن الجمع يلحقه التأنيث، كقوله عزَّ وجلَّ: «وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا»[الأعراف: ١٨٠]، وقال: «فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ»[طه: ٥١]، ﴿قُلْ﴾ يا محمد: إن شهدتم أنتم، فـ ﴿لَّآ أَشْهَدُ﴾ أنا أنَّ معه إلهًا ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: التوراة والإنجيل ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ يعني: محمدًا ﷺ بنعته وصفته ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ من بين الصبيان ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ غبنوا أنفسَهُمْ ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ وذلك أن الله جعل لكل آدمي منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار، وإذا كان يوم القيامة جعل الله للمؤمنين منازل أهل النار في الجنة، ولأهل النار منازل أهل الجنة في النار، وذلك الخسران.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أكفر ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ اختلق ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فأشرك به غيره ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ يعني: القرآن ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ الكافرون.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: العابدين والمعبودين، يعني: يوم القيامة، قرأ يعقوب ﴿يحشرهم﴾ هاهنا وفي سبأ بالياء، ووافق حفص في سبأ، وقرأ الآخرون بالنون ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أنها تشفع لكم عند ربكم.

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي ويعقوب «يكن» بالياء؛ لأن الفتنة بمعنى الافتتان، فجاز تذكيره، وقرأ الآخرون بالتاء لتأنيث الفتنة، وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم «فِتْنَتُهُمْ» بالرفع جعلوه اسم كان، وقرأ الآخرون بالنصب، فجعلوا الاسم قوله «أَن قَالُوا۟» و«فتنتهم» الخبر، ومعنى قوله «فِتْنَتُهُمْ» أي: قولهم وجوابهم، وقال ابن عباس وقتادة: معذرتهم، والفتنة تجربة، فلما كان سؤالهم تجربة لإظهار ما في قلوبهم قيل فتنة.

= (١/١٦)، والإمام أحمد في «المسند»: (٣/٢٢٥) عن أنس، والمصنف في «شرح السنة»: (١/٢٣٦)، وللشيخ عبد المحسن العباد دراسة حديثية وفقهية لحديث «نضر الله امرءًا...» طبع عام ١٤٠١هـ بمطابع الرشيد بالمدينة المنورة.

﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قال الزَّجّاج في قوله: «ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ» معنى لطيف، وذلك مثل الرجل يفتتن بمحبوب ثم يصيبه فيه محنة[١] فيتبرأ من محبوبه، فيقال: لم تكن فتنت إلا هذا، كذلك الكفار فُتنوا بمحبة الأصنام، ولما رأوا العذاب تبرأوا منها، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ في محبتهم الأصنام ﴿إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ قرأ حمزة والكسائي «ربَّنا» بالنصب على نداء[٢] المضاف، وقرأ الآخرون بالخفض على نعت «رَبِّنَا»، وقيل: / إنهم إذا رأوا يوم القيامة مغفرةَ الله تعالى وتجاوزه عن أهل التوحيد، قال بعضهم لبعض: تعالوا نكتُم الشرك لعلّنا ننجو مع أهل التوحيد، فيقولون: والله ربّنا ما كنا مشركين، فيختم على أفواههم وتشهدُ عليهم جوارحُهم بالكفر. ١١٧/أ

فقال عزَّ وجلَّ: ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ باعتذارهم بالباطل وتبريهم عن الشرك ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ زال وذهب عنهم ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ من الأصنام، وذلك أنهم كانوا يرجون شفاعتها ونصرتها، فبطل كله في ذلك اليوم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ...﴾ الآية، قال الكلبي: اجتمع أبو سفيان بن حرب وأبو جهل ابن هشام والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية وأُبيّ ابنا خلف والحارث بن عامر، يستمعون القرآن فقالوا للنضر: يا أبا قُتَيلَة، ما يقول محمد؟ قال: ما أدري ما يقول إلا أني أراه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين، مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية، وكان النضر كثير الحديث عن القرون وأخبارها[٣]، فقال أبو سفيان: إني أرى بعض ما يقول حقًّا، فقال أبو جهل: كلا، لا نقرُّ بشيء من هذا، وفي رواية: لَلْمَوْتُ أهونُ علينا من هذا، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ» وإلى كلامك ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية، جمع كنان، كالأعنَّة جمع عنان ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أن يعلموه، قيل: معناه: أن لا يفقهوه، وقيل: كراهة أن يفقهوه ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ صممًا وثقلًا، هذا دليل على أن الله تعالى يقلِّب القلوب فيشرح بعضها للهدى، ويجعل بعضها في أكنة فلا تفقه كلام الله ولا تؤمن ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ﴾ من المعجزات والدلالات ﴿لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ يعني: أحاديثهم وأقاصيصهم، والأساطير جمع: أسطورة وإسطارة، وقيل: هي الترهات والأباطيل، وأصلها من سطرت، أي: كَتبتُ.

---

(١) في «ب»: (فتنة). (٢) في «ب»: (النداء). (٣) انظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٢٤٧.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي: ينهون الناس عن اتباع محمد ﷺ ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ أي: يتباعدون عنه بأنفسهم، نزلت في كفار مكة ـ قاله محمد بن الحنفية والسدي والضحَّاك، وقال قتادة: ينهون عن القرآن وعن النبي ﷺ ويتباعدون عنه.

وقال ابن عباس ومقاتل[(١)]: نزلت في أبي طالب كان ينهى الناس عن أذى النبي ﷺ ويمنعهم، وينأى عن الإيمان به، أي: يبعد، حتى رُوي[(٢)] أنه اجتمع إليه رؤوس المشركين وقالوا: خُذْ شابًا من أَصْبَحِنَا وجهًا، وادفع إلينا محمدًا، فقال أبو طالب: ما أنصفتموني! أدفع إليكم ولدي لتقتلوه وأُربي ولدكم؟ ورُوي أن النبي ﷺ دعاه إلى الإيمان، فقال: لولا أن تعيرني قريش لأقررت بها عينك، ولكن أذب عنك ما حييت، وقال فيه أبياتًا:

والله لَـنْ يَصِلُـوا إليـك بِجَمْعِهِـمْ ... حتَّـى أُوَسَّـدَ في التُّـرابِ دفينـا
فاصْدَعْ بأمرِكَ مَا عليكَ غَضَاضَةٌ ... وابْشِـرْ بـذاكَ وقِـرّ منـكَ عيـونـا
ودعوتني وعرفتُ أنكَ ناصحي ... ولقـد صـدقـتَ وكنـتَ ثـمَّ أمينـا
وعـرضـتَ دينًا قـدْ علمـتُ بأنـه ... مـن خيـر أديـان البَـرِيَّـة دينـا
لَـوْلاَ المَـلامَـةُ أو حـذارُ سُبَّـة ... لَـوَجَـدْتَنِـي سمحًـا بـذاك مبينـا

﴿وَإِن يُهْلِكُونَ﴾ ما يهلكون ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: لا يرجع وبال فعلهم إلاَّ إليهم، وأوزار الذين يصدونهم عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يعني: في النار، كقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾[البقرة: ١٠٢]، أي: في ملك سليمان، وقيل: عُرضوا على النار، وجواب «لو» محذوف معناه: لو تراهم في تلك الحالة لرأيتَ عجبًا ﴿فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ يعني: إلى الدنيا ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ قراءة العامة كلها بالرفع على معنى: يا ليتنا نرد ونحن لا نكذبُ، ونكونُ من المؤمنين، وقرأ حمزة وحفص ويعقوب «ولا نكذبَ ونكونَ» بنصب الباء والنون على جواب التمني، أي: ليت ردنا وقع، وأن لا نكذب ولا نكون،

---

(١) انظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٢٤٧ـ٢٤٨، «تفسير القرطبي»: (٦/ ٤٠٦).

(٢) رواه ابن إسحاق: (١/ ٢٦٦ـ٢٦٧) من «سيرة ابن هشام»، ومن طريقه: البيهقي في «دلائل النبوة»: (٢/ ١٨٧) بإسناد منقطع، وله شاهد عند ابن عساكر والبيهقي والبخاري في «تاريخه الكبير». وانظر: «البداية والنهاية»: (٤/ ١٠٧ـ١٠٩)، «سلسلة الأحاديث الصحيحة»: (١/ ١٤٧).

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾

والعرب تنصب جواب التمني بالواو كما تنصب بالفاء، وقرأ ابن عامر «نكذبُ» بالرفع و«نكونَ» بالنصب؛ لأنهم تمنوا أن يكونوا من المؤمنين، وأخبروا عن أنفسهم أنهم لا يكذبون بآيات ربهم إنْ رُدوا إلى الدنيا.

﴿بَلْ بَدَا لَهُم﴾ قوله: «بل» تحته ردّ لقولهم، أي: ليس الأمر على ما قالوا إنهم لو رُدُّوا لآمنُوا، ﴿بَلْ بَدَا لَهُم﴾ ظهر لهم ﴿مَّا كَانُوا يُخْفُونَ﴾ يسرّون ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا من كفرهم ومعاصيهم، وقيل: ما كانوا يخفون وهو قولهم: «وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ»[الأنعام: ٢٣]، فأخفوا شركهم وكتموا حتى شهدتْ عليهم جوارحُهم بما كتمُوا وستروا؛ لأنهم كانوا لا يخفون كفرهم في الدنيا، إلا أن تُجعل الآية في المنافقين، وقال المبرِّد: بل بدا لهم جزاء ما كانوا يخفون، وقال النضر بن شميل: بل بَدَا عنهم.

ثم قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ إلى الدنيا ﴿لَعَادُوا لِمَا﴾ يعني: إلى ما ﴿نُهُوا عَنْهُ﴾ من الكفر ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ في قولهم، لو رددنا إلى الدنيا لم نكذب بآيات ربنا وكنا من المؤمنين.

﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ هذا إخبار عن إنكارهم البعث، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذا من قولهم لو ردوا لقالوه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: على حكمه وقضائه ومسألته، وقيل: عُرضوا على ربهم ﴿قَالَ﴾ لهم، وقيل: تقول لهم الخزنة بأمر الله: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾؟ يعني: أليس هذا البعث والعذاب بالحق؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ إنه حق، قال ابن عباس: هذا في موقف، وقولهم: والله ربّنا ما كنّا مشركين في موقف آخر، وللقيامة مواقف، ففي موقف يُقرون، وفي موقف يُنكرون ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ أي: خسروا أنفسهم بتكذيبهم المصير إلى الله بالبعث بعد الموت ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ﴾ أي: القيامة ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا﴾ ندامتَنا، ذُكر[1] على وجه

---

(١) ساقط من «أ»، واستدركناه من «ب».

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٣٢ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣﴾

النداء للمبالغة، وقال سيبويه: كأنه يقول: أيتها الحسرة هذا أوانك، ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا﴾ أي: قصَّرنا ﴿فِيهَا﴾ أي: في الطاعة، وقيل: تركنا في الدنيا من عمل الآخرة.

قال محمد بن جرير[1]: الهاء راجعة إلى الصفقة، وذلك أنَّه لمَّا تبين لهم خسران صفقتهم ببيعهم الآخرة بالدنيا قالوا: «يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا»، أي: في الصفقة (فترك ذكر الصفقة)[2] اكتفاءً بقوله: «قَدْ خَسِرَ»؛ لأن الخسران إنما يكون في صفقة بيع، والحسرة: شدة الندم، حتى يتحسر النادم، كما يتحسر الذي تقوم به دابته في السفر البعيد ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ أثقالهم وآثامهم ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ قال السدي وغيره: إن المؤمن إذا أخرج من قبره استقبله أحسن شيء صورةً وأطيبه ريحًا فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: لا، فيقول: أنا عملك الصالح فاركبني، فقد طالما ركبتك في الدنيا، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: «يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا»[مريم: ٨٥]، أي: ركبانًا، وأما الكافر فيستقبله أقبح شيء صورةً وأنتنه ريحًا، فيقول: هل تعرفني؟
١١٧/ب فيقول: لا، فيقول: أنا عملك الخبيث، طالما ركبتني في الدنيا / فأنا اليوم أركبك، فهذا معنى قوله: «وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ»، ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ۝٣١﴾ يحملون، قال ابنُ عباس: بئس الحمل حملوا.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ باطل وغُرور لا بقاء لها ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ قرأ ابن عامر «ولَدَارُ الآخِرَةِ» مضافًا، أضاف الدار إلى الآخرة، ويضاف الشيء إلى نفسه عند اختلاف اللفظين، كقوله: «وحب الحصيد»، وقولهم: ربيع الأول ومسجد الجامع، سُمِّيت الدنيا لدنوها، وقيل: لدناءتها، وسُمِّيت الآخرة لأنها بعد الدنيا ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الشرك ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٣٢﴾ أن الآخرة أفضل من الدنيا، قرأ أهل المدينة وابن عامر ويعقوب «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» بالتاء هاهنا وفي الأعراف وسورة يوسف ويٓس، ووافق أبو بكر في سورة يوسف، ووافق حفص إلا في سورة يٓس، وقرأ الآخرون بالياء فيهن.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ قال السُّديُّ: التقى الأخنَسُ بن شُرَيْق وأبو جهل ابن هشام، فقال الأخنس لأبي جهل: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمدٍ أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا

(١) انظر: «تفسير الطبري»: (١١/ ٣٢٥)، وفيه قوله: (والهاء والألف في قوله: «فيها» من ذكر «الصفقة»، ولكن اكتفى بدلالة قوله: «قد خسر الذين كذَّبوا بلقاء الله» عليها من ذكرها؛ إذ كان معلومًا أن «الخسران» لا يكون إلا في صفقة بيع قد جرَتْ).

(٢) ساقط من «أ».

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ
لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ
ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ
لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾

أحد يسمع كلامك غيري، فقال أبو جهل: والله، إنَّ محمدًا لصادق، وما كذب محمد قَطّ، ولكن إذا ذهب بنو قصيّ باللواء والسقاية والحجابة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟ فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية(١).

وقال ناجية بن كعب: قال أبو جهل للنبي ﷺ: لا نتهمك ولا نكذبك، ولكنَّا نكذب الذي جئت به، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾(٢) بأنك كاذب ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ قرأ نافع والكسائي بالتخفيف، وقرأ الآخرون بالتشديد من التكذيب، والتكذيب: هو أن تنسبه إلى الكذب، وتقول له: كذبت، والإكذاب: هو أن تجده كاذبًا، تقول العرب: أجدبت الأرض وأخصبتها إذا وجدتها جدبة ومخصبة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ يقول: إنهم لا يكذبونك في السرِّ؛ لأنهم قد عرفوا صدقك فيما مضى، وإنَّما يكذِّبون وَحْيي ويجحدون آياتي، كما قال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[النمل: ١٤].

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ كذبهم قومهم كما كذبتْك قريشٌ ﴿فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ﴾ بتعذيب مَنْ كذبهم ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ﴾ لا ناقض لِمَا حكم به، وقد حكم في كتابه بنصر أنبيائه عليهم السلام، فقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾[غافر: ٥١]، وقال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ﴾[المجادلة: ٢١]، وقال الحسن بن الفضل: لا خُلْفَ لعداته(٣) ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ و﴿مِن﴾ صلة، كما تقول: أصابنا من مطر.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي: عظم عليك وشقَّ أن أعرضوا عن الإيمان بك، وكان رسول الله ﷺ يحرص على إيمان قومه أشد الحرص، وكانوا إذ سألوا آية أحب أن يريهم الله تعالى ذلك طمعًا في

---

(١) «أسباب النزول»: ص٢٤٩، «تفسير الطبري»: (١١/ ٣٣٣).

(٢) أخرجه الترمذي من طريق أبي كريب عن علي، في التفسير، سورة الأنعام: (٨/ ٤٣٧)، ثم من طريق إسحاق بن منصور عن سفيان عن أبي إسحاق عن ناجية: أن أبا جهل . . . وذكر نحوه، ولم يذكر فيه عن عليّ، وقال: هذا أصح.
وحديث علي أخرجه الحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٣١٥)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، فتعقبه الذهبي قائلًا: (ما خرَّجا لناجية شيئًا). وانظر: «أسباب النزول»: ص٢٤٩، الطبري: (١١/ ٣٣٤)، القرطبي: (٦/ ٤١٦).

(٣) في «ب»: (لعدته).

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ
عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾
وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن
شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

إيمانهم، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا﴾ تطلب وتتخذ نفقًا سَرَبًا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ومنه نافقاء اليربوع، وهو أحد جحريه فيذهب فيه ﴿أَوْ سُلَّمًا﴾ أي: دَرَجًا ومصعدًا ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فتصعد فيه ﴿فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ فافعل ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ فآمنُوا كلُّهم ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: بهذا الحرف، وهو قوله: «وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ»، وأن من يكفر لسابق علم الله فيه.

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ يعني: المؤمنين الذين يسمعون الذكر فيتَّبعُونه وينتفعون به دون من ختم الله على سمعه ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾ يعني: الكفار ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ فيجزيهم بأعمالهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُوا۟﴾ يعني: رؤساء قريش ﴿لَوْلَا﴾ هلَّا ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ ما عليهم في إنزالها.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ قيَّد الطيران بالجناح تأكيدًا، كما يقال: نظرت بعيني وأخذت بيدي ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ قال مجاهد: أصناف مصنفة تعرف بأسمائها، يريد: أن كل جنس من الحيوان أُمة، فالطير أُمة، والدواب أُمة، والسباع أُمة، تعرف بأسمائها، مثل بني آدم يُعرفون بأسمائهم، يقال: الإنس والناس.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنا أبو عبد الرحمن بن أبي شريح، أنا أبو القاسم البغوي، أنا علي بن الجعد، أنا المبارك هو ابن فضالة، عن الحسن، عن عبد الله بن مغفَّل، عن النبي ﷺ قال: «لولا أن الكلابَ أُمَّةٌ لأمرتُ بقَتْلِها، فاقتُلوا منها كُلَّ أسودٍ بهيم»[(١)].

وقيل: «أُمَمٌ أَمْثَالُكُم» يفقه بعضهم عن بعض، وقيل: «أُمَمٌ أَمْثَالُكُم» في الخلق والموت والبعث، وقال عطاء: «أُمَمٌ أَمْثَالُكُم» في التوحيد والمعرفة، وقال ابن قتيبة: «أُمَمٌ أَمْثَالُكُم» في الغذاء وابتغاء الرزق وتوقي المهالك.

---

(١) أخرجه أبو داود في الضحايا، باب في اتخاذ الكلب للصيد وغيره: (٤/ ١٣٢ _ ١٣٣)، والترمذي في الصيد، باب ما جاء في قتل الكلاب: (٥/ ٦٣)، وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي في الصيد والذبائح، باب صفة الكلاب التي أمر بقتلها: (٧/ ١٨٥)، وابن ماجه في الصيد، باب قتل الكلاب إلا كلب صيد أو زرع برقم ٣٢٠٥: (٢/ ١٠٦٩)، والدارمي في الصيد، باب في قتل الكلاب: (٢/ ٩٠)، والإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ٥٤، ٥٦)، والمصنف في «شرح السنة»: (١١/ ٢١١).

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١)﴾

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ﴾ أي: في اللوح المحفوظ ﴿مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)﴾ قال ابن عباس والضحاك: حَشْرُهَا موتها، وقال أبو هريرة: يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة: البهائم والدواب والطير وكل شيء، فيأخذ للجماء من القرناء، ثم يقول: كوني ترابًا فحينئذ يتمنى الكافر ويقول: «يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا»[النبأ: ٤٠].

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي، أنا أبو الحسن الطيسفوني، أخبرنا عبد الله بن عمر الجوهري، أنا أحمد بن علي الكشميهني، أنا علي بن حجر، أنا إسماعيل بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لتردنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يُقادَ للشاةِ الجلحاء مِنَ القَرْناء»(١).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ لا يسمعون الخير ولا يتكلمون به ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ في ضلالات الكفر ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٩)﴾ وهو الإسلام.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ هل رأيتم؟ والكاف فيه للتأكيد، وقال الفرَّاء: العرب تقول: أرايتَك، وهم يريدون: أخبرنا، كما تقول: أرأيتَك إن فعلت كذا ماذا تفعل؟ أي: أخبرني، وقرأ أهل المدينة «أرايتكم»، و«أرايتم»، و«أرايت» بتليين الهمزة الثانية، والكسائي بحذفها، قال ابن عباس: قل يا محمد لهؤلاء المشركين أرأيتكم ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ قبل الموت ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ يعني: القيامة ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ في صرف العذاب عنكم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٠)﴾ وأراد: أن الكفار يدعون الله في أحوال الاضطرار كما أخبر الله عنهم: «وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ»[لقمان: ٣٢].

ثم قال: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ أي: تدعون الله ولا تدعون غيره ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾ قيّد الإجابة بالمشيئة، (والأمور كلها بمشيئته)(٢) ﴿وَتَنسَوْنَ﴾ وتتركون ﴿مَا تُشْرِكُونَ (٤١)﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم برقم ٢٥٨٢: (٤/١٩٩٧).
(٢) ما بين القوسين زيادة من «ب».

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ بالشدة والجوع ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ المرض والزمانة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: يتوبون ويخضعون، والتضرع: السؤال بالتذلل.

١/١١٨ ﴿فَلَوْلَآ﴾ فهلَّا ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا﴾ عذابُنا ﴿تَضَرَّعُوا۟﴾ فآمنوا فكشف عنهم، / أخبر الله عزَّ وجلَّ أنه قد أرسل إلى قوم بلغوا من القسوة إلى أنهم أُخذوا بالشدة في أنفسهم وأموالهم فلم يخضعوا ولم يتضرعوا، فذلك قوله: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ من الكفر والمعاصي.

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ تركوا ما وعظوا وأُمروا به ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ قرأ أبو جعفر «فتَّحنا» بالتشديد في كل القرآن، وقرأ ابن عامر كذلك إذا كان عقيبه جمعًا، والباقون بالتخفيف: وهذا فتح استدراج ومكر، أي: بدَّلنا مكان البلاء والشدة الرخاء والصحة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ وهذا فرح بطر، مثل فرح قارون بما أصاب من الدنيا ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ فجأة آمَنَ ما كانوا، وأَعْجَبَ ما كانت الدنيا إليهم ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ آيسون من كل خير، وقال أبو عبيدة: المبلس: النادم الحزين، وأصل الإبلاس: الإطراق من الحزن والندم، وروى عقبة بن عامر أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا رأيتَ اللهَ يُعطي العبدَ ما يحبُّ وهو مقيم على معصيته، فإنَّما ذلك استدراج»، ثم تلا: «﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾...» الآية[1].

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: آخرهم (الذين بدبرهم، يقال: دبر فلان القوم يدبرهم دبرًا ودبورًا إذا كان آخرهم)[2]، ومعناه: أنهم استُؤصلوا بالعذاب فلم يبق منهم باقية ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ حمدَ الله نفسه على أن قطع دابرهم؛ لأنه نعمة على الرُّسل، فذكَرَ الحمد لله تعليمًا لهم ولِمَن آمن بهم: أن يحمدوا الله على كفايته شرَّ الظالمين، وليحمد محمد ﷺ وأصحابه ربَّهم إذا أهلك المكذبين.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٤/ ١٤٥)، وفيه: رِشْدين بن سعد، وهو ضعيف، والطبراني في «الأوسط»: برقم (٩٢٦٨) عن شيخه الوليد بن العباس المصري وهو ضعيف)، وزاد العراقي نسبته للبيهقي في «الشعب» وحسَّنه. انظر: «مجمع الزوائد»: (٧/ ٢٠)، و(١٠/ ٢٤٥)، «تخريج أحاديث إحياء علوم الدين»: (٥/ ٢١٧٢).

(٢) ما بين القوسين زيادة من «ب».

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ
كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ
جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ
ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا
كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى
مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أيها المشركون ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾ حتى لا تسمعوا شيئًا أصلًا ﴿وَأَبْصَـٰرَكُمْ﴾ حتى لا تبصروا شيئًا ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ حتى لا تفقهوا شيئًا ولا تعرفوا مما تعرفون من أمور الدنيا ﴿مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ ولم يقل «بها» مع أنه ذكر أشياء، قيل: معناه يأتيكم بما أخذ منكم، وقيل: الكناية ترجع إلى السمع الذي ذكر أولاً ويندرج غيره تحته، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[التوبة: ٦٢]، فالهاء راجعة إلى الله، ورضى الرسول يندرج في رضى الله تعالى ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أي: نبيّن لهم العلامات الدالة على التوحيد والنبوة ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ يعرضون عنها مكذبين.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ معاينة ترونه عند نزوله، قال ابن عباس والحسن: ليلًا أو نهارًا ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ المشركون.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ العمل ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ حين يخاف أهل النار ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ إذا حزنوا.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ﴾ يصيبهم ﴿ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ يكفرون.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ نزل حين اقترحوا الآيات فأمره أن يقول لهم: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، أي: خزائن رزقه، فأعطيكم ما تريدون ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ فأخبركم بما غاب مما مضى ومما سيكون ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ قال ذلك؛ لأن الملك يقدر على ما لا يقدر عليه الآدمي، ويشاهد ما لا يشاهده الآدمي، يريد: لا أقول لكم شيئًا من ذلك فتنكرون قولي وتجحدون أمري ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ أي: ما آتيكم به فمِن وَحْيِ الله تعالى، وذلك غير مستحيل في العقل مع قيام الدليل والحجج البالغة ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾؟ قال قتادة: الكافر والمؤمن، وقال مجاهد: الضال والمهتدي، وقيل: الجاهل والعالم ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: أنهما لا يستويان.

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ خوِّف به، أي: القرآن ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟﴾ يجمعوا ويبعثوا ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وقيل: يخافون، أي: يعلمون؛ لأن خوفهم إنَّما كان من علمهم ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾ من دون الله ﴿وَلِىٌّ﴾ قريب ينفعهم ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لهم ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ فينتهون عمَّا نُهوا عنه، وإنَّما نفى الشفاعة لغيره ـ مع أن الأنبياء والأولياء يشفعون ـ لأنهم لا يشفعون إلاَّ بإذنه.

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ﴾ قرأ ابن عامر «بالغُدْوَة» بضم الغين وسكون الدال وواو بعدها هاهنا وفي سورة الكهف، وقرأ الآخرون بفتح الغين والدال وألف بعدها.

قال سلمان وخباب بن الأرت: فينا نزلتْ هذه الآية، جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري وذووهم من المؤلَّفة قلوبهم، فوجدوا النبي ﷺ قاعدًا مع بلال وصهيب وعمار وخباب في ناس من ضعفاء المؤمنين، فلمَّا رأوهم حوله حقَّروهم، فأتوه فقالوا: يا رسول الله، لو جلست في صدر المجلس ونفيت عنَّا هؤلاء وأرواح جبابهم ـ وكان عليهم جباب صوف لم يكن عليهم غيرها ـ لجالسناك وأخذنا عنك، فقال النبي ﷺ لهم: «ما أنا بطاردِ المؤمنين» قالوا: فإنا نحب أن تجعل لنا منك مجلسًا تعرف به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنَّا، فإذا فرغنا فاقعدْ معهم إن شئت، قال: نعم، قالوا: اكتب لنا عليك بذلك كتابًا، قال: فدعا بالصحيفة ودعا عليًّا ليكتب، قالوا: ونحن قعود في ناحية، إذْ نزل جبريل بقوله: «﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾» إلى قوله: «﴿بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾» فألقى رسول الله ﷺ الصحيفة من يده، ثم دعانا فأتيناه، وهو يقول: «﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ﴾»، فكنَّا نقعد معه فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ﴾»[الكهف: ٢٨]، فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا بعد وندنو منه حتى كادت ركبنا تمسّ ركبته، فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم، وقال لنا: «الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي، معكم المحيا ومعكم الممات»(١).

---

(١) أخرجه الطبري: (١١/ ٣٧٦ـ ٣٧٧)، وابن أبي شيبة في «المصنف»: (١٢/ ٢٠٧)، وابن ماجه في الزهد برقم٤١٢٧: (٢/ ٣٨٢ـ ٣٨٣)، قال في «الزوائد»: إسناده صحيح، ورجاله ثقات، وقد روى مسلم والنسائي بعضه من حديث سعد. وانظر: «صحيح مسلم» فضائل الصحابة برقم٢٤١٣: (٤/ ١٨٨٧)، «تفسير النسائي»: (١/ ٤٦٩ـ ٤٧٠). =

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

وقال الكلبي: قالوا له: اجعل لنا يومًا ولهم يومًا، فقال: لا أفعل، قالوا: فاجعل المجلس واحدًا فأقبل إلينا وولِّ ظهرك عليهم؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية: «وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ».

قال مجاهد: قالت قريش: لولا بلال وابن أم عبد لبايعنا محمدًا، فأنزل الله هذه الآية: «وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ»[1]، قال ابن عباس: يعني: يعبدون ربهم بالغداة والعشي، يعني: صلاة الصبح وصلاة العصر، ويُروى عنه: أن المراد منه الصلوات الخمس، وذلك أن أناسًا من الفقراء كانوا مع النبي ﷺ، فقال ناس من الأشراف: إذا صلينا فأخر هؤلاء فليصلُّوا خلفنا، فنزلت الآية.

وقال مجاهد: صليت الصبح مع سعيد بن المسيَّب، فلما سلَّم الإمام ابتدر الناس القاص، فقال سعيد: ما أسرع الناس إلى هذا المجلس! قال مجاهد: فقلت: يتأولون قوله تعالى: «يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ» قال: أفي هذا هو؟! إنَّما / ذلك في الصلاة التي انصرفنا عنها الآن، وقال إبراهيم النخعي: يعني: يذكرون ١١٨/ب
ربَّهم، وقيل المراد منه: حقيقة الدعاء ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي: يريدون الله بطاعتهم، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يطلبون ثواب الله، فقال: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: لا تكلف أمرهم ولا يتكلفون أمرك، وقيل: ليس رزقهم عليك فتملّهم ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ ولا رزقك عليهم، قوله: «فَتَطْرُدَهُمْ» جوابٌ لقوله: «مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ»، قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ جوابٌ لقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ أحدهما جواب النفي، والآخر جواب النهي.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا﴾ أي: ابتلينا ﴿بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أراد: ابتلاء الغني بالفقير، والشريف بالوضيع، وذلك أن الشريف إذا نظر إلى الوضيع قد سبقه بالإيمان امتنع من الإسلام بسببه فكان فتنة له، فذلك قوله: ﴿لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ فقال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ فهو جواب لقولهم: «أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ»، فهو استفهام بمعنى التقرير، أي: الله أعلم بمن شكر الإسلام؛ إذ هداه الله عزَّ وجلَّ.

= وساقه ابن كثير في «التفسير»: (٢/ ١٣٦)، وقال: (هذا حديث غريب، فإن هذه الآية مكية والأقرع بن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر). وقال الزيلعي: (رواه ابن أبي شيبة، ومن طريقه رواه الطبراني في «معجمه»، وأبو نعيم في «الحلية» في ترجمة خباب، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان»، والواحدي في «أسباب النزول» عن سليمان). انظر: «تخريج أحاديث الكشاف»: (١/ ٤٣٩).

وقال ابن حجر: (أما حديث خباب؛ فمن أوله إلى: أن تقوم ـ في حديثه المذكور آنفًا ـ وأما قوله: الحمد لله . . . إلى آخره، فهو في حديث سلمان وحده). انظر: «الكافي الشاف»: ص٦١ ـ ٦٢)، وراجع: «الدر المنثور»: (٣/ ٢٧٣).

(١) عزاه السيوطي في «الدر»: (٣/ ٢٧٤) لعبد من حميد وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤)﴾

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنا أبو العباس عبد الله بن محمد بن هارون الطيسفوني، أنا أبو الحسن محمد بن أحمد الترابي، ثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن عمرو بن بسطام، ثنا أبو الحسن أحمد بن سيار القرشي، أنا مسدد، أنا جعفر بن سليمان، عن المعلى بن زياد، عن العلاء بن بشير المزني، عن أبي الصديق الناجي، عن أبي سعيد الخدري قال: جلستُ في نفرٍ من ضعفاء المهاجرين وإنَّ بعضهم ليستتر ببعض من العُري، وقارئٌ يقرأ علينا، إذ جاء رسولُ الله ﷺ، فقام علينا، فلمَّا قام رسول الله ﷺ سكت القارىء، فسلم رسول الله ﷺ وقال: «ما كنتم تصنعون»؟ قلنا: يا رسول الله، كان قارئٌ يقرأ علينا فكنَّا نستمع إلى كتاب الله تعالى، فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله الذي جعل من أُمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم»، قال: ثم جلس وسطنا ليعدل نفسه فينا ثم قال بيده هكذا فَتَحَلَّقوا، وبرزت وجوههم له، قال: فما رأيت رسول الله ﷺ عرف منهم أحدًا غيري، فقال رسول الله ﷺ: «أبشرُوا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنُّور التَّامِّ يومَ القيامةِ تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذلك مقدار خمسمائة سنة»[(١)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ قال عكرمة: نزلت في الذين نهى الله عزَّ وجلَّ نبيَّه عن طردهم، وكان النبي ﷺ إذا رآهم بدأهم بالسلام[(٢)].

وقال عطاء: نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبلال وسالم وأبي عُبيدة ومُصعب بن عُمير وحمزة وجعفر وعثمان بن مظعون وعمار بن ياسر والأرقم بن أبي الأرقم وأبي سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنهم أجمعين.

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي: قضى على نفسه الرحمة ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ قال مجاهد: لا يعلم حلالاً من حرام فمن جهالته ركب الذنب، وقيل: جاهل بما يورثه ذلك الذنب، وقيل: جهالته من حيث إنَّه آثر المعصية على الطاعة والعاجل على الآجل الكثير ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ رجع عن ذنبه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عمله، وقيل: أخلص توبته ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤)﴾ قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب «أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ...» «فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» بفتح الألف فيهما بدلاً من الرحمة، أي: كتب على نفسه أنه من عمل

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب العلم، باب في القصص: (٥/ ٢٥٥)، قال المنذري: (وفي إسناده المعلى بن زياد أبو الحسن، وفيه مقال)، وأخرجه أحمد: (٣/ ٦٣، ٩٦) عن أبي سعيد الخدري، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ١٩١)، وله شاهد عند الترمذي في الزهد، وابن ماجه وابن حبان، فيتقوى به.

(٢) انظر: الطبري: (١١/ ٣٨٠)، «أسباب النزول»: ص٢٥٢.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾

منكم، ثم جعل الثانية بدلاً عن الأولى، كقوله تعالى: «أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ»[المؤمنون: ٣٥]، وفتح أهل المدينة الأولى منهما وكسروا الثانية على الاستئناف، وكسرهما الآخرون على الاستئناف.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي: وهكذا، وقيل: معناه: وكما فصلنا لك في هذه السورة دلائلنا وإعلامنا على المشركين كذلك نفصل الآيات، أي: نميّز ونبيّن لك حجتنا في كل حق ينكره أهل الباطل ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: طريق المجرمين، وقرأ أهل المدينة «وَلِتَسْتَبِينَ» بالتاء، «سبيلَ» نصب على خطاب النبي ﷺ، أي: ولتعرف يا محمد سبيل المجرمين، يقال: استبنتُ الشيءَ وتبيَّنته إذا عرفته، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر «وليستبين» بالياء «سبيلُ» بالرفع، وقرأ الآخرون «وَلِتَسْتَبِينَ» بالتاء، «سَبِيلُ» رفع، أي: ليظهر ويتضح، والسبيل يُذكَّر ويُؤنَّث، فدليل التذكير قوله تعالى: «وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا»[الأعراف: ١٤٦]، ودليل التأنيث قوله تعالى: «لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا»[آل عمران: ٩٩].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ في عبادة الأوثان وطرد الفقراء ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ يعني: إنْ فعلتُ ذلك فقد تركتُ سبيل الحق وسلكتُ غير طريق الهدى.

﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ أي: على بيان وبصيرة وبرهان ﴿مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ أي: ما جئت به ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ قيل: أراد به: استعجالهم العذاب، كانوا يقولون: «إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً . . .» الآية[الأنفال: ٣٢]، قيل: أراد به القيامة، قال الله تعالى: «يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا»[الشورى: ١٨]، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ قرأ أهل الحجاز وعاصم «يَقُصُّ» بضم القاف والصاد مشددًا، أي: يقول الحق؛ لأنه في جميع المصاحف بغير ياء؛ ولأنه قال الحق ولم يقل بالحق، وقرأ الآخرون «يقضي» بسكون القاف والضاد مكسورة، من قضيت، أي: يحكم بالحق، بدليل أنه قال: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾ والفصل يكون في القضاء، وإنما حذفوا الياء لاستثقال الألف واللام، كقوله تعالى: «صال الجحيم» ونحوها، ولم يقلْ بالحقِّ؛ لأن الحق صفة المصدر، كأنه قال: يقضي القضاء الحق.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى﴾ وبيدي ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ من العذاب ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ﴾ أي: فرغ من العذاب وأهلكتم(1)، أي: لعجلته حتى أتخلّص منكم ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ مفاتح الغيب: خزائنه، جمع مفتح.

واختلفوا في مفاتح الغيب، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي، أنا أبو الحسن الطيسفوني، أنا عبد الله بن عمر الجوهري، أنا أحمد بن علي الكشميهني، أنا علي بن حجر، أنا إسماعيل بن جعفر، أنا عبد الله بن دينار أنه سمع ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «مفاتحُ الغيب خمسٌ لا يعلمها إلاَّ الله، لا يعلم ما تغيض الأرحام أحدٌ إلا الله تعالى، (ولا يعلم ما في الغد إلا الله عزَّ وجلَّ)(2)، ولا يعلم متى يأتي المطرُ أحدٌ إلاَّ الله، ولا تَدْري / نفسٌ بأيِّ أرض تموت، ولا يعلمُ متَى تقومُ الساعة أحدٌ إلاَّ الله»(3)، 1/119

وكما قال الله تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ» [لقمان: 34].

وقال الضحاك ومقاتل: مفاتح الغيب: خزائن الأرض، وعلم نزول العذاب.

وقال عطاء: ما غاب عنكم من الثواب والعقاب.

وقيل: انقضاء الآجال، وقيل: أحوال العباد من السعادة والشقاوة وخواتيم أعمالهم، وقيل: هي ما لم يكن بعد؛ أنه يكون أم لا يكون، وما يكون كيف يكون، وما لا يكون أن لو كان كيف يكون؟ وقال ابن مسعود: «أوتي نبيُّكم عِلْمَ كلِّ شيء إلا علم مفاتيح الغيب»(4).

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ﴾ قال مجاهد: البَرُّ: المفاوز والقفار، والبحر: القرى والأمصار، لا يحدث

---

(1) في «ب»: (وهلكتم).

(2) ساقط من «ب».

(3) أخرجه البخاري في الاستسقاء، باب لا يدري متى يجيء المطر إلا الله: (2/ 524)، وفي التوحيد وفي التفسير، وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (4/ 422).

(4) أخرجه الطبري: (11/ 401)، والإمام أحمد: (1/ 386، 438، 445)، وقال الهيثمي: (رواه أحمد وأبو يعلى، ورجالهما رجال الصحيح). «مجمع الزوائد»: (8/ 263).

وانظر: «فتح الباري»: (1/ 124)، و(8/ 291)، «عالم الغيب والشهادة» تأليف عثمان جمعة ضميرية: ص 80 ـ 81.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾

فيهما شيء إلاَّ يعلمه، وقيل: هو البر والبحر المعروف ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ يريد: ساقطة وثابتة، يعني: يعلم عدد ما يسقط من ورق الشجر وما يبقى عليه، وقيل: يعلم كم انقلبت[1] ظهرًا لبطن إلى أن سقطت[2] على الأرض ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ قيل: هو الحب المعروف في بطون الأرض، وقيل: هو تحت الصخرة في أسفل الأرضين ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الرطب الماء، واليابس البادية، وقال عطاء: يريد ما ينبت وما لا ينبت، وقيل: ولا حَيٍّ ولا ميت، وقيل: هو عبارة عن كل شيء ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ يعني: أن الكل مكتوب في اللوح المحفوظ.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ أي: يقبض أرواحكم إذا نمتم بالليل ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم﴾ كسبتم ﴿بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي: يوقظكم في النهار ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ يعني: أجل الحياة إلى الممات، يريد استيفاء العمر على التمام ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ في الآخرة ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم﴾ يخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ يعني: الملائكة الذين يحفظون أعمال بني آدم، وهو جمع حافظ، نظيره: «وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ»[الانفطار: ١٠-١١] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ﴾ قرأ حمزة «توفيه» و«استهويه» بالياء وأمالهما ﴿رُسُلُنَا﴾ يعني: أعوان مَلَك الموت يقبضونه فيدفعونه إلى ملك الموت فيقبض روحه، كما قال: «قل يتوفاكم ملك الموت»، وقيل: الأعوان يتوفونه بأمر ملك الموت، فكأن ملك الموت توفاه؛ لأنهم يصدرون عن أمره، وقيل: أراد بالرسل ملك الموت وحده، فذكر الواحد بلفظ الجمع، وجاء في الأخبار: أن الله تعالى جعل الدنيا بين يدي ملك الموت كالمائدة الصغيرة فيقبض من هاهنا ومن هاهنا فإذا كثرت الأرواح يدعو الأرواح فتجيب له ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: لا يقصِّرون.

﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ يعني: الملائكة، وقيل: يعني: العباد يُرَدُّون بالموت إلى الله مولاهم الحق، فإن قيل: الآية في المؤمنين والكفار جميعًا، وقد قال في آية أخرى: «ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ»[محمد: ١١]، فكيف وجه الجمع؟ فقيل: المولى في تلك الآية بمعنى الناصر ولا ناصر للكفار،

---

(١) في «أ»: (انقلب). (٢) في «ب»: (سقط).

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾

والمولى هاهنا بمعنى الملك الذي يتولى أمرهم، والله عزَّ وجلَّ مالك الكل ومتولي الأمور، وقيل: أراد هنا المؤمنين خاصة يردون إلى مولاهم، والكفار فيه تبع ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: القضاء دون خلقه ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ أي: إذا حاسب فحسابه سريع؛ لأنه لا يحتاج إلى فكرة وروية وعقد يد.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم﴾ قرأ يعقوب بالتخفيف، وقرأ العامة بالتشديد ﴿مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: من شدائدهما وأهوالهما، كانوا إذا سافروا في البر والبحر فضلُّوا الطريق وخافوا الهلاك، دَعَوُا اللهَ مخلصين له الدين فينجيهم، فذلك قوله تعالى: ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي: علانية وسرًّا، قرأ أبو بكر عن عاصم «وخِفْيَةً» بكسر الخاء هاهنا وفي الأعراف، وقرأ الآخرون بضمها وهما لغتان ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾ أي: يقولون لئن أنجيتنا، وقرأ أهل الكوفة: لئن أنجانا الله ﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ يعني: من هذه الظلمات ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾ والشكر: هو معرفة النعمة مع القيام بحقها.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا﴾ قرأ أهل الكوفة وأبو جعفر «يُنَجِّيكُم» بالتشديد، مثل قوله تعالى: ﴿قل مَنْ يُنجيكم﴾ وقرأ الآخرون هذا بالتخفيف ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ والكرب: غاية الغم الذي يأخذ بالنفس ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ يريد: أنهم يقرون أنَّ الذي يدعونه عند الشدة هو الذي ينجيهم، ثم تُشركون معه الأصنام التي قد علموا أنها لا تضرّ ولا تنفع.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال الحسن وقتادة: نزلت الآية في أهل الإيمان، وقال قوم: نزلت في المشركين.

قوله: ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ يعني: الصيحة والحجارة والريح والطوفان، كما فعل بعاد وثمود وقوم شعيب وقوم لوط وقوم نوح ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ يعني: الرجفة والخسف كما فعل بقوم شعيب وقارون.

وعن ابن عباس ومجاهد: «عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ» السلاطين الظلمة، ومن تحت أرجلكم: العبيد السوء، وقال الضحاك: «مِّن فَوْقِكُمْ» من قبل كباركم، «أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ»، أي: من أسفل منكم ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ أي: يخلطكم فرقًا، ويبث فيكم الأهواء المختلفة ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ يعني: السيوف المختلفة، يقتل بعضكم بعضًا.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، أنا أبو النعمان، أنا حماد بن زيد بن عمرو بن دينار، عن جابر قال: لمّا نزلت هذه الآية ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: «أعوذُ بوجهك»، قال: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قال: «أعوذ بوجهك»، قال: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾، قال رسول الله ﷺ: «هذا أهون أو هذا أيسر»[(١)].

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أنا أبو جعفر محمد بن علي دحيم الشيباني، أخبرنا أحمد بن حازم بن أبي غرزة، أنا يعلى بن عبيد الطنافسي، أنا عثمان بن حكيم، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية فدخل فصلى ركعتين وصلينا معه فناجى ربه طويلًا ثم قال: سألتُ ربّي ثلاثًا: سألته أن لا يُهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألتُه أن لا يُهلك أُمتي بالسَّنَةِ فأعطانيها، وسألته أن لا يجعلَ بأسهم بينهم، فَمَنَعَنِيهَا»[(٢)].

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنا السيد أبو الحسن محمد بن الحسين بن داود العلوي، أنا أبو بكر محمد بن أحمد بن دلوية الدقاق، ثنا محمد بن إسماعيل البخاري، ثنا إسماعيل بن أبي أويس، حدثني أخي، عن سليمان بن بلال، عن عبيد الله بن عمر، عن عبد الله بن عبد الرحمن الأنصاري أن عبد الله بن عمر جاءهم ثم قال: «إن النبي ﷺ دعا في المسجد فسأل الله ثلاثًا فأعطاه اثنتين ومنعه واحدة: سأله أن لا يُسلِّط على أُمته عدوًا من غيرهم يظهر عليهم فأعطاه ذلك، وسأله أن لا يُهلكهم بالسنين فأعطاه ذلك، / وسأله أن لا يجعل بأسَ بعضهم على بعض فمنعه ذلك»[(٣)]. ١١٩/ب

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ أي: بالقرآن، وقيل: بالعذاب ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾ برقيب، وقيل: بمسلَّطٍ ألزمكم الإسلام شِئتُمْ أو أبيتم، إنَّما أنا رسول.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، سورة الأنعام، باب ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ...﴾: (٨/ ٢٩١)، وفي الاعتصام والتوحيد، وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٢١٧).

(٢) أخرجه مسلم عن عثمان بن حكيم، في الفتن، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض برقم ٢٨٩٠: (٤/ ٢٢١٦)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٢١٤_٢١٥).

(٣) أخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٢١٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، ورُوي عن خباب بن الأرت كذلك. قلت: أما حديث خباب فقد أخرجه الترمذي في الفتن، باب سؤال النبي ﷺ ثلاثًا في أمته: (٦/ ٣٩٧_٣٩٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾ خبر من أخبار القرون ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾ حقيقة ومنتهى ينتهي إليه فيتبيَّن صدقه من كذبه وحقه من باطله، إما في الدنيا وإمَّا في الآخرة ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

وقال مقاتل: لكل خبر يخبره الله وقت وقَّته[١] ومكان يقع فيه من غير خلف ولا تأخير.

وقال الكلبي: لكلٍّ[٢] قولٍ وفعلٍ حقيقة، إمَّا في الدنيا وإمَّا في الآخرة، «وسوف تعلمون» ما كان في الدنيا فستعرفونه، وما كان في الآخرة فسوف يبدو لكم.

قوله عزَّ وجل: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ يعني: في القرآن بالاستهزاء ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فاتركهم (ولا تجالسهم)[٣]، ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ﴾ قرأ ابن عامر بفتح النون وتشديد السين، وقرأ الآخرون بسكون النون وتخفيف السين ﴿الشَّيْطَانُ﴾ نهيًا ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ يعني: إذا جلست معهم ناسيًا فقم من عندهم بعد ما تذكرت.

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ رُوي عن ابن عباس أنه قال: لمَّا نزلت هذه الآية: «وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ» قال المسلمون: كيف نقعد في المسجد الحرام ونطوف بالبيت وهم يخوضون أبدًا؟ وفي رواية: قال المسلمون: فإنا نخاف الإثم حين نتركهم ولا ننهاهم، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الخوض ﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾ أي: من آثام الخائضين ﴿مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَى﴾ أي: ذكِّروهم وعِظُوهم بالقرآن، والذكر والذكرى واحد، يريد: ذكروهم ذكرى، فتكون في محل نصب ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾ الخوض إذا وعظتموهم، فرخَّصَ في مجالستهم على الوعظ لعلَّه يمنعهم ذلك من الخوض.

وقيل: لعلَّهم يستحيون.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) ساقط من «أ».

(٣) في «أ»: (ولا تجادلهم).

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ يعني: الكفار الذين إذا سمعوا آيات الله استهزؤوا بها وتلاعبوا عند ذكرها، وقيل: إن الله تعالى جعل لكل قوم عيدًا فاتخذ كل قوم دينهم ـ أي: عيدهم ـ لعبًا ولهوًا، وعيد المسلمين الصلاةُ والتكبير وفعل الخيرات، مثل: الجمعة والفطر والنحر ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ﴾ أي: و عِظْ بالقرآن ﴿أَنْ تُبْسَلَ﴾ أي: لأن لا تبسل، أي: لا تسلَّم ﴿نَفْسٌ﴾ للهلاك ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ ـ قاله مجاهد وعكرمة والسدي، وقال ابن عباس: تهلك، وقال قتادة: أن تحبس، وقال الضحاك: تحرق، وقال ابن زيد: تؤخذ، ومعناه: ذكّرهم ليؤمنوا، كيلا تهلك نفس بما كسب، قال الأخفش: تبسل: تُجازى، وقيل: تفضح، وقال الفرّاء: ترتهن، وأصل الإبسال: التحريم، والبَسْلُ: الحرام، ثم جعل نعتًا لكل شدة تُتقى وتُترك ﴿لَيْسَ لَهَا﴾ أي: لتلك النفس ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ﴾ قريب ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يشفع لها في الآخرة ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ أي: تَفْدِ كلَّ فداء ﴿لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا﴾ أُسلِمُوا للهلاك ﴿بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا﴾ إن عبدناه ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾ إن تركناه، يعني: الأصنام ليس إليها نفع ولا ضر ﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا﴾ إلى الشرك مرتدِّين[1] ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يكون مَثَلُنا كمثل الذي استهوته الشياطين، أي: أضلَّته ﴿حَيْرَانَ﴾ قال ابن عباس: كالذي استهوته الغيلان في المهامه فأضلُّوه فهو حائر بائر، والحيران: المتردِّد في الأمر، لا يهتدي إلى مخرج منه ﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا﴾ هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لمن يدعو إلى الآلهة ولمن يدعو إلى الله تعالى،

---

(١) في «ب»: (مترذين).

وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَٰلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

كمثل رجل في رفقة ضلَّ به الغُول عن الطريق يدعوه أصحابه من أهل الرفقة هلمَّ إلى الطريق، ويدعوه الغول هلمَّ[1]، فيبقى حيران لا يدري أين يذهب، فإن أجاب الغول انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة، وإن أجاب من يدعوه إلى الطريق اهتدى[2].

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ يزجر عن عبادة الأصنام، كأنه يقول: لا تفعل ذلك، فإن الهدى هدى الله لا هدى غيره ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ﴾ أي: أن نُسلم ﴿لِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ والعرب تقول: أمرتك لتفعل وأن تفعل وبأن تفعل.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّقُوهُ﴾ أي: وأُمرنا بإقامة الصلاة والتقوى ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أي: تجمعون في الموقف للحساب.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ قيل: الباء بمعنى اللام، أي: إظهارًا للحق؛ لأنه جعل صنعه دليلًا على وحدانيته ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ قيل: هو راجع إلى خلق السمواتِ والأرض والخلق، بمعنى: القضاء والتقدير، أي: كل شيء قضاه وقدَّره قال له: كن، فيكون.

وقيل: يرجع إلى القيامة، يدل على سرعة أمر البعث والساعة، كأنه قال: ويوم يقول للخلق: موتوا فيموتون، وقوموا فيقومون ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ أي: الصدق الواقع لا محالة، يريد: أن ما وعده حق كائن ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ يعني: مُلْكُ الملوك يومئذ زائل، كقوله: «مَٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ»[الفاتحة: ٤]، وكما قال: «وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ»[الانفطار: ١٩]، والأمر له في كل وقت، ولكن لا أمر في ذلك اليوم لأحد مع أمر الله، و«الصُّور»: قرنٌ يُنفخ فيه، قال مجاهد: كهيئة البوق، وقيل: هو بلغة أهل اليمن، وقال أبو عبيدة: «الصور» هو الصُّوَر وهو جمع الصُّورة، وهو قول الحسن، والأول أصح.

والدليل عليه ما أخبرنا محمد بن عبد الله (بن أبي توبة، أنا أبو طاهر المحاربي، أنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنا عبد الله)[3] بن محمود، أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، أنا عبد الله بن المبارك، عن سليمان

---

(١) زيادة من «ب».

(٢) انظر: «تفسير الطبري»: (١١/ ٤٥٢).

(٣) ساقط من «أ».

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾

التيمي، عن أسلم، عن بشر بن شَغَاف، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: «قَرْنٌ يُنفخُ فيه»(١).

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي، أنا أبو عبد الله بن محمد بن عبد الله الصفار، أنا أحمد بن محمد بن عيسى البرتي، أنا أبو حذيفة، أنا سفيان، عن الأعمش، عن عطية بن سعد العوفي، عن أبي سعيد الخدري أنَّ النبي ﷺ قال: «كيف أنْعَمُ وصاحبُ الصُّورِ قد التَقَمَهُ، وأصْغَى سمعَهُ وحنَى جبهتَهُ ينتظرُ متى يُؤمر»؟ فقالوا: يا رسول الله، وما تأمرنا؟ قال: «قولُوا: حسبنا اللهُ ونِعْمَ الوكيل»(٢).

وقال أبو العلاء عن عطية: متى يؤمر بالنفخ فينفخ.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ يعلم ما غاب عن العباد وما يشاهدونه، لا يغيب عن علمه شيء ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ قرأ يعقوب «ءَازَرُ» بالرفع، يعني: «آزرُ» والقراءة المعروفة بالنصب، وهو اسم أعجمي لا ينصرف، فينتصب في موضع الخفض.

قال محمد بن إسحاق والضحاك والكلبي: «آزر» اسم أبي إبراهيم، وهو تارخ أيضًا، مثل: إسرائيل ويعقوب، وكان من كوثى(٣): قرية من سواد الكوفة، وقال مقاتل بن حيان وغيره: «آزر» لقب لأبي إبراهيم، واسمه: تارخ. /

١/١٢٠

---

(١) أخرجه الترمذي في القيامة، باب ما جاء في الصور: (٧/ ١١٧)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وقد رواه غير واحد عن سليمان التيمي، ولا نعرفه إلا من حديثه، وأخرجه ـ أيضًا ـ في التفسير: (٩/ ١١٦).
وأخرجه الدارمي في الرقاق، باب في نفخ الصور: (٢/ ٣٢٥)، وصححه الحاكم: (٢/ ٥٠٦)، و(٤/ ٥٦٠) ووافقه الذهبي، وابن حبان: ص٦٤٧ من «موارد الظمآن»، والإمام أحمد في «المسند»: (٢/ ١٦٢، ١٩٢).

(٢) حديث صحيح أخرجه الترمذي في صفة القيامة، باب ما جاء في الصور: (٧/ ١١٧ ـ ١١٨)، وقال: هذا حديث حسن، وقد رُوي من غير هذا الوجه عن عطية عن أبي سعيد عن النبي ﷺ نحوه، وأخرجه في تفسير سورة الزمر: (٩/ ١١٦)، وصححه الحاكم من حديث ابن عباس: (٤/ ٥٥٩)، وابن حبان: ص٦٣٧، وأخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٤/ ٣٧٤) من حديث زيد بن أرقم.
قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: (وأخرجه الطبراني من حديث زيد بن أرقم، وابن مردويه من حديث أبي هريرة، وأحمد والبيهقي من حديث ابن عباس . . . وفي أسانيد كل منها مقال)، وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ١٠٣)، وقال: هذا حديث حسن.

(٣) بالضم ثم السكون، والثاء المثلثة، وألف مقصورة، تكتب بالياء لأنها رابعة الاسم. انظر: «معجم البلدان»: (٤٠/ ٤٨٧).

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾

وقال سليمان التيمي: هو سبّ وعيب، ومعناه في كلامهم: المعوج، وقيل: معناه: الشيخ الهِمُّ بالفارسية.

وقال سعيد بن المسيَّب ومجاهد: «آزر» اسم صنم، فعلى هذا يكون في محل النصب تقديره: ﴿أَتَتَّخِذُ﴾ آزر إلهًا، قوله: ﴿أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ دون الله ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: كما أريناه البصيرة في دينه، والحق في خلاف قومه، نريه ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والملكوت: الملك، زيدت فيه التاء للمبالغة، كالجبروت والرحموت والرهبوت، قال ابن عباس: يعني: خلق السموات والأرض، وقال مجاهد وسعيد بن جبير: يعني: آيات السموات والأرض، وذلك أنه أقيم على صخر وكشف له عن السموات والأرض حتى العرش وأسفل الأرضين ونظر إلى مكانه في الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾[العنكبوت: ٢٧]، يعني: أريناه مكانه في الجنة.

ورُوي عن سلمان ـ رضي الله عنه ـ ورفعه بعضهم (عن علي ـ رضي الله عنه ـ)[1]: لمَّا أُري إبراهيم ملكوت السموات والأرض أبصر رجلًا على فاحشة فدعا عليه فهلك، ثم أبصر آخر فَدعا عليه فهلك، ثم أبصر آخر فأراد أن يدعو عليه فقال له الربُّ عزَّ وجلَّ: «يا إبراهيم إنك رجل مستجاب الدعوة، فلا تدعونَّ على عبادي، فإنما أنا من عبدي على ثلاث خلال: إمَّا أن يتوبَ فأتوب عليه، وإمَّا أن أخرج منه نسمة تعبدني، وإمَّا أن يبعث إليَّ فإن شئتُ عفوت عنه، وإن شئتُ عاقبتُه»، وفي رواية: «وإمَّا أن يتولى فإن جهنم من ورائه»[2].

وقال قتادة: ملكوت السموات: الشمس والقمر والنجوم، وملكوت الأرض: الجبال والشجر والبحار.

﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ عطف على المعنى، ومعناه: نريه ملكوت السموات والأرض، ليستدل به وليكون من الموقنين.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا...﴾ الآية، قال أهل التفسير: وُلد إبراهيم عليه السلام في زمن نمرود بن كنعان، وكان نمرود أول من وضع التاج على رأسه، ودعا الناسَ إلى عبادته، وكان له كُهَّان ومُنَجِّمون، فقالوا له: إنه يولد في بلدك هذه السنة غلامٌ يغيِّر دين أهل الأرض، ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه، يقال: إنهم وجدوا ذلك في كتب الأنبياء عليهم السلام.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) قال السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٣٠٢): (أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن شهر بن حوشب، وشهر: صدوق كثير الأوهام).

وقال السدي: رأى نمرود في منامه كأن كوكبًا طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء، ففزع من ذلك فزعًا شديدًا، فدعا السحرة والكهنة فسألهم عن ذلك، فقالوا: هو مولود يُولد في ناحيتك في هذه السنة، فيكون هلاكك وهلاك مُلْكك وأهل بيتك على يديه، قالوا: فأمر بذبح كل غلام يولد في ناحيته في تلك السنة، وأمر بعزل الرجال عن النساء، وجعل على كل عشرة رجال رجلًا فإذا حاضت المرأة خلَّى بينها وبين زوجها؛ لأنهم كانوا لا يجامعون في الحيض، فإذا طهرت حال بينهما، فرجع آزر فوجد امرأته قد طهرت من الحيض فواقعها، فحملت بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ (١).

وقال محمد بن إسحاق: بعث نمرود إلى كل امرأة حُبلى بقرية، فحبسها عنده إلاَّ ما كان من أُم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنه لم يعلم بحبلها؛ لأنها كانت جارية حديثة السن، لم يعرف الحبل في بطنها.

وقال السدي: خرج نمرود بالرجال إلى المعسكر، ونحاهم عن النساء؛ تخوفًا من ذلك المولود أن يكون، فمكث بذلك ما شاء الله ثم بدت له حاجة إلى المدينة، فلم يأمن عليها أحدًا من قومه إلاَّ آزر، فبعث إليه ودعاه وقال له: إنَّ لي حاجة أحببت أن أوصيك بها ولا أبعثك إلا لثقتي بك، فأقسمت عليك أن لا تدنو من أهلك، فقال آزر: أنا أشح على ديني من ذلك، فأوصاه بحاجته، فدخل المدينة وقضى حاجته، ثم قال: لو دخلت على أهلي فنظرت إليهم، فلمَّا نظر إلى أم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يتمالك حتى واقعها، فحملت بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لمَّا حملت أم إبراهيم قال الكهان لنمرود: إن الغلام الذي أخبرناك به قد حملته أمُّه الليلة، فأمر نمرود بذبح الغلمان، فلمَّا دنت ولادة أم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وأخذها المخاض خرجت هاربة؛ مخافة أن يطلع عليها فيقتل ولدها، فوضعته في نهر يابس ثم لفته في خرقة ووضعته في حَلْفَاء، فرجعت فأخبرت زوجها بأنها ولدت، وأن الولد في موضع كذا فانطلق أبوه فأخذه من ذلك المكان وحفر له سربًا عند نهر، فواراه فيه وسدَّ عليه بابه بصخرة مخافة السباع، وكانت أمه تختلف إليه فترضعه.

وقال محمد بن إسحاق: لمَّا وجدتْ أم إبراهيم الطلق خرجت ليلًا إلى مغارة كانت قريبة منها فولدت فيها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وأصلحت من شأنه ما يصنع بالمولود، ثم سدَّت عليه المغارة ورجعت إلى بيتها ثم كانت تطالعه لتنظر ما فعل فتجده حيًا يمص إبهامه.

قال أبو روق: وقالت أمُّ إبراهيم ذات يوم: لأنظرنَّ إلى أصابعه، فوجدته يمص من أصبع ماءً، ومن أصبع لبنًا، ومن أصبع عسلًا، ومن أصبع تمرًا، ومن أصبع سمنًا.

---

(١) انظر: «الدر المنثور»: (٣/ ٣٠٤).

ونذكر هنا مرة أخرى: أن هذه التفصيلات التي ساقها المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ لم يرد فيها نص صحيح يجب المصير إليه، ولا يتوقف فهم الآيات على هذه الروايات والأخبار.

وقال محمد بن إسحاق: كان آزر قد سأل أمَّ إبراهيم عن حملها ما فعل؟ فقالت: ولدتُ غلامًا فمات، فصدقها فسكت عنها، وكان اليوم على إبراهيم في الشباب كالشهر والشهر كالسنة فلم يمكث إبراهيم في المغارة إلا خمسة عشر شهرًا حتى قال لأمه: أخرجيني، فأخرجته عِشاءً، فنظرَ وتفكَّر في خلق السمواتِ والأرض، وقال: إن الذي خلقني ورزقني وأطعمني وسقاني لَرَبِّي الذي ما لي إله غيره، ثم نظر إلى السماء فرأى كوكبًا فقال: هذا ربي، ثم أتبعه بصره لينظر إليه حتى غاب، فلما أفل قال: لا أحب الآفلين، ثم رأى القمر بازغًا قال: هذا ربي، وأتبعه ببصره حتى غاب، ثم طلعت الشمس هكذا إلى آخره، ثم رجع إلى أبيه آزر وقد استقامت وجهته وعرف ربه وبرىء من دين قومه إلا أنه لم ينادهم بذلك، فأخبره أنه ابنه وأخبرته أُم إبراهيم أنه ابنه، وأخبرته بما كانت صنعت في شأنه فَسُرَّ آزر بذلك وفرح فرحًا شديدًا.

وقيل: إنه كان في السرب سبع سنين، وقيل: ثلاث عشرة سنة، وقيل: سبعَ عشرة سنة، قالوا: فلما شبَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو في السرب قال لأمه: مَنْ ربي؟ قالت: أنا، قال: فمنْ ربُّكِ؟ قالت: أبوك، قال: فمن رب أبي؟ قالت: النمرود، قال: فمنْ ربُّه؟ قالت له: اسكت فسكت، ثم رجعت إلى زوجها فقالت: أرأيت الغلام الذي كنَّا نحدث أنه يغيرِّ دين أهل الأرض فإنه ابنك، ثم أخبرته بما قال، فأتاه أبوه آزر، فقال له إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا أبتاه مَنْ ربي؟ قال: أمُّك، قال: فمن ربُّ أمي؟ قال: أنا، قال: فمن ربُّك؟ قال: نمرود، قال: فمن رب نمرود؟ فلطمه لطمة وقال له: اسكت، فلما جنَّ عليه الليل دنا من باب السرب فنظر من خلال الصخرة فأبصر كوكبًا، قال: هذا ربي.

ويقال: إنه قال لأبويه: أخرجاني، فأخرجاه من السرب وانطلقا به حين غابت الشمس، فنظر إبراهيم
١٢٠/ب إلى الإبل والخيل والغنم، فسأل أباه ما هذه؟ فقال: إبل / وخيل وغنم، فقال: ما لهذه بدٌّ من أن يكون لها ربٌّ وخالق، ثم نظر فإذا المشتري قد طلع، ويقال: الزهرة، وكانت تلك الليلة في آخر الشهر فتأخر طلوع القمر فيها، فرأى الكوكب قبل القمر، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ أي: دخل، يقال: جنَّ الليل وأجنَّ الليل، وجنَّه الليل، وأجن عليه الليل يجنّ جُنُونًا وجَنَانًا إذا أظلم وغطى كل شيء، وجُنُونُ الليل سواده ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾ قرأ أبو عمرو «رَإي» بفتح الراء وكسر الألف، ويكسرهما ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر، فإن اتصل بكاف أو هاء فتحهما ابن عامر، وإن لقيها ساكن كسر الراء، وفتح الهمزة حمزة وأبو بكر، وفتحهما الآخرون ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾.

واختلفوا في قوله ذلك: فأجراه بعضهم على الظاهر، وقالوا: كان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مسترشدًا طالبًا للتوحيد حتى وفقه الله تعالى وآتاه رشده فلم يضرّه ذلك في حال الاستدلال، وأيضًا كان ذلك في حال طفولته قبل قيام الحجة عليه، فلم يكن كفرًا[1].

(١) رجح هذا القول الطبري. وهو غير صحيح، فالراجح هو أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان مناظرًا لقومه في هذا. انظر: «ابن كثير»: (٢/ ١٥٢).

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾

وأنكر الآخرون هذا القول، وقالوا: لا يجوز أن يكون لله رسول يأتي عليه وقتٌ من الأوقات إلاَّ وهو لله موحِّدٌ وبه عارف، ومن كل معبود سواه بريء، وكيف يتوهم هذا على من عصمه الله وطهَّره وآتاه رشده من قبل وأخبر عنه فقال: «إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ»[الصافات: ٨٤]، وقال: «وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ»، أفتراه أراه الملكوت ليوقن فلما أيقن رأى كوكبًا قال: هذا ربي معتقدًا؟ فهذا ما لا يكون أبدًا.

ثم قالوا: فيه أربعة أوجه من التأويل:

أحدها: أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أراد أن يستدرج القوم بهذا القول ويعرفهم خطأهم وجهلهم في تعظيم ما عظَّموه، وكانوا يعظمون النجوم ويعبدونها، ويرون أن الأمور كلها إليها، فأراهم أنه مُعظِّم ما عظموه ومُلتمس الهدى من حيث ما التمسوه، فلما أفل أراهم النقص الداخل على النجوم ليثبت خطأ ما يدَّعون، ومثل هذا مثل الحواريّ الذي ورد على قوم يعبدون الصنم، فأظهر تعظيمه فأكرموه حتى صَدَروا في كثير من الأمور عن رأيه إلى أن دهمهم عدو فشاوروه في أمره، فقال: الرأي أن ندعو هذا الصنم حتى يكشف عنَّا ما قد أظلنا، فاجتمعوا حوله يتضرعون فلما تبيَّن لهم أنه لا ينفع ولا يدفع دعاهم إلى أن يدعوا الله فدعوه فصرف عنهم ما كانوا يحذرون، فأسلموا.

والوجه الثاني من التأويل: أنه قاله على وجه الاستفهام تقديره: أهذا ربي؟ كقوله تعالى: «أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ»؟[الأنبياء: ٣٤]، أي: أفهمُ الخالدون؟ وذكره على وجه التوبيخ منكرًا لفعلهم، يعني: ومثل هذا يكون ربًا، أي: ليس هذا ربي.

والوجه الثالث: أنه على وجه الاحتجاج عليهم، يقول: هذا ربي بزعمكم؟ فلمَّا غاب قال: لو كان إلهًا لَما غاب، كما قال: («ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ»[الدخان: ٤٩]، أي: عند نفسك وبزعمك، وكما أخبر عن موسى أنه قال)(١): «وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ»[طه: ٩٧]، يريد: إلهكَ بزعمك.

والوجه الرابع: فيه إضمار، وتقديره: يقولون هذا ربي، كقوله: «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ»[البقرة: ١٢٧]، أي: يقولون: ربَّنا تقبَّل منَّا ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ وما لا يدوم.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ طالعًا ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ قيل: لئن لم يثبتني على

---

(١) ما بين القوسين زيادة من «ب».

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٧٩ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٨٠﴾

الهدى، ليس أنه لم يكن مهتديًا، والأنبياء لم يزالوا يسألون الله تعالى الثبات على الإيمان، وكان إبراهيم يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[إبراهيم: ٣٥]، ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧﴾ أي: عن الهدى.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ أي: أكبر من الكوكب والقمر، ولم يقل «هذه» مع أن الشمس مؤنثة؛ لأنه أراد هذا الطالع، أو ردَّه إلى المعنى، وهو الضياء والنور؛ لأنه رآه أضوأ من النجوم والقمر ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾ غربت ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨﴾.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٧٩﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ ولما رجع إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أبيه، وصار من الشباب بحالة سقط عنه طمع الذَّبَّاحين، وضمه آزر إلى نفسه، جعل آزر يصنع الأصنام ويعطيها إبراهيم ليبيعها، فيذهب بها (إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ)[1] وينادي من يشتري ما يضره ولا ينفعه، فلا يشتريها أحد، فإذا بارت عليه ذهب بها إلى النهر فضرب[2] فيه رؤوسها، وقال: اشربي، استهزاءً بقومه، وبما هم فيه من الضلالة، حتى فشا استهزاؤُهُ بها في قومه وأهل[1] قريته، ﴿وَحَآجَّهُۥ﴾ أي: خاصمه وجادله ﴿قَوْمُهُۥ﴾ في دينه ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾ قرأ أهل المدينة وابن عامر بتخفيف النون، وقرأ الآخرون بتشديدها إدغامًا لإحدى النونين في الأخرى، ومن خفف حذف إحدى النونين تخفيفًا، يقول: أتجادلونني في توحيد الله ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ للتوحيد والحق؟! ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ وذلك أنهم قالوا له: احذر الأصنام، فإنا نخاف أن تمسَّك بسوء من خبل أو جنون لعيبك إيَّاها، فقال لهم: ولا أخاف ما تُشركون به ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا﴾ وليس هذا باستثناء عن الأول بل هو استثناء منقطع، معناه: لكن إن يشأ ربي شيئًا سوءًا، فيكون ما شاء ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: أحاط علمه بكل شيء ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٨٠﴾.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) في «ب»: (فصوّب).

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ يعني: الأصنام، وهي لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ حجة وبرهانًا، وهو القاهر القادر على كل شيء ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ﴾ أولى ﴿بِٱلْأَمْنِ﴾ أنا وأهل ديني أم أنتم؟ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

فقال الله تعالى قاضيًا بينهما: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ لم يخلطوا إيمانهم بشرك ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا إسحاق، ثنا عيسى بن يونس، أنا الأعمش، أنا إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: لمَّا نزلت: «ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ» شقَّ ذلك على المسلمين فقالوا: يا رسول الله، فأيّنا لا يظلم نفسه؟ فقال: «ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألمْ تسمعوا إلى ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: «يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ»[لقمان: ١٣]»[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ حتى خصمهم وغلبهم بالحجة، قال مجاهد: هي قوله: «ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ»، وقيل: أراد به الحِجَاج الذي حاجَّ نمرود على ما سبق في سورة البقرة[2].

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ بالعلم، قرأ أهل الكوفة ويعقوب «دَرَجَٰتٍ» هاهنا وفي سورة يوسف، أي: نرفع درجات من نشاء بالعلم والفهم والفضيلة والعقل، كما رفعنا درجات إبراهيم حتى اهتدى وحاجَّ قومه في التوحيد ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

١/١٢١ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ/ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ وفّقنا وأرشدنا ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: من

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ...﴾: (٦/ ٤٦٥).
(٢) انظر فيما سبق تفسير الآية (٢٥٨).

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝٨٥ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ۝٨٦ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٨٧ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٨٨﴾

قبل إبراهيم ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ أي: ومن ذرية نوح عليه السلام، ولم يرد من ذرية إبراهيم؛ لأنه ذكر في جملتهم يُونس ولوطًا ولم يكونا من ذرية إبراهيم ﴿دَاوُودَ﴾ يعني: داود بن أيشا ﴿وَسُلَيْمَانَ﴾ يعني: ابنه ﴿وَأَيُّوبَ﴾ وهو أيوب بن أموص بن رازح بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام ﴿وَيُوسُفَ﴾ هو يوسف ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام ﴿وَمُوسَىٰ﴾ وهو موسى بن عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوي بن يعقوب ﴿وَهَارُونَ﴾ هو أخو موسى أكبر منه بسنة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: وكما جزينا إبراهيم على توحيده بأن رفعنا درجته، ووهبنا له أولادًا أنبياء أتقياء كذلك ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝٨٤﴾ على إحسانهم، وليس ذكرهم على ترتيب أزمانهم.

﴿وَزَكَرِيَّا﴾ وهو زكريا بن اذن ﴿وَيَحْيَىٰ﴾ وهو ابنه ﴿وَعِيسَىٰ﴾ وهو ابن مريم بنت عمران ﴿وَإِلْيَاسَ﴾ اختلفوا فيه، قال ابن مسعود: هو إدريس، وله اسمان مثل: يعقوب وإسرائيل، والصحيح أنه غيره؛ لأن الله تعالى ذكره في ولد نوح، وإدريس جد أبي نوح وهو إلياس ياسين بن فنحاص بن عيزار بن هارون بن عمران ﴿كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝٨٥﴾.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ وهو ولد إبراهيم ﴿وَالْيَسَعَ﴾ وهو ابن أخطوب بن العجوز، وقرأ حمزة والكسائي «واللَّيسع» بتشديد اللام وسكون الياء هنا وفي ص ﴿وَيُونُسَ﴾ وهو يونس بن متَّى ﴿وَلُوطًا﴾ وهو لوط بن هاران ابن أخي إبراهيم ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ۝٨٦﴾ أي: عالمي زمانهم.

﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ﴾ «من» فيه للتبعيض؛ لأن آباء بعضهم كانوا مشركين ﴿وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أي: ومن ذرياتهم، وأراد به: ذرية بعضهم؛ لأن عيسى ويحيى لم يكن لهما ولد، وكان في ذرية بعضهم من كان كافرًا ﴿وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ اخترناهم واصطفيناهم ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أرشدناهم ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٨٧﴾.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ﴾ دين الله ﴿يَهْدِي بِهِ﴾ يرشد به ﴿مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾ أي: هؤلاء الذين سمَّيناهم ﴿لَحَبِطَ﴾ لبطل وذهب ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٨٨﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ٨٩ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: الكتب المنزلة عليهم ﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾ يعني: العلم والفقه ﴿وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الكفار، يعني: أهل مكة ﴿فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ٨٩﴾ يعني: الأنصار وأهل المدينة ـ قاله ابن عباس ومجاهد، وقال قتادة: فإن يكفر بها هؤلاء الكفار فقد وكّلنا بها قومًا ليسوا بها بكافرين، يعني: الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرهم هاهنا، وقال أبو رجاء العطاردي: معناه: فإن يكفر بها أهل الأرض فقد وكّلنا بها أهل السماء، وهم الملائكة، ليسوا بها بكافرين.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ أي: هداهم الله ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾ فبسنتهم وسيرتهم ﴿ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ الهاء فيها هاء الوقف، وحذف حمزة والكسائي الهاء في الوصل، والباقون بإثباتها وصلًا ووقفًا، وقرأ ابن عامر: «اقْتَدِهِ» بإشباع الهاء كسرًا ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ﴾ ما هو ﴿إِلَّا ذِكۡرَىٰ﴾ أي: تذكرة وعِظَة ﴿لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ أي: ما عظّموه حق عظمته، وقيل: ما وصفوه حق صفته ﴿إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ قال سعيد بن جبير: جاء رجل من اليهود يقال له: مالك بن الصَّيف، يخاصم النبي ﷺ بمكة، فقال له النبي ﷺ: «أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أنّ الله يبغض الحبر السمين» وكان حبرًا سمينًا فغضب، وقال: والله، ما أنزل الله على بشر من شيء[1].

---

(١) أخرجه الطبري في «التفسير»: (١١/ ٥٢١ـ٥٢٢)، والواحدي في «أسباب النزول»: ص٢٥٣، والبيهقي في «الشعب» عن كعب من قوله. ويروى عن مالك بن دينار قال: «قرأت في الحكمة: إن الله يبغض كل حبر سمين»، وعزاه السيوطي لابن المنذر وابن أبي حاتم، واختصره ابن هشام في «السيرة»: (١/ ٥٤٧)، قال في «المقاصد الحسنة»: (ما علمته في المرفوع)، نعم روى أحمد في «المسند»: (٣/ ٤٧١)، و(٤/ ٣٣٩)، والحاكم: (٤/ ١٢١ ـ ١٢٢)، وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، والبيهقي بسند جيد عن جعدة الجشمي: أنه ﷺ نظر إلى رجل سمين، فأومأ إلى بطنه، وقال: «لو كان هذا في غير هذا لكان خيرًا لك».

وعزاه المنذري في «الترغيب»: (٣/ ١٣٨) لابن أبي الدنيا والطبراني بإسناد جيد، والحاكم والبيهقي. =

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾

وقال السدي: نزلت في فنحاص بن عازوراء، وهو قائل هذه المقالة(١).

وفي القصة: أنَّ مالك بن الصَّيف لما سمعت اليهود منه تلك المقالة عتبوا عليه، وقالوا: أليس أن الله أنزل التوراة على موسى؟ فَلِمَ قلتَ ما أنزل الله على بسرٍ من شيء؟ فقال مالك بن الصَّيف: أغضبني محمد فقلتُ ذلك، فقالوا له: وأنت إذا غضبت تقول (على الله)(٢) غير الحق، فنزعوه عن الحبرية، وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قالت اليهود: يا محمد، أنزل الله عليك كتابًا؟ قال: نعم، قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتابًا، فأنزل الله: «وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ»، فقال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾(٣) يعني: التوراة ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ أي: تكتبون عنه دفاتر وكتبًا مقطعة تبدونها، أي: تُبدون ما تُحبون وتُخفون كثيرًا من نعت محمد ﷺ وآية الرجم، قرأ ابن كثير وأبو عمرو «يجعلونه»، و«يبدونها»، و«يخفونها» بالياء جميعًا، لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ وقرأ الآخرون بالتاء، لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾.

وقوله: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾ (الأكثرون على أنها خطاب لليهود، يقول: عُلِّمتم على لسان محمد ﷺ ما لم تعلموا)(٢) ﴿أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ قال الحسن: جعل لهم علم ما جاء به محمد ﷺ فضيعوه ولم ينتفعوا به.

وقال مجاهد: هذا خطاب للمسلمين يذكِّرهم النعمة فيما علَّمهم على لسان محمد ﷺ.

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ هذا راجع إلى قوله: «قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ»، فإن أجابوك وإلاَّ فقل أنت: الله، أي: قل أنزله الله ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ أي: القرآن كتاب مبارك أنزلناه ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ﴾ يا محمد، قرأ أبو بكر عن عاصم «ولينذر» بالياء، أي: ولينذر الكتاب ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ يعني: مكة، سمِّيت أمَّ القرى؛ لأن الأرض دحيت من تحتها، فهي أصل الأرض كلها كالأم أصل النسل، وأراد: أهل أم القرى

= وانظر: «تمييز الطيب من الخبيث»: ص٥٣، «كشف الخفاء»: (١/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠)، «مجمع الزوائد»: (٥/ ٣١)، «الدر المنثور»: (٣/ ٣١٤)، «سلسلة الضعيفة» للألباني: (٣/ ٢٦٥ـ٢٦٧).

(١) أخرجه الطبري في «التفسير»: (١١/ ٥٢٢)، وعزاه السيوطي لابن أبي حاتم وأبي الشيخ. «الدر المنثور»: (٣/ ٣١٤).

(٢) ساقط من «ب». (٣) أخرجه الطبري: (١١/ ٥٢٣).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: أهل الأرض كلها شرقًا وغربًا ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بالكتاب ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ يعني: الصلوات الخمس ﴿يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ يداومون، يعني: المؤمنين.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ﴾ أي: اختلق ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فزعم أن الله تعالى بعثه نبيًّا ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ قال قتادة: نزلت في مسيلمة الكذاب الحنفي، وكان يسجع ويتكهن، فادَّعى النبوة وزعم أن الله أوحى إليه، وكان قد أرسل إلى رسول الله ﷺ رسولين، فقال النبي ﷺ لهما: «أتشهدان أن مسيلمة نبي»؟ قالا: نعم، فقال النبي ﷺ: «لولا أنَّ الرسلَ لا تُقتَلُ لضربتُ أعناقكما»[1].

أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي، أنا أبو طاهر الزيادي، أنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان، أنا أحمد ابن يوسف السلمي، أنا عبد الرزاق، أنا معمر، عن همام بن منبه، أنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أنا نائم إذ أُوتِيتُ خزائن الأرض فوضع في يديَّ سواران من ذهب، فَكَبُرَا عليَّ وأهمَّاني / فأُوحِي إليَّ ١٢١/ب
أن انفخهما، فنفختُهُما فذهبا، فأوَّلتهما الكذابَيْن اللَّذين أنا بينهما: صاحبَ صنعاءَ وصاحبَ اليمامةِ»[2]، أراد بصاحب صنعاء: الأسود العنسي، وبصاحب اليمامة: مسيلمة الكذاب.

قوله تعالى: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ قيل: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان قد أسلم وكان يكتب للنبي ﷺ وكان إذا أملى عليه: سميعًا بصيرًا، كتب: عليمًا حكيمًا، وإذا قال: عليمًا حكيمًا، كتب: غفورًا رحيمًا، فلما نزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾[المؤمنون: ١٢] أملاها عليه رسول الله ﷺ فعجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان، فقال: تبارك الله أحسن الخالقين، فقال النبي ﷺ: اكتبها فهكذا نزلتْ، فشكَّ عبد الله، وقال: لئن كان محمد صادقًا فقد أُوحي إليَّ كما أُوحي إليه،

(١) أخرج قصة الرسولين: عبد الرزاق: (١٠/ ١٦٩)، والطبري: (١١/ ٥٣٥)، وأبو داود: (٤/ ٦٤)، وأحمد: (١/ ٣٩٠)، والحاكم: (٣/ ٥٣)، وابن حبان: ص٣٩٣، والبيهقي: (٩/ ٢١١)، ولم يذكر أن الآية نزلت في مسيلمة.

(٢) أخرجه همّام بن منبّه في صحيفته برواية عبد الرزاق: برقم (١٣٥)، ومن طريق أخرجه البخاري في المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال: (٨/ ٨٩) وفي التعبير، ومسلم في الرؤيا، باب رؤيا النبي ﷺ برقم ٢٢٧٤: (٤/ ١٧٨١) عن أبي هريرة وعن ابن عباس، وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٢/ ٢٥٢).

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

فارتدَّ عن الإسلام ولحق بالمشركين، ثم رجع عبد الله إلى الإسلام قبل فتح مكة إذ نزل النبي ﷺ بمرّ الظهران[1].

وقال ابن عباس: قوله: «وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ» يريد: المستهزئين، وهو جواب لقولهم: «لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا»[الأنفال: ٣١].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ يا محمد ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ سكراته، وهي جمع غمرة، وغمرة كل شيء: معظمه، وأصلها: الشيء الذي يعمّ[2] الأشياء فيغطيها، ثم وُضعت في موضع الشدائد والمكاره ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ﴾ بالعذاب والضرب، يضربون وجوههم وأدبارهم، وقيل: بقبض الأرواح ﴿أَخْرِجُوا﴾ أي يقولون: أخرجوا ﴿أَنفُسَكُمُ﴾ أي: أرواحكم كُرهًا؛ لأن نفس المؤمن تنشط للقاء ربها، والجواب محذوف، يعني: لو تراهم في هذه الحال لرأيت عجبًا ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي: الهوان ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ تتعظمون عن الإيمان بالقرآن ولا تصدقونه.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ هذا خبر من الله أنه يقول للكفار يوم القيامة: ولقد جئتمونا فُرادَى وحدانًا، لا مال معكم ولا زوج ولا ولد ولا خدم، وفُرادى جمع فَرْدان، مثل: سكران وسكارى، وكسلان وكسالى، وقرأ الأعرج «فَرْدَى» بغير ألف، مثل: سكرى ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ عراة حفاةً غُرْلاً ﴿وَتَرَكْتُم﴾ خلَّفتم ﴿مَّا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ أعطيناكم من الأموال والأولاد والخدم ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ خلف ظهوركم في الدنيا ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ وذلك أن المشركين زعموا أنَّهم يعبدون الأصنام؛ لأنهم شركاء الله وشفعاؤهم عنده ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قرأ أهل المدينة والكسائي وحفص عن عاصم بنصب النون، أي: لقد تقطع ما بينكم من الوصل، أو تقطع الأمر بينكم، وقرأ الآخرون «بينُكم» برفع النون، أي: لقد تقطع وَصْلُكُم[3] وذلك مثل قوله: «وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ»[البقرة: ١٦٦]، أي: الوصلات، والبين من الأضداد، يكون وصلًا ويكون هجرًا ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

---

(١) انظر: الطبري: (١١/ ٥٣٤، ٥٣٥)، «أسباب النزول»: ص٢٥٤، «الدر المنثور»: (٣/ ٣١٧)، «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي: (١/ ٤٤٤_٤٤٥).

(٢) في «ب»: (يغمر).

(٣) في «أ»: (وصولكم).

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ الفلق: الشق، قال الحسن وقتادة والسدي: معناه: يشق الحبة عن السنبلة والنواة عن النخلة فيخرجها منها، والحب جمع الحبة، وهي اسم لجميع البذور والحبوب من البر والشعير والذرة، وكل ما لم يكن له نوى، (وقال الزَّجَّاج: يشق الحبة اليابسة والنواة اليابسة فيُخرج منها أوراقًا خضرًا.

وقال مجاهد: يعني: الشقين اللَّذين فيهما، أي: يشق الحب عن النبات ويخرجه منه، ويشق النَّوى عن النخل ويخرجها منه)[1].

والنوى جمع النواة، وهي كل ما لم يكن حبًّا، كالتمر والمشمش والخوخ ونحوها.

وقال الضحاك: «فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ»، يعني: خالق الحبِّ والنَّوى ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ تصرفون عن الحقِّ.

﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ شاقّ عمود الصبح عن ظلمة الليل وكاشفه (وهو أول ما يبدو من النهار، يريد: مبدىء الصبح وموضحه)[2].

وقال الضحاك: خالق النهار، والإصباح مصدر كالإقبال والإدبار، وهو الإضاءة، وأراد به: الصبح.

﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ يسكن فيه خلقه، وقرأ أهل الكوفة: «وَجَعَلَ على الماضي، «ٱلَّيْلَ» نَصْبٌ إتباعًا للمصحف، وقرأ إبراهيم النخعي «فلق الإصباح وجعل الليل سكنًا»، ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ أي: جعل الشمس والقمر بحسابٍ معلوم لا يجاوزانه حتى ينتهيا إلى أقصى منازلهما، والحسبان مصدر كالحساب ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ أي: خلقها لكم ﴿لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) ساقط من «ب».

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾

والله تعالى خلق النجوم لفوائد:

أحدها: هذا، وهو أن (راكب البحر)(١) والسائر في القفار يهتدي بها في الليالي إلى مقاصده.

والثاني: أنها زينة للسماء كما قال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ﴾[الملك: ٥].

ومنها: رمي الشياطين، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾[الملك: ٥].

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم﴾ خلقكم وابتدأكم ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يعني: آدم عليه السلام ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ قرأ ابن كثير وأهل البصرة ﴿فَمُسْتَقِرٌّ﴾ بكسر القاف، يعني: فمنكم مستقر ومنكم مستودع، وقرأ الآخرون بفتح القاف، أي: فلكم مستقر ومستودع.

واختلفوا في المستقر والمستودع، قال عبد الله بن مسعود: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ في الرحم إلى أن يُولد، ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ في القبر إلى أن يبعث.

وقال سعيد بن جبير وعطاء: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ في أرحام الأمهات، ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ في أصلاب الآباء، وهو رواية عكرمة عن ابن عباس، قال سعيد بن جبير: قال لي ابن عباس هل تزوجت؟ قلت: لا، قال: إنه ما كان من مستودع في ظهرك فيستخرجه الله عزَّ وجلَّ.

ورُوي عن أُبيّ أنه قال: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ في أصلاب الآباء، ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ في أرحام الأمهات.

وقيل: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ في الرحم، ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ فوق الأرض، قال الله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾[الحج: ٥].

وقال مجاهد: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ على وجه الأرض في الدنيا، ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ عند الله في الآخرة، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[البقرة: ٣٦].

وقال الحسن: المستقر في القبور، والمستودع في الدنيا، وكان يقول: يا ابن آدم أنت وديعة في أهلك، ويُوشك أن تلحق بصاحبك.

وقيل: المستودع القبر، والمستقر الجنة والنار، لقوله عزَّ وجلَّ في صفة الجنة والنار: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[الفرقان: ٧٦]، و﴿سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا﴾[الفرقان: ٦٦]، ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

---

(١) في «ب»: (الراكب في البحر).

وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ أي: بالماء ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ أي: من الماء، وقيل: من النبات ﴿خَضِرًا﴾ يعني: أخضر، مثل: العَوَر والأعور، يعني: ما كان رطبًا أخضر مما ينبت من القمح والشعير ونحوهما ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ أي: متراكمًا بعضه على بعض، / مثل: ١/١٢٢ سنابل البُرّ والشعير والأرز وسائر الحبوب ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا﴾ والطَّلع أول ما يخرج من ثمر النخل ﴿قِنْوَانٌ﴾ جمع قِنْو: وهو العِذق، مثل: صنو وصنوان، ولا نظير لهما في الكلام ﴿دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبة المتناول، ينالها القائم والقاعد، وقال مجاهد: متدلية، وقال الضحاك: قصار ملتزقة بالأرض، وفيه اختصار معناه: ومن النخل ما قنوانها دانية ومنها ما هي بعيدة، فاكتفى بذكر القريبة عن البعيدة لسبقه إلى الأفهام، كقوله تعالى: «سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ»[النحل: ٨١]، يعني: الحرَّ والبَرْد، فاكتفى بذكر أحدهما ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ أي: وأخرجنا منه جنات، وقرأ الأعمش عن عاصم «وجناتٌ» بالرفع نسقًا على قوله: «قِنْوَانٌ»، وعامة القراء على خلافه ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ يعني: وشجر الزيتون وشجر[١] الرمان ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ قال قتادة: معناه: مشتبهًا ورقها مختلفًا ثمرها؛ لأن ورق الزيتون يشبه ورق الرمان، وقيل: مشتبه في المنظر مختلف في الطعم ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ قرأ حمزة والكسائي بضم الثاء والميم، هذا وما بعده وفي «يسٓ» على جمع الثمار، وقرأ الآخرون بفتحهما[١] على جمع الثمرة، مثل: بقرة وبقر ﴿إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ ونضجه وإدراكه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ يعني: الكافرين جعلوا لله الجن شركاء ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ يعني: وهو خلق الجن.

قال الكلبي: نزلت في الزنادقة، أثبتوا الشركة لإبليس في الخلق، فقالوا: الله خالق[٢] النور والناس والدواب والأنعام، وإبليس خالق الظلمة والسباع والحيَّات والعقارب، وهذا كقوله: «وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ

(١) ساقط من «ب». (٢) في «ب»: (خَلَق الله).

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾

ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾[الصافات: ١٥٨]، وإبليس من الجنّة ﴿وَخَرَقُوا﴾ قرأ أهل المدينة «وخرّقوا» بتشديد الراء على التكثير، وقرأ الآخرون بالتخفيف، أي: اختلقوا ﴿لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وذلك مثل قول اليهود: عزير ابن الله، وقول النصارى: المسيح ابن مريم، وقول كفار العرب: الملائكة بنات الله، ثم نزّه نفسه فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مبدعهما لا على مثال سبق ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي: كيف يكون له ولد؟ ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ زوجة ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ فاطيعوه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ بالحفظ له، وبالتدبير فيه.

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ...﴾ الآية، يتمسك أهل الاعتزال بظاهر هذه الآية في نفي رُؤية الله عزَّ وجلَّ عياناً.

ومذهب أهل السنة: إثبات رؤية الله عزَّ وجلَّ عياناً، جاء به القرآن والسنة، قال الله تعالى: «إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ»[القيامة: ٢٣]، وقال: «كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ»[المطففين: ١٥]، قال مالك ـ رضي الله عنه ـ: لو لم يرَ المؤمنون ربَّهم يوم القيامة لم يعيِّر اللهُ الكفارَ بالحجاب، وقرأ النبي ﷺ: «لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ»[يونس: ٢٦]، وفسَّره بالنظر إلى وجه الله عزَّ وجلَّ(١).

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا يوسف بن موسى، ثنا عاصم بن يوسف اليربوعي، أنا أبو شهاب، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله قال: قال النبي ﷺ: «إنّكم سترَوْنَ ربكم عياناً»(٢).

وأما قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فاعلم أن الإدراك غير الرؤية؛ لأن الإدراك هو: الوقوف على

---

(١) انظر الروايات في: «الدر المنثور»: (٤/ ٣٥٦ـ٣٥٨).

(٢) قطعة من حديث أخرجه البخاري في تفسير سورة قٓ: (٨/ ٥٩٧) وفي التوحيد وفي مواقيت الصلاة، ومسلم في المساجد، باب فضل صلاة الصبح والعصر برقم ٦٣٣: (١/ ٤٣٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (٢/ ٢٢٤).

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

كنَهِ الشيء والإحاطة به، والرؤية: المعاينة، وقد تكون الرؤية بلا إدراك، قال الله تعالى في قصة موسى «فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّآ»[الشعراء: ٦١ - ٦٢]، وقال: «لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ»[طه: ٧٧]، فنفى الإدراك مع إثبات الرؤية، فالله عزَّ وجلَّ يجوز أن يُرى من غير إدراك وإحاطة كما يُعرف في الدنيا ولا يُحاط به، قال الله تعالى: «وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا»[طه: ١١٠]، فنفى الإحاطة مع ثبوت العلم، قال سعيد بن المسيَّب: لا تُحيط به الأبصار، وقال عطاء: كلَّتْ أبصار المخلوقين عن الإحاطة، وقال ابن عباس ومقاتل: لا تُدركه الأبصار في الدنيا، وهو يُرى في الآخرة، قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لا يخفى عليه شيء ولا يفوته ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: اللطيف بأوليائه (الخبير بهم، وقال الأزهري: معنى اللطيف)[1]: الرفيق بعباده، وقيل: اللطيف الموصل الشيء باللين والرفق، وقيل: اللطيف الذي يُنسي العبادَ ذنوبَهم لئلا يخجلوا، وأصل اللطف دقة النظر في الأشياء.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: الحجج البينة التي تبصرون بها الهدى من الضلالة والحق من الباطل ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي: فمن عرفها وآمن بها فلنفسِهِ عَمِلَ، ونفعُه له ﴿وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: من عمي عنها فلم يعرفها ولم يصدقها فعليها، أي: فبنفسه ضرَّ، وَوَبَال العمى عليه ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ برقيب، أحصي عليكم أعمالكم، إنما أنا رسول إليكم أُبلغكم رسالاتِ ربي وهو الحفيظ عليكم الذي لا يخفى عليه شيء من أفعالكم.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ نفصلها ونبيِّنها في كل وجه ﴿وَلِيَقُولُوا۟﴾ قيل: معناه: لئلا يقولوا ﴿دَرَسْتَ﴾ وقيل: هذه اللام لام العاقبة، أي: عاقبة أمرهم أن يقولوا: درست، أي: قرأت على غيرك، وقيل: قرأت كتب أهل الكتاب، كقوله تعالى: «فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا»[القصص: ٨]، ومعلوم أنهم لم يلتقطوه لذلك، ولكن أراد أن عاقبة أمرهم أن كان عدوًّا لهم.

قال ابن عباس: «وَلِيَقُولُوا۟»، يعني: أهل مكة، حين تقرأ عليهم القرآن: «درست»، أي: تعلمتَ من يسار وجبر، كانا عبدين من سبي الروم، ثم قرأتَ علينا تزعم أنه من عند الله، من قولهم: درست الكتاب أدرس درسًا ودراسة.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

وقال الفرّاء: يقولون: تعلمت من يهود، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «دارست» بالألف، (أي: قارأتَ أهل الكتاب، من المدارسة بين اثنين، تقول)[1]: قرأت عليهم وقرأوا عليك، وقرأ ابن عامر ويعقوب: «دَرَسَتْ» بفتح السين وسكون التاء، أي: هذه الأخبار التي تتلوها علينا قديمة، قد درست وانمحت، من قولهم: دَرَسَ الأثرُ يَدْرُسُ دُرُوسًا ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ قال ابن عباس: يريد أولياء الذين هداهم إلى سبيل الرشاد، وقيل: يعني: أن تصريف الآيات ليشقى به قوم ويسعد به آخرون، فمن قال «درست» فهو شقي، ومن تبيَّن له الحق فهو سعيد.

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ﴾ يعني: القرآن اعمل به ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ فلا تجادلهم.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ﴾ أي: لو شاء الله لجعلهم مؤمنين ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ﴾ رقيبًا، قال عطاء: وما جعلناك عليهم حفيظًا تمنعهم مني، أي: لم تبعث لتحفظ المشركين عن العذاب، إنما بعثت مبلغًا ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

١٢٢/ب قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ...﴾ الآية، / قال ابن عباس: لما نزلت «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ»[الأنبياء: ٩٨]، قال المشركون: يا محمد، لتنتهين عن سَبِّ آلهتنا أو لنهجون ربك، فنهاهم الله تعالى أن يسبُّوا أوثانهم.

وقال قتادة: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار، فنهاهم الله عزَّ وجلَّ عن ذلك؛ لئلا يسبُّوا الله فإنهم قوم جهلة.

وقال السدي: لمَّا حضرت أبا طالب الوفاة قالت قريش: انطلقوا فلندخل على هذا الرجل فلنأمرنَّه أن ينهى عنَّا ابنَ أخيه فإنا نستحي أن نقتله بعد موته، فتقول العرب: كان يمنعه عمه فلما مات قتلوه، فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحارث وأميَّة وأبيّ ابنا خلف وعقبة (بن أبي مُعيط وعمرو بن العاص،

---

(١) ساقط من «ب».

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

والأسود بن)[1] البختري إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدُنا وإن محمدًا قد آذانا وآلهتنا، فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا، ولندعنَّه وإلهه، فدعاه فقال: هؤلاء قومك يقولون: نريد أن تدعنا وآلهتنا وندعك وإلهك، فقد أنصفك قومك فاقبل منهم، فقال النبي ﷺ: «أرأيتم إن أعطيتكم هذا هل أنتم معطي كلمة إن تكلمتُم بها ملكتم العرب ودانت لكم بها العجم»؟ قال أبو جهل: نعم وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها، فما هي؟ قال: «قولوا: لا إله إلا الله»، فأبَوْا ونفروا، فقال أبو طالب: قلْ غيرها يا ابن أخي، فقال: يا عمِّ ما أنا بالذي أقول غيرها، ولو أتوني بالشمس فوضعوها في يدي، فقالوا: لتكفنَّ عن شتمك آلهتنا أو لنشتمنَّك ولنشتمنَّ من يأمرك؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[2] يعني: الأوثان ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا﴾ أي: اعتداء وظلمًا ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

وقرأ يعقوب «عُدُوًّا» بضم العين والدال وتشديد الواو، فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله لأصحابه: «لا تَسبُّوا ربَّكم»، فأمسك المسلمون عن سبِّ آلهتهم.

فظاهر الآية وإنْ كان نهيًا عن سب الأصنام، فحقيقته النهي عن سبِّ الله؛ لأنه سبب لذلك.

﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ (أي: كما زيَّنا لهؤلاء المشركين عبادة الأوثان وطاعة الشيطان بالحرمان والخذلان، كذلك زينَّا لكل أُمة عملَهم)[1] من الخير والشر والطاعة والمعصية ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم﴾ ويُجازيهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ...﴾ الآية، قال محمد بن كعب القرظي والكلبي: قالت قريش: يا محمد، إنك تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر فينفجر منه اثنتا عشر عينًا، وتخبرنا أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يحيي الموتى فأتنا من الآيات حتى نصدقك، فقال رسول الله ﷺ: أيُّ شيء تحبون؟ قالوا: تجعل لنا الصفا ذهبًا، أو ابعثْ لنا بعض أمواتنا حتى نسأله عنك أحقٌّ ما تقول أم باطل، أو أرنا الملائكة يشهدون لك، فقال رسول الله ﷺ: فإن فعلتُ بعض ما تقولون أتصدقونني؟ قالوا: نعم، والله لئن فعلت لنتبعنَّك أجمعين، وسأل المسلمون رسول الله ﷺ أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا، فقام رسول

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي. انظر: «الدر المنثور»: (٣/ ٣٣٨-٣٣٩)، والواحدي في «أسباب النزول»: ص٢٥٥. وانظر: الترمذي: (٩/ ٩٩-١٠٠) مع «تحفة الأحوذي»، «تاريخ الطبري»: (٢/ ٣٢٣-٣٢٤)، «مجمع الزوائد»: (٦/ ١٥)، «تفسير الطبري»: (١٢/ ٣٤)، وانظر فيما سبق: ص١٦، تعليق (٢).

الله ﷺ يدعو الله أن يجعل الصفا ذهبًا فجاءه جبريل عليه السلام فقال له: اختر ما شئت؛ إن شئت أصبح ذهبًا، ولكن إن لم يصدقوا عذبتهم، وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم، فقال رسول الله ﷺ: بلْ يتوب تائبهم؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ...﴾[1]، أي: حلفوا بالله جهد أيمانهم، أي: بجهد أيمانهم، يعني: أوكد ما قدروا عليه من الأيمان وأشدها.

قال الكلبي ومقاتل: إذا حلف الرجل بالله، فهو جهد يمينه.

﴿لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ كما جاءت من قبلهم من الأمم ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ والله قادر على إنزالها ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ وما يدريكم.

واختلفوا في المخاطبين بقوله: «وَمَا يُشْعِرُكُمْ»، فقال بعضهم: الخطاب للمشركين الذين أقسموا، وقال بعضهم: الخطاب للمؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ قرأ ابن كثير وأهل البصرة وأبو بكر عن عاصم «إنها» بكسر الألف على الابتداء، وقالوا: تمَّ الكلام عند قوله: «وَمَا يُشْعِرُكُمْ»، فَمَنْ جعل الخطاب للمشركين قال: معناه: وما يُشعركم أيها المشركون[2] أنها لو جاءت آمنتم؟ ومن جعل الخطاب للمؤمنين قال: معناه: وما يُشعركم أيها المؤمنون أنها لو جاءت آمنوا؟ لأن المسلمين كانوا يسألون رسول الله ﷺ أن يدعو الله تعالى حتى يريهم ما اقترحوا حتى يُؤمنوا فخاطبهم بقوله: «وَمَا يُشْعِرُكُمْ»، ثم ابتدأ فقال جلَّ ذِكره: «أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ»، وهذا في قوم مخصوصين (حكم الله عليهم بأنهم لا يؤمنون)[3]، وقرأ الآخرون: «أَنَّهَا» بفتح الألف وجعلوا الخطاب للمؤمنين، واختلفوا في قوله: «لَا يُؤْمِنُونَ»؛ فقال الكسائي: «لا» صلة، ومعنى الآية: وما يشعركم أيها المؤمنون أن الآيات إذا جاءتِ المشركينَ يؤمنون؟ كقوله تعالى: «وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ»[الأنبياء: ٩٥]، أي: يرجعون، وقيل: إنها بمعنى لعلَّ، وكذلك هو في قراءة أُبيّ، تقول العرب: اذهب إلى السوق أنك تشتري شيئًا، أي: لعلك، وقال عدي بن زيد:

أعاذِلُ ما يُدريكِ أنَّ مَنِيَّتي ... إلى ساعةٍ في اليوم أوْ في ضُحَى الغَدِ[4]

أي: لعلَّ منيتي، وقيل: فيه حذف وتقديره: وما يُشعركم أنها إذا جاءت (يؤمنون أو لا يؤمنون؟ وقرأ ابن عامر وحمزة «لا تؤمنون» بالتاء على الخطاب للكفار، واعتبروا بقراءة أُبيّ: إذا جاءتكم)[5] لا تؤمنون، وقرأ الآخرون بالياء على الخبر، دليلها قراءة الأعمش: أنها إذا جاءتهم لا يؤمنون.

---

(١) أخرجه الطبري: (١٢/ ٣٨)، الواحدي: ص٢٥٦. وانظر: «الدر المنثور»: (٣/ ٣٤٠).
(٢) في «ب»: (المؤمنون).
(٣) زيادة من «ب».
(٤) انظر: «جمهرة أشعار العرب»: (٢/ ٥٠٩) طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، «لسان العرب» مادة (أنن): (١٣/ ٣٤).
(٥) ساقط من «ب».

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قال ابن عباس: يعني: ونحول بينهم وبين الإيمان، فلو جئناهم بالآيات التي سألوا ما آمنوا بها كما لم يؤمنوا به أول مرة، أي: كما لم يؤمنوا بما قبلها من الآيات من انشقاق القمر وغيره، وقيل: كما لم يُؤمنوا به أول مرة، يعني: معجزات موسى وغيره من الأنبياء عليهم السلام، كقوله تعالى: «أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ»[القصص: ٤٨]، وفي الآية محذوف تقديره: فلا يؤمنون كما لم يؤمنوا به أول مرة.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: المرّة الأولى دار الدنيا، يعني: لو رُدُّوا من الآخرة إلى الدنيا نقلب أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان كما لم يؤمنوا في الدنيا قبل مماتهم، كما قال: «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ»[الأنعام: ٢٨].

﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ قال عطاء: نخذلهم وندعهم في ضلالتهم يتمادون.

﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ فرأوهم عيانًا ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى﴾ بإحيائنا إياهم، فشهدوا لك بالنبوة كما سألوا ﴿وَحَشَرْنَا﴾ وجمعنا ﴿عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ قرأ أهل المدينة وابن عامر «قِبَلًا» بكسر القاف وفتح الباء، أي: معاينة، وقرأ الآخرون بضم القاف والباء، هو جمع قبيل، وهو الكفيل، مثل: رغيف ورُغف، وقضيب وقُضُب، / أي: ضُمناء وكُفلاء، وقيل: هو جمع قبيل وهو القبيلة، أي: فوجًا فوجًا، ١/١٢٣
وقيل: هو بمعنى المقابلة والمواجهة، من قولهم: أتيتك قبلًا لا دبرًا إذا أتاه من قبل وجهه ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ذلك ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ أي: أعداء، فيه تعزية للنبي ﷺ، يعني: كما ابتليناك بهؤلاء القوم، فكذلك جعلنا لكل نبي قبلك أعداء، ثم فسّرهم فقال: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ قال عكرمة والضحاك والسدي والكلبي: معناه: شياطين الإنس التي مع الإنس، وشياطين الجن التي مع الجن، وليس للإنس شياطين، وذلك أن إبليس قسم جنده فريقين فبعث فريقًا منهم إلى الإنس وفريقًا منهم إلى الجن، وكلا

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

الفريقين أعداء للنبي ﷺ ولأوليائه، وهم الذين يلتقون في كل حين، فيقول شيطان[(١)] الإنس لشيطان[(١)] الجن: أضللتُ صاحبي بكذا فأضلَّ صاحبك بمثله، وتقول شياطين الجن لشياطين الإنس كذلك، فذلك وحي بعضهم إلى بعض.

قال قتادة ومجاهد والحسن: إن من الإنس شياطين كما أن من الجن شياطين، والشيطان: العاتي المتمرد من كل شيء، قالوا: إن الشيطان إذا أعياه المؤمن وعجز عن إغوائه ذهب إلى متمرد من الإنس: وهو شيطان الإنس، فأغراه بالمؤمن ليفتنه، يدل عليه ما رُوي عن أبي ذر قال: قال لي رسول الله ﷺ: «هل تعوذت بالله من شياطين الجن والإنس»؟ فقلت: يا رسول الله، وهل للإنس من شياطين؟ قال: «نعم، هم شرٌّ من شياطين الجن»[(٢)].

وقال مالك بن دينار: إن شياطين الإنس أشد عليَّ من شياطين الجن، وذلك أني إذا تعوذتُ بالله ذهب عني شيطان الجن، وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي عيانًا.

قوله تعالى: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: يلقي ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ وهو قول مموّه مزيّن بالباطل لا معنى تحته ﴿غُرُورًا﴾ يعني: هؤلاء الشياطين يُزيّنون الأعمال القبيحة لبني آدم، يغرونهم غرورًا، والغرور: القول الباطل ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي: ما ألقاه الشيطان من الوسوسة (في القلوب)[(٣)] ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: تميل إليه، والصغو: الميل، يقال: صغو فلان معك، أي: ميله، والفعل منه: صغى يُصغي صغًا، وصغى يَصْغَى، ويصغُو صغوًا، والهاء في «إِلَيْهِ» راجعة إلى زخرف القول ﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟﴾ ليكتسبوا ﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ يقال: اقترف فلان مالاً، أي: اكتسبه، وقال تعالى: «وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً»[الشورى: ٢٣]، وقال الزجاج: أي: ليعملوا من الذنوب ما هم عاملون.

---

(١) في «الأصل»: (شياطين) في الموضعين.

(٢) أخرجه النسائي في الاستعاذة، باب الاستعاذة من شر شياطين الإنس: (٨/ ٢٧٥)، دون قوله: «هم شر من شياطين الجن»، والإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ١٧٨، ٢٦٥)، قال الهيثمي: (رواه أحمد والبزار والطبراني في «الأوسط»، وفيه المسعودي وهو ثقة ولكنه اختلط). «مجمع الزوائد»: (١/ ١٦٠).

(٣) ساقط من «ب».

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ فيه إضمار، أي: قلْ لهم يا محمد: أفغير الله ﴿أَبْتَغِي﴾ أطلب ﴿حَكَمًا﴾ قاضيًا بيني وبينكم، وذلك أنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ: اجعل بيننا وبينك حَكَمًا، فأجابهم به ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ مبينًا فيه أمره ونهيه، يعني: القرآن، وقيل: «مُفَصَّلًا»، أي: خمسًا خمسًا وعشرًا عشرًا، كما قال: «لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ»[الفرقان: ٣٢]، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: علماء اليهود والنصارى الذين آتيناهم التوراة والإنجيل، وقيل: هم مؤمنو أهل الكتاب، وقال عطاء: هم رؤوس أصحاب النبي ﷺ، والمراد بالكتاب هو القرآن ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ﴾ يعني: القرآن، قرأ ابن عامر وحفص[1]: «مُنَزَّلٌ» بالتشديد من التنزيل؛ لأنه أنزل نجومًا متفرقة، وقرأ الآخرون بالتخفيف من الإنزال؛ لقوله تعالى: «وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ»، ﴿مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ من الشاكّين أنهم يعلمون ذلك.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ قرأ أهل الكوفة ويعقوب «كَلِمَتُ» على التوحيد، وقرأ الآخرون «كلمات» بالجمع، وأراد بالكلمات: أمره ونهيه ووعده ووعيده ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أي: صدقًا في الوعد والوعيد، وعدلاً في الأمر والنهي، قال قتادة ومقاتل: صدقًا فيما وعد وعدلاً فيما حكم ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ قال ابن عباس: لا رادَّ لقضائه ولا مغيِّر لحكمه ولا خُلْف لوعده ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ قيل: أراد بالكلمات: القرآن، لا مبدِّل له، لا يزيد فيه المفترون ولا ينقصون.

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دين الله، وذلك أن أكثر أهل الأرض كانوا على الضلالة، وقيل: أراد أنهم جادلوا رسول الله ﷺ والمؤمنين في أكل الميتة، وقالوا: أتأكلون ما تقتلون ولا تأكلون من قتله الله عزَّ وجلَّ؟ فقال: «وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ» أي: وإن تطعهم في أكل الميتة يُضلُّوكَ عن سبيل الله ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ يريد: أن دينهم الذي هم عليه ظنٌّ وهوًى[1] لم يأخذوه عن بصيرة ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ يكذبون.

---

(١) ساقط من «ب».

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ
اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ
عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم
بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ
الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ قيل: موضع «مَن» نصب بنزع حرف الصفة، أي: بمن يضل، وقال الزجاج: موضعه رفع بالابتداء، ولفظها لفظ الاستفهام، والمعنى: إنَّ ربك هو أعلم أيُّ الناس يضل عن سبيله ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾ أخبر أنه أعلم بالفريقين الضالين والمهتدين فيجازي كلًّا بما يستحقه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي: كلوا ممَّا ذُبح على اسم الله ﴿إِن كُنتُم بِآيَاتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ وذلك أنهم كانوا يُحرِّمون أصنافًا من النَّعم ويحلُّون الأموات، فقيل لهم: أحِلُّوا ما أحلَّ الله وحرِّموا ما حرَّم الله.

ثم قال: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ يعني: أي شيء لكم ﴿أَلَّا تَأْكُلُوا﴾ وما يمنعكم من أن تأكلوا ﴿مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ من الذبائح ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ قرأ أهل المدينة ويعقوب وحفص «فَصَّلَ» و«حَرَّمَ» بالفتح فيهما، أي: فَصَّلَ اللهُ ما حرمه عليكم؛ لقوله: «اسْمُ اللَّهِ»، وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو بضم الفاء والحاء وكسر الصاد والراء على غير تسمية الفاعل؛ لقوله: «ذُكِرَ»، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر «فَصَّلَ» بالفتح و«حُرِّمَ» بالضم، وأراد بتفصيل المحرمات ما ذكر في قوله تعالى «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ»[المائدة: ٣]، ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ من هذه الأشياء فإنه حلال لكم عند الاضطرار ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ﴾ قرأ أهل الكوفة بضم الياء وكذلك قوله: «لِيُضِلُّوا» في سورة يونس؛ لقوله تعالى: «يضلوك عن سبيل الله»، وقيل: أراد به: عمرو بن لحي فمن دونه من المشركين الذين اتخذوا البحائر والسوائب، وقرأ الآخرون بالفتح؛ لقوله: «من يضل»، ﴿بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حين امتنعوا من أكل ما ذكر اسم الله عليه، ودعوا إلى أكل الميتة / ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ الذين يجاوزون الحلال إلى الحرام. ١٢٣/ب

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ يعني: الذنوب كلها؛ لأنها لا تخلو من هذين الوجهين، قال قتادة: علانيته وسره، وقال مجاهد: «ظَاهِرَ الْإِثْمِ»: ما يعمله بالجوارح من الذنوب، «وَبَاطِنَهُ»: ما ينويه ويقصده بقلبه كالمُصِرِّ على الذنب القاصد له.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾

وقال الكلبي: ظاهره: الزنا، وباطنه: المخالّة، وأكثر المفسرين على أن ظاهر الإثم: الإعلان بالزنا، وهم أصحاب الرايات[1]، وباطنه: الاستسرار به؛ وذلك أن العرب كانوا يحبون الزنا، فكان الشريف منهم يتشرف فيُسرُّ به، وغير الشريف لا يبالي به فيظهره، فحرمهما الله عزَّ وجلَّ، وقال سعيد بن جبير: ظاهر الإثم: نكاح المحارم، وباطنه: الزنا.

وقال ابن زيد: ظاهر الإثم: التجرد من الثياب والتعري في الطواف[2]، والباطن: الزنا، وروى حبان عن الكلبي: ظاهر الإثم: طواف الرجال بالبيت نهارًا عراة، وباطنه: طواف النساء بالليل عراة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ﴾ في الآخرة ﴿بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ (يكتسبون في الدنيا)[3].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الآية في تحريم الميتات وما في معناها من المنخقنة وغيرها.

وقال عطاء: الآية في تحريم الذبائح التي كانوا يذبحونها على اسم الأصنام.

واختلف أهل العلم في ذبيحة المسلم إذا لم يذكر اسم الله عليها؛ فذهب قوم إلى تحريمها سواء ترك التسمية عامدًا أو ناسيًا، وهو قول ابن سيرين والشعبي، واحتجوا بظاهر هذه الآية.

وذهب قوم إلى تحليلها، يُروى ذلك عن ابن عباس، وهو قول مالك والشافعي وأحمد رضوان الله عليهم أجمعين.

وذهب قوم إلى أنه إن ترك التسمية عامدًا لا يحل، وإن تركها ناسيًا يحل، حكى الخرقي في أصحاب أحمد: أن هذا مذهبه، وهو قول الثوري وأصحاب الرأي.

من أباحها قال: المراد من الآيات الميتات أو ما ذبح على غير اسم الله بدليل أنه قال: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ والفسق في ذكر اسم غير الله كما قال في آخر السورة: «قل لا أجد فيما أُوحيَ إليَّ محرمًا على طاعم»، إلى قوله: «أو فسقًا أُهِلَّ لغير الله به».

واحتج مَن أباحها بما أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد ابن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا يوسف بن موسى، ثنا أبو خالد الأحمر قال: سمعت هشام بن عروة

---

(١) هنَّ بغايا الجاهلية، كنَّ ينصبن عند بيوتهن رايات يعرفن بها.

(٢) في «ب»: (الطرقات).

(٣) ساقط من «ب».

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

يحدِّث عن أبيه، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قالوا: يا رسول الله، إنَّ هنا أقوامًا حديثٌ عهدهم بشرك يأتونا بلحمان لا ندري يذكرون اسم الله عليها أم لا؟ قال: «اذكروا أنتم اسم الله وكُلُوا»(١).

ولو كانت التسمية شرطًا للإباحة لكان الشك في وجودها مانعًا مِن أكلها، كالشك في أصل الذبح(٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ أراد: أن الشياطين ليوسوسون إلى أوليائهم من المشركين ليجادلوكم، وذلك أن المشركين قالوا: يا محمد، أخبرنا عن الشاة إذا ماتت مَنْ قَتَلَها؟ فقال: الله قتلها، قالوا: أفتزعم أن ما قتلتَ أنتَ وأصحابُك حلالٌ، وما قتله الكلب والصقر حلال، وما قتله الله حرام؟ فأنزل الله هذه الآية(٣) ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في أكل الميتة ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ قال الزجاج: وفيه دليل على أن من أحلَّ شيئًا مما حرَّم الله أو حرَّم ما أحلَّ الله فهو مشرك.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ قرأ نافع «ميِّتًا»، و«لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا»[الحجرات: ١٢]، و«ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا»[يس: ٣٣] بالتشديد فيهن، والآخرون بالتخفيف ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ أي: كان ضالاً فهديناه، كان ميتًا بالكفر فأحييناه بالإيمان ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾ يستضيء به ﴿يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ على قصد السبيل، قيل: النور هو الإسلام؛ لقوله تعالى: «يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ»[البقرة: ٢٥٧]، وقال قتادة: هو كتاب الله بيِّنةٌ من الله مع المؤمن، بها يعمل وبها يأخذ وإليها ينتهي ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ المثل صلة، أي: كمن هو في الظلماتِ ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ يعني: في ظلمة الكفر.

قيل: نزلت هذه الآية في رجلين بأعيانهما، ثم اختلفوا فيهما، قال ابن عباس: «وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا» يريد حمزة بن عبد المطلب، «كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ» يريد أبا جهل بن هشام، وذلك أنَّ أبا جهل رمى رسول الله ﷺ بِفَرْثٍ، فأُخبر حمزةُ بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه وبيده قوس، وحمزة لم يؤمن بعد، فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس وهو يتضرع إليه، ويقول: يا أبا يعلى، أما ترى ما جاء به؟ سفَّه عقولنا وسبَّ آلهتنا وخالف آباءنا، فقال حمزة: ومن أسفه منكم؟ تعبدون الحجارة من دون الله، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فأنزل الله هذه الآية(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها: (١٣/ ٣٧٩) وفي البيوع، والمصنف في «شرح السنة»: (١١/ ١٩٤).

(٢) في «أ»: (الذبائح).

(٣) انظر: «أسباب النزول»: ص٢٥٧، «الدر المنثور»: (٣/ ٣٤٨).

(٤) انظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٢٥٧ ـ ٢٥٨.

=

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ
إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ
رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ
اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

وقال الضحاك: نزلت في عمر بن الخطاب وأبي جهل(١).

وقال عكرمة والكلبي: نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل(٢).

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ من الكفر والمعصية، قال ابن عباس: يريد: زيَّن لهم الشيطان عبادة الأصنام.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ أي: كما أن فُسَّاق مكة أكابرها، كذلك جعلنا فساق كل قرية(٣) أكابرها، أي: عظماءها، جمع أكبر، مثل: أفضل وأفاضل، وأسود وأساود، وذلك سنة الله تعالى أنه جعل في كل قرية أتباع الرسل ضعفاءهم، كما قال في قصة نوح عليه السلام: «أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ»[الشعراء: ١١١]، وجعل فسَّاقهم أكابرهم ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ وذلك أنهم أجلسوا على كل طريق من طرق مكة أربعة نفر؛ ليصرفوا الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ، يقولون لكل من يقدم: إيَّاك وهذا الرجل؛ فإنه كاهن ساحر كذاب ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ لأن وبال مكرهم يعود عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ أنه كذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ يعني: مثل ما أُوتي رسل الله من النبوة، وذلك أن الوليد بن المغيرة قال: لو كانت النبوة حقًّا لكنتُ أولى بها منك، لأني أكبر منك سنًّا وأكثر منك مالاً، فأنزل الله تعالى هذه الآية(٤).

وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل، وذلك أنه قال: زاحمنا بني عبد مناف في الشرف حتى إنا صرنا كفرسي رهان، قالوا: منَّا نبي يُوحَى إليه، والله لا نؤمن به ولا نتبعه أبدًا إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه، فأنزل

= وذكر قصة إسلام حمزة: ابن هشام في «السيرة»: (١/ ٢٩١-٢٩٢)، والحاكم في «المستدرك»: (٣/ ١٩٢)، ولم يذكرا أن الآية نزلت في هذا.

(١) «تفسير الطبري»: (١٢/ ٨٩)، «أسباب النزول»: ص٢٥٨، «الدر المنثور»: (٣/ ٣٥٢)، قال القرطبي: (والصحيح أنها عامة في كل مؤمن وكافر).

(٢) أخرجه الطبري: (١٢/ ٩٠)، وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم. انظر: «الدر المنثور»: (٣/ ٣٥٢).

(٣) في «ب»: (أمة).

(٤) انظر: «الدر المنثور»: (٣/ ٣٥٣).

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾[1] حجة على صدق محمد ﷺ ﴿قَالُوا۟﴾ يعني: أبا جهل: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ يعني: محمدًا ﷺ.

ثم قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ قرأ ابن كثير وحفص «رِسَالَتَهُۥ» على التوحيد، وقرأ الآخرون «رسالاته» بالجمع، يعني: الله أعلم بمن هو أحق بالرسالة ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ
أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ﴾ ذُلٌّ وهوَان ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: من عند الله ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ / ١/١٢٤
قيل: صَغَارٌ في الدنيا، وعذاب شديد في الآخرة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: يفتح قلبه وينوره حتى يقبل الإسلام، ولما نزلت هذه الآية سُئل رسول الله عن شرح الصدر، فقال: «نورٌ يقذفه الله في قلب المؤمن فينشرح له وينفسح»، قيل: فهل لذلك أمارة[2]؟ قال: «نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»[3].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا﴾ قرأ ابن كثير: «ضيْقًا» بالتخفيف هاهنا وفي الفرقان، والباقون بالتشديد، وهما لغتان مثل: هَيْن وهيِّن ولَيْن وليِّن ﴿حَرَجًا﴾ قرأ أهل المدينة وأبو بكر بكسر الراء والباقون بفتحها، وهما لغتان أيضًا مثل: الدَّنَف والدَّنِف، وقال سيبويه: الحَرَج بالفتح: المصدر (كالطلب، ومعناه: ذا حرج)[4]، وبالكسر الاسم، وهو أشد الضيق، يعني: يجعل قلبه ضيقًا حتى لا يدخله الإيمان، وقال الكلبي: ليس للخير فيه منفذ، وقال ابن عباس: إذا سمع ذكر الله اشمأز قلبه، وإذا ذكر شيئًا من عبادة الأصنام ارتاح إلى ذلك.

---

(١) أخرج القصة ابن إسحاق، «السيرة»: (١/ ٣١٥-٣١٦)، ولم يذكر أنها سبب لنزول الآية.

(٢) في «ب»: (من علامة).

(٣) أخرجه الطبري: (١٢/ ٩٨-١٠٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات»: (١/ ٢٥٧-٢٥٨)، قال البيهقي: (هذا منقطع).

وانظر: «الدر المنثور»: (٣/ ٣٥٤)، فقد عزاه لابن المبارك في «الزهد»، وعبد الرزاق، والفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.

وضعفه الشيخ محمود شاكر في تعليقه على الطبري، وقواه ابن كثير؛ لتعدد طرقه: (٢/ ١٧٦).

(٤) ساقط من «ب».

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٢٦ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٢٧﴾

وقرأ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ هذه الآية، فسأل أعرابيًا من كنانة: ما الحَرَجَةُ فيكم؟ قال: الحرجة فينا الشجرة تكون بين الأشجار التي لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير(١).

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ قرأ ابن كثير: «يَصْعَد» بالتخفيف، وقرأ أبو بكر عن عاصم «يصاعد» بالألف، أي: يتصاعد، وقرأ الآخرون «يَصَّعَّدُ» بتشديد الصاد والعين، أي: يتصعد، يعني: يشق عليه الإيمان كما يشق عليه صعود السماء، وأصل الصعود: المشقة، ومنه قوله تعالى: «سأُرْهِقُهُ صَعُودًا» أي: عاقبة شاقة ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٢٥﴾ قال ابن عباس: الرجس هو الشيطان، أي: يسلط عليه، وقال الكلبي: هو المأثم، وقال مجاهد: الرجس ما لا خير فيه، وقال عطاء: الرجس العذاب مثل الرِّجْز، وقيل: هو النجس، رُوي أن رسول الله ﷺ كان إذا دخل الخلاء قال: «(اللهم إني)(٢) أعوذُ بِكَ مِنَ الرِّجْسِ النَّجس»(٣)، وقال الزَّجَّاج: الرجس اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ (أي: هذا الذي بيَّنَّا، وقيل: هذا الذي أنت عليه يا محمد طريق ربك ودينه الذي ارتضاه لنفسه مستقيمًا)(٢) لا عوج فيه وهو الإسلام ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٢٦﴾.

﴿۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعني: الجنة، قال أكثر المفسرين: السلام هو الله، وداره الجنة، وقيل: السلام هو السلامة، (أي: لهم دار السلامة)(٤) من الآفات، وهي الجنة، وسُمِّيت دار السلام؛ لأن كل من دخلها سَلِمَ من البلايا والرزايا.

وقيل: سُمِّيت بذلك لأن جميع حالاتها مقرونة بالسلام، يقال في الابتداء: «ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ» [الحجر: ٤٦]، «وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم» [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤]، وقال: «لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ. «الدر المنثور»: (٣/ ٣٥٦).

(٢) زيادة من «ب».

(٣) أخرجه ابن ماجه، كتاب الطهارة برقم٢٩٩: (١/ ١٠٩)، وقال في «الزوائد»: إسناده ضعيف، أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة»: ص١٢ من طريق إسماعيل بن رافع عن دريد بن نافع عن ابن عمر، وابن عساكر عن ابن مسعود. قال المنذري: (هذا حديث ضعيف)، وقال العراقي: (إسماعيل مختلف فيه، ورواية دريد بن نافع عن ابن عمر منقطعة). انظر: «فيض القدير» للمناوي: (٥/ ١٢٨)، والذي ثبت في «الصحيحين» وفي «السنن» أنه ﷺ كان يقول إذا دخل الخلاء: «اللهم إني أعوذ بك من الخُبُث والخبائث».

(٤) ساقط من «ب».

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾[الواقعة: ٢٥-٢٦]، وقال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾[إبراهيم: ٢٣]، ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[يس: ٥٨]

﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ قال الحسين[(١)] بن الفضل: يتولاهم في الدنيا بالتوفيق وفي الآخرة بالجزاء.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ قرأ حفص: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ بالياء ﴿جَمِيعًا﴾ يعني: الجن والإنس يجمعهم في موقف القيامة فيقول: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾ والمراد بالجن: الشياطين ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أي: استكثرتم من الإنس بالإضلال والإغواء، أي: أضللتم كثيرًا، ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ يعني: أولياء الشياطين الذين أطاعوهم من الإنس ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾.

قال الكلبي: استمتاع الإنس بالجن: هو أن الرجل كان إذا سافر ونزل بأرض قَفْرٍ وخاف على نفسه من الجن قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، فيبيت في جوارهم.

وأما استمتاع الجن بالإنس: هو أنهم قالوا: قد سُدْنَا الإنس مع الجن، حتى عاذوا بنا فيزدادون شرفًا في قومهم وعِظَمًا في أنفسهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[الجن: ٦].

وقيل: استمتاع الإنس بالجن: ما كان يُلْقون إليهم من الأراجيف والسحر والكهانة وتزيينهم لهم الأمور التي يهوونها، وتسهيل سبيلها عليهم، واستمتاع الجنّ بالإنس: طاعة الإنس لهم فيما يزيّنون لهم من الضلالة والمعاصي.

قال محمد بن كعب: هو طاعة بعضهم بعضًا وموافقة بعضهم لبعض[(٢)].

﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ يعني: القيامة والبعث ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ مقامكم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

اختلفوا في هذا الاستثناء كما اختلفوا في قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾[هود: ١٠٧].

قيل: أراد إلاَّ قدر مدة ما بين بعثهم إلى دخولهم جهنم، يعني: هم خالدون في النار إلاَّ هذا المقدار.

---

(١) في «ب»: (الحسن).

(٢) في «ب»: (بعضًا).

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

وقيل: الاستثناء يرجع إلى العذاب، وهو قوله «ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ»، أي: خالدين في النار سوى ما شاء الله من أنواع العذاب.

وقال ابن عباس: الاستثناء يرجع إلى قوم سبق فيهم علم الله أنهم يسلمون فيخرجون من النار، و«ما» بمعنى «من» على هذا التأويل ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ قيل: عليم بالذي استثناه وبما في قلوبهم من البِرِّ والتقوى.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ قيل: أي[1]: كما خذلنا عصاة الجن والإنس حتى استمتع بعضهم ببعض؛ نولي بعض الظالمين بعضًا، أي: نسلِّط بعضهم على بعض، فنأخذ من الظالم بالظالم، كما جاء: «مَنْ أعان ظالمًا سلَّطه اللهُ عليه»[2].

وقال قتادة: نجعل بعضهم أولياء بعض، فالمؤمن ولي المؤمن (أين كان)[3]، والكافر وليُّ الكافر حيث كان، ورُوي عن معمر، عن قتادة: نتبع بعضهم بعضًا في النار، من الموالاة، وقيل: معناه: نولي ظلمة الإنس ظلمة الجن، ونولي ظلمة الجن ظلمة الإنس، أي: نكل بعضهم إلى بعض، كقوله تعالى: «نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ»[النساء: ١١٥]، وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في تفسيرها هو: أنَّ الله تعالى إذا أراد بقوم خيرًا ولَّى أمرهم خيارهم، وإذا أراد بقومٍ شرًّا ولَّى أمرهم شرارهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ اختلفوا في أن الجن هلْ أُرسل إليهم منهم رسول[4]؟ فسُئل الضحاك عنه؟ فقال: بلى ألم تسمع الله يقول: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ يعني بذلك: رسلًا من الإنس ورسلًا من الجن، قال الكلبي: كانت الرسل من قبل أن يبعث محمد ﷺ يبعثون إلى الجن وإلى الإنس جميعًا.

---

(١) في «ب»: (يقول).

(٢) قال في «اللآلئ»: (ذكره صاحب «الفردوس» بسنده من حديث ابن مسعود)، وقال في «المقاصد الحسنة»: (رواه ابن عساكر في «تاريخه» عن ابن مسعود رفعه، وفيه: ابن زكريا العدوي، متهم بالوضع، فهو آفته). انظر: «كشف الخفاء»: (٢/ ٢٩٨ ـ ٢٩٨)، «فيض القدير»: (٦/ ٧٢)، «تمييز الطيب من الخبيث»: ص١٧٧.

(٣) ساقط من «ب».

(٤) في «ب»: (رسل).

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢) وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣)﴾

قال مجاهد: الرسل من الإنس، والنُّذر من الجن، ثم قرأ: ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾[الأحقاف: ٢٩]، وهم قوم يسمعون كلام الرسل فيبلغون الجن ما سمعوا، وليس للجن رسل، فعلى هذا قوله: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾
١٢٤/ب ينصرف إلى أحد الصنفين وهم الإنس، كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[الرحمن: ٢٢]، / وإنما يخرج من الملح دون العذب، قال: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾[نوح: ١٦]، وإنَّما هو في سماء واحدة.

﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يقرؤون عليكم ﴿آيَاتِي﴾ كتبي ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ وهو يوم القيامة ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا﴾ أنهم قد بلَّغوا، قال مقاتل: وذلك حين شهدتْ عليهم جوارحهم بالشرك والكفر، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ حتى لم يؤمنوا ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠)﴾.

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ أي: ذلك الذي قصصنا عليك من أمر الرسل وعذاب من كذبهم؛ لأنه لم يكنْ ربُّكَ مُهلك القرى بظلم، (أي: لم يكن مهلكهم بظلم)[١]، أي: بشركِ من أشرك ﴿وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١)﴾ لم ينذروا حتى نبعث إليهم رسلًا ينذرونهم.

وقال الكلبي: لم يهلكهم بذنوبهم من قبل أن يأتيهم الرسل.

وقيل: معناه: لم يكن ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسل فيكون قد ظلمهم، وذلك أن الله تعالى أجرى السنة أن لا يأخذ أحدًا إلاَّ بعد وجود الذنب، وإنما يكون مذنبًا إذا أُمر فلم يأتمر ونُهي فلم ينته، يكون ذلك بعد إنذار الرسل.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ يعني: في الثواب والعقاب على قدر أعمالهم في الدنيا، فمنهم من هو أشد عذابًا، ومنهم من هو أجزل ثوابًا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢)﴾ قرأ ابن عامر «تعملون» بالتاء، والباقون بالياء.

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ﴾ عن خلقه ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ قال ابن عباس: (ذو الرحمة)[١] بأوليائه وأهل طاعته،

---

(١) زيادة من «ب».

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝١٣٤ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١٣٥ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝١٣٦﴾

وقال الكلبي: بخلقه ذو التجاوز ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يهلككم، وعيد لأهل مكة ﴿وَيَسْتَخْلِفْ﴾ يخلق[1] وينشىء ﴿مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ خلقًا غيركم أمثل وأطوع ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ۝١٣٣﴾ أي: آبائهم الماضين، قرنًا بعد قرن.

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: ما توعدون من مجيء الساعة والحشر ﴿لَآتٍ﴾ كائن ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝١٣٤﴾ أي: بفائتين، يعني: يدرككم حيث ما كنتم.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم ﴿مكاناتكم﴾ بالجمع حيث كان، أي: على تمكنكم، قال عطاء: على حالاتكم التي أنتم عليها، قال الزَّجَّاج: اعملوا على ما أنتم عليه، يقال للرجل إذا أُمر أن يثبت على حاله: على مكانتك يا فلان، أي: اثبت على ما أنت عليه، وهذا أمر وعيد على المبالغة، يقول: قل لهم: اعملوا على ما أنتم عاملون ﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾ ما أمرني به ربي عزَّ وجلَّ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: الجنة، قرأ حمزة والكسائي ﴿يكون﴾ بالياء هنا وفي القصص، وقرأ الآخرون بالتاء لتأنيث العاقبة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١٣٥﴾ قال ابن عباس: معناه: لا يسعد من كفر بي وأشرك، قال الضحاك: لا يفوز.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا...﴾ الآية، كان المشركون يجعلون لله من حروثهم وأنعامهم وثمارهم وسائر أموالهم نصيبًا، وللأوثان نصيبًا، فما جعلوه لله صرفوه إلى الضيفان والمساكين، وما جعلوه للأصنام أنفقوه على الأصنام وخدمها، فإن سقط شيءٌ مما جعلوه لله تعالى في نصيب الأوثان تركوه وقالوا: إنَّ الله غني عن هذا، وإن سقط شيءٌ من نصيب[1] الأصنام فيما جعلوه لله ردُّوه إلى الأوثان، وقالوا: إنها محتاجة، وكان إذا هلك أو انتقص شيءٌ مما جعلوه لله

(١) زيادة من «ب».

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

لم يبالوا به، وإذا هلك أو انتقص شيء مما جعلوه للأصنام جبروه بما جعلوه لله، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ خلق ﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ وفيه اختصار، مجازه: وجعلوا لله نصيبًا ولشركائهم نصيبًا.

﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ قرأ الكسائي «بِزُعمهم» بضم الزاي، والباقون بفتحها، وهما لغتان، وهو القول من غير حقيقة ﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ يعني: الأوثان ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ ومعناه: ما قلنا إنهم (كانوا يتمون ما جعلوه للأوثان مما جعلوه لله، ولا)[1] يتمون ما جعلوه لله مما جعلوه للأوثان، وقال قتادة: كانوا إذا أصابتهم سنة استعانوا بما جزَّؤوا لله وأكلوا منه ووفَّرُوا ما جزَّؤوا لشركائهم ولم يأكلوا منه شيئًا[1] ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ أي: بئس ما يصنعون[2].

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: كما زيّن لهم تحريم الحرث والأنعام، كذلك زيّن لكثير من المشركين ﴿قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ قال مجاهد: «شُرَكَآؤُهُمْ»، أي: شياطينهم، زيّنوا وحسّنوا لهم وَأْدَ البنات خيفة العيلة، سُميت الشياطين شركاء؛ لأنهم أطاعوهم في معصية الله، وأضيف الشركاء إليهم لأنهم اتخذوها.

وقال الكلبي: «شُرَكَآؤُهُمْ»: سدنة آلهتهم الذين كانوا يزينون للكفار قتل الأولاد، فكان الرجل منهم يحلف لئن ولد له كذا غلامًا لينحرنَّ أحدَهم كما حلف عبد المطلب على ابنه عبد الله.

وقرأ ابن عامر: «زُيِّن» بضم الزاي وكسر الياء، «قتلُ» رفع «أولادهم» نصب، «شركائهم» بالخفض على التقديم، كأنه قال: زُيِّن لكثير من المشركين قتل شركائهم أولادهم، فصل بين الفعل وفاعله بالمفعول به، وهم الأولاد، كما قال الشاعر[3]:

---

(١) زيادة من «ب».
(٢) في «ب»: (يقضون).
(٣) من مجزوء الكامل، أنشده الأخفش ولم ينسبه، وأنشده أيضًا دون نسبة: الفرّاء وثعلب، وقال ابن خلف: هو لبعض المدنيين. ومعنى «زججته»: طعنته بالزُّج وهي الحديدة أسفل الرمح. و«القلوص» الناقة الشابة. وانظر: «شرح الكافية الشافية» لابن مالك الجيّاني: (٢/ ٩٨٢-٩٨٦) مع تعليق المحقق.

وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ
حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا
كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا
وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ
إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾

فَــــزَجَجْتُــــه مُتَمَكِّنًــــا زَجَّ ـ القَلُــوصَ ـ أبي مَــزَادَهْ

أي: زجَّ أبي مزادة القلوص، فأضيف الفعل وهو القتل إلى الشركاء، وإن لم يتولوا ذلك؛ لأنهم هم الذين زيّنوا ذلك ودعوا إليه، فكأنَّهم فعلوه. قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ لِيُرْدُوهُمْ ﴾ ليُهلكوهم ﴿ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ ﴾ ليخلطوا عليهم ﴿ دِينَهُمْ ﴾ قال ابن عباس: ليُدخلوا عليهم الشَّك في دينهم، وكانوا على دين إسماعيل فرجعوا عنه بِلَبْسِ الشياطين ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ أي: لو شاء الله لعصمهم حتى ما فعلوا ذلك من تحريم الحرث والأنعام وقتل الأولاد ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ يا محمد ﴿ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ يختلقون من الكذب، فإن الله تعالى لهم بالمرصاد.

﴿ وَقَالُواْ ﴾ يعني: المشركين ﴿ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ ﴾ أي: حرام، يعني: ما جعلوا لله ولآلهتهم من الحرث والأنعام على ما مضى ذكره، وقال مجاهد: يعني بالأنعام: البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ﴿ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ ﴾ يعنون: الرجال دون النساء ﴿ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ هي: الحوامي كانوا لا يركبونها ﴿ وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ﴾ أي: يذبحونها باسم الأصنام لا باسم الله، وقال أبو وائل: معناه: لا يحجون عليها ولا يركبونها لفعل الخير؛ لأنه لَمَّا جرتِ العادة بذكر اسم الله على فعل الخير عبرّ بذكر الله تعالى عن فعل الخير ﴿ ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ﴾ يعني: أنهم يفعلون ذلك ويزعمون أن الله أمرهم به افتراءً عليه ﴿ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ﴾ أي: نسائنا، قال ابن عباس وقتادة والشعبي: أراد: أجنَّةَ البحائر والسوائب، فما وُلد منها حيًا فهو خالص للرجال دون النساء، وما وُلد ميتًا أكله الرجال والنساء جميعًا، وأدخل الهاء في «الخالصة» للتأكيد كالخاصة والعامة، كقولهم: نسَّابة وعلَّامة، وقال الفراء: أُدخلت الهاء لتأنيث الأنعام؛ لأن ما في بطونها مثلها فأُنث بتأنيثها، وقال الكسائي: خالص وخالصة واحد، مثل: وعظٍ وموعظة.

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾

﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾ قرأ ابن عامر وأبو جعفر[1]: «تكن» بالتاء «ميتةٌ» رفع، ذكر الفعل بعلامة التأنيث؛
١/١٢٥ لأن الميتة في اللفظ مؤنثة، وقرأ أبو بكر عن عاصم «تكن» بالتاء / «ميتةً» نصب، أي: وإن تكن الأجنة ميتة،
وقرأ ابن كثير: «وإنْ يكن» بالياء «ميتةٌ» رفع؛ لأن المراد بالميتة الميت، أي: وإن يقع ما في البطون ميتًا، وقرأ الآخرون «وإنْ يكن» بالياء «ميتةً» نصب، ردَّه إلى «ما» أي: وإن يكن ما في البطون ميتة، (يدل عليه أنه قال)[2]: ﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ ولم يقل فيها، وأراد أن الرجال والنساء فيه شركاء ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي: بوصفهم، أو على وصفهم الكذب على الله تعالى ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ﴾ قرأ ابن عامر وابن كثير «قتَّلوا» بتشديد التاء على التكثير، وقرأ الآخرون بالتخفيف ﴿سَفَهًۢا﴾ جهلًا ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نزلت في ربيعة ومضر وبعض العرب من غيرهم، كانوا يدفنون البنات أحياء مخافة السبي والفقر، وكان بنو كنانة لا يفعلون ذلك[3].

﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني: البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ﴾ حيث قالوا: إن الله أمرهم بها ﴿قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ﴾ ابتدع ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ أي: مسموكات مرفوعات وغير مرفوعات، وقال ابن عباس: «مَّعْرُوشَٰتٍ» ما انبسط على وجه الأرض وانتشر مما يعرش، مثل: الكرم والقرع والبطيخ وغيرها، «وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ»: ما قام على ساق وبَسَق، مثل: النخل والزرع وسائر الأشجار. وقال الضحاك: كلاهما الكرم خاصة: منها ما عرش ومنها ما لم يعرش.

﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ﴾ أي: وأنشأ النخل والزرع ﴿مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ ثمره وطعمه، منها الحلو والحامض والجيد والرديء ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا﴾ في المنظر ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ في المطعم، مثل: الرمانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ هذا أمر إباحة.

---

(١) في «ب»: (وأبو حفص).
(٢) ساقط من «ب».
(٣) «الدر المنثور»: (٣/ ٣٦٦).

﴿وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾ قرأ أهل البصرة وابن عامر وعاصم «حَصَادِهِۦ» بفتح الحاء، وقرأ الآخرون بكسرها، ومعناهما واحد، كالصِّرام والصَّرام والجَزاز والجِزاز.

واختلفوا في هذا الحق؛ فقال ابن عباس وطاووس والحسن وجابر بن زيد وسعيد بن المسيب: إنها الزكاة المفروضة من العشر ونصف العشر.

وقال علي بن الحسين وعطاء ومجاهد وحماد والحكم: هو حق في المال سوى الزكاة أمر بإتيانه؛ لأن الآية مكية، وفرضت الزكاة بالمدينة.

قال إبراهيم: هو الضِّغْث، وقال الربيع: لُقَاط السنبل.

وقال مجاهد: كانوا يعلقون[1] العِذق عند الصِّرام فيأكل منه مَنْ مَرَّ.

وقال يزيد بن الأصم: كان أهل المدينة إذا صرموا يجيؤون بالعذق فيعلقونه في جانب المسجد، فيجيء المسكين فيضربه بعصاه فيسقط منه فيأخذه.

وقال سعيد بن جبير: كان هذا حقًّا يؤمر بإتيانه في ابتداء الإسلام فصار منسوخًا بإيجاب العشر.

وقال مِقْسَم عن ابن عباس: نَسَخَتِ الزكاةُ كلَّ نفقة في القرآن.

﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١﴾ قيل: أراد بالإسراف: إعطاء الكل، قال ابن عباس في رواية الكلبي: إنَّ ثابت بن قيس بن شَمَّاس صَرَمَ خمسمائة نخلة وقسمها في يوم واحد ولم يترك لأهله شيئًا؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية[2].

قال السدي: لا تسرفوا، أي: لا تعطوا أموالكم فتقعدوا فقراء، قال الزَّجَّاج: على هذا إذا أعطى الإنسان كل ماله ولم يوصل إلى عياله شيئًا فقد أسرف؛ لأنه قد جاء في الخبر: «ابدأ بمن تعول»[3]، وقال سعيد بن المسيب: معناه: لا تمنعوا الصدقة، فتأويل الآية على هذا: لا تتجاوزوا الحد في البخل والإمساك حتى تمنعوا الواجب من الصدقة. وقال مقاتل: لا تُشركوا الأصنام في الحرث والأنعام.

وقال الزهري: لا تنفقوا في المعصية، وقال مجاهد: الإسراف ما قصّرت به عن حق الله عزَّ وجلَّ، وقال: لو كان أبو قبيس ذهبًا لرجل فأنفقه في طاعة الله لم يكن مسرفًا، ولو أنفق درهمًا أو مدًّا في معصية الله كان مسرفًا، وقال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر الله فهو سرف وإسراف، وروى ابن وهب عن أبي زيد، قال: الخِطَاب للسلاطين، يقول: لا تأخذُوا فوق حقكم.

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) انظر: «الدر المنثور»: (٣/ ٣٦٩).

(٣) قطعة من حديث أبي هريرة، أخرجه البخاري في الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى: (٣/ ٢٩٤)، ومسلم في الزكاة، باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح برقم١٠٣٤: (٢/ ٧١٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ١٧٨، ١٧٩).

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: وأنشأ من الأنعام ﴿حَمُولَةً﴾ وهي كل ما يحمل عليها من الإبل ﴿وَفَرْشًا﴾ وهي الصغار من الإبل التي لا تحمل ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لا تسلكوا طريقه وآثاره في تحريم الحرث والأنعام ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

ثم بيَّن الحمولة والفرش فقال: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾. نصبها على البدل من الحمولة والفرش، أي: وأنشأ من الأنعام ثمانية أزواج أصناف ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: الذكر والأنثى، (فالذكر زوج والأنثى)[1] زوج، والعرب تسمي الواحد زوجًا إذا كان لا ينفكُّ عن الآخر، والضأن النعاج، وهي ذوات الصوف من الغنم، والواحد ضائن والأنثى ضائنة، والجمع ضوائن ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ قرأ ابن كثير وابن عامر وأهل البصرة «من المَعَزِ» بفتح العين، والباقون بسكونها، والمعز والمعزى جمع لا واحد له من لفظه، وهي ذوات الشعر من الغنم، وجمع الماعز مَعِيز، وجمع الماعزة مواعز ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾ الله عليكم، يعني: ذكر الضأن والمعز ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ يعني: أنثى الضأن والمعز ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ منهما، فإنها لا تشتمل إلا على ذكر أو أنثى، ﴿نَبِّـُٔونِى﴾ أخبروني ﴿بِعِلْمٍ﴾ قال الزَّجَّاج: فسِّروا ما حرَّمتُم بعلم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ أن الله تعالى حرم ذلك.

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ وذلك أنهم كانوا يقولون: هذه أنعام وحرث حِجْر، وقالوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرَّمٌ على أزواجنا، وحرَّموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وكانوا يحرمون بعضها على الرجال والنساء،

(١) ساقط من «ب».

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾

وبعضها على النساء دون الرجال، فلمَّا قام الإسلام وثبتت الأحكام جادلوا النبي ﷺ، وكان خطيبهم مالك ابن عوف أبو الأحْوَص الجُشَمِيّ، فقال: يا محمد، بَلَغَنا[1] أنك تحرم أشياء مما كان آباؤنا يفعلونه، فقال له رسول الله ﷺ: «إنكم قد حرَّمتم أصنافًا من الغنم على غير أصل، وإنما خلق الله هذه الأزواج الثمانية للأكل والانتفاع بها، فمن أين جاء هذا التحريم؟ من قِبَل الذكر أم من قِبَل الأنثى»؟ فسكت مالك بن عوف وتحيَّر فلم يتكلم. فلو قال جاء التحريم بسبب الذكور وجب أن يحرّم جميع الذكور، وإن قال بسبب الأُنوثة وجب أن يحرّم جميع الإناث، وإن كان باشتمال الرحم عليه فينبغي أن يحرم الكل؛ لأن الرحم لا يشتمل إلا على ذكر وأنثى، فأما تخصيص التحريم بالولد الخامس أو السابع أو البعض دون البعض / فمن أين؟ ١٢٥/ب

ويُروى أنَّ النبي ﷺ قال لمالك: «يا مالِكُ، مَا لَكَ لا تتكلم»؟ قال له مالك: بل تكلمْ وأسمعُ منك.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ حضورًا ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قيل: أراد به: عمرو بن لحي ومن جاء بعده على طريقه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

ثم بيّن أن التحريم والتحليل يكون بالوحي والتنزيل فقال: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ ورُوي أنهم قالوا: فما المحرم إذًا فنزل: ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ أي: شيئًا محرَّمًا ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ آكلٍ يأكله ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ قرأ ابن عامر وأبو جعفر «تكون» بالتاء، «ميتةٌ» نصب على تقدير اسم مؤنث، أي: إلا أن تكون النفس أو الجثة ميتة، وقرأ الباقون «يَكُونَ» بالياء «مَيْتَةً» نصب، يعني: إلا أن يكون المطعوم[2] ميتة ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ أي: مُهراقًا سائلًا، قال ابن عباس: يريد ما خرج من الحيوان وهنَّ أحياء، وما خرج من الأرواح، وما يخرج من الأوداج عند الذبح، ولا يدخل فيه الكبد والطحال؛ لأنهما جامدان، وقد جاء الشرع بإباحتهما، ولا ما اختلط باللحم من الدم؛ لأنه غير سائل.

قال عمران بن حُدَيْر: سألت أبا مجلز عمَّا يختلط باللحم من الدم، وعن القِدْر يُرى فيها حمرة الدم؟ فقال: لا بأس، إنما نهى عن الدم المسفوح.

---

(١) ساقط من «أ». (٢) في «ب»: (الطعام).

وقال إبراهيم: لا بأس بالدم في عرق أو مخ، إلا المسفوح الذي تعمد ذلك، وقال عكرمة: لولا هذه الآية لاتّبع المسلمون من العروق ما يتبع اليهود.

﴿ أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ ﴾ حرام ﴿ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾ وهو ما ذُبح على غير اسم الله تعالى، فذهب بعض أهل العلم إلى أن التحريم مقصور على هذه الأشياء، يُروى ذلك عن عائشة وابن عباس قال: ويدخل في الميتة: المنخنقة والموقوذة، وما ذُكر في أول سورة المائدة[١].

وأكثر العلماء على أن التحريم لا يختص بهذه الأشياء، والمحرم بنص الكتاب ما ذكر هنا[٢]، ذلك معنى قوله تعالى: « قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا »، وقد حرَّمتِ السُّنَّةُ أشياء يجب القول بها.

منها: ما أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، ثنا عبد الغافر بن محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، قال: ثنا عبيد الله بن معاذ العنبري، أخبرنا أبي، أنا شعبة، عن الحكم، عن ميمون بن مهران، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «نهى رسول الله ﷺ عن كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير»[٣].

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، ثنا زاهر بن أحمد، ثنا أبو إسحاق الهاشمي، ثنا أبو مصعب، عن مالك، عن إسماعيل بن أبي حكيم، عن عبيدة بن سفيان الحضرمي، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أكلُ كلِّ ذي نابٍ مِنَ السباع حرامٌ»[٤].

والأصل عند الشافعي: أن ما لم يرد فيه نص تحريم أو تحليل، فإن كان مما أمر الشرع بقتله ـ كما قال: «خمسٌ فواسق يقتلن في الحِل والحَرَم»[٥]، أو نهى عن قتله، كما رُوي أنه نهى عن قتل النحلة والنملة[٦] ـ فهو حرام، وما سوى ذلك فالمرجع فيه إلى الأغلب من عادات العرب، فما يأكله الأغلب منهم فهو حلال، وما لا يأكله الأغلب منهم فهو حرام؛ لأن الله تعالى خاطبهم بقوله: «قل أحل لكم الطيبات»، فثبت أن ما استطابوه فهو حلال.

---

(١) راجع فيما سبق: تفسير الآية (٣) من سورة المائدة ـ في هذا الجزء: ص٧ ـ ١٢.

(٢) انظر: «تفسير القرطبي»: (٧/ ١١٦، وما بعدها)، «أحكام القرآن» للطبري الهراس: (٣/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧).

(٣) أخرجه مسلم في الصيد والذبائح، باب تحريم أكل كل ذي ناب من السباع . . . برقم١٩٣٤: (٣/ ١٥٣٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (١١/ ٢٣٤).

(٤) أخرجه مالك في «الموطأ»، كتاب الصيد برقم١٤: (٢/ ٤٩٦)، ومسلم في الموضع السابق برقم١٩٣٣: (٣/ ١٥٣٤)، والمصنف في الموضع نفسه.

(٥) أخرجه البخاري في جزاء الصيد، باب ما يقتل المحرم من الدواب: (٤/ ٣٤)، ومسلم في الحج، باب ما يندب للمحرم وغيره قتله برقم١١٩٨: (٢/ ٨٥٦).

(٦) فيما أخرجه أبو داود وابن ماجه والحاكم والدارمي وأحمد عن ابن عباس. انظر: «شرح السنة»: (١١/ ٢٤١)، وراجع «تفسير القرطبي»: (١٣/ ١٧٣ ـ ١٧٤).

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ أباح أكل هذه المحرمات عند الاضطرار في غير العدوان.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ يعني: اليهود ﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ وهو ما لم يكن مشقوق الأصابع من البهائم والطير مثل: البعير والنعامة والأوز والبط، قال القتيبي: هو كل ذي مخلب من الطير وكل ذي حافر من الدواب[1]، وحكاه عن بعض المفسرين، وقال: سُمِّي الحافر ظُفرًا على الاستعارة.

﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ يعني: شحوم الجوف، وهي الثُّروب، وشحم الكليتين ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ أي: إلا ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونهما ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ وهي المباعر، واحدتها: حاوية وحَوِيّة، أي: ما حملته الحوايا من الشحم ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ يعني: شحم الإلية، هذا كله داخل في الاستثناء، والتحريم مختص بالثَّرْب[2] وشحم الكلية.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا قتيبة، أنا الليث، عن يزيد بن أبي حبيب، عن عطاء بن أبي رباح، عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول عام الفتح وهو بمكة: «إن الله ورسوله حَرَّمَ بيعَ الخمر والميتة والخنزير والأصنام» فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة فإنه يُطلى بها السفن ويُدّهن بها الجلود ويستصبح بها الناس؟ فقال: «لا، هو حرام»، ثم قال رسول الله عند ذلك: «قاتلَ اللهُ اليهودَ، إنَّ الله عزَّ وجلَّ لمَّا حرم شحومها جَمَلُوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه»[3].

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم﴾ أي: ذلك التحريم عقوبة لهم ﴿بِبَغْيِهِمْ﴾ أي: بظلمهم من قتلهم الأنبياء وصدِّهم عن سبيل الله وأخذهم الربا واستحلال أموال الناس بالباطل ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ في الإخبار عما حرَّمنا عليهم وعن بغيهم.

---

(١) في «أ»: (السباع).

(٢) الثَّرْب: على وزن فَلْس: شحم رقيق على الكرش والأمعاء.

(٣) أخرجه البخاري في البيوع، باب بيع الميتة والأصنام: (٤/ ٤٢٤)، ومسلم في المساقاة، باب تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام برقم١٥٨١ : (٣/ ١٢٠٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (٨/ ٣٠).

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ۝١٤٧ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۝١٤٨﴾

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ بتأخير العذاب عنكم ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ﴾ عذابه[1] ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ۝١٤٧﴾ إذا جاء وقته.

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ لمَّا لزمتهم الحجة، وتيقَّنوا بطلان ما كانوا عليه من الشرك بالله، وتحريم ما لم يحرمه الله قالوا[1]: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ من قبل ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ من البحائر والسوائب وغيرها، أرادوا أن يجعلوا قوله: «لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا» حجةً لهم على إقامتهم على الشرك، وقالوا: إن الله تعالى قادر على أن يَحُول بيننا وبين ما نحن عليه حتى لا نفعله، فلولا أنه رضي بما نحن عليه وأراده منَّا وأمرَنا به لَحَالَ بيننا وبين ذلك، فقال الله تعالى تكذيبًا لهم: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من كفار الأمم الخالية ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ عذابنا.

ويستدل أهل القَدر بهذه الآية، يقولون: إنهم لما قالوا: لو شاء الله ما أشركنا كذَّبهم الله وردَّ عليهم، فقال: «كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ».

قلنا: التكذيب ليس في قولهم: «لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا»، بل ذلك القول صدق، ولكن في قولهم: إن الله تعالى أمرنا بها ورضي بما نحن عليه، كما أخبر عنهم في سورة الأعراف (الآية ٢٨): «وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ»، فالردُّ عليهم في هذا كما قال تعالى: «قلْ إنَّ اللهَ لا يأمرُ بالفحشاء».

والدليل على أن التكذيب ورد فيما قلنا لا في قولهم: «لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا»، قوله: «كَذَٰلِكَ
١/١٢٦ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» بالتشديد، / ولو كان ذلك خبرًا من الله عزَّ وجلَّ عن كذبهم في قولهم: «لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا»، لقال كَذَب الذين (من قبلهم)[2] بالتخفيف، فكان ينسبهم إلى الكذب لا إلى

(١) زيادة من «ب».
(٢) ساقط من «ب».

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٤٩ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١٥٠﴾

التكذيب، وقال الحسن بن الفضل: لو ذكروا هذه المقالة تعظيمًا وإجلالاً لله عزَّ وجلَّ، ومعرفة منهم به لما عابهم بذلك؛ لأنَّ الله تعالى قال: ولو شاءَ اللهُ ما أشركوا، وقال: ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[الأنعام: ١١١]، والمؤمنون يقولون ذلك، ولكنهم قالوه تكذيبًا وتخرصًا وجدلاً من غير معرفة بالله وبما يقولون، نظيره قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾[الزخرف: ٢٠]، قال الله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[الزخرف: ٢٠].

وقيل في معنى الآية:

إنهم كانوا يقولون الحق بهذه الكلمة إلا أنهم كانوا يعدونه عذرًا لأنفسهم ويجعلونه حجة لأنفسهم في ترك الإيمان، وردَّ عليهم في هذا لأنَّ أمر الله بمعزل عن مشيئته وإرادته، فإنهُ مريدٌ لجميع الكائنات غير آمر بجميع ما يريد، وعلى العبد أن يتبع أمره وليس له أن يتعلق بمشيئته، فإن مشيئته لا تكون عذرًا لأحد.

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: كتاب وحجة من الله ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ حتى يظهر ما تدَّعون على الله تعالى من الشرك أو تحريم ما حرمتم ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ ما تتبعون فيما أنتم عليه ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ من غير علم ويقين ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۝١٤٨﴾ تكذبون.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ التامَّة على خلقه بالكتاب والرسول(١) والبيان ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٤٩﴾ فهذا يدل على أنه لم يشأ إيمان الكافر، ولو شاء لهداه.

﴿قُلْ هَلُمَّ﴾ يقال للواحد والاثنين والجمع ﴿شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ﴾ أي: ائتوا بشهدائكم الذين يشهدون ﴿أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ هذا راجع إلى ما تقدم من تحريمهم الأشياء على أنفسهم ودَعْواهم أن الله أمرهم به ﴿فَإِن شَهِدُوا﴾ كاذبين ﴿فَلَا تَشْهَدْ﴾ أنت ﴿مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١٥٠﴾ أي: يشركون.

---

(١) في «أ»: (والرسل).

﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ وذلك أنهم سألوا وقالوا: أيُّ شيءٍ الذي حرَّم الله تعالى؟ فقال عزَّ وجلَّ: «۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ» أقرأ ما حرم ربكم عليكم حقًّا يقينًا، لا ظنًّا ولا كذبًا كما تزعمون.

فإن قيل: ما معنى قوله: «حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»، والمحرم هو الشرك لا ترك الشرك؟

قيل: موضع «أن» رفع، معناه: هو أن لا تشركوا، وقيل: محله نصب، واختلفوا في وجه انتصابه، قيل: معناه: حرَّم عليكم أن تشركوا به، و«لا» صلة كقوله تعالى: «مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ»[الأعراف: ١٢]، أي: منعك أن تسجد، وقيل: تمَّ الكلام عند قوله «حَرَّمَ رَبُّكُمْ»، ثم قال: عليكم أن لا تُشركوا به شيئًا على الإغراء، وقال الزَّجَّاج: يجوز أن يكون هذا محمولاً على المعنى، أي: أَتْلُ عليكم تحريم الشرك، وجائزٌ أن يكون على معنى: أُوصيكم ألاَّ تشركوا به شيئًا ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾ فقر ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ أي: لا تئدوا بناتكم خشية العَيلة، فإني رازقكم وإيَّاهم ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (ما ظهر، يعني: العلانية، وما بطن)[1]، يعني: السِّر.

وكان أهل الجاهلية يستقبحون الزنا في العلانية، ولا يرون به بأسًا في السِّرِّ؛ فحرم الله تعالى الزنا في العلانية والسِّرِّ.

وقال الضحاك: ما ظهر: الخمر، وما بطن: الزنا.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ حرَّم الله تعالى قتل المؤمن والمعاهد إلا بالحق، إلاَّ بما يبيح قتله من ردة أو قصاص أو زنا يوجب الرجم.

أخبرنا ابن عبد الله الصالحي، ثنا أبو بكر أحمد بن الحسين الحيري، ثنا حاجب بن أحمد الطوسي، ثنا محمد بن حماد، ثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود

---

(١) ساقط من «ب».

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلّ دمُ امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثَّيِّبُ الزاني، والنَّفْسُ بالنَّفْسِ، والتاركُ لدينه المفارقُ للجماعة»[1].

﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي ذكرت ﴿وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ أمركم به ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يعني: بما فيه صلاحه وتثميره، وقال مجاهد: هو التجارة فيه، وقال الضحاك: هو أن يبتغي له فيه ولا يأخذ من ربحه شيئًا ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قال الشعبي ومالك: الأَشُدُّ: الحُلم، حتى يكتب له الحسنات، (وتكتب عليه)[2] السيئات، قال أبو العالية: حتى يعقل وتجتمع قوّته، وقال الكلبي: الأَشُدُّ ما بين الثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سنة، وقيل: إلى أربعين سنة، وقيل: إلى ستين سنة، وقال الضحاك: عشرون سنة، وقال السدي: ثلاثون سنة، وقال مجاهد: الأَشُدُّ: ثلاث وثلاثون سنة.

والأَشُدُّ جمع شَدٍّ، مثل: قَدٍّ وأقُدٍّ، وهو استحكام قوة شبابه وسنه، ومنه شدُّ النهار وهو ارتفاعه، وقيل: بلوغ الأشد أن يؤنس رشده بعد البلوغ.

وتقدير الآية: ولا تقربُوا مالَ اليتيم إلا بالتي هي أحسن على الأبد حتى يبلغ أشدَّه، فادفعوا إليه ماله إن كان رشيدًا.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: طاقتها في إيفاء الكيل والميزان، أي: لم يكلف المعطي أكثر مما وجب عليه، ولم يكلف صاحب الحق الرضا بأقل من حقه، حتى لا تضيق نفسه عنه، بل أمر كل واحد منهما بما يسعه مما لا حرج عليه فيه.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ فاصدقوا في الحكم والشهادة ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي: ولو كان المحكوم والمشهود عليه ذا قرابة ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ تتعظون، قرأ حمزة والكسائي وحفص «تَذْكُرُون» خفيفة[3] الذال، كل القرآن، والآخرون بتشديدها.

---

(١) أخرجه البخاري في الديات، باب قول الله تعالى: ﴿أن النفس بالنفس . . .﴾: (١٢/ ٢٠١)، ومسلم في القسامة، باب بيان ما يباح به دم المسلم برقم ١٦٧٦: (٣/ ١٣٠٢)، والمصنف في شرح السنة: (١٠/ ١٤٧).

(٢) ساقط من «ب».

(٣) في «ب»: (بتخفيف).

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

قال ابن عباس: هذه الآيات محكمات في جميع الكتب، لم ينسخهنَّ شيء وهنَّ محرمات على بني آدم كلهم، وهنَّ أم الكتاب من عمل بهنَّ دخل الجنَّة، ومن تركهنَّ دخل النَّار.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ أي: هذا الذي وصيتكم به في هاتين الآيتين ﴿صِرَٰطِي﴾ طريقي وديني، ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ مستويًا قويمًا ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ قرأ حمزة والكسائي «وإنَّ» بكسر الألف على الاستئناف، وقرأ الآخرون: بفتح الألف، قال الفرَّاء: والمعنى: وأتْلُ عليكم أنَّ هذا صراطي مستقيمًا، وقرأ ابن عامر بسكون النون ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ﴾ أي: الطرق المختلفة التي عدا هذا الطريق، مثل: اليهودية والنصرانية وسائر الملل، وقيل: الأهواء والبدع ﴿فَتَفَرَّقَ﴾ فتميل ﴿بِكُمْ﴾ وتشتَّت ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ عن طريقه ودينه الذي ارتضى وبه أوصى ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي ذكرت ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

١٢٦/ب أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الصمد الترابي المعروف / بأبي بكر بن أبي الهيثم، أنا الحاكم أبو الفضل محمد بن الحسين الحدادي، ثنا أبو يزيد محمد بن يحيى بن خالد، ثنا أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم الحنظلي، ثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن حماد بن زيد، عن عاصم بن بَهْدَلَة، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: خطَّ لنا رسولُ الله ﷺ خطًّا ثم قال: «هذا سبيلُ اللهِ»، ثمَّ خطَّ خطوطًا عن يمينه وعن شماله، وقال: «هذه سُبُلٌ على كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه»، ثم قرأ: «وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ»[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ فإن قيل: لِمَ قال: «ثُمَّ ءَاتَيْنَا» وحرف «ثم» للتعقيب، وإيتاء موسى الكتاب كان قبل مجيء القرآن؟ قيل: معناه: ثم أخبرُكم أنَّا آتينا موسى الكتاب، فدخل «ثم» لتأخير الخبر لا لتأخير النزول.

(١) أخرجه الدارمي في المقدمة، باب كراهية أخذ الرأي: (١/ ٦٧)، والطبري في «التفسير» برقم١٤١٦٨، وصححه ابن حبان: ص٤٣١، والحاكم: (٢/ ٣١٨) ووافقه الذهبي، وأخرجه ـ أيضًا ـ: الآجري في «الشريعة»: ص١٠، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة»: (١/ ٨٠ ـ ٨١)، وابن أبي عاصم في «السنة»: (١/ ١٣)، والإمام أحمد في «المسند»: (١/ ٤٣٥)، والطيالسي في «المسند»: ص٣٣، وابن أبي شامة في «الباعث على إنكار البدع والحوادث»: ص١٢١، والنسائي في «التفسير»: (١/ ٤٨٥).
قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٢): (رواه أحمد والبزار، وفيه عاصم بن بهدلة، وهو ثقة وفيه ضعف).
وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١/ ١٩٦ ـ ١٩٧). وانظر: «تفسير ابن كثير»: (٢/ ١٩١)، «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي: (١/ ٤٤٦).

وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ
ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ
أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى
وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ
ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ ﴾ اختلفوا فيه، قيل: تمامًا على المحسنين من قومه، فتكون «ٱلَّذِىٓ» بمعنى «مَنْ»، أي: على من أحسن من قومه، وكان بينهم محسن ومسيء، يدل عليه قراءة ابن مسعود: «على الذين أحسنوا»، وقال أبو عبيدة: معناه: على كل من أحسن، أي: أتممنا فضيلة موسى بالكتاب على المحسنين، يعني: أظهرنا فضله عليهم، والمحسنون هم الأنبياء والمؤمنون، وقيل: «ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ» هو موسى، و«ٱلَّذِىٓ» بمعنى «ما»، أي: على ما أحسن موسى، تقديره: آتيناه الكتاب، يعني: التوراة، إتمامًا عليه للنعمة؛ لإحسانه في الطاعة والعبادة، وتبليغ الرسالة وأداء الأمر.

وقيل: الإحسان بمعنى العلم، وأحسن بمعنى علم، ومعناه: تمامًا على الذي أحسن موسى من العلم والحكمة، أي: آتيناه الكتاب زيادة على ذلك.

وقيل: معناه: تمامًا مني على إحساني إلى موسى.

﴿ وَتَفْصِيلًا ﴾ بيانًا ﴿ لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ يحتاج إليه من شرائع الدين ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ هذا في صفة التوراة ﴿ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ قال ابن عباس: كي يؤمنوا ويصدقوا بالثواب والعقاب.

﴿ وَهَٰذَا ﴾ يعني: القرآن ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ واعملوا بما فيه ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ﴾ وأطيعوا ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾.

﴿ أَن تَقُولُوٓا۟ ﴾ يعني: لئلا تقولوا، كقوله تعالى: «يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟»[النساء: ١٧٦]، أي: لئلا تضلوا، وقيل: معناه: أنزلناه كراهة ﴿ أَن تَقُولُوٓا۟ ﴾ قال الكسائي: معناه: اتقوا أن تقولوا يا أهل مكة ﴿ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾ يعني: اليهود والنصارى ﴿ وَإِن كُنَّا ﴾ وقد كنا ﴿ عَن دِرَاسَتِهِمْ ﴾ قراءتهم ﴿ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ لا نعلم ما هي، معناه: أنزلنا عليكم القرآن لئلا تقولوا: إن الكتاب أنزل على من قبلنا بلسانهم ولغتهم فلم نعرف ما فيه وغفلنا عن دراسته، فتجعلونه عذرًا لأنفسكم.

﴿ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ﴾ وقد كان جماعة من الكفار قالوا ذلك: لو أنَّا أُنزل علينا ما أُنزل على اليهود والنصارى لكنَّا خيرًا منهم، قال الله تعالى: ﴿ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

حجة واضحة بلغة تعرفونها ﴿وَهُدًى﴾ بيان ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ ونعمة لمن اتبعه ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ﴾ أعرض ﴿عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ شدة العذاب ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ يعرضون[1].

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: هل ينتظرون بعد تكذيبهم الرسل وإنكارهم القرآن ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم، وقيل: بالعذاب، قرأ حمزة والكسائي ﴿يأتيهم﴾ بالياء هاهنا وفي النحل، والباقون بالتاء ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ بلا كيف، لفصل القضاء بين خلقه في موقف القيامة ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ يعني: طلوع الشمس من مغربها، عليه أكثر المفسرين، ورواه أبو سعيد الخدري مرفوعًا[2] ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي: لا ينفعهم الإيمان عند ظهور الآية التي تضطرهم إلى الإيمان ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ يريد: لا يُقبل إيمان كافر ولا توبة فاسق ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟﴾ يا أهل مكة ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ بكم العذاب.

أخبرنا أبو علي حسان بن سعيد المنيعي، ثنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي، ثنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان، ثنا أحمد بن يوسف السلمي، ثنا عبد الرزاق، ثنا معمر، عن همام بن منبه، ثنا أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعةُ حتى تَطْلُعَ الشمسُ من مغربها، فإذا طلعتْ ورَآها الناسُ آمنُوا أجمعين، وذلك حين لا ينفعُ نفسًا إيمانُها لم تكنْ آمنتْ مِنْ قَبْلُ أو كسبتْ في إيمانها خيرًا»[3].

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أنا حاجب بن أحمد الطوسي، أنا محمد بن حماد، ثنا أبو معاوية الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن عبيدة، عن أبي موسى

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ في قول الله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، قال: (طلوع الشمس من مغربها)، قال الترمذي: هذا حديث غريب، ورواه بعضهم ولم يرفعه. انظر: «السنن»، تفسير سورة الأنعام: (٨/ ٤٤٨ ـ ٤٤٩)، ويؤيده ما أخرجه أيضًا عن أبي هريرة وهو الحديث الآتي بعده.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأنعام، باب قوله تعالى: ﴿هلمَّ شهداءكم﴾: (٨/ ٢٩٧)، ومسلم في الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل الله فيه الإيمان برقم ١٥٧: (١/ ١٣٧).

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩)﴾

الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يدا الله بُسْطَان لمسيء الليل ليتوب بالنهار، ولمسيء النهار ليتوب بالليل، حتى تَطْلُعَ الشمسُ من مغربها»(١).

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، ثنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أخبرنا أبو جعفر محمد ابن أحمد بن عبد الجبار الرياني، أنا حميد بن زنجويه، أنا النضر بن شميل، أنا هشام، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تابَ قبلَ أنْ تطلعَ الشمسُ من مغربها تابَ اللهُ عليه»(٢).

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنا أبو منصور السمعاني، أنا أبو جعفر الرياني، أنا حميد بن زنجويه، أنا أحمد بن عبد الله، أنا حماد بن زيد، أنا عاصم بن أبي النجود، عن زرّ بنِ حُبيش قال: أتيتُ صفوان بن عسّال المرادي فذكر عن رسول الله ﷺ: «أنَّ الله عزَّ وجلَّ جعل بالمغرب بابًا مسيرة عرضه سبعونَ عامًا للتوبة لا يُغلق ما لمْ تطلُع الشمسُ مِنْ قِبَلِهِ»، وذلك قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ﴾(٣).

وروى أبو حازم عن أبي هريرة ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ إذا خرجنَ لا ينفعُ نفسًا إيمانُها لم تكنْ آمنتْ من قبل أو كسبتْ في إيمانِها خيرًا: الدجال، والدَّابّة، وطلوع الشمس من مغربها»(٤).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي: «فارقوا» بالألف هاهنا وفي سورة الروم، أي: خرجوا من دينهم وتركوه، وقرأ الآخرون: ﴿فَرَّقُوا﴾ مشددًا، أي: جعلوا دينَ الله وهو واحد ـ دين إبراهيم عليه السلام الحنيفية ـ أديانًا مختلفة، فتهوَّد قوم وتنصَّر قوم، يدل عليه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ أي: صارُوا فرقًا مختلفة، وهم اليهود والنصارى في قول مجاهد وقتادة والسدي.

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب برقم ٢٧٥٩: (٤/٢١١٣)، بلفظ: «إن الله عزَّ وجلَّ يبسط يده بالليل ليتوب ...»، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/٨٢).

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب استحباب الاستغفار برقم ٢٧٠٣: (٤/٢٠٧٦)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/٨٣).

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب ما جاء في فضل التوبة والاستغفار: (٩/٥١٧ ـ ٥١٩) مطولاً، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه ابن ماجه في الفتن، باب طلوع الشمس من مغربها، برقم ٤٠٧٠: (٢/١٣٥٣)، والطيالسي في «المسند»: ص ١٦٠ ـ ١٦١)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/٨٩).

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل الله فيه الإيمان برقم ١٥٨: (١/١٣٨).

وقيل: هم أصحاب البدع والشبهات من هذه الأمة، ورُوي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أن
١٢٧/أ رسول الله ﷺ قال لعائشة: «يا عائشةُ، / إنَّ الذين فارقُوا دينَهم وكانوا شِيَعًا هم أصحاب البدع والشبهات من هذه الأُمَّة»(١).

حدثنا أبو الفضل زياد بن محمد بن زياد الحنفي، أنا أبو محمد عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الأنصاري، أنا أبو عبد الله محمد بن عقيل بن الأزهري بن عقيل الفقيه البلخي، أنا الرَّمادي أحمد بن منصور، أنا الضحاك ابن مَخْلَد، أنا ثور بن يزيد، أنا خالد بن معدان، عن عبد الرحمن بن عمرو السُّلَمِي، عن العرباض بن سارية، قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ الصبح فوعظنا موعظةً بليغة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، وقال قائل: يا رسول الله، كأنَّها موعظةُ مودِّع فأَوْصِنَا؛ فقال: «أُوصِيكُمْ بتقوى الله والسمعِ والطَّاعةِ وإنْ كان عبدًا حبشيًّا، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين، عضُّوا عليها بالنواجِذِ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كل بدعة ضلالة»(٢).

ورُوي عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ بني إسرائيل تفرَّقَتْ على اثنين وسبعين فرقة، وتفرَّقَت أُمتي على ثلاثٍ وسبعين مِلَّة، كلهم في النار إلاَّ واحدة»، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»(٣).

---

(١) عزاه ابن كثير لابن مردويه، وقال: (وهو غريب . . . ولا يصح رفعه)، ثم قال: (والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفًا له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد، لا اختلاف فيه، ولا افتراق). «تفسير ابن كثير»: (٢/ ١٩٧).

وعزاه السيوطي للحكيم الترمذي، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، والطبراني، وأبي نعيم، والسجزي، والبيهقي في «شعب الإيمان». انظر: «الدر المنثور»: (٣/ ٤٠٢).

(٢) أخرجه أبو داود في السنة، باب لزوم السنة: (٧/ ١١)، وسكت عنه المنذري، وأخرجه الترمذي في العلم، باب ما جاء في الأخذ في السنة واجتناب البدع: (٧/ ٤٣٧ ـ ٤٤٢)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه في المقدمة برقم٤٢، ٤٣: (١/ ١٥ ـ ١٧)، والدارمي في المقدمة: (١/ ٤٤)، وصححه ابن حبان: ص١٠٢ من «موارد الظمآن»، وأخرجه اللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد»: (١/ ٧٤ ـ ٧٥)، والآجري في «الشريعة»: ص٤٦ ـ ٤٧، وابن أبي عاصم في «السنة»: (١/ ١٧ ـ ١٩)، وأخرجه الحاكم: (١/ ٩٥)، وقال: (صحيح ليس له علة)، والإمام أحمد: (٤/ ١٢٦ ـ ١٢٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ٢٠٥).

(٣) روى هذا الحديث من طرق كثيرة عن عدد من الصحابة بألفاظ مختلفة، فقد أخرجه أبو داود في السنة: (٧/ ٣ ـ ٤)، والترمذي في الإيمان، باب افتراق هذه الأمة: (٧/ ٣٩٧)، وقال: حسن صحيح.

وابن ماجه في الفتن برقم٣٩٩١: (٢/ ١٣٢١)، والدارمي في «السير»: (٢/ ٢٤١)، وابن حبان برقم١٨٣٤ من «الموارد»، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي: (١/ ١٢٨ ـ ١٢٩)، والإمام أحمد في «المسند»: (٢/ ٢٣٢).

وأخرجه ـ أيضًا ـ ابن أبي عاصم في «السنة»: (١/ ٧)، واللالكائي: (١/ ١٠٠)، والآجري في «الشريعة»: ص١٤ ـ ١٦.

وانظر: «الوصية الكبرى» لشيخ الإسلام ابن تيمية بتحقيقنا: ص٤٥ ـ ٤٦، طبع مكتبة الصديق، «تخريج أحاديث الكشاف»: (١/ ٤٤٧ ـ ٤٥٠).

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

قال عبد الله بن مسعود: «فإن أحسنَ الحديث كتابُ الله، وأحسنَ الهدي هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأمورِ مُحدثاتُها»[1]، ورواه جابر مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ[2].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ قيل: لست من قتالهم في شيء، نسختها آية القتال[3]، وهذا على قول من يقول: المراد في الآية اليهود والنصارى، ومن قال: أراد بالآية أهل الأهواء قال: المراد من قوله: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾، أي: أنتَ منهم بريء وهم منك براء، تقول العرب: إن فعلتَ كذا فلست مني ولستُ منكَ، أي: كل واحد مِنَّا بَرِيءٌ من صاحبه ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني: في الجزاء والمكافآت ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ إذا وردُوا للقيامة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ أي: له عشر حسنات أمثالها، وقرأ يعقوب «عَشْرٌ» منون، «أمثالُها» بالرفع ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي ثنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي ثنا أبو بكر محمد بن الحسن القطان ثنا محمد بن يوسف القطان ثنا محمد بن يوسف السلمي ثنا عبد الرزاق، أنا معمر، عن همام بن منبه ثنا أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أحسن أحدُكم إسلامه فكلُّ حسنة يعملُها تُكتبُ بعشرِ أمثالها إلى سبعمائةِ ضعف، وكلُّ سيئةٍ يعملُها تُكتبُ له بمثلها حتى يَلْقَى الله عزَّ وجلَّ»[4].

وأخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجاني ثنا عبد الغافر بن محمد الفارسي ثنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا أبو بكر بن أبي شيبة ثنا وكيع ثنا الأعمش، عن المعرور بن

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام، باب الاقتداء بالسنن: (١٣/ ٢٥١)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ٢١١)، قال ابن حجر في «الفتح»: (ظاهر سياق الحديث أنه موقوف، لكن القدر الذي له حكم الرفع منه، قوله: «وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ» فإن فيه إخبارًا عن صفة من صفاته ﷺ، وهو أحد أقسام المرفوع، وقلَّ من نبَّه على ذلك، وهو كالمتفق عليه لتخريج المصنفين المقتصرين على الأحاديث المرفوعة ـ الأحاديث الواردة في شمائله ﷺ، فإن أكثرها يتعلق بصفة خَلْقه وذاته، كوجهه وشعره، وكذا بصفة خُلُقه كحلمه وصفحه، وهذا مندرج في ذلك، مع أن الحديث جاء عن ابن مسعود مصرحًا فيه بالرفع من وجه آخر أخرجه أصحاب «السنن»، ولكنه ليس على شرط البخاري).

(٢) هذه الرواية أخرجها مسلم في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة برقم٨٦٧: (٢/ ٥٩٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ٢١١). وانظر: «فتح الباري»: (١٣/ ٢٥٣).

(٣) انظر فيما سبق: التعليق على تفسير الآية (١٣) من سورة المائدة: (١/ ٦٥٣).

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان، باب حسن إسلام المرء: (١/ ١٠٠) وبنحوه في التوحيد، ومسلم في الإيمان، باب إذا همَّ العبد بحسنة كتبت، وإن همَّ بسيئة لم تكتب برقم١٢٩: (١/ ١١٨ ـ ١١٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٣٣٨).

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤)﴾

سويد، عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: مَنْ جاءَ بالحسنةِ فَلَهُ عشرُ أمثالِها وأزيد، ومَنْ جاءَ بالسيئةِ فجزاءُ سيئةٍ بمثلها أو أغفر، ومَنْ تقرَّبَ مني شِبْرًا تقرَّبْتُ منه ذراعًا، ومَنْ تَقَرَّبَ مني ذِرَاعًا تقرَّبْتُ منه باعًا، ومَنْ أتاني يمشي أتيتُه هرولةً، ومن لقيني بِقُرَابِ الأرضِ خطيئةً لا يُشْرِكُ بي شيئًا لقيتُه بمثلها مغفرة»(١).

قال ابن عمر: الآية في غير الصدقات من الحسنات، فأما الصدقات تضاعف سبعمائة ضعف.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ قرأ أهل الكوفة والشام «قِيَمًا» بكسر القاف وفتح الياء خفيفةً، وقرأ الآخرون بفتح القاف وكسر الياء مشددًا، ومعناهما واحد: وهو القويم المستقيم، وانتصابه على معنى هداني دينًا قيمًا ﴿مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١)﴾.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ قيل: أراد بالنسك: الذبيحة في الحج والعمرة، وقال مقاتل: نسكي: حجي، وقيل: ديني ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ أي: حياتي ووفاتي ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾ أي: هو يحييني ويميتني، وقيل: محياي بالعمل الصالح ومماتي إذا مت على الإيمان لله رب العالمين، وقيل: طاعتي في حياتي لله وجزائي بعد مماتي من الله ربِّ العالمين، قرأ أهل المدينة: «ومحيايْ» بسكون الياء و«مماتيَ» بفتحها، وقراءة العامة ﴿وَمَحْيَايَ﴾ بفتح الياء لئلا يجتمع ساكنان.

قوله تعالى: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾ قال قتادة: وأنا أول المسلمين من هذه الأمة.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: سيِّدًا وإلهًا ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وذلك أن الكفار كانوا يقولون للنبي ﷺ: ارجعْ إلى ديننا. قال ابن عباس: كان الوليد بن المغيرة يقول: اتبعوا سبيلي أحملْ عنكم أوزاركم، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ لا تجني كل نفس إلا ما كان من إثمه على الجاني ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل نفس حمل أخرى، أي: لا يؤاخذ أحدٌ بذنب غيره ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤)﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب فضل الذكر والدعاء إلى الله تعالى برقم ٢٦٨٧: (٤/ ٢٠٦٨)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٢٥ـ٢٦).

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: أهلك أهل القرون الماضية وأورثكم الأرض يا أمة محمد ﷺ من بعدهم، فجعلكم خلائف منهم فيها تخلفونهم فيها وتعمرونها بعدهم، والخلائف جمع خليفة كالوصائف جمع وصيفة، وكل من جاء بعد مَنْ مضى فهو خليفة لأنه يخلفه ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: خالف بين أحوالكم فجعل بعضكم فوق بعض في الخلق والرزق والمعاش والقوة والفضل ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ ليختبركم فيما رزقكم، يعني: يبتلي الغني والفقير والشريف والوضيع والحرّ والعبد، ليظهر منكم ما يكون عليه من الثواب والعقاب ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لأن ما هو آت فهو سريع قريب، قيل: هو الهلاك في الدنيا ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ قال عطاء: سريع العقاب لأعدائه، غفور لأوليائه رحيم بهم.

* * *

سورة الأعراف

مكيّة كلها إلا خمس آيات، أولها ﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ﴾.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤

﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ ﴿كِتَٰبٌ﴾ أي: هذا كتاب ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ ١٢٧/ب
قال مجاهد: شك، فالخطاب للرسول ﷺ والمراد به الأمة، وقال أبو العالية: حرج أي: ضيق، معناه: لا يضيق صدرك بالإبلاغ وتأدية ما أرسلت به ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ أي: كتاب أُنزل إليكَ لِتُنْذِرَ به ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ أي: عظة لهم، وهو رفع، مردود على الكتاب.

﴿ٱتَّبِعُوا۟﴾ أي: وقلْ لهم: اتَّبعوا ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: لا تتخذوا غيره أولياء تطيعونهم في معصية الله تعالى ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ تتعظُونَ، وقرأ ابن عامر: «يتذكرون» بالياء والتاء.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ بالعذاب و«وَكَم» للتكثير و«رُبَّ» للتقليل ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿بَيَٰتًا﴾ ليلًا ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤﴾ من القيلولة، تقديره: فجاءها بأسُنَا ليلًا وهم نائمون، أو نهارًا وهم قائلون، أي: نائمون ظهيرة، والقيلولة: الاستراحة نصف النهار، وإن لم يكن معها نوم، ومعنى الآية: أنهم جاءهم بأسُنا وهم غير متوقعين له إمَّا ليلًا أو نهارًا، قال الزَّجَّاج: و«أَوْ» لتصريف العذاب، مرَّة ليلًا ومرة نهارًا، وقيل: معناه: مِنْ أهل القرى مَنْ أهلكناهم ليلًا، ومنهم من أهلكناهم نهارًا.

فإن قيل: ما معنى «أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا»؟ فكيف يكون مجيء البأس بعد الهلاك؟ قيل: معنى قوله: «أهلكنا»، أي: حَكَمْنَا بإهلاكها فجاءها بأسُنَا، وقيل: «فَجَآءَهَا بَأْسُنَا» هو بيان قوله: «أَهْلَكْنَٰهَا»، مثل قول القائل: أعطيتني فأحسنت إليَّ، لا فرق بينه وبين قوله: أحسنت إليَّ فأعطيتني، فيكون أحدهما بدلاً من الآخر.

فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: قولهم ودعاؤهم وتضرُّعهم، والدعوى تكون بمعنى الادعاء وبمعنى الدعاء، قال سيبويه: تقول العرب: اللهم أشرِكْنا في صالح دعوى المسلمين، أي: في دعائهم ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾ عذابنا ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ معناه: لم يقدروا على ردِّ العذاب، وكان حاصل أمرهم: الاعتراف بالجناية حين لا ينفع الاعتراف.

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ يعني: الأُمم عن إجابتهم الرسل، وهذا سؤال توبيخ لا سؤال استعلام، يعني: لنسألهم عمَّا عملوا فيما بلَّغتهم الرسل ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ عن الإبلاغ.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ أي: لنخبرنهم عن علم، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ينطق عليهم كتاب أعمالهم كقوله تعالى: «هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ»[الجاثية: ٢٩]، ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾ عن الرسل فيما بلغوا، وعن الأُمم فيما أجابوا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ يعني: يوم السؤال، قال مجاهد: معناه: والقضاء يومئذ العدل، وقال الأكثرون: أرادَ به: وزن الأعمال بالميزان، وذلك أن الله تعالى ينصب ميزانًا له لسان وكفتان، كل كِفَّة بقدر ما بين المشرق والمغرب.

واختلفوا في كيفية الوزن، فقال بعضهم: تُوزن صحائف الأعمال، ورُوينا: «أنَّ رجلًا يُنشر عليه تسعة وتسعون سجلًا، كل سجل مدّ البصر، فيُخرج له بطاقةٌ فيها شهادة أنْ لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فتوضع السجلات في كِفَّة، والبطاقة في كِفَّة، فطاشت السجلاتُ وثَقُلَتِ البطاقةُ»(١).

وقيل: توزن الأشخاص، ورُوينا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليأتي الرجلُ العظيمُ السَّمينُ يوم القيامة لا يَزِنُ عند الله جناحَ بَعُوضة»(٢).

وقيل: تُوزن الأعمال، رُوي ذلك عن ابن عباس، فيُؤتَى بالأعمال الحسنة على صورة حسنة وبالأعمال

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان، باب فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله: (٧/ ٣٩٥ ـ ٣٩٧)، وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه في الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة برقم ٤٣٠٠: (٢/ ١٤٣٧)، وصححه الحاكم: (١/ ٦)، وابن حبان: ص ٦٢٥ من «الموارد»، وأخرجه الإمام أحمد: (٢/ ٢١٣)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ١٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾: (٨/ ٤٢٦)، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب صفة القيامة والجنة والنار برقم ٢٧٨٥: (٤/ ٢١٤٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ١٤٣).

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾

السيئة على صورة قبيحة فتوضع في الميزان، والحكمةُ في وزن الأعمال امتحانُ الله عباده بالإيمان في الدنيا وإقامة الحجة عليهم في العقبى ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ قال مجاهد: حسناته ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ يجحدون، قال أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ حين حضره الموت في وصيته لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: إنَّما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتِّباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم، وحُقَّ لميزانٍ يوضع في الحق غدًا أن يكون ثقيلًا، وإنما خفَّتْ موازينُ من خفَّتْ موازينُه يومَ القيامة باتِّباعهم الباطلَ في الدنيا وخفته عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الباطل غدًا أن يكون خفيفًا(١).

فإن قيل: قد قال: «فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ» ذكر بلفظ الجمع، والميزان واحد؟ قيل: يجوز أن يكون لفظه جمعًا ومعناه واحد، كقوله: «يا أيها الرسل»، وقيل: لكل عبد ميزان، وقيل: الأصل ميزان واحد عظيم، ولكل عبد فيه ميزان معلَّق به، وقيل جَمَعَه: لأن الميزان يشتمل على الكِفَّتين والشاهدين واللسان، ولا يتم الوزن إلا باجتماعها.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مكنَّاكم، والمراد من التمكين: التمليك والقدرة ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ﴾ أي: أسبابًا تعيشون بها أيام حياتكم من التجارات والمكاسب والمآكل والمشارب والمعايش جمع المعيشة ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ فيما صنعتُ إليكم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ﴾ قال ابن عباس: خلقناكم، أي: أُصُولكم وآباءَكم ثم صوَّرناكم في أرحام أمهاتكم، وقال قتادة والضحاك والسدي: أمَّا «خَلَقْنَـٰكُمْ» فآدم، وأمَّا «صَوَّرْنَـٰكُمْ» فذريته، وقال مجاهد في «خَلَقْنَـٰكُمْ»: آدم، «ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ» في ظهر آدم بلفظ الجمع؛ لأنه أبو البشر ففي خلقه خلق من يخرج من صلبه، وقيل: خلقناكم في ظهر آدم ثم صوَّرناكم يوم الميثاق حين أخرجكم كالذر، وقال عكرمة: خلقناكم في أصلاب الرجال ثم صوَّرناكم في أرحام النساء، وقال يمان: خلق الإنسان في

(١) انظر: «طبقات ابن سعد»: (٤/ ٢٠٠)، و«المصنف» لابن أبي شيبة: (١٣/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩)، و«الزهد» لابن المبارك: ص٣١٩، و«الزهد» لهنَّاد: (١/ ٥٨٨ ـ ٥٨٩).

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾

الرحم ثم صوَّره وشقَّ سمعَه وبصرَه وأصابعه، وقيل: الكل آدم خلقه وصوَّره و«ثُمَّ» بمعنى الواو.

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ فإن قيل: الأمر بسجود الملائكة كان قبل خلق بني آدم، فما وجه قوله: «ثُمَّ قُلْنَا» و«ثم» للترتيب وللتراخي؟ قيل: على قول من يصرف الخلق والتصوير إلى آدم وحده يستقيم هذا الكلام، أما على قول من يصرفه إلى الذرية؛ فعنه أجوبة:

أحدها: «ثُمَّ» بمعنى الواو، أي: وقلنا للملائكة، فلا تكون للترتيب والتعقيب.

وقيل: أراد «ثُمَّ» أخبركم أنا قلنا للملائكة اسجدوا. وقيل: فيه تقديم وتأخير تقديره: ولقد خلقناكم، يعني: آدم، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ثم صوَّرناكم.

قوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوا﴾ يعني: الملائكة ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ لآدم.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: يا إبليس ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ أي: وما منعك أن تسجد، و«لا» زائدة كقوله
١٢٨/أ تعالى: «وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ»[الأنبياء: ٩٥]، / ﴿قَالَ﴾ إبليس مجيبًا: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ لأنك ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ والنار خير وأنور من الطين.

قال ابن عباس: أول من قاس إبليس فأخطأ القياس، فمن قاس الدين بشيء من رأيه قرنه الله مع إبليس.

قال ابن سيرين: ما عُبِدَتِ الشَّمْسُ إلا بالقياس.

قال محمد بن جرير: ظن الخبيث أن النار خير من الطين، ولم يعلم أن الفضل لمن جعل الله له الفضل، وقد فضَّل الله الطين على النار من وجوه، منها: أنَّ مِنْ جوهر الطين: الرزانة والوقار والحلم والصبر، وهو الداعي لآدم بعد السعادة التي سبقت له إلى التوبة والتواضع والتضرع فأورثه الاجتباء والتوبة والهداية، ومِنْ جوهر النار: الخفة والطيش والحدة والارتفاع، وهو الداعي لإبليس بعد الشقاوة التي سبقت له إلى الاستكبار والإصرار، فأورثه اللعنة والشقاوة؛ ولأن الطين سبب جمع الأشياء، والنار سبب تفرقها؛ ولأن التراب سبب الحياة، فإنَّ حياة الأشجار والنبات به، والنار سبب الهلاك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة، وقيل: من السماء إلى الأرض، وكان له مُلْك الأرض فأخرجه منها إلى جزائر البحر وعرشه في البحر الأخضر، فلا يدخل الأرض إلا خائفًا على هيئة السارق، مثل شيخ عليه أطمار يروع فيها حتى يخرج منها.

قوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ﴾ بمخالفة الأمر ﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنة، فلا ينبغي أن يسكن في الجنة ولا السماء متكبرٌ مخالفٌ لأمر الله تعالى: ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ من الأذلاء، والصَّغار: الذل والمهانة.

قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾

﴿قَالَ﴾ إبليس عند ذلك: ﴿أَنظِرْنِيٓ﴾ أخرني وأمهلني فلا تمتني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾ من قبورهم، وهو النفخة الأخيرة عند قيام الساعة، أراد الخبيث أن لا يذوق الموت.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾ المؤخرين، وبيَّن مدة النظر والمهلة في موضع آخر فقال: «إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ»[الحجر: ٣٨]، وهو النفخة الأولى حين يموت الخلق كلهم.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ اختلفوا في «ما»، قيل: هو استفهام، يعني: فبأيِّ شيءٍ أغويتني؟ ثم ابتدأ فقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ وقيل: «ما» الجزاء، أي: لأجل أنك أغويتني لأحقدَنَّ لهم، وقيل: هو «ما» المصدرية موضع القسم، تقديره: فبإغوائك إيَّاي لأقعدنَّ لهم، كقوله: «بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ»[يس: ٢٧]، يعني: لغفران ربي. والمعنى: بقدرتك عليَّ ونفاذ سلطانك فيَّ، وقال ابن الأنباري: أي: فبما أوقعت في قلبي من الغي الذي كان سبب هبوطي من السماء، «أَغْوَيْتَنِى»: أضللتني عن الهدى، وقيل: أهلكتني، وقيل: خيَّبتني ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ أي: لأجلسنَّ لبني آدم على طريقك القويم: وهو الإسلام.

﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ»، أي: مِنْ قِبل الآخرة فأُشككُهم فيها ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أرغبهم في دنياهم ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أشبِّه عليهم أمر دينهم ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ أشهي لهم المعاصي، وروى عطية عن ابن عباس: «مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ» من قِبَلِ دنياهم، يعني: أزينها في قلوبهم «وَمِنْ خَلْفِهِمْ» من قِبَل الآخرة، فأقول: لا بعث ولا نشور، ولا جنة ولا نار «وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ» من قِبَلِ حسناتهم «وَعَن شَمَآئِلِهِمْ» من قِبَلِ سيئاتهم.

وقال الحكم: «مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ»: من قبل الدنيا يزينها لهم «وَمِنْ خَلْفِهِمْ»: من قِبَل الآخرة يثبطهم عنها، «وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ»: من قِبَلِ الحقِّ يصدّهم عنه، «وَعَن شَمَآئِلِهِمْ»: من قِبَلِ الباطل يزينه لهم، وقال قتادة: أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار، ومن خلفهم: من أمور الدنيا يزينها لهم ويدعوهم إليها، وعن أيمانهم: من قبل حسناتهم بطَّأهم عنها، وعن شمائلهم: زين لهم السيئات والمعاصي ودعاهم إليها، أتاك يا ابن آدم من كل وجه، غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله، وقال مجاهد: من بين أيديهم وعن أيمانهم من حيث يبصرون، ومن خلفهم وعن شمائلهم حيث لا يبصرون، وقال ابن جريج: معنى قوله حيث لا يبصرون، أي: لا يخطئون، وحيث لا يبصرون، أي: لا يعلمون أنهم يخطئون.

قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ
أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾
فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ
هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ
ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ مؤمنين، فإن قيل: كيف علم الخبيث ذلك؟ قيل: قاله ظنًّا فأصاب، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾[سبأ: ٢٠].

﴿قَالَ﴾ الله تعالى لإبليس: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي: معيبًا، والذَّيم والذَّأم أشد العيب، يقال: ذَأَمَهُ يَذْأَمُهُ ذَأْمًا فهو مذؤومٌ، وذامه يذيمه ذامًا فهو مَذِيم، مثل: سار يسير سيرًا، والمدحور: المبعد المطرود، يقال: دحره يدحره دحرًا إذا أبعده وطرده، قال ابن عباس: ﴿مَذْءُومًا﴾، أي: ممقوتًا، وقال قتادة: ﴿مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾، أي: لعينًا منفيًّا، وقال الكلبي: ﴿مَذْءُومًا﴾: ملومًا، ﴿مَّدْحُورًا﴾: مقصيًّا من الجنة ومن كل خير ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ من بني آدم ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ اللام لام القسم، ﴿مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ أي: منك ومن ذريتك ومن كفار ذرية آدم أجمعين.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: إليهما، والوسوسة: حديث يُلقيه الشيطان في قلب الإنسان ﴿لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ أي: أظهر لهما ما غُطي وسُتر عنهما من عوراتهما، قيل: اللام فيه لام العاقبة؛ وذلك أن إبليس لم يوسوس بهذا، ولكن كان عاقبة أمرهم ذلك، وهو ظهور عورتهما، كقوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[القصص: ٨]، ثم بيَّن الوسوسة فقال: ﴿وَقَالَ﴾ يعني: إبليس لآدم وحواء: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ يعني: لئلا تكونا، كراهية أن تكونا مَلَكَيْنِ من الملائكة يعلمان الخير والشر ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ من الباقين الذين لا يموتون، كما قال في موضع آخر: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[طه: ١٢٠].

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ أي: وأقسم وحلف لهما، وهذا من المفاعلة التي تختص بالواحد، قال قتادة: حلف لهما بالله حتى خدعهما، وقد يُخدع المؤمن بالله، فقال: إني خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتَّبعاني أرشدكما، وإبليس أول من حلف بالله كاذبًا، فلما حلف ظنَّ آدم أن أحدًا لا يحلف بالله كاذبًا، فاغترَّ به.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾﴾

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ﴾ أي: خدعهما، يقال: ما زال فلان يدلي لفلان بغرور، يعني: ما زال يخدعه ويكلمه بزخرف باطل من القول.

وقيل: حطهما من منزلة الطاعة إلى حال المعصية، ولا يكون التدلي إلاّ من علو إلى أسفل، والتدلية: إرسال الدلو في البئر، يقال: تدلّى بنفسه ودلّى غيره، قال الأزهري: أصله: تدلية العطشان البئر ليروى من الماء ولا يجد الماء / فيكون مُدَلًّى بغرور، والغرور: إظهار النصح مع إبطانِ الغش. ١٢٨/ب

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ قال الكلبي: فلما أكلا منها، ورُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنه قال: قبل أن ازدردا أخذتْهُما العقوبةُ، والعقوبةُ أن «بَدَتۡ» ظهرت لهما «سَوۡءَٰتُهُمَا» عوراتُهما، وتهافت عنهما لباسهما حتى أبصر كل واحد منهما ما وُورِيَ عنه من عورة صاحبه، وكانا لا يريان ذلك، قال وهب: كان لباسهما من النور، وقال قتادة: كان ظفرًا، ألبسهما الله من الظفر لباسًا، فلمَّا وقعا في الذنب بدت لهما سوآتهما فاستحييا ﴿وَطَفِقَا﴾ أقبلا وجعلا ﴿يَخۡصِفَانِ﴾ يرقعان ويلزقان ويصلان ﴿عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ وهو ورق التين حتى صار كهيئة الثوب.

قال الزَّجّاج: يجعلان ورقة على ورقة ليسترا سوآتهما، ورُوي عن أُبي بن كعب عن رسول الله ﷺ: «كان آدم رجلًا طِوَالاً كأنه نخلة سَحُوق[1] كثير شعر الرأس، فلما وقع في الخطيئة بدت له سوأتُه، وكان لا يراها فانطلق هاربًا في الجنة، فعرضت له شجرةٌ من شجر الجنة فحبسته بشعره، فقال لها: أرسليني، قالت: لست بمرسلتك، فناداه ربُّه: يا آدمُ أمِنّي تفرّ؟ قال: لا يارب، ولكن استحييتُك»[2].

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ يعني: الأكل منها ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾﴾ أي: بيِّنَ العداوة، قال محمد بن قيس: ناداه ربُّه يا آدمُ أكلت منها وقد نهيتُك؟ قال: ربِّ أطعَمَتْني حواء، قال لحواء: لِمَ أطعمتيه؟ قالت: أمَرتني الحية، قال للحيَّةِ: لِمَ أمرتيها؟ قالتْ: أمرني إبليس، فقال الله تعالى: أمَّا أنت يا حواء فكما أدميت الشجرة فتدمين كل شهر، وأما أنت يا حية فأقطع قوائمك فتمشين

---

(١) هي النخلة الطويلة المفرطة في الطول التي تبعد ثمرها عن المجتني.

(٢) أخرجه ابن جرير مرفوعًا وموقوفًا: (١٢/ ٣٥٢، ٣٥٤)، قال ابن كثير (٢/ ٢٠٧): (وقد رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق عن الحسن عن أُبي بن كعب عن النبي ﷺ مرفوعًا، والموقوف أصح إسنادًا).

وصحة السند إلى أُبي ـ رضي الله عنه ـ لا تعني صحة الخبر في ذاته، فهذه التفصيلات الغيبية، لا دليل ثابت على صحتها، وغالبًا ما تكون متلقاة من أهل الكتاب، والله أعلم.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

على بطنك ووجهك، وسيشدخ رأسك من لقيك، وأمّا أنتَ يا إبليس فملعون مدحور[١].

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ يعني: في الأرض تعيشون ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: من الأرض تخرجون من قبوركم للبعث، قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي: «تَخرجون» بفتح التاء هاهنا وفي الزخرف، وافق يعقوب هاهنا، وزاد حمزة والكسائي: «وكذلك تَخرجون» في أول الروم، والباقون بضم التاء وفتح الراء فيهن.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ﴾ أي: خلقنا لكم ﴿لِبَاسًا﴾ وقيل: إنّما قال: «أَنزَلْنَا»؛ لأن اللباس إنما يكون من نبات الأرض، والنبات يكون بما ينزل من السماء، فمعنى قوله: «أَنزَلْنَا»، أي: أنزلنا أسبابه، وقيل: كل بركات الأرض منسوبة إلى بركات السماء، كما قال تعالى: «وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ»[الحديد: ٢٥]، وإنما يستخرج الحديد من الأرض. وسبب نزول هذه الآية: أنهم كانوا في الجاهلية يطوفون بالبيت عراة، ويقولون: لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها، فكان الرجال يطوفون بالنهار والنساء بالليل عراة.

وقال قتادة: كانت المرأة تطوف وتضع يدها على فرجها وتقول:

اليَـوْمَ يَبْـدُو بَعْضُـهُ أَوْ كُلُّـهُ   وَمَـا بَـدَا مِنْـهُ فَـلَا أُحِلُّـهُ

فأمر الله سبحانه بالستر فقال: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾[٢]، يستر عوراتكم، واحدتها سوأة، سُمِّيت بها؛ لأنه يسوء صاحبَها انكشافُها، فلا تطوفوا عراةً ﴿وَرِيشًا﴾ يعني: مالاً في قول ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدي: يُقال: تَرَيَّش الرَّجل إذا تموّل، وقيل: الريش: الجمال، أي: ما يتجملون به من الثياب، وقيل: هو اللباس.

---

(١) تقدمت الإشارة إلى ضعف الروايات في ذلك، وأنها مستقاة من الإسرائيليات، وخبر محمد بن قيس هذا: أخرجه الطبري في «التفسير»: (١/ ٥٣٠ ـ ٥٣١)، (١٢/ ٣٥٤)، وفي «التاريخ»: (١/ ١٠٩).

(٢) انظر: «تفسير الطبري»: (١٢/ ٣٨٩ ـ ٣٩٠)، «أسباب النزول» للواحدي: ص٢٥٩ ـ ٢٦٠، ابن كثير: (٢/ ٢٠٩، ٢١١)، وأصله في «صحيح مسلم»: (٤/ ٢٣٢٠) من حديث ابن عباس.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ قرأ أهل المدينة وابن عامر والكسائي «ولباسَ» بنصب السين عطفًا على قوله «لِبَاسًا»، وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء وخبره «خَيۡرٞۚ» وجعلوا «ذَٰلِكَ» صلة في الكلام؛ ولذلك قرأ ابن مسعود وأُبيّ بن كعب «ولباسُ التقوى خير».

واختلفوا في «وَلِبَاسُ»، قال قتادة والسدي: لباس التقوى هو الإيمان، وقال الحسن: هو الحياء؛ لأنه يبعث على التقوى، وقال عطية عن ابن عباس: هو العمل الصالح، وعن عثمان بن عفان أنه قال: السَّمْتُ الحسن، وقال عروة بن الزبير: لباس التقوى خشية الله، وقال الكلبي: هو العفاف، والمعنى: لباس التقوى خير لصاحبه إذا أخذ به مما خُلق له من اللباس للتجمل، وقال ابن الأنباري: لباس التقوى: هو اللباس الأول، وإنما أعاده إخبارًا أن ستر العورة خير من التعري في الطواف، وقال زيد بن علي: لباس التقوى: الآلات التي يُتقى بها في الحرب، كالدرع والمغفر والساعد والساقين.

وقيل: لباس التقوى: هو الصوف والثياب الخشنة التي يلبسها أهل الورع ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ لا يضلنكم الشيطان ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم﴾ أي: كما فتن أبويكم آدم وحواء فأخرجهما ﴿مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾ ليرى كل واحد سوأة الآخر ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ﴾ يعني: أن الشيطانَ يراكم يا بني آدم ﴿هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ جنوده، قال ابن عباس: هو وولده، وقال قتادة: قبيله: الجن والشياطين ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾ قال مالك بن دينار: إنَّ عدوًا يراكَ ولا تراه لشديد الخصومة والمؤنة إلاّ مَن عَصَمَ الله ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ﴾ قرناء وأعوانًا ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ وقال الزّجّاج: سلطانهم عليهم يزيدون في غيهم، كما قال: «أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا» [مريم: ٨٣].

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هي طوافهم بالبيت عراة، وقال عطاء: الشرك والفاحشة: اسم لكل فعل قبيح بلغ النهاية في القبح ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا﴾ وفيه إضمار معناه: وإذا فعلوا فاحشةً فنُهُوا عنها قالوا: وجدنا عليها آباءنا، قيل: ومن أين أخذ آباؤكم؟ قالوا: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ قال ابن عباس: بِلَا إلهَ إلاَّ الله، وقال الضحاك: بالتوحيد، وقال مجاهد والسدي: بالعدل ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ قال مجاهد والسدي: يعني: وجِّهوا وجوهكم حيث ما كنتم في الصلاة إلى الكعبة، وقال الضحاك: إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجد فصلُّوا فيه، ولا يقولنَّ أحدكم أصلي في مسجدي، وقيل: معناه: اجعلوا سجودكم لله خالصًا ﴿وَادْعُوهُ﴾ واعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الطاعة والعبادة ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ قال ابن عباس: إن الله تعالى بدأ خلق بني آدم مؤمنًا
١٢٩/أ وكافرًا / كما قال: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ»[التغابن: ٢]، ثم يعيدهم يوم القيامة كما خلقهم مؤمنًا وكافرًا، قال مجاهد: يبعثون على ما ماتوا عليه.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، حدثنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي، أنبأنا محمد بن عبد الله الصفار، حدثنا أحمد بن محمد بن عيسى البرتي، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا سفيان الثوري، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يُبعث كلُّ عبدٍ على ما مات عليه، المؤمن على إيمانه والكافر على كفره»(١).

وقال أبو العالية: عادوا على علمه فيهم، قال سعيد بن جبير: كما كتب عليكم تكونون.

قال محمد بن كعب: من ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إليها وإن عمل بعمل أهل السعادة، كما أن إبليس كان يعمل بعمل أهل السعادة ثم صار إلى الشقاوة، ومن ابتدأ خلقه على السعادة صار إليها وإن عمل بعمل أهل الشقاء، وكما أن السحرة كانت تعمل بعمل أهل الشقاوة فصاروا إلى السعادة.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنبأنا عبد الرحمن بن أبي شريح، أنبأنا أبو القاسم البغوي، ثنا علي بن الجعد، حدثنا أبو غسان، عن أبي حازم قال: سمعت سهل بن سعد يقول: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ العبد يعمل فيما يرى الناس بعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنه ليعمل فيما يرى الناسُ بعمل أهل النار وإنه من أهل الجنة، وإنما الأعمال بالخواتيم»(٢).

وقال الحسن ومجاهد: كما بدأكم فخلقكم في الدنيا ولم تكونوا شيئًا، كذلك تعودون أحياء يوم القيامة

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت برقم٢٨٧٨: (٤/ ٢٢٠٦)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٤٠٢)، دون قوله: «المؤمن على إيمانه».

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه برقم١١٢: (١/ ١٠٦) وفيه قصة، وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١/ ١٥٠).

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾

كما قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾[الأنبياء: ١٠٤]، قال قتادة: بدأهم من التراب وإلى التراب يعودون، نظيره قوله تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾[طه: ٥٥].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ أي: هداهم الله ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ﴾ وجب ﴿عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ أي: بالإرادة السابقة ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ فيه دليل على أن الكافر الذي يظن أنه في دينه على الحق والجاحد والمعاند سواء.

قوله تعالى: ﴿۞ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ قال أهل التفسير[1]: كانت بنو عامر يطوفون بالبيت عراة، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿۞ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، يعني: الثياب، قال مجاهد: ما يُواري عورتك ولو عباءة.

قال الكلبي: الزينة ما يُواري العورة عند كل مسجد لطواف أو صلاة.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ قال الكلبي: كانت بنو عامر لا يأكلون في أيام حجِّهم من الطعام إلاَّ قوتًا ولا يأكلون دسمًا، يعظمون بذلك حجَّهم، فقال المسلمون: نحن أحق أن نفعل ذلك يا رسول الله، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكُلُوا﴾ يعني: اللحم والدسم ﴿وَاشْرَبُوا﴾ اللبن[2] ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ بتحريم ما أحلَّ الله لكم من اللحم والدسم ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ الذين يفعلون ذلك، قال ابن عباس: كُلْ ما شئتَ والبسْ ما شئتَ ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة، قال علي بن الحسين بن واقد: قد جمع الله الطِّبَّ كله في نصف آية فقال: كُلوا ﴿وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ يعني: لبس الثياب في الطواف، ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ يعني: اللحم والدسم في أيام الحج.

---

(١) انظر: «الدر المنثور»: (٣/ ٤٣٩ ـ ٤٤١) ففيه جملة روايات.

(٢) انظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص ٢٦٠.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

وعن ابن عباس وقتادة: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ ما حرَّم أهل الجاهلية من البحائر والسوائب.

﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فيه حذف تقديره: هي للذين آمنوا وللمشركين في الحياة الدنيا، فإن أهل الشرك يشاركون المؤمنين في طيبات الدنيا، وهي في الآخرة خالصة للمؤمنين لا حظَّ للمشركين فيها.

وقيل: هي خالصة يوم القيامة من التنغيص والغم للمؤمنين، فإنها لهم في الدنيا مع التنغيص والغم.

قرأ نافع: «خالصةٌ» رفع، أي: قلْ هي للذين آمنوا مشتركين في الدنيا، وهي في الآخرة خالصة يوم القيامة للمؤمنين، وقرأ الآخرون بالنصب على القطع ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ يعني: الطواف عراة، ﴿مَا ظَهَرَ﴾: طواف الرجال بالنهار، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾: طواف النساء بالليل، وقيل: هو الزنا سرًّا وعلانيةً.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا شعبة، عن عمرو بن مرة، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: قلت: أنت سمعت هذا من عبد الله؟ قال: نعم، فرفعه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحدَ أغيَرُ من الله؛ فلذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحدَ أحبُّ إليه المَدْحُ من الله، فلذلك مَدَحَ نفسَه»[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ يعني: الذنب والمعصية، وقال الضحاك: الذنب الذي لا حدَّ فيه، قال الحسن: الإثم: الخمر، قال الشاعر:

شَرِبْتُ الإثْمَ حتَّى ضَلَّ عَقْلِي ... كذاكَ الإثْمُ تَذْهَبُ بالعُقُولِ[2]

﴿وَٱلْبَغْىَ﴾ الظلم والكِبْر ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ حجةً وبرهانًا ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ في تحريم الحرث والأنعام ـ في قول مقاتل ـ وقال غيره: هو عام في تحريم القول في الدين من غير يقين.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، سورة الأنعام، باب ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾: (٨/ ٢٩٦) وفي التوحيد وفي النكاح، ومسلم في التوبة، باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش برقم ٢٧٦٠: (٤/ ٢١١٣ ـ ٢١١٤).

(٢) من شواهد «الصحاح» و«اللسان» مادة: «أثم»، دون نسبة. وانظر: «معجم مقاييس اللغة»: (١/ ٦٠ ـ ٦١).

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مدَّة، وأكل وشرب، وقال ابن عباس وعطاء والحسن: يعني: وقتًا لنزول العذاب بهم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ وانقطع أكلهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: ولا يتقدمون، وذلك حين سألوا العذاب فأنزل الله هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ أي: أن يأتيكم، قيل: أراد جميع الرسل، وقال مقاتل: أراد بقوله «يَا بَنِي آدَمَ»: مشركي العرب، وبالرسل محمدًا ﷺ وحده ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ قال ابن عباس: فرائضي وأحكامي ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ﴾ أي: اتقى الشرك وأصلح عمله، وقيل: أخلص ما بينه وبين ربّه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ إذا خاف الناس ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: إذا حزنوا.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ تكبروا على الإيمان بها، وإنما ذكر الاستكبار؛ لأن كل مكذِّب وكافر متكبر، قال الله تعالى: «إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ»[الصافات: ٣٥]، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ جعل له شريكًا ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ بالقرآن ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: حظهم ممَّا كتب لهم في اللوح المحفوظ، واختلفوا فيه، قال الحسن والسدي: ما كتب لهم من العذاب، وقضى عليهم من سواد الوجوه وزرقة العيون، قال عطية عن ابن عباس: كُتب لمن يفتري على الله أنَّ وجهه مسودٌّ، قال الله تعالى: «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ»[الزمر: ٦٠].

وقال سعيد بن جبير ومجاهد: ما سبق لهم من الشقاوة والسعادة، وقال ابن عباس وقتادة / والضحاك: يعني: أعمالهم التي عملوها، وكتب عليهم من خير وشر يجزي عليها.

وقال محمد بن كعب القرظي: ما كتب لهم من الأرزاق والآجال والأعمار والأعمال، فإذا فنيت

﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ يقبضون أرواحهم، يعني: ملك الموت وأعوانه ﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني: يقول الرسل للكافر: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سؤال تبكيت وتقريع ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ بطلوا وذهبوا عنَّا ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ اعترفوا عند معاينة الموت ﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ﴾ يعني: يقول الله لهم يوم القيامة: ادخلوا في أُمم، أي: مع جماعات ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ يعني: كفار الأمم الخالية ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ يريد: أختها في الدين لا في النسب، فتلعن اليهود اليهودَ والنصارى النصارى، وكل فرقة تلعن أُختها، ويلعن الأتباع القادة، ولم يقل أخاه؛ لأنه عنى الأمة والجماعة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا﴾ أي: تداركوا وتلاحقوا واجتمعوا في النار ﴿جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ﴾ قال مقاتل: يعني: أُخراهم دخولاً، وهم الأتباع ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ أي: لأُولاهم دخولاً، وهم القادة؛ لأن القادة يدخلون النار أوّلاً، وقال ابن عباس: يعني: آخر كل أمة لأُولاها، وقال السدي: أهل آخر الزمان لأُولاهم الذين شرعوا لهم ذلك الدين ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين ﴿أَضَلُّونَا﴾ عن الهدى، يعني: القادة ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: ضَعِّفْ عليهم العذاب ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ يعني: للقادة والأتباع ضعف من العذاب ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ ما لكل فريق منكم من العذاب. قرأ الجمهور: «وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ»، وقرأ أبو بكر: «لا يعلمون»، أي: لا يعلم الأتباع ما للقادة، ولا القادة ما للأتباع.

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ﴾ يعني: القادة ﴿لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ للأتباع: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ لأنكم كفرتم كما كفرنا، فنحن وأنتم في الكفر سواء، وفي العذاب سواء ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ﴾ بالتاء خفف أبو عمر، وبالياء خفف حمزة والكسائي، والباقون بالتاء مشدَّدة ﴿أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ لأدعيتهم ولا لأعمالهم، وقال ابن عباس: لأرواحهم؛

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

لأنها خبيثة، لا يصعد بها بل يهوى بها إلى سجين، إنما تفتَّح أبواب السماء لأرواح المؤمنين وأدعيتهم وأعمالهم ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ أي: حتى يدخل البعير في ثقب الإبرة، والخياط والمخيط: الإبرة، والمراد منه: أنهم لا يدخلون الجنة أبدًا؛ لأن الشيء إذا عُلِّق بما يستحيل كونه يدلُّ ذلك على تأكيد المنع، كما يقال: لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب أو يبيض القار، يريد: لا أفعله أبدًا ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي: فراش ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أي: لُحف، وهي جمع غاشية، يعني: ما غشَّاهم وغطَّاهم، يريد: إحاطة النار بهم من كل جانب، كما قال الله: «لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ»[الزمر: ١٦]، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: طاقتها، وما لا تحرج فيه ولا تضيق عليه ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَنَزَعْنَا﴾ وأخرجنا ﴿مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ من غش وعداوة كانت بينهم في الدنيا، فجعلناهم إخوانًا على سُرر متقابلين، لا يحسد بعضهم بعضًا على شيء خصَّ الله به بعضهم ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ روى الحسن عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: فينا والله ـ أهل بدر ـ نزلت: «ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانًا على سرر متقابلين»(١).

وقال علي ـ رضي الله عنه ـ أيضًا: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال لهم الله عزَّ وجلَّ: «وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ».

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» ص٦٤: «رواه ابن سعد: (٣/ ١١٣) من رواية جعفر بن محمد عن أبيه، والطبري: (١٢/ ٤٣٢) من رواية معمر عن قتادة عن علي، وكلاهما منقطع. وفي ابن أبي شيبة من رواية ربعي عن علي، وهو متصل».

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا الصلت بن محمد، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن أبي المتوكل الناجي، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يَخْلُصُ المؤمنون من النار، فَيُحْبَسُونَ على قنطرةٍ بين الجنَّةِ والنار، فَيُقْتَصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذن لهم في دخول الجنة، فَوَالذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ لأحَدُهُمْ أهدى بمنزلِهِ في الجنة منه بمنزلِهِ كان في الدنيا»[1].

وقال السدي في هذه الآية: إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان، فشربوا من إحداهما، فينزع ما في صدورهم من غِلّ، فهو الشراب الطهور، واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلن يشعثوا ولن يسحنوا بعدها أبدًا، أي إلى هذا، يعني: طريق الجنة.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا﴾ قال سفيان الثوري: معناه: هدانا لعملٍ هذا ثوابه ﴿وَمَا كُنَّا﴾ قرأ ابن عامر: «ما كنَّا» بلا واو ﴿لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ هذا قول أهل الجنة حين رأوا ما وعدهم الرسل عيانًا ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ قيل: هذا النداء إذا رأوا الجنة من بعيد نُودُوا أنْ تلكم الجنة.

وقيل: هذا النداء يكون في الجنة.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة الخطيب، أنبأنا أبو طاهر محمد بن الحارث، أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنبأنا عبد الله بن محمد، أنبأنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن الأغر، عن أبي سعيد، وعن أبي هريرة قالا: ينادي منادٍ: إنَّ لكم أن تصحُّوا فلا تسقمُوا أبدًا، وإنَّ لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإنَّ لكم أن تشبُّوا فلا تهرمُوا أبدًا، وإنَّ لكم أن تنعموا فلا تَبْأسُوا أبدًا؛ فذلك قوله: «وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ»، هذا حديث صحيح أخرجه مسلم بن الحجاج، عن إسحاق بن إبراهيم وعبد الرحمن بن حميد، عن عبد الرزاق، عن سفيان الثوري بهذا الإسناد مرفوعًا[2].

ورُوي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ أحدٍ إلاَّ وله منزل في الجنة ومنزل في النار، فأمَّا الكافر فإنه يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر ومنزله من الجنة»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب القصاص يوم القيامة: (١١/ ٣٩٥) وفي المظالم، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ١٩٦).

(٢) أخرجه مسلم في الجنة، باب في دوام نعيم أهل الجنة برقم ٢٨٣٧: (٤/ ٢١٨٢).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم. انظر: «تفسير ابن كثير»: (٢/ ١٣٥).

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٤) ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ (٤٥) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦)﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ من الثواب، ﴿حَقًّا﴾ أي: صدقًا ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ من العذاب ﴿حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ﴾ قرأ الكسائي بكسر العين حيث كان، والباقون بفتحها، وهما لغتان ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ أي: نادى منادٍ أسمع الفريقين ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٤)﴾ قرأ أهل المدينة والبصرة وعاصم: «أن» خفيف، «لَعْنَةُ» رفع، وقرأ الآخرون بالتشديد، «لَعْنَةَ ٱللَّهِ» نصب على الظالمين، أي: الكافرين / ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ أي: يصرفون الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طاعة الله ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يطلبونها زيغًا وميلًا، أي: يطلبون سبيل الله جائرين عن القصد. ١/١٣٠

قال ابن عباس: يصلُّون لغير الله، ويعظمون ما لم يعظمه الله، والعِوَج ـ بكسر العين ـ في الدِّين والأمر والأرض وكل ما لم يكن قائمًا، وبالفتح في كل ما كان قائمًا كالحائط والرمح ونحوهما ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ (٤٥)﴾.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ يعني: بين الجنة والنار، وقيل: بين أهل الجنة وبين أهل النار حجاب، وهو السور الذي ذكر الله تعالى في قوله: «فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ»[الحديد: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ والأعراف: هي ذلك السور الذي بين الجنة والنار، وهي جمع عُرف، وهو اسم للمكان المرتفع، ومنه عرف الديك؛ لارتفاعه عما سواه من جسده، وقال السدي: سُمي ذلك السور أعرافًا لأنَّ أصحابه يعرفون الناس.

واختلفوا في الرجال الذين أخبر الله عنهم أنهم على الأعراف، فقال حذيفة وابن عباس: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار، فوقفوا هناك حتى يقضي الله فيهم ما يشاء، ثم يُدخلهم الجنة بفضل رحمته، وهم آخر من يدخل الجنة.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث، أنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنا عبد الله بن محمود، أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، ثنا عبد الله بن المبارك، عن أبي بكر الهذلي قال: قال سعيد بن جبير، يُحدِّث عن ابن مسعود قال: يُحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناتُه أكثرَ من سيئاته بواحدة دخل الجنَّةَ، ومن كانت سيئاتُه أكثرَ من حسناته بواحدة دخل النار، ثم قرأ قول الله تعالى:

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾[الأعراف: ٨-٩]، ثم قال: إن الميزان يخف بمثقال حبة أو يرجح[١]، قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الصراط، ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادَوا سلامٌ عليكم، وإذا صرفوا أبصارهم إلى أصحاب النار قالوا: ربَّنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، فأمَّا أصحاب الحسنات فإنهم يُعطون نورًا يمشُون به بين أيديهم وبأيمانهم، ويُعطى كل عبدٍ يومئذ[٢] نورًا، فإذا أتوا على الصراط سَلَبَ اللهُ نورَ كلِّ منافق ومنافقة، فلمَّا[٣] رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا: ربَّنا أَتْمِمْ لنَا نُورَنا.

فأمَّا أصحاب الأعراف فإن النور لم ينزع من بين أيديهم، ومنعتهم سيئاتهم[٤] أن يمضوا، فبقي في قلوبهم الطمع إذْ لم يُنزع النورُ من بين أيديهم، فهنالك يقول الله: «لم يدخلوها وهم يطمعون»، وكان الطمع النُّور الذي (بين أيديهم)[٥]، ثم أُدخلوا الجنَّة، وكانوا آخر أهل الجنة دخولاً.

وقال شرحبيل بن سعد: أصحاب الأعراف قوم خرجوا في الغزو بغير إذن آبائهم، ورواه مقاتل في «تفسيره» مرفوعًا: هم رجالٌ غزوا في سبيل الله (عصاة لآبائهم فقُتِلُوا، فأُعْتِقُوا من النار بقتلهم في سبيل الله)[٢]، وحُبسوا عن الجنة بمعصية آبائهم، فهم آخر من يدخل الجنة.

ورُوي عن مجاهد: أنهم أقوام رضي عنهم أحد الأبوين دون الآخر، يُحبسون على الأعراف[٦] إلى أن يقضي الله بين الخلق، ثم يدخلون الجنة.

وقال عبد العزيز بن يحيى الكناني: هم الذين ماتوا في الفترة ولم يُبدلوا دينهم.

وقيل: هم أطفال المشركين، وقال الحسن: هم أهل الفضل من المؤمنين علوا على الأعراف فيطَّلِعُون على أهل الجنة وأهل النار جميعًا، ويطالعون أحوال الفريقين.

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ﴾ أي: يعرفون أهل الجنَّة ببياض وجوههم وأهل النار بسواد وجوههم ﴿وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: إذا رأوا أهل الجنة قالوا: سلامٌ عليكم ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ يعني: أصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ في دخولها، قال أبو العالية: ما جعل الله ذلك الطمع فيهم إلا كرامة يريد[٧] بهم، قال الحسن: الذي جعل الطمعَ في قلوبهم يُوصلهم إلى ما يطمعون.

---

(١) أخرجه الطبري في «التفسير»: (٨/ ١٩٠ - ١٩١) طبع الحلبي. وانظر: «الدر المنثور»: (٣/ ٤٦١).

(٢) ساقط من «ب».

(٣) في «ب»: (فإذا).

(٤) في «أ»: (السيئات).

(٥) في «أ»: (في قلوبهم).

(٦) في «ب»: (الصراط).

(٧) في «ب»: (يريدها).

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ تعوَّذوا بالله ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ يعني: الكافرين في النار.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ كانوا عظماء في الدنيا من أهل النار ﴿يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ في الدنيا من المال والولد ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ عن الإيمان، قال الكلبي: ينادون وهم على السور: يا وليد بن المغيرة ويا أبا جهل بن هشام ويا فلان، ثم ينظرون إلى الجنة فيرون فيها الفقراء والضعفاء ممن كانوا يستهزئون بهم، مثل: سلمان وصهيب وخباب وبلال وأشباههم، فيقول أصحاب الأعراف لأولئك الكفار:

﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ حلفتم ﴿لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ أي: حلفتم أنهم لا يدخلون الجنة، ثم يقال لأهل الأعراف: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

وفيه قول آخر: أن أصحاب الأعراف إذا قالوا لأهل النار ما قالوا، قال لهم أهل النار: إن دخل أولئك الجنة وأنتم لم تدخلوها، فيعيِّرونَهم بذلك، ويُقسمون أنهم يدخلون النار، فتقول الملائكةُ الذين حَبَسُوا أصحاب الأعراف على الصراط لأهل النار: «أَهَٰؤُلَاءِ»، يعني: أصحاب الأعراف، الذين أقسمتم يا أهل النار أنهم لا ينالهم الله برحمة، ثم قالت الملائكة لأصحاب الأعراف: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ» فيدخلون الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا﴾ أي: صُبُّوا ﴿عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: أوسعوا علينا مما رزقكم الله من طعام الجنة.

قال عطاء عن ابن عباس: لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة طمع أهل النار في الفَرَجِ، وقالوا: يا رب، إنَّ لنا قَرابات من أهل الجنة، فأْذنْ لنا حتى نراهم ونكلِّمهم، فينظروا إلى قرابتهم في الجنة وما هم فيه من النعيم فيعرفونهم ولم يعرفهم أهل الجنة لسواد وجوههم، فينادي أصحابُ النار أصحابَ الجنة بأسمائهم، وأخبروهم بقراباتهم: أن أفيضوا علينا من الماء أو ممَّا رزقكم الله ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾

ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ
كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم
بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي
تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ
فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا
كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ
ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ
مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾

يعني: الماء والطعام ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾ وهو ما زيَّن لهم الشيطان من تحريم البَحيرة وأخواتها، والمُكاء والتصدية حول البيت، وسائر الخصال الذميمة، التي كانوا يفعلونها في الجاهلية، وقيل: «دِينَهُمۡ»، أي: عيدهم ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾ نتركهم في النار ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ أي: كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ﴾ يعني: القرآن ﴿فَصَّلۡنَٰهُ﴾ بيَّنَّاه ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ منَّا لِما يصلحهم ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾
١٣٠/ب أي: جعلنا القرآن هاديًا وذا رحمة ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ / ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ أي: هل ينتظرون ﴿إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾ قال مجاهد: جزاءه، وقال السدي: عاقبته، ومعناه: هل ينتظرون إلا ما يؤول إليه أمرهم في العذاب ومصيرهم إلى النار ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾ أي: جزاؤه وما يؤول إليه أمرهم ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ اعترفوا به حين لا ينفعهم الاعتراف ﴿فَهَل لَّنَا﴾ اليوم ﴿مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا ﴿فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ أهلكوها بالعذاب ﴿وَضَلَّ﴾ وبطل[1] ﴿عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ أراد به: في مِقْدارِ سِتَّةِ أيام؛ لأن اليوم من لَدن طلوع الشمس إلى غروبها، ولم يكن يومئذ يوم ولا شمس ولا سماء، قيل: ستة أيام كأيام الآخرة وكل يوم كألف سنة، وقيل: كأيام الدنيا، قال سعيد بن جبير: كان الله عزَّ وجلَّ قادرًا

(١) ساقط من «ب».

على خلق السموات والأرض في لمحة ولحظة، فخلقهن في ستة أيام؛ تعليمًا[1] لخلقه التثبت والتأني في الأُمور، وقد جاء في الحديث: «التأني من الله والعجلة من الشيطان»[2].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قال الكلبي ومقاتل: استقر، وقال أبو عبيدة: صعد، وأوَّلت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء، وأما أهل السنة فيقولون: الاستواء على العرش صفة لله تعالى، بلا كيف، يجب على الرجل الإيمان به، ويَكِل العلم فيه إلى الله عزَّ وجلَّ، وسأل رجل مالك بن أنس عن قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[طه: ٥] كيف استوى؟ فأطرق رأسه مَلِيًّا، وعلاه الرُّحَضَاء، ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أظنك إلاَّ ضالاًّ، ثم أمر به فأُخرج.

ورُوي عن سفيان الثوري والأوزاعي والليث بن سعد وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك وغيرهم من علماء السنة في هذه الآيات التي جاءت في الصفات المتشابهة: أمِرُّوها كما جاءت بلا كيف.

والعرش في اللغة: هو السرير، وقيل: هو ما علا فأظلَّ، ومنه عرش الكروم، وقيل: العرشُ المُلْكُ.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب: «يُغَشِّي» بالتشديد هاهنا وفي سورة الرعد، والباقون بالتخفيف، أي: يأتي الليل على النهار فيغطيه، وفيه حذف، أي: ويغشي النهار الليل، ولم يذكره؛ لدلالة الكلام عليه، وذكر في آية أُخرى فقال: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾[الزمر: ٥]، ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي: سريعًا، وذلك أنه إذا كان يعقب أحدهم الآخر ويخلفه، فكأنه يطلبه ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾ قرأ ابن عامر كلها بالرفع على الابتداء والخبر، والباقون بالنصب، وكذلك في سورة النحل عطفًا على قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، أي: خلق هذه الأشياء مسخرات، أي: مُذلَّلاتٍ ﴿بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾ له الخلق؛ لأنه خلقهم[3]، وله الأمر: يأمر في خلقه بما يشاء، قال سفيان بن عيينة: فرَّق الله بين الخلق والأمر، فمن جمع بينهما فقد كفر.

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: تعالى الله وتعظَّم، وقيل: ارتفع، والمبارك: المرتفع، وقيل: «تبارك» تفاعل من البركة: وهي النماء والزيادة، أي: البركةُ تُكتسبُ وتُنال بذكره.

---

(١) في «ب»: (تعظيمًا).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد بن منيع والحارث بن أبي أُسامة، وأخرجه ـ أيضًا ـ البيهقي في «السنن» عن أنس بن مالك: (١٠/ ١٠٤)، وعزاه الهيثمي ـ أيضًا ـ لأبي يعلى، وقال: رجاله رجال الصحيح. انظر: «المطالب العالية» لابن حجر: (٣/ ٣٥)، «كشف الخفاء» للعجلوني: (١/ ٣٥٠).

وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ١٧٦).

وله شاهد عند الترمذي في البر، باب ما جاء في التأني والعجلة: (٦/ ١٥٣)، عن سهل بن سعد بلفظ: «الأناة من الله . . .» وقال: هذا حديث غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم في عبد المهيمن بن عباس، وضعفه من قبل حفظه.

(٣) في «ب»: (أمرهم).

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٥٥﴾

وعن ابن عباس قال: جاء بكل بركة، وقال الحسن: تجيء البركة من قِبَلِهِ، وقيل: تبارك: تقدس، والقُدُس: الطهارة، وقيل: تبارك الله، أي: باسمه يُتبرَّك في كل شيء، وقال المحققون: معنى هذه الصفة[1]: ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال، وأصل البركة: الثبوت، ويُقال: تبارك الله، ولا يقال: متبارك ولا مبارك؛ لأنه لم يرد به التوقيف ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾.

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا﴾ تذللًا واستكانةً ﴿وَخُفۡيَةًۚ﴾ أي: سرًّا، قال الحسن: بَيْنَ دعوةِ السِّرِّ ودعوة العلانية سبعون ضعفًا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسمع لهم صوت، وإن كان إلاَّ همسًا بينهم وبين ربِّهم، وذلك أن الله سبحانه يقول: «ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ»، وإن الله ذكرَ عبدًا صالحًا ورضيَ فعله فقال: «إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا»[مريم: ٣] ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٥٥﴾ قيل: المعتدين في الدعاء، وقال أبو مجلز: هم الذين يسألون منازل الأنبياء عليهم السلام.

أخبرنا محمد بن عبد العزيز القاشاني، أنبأنا القاسم بن جعفر الهاشمي، أنبأنا أبو علي محمد بن أحمد اللؤلؤي، ثنا أبو داود السجستاني، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد يعني: ابن سلمة، أنبأنا سعيد الجريري، عن أبي نعامة أن عبد الله بن مغفَّل سمع ابنه يقول: اللهم إنِّي أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، فقال: يا بني سلِ اللهَ الجنة، وتعوَّذْ من النار، فإنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّه سيكون في هذه الأُمة قوم يعتدون في الطُّهور والدُّعاء»[2].

وقيل: أراد به الاعتداء بالجهر والصياح[3]، قال ابن جريج: من الاعتداء رفع الصوت والنداء بالدعاء والصياح.

وروينا عن أبي موسى قال: لمَّا غزا رسول الله ﷺ خيبر أشرف الناسُ على وادٍ فرفعوا أصواتهم بالتكبير، فقال رسول الله ﷺ: «ارْبَعُوا على أنفسِكم، إنَّكم لا تدعُون أصمَّ ولا غائبًا، إنَّكم تدعون سميعًا قريبًا»[4].

---

(١) في «ب»: (الآية).

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة، باب الإسراف في الماء: (١/ ٨٧)، وابن ماجه في الدعاء، باب كراهية الاعتداء في الدعاء برقم ٣٨٦٤، بلفظ: «سيكون قوم يعتدون في الدعاء ...»: (٢/ ١٢٧١)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي: (١/ ٥٠٤)، وابن حبان برقم ١٧١: ص ٧٠ - ٧١ من «موارد الظمآن»، والإمام أحمد في «المسند»: (١/ ١٧٢، ١٨٣) عن سعد بن أبي وقاص، و(٤/ ٨٦)، (٥/ ٥٥) من حديث عبد الله ابن مغفَّل، والطيالسي: ص ٢٨، وساقه ابن كثير في «التفسير»: (٢/ ٢٢٢ - ٢٢٣)، وقال: (وهذا إسناد حسن لا بأس به). وانظر: «تخريج أحاديث الكشاف»: (١/ ٤٦٣).

(٣) ساقط من «ب».

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد، باب غزوة خيبر: (٧/ ٤٧٠) وفي الدعوات وفي التوحيد وفي الجهاد، وأخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب خفض الصوت بالذكر برقم ٢٧٠٤: (٤/ ٢٠٧٦)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٦٦).

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

وقال عطية: هم الذين يدعون على المؤمنين فيما لا يحلّ، فيقولون: اللهم أخزهم اللهم العنهم.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ أي: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إيَّاها ببعث الرسل وبيان الشريعة، والدعاء إلى طاعة الله، وهذا معنى قول الحسن والسدي والضحاك والكلبي.

وقال عطية: لا تعصوا في الأرض فيمسك الله المطر ويُهلك الحرث بمعاصيكم. فعلى هذا معنى قوله: «بَعْدَ إِصْلَاحِهَا»، أي: بعد إصلاح الله إيَّاها بالمطر والخصب.

﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: خوفًا منه ومن عذابه، وطمعًا فيما عنده من مغفرته وثوابه، وقال ابن جريج: خوف العدل وطمع الفضل ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ ولم يقل: قريبة، قال سعيد بن جبير: الرحمة هنا الثواب، فرجع النعت إلى المعنى دون اللفظ كقوله: «وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ»[النساء: ٨]، ولم يقل: منها؛ لأنه أراد الميراث والمال.

وقال الخليل بن أحمد: القريب والبعيد يستوي فيهما في اللغة: المذكر والمؤنث والواحد والجمع، قال أبو عمرو بن العلاء: القريب في اللغة يكون بمعنى القرب وبمعنى المسافة، تقول العرب: هذه امرأة قريبة منك إذا كانت بمعنى القرابة، وقريب منك إذا كانت بمعنى المسافة.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا﴾ قرأ عاصم: «بُشْرًا» بالباء وضمها وسكون الشين / ١/١٣١
هاهنا وفي الفرقان وسورة النمل، ويعني: أنها تبشر بالمطر، بدليل قوله تعالى: «الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ»[الروم: ٤٦]، (وقرأ حمزة والكسائي «نَشْرًا» بالنون وفتحها، وهي الريح الطيبة اللينة، قال الله تعالى)(١): «وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا»[المرسلات: ٣]، وقرأ ابن عامر بضم النون وسكون الشين، وقرأ الآخرون بضم النون والشين، جمع نشور، مثل: صبور وصبر ورسول ورسل، أي: متفرقة، وهي الرياح التي تهب من كل ناحية ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: قدام المطر.

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب، أنبأنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أنبأنا أبو العباس الأصم، أنبأنا الربيع، أنبأنا الشافعي، أنبأنا الثقة، عن الزهري، عن ثابت بن قيس، عن أبي هريرة قال: أخذتِ الناسَ ريحٌ بطريق مكة وعمر حاجٌّ فاشتدَّتْ، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ لمن حوله: ما بلغكم في الريح؟ فلم يرجعوا إليه شيئًا، فبلغني الذي سأل (عمر عن أمر الريح)[1] فاستحثثت راحلتي حتى أدركتُ عمرَ ـ رضي الله عنه ـ وكنتُ في مؤخر الناس، فقلت: يا أمير المؤمنين أُخبرت أنك سألتَ عن الريح وإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الريح من روح الله تأتي بالرحمة وبالعذاب، فلا تسبوها، وسلو الله من خيرها، وتعوَّذُوا به من شرها»[2]، ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري بإسناده[3].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ﴾ حملت الرياح ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ بالمطر ﴿سُقْنَٰهُ﴾ وردَّ الكناية إلى السحاب ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي: إلى بلد ميت محتاج إلى الماء، وقيل: معناه: لإحياء بلد ميِّتٍ لا نباتَ فيه ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾ أي: بالسحاب، وقيل: بذلك البلد الميت ﴿ٱلْمَآءَ﴾ يعني: المطر ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ استدل بإحياء الأرض بعد موتها على إحياء الموتى ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ قال أبو هريرة وابن عباس: إذا مات الناس كلهم في النفخة الأولى أرسل الله عليهم مطرًا كمَنِيِّ الرجال من ماء تحت العرش يُدعى ماء الحيوان، فينبتون في قبورهم نبات الزرع حتى إذا استكملت أجسادهم نفخ فيهم الروح، ثم يُلقي عليهم النوم فينامون في قبورهم، ثم يُحشرون بالنفخة الثانية وهم يجدون طعم النوم في رؤوسهم وأعينهم، فعند ذلك يقولون: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ [يس: ٥٢].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ هذا مثل ضربه الله عزَّ وجلَّ للمؤمن والكافر، فمثل المؤمن مثل البلد الطيب، يصيبه المطر فيخرج نباته بإذن ربه ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ يريد: الأرض السبخة التي ﴿لَا يَخْرُجُ﴾ نباتُها ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ قرأ أبو جعفر بفتح الكاف، وقرأ الآخرون بكسرها، أي: عسرًا قليلًا بعناء ومشقة.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد»: ص٢٦٤، وأبو داود في الأدب، باب القول إذا هاجت الريح: (٨/ ٤) واللفظ له، وابن ماجه في الأدب، باب النهي عن سب الريح: (٢/ ١٢٢٨)، والشافعي في «المسند»: (١/ ١٧٥ ـ ١٧٦)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة»: ص٥٢٠، والطحاوي في «مشكل الآثار»: (١/ ٣٩٩)، والبيهقي في «الدعوات الكبير». انظر: «مشكاة المصابيح»: (١/ ٤٨٠)، وصححه ابن حبان: ص٤٨٨ من «الموارد»، والحاكم في «المستدرك»: (٤/ ٢٨٥)، والإمام أحمد في «المسند»: (٢/ ٢٦٨)، وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (٤/ ٣٩١)، وإسناده صحيح.

(٣) انظر: «المصنف» للإمام عبد الرزاق: (١١/ ٨٩).

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾

فالأول: مثل المؤمن الذي إذا سمع القرآن وعاه وعقله وانتفع به، والثاني: مثل الكافر الذي يسمع القرآن فلا يؤثر فيه، كالبلد الخبيث الذي لا يتبيَّن أثر المطر فيه ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نبيِّنها ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا حماد بن أسامة، عن يزيد بن عبد الله، عن أبي بردة، عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «مثلُ ما بعثني اللهُ بهِ مِنَ الهُدَى والعلمِ كمثلِ الغيثِ الكثير أصابَ أرضًا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع اللهُ بها الناسَ فشربُوا وسَقَوْا وزرعُوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنَّما هي قيعانٌ لا تُمسك ماءً ولا تُنبتُ كلأً، فذلك مثلُ من فَقُهَ في دين الله ونفعه ما بعثني اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وعلَّم، ومثلُ مَنْ لم يرفعْ بذلك رأسًا ولم يقبلْ هُدى الله الذي أُرْسِلْتُ به»[1].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس، وهو أول نبي بُعث بعد إدريس، وكان نجارًا بعثه الله إلى قومه وهو ابن خمسين سنة، وقال ابن عباس: ابن أربعين سنة، وقيل: بُعث وهو ابن مائتين وخمسين سنة[2]، وقال مقاتل: ابن مائة سنة، وقال ابن عباس: سُمي نوحًا لكثرة ما ناح على نفسه.

واختلفوا في سبب نوحه، فقال بعضهم: لدعوته على قومه بالهلاك، وقيل: لمراجعته ربَّه في شأن ابنه كنعان، وقيل: لأنه مرَّ بكلب مجذوم، فقال: اخسأ يا قبيح فأوحى الله تعالى إليه: أَعِبْتَني أم عِبْتَ الكلبَ؟ ﴿فَقَالَ﴾ لقومه ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ قرأ أبو جعفر والكسائي «من إله غيرِه» بكسر الراء حيث كان، على نعت الإله، وافق حمزة في سورة فاطر: «هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرِ ٱللَّهِ»[فاطر: ٣]، وقرأ الآخرون برفع الراء على التقديم، تقديره: ما لكم غيره من إله ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن لم تؤمنوا ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في العلم، باب فضل من علِم وعلَّم: (١/ ١٧٥)، ومسلم في الفضائل، باب بيان ما بعث النبي ﷺ من الهدى والعلم برقم٢٢٨٢: (٢/ ١٧٨٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ٢٨٧).

(٢) في «ب»: (مائة وخمسين سنة).

قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ
وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ
ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ
وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ
ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ﴾ خطأ وزوال عن الحق ﴿مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ بيِّن.

﴿قَالَ﴾ نوح ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ ولم يقل «ليست»؛ لأن معنى الضلالة: الضلال، أو على تقديم الفعل ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ قرأ أبو عمرو: «أبلغكم» بالتخفيف حيث كان من الإبلاغ، لقوله: «لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى»[الأعراف: ٩٣]، («لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ»[الجن: ٢٨]، وقرأ الآخرون بالتشديد من التبليغ؛ لقوله تعالى: «بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ»[المائدة: ٦٧]، ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾)(١)، ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ يقال: نصحته ونصحت له، والنُّصح: أن يريد لغيره من الخير ما يريد لنفسه ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أن عقابه لا يُرَدُّ عن القوم المجرمين.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ ألف استفهام دخلت على واو العطف ﴿أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: موعظة، وقيل: بيان، وقيل: رسالة ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ عذاب الله إن لم تؤمنوا ﴿وَلِتَتَّقُوا۟﴾ أي: لكي تتقوا الله ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ لكي ترحموا.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يعني: كذبوا نوحًا ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ من الطوفان ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ في السفينة ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: كفارًا، قال ابن عباس: عميت قلوبهم عن معرفة الله، قال الزَّجَّاج: عموا عن الحق والإيمان، يقال: رجلٌ عمٍ عن الحق وأعمى في البصر، وقيل: العمي والأعمى كالخَضِر والأخضر، قال مقاتل: عموات عن نزول العذاب بهم وهو الغرق.

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي: أرسلنا إلى عاد ـ وهو عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام ـ، وهي عاد الأولى، «أَخَاهُمْ» في النسب لا في الدين «هُودًا»: وهو هود بن عبد الله بن رباح

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾

ابن الجلود بن عاد بن عوص، وقال ابن إسحاق: هود بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أفلا تخافون نقمته؟

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ﴾: يا هود ﴿فِى سَفَاهَةٍ﴾ في حمق وجهالة، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: تدعونا إلى دين لا نعرفه ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ أنك رسول الله إلينا.

﴿قَالَ﴾ هود: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ/ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾. ١٣١/ب

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ ناصح أدعوكم إلى التوبة، أمين على الرسالة، قال الكلبي: كنتُ فيكم قبل اليوم أمينًا.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ يعني نفسه ﴿لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ يعني: في الأرض ﴿مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي: من بعد إهلاكهم ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ أي: طولاً وقوّة، قال الكلبي والسدي: كانت قامة الطويل منهم مائة ذراع، وقامة القصير منهم ستون ذراعًا، وقال أبو حمزة الثمالي: سبعون ذراعًا، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ثمانون ذراعًا، وقال مقاتل: كان طول كل رجلٍ اثني عشر ذراعًا، وقال وهب: كان رأس أحدهم مثل القبة العظيمة، وكان عين الرجل تفرخ فيها الضِّباع، وكذلك مناخرهم ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ نِعَم الله، واحدها إِلَى وآلاء، مثل: مِعًى وأمعاء، وقفا وأقفاء، ونظيرها: «ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ»[الزمر: ٩]، واحدها: أَنًا وآناء ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من الأصنام ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿قَالَ﴾ هود: ﴿قَدْ وَقَعَ﴾ وَجَبَ وَنَزَلَ ﴿عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ أي: عذاب، والسين مبدلة من الزاي ﴿وَغَضَبٌ﴾ أي: سخط ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ وضعتموها ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ قال أهل التفسير: كانت لهم أصنام يعبدونها سموها أسماء مختلفة ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ حجة وبرهان ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ نزول العذاب ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ يعني: هودًا عند نزول العذاب ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: استأصلناهم وأهلكناهم عن آخرهم ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

وكانت قصةُ عاد على ما ذكر محمد بن إسحاق وغيره[1]: أنهم كانوا قومًا ينزلون اليمن، وكانت مساكنهم بالأحقاف، وهي رمال بين عمان وحضرموت، وكانوا قد فشوا في الأرض كلها، وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي آتاهم الله عزَّ وجلَّ، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها، صنم يقال له: صدى[2]، وصنم يقال له: صَمُودٌ، وصنم يقال له: الهباء، فبعث الله إليهم هودًا نبيًّا، وهو من أوسطهم نسبًا وأفضلهم حسبًا، فأمرهم أن يُوَحِّدُوا الله ويكفُّوا عن ظلم الناس ولم يأمرهم بغير ذلك، فكذَّبوه فقالوا: من أشد منَّا قوة، فبنوا المصانع وبطشوا بطشة الجبارين، فلما فعلوا ذلك أمسكَ الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك.

وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء فطلبوا الفرج كانت طلبتهم إلى الله عزَّ وجلَّ عند بيته الحرام بمكة مسلمهم ومشركهم، فيجتمع بمكة ناس كثير شتى، مختلفة أديانهم وكلهم معظِّم لمكة، وأهل مكة يومئذ العماليق، سموا عماليق؛ لأن أباهم عمليق بن لاذا بن سام بن نوح، وكان سيد العماليق إذ ذاك بمكة رجل يقال له: معاوية بن بكر، وكانت أُم معاوية كلهدة بنت الخيبري رجل من عاد، فلما قحط

(١) ومن طريق ابن إسحاق أخرجه: الطبري في «التفسير»: (١٢/ ٥٠٧، وما بعدها)، وفي «التاريخ»: (١/ ٢١٩، وما بعدها)، وساق هذه القصة الحافظ ابن كثير في «التفسير»: (٢/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧)، وفي «البداية والنهاية»: (١/ ١٢٦ ـ ١٢٧)، وأشار إلى حديث يشبه هذه القصة، أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٣/ ٤٨٢)، والترمذي في التفسير، تفسير سورة الذاريات: (٩/ ١٥٩ ـ ١٦٢)، والطبراني في «الكبير»: برقم (٢٣٢٥، ٢٣٢٦)، ورواه ـ أيضًا ـ النسائي من حديث سلام بن أبي المنذر عن عاصم بن بهدلة، ومن طريقه رواه ابن ماجه ـ أيضًا ـ عن أبي وائل عن الحارث بن حسان البكري. انظر: ابن كثير: الموضع السابق، «الدر المنثور»: (٧/ ٦٢٢)، «مجمع الزوائد»: (٦/ ٩ ـ ١٢).

(٢) في الطبري: (صُداء).

المطر عن عاد وجهدوا قالوا: جهزوا وفدًا منكم إلى مكة فليستسقوا لكم، فبعثوا قِيْلَ بن عنز، ولقيم بن هزَّال من هزيل، (وعقيل بن صندين من عاد)[1] الأكبر، ومرثد بن سعد بن عفير، وكان مسلمًا يكتم إسلامه، وجُلْهُمَةُ بن الخيبري خال معاوية بن بكر، ثم بعثوا لقمان بن عاد الأصغر بن صندين[2] بن عاد الأكبر، فانطلق كل رجل من هؤلاء ومعه رهط من قومه حتى بلغ عدد وفدهم سبعين رجلًا.

فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجًا من الحرم، فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره فأقاموا عنده شهرًا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان: قينتان لمعاوية بن بكر، وكان مسيرهم شهرًا ومقامهم شهرًا، فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم وقد بعثهم قومهم يتغوَّثون بهم من البلاء الذي أصابهم شقَّ ذلك عليه، وقال: هلك أخوالي وأصهاري وهؤلاء مقيمون عندي وهم ضيفي، والله ما أدري كيف أصنع بهم، أستحي أن آمرهم بالخروج إلى ما بُعِثُوا إليه، فيظنون أنه ضيق مني بمقامهم عندي، وقد هلك مَنْ وراءهم مِنْ قومهم جهدًا وعطشًا، فشكا ذلك من أمرهم إلى قينتيه الجرادتين، فقالتا: قلْ شعرًا نُغنِّيهم به، لا يدرون من قاله، لعلَّ ذلك أن يُحرِّكهم، فقال معاوية بن بكر:

ألاَ يـا قَيْـلَ ويحـكَ قـمْ فَهَيْنِـمْ ... لعـلَّ اللهَ يُسْقينـا غَمَـامَـا
فيسقـي أرضَ عـادٍ إنَّ عـادًا ... قـد امسَـوا لا يُبينُـون الكـلامـا
مِنَ العطشِ الشديدِ فليسَ نرجُو ... بـهِ الشيـخَ الكبيـرَ ولا الغُـلامـا
وقـدْ كـانـت نسـاؤهـم بخيـرٍ ... فقـدْ أمسـتْ نسـاؤُهـم أيـامَـى
وإنَّ الـوحـش تـأتيهـم جِهـارًا ... فـلا تخشَـى لعـاديٍّ سهـامـا
وأنتـمْ هـاهنـا فيمـا اشتهيتـم ... نهـارُكمـو وليلكمـو التَّمـامـا
فَقُبِّـحَ وفـدُكُـمُ مِـنْ وَفْـدِ قـومٍ ... ولا لُقُّـوا التحيَّـةَ والسَّـلامـا

فلمَّا غنَّتهم الجرادتان هذا قال بعضهم لبعض: يا قوم، إنَّما بعثكم قومكم يتغوثون بكم من البلاء الذي نزل بهم، وقد أبطأتم عليهم، فادخلوا هذا الحرم فاستسقوا لقومكم، فقال مرثد بن سعد بن عفير، وكان قد آمن بهود سرًّا: إنكم والله لا تُسقون بدعائكم، ولكن إن أطعتم نبيكم وأنبتم إلى ربكم سُقيتم، فأظهر إسلامه عند ذلك وقال:

عصـتْ عـادٌ رسـولَهُـمُ فـأمسَـوا ... عطـاشًـا مـا تبلهـم السمـاء
لهـم صنـم يُقـال لـه صمـودٌ ... يقـابلـه صـداءٌ والهبـاءُ
فبصَّرنـا الـرسـولُ سبيـلَ رشـد ... فـأبصرنـا الهُـدى وجَلَـى العمـاءُ
وإن إلــه هــود هــو إلهــي ... على اللهِ التـوكـلُ والـرجـاءُ

---

(١) في الطبري: (عتيل بن صُدّ بن عاد).
(٢) في الطبري: (صُدّ).

فقالوا لمعاوية بن بكر: احبس عنّا مرثد بن سعد فلا يقدمنّ معنا مكة، فإنه قد اتبع دين هود، وترك ديننا، ثم خرجوا إلى مكة يستسقون لعادٍ، فلمّا ولّوا إلى مكة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية حتى أدركهم قبل أن يدعوا بشيء مما خرجُوا له، فلمّا انتهى إليهم قام يدعو الله، وبها وفد عاد يدعون، فقال: اللهم أعطني سؤلي وحدي ولا تدخلني في شيء مما يدعوكَ به وفدُ عاد، وكان قَيْلُ بنُ عنز رأسَ وفد عاد، فقال وفد عاد: اللهم أعط قيلًا ما سألك واجعل سؤلنا مع سؤله.

وكان قد تخلف عن وفد عاد ـ حين دعوا ـ لُقمانُ بنُ عاد، وكان سيّدَ عاد، حتى إذا فرغوا من دعوتهم قام، فقال: اللهم إني جئتك وحدي في حاجتي فأعطني سؤلي، وسأل اللهَ طول العمر، فَعُمِّر عمر سبعة أنسر، وقال قِيْلُ بنُ عنز حين دعا: يا إلهنا إن كان هودُ صادقًا فاسقنا فإنا قد هلكنا، فأنشأ الله سحائب ثلاثًا بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه مُنادٍ من السحايب: (يا قَيْل)[1]، اختر لنفسك وقومك من
١/١٣٢ هذه السحائب (ما شئت)[1]، فقال قيلُ: / اخترتُ السحابة السوداء فإنها أكثر السحابِ ماءً، فناداه منادٍ: اخترت رمادًا رِمْدِدًا[2] لا تبقي من آل عاد أحدًا، وساق الله سبحانه وتعالى السحابة السوداء التي اختارها قَيْلُ بما فيها من النقمة إلى عاد حتى خرجت عليهم من وادٍ لهم يقال له: المغيث، فلمّا رأوها استبشروا وقالوا: هذا عارض ممطرنا، يقول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾[الأحقاف: ٢٤-٢٥]، أي: كل شيء مرَّتْ به.

وكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح مهلكة امرأة من عاد يقال لها: «مَهْدَدٌ»، فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صُعقت، فلما أفاقت قالوا لها: ماذا رأيت؟ قالت: رأيت الريح فيها كشهب النار، أمامها رجال يقودونها، فسخَّرها الله عليهم سبعَ ليالٍ وثمانية أيامٍ حسومًا، فلم تدع من عادٍ أحدًا إلا هلك، واعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة، ما يصيبه هو ومن معه من الريح إلا ما تلين عليه الجلود وتلذ الأنفس، وإنها لَتَمُرُّ من عاد بالظعن فتحملهم بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة، وخرج وفد عاد من مكة حتى مرُّوا بمعاوية بن بكر فنزلوا عليه فبينما هم عنده إذ أقبل رجل على ناقة في ليلة مقمرة مساء ثالثة من مصاب عاد فأخبرهم الخبر، فقالوا له: فأين فارقت هودًا وأصحابه؟ فقال: فارقتهم بساحل البحر فكأنهم شكُّوا فيما حدثهم به، فقالت هُزَيْلة بنت بكر: صدوق وربِّ مكة.

وذكروا أن مرثد بن سعد ولقمان بن عاد وقيل بن عنز حين دعوا بمكة، قيل لهم: قد أعطيتكم مُنَاكم فاختاروا لأنفسكم، إلاَّ أنه لا سبيل إلى الخلود، ولا بُدَّ من الموت، فقال مرثد: اللهم أعطني صدقًا وبرًّا فأُعطي ذلك، وقال لقمان: أعطني يا ربِّ عُمْرًا، فقيلَ له: اختر، فاختار عمر سبعة أنسر، فكان يأخذ

---

(١) زيادة من «ب».
(٢) متناهٍ في الاحتراق والدقة.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

الفرخ حين يخرج من بيضته فيأخذ الذكر منها لقوته، حتى إذا مات أخذ غيره فلم يزل يفعل ذلك حتى أتى على السابع، وكان كل نسر يعيش ثمانين سنة، وكان آخرها «لبد» فلما مات «لبد» مات لقمان معه.

وأمّا قيلُ فإنه قال: أختار أن يصيبني ما أصاب قومي، فقيل له: إنه الهلاك، فقال: لا أبالي لا حاجة لي في البقاء بعدهم، فأصابه الذي أصاب عادًا من العذاب فهلك.

قال السدي: بعث الله على عاد الريح العقيم، فلما دنت منهم نظروا إلى الإبل والرجال تطير بهم الريح بين السماء والأرض، فلما رأوها تبادروا البيوت فدخلوها وأغلقوا أبوابها، فجاءت الريح فقلعت أبوابهم فدخلت عليهم فأهلكتهم فيها، ثم أخرجتهم من البيوت، فلمّا أهلكهم الله أرسل عليهم طيرًا سوداء فنقلتهم إلى البحر فألقتهم فيه.

ورُوي أن الله عزَّ وجلَّ أمر الريح فأهالت عليهم الرمال، فكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام، لهم أنين تحت الرمل، ثم أمر الريح فكشفت عنهم الرمال فاحتملتهم فرمت بهم في البحر، ولم تخرج ريح قط إلا بمكيال، إلا يومئذ فإنها عتت على الخزنة فغلبتهم فلم يعلموا كم كان مكيالها.

وفي الحديث: «إنها خرجت عليهم على قدر خرق الخاتم»[(١)] ورُوي عن علي - رضي الله عنه - أن قبر هود عليه السلام بحضرموت في كثيب أحمر، وقال عبد الرحمن بن سابط: بين الركن والمقام وزمزم قبر تسعة وتسعين نبيًا، وإن قبر هود وشعيب وصالح وإسماعيل عليهم السلام في تلك البقعة. ويُروى: أنَّ النبيَّ مِنَ الأنبياء إذا هلك قومُه جاءَ هو والصالحون معه إلى مكة يعبدون الله فيها حتى يموتوا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ وهو ثمود بن عامر[(٢)] بن أرم بن سام بن نوح، وأراد هاهنا القبيلة.

قال أبو عمرو بن العلاء: سُمِّيت ثمود لقلَّة مائها، والثَّمْد[(٣)]: الماء القليل، وكانت مساكنهم الحِجْر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ أي: أرسلنا إلى ثمود أخاهم في النسب لا في الدين:

---

(١) جاءت قريب من هذا في رواية الإمام أحمد والترمذي في الموضع السابق، وليس مرفوعًا إلى النبي ﷺ، بل السياق يدل على أنه من راوي القصة.

(٢) في الطبري: (غاثر).

(٣) (الثَّمْد) بالسكون، و(الثَّمَد) بالفتح بمعنى واحد.

وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن
سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟
لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ
مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾
فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾

صالحًا، وهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماشيح بن عبيد بن خادر بن ثمود ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ﴾ حجة من ربكم على صدقي ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ أضافها إليه على التفضيل والتخصيص، كما يقال: بيت الله ﴿لَكُمْ ءَايَةً ۖ﴾ نصب على الحال ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ﴾ العشب ﴿فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ لا تصيبوها بعقر ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ﴾ أسكنكم وأنزلكم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ﴾ كانوا ينقبون في الجبال البيوت، ففي الصيف يسكنون بيوت الطين، وفي الشتاء بيوت الجبال، وقيل: كانوا ينحتون البيوت في الجبل؛ لأن بيوت الطين ما كانت تبقى مدة أعمارهم لطول أعمارهم ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ والعيث: أشدُّ الفساد.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ قرأ ابن عامر: «و قَالَ ٱلْمَلَأُ» بالواو ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ يعني: الأشراف والقادة الذين تعظَّموا عن الإيمان بصالح ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ يعني: الأتباع ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ يعني: قال الكفار للمؤمنين: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ إليكم ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ جاحدون.

﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾ قال الأزهري: العَقْر: هو قطع عرقوب البعير، ثم جُعل النحر عقرًا؛ لأن ناحر البعير يعقره ثم ينحره ﴿وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ والعتوُّ: الغلو في الباطل، يقال: عتا يعتو عُتُوًّا، إذا استكبروا، والمعنى: عصوا الله وتركوا أمره في الناقة وكذَّبوا نبيَّهم ﴿وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي: من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٧٨ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٧٩﴾

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ وهي زلزلة الأرض وحركتها، وأهلكوا بالصيحة والرجفة ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ﴾ قيل: أراد الديار، وقيل: أراد في أرضهم وبلدتهم؛ ولذلك وحّد الدار ﴿جَٰثِمِينَ ۝٧٨﴾ خامدين ميتين، قيل: سقطوا على وجوههم موتى عن آخرهم.

﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ أعرض صالح ﴿عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٧٩﴾ فإن قيل: كيف خاطبهم بقوله: لقد أبلغتكم رسالةَ ربي ونصحتُ لكم بعدما هلكوا بالرجفة؟

قيل: كما خاطب النبي ﷺ الكفار من قتلى بدر حين ألقاهم في القَلِيب، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: أيَسُرُّكم أنكم أطعتم الله ورسوله، فإنَّا قد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقًّا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال النبي ﷺ: «(والذي نفس محمد بيده)[1] ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون»[2].

وقيل: خاطبهم ليكون عبرة لمن خلفهم.

---

(١) زيادة من «ب» ومن «صحيح البخاري».

(٢) قطعة من حديث أنس بن مالك، أخرجه البخاري في المغازي، باب قتل أبي جهل: (٧/ ٣٠٠-٣٠١).

وأخرج - أيضًا - في الموضع نفسه عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: وقف النبي ﷺ على قليب بدر، فقال: «هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ ثم قال: إنهم الآن يسمعون ما أقول» فذُكِر لعائشة فقالت: إنما قال النبي ﷺ: إنهم الآن ليعلمون أن الذي كنت أقول لهم هو الحق، ثم قرأت: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ حتى قرأت الآية.

فكان هذا مما استدركته أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - على ابن عمر - رضي الله عنهما - وأنه وَهِمَ في قوله: «ليسمعون»، وإنما هو بلفظ: «إنهم ليعلمون».

قال البيهقي: العلم لا يمنع من السماع. والجواب عن الآية: أنه لا يُسْمِعُهم وهم موتى، ولكن الله أحياهم حتى سمعوا، كما قال قتادة، ولم ينفرد عمر ولا ابنه - رضي الله عنهما - بحكاية ذلك، بل وافقهما: أبو طلحة، وللطبراني من حديث ابن مسعود مثله بإسناد صحيح، ومن حديث عبد الله بن سيدان نحوه، وفيه: قالوا: يا رسول الله، وهل يسمعون؟ قال: «يسمعون كما تسمعون، ولكن لا يجيبون»، وفي حديث ابن مسعود: «ولكنهم اليوم لا يجيبون».

ومن الغريب أن في «المغازي» لابن إسحاق رواية يونس بن بكير بإسناد جيد عن عائشة مثل حديث أبي طلحة وفيه: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» وأخرجه أحمد بإسناد حسن، فإن كان محفوظًا فكأنها رجعت عن الإنكار، لما ثبت عندها من رواية هؤلاء الصحابة، لكونها لم تشهد القصة.

انظر بالتفصيل: «فتح الباري»: (٧/ ٣٠٣ - ٣٠٤)، «الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة» للزركشي: ص٩٩ - ١٠٠، «الروض الأنف» للسهيلي: (٢/ ٧٤).

١٣٢/ب وقيل: في الآية تقديم وتأخير تقديرها: فتولى عنهم، وقال: يا قوم، لقد أبلغتكم رسالة / ربي فأخذتهم الرجفة.

وكانت قصة ثمود على ما ذكره محمد بن إسحاق ووهب وغيرهما(١): أن عادًا هلكت وانقضى أمرها عَمِرَتْ ثمود بعدها، واسْتُخْلِفُوا في الأرض فدخلوا فيها وكثروا وعمروا، حتى جعل أحدهم يبني المسكن من المدر فينهدم والرجل حي، فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتًا، وكانوا في سعة من معاشهم فعتوا وأفسدُوا في الأرض وعبدُوا غير الله، فبعث الله إليهم صالحًا وكانوا قومًا عربًا، وكان صالح من أوسطهم نسبًا وأفضلهم حسبًا وموضعًا، فبعثه الله إليهم غلامًا شابًا، فدعاهم إلى الله حتى شَمِطَ(٢) وكبر، لا يتبعه منهم إلاَّ قليل مستضعفون، فلمَّا ألحَّ عليهم صالح بالدعاء والتبليغ وأكثر لهم التحذير والتخويف سألوه أن يُريهم آية تكون مصداقًا لما يقول، فقال لهم: أيَّ آية تريدون؟ قالوا: تخرج معنا غدًا إلى عيدنا، وكان لهم عيد يخرجون فيه بأصنامهم في يوم معلوم من السنة فتدعو إلٰهك وندعو آلهتنا، فإن استُجيب لك اتبعناك، وإن استُجيب لنا اتَّبعتنا، فقال لهم صالح: نعم، فخرجوا بأوثانهم إلى عيدهم، وخرج صالح معهم فدعوا أوثانهم، وسألوها أن لا يُستجاب لصالح في شيء مما يدعو به، ثم قال جندع بن عمرو بن جوَّاس وهو يومئذ سيد ثمود: يا صالح، أَخْرِج لنا من هذه الصخرة ـ لصخرة منفردة في ناحية من الحجر يقال لها: الكاثبة ـ ناقةً مخترجة جوفاء وَبْرَاء عشراء ـ والمخترجة: ما شاكل البُخْت من الإبل ـ فإن فعلتَ صدقناك وآمنا بك، فأخذ عليهم صالح مواثيقهم: لئن فعلت لَتُصَدِّقُنِّي ولتؤمُنُنَّ بي؟ قالوا: نعم، فصلى صالح ركعتين ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخُّض النَّتُوج بولدها، ثم تحركت الهضبة فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وَصَفُوا لا يعلم ما بين جنبيها عِظَمًا إلا الله، وهم ينظرون، ثم نتجت سقبًا مثلها في العظم، فآمن به جندع بن عمرو ورهط من قومه، وأراد أشراف ثمود أن يُؤمنوا به ويصدقوه فنهاهم ذُؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحبُ أوثانهم ورباب بن صمغر وكان كاهنهم وكانوا من أشراف ثمود.

فلما خرجت الناقة قال لهم صالح: هذه ناقة الله، لها شرب ولكم شرب يوم معلوم، فمكثت الناقة ومعها سقبها في أرض ثمود، ترعى الشجر وتشرب الماء، فكانت ترد الماء غِبًّا، فإذا كان يومها وضعت رأسها في بئر في الحجر يقال لها: بئر الناقة، فما ترفع رأسها حتى تشرب كل ماء فيها، فلا تدع قطرة، ثم ترفع رأسها فتنفشخ(٣) حتى تفحج لهم فيحلبون ما شاؤوا من لبن، فيشربون ويدخرون، حتى يملؤوا

(١) انظر الروايات في: «تفسير الطبري»: (١٢/ ٥٢٨، وما بعدها)، «تفسير عبد الرزاق»: (٢/ ٢٣٠ـ ٢٣١)، «الدر المنثور»: (٣/ ٤٨٩، وما بعدها)، «تفسير ابن كثير»: (٢/ ٢٢٨ـ ٢٣٠)، «البداية والنهاية»: (١/ ٣١٠ـ ٣٢٠).

(٢) شمط: ابيضَّ شعرُه.

(٣) في الطبري: (تفشَّج)؛ تفشجت الناقة ـ بالجيم ـ تفاجت، وذلك أن تباعد بين رجليها، ومثله: (تفشحت) و(تفحجت).

أوانيهم كلها، ثم تصدر من غير الفج الذي وردت منه لا تقدر على أن تصدر من حيث تَرِدُ، يضيق عنها، حتى إذا كان الغد كان يومهم فيشربون ما شاؤوا من الماء ويدخرون ما شاؤوا ليوم الناقة، فهم من ذلك في سعة ودعة، وكانت الناقة تُصيِّف إذا كان الحر بظهر الوادي، فتهرب منها المواشي: أغنامهم وبقرهم وإبلهم، فتهبط إلى بطن الوادي في حرّه وجدبه، وتشتو ببطن الوادي إذا كان الشتاء، فتهرب مواشيهم إلى ظهر[1] الوادي في البرد والجدب فأضرَّ ذلك بمواشيهم للبلاء والاختبار، فكبر ذلك عليهم فعتوا عن أمر ربهم وحملهم ذلك على عقر الناقة، فأجمعوا على عقرها.

وكانت امرأتان من ثمود، إحداهما يقال لها: عنيزة بنت غنم بن مجلز، تكنّى بأم غنم، وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو وكانت عجوزًا مسنة، وكانت ذات بنات حسان وذات مال من إبل وبقر وغنم، وامرأة أخرى يقال لها: صدوف بنت المحيَّا، وكانت جميلة غنية ذات مواشي كثيرة، وكانتا من أشد الناس عداوة لصالح، وكانتا تحبان عقر الناقة (لما أضرت)[2] بهما من مواشيهما، فتحيلتا في عقر الناقة فدعتْ صدوف رجلًا من ثمود يقال له: الحباب، لعقر الناقة، وعرضت عليه نفسها إن هو فعل فأبى عليها، فدعتْ ابن عمٍّ لها يقال له: مِصْدَعُ بن مَهْرَجِ بن المحيَّا، وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة، وكانت من أحسن الناس وأكثرهم مالاً، فأجابها إلى ذلك، ودعت عنيزة بنت غنم قُدَار بن سالف، وكان رجلًا أحمر أزرق قصيرًا، يزعمون أنه كان لزانية، ولم يكن لسالف، ولكنه ولد على فراش سالف، فقالت: أعطيك أيّ بناتي شئت على أن تعقر الناقة، وكان قدار عزيزًا منيعًا في قومه.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا وهيب، حدثنا هشام، عن أبيه أنه أخبره عبد الله بن زمعة أنه سمع النبي ﷺ يخطب وذكر الناقة والذي عقرها، فقال رسول الله ﷺ: « ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾[الشمس: ١٢]، «انبعث لها رجلٌ عزيزٌ عارِمٌ منيعٌ في قومه مثل أبي زَمْعَةَ»[3].

رجعنا إلى القصة، قالوا: فانطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهرج فاستغويا[4] غواة ثمود فاتبعهم سبعة نفر فكانوا تسعة رهط، فانطلق قدار ومصدع وأصحابهما فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء، وقد كمن لها قدار في أصل صخرة على طريقها، وكمن لها مصدع في طريق آخر، فمرت على مصدع، فرماها

---

(١) في «ب»: (بطن).

(٢) ساقط من «أ».

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾: (٨/ ٧٠٥) وفي النكاح، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون برقم ٢٨٥٥: (٤/ ٢١٩١)، والمصنف في «شرح السنة»: (٩/ ١٨٢).

(٤) في الطبري: (فاستنفرا).

بسهم فانتظم به في عضلة ساقها، وخرجت بنت غُنْم عنيزَةُ، وأمرت ابنتها، وكانت من أحسن الناس، فأسفرتْ لقدار، ثم ذَمَرَتْه[(١)]، فشدَّ على الناقة بالسيف فكشفت عرقوبها فخرَّت ورغت رُغاةً واحدة تحذِّر سَقْبَها[(٢)]، ثم طعن في لَبَّتِها فنحرها، وخرج أهل البلدة واقتسموا لحمها وطبخوه، فلما رأى سَقْبُها ذلك انطلق حتى أتى جبلًا منيفًا يقال له: صنو، وقيل: اسمه قارة، وأتى صالح فقيل له: أدرك الناقة فقد عُقِرت، فأقبل وخرجوا يتلقَّونه ويعتذرون إليه: يا نبي الله، إنَّما عقرها فلان ولا ذنب لنا، فقال صالح: انظروا هل تدركون فصيلها؟ فإن أدركتموه فعسى أن يُرْفَعَ عنكم العذاب، فخرجوا يطلبونه، فلما رأوه على الجبل ذهبوا ليأخذوه، فأوحى الله تعالى إلى الجبل فتطاول في السماء حتى ما تناله الطير.

وجاء صالح فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه، ثم رغا ثلاثًا، وانفجرت الصخرةُ فدخلها، فقال صالح: لكل رغوة أجل يوم، فتمتعوا في داركم ثلاثة أيام، ذلك وعد غير مكذوب.

وقال ابن إسحاق: اتبع السَّقب أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة، وفيهم مصدع بن مهرج وأخوه ذاب بن مهرج، فرماه مصدع بسهم فانتظم قلبه، ثم جرَّ برجله فأنزله، فألقوا لحمه مع لحم أمه، وقال لهم صالح: انتهكتم حرمةَ الله، فأبشروا بعذاب الله ونقمته، قالوا وهم يهزؤون به: ومتى ذلك يا صالح؟
١/١٣٣ وما آية ذلك؟ وكانوا يسمون الأيام فيهم: الأحد أول، والاثنين أهون، والثلاثاء دبار والأربعاء / جبار، والخميس مؤنس والجمعة العَروبة، والسبت شيار، وكانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء، فقال لهم صالح حين قالوا ذلك: تُصبحون غداة يوم مؤنس ووجوهكم مصفرَّة، ثم تُصبحون يوم العَروبة ووجوهكم محمرَّة، ثم تُصبحون يوم شيار ووجوهكم مسودَّة، ثم يصبحكم العذاب يوم أول.

فلما قال لهم صالح ذلك، قال التسعة الذين عقروا الناقة: هلمَّ فلنقتلْ صالحًا، فإن كان صادقًا عجلناه قبلنا، وإن كان كاذبًا قد كنَّا ألحقناه بناقته، فأتوه ليلًا ليبيتوه في أهله، فدمغتهم الملائكة بالحجارة، فلما أبطؤوا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم قد رضخوا بالحجارة، فقالوا لصالح: أنت قتلتهم، ثم همُّوا به، فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح، وقالوا لهم: والله، لا تقتلونه أبدًا، فقد وعدكم أن العذاب نازل بكم بعد ثلاث، فإن كان صادقًا لم تزيدوا ربكم عليكم إلاَّ غضبًا، وإن كان كاذبًا فأنتم من وراء ما تريدون، فانصرفوا عنهم ليلتهم فأصبحوا يوم الخميس ووجوههم مصفرَّة كأنَّما طُليت بالخلوق، صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأُنثاهم، فأيقنوا بالعذاب وعرفوا أن صالحًا قد صدقهم، فطلبوه ليقتلوه، وخرج صالح هاربًا منهم حتى لجأ إلى بطن من ثمود يقال لهم: بني غُنْم، فنزل على سيدهم، رجل يقال

---

(١) الذَّمر: التحريض على القتال.

(٢) السَّقْب: ولد الناقة ساعة يولد.

له: نفيل، ويُكَنّى بأبي هدب، وهو مشرك فغيَّبه، ولم يقدروا عليه، فغدوا على أصحاب صالح يعذِّبونهم ليدلُّوهم عليه، فقال رجل من أصحاب صالح يقال له: مبدع بن هرم: يا نبيَّ الله، إنهم ليعذبوننا؛ لندلَّهم عليك، أفَنَدُلّهم؟ قال: نعم، فدلَّهم عليه، وأتوا أبا هدب فكلموه في ذلك، فقال: نعم، عندي صالح وليس لكم عليه سبيل، فأعرضوا عنه وتركوه وشغلهم عنه ما أنزل الله بهم من عذابه، فجعل بعضهم يخبر بعضًا بما يرون في وجوههم، فلمَّا أمْسَوا صاحوا بأجمعهم ألاَ قد مضى يوم من الأجل، فلما أصبحوا اليوم الثاني إذا وجوههم محمرَّة كأنما خضبت بالدماء فصاحوا وضجوا وبكوا، وعرفوا أنه العذاب، فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم: ألا قد مضى يومان من الأجل وحضركم العذاب، فلما أصبحوا اليوم الثالث إذا وجوههم مسودَّة كأنَّما طُليت بالقار، فصاحوا جميعًا: ألا قد حضركم العذاب.

فلما كان ليلة الأحد خرج صالح من بين أظهرهم ومَنْ أسلم معه إلى الشام، فنزل رملة فلسطين، فلما أصبح القوم تكفنوا وتحنطوا وألقوا أنفسهم إلى الأرض يقلِّبون أبصارهم إلى السماء مرَّة وإلى الأرض مرَّة، لا يدرون من أين يأتيهم العذاب، فلما اشتد الضحى من يوم الأحد أتتهم صيحةٌ من السماء فيها صوت كل صاعقة، وصوت كل شيء له صوت في الأرض، فقطعت قلوبهم في صدورهم، فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلاَّ هلك كما قال الله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾، إلاَّ جاريةٌ مُقْعَدةٌ يقال لها: ذريعة بنت سالف[1]، وكانت كافرة شديدة الكفر والعداوة لصالح، فأطلق الله رجليها بعدما عاينت العذاب، فخرجت كأسرع ما يرى شيء قط حتى أتت قزح[2]: وهو واد القرى، فأخبرتهم بما عاينته من العذاب وما أصاب ثمود، ثم استقت من الماء فَسُقِيَتْ فلما شربت ماتت.

وذكر السُّدي في عقر الناقة وجهًا آخر قال[3]: فأوحى الله تعالى إلى صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّ قومك سيعقرون ناقتك، فقال لهم ذلك فقالوا: ما كنَّا لنفعل، فقال صالح: إنه يولد في شهركم هذا غلام يعقرها فيكون هلاككم على يديه، فقالوا: لا يولد لنا ولد في هذا الشهر إلا قتلناه، قال: فولد لتسعة منهم في ذلك الشهر فذبحوا أبناءهم ثم ولد للعاشر فأبى أن يذبح ابنه، وكان لم يولد له قبل ذلك، وكان ابنه أزرق أحمر، فنبت نباتًا سريعًا، وكان إذا مرَّ بالتسعة ورأوه قالوا: لو كان أبناؤنا أحياء لكانوا مثل هذا، فغضب التسعة على صالح؛ لأنه كان سبب قتل أولادهم، فتقاسموا بالله لَنُبَيِّتَنَّهُ وأهله، قالوا: نخرج ليرى النامرُ أنا قد خرجنا إلى سفر فنأتي الغار فنكون فيه، حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده أتيناه فقتلناه، ثم رجعنا إلى الغار فكنا فيه فانصرفنا إلى رحلنا فقلنا: ما شهدنا مَهْلِكَ أهله، وإنا لصادقون، فيصدقوننا، يظنون

---

(١) في الطبري (١٢/ ٥٣٦): (الزُّرَيْعَة)، وهي الكلبة ابنة السَّلق.
(٢) في الطبري: (أهل قُزَحٍ).
(٣) أخرجه الطبري عنه: (١٢/ ٥٢٦ـ٥٢٨).

أنَّا قد خرجنا إلى سفر، وكان صالح لا ينام معهم في القرية، وكان يبيت في مسجد يقال له: مسجد صالح، فإذا أصبح أتاهم فوعظهم وذكَّرهم وإذا أمسى خرج إلى المسجد فبات فيه، فانطلقوا فدخلوا الغار، فسقط عليهم الغار فقتلهم، فانطلق رجال ممن قد اطلع على ذلك منهم فإذا هم رضخ، فرجعوا يصيحون في القرية: أيْ عبادَ الله، ما رضي صالح أن أمرهم بقتل أولادهم حتى قتلهم، فاجتمع أهل القرية على عقر الناقة.

وقال ابن إسحاق: كان تقاسم التسعة على تبييت صالح بعد عقرهم الناقة كما ذكرنا.

قال السدي وغيره: فلما ولد ابن العاشر، يعني: قدار، شبَّ في اليوم شباب غيره في الجمعة، وشبَّ في شهر شباب غيره في السنة، فلما كبر جلس مع أناس يصيبون من الشراب، فأرادوا ماءً يمزجون به شرابهم، وكان ذلك اليوم شِرْب الناقة، فوجدوا الماء قد شربته الناقة، فاشتدَّ ذلك عليهم وقالوا: ما نصنع نحن باللَّبَن؟ لو كنَّا نأخذ هذا الماء الذي تشربه هذه الناقة فنسقيه أنعامنا وحروثنا كان خيرًا لنا، فقال ابن العاشر: هل لكم في أن أعقرها لكم؟ قالوا: نعم، فعقروها.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا محمد بن مسكين، ثنا يحيى بن حسان بن حيان أبو زكريا، ثنا سليمان، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ لمَّا نزل الحِجْرَ في غزوة تبوك، أمرهم أن لا يشربوا من بئرٍ بها ولا يَسْتَقُوا منها، فقالوا: قد عَجَنَّا منها واستقينا، فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا ذلك الماء»[1]. وقال نافع عن ابن عمر: فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا من آبارها وأن يعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة[2].

وروى أبو الزبير عن جابر قال: لمَّا مرَّ رسول الله ﷺ بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه: لا يدخلنَّ أحد منكم القرية ولا تشربوا من مائهم ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلاَّ أن تكونُوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم، ثم قال: أما بعد، فلا تسألوا رسولكم الآيات، هؤلاء قوم صالح سألوا رسولهم، فبعث الله الناقة فكانت ترد من هذا الفجّ وتصدر من هذا الفج وتشرب ماءهم يوم ورودها، وأراهم مرتقى الفصيل من القارة، فعتوا عن أمر ربهم وعقروها، فأهلك الله تعالى مَنْ تحت أديم السماء منهم في مشارق الأرض
١٣٣/ب ومغاربها إلاَّ رجلًا واحدًا يقال له: أبو رِغَال، وهو أبو ثقيف كان في حرم الله، فمنعه / حرم الله من عذاب الله، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فَدُفِنَ ودُفِنَ معه غصن من ذهب، وأراهم قبر أبي رِغال، فنزل القوم

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾: (٦/٣٧٨)، ومسلم في الزهد، باب «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم» برقم ٢٩٨١: (٤/٢٢٨٦) بلفظ قريب.

(٢) أخرجه البخاري في الموضع السابق: (٦/٣٧٨).

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾

فابتدروه بأسيافهم وحفروا عنه واستخرجوا ذلك الغصن[1].

وكانت الفرقة المؤمنة من قوم صالح أربعة آلاف خرج بهم صالح إلى حضر موت، فلما دخلوها مات صالح فسمي حضر موت ثم بنى الأربعة آلاف مدينة يقال لها: حاصوراء، قال قوم من أهل العلم: توفي صالح بمكة، وهو ابن ثمان وخمسين سنة، وأقام في قومه عشرين سنة.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا﴾ أي: وأرسلنا لوطًا، وقيل: معناه: واذكر لوطًا، وهو لوط بن هاران بن تارخ ابن أخي إبراهيم ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ وهم أهل سدوم، وذلك أن لوطًا شخص من أرض بابل سافر[2] مع عمه إبراهيم عليه السلام مؤمنًا به مهاجرًا إلى الشام، فنزل إبراهيم فلسطين وأنزل لوطًا الأُردن، فأرسله الله عزَّ وجلَّ إلى أهل سدوم فقال لهم: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ يعني: إتيان الذكران ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ قال عمرو بن دينار: ما يُرى ذكر على ذكر في الدنيا إلا كان من قوم لوطٍ.

﴿إِنَّكُمْ﴾ قرأ أهل المدينة وحفص «إنكم» بكسر الألف على الخبر، وقرأ الآخرون الاستئناف ﴿لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ في أدبارهم ﴿شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ فسرَّ تلك الفاحشة، يعني: أدبار الرجال أشهى عندكم من فروج النساء ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ مجاوزون الحلال إلى الحرام.

قال محمد بن إسحاق: كانت لهم ثمار وقرى لم يكن في الأرض مثلها فقصدهم الناس فآذوهم، فعرض لهم إبليس في صورة شيخ، فقال: إن فعلتم بهم كذا نَجَوْتُم، فأبوا، فلما ألحَّ عليهم الناس قصدوهم فأصابوهم غلمانًا صباحًا، فأخذوهم وقهروهم على أنفسهم فأخبثوا واستحكم ذلك فيهم، قال الحسن: كانوا لا ينكحون إلا الغرباء.

وقال الكلبي: إن أول من عمل عمل قوم لوط إبليس؛ لأن بلادهم أخصبت فانتجعها أهل البلدان، أي: فتمثل لهم إبليس في صورة شاب، ثم دعا إلى دُبُره، فنُكِح في دبره، فأمر الله تعالى السماء أن تحصبهم وأمر الأرض أن تخسف بهم.

---

(١) أخرجه الطبري في «التفسير»: (٨/ ٢٣٠) طبع الحلبي، وعبد الرزاق في «التفسير»: (١/ ٢٣١ ـ ٢٣٢)، والإمام أحمد في «المسند» مختصرًا: (٣/ ٢٩٦)، وصححه الحاكم: (٢/ ٣٤٠ ـ ٣٤١) ووافقه الذهبي، وعزاه الهيثمي للطبراني في «الأوسط» والبزار وأحمد، وقال: رجال أحمد رجال الصحيح وعزاه ـ أيضًا ـ ابن حجر لابن حبان. انظر: «مجمع الزوائد»: (٧/ ٣٧ ـ ٣٨)، «الكافي الشاف»: ص٦٥، «الدر المنثور»: (٣/ ٤٩٢)، قال ابن كثير: (وهذا الحديث على شرط مسلم). وقارن بـ «تخريج الكشاف» للزيلعي: (١/ ٤٧٠).

(٢) ساقط من «ب».

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ
يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم
مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ
يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ
فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ
فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ قال بعضهم لبعض: ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ يعني: لوطًا وأهل دينه ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ يتنزهون عن أدبار الرجال.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ يعني: لوطًا ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾ المؤمنين، وقيل: «أهله»: ابنتاه ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ يعني: الباقين في العذاب، وقيل: معناه: كانت من الباقين المُعَمَّرين، قد أتى عليها دهر طويل فهلكتْ مع من هلك من قوم لوط، وإنما قال: «مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ» لأنه أراد: ممن بقي من الرجال، فلما ضمَّ ذِكْرَها إلى ذِكْرِ الرجال قال: «مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ».

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ﴾ يعني: حجارة من سجيل، قال وهب: الكبريت والنار ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ قال أبو عبيدة: يقال في العذاب: أمطر، وفي الرحمة: مطر.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ﴾ أي: وأرسلنا إلى ولد مدين - وهو مدين بن إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام وهم أصحاب الأيكة - أخاهم شعيبًا في النسب لا في الدين، قال عطاء: هو شعيب ابن توبة بن مدين بن إبراهيم، وقال ابن إسحاق: هو شعيب بن ميكائيل بن يسخر بن مدين بن إبراهيم، وأم ميكائيل بنت لوط، وقيل: هو شعيب بن يثرون بن مدين، وكان شعيب أعمى، وكان يقال له: خطيب الأنبياء؛ لحسن مراجعته قومه، وكان قومه أهل كفر وبخس للمكيال والميزان.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ﴾ فإن قيل: ما معنى قوله تعالى: «قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ»، ولم تكن لهم آية؟ قيل: قد كانت لهم آية إلا أنها لم تذكر، وليست كل الآيات مذكورة في القرآن. وقيل: أراد بالبينة مجيء شعيب.

﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ﴾ أتموا الكيل ﴿وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ لا تظلموا الناس حقوقهم، ولا تنقصوهم إياها ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ﴾ أي: ببعث الرسل والأمر

وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ
وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ
بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ
ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ
لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم
بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ
عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾

بالعدل، وكل نبي بعث إلى قوم فهو صلاحهم ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي ذكرت لكم وأمرتكم به ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ مصدِّقين بما أقول.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ أي: على كل طريق ﴿تُوعِدُونَ﴾ تهددون ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دين الله ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ زيغًا، وقيل: تطلبون الاعوجاج في الدين والعدول عن القصد، وذلك أنهم كانوا يجلسون على الطريق فيقولون لمن يريد الإيمان بشعيب: إن شعيبًا كذَّاب فلا يفتننَّك عن دينك، ويتوعدون المؤمنين بالقتل ويخوفونهم، وقال السدي: كانوا عشارين ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ فكثر عددهم ﴿وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: آخر أمر قوم لوط.

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ أي: إن اختلفتم في رسالتي فصرتم فرقتين: مكذبين ومصدقين ﴿فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ بتعذيب المكذبين، وإنجاء المصدقين ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ يعني: الرؤساء الذين تعظموا عن الإيمان به: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ لترجعن إلى ديننا الذي نحن عليه ﴿قَالَ﴾ شعيب: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ يعني: لو كنَّا، أي: وإن كنا كارهين لذلك فتجبروننا عليه؟

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ بعد إذ أنقذنا الله منها ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ يقول: إلا أن يكون قد سبق لنا في علم الله ومشيئته أن نعود فيها فحينئذ يمضي قضاء الله فينا، وينفذ حكمه علينا.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾

فإن قيل: ما معنى قوله: «أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا»، «وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا»، ولم يكن شعيب قطُّ على ملتهم حتى يصحَّ قولُهم: ترجع إلى ملتنا؟

قيل: معناه: أو لتدخلن في ملتنا، فقال: وما كان لنا أن ندخل فيها.

وقيل: معناه: إن صرنا في ملتكم، ومعنى عاد: صار.

وقيل: أراد به قوم شعيب؛ لأنهم كانوا كفارًا فآمنوا فأجاب شعيب عنهم.

قوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أحاط علمه بكل شيء ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ فيما توعدوننا به، ثم عاد شعيب بعد ما أيس من فلاحهم فقال: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾ أي: اقضِ بيننا ﴿بِالْحَقِّ﴾ والفتّاح: القاضي ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: الحاكمين.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ وتركتم دينكم ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ مغبونون، وقال عطاء: جاهدون، قال الضحّاك: عجزة.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ قال الكلبي: الزلزلة.

وقال ابن عباس وغيره: فتح الله عليهم بابًا من جهنم، فأرسل عليهم حرًا شديدًا، فأخذ بأنفاسهم ولم ينفعهم ظل ولا ماء، فكانوا يدخلون الأسراب ليتبردوا فيها، فإذا دخلوها وجدوها أشدَّ حرًا من الظاهر،
١/١٣٤ فخرجوا هربًا إلى البرية فبعث الله سحابة فيها ريح طيبة فأظلتهم، / وهي الظُّلَّة، فوجدوا لها بردًا ونسيمًا، فنادى بعضهم بعضًا حتى اجتمعوا تحت السحابة، رجالهم ونساؤهم وصبيانهم، ألهبها الله عليهم نارًا، ورجفت بهمُ الأرض، فاحترقوا كما يحترق الجراد المقلي، وصاروا رمادًا.

ورُوي أن الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة أيام ثم سلط عليهم الحر، قال يزيد الجريري: سلَّط اللهُ عليهم الحرَّ سبعة أيام ثم رُفع لهم جبلٌ من بعيد، فأتاه رجلٌ فإذا تحته أنهار وعيون فاجتمعوا تحته كلهم فوقع ذلك الجبل عليهم، فذلك قوله: «عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ»[الشعراء: ١٨٩].

قال قتادة: بعث الله شعيبًا إلى أصحاب الأيكة وأهل مدين، أما أصحاب الأيكة فأُهلكوا بالظلة، وأما أصحاب مدين فأخذتهم الصيحة، صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة فهلكوا جميعًا.

قال أبو عبد الله البجلي: كان أبو جاد، وهوَّز، وحُطي، وكلمُنْ، وسعفص، وقرشت، ملوك مدين، وكان ملكهم في زمن شعيب عليه السلام يوم الظلة: «كلمن»، فلما هلك قالت ابنته تبكيه:

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

كَلَمُــــنْ قَــــدْ هَــــدَّ رُكْنِــــي هُلْكُــــهُ وَسْــــطَ المَحِلَّــــهْ

سيِّــــدُ القَــــوْمِ أتــــا هُ الحَتْــفُ نــارًا تحــت ظُلَّــهْ

جُعِلَــــتْ نَــــارًا عَلَيْهِــــم دارُهُــــمْ كَــــالمُضْمَحِلَّــــهْ[1]

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ﴾ أي: لم يقيموا ولم ينزلوا فيها، من قولهم: غنيت بالمكان إذا قمت به، والمغاني: المنازل، واحدها مغنى، وقيل: كأن لم تنعموا فيها ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ لا المؤمنين كما زعموا.

﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ أعرض ﴿عَنۡهُمۡ﴾ شعيب شاخصًا من بين أظهرهم حين أتاهم العذاب ﴿وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ﴾ أحزن ﴿عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ والأسى: الحزن، والأسى: الصبر.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾ فيه إضمار، يعني: فكذبوه ﴿إِلَّآ أَخَذۡنَآ﴾ عاقبنا ﴿أَهۡلَهَا﴾ حين لم يؤمنوا ﴿بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ قال ابن مسعود: البأساء: الفقر، والضراء: المرض، وهذا معنى قول من قال: البأساء في المال، والضراء في النفس، وقيل: البأساء: البؤس وضيق العيش، والضراء: الضر سوء الحال، وقيل: البأساء في الحرب، والضراء: الجدب ﴿لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾ لكي يتضرعوا فيتوبوا.

﴿ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ﴾ يعني: مكان البأساء والضراء الحسنة، يعني: النعمة والسعة والخصب والصحة ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ أي: كثروا وازدادوا، وكثرت أموالهم، (يقال: عفا الشعر إذا كثر، قال مجاهد: كثرت أموالهم وأولادهم)[2] ﴿وَّقَالُواْ﴾ من غرتهم وغفلتهم بعد ما صاروا إلى الرخاء: ﴿قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ أي: هكذا كانت عادة الدهر قديمًا لنا ولآبائنا، ولم يكن ما مسَّنا من الضراء عقوبة من الله،

---

(١) أخرجه الطبري: (١٢/ ٥٦٨)، وقال ابن عطية في «المحرر الوجيز»: (هذه حكاية مظنون بها، والله أعلم).

(٢) ما بين القوسين ساقط من «ب».

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن
كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا
وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾
أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ
لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

فكونوا على ما أنتم عليه كما كان آباؤكم فإنهم لم يتركوا دينهم لما أصابهم من الضراء، قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ فجأةً: آمَنَ ما كانوا ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ بنزول العذاب.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني: المطر من السماء، والنبات من الأرض، وأصل البركة: المواظبة على الشيء، أي: تابعنا عليهم المطر والنبات، ورفعنا عنهم القحط والجدب ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ من الأعمال الخبيثة.

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ الذين كفروا وكذبوا، يعني: أهل مكة وما حولها ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ عذابنا ﴿بَيَٰتًا﴾ ليلًا ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿أَوَأَمِنَ﴾ قرأ أهل الحجاز والشام: «أَوْ أَمِنَ» بسكون الواو، والباقون بفتحها ﴿أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ أي: نهارًا، والضحى: صدر النهار، ووقت انبساط الشمس ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ ساهون لاهون.

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ ومكر الله استدراجه إيَّاهم بما أنعم عليهم في دنياهم، وقال عطية: يعني: أخذه وعذابه.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ﴾ قرأ قتادة ويعقوب: «نهد» بالنون على التعظيم، والباقون بالياء على التفريد، يعني: أوَ لم نبيِّن ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ﴾ هلاك ﴿أَهْلِهَآ﴾ الذين كانوا فيها قبلهم ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم﴾ أي: أخذناهم وعاقبناهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما عاقبنا من قبلهم ﴿وَنَطْبَعُ﴾ نختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ الإيمان ولا يقبلون الموعظة، قال الزَّجَّاج: قوله: «وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ» منقطع عما قبله؛ لأن قوله: «أَصَبْنَٰهُم» ماض و«وَنَطْبَعُ» مستقبل.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي: هذه القرى التي ذكرت لك أمرها وأمر أهلها، يعني: قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ أخبارها لما فيها من الاعتبار ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالآيات والمعجزات والعجائب ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: فما كانوا ليؤمنوا بعد رؤية المعجزات والعجائب بما كذبوا من قبل رؤيتهم تلك العجائب، نظيره: قوله عزَّ وجلَّ: «قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ»[المائدة: ١٠٢].

قال ابن عباس والسدي: يعني: فما كان هؤلاء الكفار الذين أهلكناهم ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذبوا من قبل يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من ظهر آدم، فأقروا باللسان وأضمروا التكذيب.

وقال مجاهد: معناه: فما كانوا لو أحييناهم بعد إهلاكهم ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل هلاكهم، كقوله عزَّ وجلَّ: «وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ»[الأنعام: ٢٨].

قال يمانُ بن رباب: هذا على معنى أن كل نبي أنذر قومه بالعذاب فكذبوه، يقول: ما كانوا ليؤمنوا بما كذب به أوائلهم من الأمم الخالية، بل كذبوا بما كذب أوائلهم، نظيره قوله عزَّ وجلَّ: «كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ»[الذاريات: ٥٢] ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ أي: كما طبع الله على قلوب الأمم الخالية التي أهلكها، كذلك يطبع الله على قلوب الكفار الذين كُتِب عليهم أنْ لا يؤمنوا من قومك.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ أي: وفاء بالعهد الذي عاهدهم يوم الميثاق، حين أخرجهم من صلب آدم ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ أي: ما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين ناقضين للعهد.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي: من بعد نوح وهود وصالح وشعيب ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ بأدلتنا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ فجحدوا بها، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، فظلمهم: وضع الكفر موضع الإيمان ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ وكيف فعلنا بهم.

وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ
إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ
جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ
مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لما دخل على فرعون ﴿يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ إليك؛ فقال فرعون: كذبتَ، فقال موسى:

١٣٤/ب ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ/ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي: أنا خليق بأن لا أقول على الله إلا الحق، فتكون «عَلَىٰٓ» بمعنى الباء، كما يقال: رميت بالقوس ورميت على القوس، وجئت على حال حسنة وبحال حسنة، يدل عليه قراءة أُبيّ والأعمش «حَقِيقٌ» بأن «لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ»، وقال أبو عبيدة: معناه: حريص على أن لا أقول على الله إلاَّ الحق، وقرأ نافع «عَلَيَّ» بتشديد الياء، أي: حق واجب عليَّ أن لا أقول على الله إلا الحق ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: العصا ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ أي: أطلق عنهم وخلِّهم يرجعون إلى الأرض المقدسة، وكان فرعون قد استخدمهم في الأعمال الشاقة من ضرب اللَّبِن ونقل التراب ونحوهما، فقال فرعون مجيبًا لموسى:

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ﴾ من يده ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ والثعبان: الذكر العظيم من الحيات، فإن قيل: أليس قال في موضع: «كَأَنَّهَا جَآنٌّ»[النمل: ١٠]، والجانُّ: الحية الصغيرة؟ قيل: إنها كانت كالجان في الحركة والخفة، وهي في جثتها حية عظيمة.

قال ابن عباس والسدي: إنه لما ألقى العصا صارت حيّة عظيمة صفراء شعراء، فاغرةً فاها ما بين لحييها ثمانون ذراعًا، وارتفعت من الأرض بقدر ميل، وقامت له على ذنبها واضعةً لحيها الأسفل في الأرض والأعلى على سور القصر، وتوجهت نحو فرعون لتأخذه، ورُوي أنها أخذت قبة فرعون بين نابيها فوثب فرعون من سريره هاربًا وأحْدَثَ.

قيل: أخذه البطن في ذلك اليوم أربعمائة مرة، وحملت على الناس فانهزموا وصاحوا، ومات منهم خمسة وعشرون ألفًا قتل بعضهم بعضًا، ودخل فرعون البيت وصاح: يا موسى أنشدك بالذي أرسلك خذها وأنا أؤمن بك وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت ثم قال فرعون: هل معك آية أخرى؟ قال: نعم.

وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ فأدخل يده في جيبه ثم نزعها، وقيل: أخرجها من تحت إبطه فإذا هي بيضاء لها شعاع غلب نور الشمس، وكان موسى آدم، ثم أدخلها جيبه فصارت كما كانت.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾ يعنون: أنه ليأخذ بأعين الناس حتى يخيل إليهم العصا حية، والآدم أبيض، ويُري الشيء بخلاف ما هو به.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم﴾ يا معشر القبط ﴿مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ مصر ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾ أي: تشيرون إليه، هذا يقوله فرعون وإن لم يذكره، وقيل: هذا من قول الملأ لفرعون وخاصته.

﴿قَالُوٓا۟﴾ يعني: الملأ: ﴿أَرْجِهْ﴾ قرأ ابن كثير وأهل البصرة وابن عامر بالهمزة وضم الهاء، وقرأ الآخرون بلا همز، ثم نافع برواية ورش والكسائي يشبعان الهاء كسرًا، ويسكنها عاصم وحمزة، ويختلسها أبو جعفر وقالون.

قال عطاء: معناه: أخره، وقيل: احبسه ﴿وَأَخَاهُ﴾ معناه: أشاروا إليه بتأخير أمره وترك التعرض له بالقتل ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾﴾ يعني: الشُّرط والمدائن، وهي مدائن الصعيد من نواحي مصر، قالوا: أرسل إلى هذه المدائن رجالاً يحشرون إليك مَنْ فيها مِنَ السحرة، وكان رؤساء السحرة بأقصى مدائن الصعيد، فإن غلبهم موسى صدقناه، وإن غلبوا علمنا أنه ساحر.

فذلك قوله: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ قرأ حمزة والكسائي: «سحّار» هاهنا وفي سورة يونس، ولم يختلفوا في الشعراء أنه «سحّار».

قيل: الساحر: الذي يَعْلَمُ السحر ولا يُعَلِّمُ، والسَّحّار: الذي يُعَلِّم، وقيل: الساحر من يكون سحره في وقت دون وقت، والسحار من يديم السحر.

قال ابن عباس وابن إسحاق والسدي: قال فرعون لمَّا رأى من سلطان الله في العصا ما رأى: إنَّا لا نُغالب إلا بمن هو منه، فاتخذ غلمانًا من بني إسرائيل فبعث بهم إلى قرية يقال لها: الفرحاء، يعلمونهم السحر، فعلموهم سحرًا كثيرًا، وواعد فرعون موسى موعدًا فبعث إلى السحرة فجاؤوا ومعلمهم معهم، فقال له: ماذا صنعت؟ قال: قد علمتهم سحرًا لا يطيقه سحرة أهل الأرض إلا أن يكون أمرًا من السماء، فإنه لا طاقة لهم به، ثم بعث فرعون في مملكته فلم يترك في سلطانه ساحرًا إلا أتى به.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ
وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾
قَالَ أَلْقُواْۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾
۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾

واختلفوا في عددهم، فقال مقاتل: كانوا اثنين وسبعين: اثنان من القبط، وهما رأسا القوم، وسبعون من بني إسرائيل.

وقال الكلبي: كان الذين يعلمونهم رجلين مجوسيين من أهل نينوى، وكانوا سبعين غير رئيسهم.

وقال كعب: كانوا اثني عشر ألفًا، وقال السدي: كانوا بضعة وثلاثين ألفًا.

وقال عكرمة: كانوا سبعين ألفًا، وقال محمد بن المنكدر: كانوا ثمانين ألفًا، وقال مقاتل: كان رئيس السحرة شمعون، وقال ابن جريج: رئيس السحرة يوحنا[1].

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ واجتمعوا ﴿قَالُوٓاْ﴾ لفرعون ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ أي: جُعْلًا ومالاً ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾ قرأ أهل الحجاز وحفص: «إن لنا» على الخبر، وقرأ الباقون بالاستفهام، ولم يختلفوا في الشعراء أنه مستفهم.

﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ في المنزلة الرفيعة عندي مع الأجر، قال الكلبي: يعني: أول من يدخل وآخر من يخرج.

﴿قَالُواْ﴾ يعني: السحرة ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ﴾ عصاك ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ لعصيّنا وحبالنا.

﴿قَالَ﴾ موسى: بل ﴿أَلْقُواْۖ﴾ أنتم ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: صرفوا أعينهم عن إدراك حقيقة ما فعلوه من التمويه والتخييل: وهذا هو السحر ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي: أرهبوهم وأفزعوهم ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ وذلك أنهم ألقوا حبالاً غلاظًا وخشبًا طوالاً فإذا هي حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضًا، وفي القصة أن الأرض كانت ميلًا في ميل صارت حيات وأفاعي في أعين الناس.

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ﴾ فألقاها فصارت حية عظيمة حتى سدت الأفق، قال ابن

(١) عقّب ابن عطية رحمه الله على هذه الروايات فقال: (وهذه الأقوال ليس لها سند يوقف عنده). «المحرر الوجيز»: (٦/ ٣٤).

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١١٨ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ۝١١٩ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝١٢٠ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٢ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝١٢٣ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٢٤﴾

زيد: كان اجتماعهم بالإسكندرية، ويقال: بلغ ذنب الحية من وراء البحيرة ثم فتحت فاها ثمانين ذراعًا[1] ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ﴾ قرأ حفص: «تَلْقَفُ» ساكنة اللام، خفيفة، حيث كان، وقرأ الآخرون: بفتح اللام وتشديد القاف، أي: تبتلع ﴿مَا يَأْفِكُونَ ۝١١٧﴾ يكذبون من التخاييل، وقيل: يزوِّرون على الناس، فكانت تلتقم حبالهم وعصيهم واحدًا واحدًا حتى ابتلعت الكلَّ وقصدت القوم الذين حضروا فوقع الزحام عليهم فهلك منهم في الزحام خمسة وعشرون ألفًا، ثم أخذها موسى فصارت عصا كما كانت.

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ قال الحسن ومجاهد: ظهر الحق ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١١٨﴾ / من السحر، وذلك أن السحرة قالوا: لو كان ما يصنع موسى سحرًا لبقيت حبالنا وعصيُّنا، فلما فقدت علموا أن ذلك من أمر الله. ١/١٣٥

﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ۝١١٩﴾ ذليلين مقهورين.

﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝١٢٠﴾ لله تعالى، قال مقاتل: ألقاهم الله، وقيل: ألهمهم الله أن يسجدوا فسجدوا، وقال الأخفش: من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا.

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢١﴾ فقال فرعون: إياي تعنون؟ فقالوا: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٢﴾ قال مقاتل: قال موسى لكبير السحرة تؤمن بي إن غلبتك؟ فقال: لآتين بسحر لا يغلبه سحر، ولئن غلبتني لأومنن بك، وفرعون ينظر.

﴿قَالَ﴾ لهم ﴿فِرْعَوْنُ﴾ حين آمنوا ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ قرأ حفص «ءَامَنتُم» على الخبر هاهنا وفي طه والشعراء، وقرأ الآخرون بالاستفهام «أآمنتم به» ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أصدَّقتم موسى من غير أمري إيَّاكم؟ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾ أي: صنيع صنعتموه أنتم وموسى ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ في مصر قبل خروجكم إلى هذا الموضع لتستولوا على مصر ﴿لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝١٢٣﴾ ما أفعل بكم.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ وهو أن يقطع من كل شقٍّ طرفًا، قال الكلبي: لأقطعن أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٢٤﴾ على شاطىء نهر[2] مصر.

---

(١) قال ابن عطية أيضًا: (وهذا قول بعيد من الصواب، مفرط في الإغراق، لا ينبغي أن يلتفت إليه). «المحرر الوجيز»: (٦/ ٣٧).

(٢) في «ب»: (بحر).

قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾

﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني: السحرة لفرعون: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ راجعون في الآخرة.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ أي: ما تكره منّا، وقال الضحاك وغيره: وما تطعن علينا، وقال عطاء: ما لنا عندك من ذنب تعذبنا عليه ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ ثم فزعوا إلى الله عزَّ وجلَّ فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ﴾ اصببْ ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ ذكر الكلبي: أن فرعون قطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم، وذَكَرَ غيرُه: أنه لم يقدر عليهم؛ لقوله تعالى: «فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ»[القصص: ٣٥].

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ له: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وأرادوا بالإفساد في الأرض: دعاءهم الناس إلى مخالفة فرعون في عبادته ﴿وَيَذَرَكَ﴾ أي: وليذرك ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ فلا يعبدك ولا يعبدها، قال ابن عباس: كان لفرعون بقرة يعبدها، وكان إذا رأى بقرة حسناء أمرهم أن يعبدوها، فلذلك أخرج السامري لهم عجلًا، وقال الحسن: كان قد علّق على عنقه صليبًا يعبده، وقال السدي: كان فرعون قد اتخذ لقومه أصنامًا وأمرهم بعبادتها، وقال لقومه: هذه آلهتكم وأنا ربها وربكم، فذلك قوله: «أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ»[النازعات: ٢٤]، وقرأ ابن مسعود وابن عباس والشعبي والضحاك: «وَيَذَرَكَ وإلَاهَتَكَ» بكسر الألف، أي: عبادتك فلا يعبدك؛ لأن فرعون كان يُعْبَد ولا يَعْبُدُ، وقيل: أراد بالآلهة الشمس، وكانوا يعبدونها، قال الشاعر(١):

تَـرَوَّحْنَـا مِـنَ اللَّعْبَـاءِ قَصْـرًا ... وأَعْجَلْنَـا الإِلاهَـةَ أَنْ تَـؤُوبَـا

﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ قرأ أهل الحجاز: «سَنَقْتُلُ» بالتخفيف من القتل، وقرأ الآخرون بالتشديد من التقتيل على التكثير ﴿وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ نتركهنَّ أحياء ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ غالبون، قال ابن عباس: كان فرعون يقتل أبناء بني إسرائيل في العام الذي قيل: إنه يولد مولود يذهب بملكك، فلم يزل يقتلهم حتى أتاهم موسى بالرسالة، وكان من أمره ما كان، فقال فرعون: أعيدوا عليهم القتل، فأعادوا عليهم القتل، فشكت ذلك بنو إسرائيل.

---

(١) البيت لبنت عتيبة بن الحارث اليربوعي مع أبيات أخرى ترثي فيها أباها. وهو من شواهد الطبري و«لسان العرب» وغيرهما. و(اللعباء) اسم موضع، و(قصرًا) عشيًا، و(الإلاهة) الشمس.

قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ
عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا
قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ
كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ
يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟
بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ يعني: ارض مصر ﴿يُورِثُهَا﴾ يعطيها ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ بالنصر والظفر، وقيل: السعادة والشهادة، وقيل: الجنة.

﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا﴾ قال ابن عباس: لمَّا آمنت السحرةُ اتبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل، فقالوا - يعني: قوم موسى -: إنا أوذينا ﴿مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ بالرسالة بقتل الأبناء ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ بإعادة القتل علينا، وقيل: فالمراد منه: أن فرعون كان يستسخرهم قبل مجيء موسى إلى نصف النهار، فلما جاء موسى استسخرهم جميع النهار بلا أجر، وذكر الكلبي أنهم كانوا يضربون له اللَّبِن بتبن فرعون، فلما جاء موسى أجبرهم أن يضربوه بتبنٍ من عندهم ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ فرعون ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يسكنكم أرض مصر من بعدهم، ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ فحقق الله ذلك بإغراق فرعون واستخلافهم في ديارهم وأموالهم فعبدوا العجل.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ أي: بالجدوب والقحط، تقول العرب: مسَّتهم السنةُ، أي: جدب السنة وشدة السنة، وقيل: أراد بالسنين القحط سنة بعد سنة ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ والغلَّات بالآفات والعاهات، وقال قتادة: أمّا السنين فلأهل البوادي، وأمّا نقص الثمرات فلأهل الأمصار ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ أي: يتعظون، وذلك لأن الشدة ترقق القلوب وترغبها فيما عند الله عزَّ وجلَّ.

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ يعني: الخصب والسعة والعافية ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي: نحن أهلها ومستحقوها على العادة التي جرت لنا في سعة أرزاقنا، ولم يروها تفضلًا من الله عزَّ وجلَّ فيشكروا عليها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جدب وبلاء، ورأوا ما يكرهون ﴿يَطَّيَّرُوا۟﴾ يتشاءموا ﴿بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ وقالوا: ما أصابنا بلاء حتى رأيناهم، فهذا من شؤم موسى وقومه.

قال سعيد بن جبير ومحمد بن المنكدر: كان مُلْكُ فرعون أربعمائة سنة، وعاش ستمائة وعشرين سنة لا يرى مكروهًا، ولو كان له في تلك المدة جوع يوم أو حُمَّىٰ ليلة، أو وجع ساعة، لما ادعى الربوبية قط،

﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أنصباؤهم من الخصب والجدب والخير والشر كله من الله، وقال ابن عباس: طائرهم ما قضى الله عليهم وقدَّر لهم، وفي رواية عنه: شُؤمهم عند الله ومن قِبَل الله، أي: إنَّما جاءهم الشؤم بكفرهم بالله، وقيل: معناه: الشؤم العظيم الذي لهم عند الله من عذاب النار ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ أن الذي أصابهم من الله.

﴿وَقَالُوا۟﴾ يعني: القبط لموسى ﴿مَهْمَا﴾ متى ما، كلمة تستعمل للشرط والجزاء ﴿تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ﴾ من علامة ﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ لتنقلنا عمَّا نحن عليه من الدين ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ بمصدقين.

١٣٥/ب ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ قال ابن عباس / وسعيد بن جبير وقتادة ومحمد بن إسحاق[1] ـ دخل كلام بعضهم في بعض ـ: لمَّا آمنت السحرة، ورجع فرعون مغلوبًا، أبى هو وقومه إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشَّرِّ، فتابع الله عليهم الآيات وأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات، فلما عالج منهم بالآيات الأربع: العصا، واليد، والسنين، ونقص الثمار، فأبوا أن يؤمنوا فدعا عليهم، فقال: يا رب إن عبدك فرعون علا في الأرض وبغى وعتا، وإن قومه قد نقضوا عهدك، ربِّ فخذهم بعقوبة تجعلها لهم نقمة ولقومي عظةً ولمن بعدهم آيةً وعبرة، فبعث الله عليهم الطوفان: وهو الماء، أرسل الله عليهم الماء، وبيوت بني إسرائيل وبيوت القبط مشتبكة مختلطة، فامتلأت بيوت القبط حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم ومن جلس منهم غرق، ولم يدخل بيوتَ بني إسرائيل من الماءِ قطرة، وركد الماء على أرضهم لا يقدرون أن يحرثوا ولا يعملوا شيئًا، ودام ذلك عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت.

وقال مجاهد وعطاء: الطوفان: الموت، وقال وهب: الطوفان: الطاعون بلغة اليمن، وقال أبو قلابة: الطوفان: الجدري، وهم أول مَنْ عُذِّبوا به فبقي في الأرض.

وقال مقاتل: الطوفان: الماء، طغى فوق حروثهم.

وروى ابن ظبيان عن ابن عباس قال: الطوفان: أمر من الله طاف بهم، ثم قرأ: «فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ»[القلم: ١٩].

(١) ساق هذه الروايات: الطبري في «التفسير»: (١٣/ ٦٣، وما بعدها)، وفي «التاريخ»: (١/ ٤١٠ ـ ٤١١، و٤١٧ ـ ٤١٨). وانظر: «تفسير عبد الرزاق»: (١/ ٢٣٤).

قال نحاة الكوفة: الطوفان: مصدر لا يُجْمَعُ، كالرجحان والنقصان.

وقال أهل البصرة: هو جمعٌ، واحدها طوفانة، فقال لموسى: ادعُ لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربَّه فرفع عنهم الطوفان، فأنبت الله لهم في تلك السنة شيئًا لم ينبته لهم قبل ذلك من الكلأ والزرع والثمر وأخصبت بلادهم، فقالوا: ما كان هذا الماء إلا نعمة علينا وخصبًا، فلم يؤمنوا، وأقاموا شهرًا في عافية، فبعث الله عليهم الجراد فأكل عامة زروعهم وثمارهم وأوراق الشجر حتى كانت تأكل الأبواب وسقوف البيوت والخشب والثياب والأمتعة ومسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم، وابتلي الجراد بالجوع فكان لا يشبع، ولم يصب بني إسرائيل شيء من ذلك، فعجوا وضجوا وقالوا: يا موسى، ادعُ لنا ربك لئن كشف عنا الرجز لنؤمنن لك، وأعطوه عهد الله وميثاقه، فدعا موسى عليه السلام فكشف الله عنهم الجراد بعدما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت.

وفي الخبر: «مكتوب على صدر كل جرادة جند الله الأعظم»(١).

ويقال: إن موسى برز إلى الفضاء فأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجعت الجراد من حيث جاءت، وكانت قد بقيت من زروعهم وغلاتهم بقية، فقالوا: قد بقي لنا ما هو كافينا فما نحن بتاركي ديننا، فلم يفُوا بما عاهدوا، وعادوا لأعمالهم السوء، فأقاموا شهرًا في عافية، ثم بعث الله عليهم القمل.

(واختلفوا في القمل)(٢)؛ فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: القمل السوس الذي يخرج من الحنطة، وقال مجاهد والسدي وقتادة والكلبي: القمل الدَّبَى والجراد الطيارة التي لها أجنحة، والدَّبى الصغار التي لا أجنحة لها، وقال (عكرمة: هي بنات)(٢) الجراد، وقال أبو عبيدة: وهو الحمْنَان: وهو ضرب من القراد، وقال عطاء الخراساني: هو القَمْل، وبه قرأ أبو الحسن «القَمْل» بفتح القاف وسكون الميم.

قالوا: أمر الله موسى أن يمشي إلى كثيب أعفر بقرية من قرى مصر تدعى: عين الشمس، فمشى إلى ذلك الكثيب وكان أهيل فضربه بعصاه فانثال عليهم القمل، فتتبع ما بقي من حروثهم وأشجارهم ونباتهم فأكله ولحس الأرض كلها، وكان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده فيعضه، وكان أحدهم يأكل الطعام فيمتلىء قملًا.

قال سعيد بن المسيب: القمل: السوس الذي يخرج من الحبوب، وكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحا فلا يرد منها ثلاثة أقفزة، فلم يصابوا ببلاء كان أشد عليهم من القمل، وأخذ أشعارهم وأبشارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ولزم جلودهم كأنه الجدري عليهم ومنعهم النوم والقرار فصرخوا وصاحوا إلى موسى أنا نتوب فادع لنا ربك يكشف عنا البلاء، فدعا موسى عليه السلام الله فرفع الله القمل عنهم بعدما أقام

---

(١) انظر: «الدر المنثور»: (٧/ ٥٢٢ ـ ٥٢٣)، ففيه جملة أخبار بهذا المعنى فيها ضعف ونكارة.

(٢) ساقط من «ب».

عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت، فنكثوا وعادوا إلى أخبث أعمالهم، وقالوا: ما كنَّا قط أحق أن نستيقن أنه ساحر منَّا اليوم يجعل الرمل دواب، فدعا موسى بعدما أقاموا شهرًا في عافية، فأرسل الله عليهم الضفادع فامتلأت منها بيوتهم وأفنيتهم وأطعمتهم وآنيتهم، فلا يكشف أحدٌ إناءً ولا طعامًا إلاَّ وجد فيه الضفادع، وكان الرجل يجلس في الضفادع إلى ذقنه، ويهمّ أن يتكلم فيثب الضفدع في فيه، وكانت تثبت في قدورهم فتفسد عليهم طعامهم وتطفيء نيرانهم، وكان أحدهم يضطجع فتركبه الضفادع فتكون عليه ركامًا حتى ما يستطيع أن ينصرف إلى شقه الآخر، ويفتح فاه لأكلته فيسبق الضفدعُ أكلتَه إلى فيه، ولا يعجن عجينًا إلا تشدخت فيه، ولا يفتح قدرًا إلا امتلأت ضفادع، فلقوا منها أذًى شديدًا.

روى عكرمة عن ابن عباس قال: كانت الضفادع برية، فلما أرسلها الله على آل فرعون سمعت وأطاعت فجعلت تقذف أنفسها في القدور وهي تغلي، وفي التنانير وهي تفور، فأثابها الله بحسن طاعتها برد الماء، فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا ذلك[1] إلى موسى، وقالوا: هذه المرة نتوب ولا نعود فأخذ عهودهم ومواثيقهم، ثم دعا ربه فكشف عنهم الضفادع بعدما أقام سبعًا من السبت إلى السبت، فأقاموا شهرًا في عافية ثم نقضوا العهد وعادوا لكفرهم، فدعا عليهم موسى فأرسل الله عليهم الدم، فسال النيل عليهم دمًا وصارت مياههم دمًا وما يستقون من الآبار والأنهار إلا وجدوه دمًا عبيطًا أحمر، فشكوا إلى فرعون وقالوا: ليس لنا شراب، فقال: إنه سحركم، فقالوا: من أين سحرنا ونحن لا نجد في أوعيتنا شيئًا من الماء إلا دمًا عبيطًا؟! وكان فرعون يجمع بين القبطي والإسرائيلي على الإناء الواحد فيكون ما يلي الإسرائيلي ماءً والقبطي دمًا، (ويقومان إلى الجرة فيها الماء فيخرج للإسرائيلي ماء وللقبطي دم)[1]، حتى كانت المرأة من آل فرعون تأتي المرأة من بني إسرائيل حين جهدهم العطش فتقول: اسقني من مائك فتصب لها من قربتها فيعود في
١/١٣٦ الإناء دمًا حتى كانت تقول: اجعليه في فيك ثم مجيه في فيَّ فتأخذ في فيها ماءً فإذا مَجَّته / في فيها صار دمًا، وإن فرعون اعتراه العطش حتى إنه ليضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة، فإذا مضغها يصير ماؤها في فيه ملحًا أجاجًا، فمكثوا في ذلك سبعة أيام لا يشربون إلاَّ الدم.

قال زيد بن أسلم: الدم الذي سُلِّط عليهم كان الرعاف، فأتوا موسى وقالوا: يا موسى، ادع لنا ربَّك يكشف عنَّا هذا الدم فنؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه عزَّ وجلَّ فكشف عنهم، فلم يؤمنوا، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ يتبع بعضها بعضًا، وتفصيلها أن كل عذاب يمتد أسبوعًا، وبين كل عذابين شهرًا ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ١٣٣﴾.

(١) ساقط من «ب».

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ أي: نزل بهم العذاب، وهو ما ذكر الله عزَّ وجلَّ من الطوفان وغيره، وقال سعيد بن جبير: الرجز: الطاعون، وهو العذاب السادس بعد الآيات الخمس[(١)]، حتى مات منهم سبعون ألفًا في يوم واحد، فأمسوا وهم لا يتدافنون ﴿قَالُوا۟﴾ لموسى: ﴿يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: بما أوصاك.

وقال عطاء: بما نبّأك، وقيل: بما عهد عندك من إجابة دعوتك ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ وهو الطاعون ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، ثنا زاهر بن أحمد، ثنا أبو إسحاق الهاشمي، ثنا أبو مصعب، عن مالك، عن محمد بن المنكدر وعن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله، عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه أنه سمعه يسأل أسامة بن زيد: أسمعت من رسول الله ﷺ في الطاعون؟ فقال أسامة بن زيد: (قال رسول الله ﷺ)[(٢)]: «الطاعونُ رجزٌ أُرْسِلَ على بني إسرائيل أو على مَنْ كان قَبْلَكُم، فإذا سمعتُم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه»[(٣)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ يعني: إلى الغرق في اليمّ ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ ينقضون العهد.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ يعني: البحر ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ أي: عن النقمة قبل حلولها غافلين، وقيل: معناه: عن آياتنا معرضين.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٢) ساقط من «أ».

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ»، كتاب الجامع: (٢/ ٨٩٦)، والبخاري في الأنبياء: (٦/ ٥١٣)، ومسلم في السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها برقم ٢٢١٨: (٤/ ١٧٣٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٢٥٤).

وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا
فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ
يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ
فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ
قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ يُقهرون ويُستذلون بذبح الأبناء واستخدام النساء (والاستعباد، وهم بنو إسرائيل)[(١)] ﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ يعني: مصر والشام ﴿ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالماء والأشجار والثمار والخصب والسعة ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يعني: وفَّت كلمة الله، وهي وعده إيَّاهم بالنصر والتمكين في الأرض، وذلك قوله تعالى: «وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ»[القصص: ٥] ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ على دينهم وعلى عذاب فرعون ﴿وَدَمَّرْنَا﴾ أهلكنا ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ في أرض مصر من العمارات ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ قال مجاهد: يبنون من البيوت والقصور، وقال الحسن: يعرشون من الأشجار والثمار والأعناب، وقرأ ابن عامر وأبو بكر «يَعْرُشُونَ» بضم الراء هاهنا وفي النحل، وقرأ الآخرون بكسرها.

قوله تعالى: ﴿وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ قال الكلبي: عبر بهم موسى البحر يوم عاشوراء بعد مهلك فرعون وقومه فصامه شكرًا لله عزَّ وجلَّ ﴿فَأَتَوْا۟﴾ فمروا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ﴾ يقيمون، قرأ حمزة والكسائي «يعكِفون» بكسر الكاف، وقرأ الآخرون بضمها، وهما لغتان ﴿عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ﴾ أوثان ﴿لَّهُمْ﴾ يعبدونها من دون الله.

قال ابن جريج: كانت تماثيل بقر، وذلك أول شأن العجل، قال قتادة: كان أولئك القوم من لَخْم وكانوا نزولاً بالرقة، فقالت بنو إسرائيل لما رأوا ذلك: ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾ أي: مثالاً نعبده ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ ولم يكن ذلك شكًّا من بني إسرائيل في وحدانية الله، وإنَّما معناه: اجعل لنا شيئًا نعظِّمه ونتقرب بتعظيمه إلى الله عزَّ وجلَّ، وظنّوا أن ذلك لا يضر الديانة، وكان ذلك لشدة جهلهم ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ عظمة الله.

﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ﴾ مُهلَك ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ والتتبير: الإهلاك ﴿وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾.

---

(١) ساقط من «ب».

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

﴿قَالَ﴾ يعني: موسى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ﴾ أي: ابغي لكم واطلب ﴿إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ أي: على عالمي زمانكم.

أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري، أنا جدي أبو سهل عبد الصمد بن عبد الرحمن البزار، أنا أبو بكر محمد بن زكريا العذافري، أنا إسحاق بن إبراهيم الدبري، أنا عبد الرزاق، أنا معمر، عن الزهري، عن سنان بن أبي سنان الديلي، عن أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع النبي ﷺ قِبَلَ حُنين، فمررنا بسدرةٍ، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواطٍ كما كان للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة يعكفون حولها، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، إنكم تركبون سنن من قبلكم»[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾ قرأ ابن عامر «أنجاكم» وكذلك هو في مصاحف أهل الشام ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ قرأ نافع «يَقْتُلون» خفيفةً، من القتل، وقرأ الآخرون بالتشديد على التكثير من التقتيل ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ ذي القعدة ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ من ذي الحجة ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ عند انطلاقه إلى الجبل للمناجاة ﴿لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى﴾ كن خليفتي ﴿فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ﴾ أي: أصلحهم بحملك إياهم على طاعة الله، وقال ابن عباس: يريد: الرفقَ بهم والإحسانَ إليهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ أي: لا تطع من عصى الله ولا توافقه على أمره، وذلك أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهم بمصر: أن الله إذا أهلك عدوهم أتاهم بكتاب فيه بيان ما يأتون وما يذرون،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف»: (١١/ ٣٦٩)، وفي «التفسير»: (١/ ٢٣٥)، والترمذي في أبواب الفتن، باب لتركَبُنَّ سنن من كان قبلكم: (٦/ ٤٠٧ـ٤٠٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن إسحاق في «السيرة»: (٤/ ٨٤ـ٨٥)، والطيالسي في «مسنده» برقم١٣٤٦، وابن أبي عاصم في «السنة»: (١/ ٣٧)، وابن حبان برقم١٨٣٥ من «موارد الظمآن»، والإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ٢١٨).
وانظر: «النهج السديد في تخريج تيسير العزيز الحميد: ص٦٤ـ٦٥.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

فلمَّا فعل الله ذلك بهم سأل موسى ربَّه الكتاب، فأمره الله عزَّ وجلَّ أن يصوم ثلاثين يومًا، فلما تمَّتْ ثلاثون أنكر خُلُوف فمه، فتسوَّك بعود خروب.

وقال أبو العالية: أكل من لحاء شجرة، فقالت له الملائكة: كنا نشم من فيك رائحة المسك، فأفسدتَه بالسواك، فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام من ذي الحجة، وقال: أما علمت أنَّ خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، فكانت فتنتهم في العشر التي زادها.

١٣٦/ب قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ أي: للوقت الذي / ضربنا له أن نكلمه فيه، قال أهل التفسير: إن موسى عليه السلام تطهَّر وطهَّر ثيابه لميعاد ربه لما أتى طور سيناء، وفي القصة: إن الله عزَّ وجلَّ أنزل ظلمة على سبعة فراسخ، وطرد عنه الشيطان، وطرد عنه هوام الأرض، ونحى عنه الملكين، وكشط له السماء، ورأى الملائكة قيامًا في الهواء ورأى العرش بارزًا وكلمه الله وناجاه حتى أسمعه، وكان جبريل عليه السلام معه فلم يسمع ما كلمه ربه وأدناه حتى سمع صرير القلم فاستحلى موسى عليه السلام كلام ربه واشتاق إلى رؤيته ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ قال الزَّجَّاج: فيه اختصار تقديره: أرني نفسك أنظر إليك، قال ابن عباس: أعطني أنظر إليك، فإن قيل: كيف سأل الرؤية وقد علم أن الله تعالى لا يُرى في الدنيا؟ قال الحسن: هاج به الشوق فسأل الرؤية، وقيل: سأل الرؤية ظنًّا منه أنه يجوز أن يُرى في الدنيا ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ وليس لبشر أن يطيق النظر (إليَّ في الدنيا، من نظر إليَّ)[1] في الدنيا مات، فقال: إلهي سمعت كلامك فاشتقت إلى النظر إليك، ولأن أنظر إليك ثم أموت أحب إليَّ من أن أعيش ولا أراك، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ وهو أعظم جبل بمدين يقال له: زبير.

قال السدي: لَمَّا كلم الله موسى غاص الخبيث إبليس في الأرض حتى خرج بين قدمي موسى، فوسوس إليه: أن يكلمك شيطان، فعند ذلك سأل موسى الرؤية، فقال الله عزَّ وجلَّ: «لَن تَرَىٰنِى».

وتعلق نفاة الرؤية بظاهر هذه الآية، وقالوا: قال الله تعالى: «لَن تَرَىٰنِى»، ولن تكون للتأبيد، ولا حجة

(١) ساقط من «أ».

لهم فيها ومعنى الآية: لن تراني في الدنيا أو في الحال؛ لأنه كان يسأل الرؤية في الحال و«لن» لا تكون للتأبيد، كقوله تعالى: «وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا»[البقرة: ٩٥]، إخبارًا عن اليهود، ثم أخبر عنهم أنهم يتمنون الموت في الآخرة يقولون: «يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ»[الزخرف: ٧٧]، و«يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ»[الحاقة: ٢٧]، والدليل عليه: أنه لم ينسبه إلى الجهل بسؤال الرؤية، ولم يقل: (إني لا أرى)، حتى يكون لهم حجة، بل علق الرؤية على استقرار الجبل، واستقرار الجبل على التجلي غير مستحيل إذا جعل الله تعالى له تلك القوة، والمُعلَّق بما لا يستحيل لا يكون محالاً.

قال الله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ قال وهب وابن إسحاق[١]: لما سأل موسى ربه الرؤية، أرسل الله الضباب والصواعق والظلمة والرعد والبرق وأحاطت بالجبل الذي عليه موسى أربعة فراسخ من كل جانب، وأمر الله[٢] ملائكة السماء أن يتعرضوا على موسى، فمرت به ملائكة السماء الدنيا كثيران البقر تنبع أفواههم بالتسبيح والتقديس بأصوات عظيمة كصوت الرعد الشديد، ثم أمر الله ملائكة السماء الثانية أن اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه، فهبطوا عليه أمثال الأسود لهم لجب بالتسبيح والتقديس، ففزع العبد الضعيف ابن عمران مما رأى وسمع واقشعرت كل شعرة في رأسه وجسده، ثم قال: لقد ندمت على مسألتي فهل ينجيني من مكاني الذي أنا فيه شيء؟ فقال له خير الملائكة ورأسهم: يا موسى، اصبر لِما سألت، فقليلٌ من كثيرٍ ما رأيت.

ثم أمر الله ملائكة السماء الثالثة أنِ اهبطوا على موسى فاعترضوا عليه، فهبطوا أمثال النسور لهم قصف ورجف شديد، وأفواهُهُم تنبع بالتسبيح والتقديس كجلب الجيش العظيم، ألوانهم كلهب النار، ففزع موسى واشتد نفسه وأيس من الحياة، فقال له خير الملائكة: مكانك يا ابن عمران حتى ترى ما لا تصبر عليه، ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء الرابعة أنِ اهبطوا فاعترضوا على موسى بن عمران فهبطوا عليه فكان لا يشبههم شيء من الذين مرُّوا به قبلهم، ألوانهم كلهب النار، وسائر خلقهم كالثلج الأبيض، أصواتهم عالية بالتقديس والتسبيح لا يقاربهم شيء من أصوات الذين مرُّوا به قبلهم، فاصطكت ركبتاه وأرعد قلبه واشتد بكاؤه فقال له خير الملائكة ورأسهم: يا ابن عمران اصبر لما سألت فقليل من كثيرٍ ما رأيت.

ثم أمر الله تعالى ملائكة السماء الخامسة أنِ اهبطوا فاعترضوا على موسى فهبطوا عليه لهم سبعة ألوان فلم يستطع موسى أن يتبعهم بصره، لم ير مثلهم ولم يسمع مثل أصواتهم فامتلأ جوفه خوفًا واشتدَّ حزنه وكثر بكاؤه، فقال له خير الملائكة ورأسهم: يا ابن عمران مكانك حتى ترى بعض ما لا تصبر عليه.

---

(١) قال الطبري: (وأهل الكتاب يزعمون وأهل التوراة: أنْ قد كان لذلك تفسير وقصة وأمور كثيرة، ومراجعة لم تأتنا في كتاب الله، والله أعلم)، ثم ساق رَحِمَهُ اللَّهُ رواية ابن إسحاق مطولة. «التفسير»: (١٣/ ٩١، وما بعدها).

(٢) لفظ الجلالة ساقط من «ب».

ثم أمر الله ملائكة السماء السادسة أن اهبطوا على عبدي الذي طلب ليراني، فهبطوا عليه في يد كل مَلَكٍ منهم مثل النخلة الطويلة نار أشد ضوءًا من الشمس، ولباسهم كلهب النار إذا سبحوا وقدسوا جاوبهم من كان قبلهم من ملائكة السموات، كلهم يقولون بشدة أصواتهم: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، ربُّ العزة أبدًا لا يموت، في رأس كل ملك منهم أربعة أوجه، فلما رآهم موسى رفع صوته يسبح معهم (حين سبحوا)[1] وهو يبكي ويقول: ربِّ اذكرني ولا تنس عبدك لا أدري أأنفلتُ مما أنا فيه أم لا؟ إن خرجتُ احترقتُ وإن مكثتُ مت، فقال له كبير الملائكة ورأسهم: قد أوشكت يا ابن عمران أن يشتدَّ خوفُك وينخلع قلبك فاصبرْ للذي سألت.

ثم أمر الله تعالى أن يحمل عرشه في ملائكة السماء السابعة فلمَّا بدَا نورُ العرش انفرج الجبل من عظمة الرب جلَّ جلاله، ورفعت ملائكة السموات أصواتهم جميعًا يقولون: سبحان القدوس ربِّ العزَّة أبدًا لا يموت بشدة أصواتهم، فارتج الجبل واندكت كل شجرة كانت فيه وخر العبد الضعيف موسى صَعِقًا على وجهه ليس معه روحه، فأرسل الله برحمته الروح فتغشاه، وقلب عليه الحجر الذي كان عليه موسى وجعله كهيئة القبة لئلا يحترق موسى، فأقامه الروح مثل اللامة، فقام موسى يسبح الله تعالى ويقول: آمنتُ بكَ ربِّي وصدقت أنه لا يراك أحدٌ فيحيا، من نظر إلى ملائكتك انخلع قلبه، فما أعظمك وأعظم ملائكتك، أنت رب الأرباب وإله الآلهة وملك الملوك، ولا يَعْدِلُكَ شيء، ولا يقوم لك شيء، ربِّ تبتُ إليك الحمد لك، لا شريك لك ما أعظمك وما أجلَّك رب العالمين، فذلك قوله تعالى:

١/١٣٧ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ قال ابن عباس: ظهر / نورُ ربِّه للجبل: جبل زبير، وقال الضحاك: أظهر الله من نور الحجب مثل منخر ثور، وقال عبد الله بن سلام وكعب الأحبار: ما تجلى من عظمة الله للجبل إلا مثل سم الخياط حتى صار دكًّا، وقال السدي: ما تجلى إلاَّ قدر الخنصر، يدل عليه ما روى ثابت عن أنس أنَّ النبي ﷺ قرأ هذه الآية وقال: «هكذا» ووضع الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر، فساخ الجبل[2].

وحكي عن سهل بن سعد الساعدي: أن الله تعالى أظهر من سبعين ألف حجاب نورًا قدر الدرهم فجعل الجبل دكًّا، أي: مستويًا بالأرض، قرأ حمزة والكسائي «دكاء» ممدودًا غير منون هاهنا وفي سورة الكهف، (وافق عاصم في الكهف)[1]، وقرأ الآخرون «دكًّا» مقصورًا منونًا، فمن قَصَرَه فمعناه: جعله مدقوقًا، والدك والدق واحد، وقيل: معناه: دكه الله دكًّا، أي: فتّته كما قال: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾[الفجر: ٢١]، ومن قرأ بالمدِّ، أي: جعله مستويًا أرضًا دكاء.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) أخرجه الترمذي في التفسير، سورة الأعراف: (٨/ ٤٥١ ـ ٤٥٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، ورواه ـ أيضًا ـ من طريق عبد الوهاب الوراق، وقال: هذا حديث حسن، والطبري: (١٣/ ٩٨، ٩٩)، والإمام أحمد: (٣/ ١٢٥، ٢٠٩)، وابن خزيمة في «التوحيد»: ص١١٣، وأخرجه الحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٣٢٠ ـ ٣٢١)، وقال ابن كثير: (إسناده صحيح ليس له علة).

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

وقيل: معناه: جعله مثل دكاء، وهي الناقة التي لا سنام لها، قال ابن عباس: جعله ترابًا، وقال سفيان: ساخ الجبل في الأرض حتى وقع في البحر فهو يذهب فيه، وقال عطية العوفي: صار رملًا هائلًا، وقال الكلبي: جعله دكًّا، أي: كسرًا جبالاً صغارًا.

ووقع في بعض التفاسير: صار لعظمته ستة أجبل وقعت ثلاثة بالمدينة: أُحد وورقان ورضوي، ووقعت ثلاثة بمكة ثور وثبير وحراء[١].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ قال ابن عباس والحسن: مغشيًا عليه، وقال قتادة: ميّتًا، وقال الكلبي: خرَّ موسى صعقًا يوم الخميس يوم عرفة وأُعطي التوراة يوم الجمعة يوم النحر.

قال الواقدي: لمَّا خرَّ موسى صَعِقًا قالت ملائكة السموات: مَا لابْنِ عمران وسؤال الرؤية؟ وفي بعض الكتب[٢] أن ملائكة السموات أتوا موسى وهو مغشي عليه فجعلوا يركلونه بأرجلهم ويقولون: يا ابن النساء الحُيَّض أطمعتَ في رؤية ربِّ العزَّة؟ ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ موسى من صعقته وثاب إليه عقله عرف أنه قد سأل أمرًا لا ينبغي له ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ عن سؤال الرؤية ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ بأنك لا تُرى في الدنيا، وقال مجاهد والسدي: وأنا أول من آمن بك من بني إسرائيل.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ اخترتك على الناس، قرأ ابن كثير وأبو عمرو «إنيَ» بفتح الياء وكذلك «أخيَ اشدد»[طه: ٣١] ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ قرأ أهل الحجاز «برسالتي» على التوحيد، والآخرون بالجمع ﴿وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ أعطيتك ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ لله على نعمه.

فإن قيل: فما معنى قوله: «ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي»، وقد أُعطي غيره الرسالةَ؟

---

(١) هذه الرواية الطويلة عن ابن إسحاق ووهب، في تفسير الآيات من الروايات الإسرائيلية، وفيها كثير من الكلام المتهافت، وعلامات الاختلاق ظاهرة عليها.
ونضع هنا كلمة الشيخ محمد أبو شهبة تعليقًا على هذه الرواية بعد أن ساق رواية البغوي، قال رحمه الله: (وهذه المرويات وأمثالها، مما لا نشك أنها من إسرائيليات بني إسرائيل وكذبهم على الله، وعلى الأنبياء، وعلى الملائكة، فلا تُلْقِ إليه بالاً. وليس تفسير الآية في حاجة إلى هذه المرويات، والآية ظاهرة واضحة، وليس فيها ما يدل على امتناع رؤية الله في الآخرة كما دل على ذلك القرآن الكريم والسنة الصحيحة المتواترة، وغاية ما تدل عليه: امتناع الرؤية البصرية في الدنيا؛ لأن العين الفانية لا تقدر أن ترى الذات الباقية.
انظر: «الإسرائيليات والموضوعات» لأبي شهبة: ص٢٧٧ـ٢٨١.

(٢) وهذه أيضًا من الإسرائيليات المكذوبة، وهي تتفق مع طبيعة بني إسرائيل وموقفهم من الأنبياء وإطالة ألسنتهم بالسوء في حقهم، وتنقيصهم ما استطاعوا! وانظر: «تفسير الآلوسي»: (٤٦/٩).

قيل: لمَّا لم تكن الرسالة على العموم في حق الناس كافة استقام قوله: «اصطفيتك على الناس» وإن شاركه فيه غيره، كما يقول للرجل: خصصتك بمشورتي، وإن شاور غيره، إذا لم تكن المشورة على العموم يكون مستقيمًا.

وفي بعض القصة: أن موسى عليه السلام كان بعدما كلمه ربه لا يستطيع أحد أن ينظر إليه لِمَا غُشي وجهه من النور، ولم يزل على وجهه برقع حتى مات، وقالت له امرأته: أنا أيم منك منذ كلمك ربك فكشف لها عن وجهه فأخذها مثل شعاع الشمس فوضعت يدها على وجهها وخرت لله ساجدة، وقالت: ادع الله أن يجعلني زوجتك في الجنة، قال: ذاك إن لم تتزوجي بعدي، فإن المرأة لآخر أزواجها.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي المزكي، أنا أبو العباس محمد بن أحمد بن إسحاق السراج حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا راشد بن أسعد بن عبد الرحمن المغافري، عن أبيه، عن كعب الأحبار: أن موسى نظر في التوراة فقال: إني أجد أمة خير الأمم أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله وبالكتاب الأول وبالكتاب الآخر، ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الدجال، ربِّ اجعلهم أمتي، قال: هي أمة محمد يا موسى، فقال: ربي إني أجد أمةً هم الحمادون رعاة الشمس المحكمون إذا أرادوا أمرًا قالوا: نفعل إن شاء الله فاجعلهم أمتي، قال: هي أمة محمد، فقال: ربِّ إني أجد أمة يأكلون كفاراتهم وصدقاتهم، وكان الأولون يحرقون صدقاتهم بالنار، وهم المستجيبون والمستجاب لهم الشافعون المشفوع لهم فاجعلهم أمتي، قال: هي أمة محمد، قال: يا ربِّ إنِّي أجد أُمة إذا أشرف أحدهم على شرف كبَّر الله، فإذا هبط واديًا حمد الله، الصعيدُ لهم طهور، والأرض لهم مسجد حيثما كانوا، يتطهرون من الجنابة، طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء، غرٌّ محجلون من آثار الوضوء فاجعلهم أمتي، قال: هي أمة أحمد، فقال: ربِّ إنِّي أجد أمة إذا همَّ أحدهم بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة مثلها، وإن عملها كُتبت له ضعف عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وإذا همَّ بسيئة ولم يعملها لم تُكتب عليه، وإن عملها كُتبت له سيئة مثلها، فاجعلهم أُمتي، قال: هي أُمة أحمد، فقال: ربِّ إني أجد أُمة مَرْحُومةً ضعفاء يرثون الكتاب من الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات، ولا أجد أحدًا منهم إلاَّ مرحومًا فاجعلهم أُمتي، قال: هي أُمة محمدٍ، فقال: يا ربِّ إنِّي أجد أُمة مصاحفهم[1] في صدورهم يلبسون ألوان ثياب أهل الجنة يصُفون في صلاتهم صفوف الملائكة أصواتهم في مساجدهم كدوي النحل لا يدخل النار أحد منهم أبدًا إلا من يرى الحساب مثل ما يرى الحجر من وراء الشجر، فاجعلهم أُمتي، قال: هي أُمة أحمد، فلما عجب موسى من

---

(١) في «ب»: (أناجيلهم).

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

الخير الذي أعطى الله محمدًا ﷺ وأمته قال: يا ليتني من أصحاب محمد أو أمته، فأوحى الله إليه ثلاث آيات يرضيه بهن: «يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي» إلى قوله: «سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ»، «وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ»[الأعراف: ١٥٩]، فرضي موسى كلَّ الرضا[(١)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ﴾ يعني: لموسى ﴿فِي الْأَلْوَاحِ﴾ قال ابن عباس: يريد: ألواح التوراة، وفي الحديث: «كانت من سدر الجنة، طول اللوح اثنا عشر ذراعًا»[(٢)]، وجاء في أحاديث خلق الله آدم بيده: «وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده»[(٣)].

١٣٧/ب قال الحسن: كانت الألواح من خشب، قال الكلبي: / كانت من زبرجدة خضراء، وقال سعيد بن جبير: كانت من ياقوت أحمر، وقال الربيع بن أنس: كانت الألواح من برد، قال ابن جريج: كانت من زمرد، أمر الله جبريل حتى جاء بها من عدن، وكتبها بالقلم الذي كتب به الذكر واستمد من نهر النور وقال وهب: أمره الله بقطع الألواح من صخرة صماء ليَّنها الله له فقطعها بيده ثم شققها بأصبعه، وسمع موسى صرير القلم بالكلمات العشرة وكان ذلك في أول يوم من ذي القعدة، وكانت الألواح عشرة أذرع على طول موسى، وقال مقاتل ووهب: «وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ» كنقش الخاتم، وقال الربيع بن أنس: نزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير، يقرأ الجزء منه في سنة، لم يقرأها إلا أربعة نفر: موسى، ويوشع، وعزير، وعيسى.

وقال الحسن: هذه الآية في التوراة ألف آية يعني: «وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ» ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾

---

(١) عزاه السيوطي لأبي نعيم في «الدلائل» عن عبد الرحمن المغافري عن كعب الأحبار موقوفًا عليه. انظر: «الدر المنثور»: (٣/ ٥٥٧ ـ ٥٥٨)، وبنحوه أخرجه الطبري ـ أيضًا ـ عن قتادة سببًا لنزول قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾، ولم يذكر ذلك البغوي في روايته.
قال ابن عطية الأندلسي في «تفسيره» (٦/ ٨٧): (وهذا قول رديء لا ينبغي أن يوصف موسى عليه السلام به).
وقال الحافظ ابن كثير: (وروى ابن جرير عن قتادة في هذا قولاً غريبًا، لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة، وقد ردَّه ابن عطية وغير واحد من العلماء، وهو جدير بالردِّ، وكأنه تلقاه قتادة عن بعض أهل الكتاب، وفيهم كذابون ووضاعون وأفاكون وزنادقة). انظر: «تفسير ابن كثير»: (٢/ ٢٤٩).
وقال القرطبي: (ولا التفات لما رُوي عن قتادة إن صح، ولا يصح أن إلقاء الألواح إنما كان لما رأى من فضيلة أُمة محمد ﷺ ولم يكن ذلك لأُمته، وهذا قول رديء لا ينبغي أن يضاف إلى موسى عليه السلام). «تفسير القرطبي»: (٧/ ٢٨٨).

(٢) عزاه السيوطي لابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده. انظر: «الدر المنثور»: (٣/ ٥٤٨).

(٣) عزاه السيوطي لابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» وأبي الشيخ في «العظمة»، وأخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات»: (٢/ ٤٧): «إن الله عزَّ وجلَّ خلق ثلاثة أشياء بيده: خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس الفردوس بيده» وقال: (هذا مرسل، وفيه إن ثبت دلالة على أن الكَتْب هاهنا بمعنى الخلق، وإنما أراد خَلْق رسوم التوراة، وهي حروفها، وأما المكتوب فهو كلام الله عزَّ وجلَّ، صفة من صفات ذاته غير بائن منه).
والحديث فيه إسماعيل بن أبي أويس عن أبيه، وهما ضعيفان.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦)﴾

مما أمروا به ونُهوا عنه ﴿مَوْعِظَةً﴾ نهيًا عن الجهل، وحقيقة الموعظة: التذكرة والتحذير بما يخاف عاقبته ﴿وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: تبيينًا لكل شيء من الأمر والنهي، والحلال والحرام، والحدود والأحكام ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجد واجتهاد، وقيل: بقوة القلب وصحة العزيمة؛ لأنه إذا أخذه بضعف النيَّة أداه إلى الفتور ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ قال عطاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يُحِلُّوا حلالها، ويُحرِّموا حرامها، ويَتَدبَّروا أمثالها، ويعملوا بمُحْكَمِها، ويقفوا عند متشابهها، وكان موسى عليه السلام أشدَّ عبادة من قومه، فأُمِر بما لم يُؤمروا به.

قال قطرب: «بِأَحْسَنِهَا»، أي: بحسنها، وكلها حسن. وقيل: أحسنها الفرائض والنوافل، وهي ما يستحق عليها الثواب، وما دونها المباح؛ لأنه لا يستحق عليه الثواب، وقيل: «بِأَحْسَنِهَا»: بأحسن الأمرين في كل شيء كالعفو أحسن من القصاص، والصبر أحسن من الانتصار.

﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥)﴾ قال مجاهد: مصيرها في الآخرة، قال الحسن وعطاء: يعني: جهنم، يحذركم أن تكونوا مثلهم، وقال قتادة وغيره: سأدخلكم الشام فأُريكم منازل القرون الماضية الذين خالفوا أمر الله لتعتبروا بها، قال عطية العوفي: أراد دار فرعون وقومه وهي مصر، يدل عليه قراءة قسامة بن زهير: «سأورثكم دَارَ الْفَاسِقِينَ»، وقال السدي: دار الفاسقين مصارع الكفار، وقال الكلبي: ما مروا عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود والقرون الذين أهلكوا.

قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قال ابن عباس: يريد الذين يتجبرون على عبادي ويحاربون أوليائي حتى لا يؤمنوا بي، يعني: سأصرفهم عن قبول آياتي والتصديق بها عوقبوا بحرمان الهداية لعنادهم للحق، كقوله: «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ»[الصف: ٥].

قال سفيان بن عيينة: سأمنعهم من فهم القرآن، قال ابن جريج: يعني عن خلق السموات والأرض وما فيهما، أي: أصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها، وقيل: حكم الآية لأهل مصر خاصة، وأراد بالآيات: الآيات التسع التي أعطاها الله تعالى موسى عليه السلام، والأكثرون على أنَّ الآية عامة ﴿وَإِنْ يَرَوْا﴾ (يعني: هؤلاء المتكبرين)(١) ﴿كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ قرأ حمزة

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧) وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨)﴾

والكسائي «الرَّشَد» بفتح الراء والشين، والآخرون بضم الراء وسكون الشين وهما لغتان كالسُّقم والسَّقم والبُخل والبَخل والحُزن والحَزن.

وكان أبو عمرو يفرّق بينهما، فيقول: الرُّشد ـ بالضم ـ الصلاح في الأمر، و ـ بالفتح ـ الاستقامة في الدين، معنى الآية: إن يروا طريق الهدى والسداد ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ﴾ لأنفسهم ﴿سَبِيلًا﴾، ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ﴾ أي: طريق الضلال ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦)﴾ عن التفكير فيها والاتعاظ بها غافلين ساهين.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ أي: ولقاء الدار الآخرة التي هي موعد الثواب والعقاب ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ بطلت وصارت كأن لم تكن ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ في العقبى ﴿إِلَّا مَا كَانُوا﴾ أي: إلا جزاء ما كانوا ﴿يَعْمَلُونَ (١٤٧)﴾ في الدنيا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ﴾ أي: بعد انطلاقه إلى الجبل ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ التي استعاروها من قوم فرعون، قرأ حمزة والكسائي «مِنْ حِلِيِّهم» بكسر الحاء، (وقرأ يعقوب بفتح الحاء وسكون اللام)[1]، واتخذ السامريُّ منها ﴿عِجْلًا﴾ وألقى في فمه من تراب أثر فرس جبريل عليه السلام فتحول عجلًا ﴿جَسَدًا﴾ حيًا لحمًا ودمًا ﴿لَّهُ خُوَارٌ﴾ وهو صوت البقر، وهذا قول ابن عباس والحسن وقتادة وجماعة أهل التفسير.

وقيل: كان جسدًا مجسدًا من ذهب لا روح فيه، كان يسمع منه صوت.

وقيل: كان يسمع صوت حفيف الريح يدخل في جوفه ويخرج، والأول أصح.

وقيل: إنه ما خار إلا مرة واحدة، وقيل: كان يخور كثيرًا كلما خار سجدوا له، وإذا سكت رفعوا رؤوسهم، وقال وهب: كان يسمع منه الخوار وهو لا يتحرك.

وقال السدي: كان يخور ويمشي ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني: الذين عبدوا العجل ﴿أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨)﴾ أي: اتخذوه إلهًا وكانوا كافرين.

---

(١) ساقط من «أ».

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ندموا على عبادة العجل، تقول العرب لكل نادم على أمر: قد سقط في يديه ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ يَتُبْ علينا ربُّنا ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ يتجاوز عنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿ترحمنا وتغفر لنا﴾ بالتاء فيهما ﴿ربَّنا﴾ بنصب الباء، وكان هذا الندم والاستغفار منهم بعد رجوع موسى إليهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ قال أبو الدرداء: الأسف: شديد الغضب، وقال ابن عباس: والسدي: «أسِفًا»، أي: حزينًا، والأسف: أشد الحزن ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي﴾ أي: بئس ما عملتم بعد ذهابي، يقال: خلفه بخير أو بشرٍّ إذا أولاه في أهله بعد شخوصه عنهم خيرًا أو شرًّا ﴿أَعَجِلْتُمْ﴾ أسبقتم ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾؟! قال الحسن: وعد ربكم الذي وعدكم من الأربعين / ليلة، وقال الكلبي: أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمرُ ربكم؟ ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ التي فيها التوراة وكان حاملًا لها، فألقاها على الأرض من شدة الغضب. ١/١٣٨

قالت الرواةُ: كانت التوراة سبعة أسباع، فلما ألقى الألواح تكسَّرت فرفعت ستة أسباعها، وبقي سبع، فرفع ما كان من أخبار الغيب، وبقي ما فيه الموعظة والأحكام والحلال والحرام ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ بذوائبه ولحيته ﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ وكان هارون أكبر من موسى بثلاث سنين، وأحبَّ إلى بني إسرائيل من موسى؛ لأنه كان ليِّن الغضب ﴿قَالَ﴾ هارون عن ذلك: ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ قرأ أهل الكوفة والشام هاهنا وفي طه بكسر الميم، يريد: يا ابن أمِّ، فحذف ياء الإضافة وأبقيت الكسرة لتدل على الإضافة كقوله: «يا عبادِ»، وقرأ أهل الحجاز والبصرة وحفص بفتح الميم على معنى: يا ابن أماه. وقيل: جعله اسمًا واحدًا وبناه على الفتح، كقولهك: حضرموت، وخمسة عشر، ونحوهما، وإنما قال: «ابْنَ أُمَّ» وكان هارون أخاه لأبيه وأمه؛ ليرققه ويستعطفه.

وقيل: كان أخاه لأمه دون أبيه ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي﴾ يعني: عَبَدَةَ العجل ﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ همُّوا وقاربوا أن يقتلوني ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي﴾ في مؤاخذتك عليَّ ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ يعني: عبدة العجل.

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ
نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ
بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا
هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

﴿ قَالَ ﴾ موسى لما بين له عذر أخيه: ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي ﴾ ما صنعت إلى أخي ﴿ وَلِأَخِي ﴾ إن كان منه تقصير في الإنكار على عبدة العجل ﴿ وَأَدْخِلْنَا ﴾ جميعًا ﴿ فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ ﴾ أي: اتخذوه إلهًا ﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ في الآخرة ﴿ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ قال أبو العالية: هو ما أمروا به من قتل أنفسهم، وقال عطية العوفي: «إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ»، أراد: اليهودَ الذين كانوا في عصر النبي ﷺ عيَّرهم بصنيع آبائهم فنسبه إليهم، «سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا»، أراد: ما أصاب بني قريظة والنضير من القتل والجلاء.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو الجزية ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ الكاذبين، قال أبو قلابة: هو ـ والله ـ جزاءُ كل مفترٍ إلى يوم القيامة أن يُذِلَّه الله، قال سفيان بن عيينة: هذا في كل مبتدع إلى يوم القيامة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ ﴾ أي: سكن ﴿ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ﴾ التي كان ألقاها وقد ذهبت ستة أسباعها ﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا ﴾ اختلفوا فيه، قيل: أراد بها الألواح؛ لأنها نسخت من اللوح المحفوظ.

وقيل: إن موسى لما ألقى الألواح تكسرت فنسخ منها نسخة أُخرى فهو المراد من قوله: «وَفِي نُسْخَتِهَا».

وقيل: أراد: وفيما نسخ منها، وقال عطاء: فيما بقي منها، وقال ابن عباس وعمرو بن دينار: لما ألقى موسى الألواح فتكسَّرت صام أربعين يومًا فردت عليه في لوحين فكان فيه ﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ أي: هدى من الضلالة، ورحمة من العذاب ﴿ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ أي: للخائفين من ربهم، واللام في «لِرَبِّهِمْ» زيادة توكيد، كقوله: «رَدِفَ لَكُم» [النمل: ٧٢]، وقال الكسائي: لما تقدمتْ قبل الفعل حَسُنَتْ، كقوله: «لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ» [يوسف: ٤٣]، وقال قطرب: أراد: من ربهم يرهبون، وقيل: أراد راهبون، وقيل: أراد راهبون لربهم.

وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ أي: من قومه، فانتصب لنزع حرف الصفة ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ فيه دليل على أن كلهم لم يعبدوا العجل، قال السدي: أمر الله تعالى موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل، فاختار موسى من قومه سبعين رجلًا، ﴿فَلَمَّآ﴾ أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمنَ لك حتى نرى الله جهرة فأخَذَتْهُم الصاعقةُ فماتوا.

وقال ابن إسحاق: اختارهم ليتوبوا إليه مما صنعوا ويسألوا التوبة على مَنْ تركوا وراءهم من قومهم، فهذا يدل على أن كلهم عبدوا العجل.

وقال قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب: ﴿أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ لأنهم لم يُزايلوا قومهم حين عبدوا العجل، ولم يأمروهم بالمعروف ولم ينهوهم عن المنكر.

وقال ابن عباس: إن السبعين الذين قالوا: «لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ»[البقرة: ٥٥]، كانوا قبل السبعين الذين أخذتهم الرجفة، وإنما أمر الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام أن يختار من قومه سبعين رجلًا، فاختارهم وبرز بهم ليدعوا ربهم، فكان فيما دعوا أن قالوا: اللهم أعطِنا ما لم تعطه أحدًا قبلنا، ولا تعطه أحدًا بعدنا، فكره الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة.

وقال وهب: لم تكن الرجفة صوتًا، ولكنَّ القوم لمَّا رأوا تلك الهيبة أخذتهم الرعدة وقلقوا ورجفوا، حتى كادت أن تَبِيْنَ مفاصلُهم، فلما رأى موسى ذلك رحمهم وخاف عليهم الموت، فاشتَدَّ عليه فَقْدُهُم، وكانوا له وزراء على الخير، سامعين مطيعين، فعند ذلك دعا وبكى وناشد ربّه، فكشف الله عنهم تلك الرجفة، فاطمأنوا وسمعوا كلام ربهم، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَ﴾ يعني: موسى ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾ يعني: عن عبادة العجل ﴿وَإِيَّٰىَ﴾ بقتل القبطي ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ يعني: عَبَدَة العجل، وظنَّ موسى أنهم عُوقبوا باتخاذهم العجل، وقال هذا على طريق السؤال، يسأل: أتهلكنا بفعل السفهاء؟

وقال المبرِّد: قوله: «أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ» استفهام استعطاف، أي: لا تهلكنا، وقد علم موسى عليه السلام أن الله تعالى أعدلُ من أن يأخذ بجريرة الجاني غيرَه.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي: التي وقع فيها السفهاء، لم تكن إلا اختبارك وابتلاءك، أضللت بها قومًا فافتتنوا، وهديت قومًا فعصمتَهم حتى ثبتوا على دينك، فذلك معنى قوله: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ ناصرنا وحافظنا ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾.

﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا﴾ أوجب لنا ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ النعمة والعافية ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: وفي الآخرة «حَسَنَةً»: المغفرة والجنة ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تبنا إليك ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ من خلقي ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ عمَّتْ كلَّ شيء، قال الحسن وقتادة: / وسعت ١٣٨/ب
رحمته في الدنيا البرَّ والفاجر، وهي يوم القيامة للمتقين خاصة، وقال عطية العوفي: وسعت كل شيء ولكن لا تجب إلا للذين يتقون، وذلك أن الكافر يرزق، ويدفع عنه بالمؤمنين لسعة رحمة الله للمؤمنين، فيعيش فيها، فإذا صار إلى الآخرة وجبت للمؤمنين خاصة، كالمستضيء بنار غيره إذا ذهب صاحب السراج بسراجه.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وقتادة وابن جريج: لمَّا نزلت «وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ» قال إبليس: أنا من ذلك الشيء، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ فتمنَّاها اليهود والنصارى، وقالوا: نحن نتقي ونؤمن، ونؤتي الزكاة، فجعلها الله لهذه الأمة فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ...﴾ الآية، قال نوف البِكَالي الحِمْيَرِيّ: لما اختار موسى قومه سبعين رجلًا، قال الله تعالى لموسى: أجعلُ لكم الأرض مسجدًا وطهورًا، تصلُّون حيث أدركتم الصلاة إلا عند مرحاض أو حمام أو قبر، وأجعلُ السكينة في قلوبكم، وأجعلكم تقرؤون التوراة عن ظهر قلوبكم، يقرؤها الرجل والمرأة، والحرّ والعبد، والصغير والكبير، فقال ذلك موسى لقومه، فقالوا: لا نريد أن نصلي إلا في الكنائس، ولا نستطيع حمل السكينة في قلوبنا، ولا نستطيع أن نقرأ التوراة عن ظهور قلوبنا، ولا نريد أن نقرأها إلا نظرًا، فقال الله تعالى: «فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ» إلى قوله: «أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ»، فجعلها الله لهذه الأمة، فقال موسى عليه السلام: يا ربّ، اجعلني نبيَّهم، فقال:

نبيهم منهم، قال: ربِّ، اجعلني منهم، فقال: إنك لن تدركهم، فقال موسى عليه السلام: يا رب، إني أتيتك بوفد بني إسرائيل فجعلت وفادتنا لغيرنا؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾[الأعراف: ١٥٩]، فرضي موسى[١].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ وهو محمد ﷺ، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو نبيكم، كان أميًا لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب، وقال النبي ﷺ: «إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نكتب ولا نحسب»[٢]، وهو منسوب إلى الأم، أي: هو على ما ولدته أمه، وقيل: هو منسوب إلى أمته، أصله: أُمَّتي فسقطت التاء في النسبة كما سقطت في المكي والمدني، وقيل: هو منسوب إلى أم القرى وهي مكة.

﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ﴾ أي: يجدون صفته ونعته ونبوته ﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا محمد بن سنان، حدثنا فليح، حدثنا هلال، عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: «يا أيّها النبي، إنَّا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سمَّيْتُك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سَخَّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعينًا عميًا وآذانًا صُمًّا وقلوبًا غُلْفًا»[٣].

تابعه عبد العزيز بن أبي سلمة، عن هلال عن عطاء، عن ابن سلام، أخبرنا الإمام الحسين بن محمد القاضي، أنا أبو العباس عبد الله بن محمد بن هارون الطيسفوني، أنا أبو الحسن محمد بن أحمد الترابي، أنا أبو بكر أحمد بن محمد بن عمر بن بسطام، أنا أبو الحسن أحمد بن سيار القرشي، حدثنا عبد الله بن عثمان، عن أبي حمزة، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن عبد الله بن ضمرة، عن كعب ـ رضي الله عنه ـ قال: إني أجد في التوراة مكتوبًا: محمد رسول الله ﷺ لا فظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح، أمته الحمادون يحمدون الله في كل منزلة ويكبِّرونه على كل نجد، يأتزرون على

---

(١) رواية نوف البكالي هذه من الأخبار الإسرائيلية، فقد كان نوف راويًا للقصص، وهو ابن زوجة كعب الأحبار، وله ترجمة في «تهذيب التهذيب».
وانظر فيما يأتي التعليق على سبب نزول الآية من السورة.

(٢) أخرجه البخاري في الصوم، باب قول النبي ﷺ: «لا نكتب ولا نحسب»: (٤/ ١٢٦)، ومسلم في الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال . . . برقم ١٠٨٠: (٢/ ٧٦١)، والمصنف في «شرح السنة»: (٦/ ٢٢٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري في البيوع، باب كراهية السخب في الأسواق: (٤/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣)، وفي تفسير سورة الفتح، باب ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾: (٨/ ٥٨٥).

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

أنصافهم ويوضّؤون أطرافهم، صفهم في الصلاة وصفهم في القتال سواء، مناديهم ينادي في جوّ السماء، لهم في جوف الليل دوي كدوي النحل، مولده بمكة ومهاجره بطابة وملكه بالشام(١).

قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: بالإيمان ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي: عن الشرك، وقيل: المعروف: الشريعة والسنة، والمنكر: ما لا يعرف في شريعة ولا سنة، وقال عطاء: يأمرهم بالمعروف: بخلع الأنداد، ومكارم الأخلاق، وصلة الأرحام، وينهاهم عن المنكر: عن عبادة الأوثان وقطع الأرحام ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يعني: ما كانوا يحرمونه في الجاهلية من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ يعني: الميتة والدم ولحم الخنزير والزنا وغيرها من المحرمات ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ قرأ ابن عامر «آصارهم» بالجمع، والإصر: كل ما يثقل على الإنسان من قول أو فعل.

قال ابن عباس والحسن والضحاك والسدي ومجاهد: يعني: العهد الثقيل، كان أُخذ على بني إسرائيل بالعمل بما في التوراة.

وقال قتادة: يعني: التشديد الذي كان عليهم في الدين ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ﴾ يعني: الأثقال ﴿ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك مثل: قتل الأنفس في التوبة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وقرض النجاسة عن الثوب بالمقراض، وتعيين القصاص في القتل وتحريم أخذ الدية، وترك العمل في السبت، وأن صلاتهم لا تجوز إلا في الكنائس وغير ذلك من الشدائد، وشُبِّهتْ بالأغلال التي تجمع اليد إلى العنق ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: بمحمد ﷺ ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ وقَّروه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ على الأعداء ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ يعني: القرآن ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: آياته، وهي القرآن، وقال مجاهد والسدي: يعني: عيسى ابن مريم، ويقرأ «كلمته» ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

---

(١) أخرجه الدارمي في المقدمة، باب صفة النبي ﷺ في الكتب قبل مبعثه: (٥/١)، وابن سعد في «الطبقات»: (٣٦٠/١)، والبغوي في «المصابيح»: (٣٦/٤)، وانظر: «مشكاة المصابيح»: (١٦٠٧/٣).

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ۝١٥٩﴾

١/١٣٩ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ يعني: بني إسرائيل / ﴿أُمَّةٌ﴾ أي: جماعة ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يرشدون ويدعون إلى الحق، وقيل: معناه يهتدون ويستقيمون عليه ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ۝١٥٩﴾ أي: بالحق يحكمون، وبالعدل يقومون.

قال الكلبي والضحاك والربيع: هم قوم خلف الصين، بأقصى الشرق على نهر يجري الرمل[١] يسمى نهر أوداف، ليس لأحد منهم مال دون صاحبه، يمطرون بالليل ويصحون بالنهار، ويزرعون حتى لا يصل إليهم منّا أحدٌ، وهم على الحق[٢].

وذُكر: أن جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ ذهب بالنبي ﷺ ليلة أُسري به، فكلمهم (فقال لهم جبريل: هل تعرفون من تكلمون؟ قالوا: لا، فقال لهم: هذا محمد النبي الأُمي فآمنوا به)[٣]، فقالوا: يا رسول الله، إن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أوصانا أن من أدرك منكم أحمد فليقرأ عليه منّا السلام، فرد النبي ﷺ على موسى وعليهم، ثم أقرأهم عشر سور من القرآن أُنزلت بمكة، وأمرهم بالصلاة والزكاة، وأمرهم أن يقيموا مكانهم، وكانوا يسبتون، فأمرهم أن يجمّعوا ويتركوا السبت[٤].

وقيل: هم الذين أسلموا من اليهود في زمن النبي[٥] ﷺ، والأول أصح[٦].

---

(١) في بعض النسخ: (مجرى الرمل).

(٢) انظر: الطبري: (١٣/ ١٧٣ ـ ١٧٤)، «البحر المحيط»: (٤/ ٤٠٦).

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٤) انظر: «الدر المنثور»: (٣/ ٥٨٦)، «روح المعاني» للآلوسي: (٩/ ٨٤).

(٥) انظر: «البحر المحيط»: (٤/ ٤٠٦).

(٦) هذه الروايات التي ساقها المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير الآية، من الإسرائيليات التي لو صح سندها إلى قائليها، فإنه لا يحتج بها في هذه الأمور الغيبية التي لا نص عليها في الكتاب والسنة وقد استبعدها ابن عطية في تفسيره «المحرر الوجيز»: (٦/ ١٠٩).
وقال الآلوسي في «روح المعاني» (٩/ ٨٥): (وضعّف هذه الحكاية ابن الخازن، وأنا لا أراها شيئًا، ولا أظنك تجد لها سندًا يعوّل عليه، ولو ابتغيت نفقًا في الأرض أو سلمًا في السماء).
ولهذا نثبت هنا خلاصة ما قاله ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير الآية الكريمة: (يقول الله تعالى مخبرًا عن بني إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به، كما قال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ...﴾)، ثم أشار إلى رواية ابن جرير وقال: (وقد ذكر ابن جرير في تفسيرها خبرًا عجيبًا).
وكذلك أبدى ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ رأيه في تفسير الآية فقال: يحتمل أن يريد به وصف المؤمنين المتقين من بني إسرائيل، على عهد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وما والاه من الزمن... ويحتمل: أن يريد الجماعة التي آمنت بمحمد ﷺ من بني إسرائيل، على جهة الاستجلاب لإيمان جميعهم).
انظر: «المحرر الوجيز»: (٦/ ١٠٨ ـ ١٠٩)، «الإسرائيليات والموضوعات» لأبي شهبة: ص٢٩١ ـ ٢٩٢.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١)﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾ أي: فرَّقناهم، يعني: بني إسرائيل ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾.

قال الفرَّاء: إنَّما قال: «اثْنَتَيْ عَشْرَةَ»، والسبط مذكَّر؛ لأنه قال: «أُمَمًا» فرجع التأنيث إلى الأمم، وقال الزَّجَّاج: المعنى: وقطعناهم اثنتي عشرة أممًا، وإنما قال: «أَسْبَاطًا أُمَمًا» بالجمع، وما فوق العشرة لا يفسر بالجمع، فلا يقال: أتاني اثنا عشر رجالاً؛ لأن الأسباط في الحقيقة نعت المفسر المحذوف وهو الفرقة، أي: وقطعناهم اثنتي عشرة فرقة أممًا.

وقيل: فيه تقديم وتأخير، وقطعناهم أسباطًا أممًا اثنتي عشرة، والأسباط القبائل واحدها سبط.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ في التِّيه ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ﴾ انفجرت، وقال أبو عمرو بن العلاء: عرقت وهو الانبجاس، ثم انفجرت ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ لكل سبط عين ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ كل سبط ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ وكل سبط بنو أب واحد.

قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ في التيه، تقيهم حرَّ الشمس ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠)﴾.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾ قرأ أهل المدينة وابن عامر ويعقوب: «تُغْفَر» بالتاء وضمها وفتح الفاء، وقرأ الآخرون بالنون وفتحها وكسر الفاء ﴿خَطِيئَاتِكُمْ﴾ قرأ ابن عامر «خطيئتكم» على التوحيد ورفع التاء، (وقرأ أبو عمرو: «خطاياكم»، وقرأ أهل المدينة ويعقوب: «خطيئاتُكم» بالجمع ورفع التاء)[1]، وقرأ الآخرون بالجمع وكسر التاء ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١)﴾.

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا﴾ عذابًا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ قيل: هي «مدين»، (أي: سلْ يا محمد، هؤلاء اليهود الذين هم جيرانك سؤال توبيخ وتقريع عن القرية التي كانت حاضرة البحر)[1]، أي: بقربه، قال ابن عباس: هي قرية يقال لها «إيلة» بين «مدين» و«الطور» على شاطىء البحر، وقال الزهري: هي «طبرية الشام» ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي: يظلمون فيه، ويجاوزون أمر الله تعالى بصيد الأسماك ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ أي: ظاهرة على الماء كثيرة، جمع شارع. وقال الضحاك: متتابعة.

وفي القصة: أنها كانت تأتيهم يوم السبت مثل الكباش السمان البيض.

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ كإتيانهم يوم السبت، قرأ الحسن: ﴿يُسبتون﴾ بضم الياء، أي: لا يدخلون في السبت، والقراءة المعروفة بنصب الياء، ومعناه: لا يعظمون السبت ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ نختبرهم ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ فوسوس إليهم الشيطان وقال: إن الله لم ينهكم عن الاصطياد، وإنما نهاكم عن الأكل، فاصطادوا، أو قيل: وسوس إليهم أنكم إنما نُهيتم عن الأخذ، فاتخذوا حياضًا على شاطىء البحر، تسوقون الحيتان إليها يوم السبت، ثم تأخذونها يوم الأحد، ففعلوا ذلك زمانًا ثم تجرؤوا على السبت، وقالوا: ما نرى السبت إلا قد أُحلَّ لنا، فأخذوا وأكلوا وباعوا، فصار أهل القرية أثلاثًا، وكانوا نحوًا من سبعين ألفًا: ثلث نهوا، وثلث لم ينهوا وسكتوا، وقالوا: لِمَ تعظون قومًا اللهُ مُهلكهم؟ وثلث هم أصحاب الخطيئة، فلما لم ينتهوا قال الناهون: لا نُساكنكم في قرية واحدة، فقسموا القرية بجدار: للمسلمين باب، وللمعتدين باب، ولعنهم داود عليه السلام، فأصبح الناهون ذات يوم ولم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا: إنَّ لهم شأنًا لعلَّ الخمر غلبتهم فَعَلَوا على الجدار، فإذا هم قردة، فعرفت القرود أنسابها من

(١) زيادة من «ب».

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾

الإنس ولم تعرف الإنس أنسابها من القرود، فجعلت القرود يأتيها نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكي. فيقول: ألم ننهكم فتقول برأسها: نعم، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ اختلفوا في الذين قالوا هذا، قيل: كانوا من الفرقة الهالكة، وذلك أنهم لما قيل لهم: انتهوا عن هذا العمل السيىء، قبل أن ينزل بكم العذاب، وأنَّا نعلم أن الله مُنزل بكم بأسه إن لم تنتهوا، أجابوا وقالوا: «لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ»؟ ﴿أَوْ﴾ علمتم أنه ﴿مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟﴾ أي: قال الناهون: ﴿مَعْذِرَةً﴾ أي: موعظتنا معذرة ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ قرأ حفص: «مَعْذِرَةً» بالنصب، أي: نفعل ذلك معذرة إلى ربكم، والأصح: أنها من قول الفرقة الساكتة، قالوا: لِمَ تعظون قومًا الله مهلكهم؟ قالوا: معذرة إلى ربكم، ومعناه: أن الأمر بالمعروف واجب علينا، فعلينا موعظة هؤلاء عذرًا إلى الله ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ أي: يتقون الله ويتركون المعصية، ولو كان الخطاب مع المعتدين لكان يقول: ولعلكم تتقون.

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ أي: تركوا ما وُعِظوا به ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ يعني: الفرقة العاصية ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ أي: شديد وجيع، من البأس: وهو الشدة.

واختلف القراء فيه، قرأ أهل المدينة وابن عامر «بِئيس» بكسر الباء على وزن «فِعيل»[1]، إلا أن ابن عامر يهمزه، وأبو جعفر ونافع لا يهمزان، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بفتح الباء وسكون الياء وفتح الهمزة على وزن «فَيْعَل» مثل: «صَيْقَل»، وقرأ الآخرون على وزن «فعيل» مثل: «بعير» و«صغير».

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أسمع الله يقول: «أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ»، فلا أدري ما فعل بالفرقة الساكتة؟ قال عكرمة: قلت له: جعلني الله فداك، ألاَ تراهم قد أنكروا وكرهوا ما هم عليه، وقالوا: لِمَ تعظون قومًا الله مهلكهم؟ وإن لم يقل الله أنجيتهم فلم يقل: أهلكتهم، فأعجبه قولي، فَرَضِيَ وأمر لي بِبُرْدَيْن فكسانيهما.

١٣٩/ب وقال يمان بن رباب: نجت / الطائفتان الذين قالوا: لِمَ تَعظون قومًا؟ والذين قالوا: معذرةً إلى ربكم، وأهلك الله الذين أخذوا الحيتان، وهذا قول الحسن.

---

(١) في الطبري (١٣/ ١٦٥): (فقرأته قرأة عامة أهل المدينة «بعذاب بِيسٍ» بكسر الباء وتخفيف الياء بغير همز، على مثال «فِعْل»).

فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾

وقال ابن زيد: نَجَتِ الناهية، وهلكتِ الفرقتان، وهذه أشَدُّ آية في ترك النهي عن المنكر.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ قال ابن عباس: أبوا أن يرجعوا عن المعصية ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ مبعدين، فمكثوا ثلاثة أيام ينظر إليهم الناس ثم هلكوا.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي: آذن وأعلم ربك، يقال: تأذن وآذن، مثل: توعد وأوعد، وقال ابن عباس: «تَأَذَّنَ رَبُّكَ» قال ربك، وقال مجاهد: أمر ربُّك، وقال عطاء: حكم ربُّك ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: على اليهود ﴿مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ بعث الله عليهم محمدًا ﷺ وأُمته يقاتلونهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ﴾ وفرَّقناهم ﴿فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ فرقًا، فرقهم الله فتشتت أمرهم، ولم تجتمع لهم كلمة ﴿مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يريد الذين أدركوا رسول الله ﷺ وآمنوا به ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ يعني: الذين بقوا على الكفر.

وقال الكلبي: «مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ»: هم الذين وراء نهر أوداف من وراء الصين[1]، «وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ»، يعني: من هاهنا من اليهود ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ﴾ بالخصب والعافية ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾ الجدب والشدة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ لكي يرجعوا إلى طاعة ربهم ويتوبوا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي: جاء من بعد هؤلاء الذين وصفناهم ﴿خَلْفٌ﴾ والخلف: القرن الذي يجيء بعد قرن، قال أبو حاتم: الخلْف بسكون اللام الأولاد، الواحد والجمع فيه سواء، والخلَف بفتح اللام: البدل سواء كان ولدًا أو غريبًا.

---

(١) انظر: الحاشية السابقة في آخر تفسير الآية (١٥٩) من هذه السورة: ص١٦٠.

وقال ابن الأعرابي: الخَلَف بالفتح: الصالح، وبالجزم: الطالح. وقال النضر بن شميل: الخلف بتحريك اللام وإسكانها في القرْن السوء واحد، وأما في القَرْن الصالح فبتحريك اللام لا غير. وقال محمد بن جرير: أكثر ما جاء في المدح بفتح اللام، وفي الذم بتسكينها، وقد يُحرك في الذم ويُسكّن في المدح.

﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾، أي: انتقل إليهم الكتاب من آبائهم وهو التوراة ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ فالعَرَضَ: متاع الدنيا، والعَرْض ـ بسكون الراء ـ: ما كان من الأموال سوى الدراهم والدنانير، وأراد بالأدنى: العالَم، وهو هذه الدار الفانية، فهو تذكير الدنيا، وهؤلاء اليهود ورثوا التوراة فقرؤوها وضيَّعوا العمل بما فيها، وخالفوا حكمها، يرتشون في حكم الله وتبديل كلماته ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ذنوبنا، يتمنون على الله الأباطيل.

أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أنبأنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث، أنبأنا أبو الحسن محمد ابن يعقوب الكسائي، أنبأنا عبد الله بن محمود، أنبأنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، أنبأنا عبد الله بن المبارك، عن أبي بكر بن أبي مريم الغساني، عن ضمرة بن حبيب عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نفسَه وعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الموتِ، والعاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نفسَه هواها وتمنَّى على الله»[(١)].

﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ هذا إخبار عن حرصهم على الدنيا، وإصرارهم على الذنوب، يقول: إذا أشرف لهم شيء من الدنيا أخذوه حلالاً كان أو حرامًا، ويتمنون على الله المغفرة، وإن وجدوا من الغد مثله أخذوه، وقال السُّدّي: كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضيًا إلا ارتشى في الحكم، فيقال له: مالك ترتشي؟ فيقول: سيغفر لي، فيطعن عليه الآخرون، فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه فيرتشي أيضًا، يقول: وإن يأتِ الآخرين عرضٌ مثله يأخذوه.

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي: أخذ عليهم العهد في التوراة أن لا يقولوا على الله الباطل، وهو تمني المغفرة مع الإصرار، وليس في التوراة ميعاد المغفرة مع الإصرار ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ قرأوا ما فيه، فهم ذاكرون لذلك، ولو عقلوه لعملوا للدار الآخرة، ودَرْسُ الكتاب: قراءتُه وتدبُّره مرّة بعد أخرى ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾؟

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة، باب الكيس من دان نفسه: (٧/ ١٥٦)، وقال: هذا حديث حسن، وابن ماجه في الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له برقم ٤٢٦٠: (٢/ ١٤٢٣)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين: (١/ ٥٧)، وتعقَّبه الذهبي فقال: قلت: لا والله، أبو بكر: واهٍ، وأخرجه ـ أيضًا ـ في موضع آخر: (٤/ ٢٥١). وأخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٤/ ١٢٤)، والبغوي في «شرح السنة»: (١٤/ ٣٠٩)، وقال: هذا حديث حسن، وصححه في «مصابيح السنة»: (٣/ ٤٤٤).

والحديث فيه: أبو بكر بن أبي مريم الغساني، وهو ضعيف، قال ابن طاهر: مدار الحديث عليه، وهو ضعيف جدًّا. انظر: «فيض القدير» للمناوي: (٥/ ٦٨).

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم: «يُمْسِكون» بالتخفيف، وقراءة العامة بالتشديد؛ لأنه يقال: مسكت بالشيء، ولا يقال: أمسكت بالشيء، إنما يقال: أمسكته، وقرأ أُبي بن كعب: «والذين تمسَّكوا بالكتاب» على الماضي، وهو جيد؛ لقوله تعالى: «وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ»؛ إذ قلَّما يعطف ماضٍ على مستقبل إلا في المعنى، وأراد[1] الذين يعملون بما في الكتاب، قال مجاهد: هم المؤمنون من أهل الكتاب: عبد الله بن سلام وأصحابه، تمسكوا بالكتاب الذي جاء به موسى فلم يحرِّفوه ولم يكتموه ولم يتخذوه مأكلةً، وقال عطاء: هم أمة محمد ﷺ ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أي: فلقنا الجبل، وقيل: رفعناه ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ قال عطاء: سقيفة، والظُّلَّة: كل ما أظلك ﴿وَظَنُّوا﴾ علموا ﴿أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا﴾ أي: وقلنا لهم: خذوا ﴿مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ بجدٍّ واجتهاد ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ واعملوا به ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ وذلك حين أبَوْا أن يقبلوا أحكام التوراة، فرفع الله على رؤوسهم جبلًا، قال الحسن: فلما نظروا إلى الجبل خرَّ كلُّ رجلٍ منهم ساجدًا على حاجبه الأيسر ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فوقه من أن يسقط عليه، ولذلك لا تجد يهوديًا إلا ويكون سجوده على حاجبه الأيسر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ...﴾ الآية.

أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب، عن مالك، عن زيد بن أبي أنيسة، عن عبد الحميد بن عبد الرحمن، عن زيد بن الخطاب أخبره، عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - سُئل عن هذه الآية: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ...» الآية؟ قال عمر بن الخطاب: سمعتُ رسولَ الله ﷺ (يُسأل عنها؟ فقال رسول الله ﷺ)[2]:

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) زيادة من «ب».

«إنَّ الله عزَّ وجلَّ خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذُرِّيَّةً، فقال: خلقتُ هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرِّيَّةً، فقال: خلقتُ هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجلٌ: فَفِيمَ العملُ يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله به الجنة، / وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله به النار»، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وعمر رجلًا[(١)]. ١٤٠/أ

قال مقاتل وغيره من أهل التفسير: إن الله مسح صفحةَ ظهرِ آدمَ اليمنى فأخرج منه ذريةً بيضاء كهيئة الذر يتحركون، ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فأخرج منه ذريةً سوداء كهيئة الذر، فقال: يا آدم هؤلاء ذريتك، ثم قال لهم: ألستُ بربكم؟ قالوا: بلى، فقال للبيض: هؤلاء في الجنة برحمتي ولا أبالي، وهم أصحاب اليمين، وقال للسود: هؤلاء في النار ولا أبالي، وهم أصحاب الشمال، ثم أعادهم جميعًا في صلبه، فأهل القبور محبوسون حتى يخرج أهل الميثاق كلهم من أصلاب الرجال وأرحام النساء، قال الله تعالى فيمن نقض العهد الأول: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾[الأعراف: ١٠٢].

وقال بعض أهل التفسير: إن أهل السعادة أقرُّوا طوعًا وقالوا: بلى، وأهل الشقاوة قالوه تَقِيَّةً وكرهًا، وذلك معنى قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[آل عمران: ٨٣].

واختلفوا في موضع الميثاق؛ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ببطن نَعْمان ـ وادٍ إلى جنب عرفة[(٢)] ـ، ورُوي عنه أيضًا: أنه بدهناء من أرض الهند[(٣)]، وهو الموضع الذي هبط آدم عليه السلام عليه، وقال الكلبي:

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» أول كتاب القدر: (٢/ ٨٩٨ ـ ٨٩٩)، وأبو داود في السنة، باب في القدر: (٧/ ٧١ ـ ٧٢)، والترمذي في تفسير سورة الأعراف: (٨/ ٤٥٢ ـ ٤٥٥)، وقال: هذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وصححه الحاكم: (١/ ٢٧)، وأخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (١/ ٤٤ ـ ٤٥)، والنسائي في «التفسير»: (١/ ٥٠٤)، والطبري: (١٣/ ٢٣٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ١٣٩)، والآجري في «الشريعة»: ص١٧٠، وابن حبان: ص٤٤٧ من «الموارد»، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد»: (٣/ ٥٥٩).

قال المنذري في «تهذيب السنن»: معنى هذا الحديث قد صح عن النبي ﷺ من وجوه ثمانية يطول ذكرها. وانظر: ابن كثير: (٢/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤)، وما كتبه الشيخ شاكر تعليقًا في «تفسير الطبري»: (١٣/ ٢٣٤ ـ ٢٣٦)، و«التمهيد» لابن عبد البر: (٦/ ٣ ـ ٥)، «تفسير ابن كثير»: (٢/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤)، «سلسلة الأحاديث الضعيفة»: (٧/ ٧١ ـ ٧٣).

(٢) انظر: «تفسير الطبري»: (١٣/ ٢٢٢)، «المستدرك» للحاكم: (١/ ٢٧)، «مجمع الزوائد» للهيثمي: (٧/ ٢٥، ١٨٨ ـ ١٨٩)، وساقه الحافظ ابن كثير من رواية الإمام أحمد والنسائي في التفسير مرفوعًا، وذكر الروايات عن ابن عباس موقوفًا، وقال: هذا أكثر وأثبت، والله أعلم. «التفسير»: (٢/ ٢٦٣).

(٣) انظر: «تفسير الطبري»: (١٣/ ٢٢٥) مع تعليق الشيخ شاكر.

بين مكة والطائف، وقال السدي: أخرج الله آدم عليه السلام من الجنة فلم يهبط من السماء ثم مسح ظهره فأخرج ذريته، ورُوي: أن الله أخرجهم جميعًا وصوَّرهم وجعل لهم عقولاً يعلمون بها وألسنًا ينطقون بها ثم كلمهم قُبُلًا ـ يعني: عيانًا ـ وقال: ألستُ بربكم؟ وقال الزَّجَّاج: وجائز أن يكون الله تعالى جعل لأمثال الذرّ فهمًا تعقل به، كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾[النمل: ١٨].

ورُوي أن الله تعالى قال لهم جميعًا: اعلموا أنه لا إله غيري، وأنا ربكم لا ربَّ لكم غيري، فلا تشركوا بي شيئًا، فإني سأنتقم ممن أشرك بي ولم يؤمن بي، وإني مرسل إليكم رسلًا يذكِّرونكم عهدي وميثاقي، ومنزِّل عليكم كُتُبًا، فتكلموا جميعًا وقالوا: شهدنا أنك ربُّنا وإلهنا لا ربّ لنا غيرُك، فأخذ بذلك مواثيقهم، ثم كتب آجالهم وأرزاقهم ومصائبهم، فنظر إليهم آدم فرأى منهم الغنيَّ والفقيرَ وحَسَنَ الصورة ودون ذلك، فقال: ربِّ لولا سوّيتَ بينهم؟ قال: إني أحب أن أُشكر، فلما قرّرهم بتوحيده وأشهد بعضهم على بعض أعادهم إلى صلبه فلا تقوم الساعة حتى يولد كل من أخذ ميثاقه(١)، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾، أي: من ظهور بني آدم ذريتهم، قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وابن عامر: ﴿ذُرِّيَّاتِهم﴾ بالجمع وكسر التاء، وقرأ الآخرون ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ على التوحيد، ونصب التاء.

فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾ وإنما أخرجهم من ظهر آدم؟ قيل: إنَّ الله أخرج ذرية آدم بعضهم من ظهور بعض على نحو ما يتوالد الأبناء من الأبناء في الترتيب، فاستغنى عن ذكر ظهر آدم لِمَا علم أنهم كلهم بنوه وأخرجوا من ظهره(٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أي: أشهد بعضهم على بعض ﴿شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟﴾ قرأ أبو عمرو: ﴿أن يقولوا﴾ ويقولوا بالياء فيهما، وقرأ الآخرون بالتاء فيهما.

واختلفوا في قوله ﴿شَهِدْنَآ﴾، قال السدي: هو خبر من الله عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على إقرار

---

(١) انظر: الطبري: (١٣/ ٢٣٨ـ٢٣٩)، «المسند»: (٥/ ١٢٥)، «المستدرك»: (٢/ ٣٢٣)، «مجمع الزوائد»: (٧/ ٢٥).

(٢) قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله بعد أن ساق روايات أخذ الذرية والإشهاد: (وقد أكثر الناس من تخريج الآثار في هذا الباب، وأكثر المتكلمون من الكلام فيه، وأهل السنة مجتمعون على الإيمان بهذه الآثار واعتقادها وترك المجادلة فيها، وبالله العصمة والتوفيق). «التمهيد»: (١٦/ ١٢).

وساق الحافظ ابن كثير الروايات في «التفسير»: (٢/ ٢٦٢ـ٢٦٥)، ثم قال: (. . . فهذه الأحاديث دالة على أن الله عزَّ وجلَّ استخرج ذرية آدم من صلبه، وميَّز بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو إلا في حديث كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وفي حديث عبد الله بن عمرو، وقد بيَّنَّا أنهما موقوفان لا مرفوعان . . . ـ ومن ثم قال القائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد كما في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سريع. وقد فسَّر الحسن البصري الآية بذلك . . .).

وانظر: «درء تعارض العقل والنقل» لشيخ الإسلام ابن تيمية: (٨/ ٣٥٩، وما بعدها)، «تفسير القرطبي»: (٧/ ٣١٣، وما بعدها)، «تفسير الفخر الرازي»: (١٥/ ٥٠ـ٥٦)، «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للألباني: (٤/ ١٥٨ـ١٦٣).

﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

بني آدم، وقال بعضهم: هو خبر عن قول بني آدم حين أشهد اللهُ بعضهم على بعضهم، فقالوا: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾، وقال الكلبي: ذلك من قول الملائكة، وفيه حذف تقديره: لما قالت الذرية: بلى؛ قال الله للملائكة: اشهدوا، قالوا: ﴿شَهِدْنَآ﴾، قوله: ﴿أَن تَقُولُواْ﴾، يعني: وأشهدهم على أنفسهم أن يقولوا، أي: لئلا يقولوا أو كراهية أن يقولوا، ومن قرأ بالتاء فتقدير الكلام: أخاطبكم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ لئلا تقولوا: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ أي: عن هذا الميثاق والإقرار، فإن قيل: كيف تلزم الحجة على أحد لا يذكر الميثاق؟ قيل: قد أوضح الله الدلائل على وحدانيته وصدق رسله فيما أخبروا، فمن أنكره كان معاندًا ناقضًا للعهد ولزمته الحجة، وبنسيانهم وعدم حفظهم لا يسقط الاحتجاجُ بعد إخبار المخبرِ الصادق صاحب المعجزة.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ﴾ يقول: إنما أُخذ الميثاق عليكم لئلا تقولوا أيها المشركون: ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾، ونقضوا العهد، ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ﴾، أي: كنَّا أتباعًا لهم فاقتدينا بهم، فتجعلوا هذا عذرًا لأنفسكم وتقولوا: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ أفتعذبنا بجناية آبائنا المبطلين، فلا يمكنهم أن يحتجوا بمثل هذا الكلام بعد تذكير الله تعالى بأخذ الميثاق على التوحيد.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي: نُبيِّن الآيات؛ ليتدبرها العباد ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ من الكفر إلى التوحيد.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا . . .﴾ الآية، اختلفوا فيه، قال ابن عباس[(١)]: هو بَلْعَم بن باعوراء، وقال مجاهد[(١)]: بَلْعَام بن باعر، وقال عطية عن ابن عباس[(١)]: كان من بني إسرائيل، ورُوي عن علي بن أبي طلحة ـ رضي الله عنه ـ أنه كان من الكنعانيين من مدينة الجبارين[(٢)]، وقال مقاتل: هو من مدينة بلقا.

وكانت قصته ـ على ما ذكره ابن عباس وابن إسحاق والسدي وغيرهم[(٣)] ـ: أن موسى لما قصد حرب الجبارين ونزل أرض بني كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعم إلى بلعم ـ وكان عنده اسم الله الأعظم ـ

---

(١) انظر: الطبري: (١٣/ ٢٥٤)، «أسباب النزول» للواحدي: ص٢٦١، «الدر المنثور»: (٣/ ٦٠٨ـ٦٠٩).

(٢) الطبري: (١٣/ ٢٥٤ـ٢٥٥).

(٣) انظر: «تفسير الطبري»: (١٣/ ٢٦٤ ـ ٢٦٧)، «تاريخ الطبري»: (١/ ٤٣٧ ـ ٤٣٩)، «تفسير ابن كثير»: (٢/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨)، «البداية والنهاية»: (١/ ٣٢٢)، وقال: (هذا الذي ذكره ابن إسحاق في قصة بلعام صحيح قد ذكره غير واحد من السلف)، وقال ابن عطية: (وفي هذه القصة روايات كثيرة اختصرتها لتعذر صحتها . . .)، وفي هذا إشارة إلى تضعيف هذه الروايات الآتية، والله أعلم.

فقالوا: إن موسى رجل حديد ومعه جند كثير، وأنه جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل، وأنت رجل مجاب الدعوة، فاخرجْ فادعُ الله أن يردَّهم عنَّا، فقال: ويلكم، نبي الله ومعه الملائكة والمؤمنون كيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم، وإني إن فعلت هذا ذهبت دنياي وآخرتي، فراجعوه وألحُّوا عليه، فقال: حتى أُؤامر ربي، وكان لا يدعوه حتى ينظر ما يؤمر به في المنام فآمر في الدعاء عليهم، فقيل له في المنام: لا تدع عليهم، فقال لقومه: إني قد آمرتُ ربي وإني قد نُهيتُ، فأهدوا إليه هديةً فقبلها، ثم راجعوه فقال: حتى أُؤامر، فآمر، فلم يجز[1] إليه شيء، فقال: قد آمرتُ فلم يجز[1] إليَّ شيء، فقالوا: لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك في المرَّة الأولى، فلم يزالوا يتضرعون إليه حتى فتنوه، فافتتن
١٤٠/ب فركب أتانًا له متوجهًا إلى جبل يُطلعه على عسكر بني إسرائيل يقال له: حُسْبان، فلما سار / عليها غيرَ كثيرٍ رَبَضَتْ به، فنزل عنها فضربها حتى إذا أذلقها قامت فركبها، فلم تَسِرْ به كثيرًا حتى ربضت، ففعل بها مثل ذلك فقامت، فركبها فلم تسِرْ به كثيرًا حتى ربضت، فضربها حتى أذلقها، أَذِنَ الله لها بالكلام فكلمته حجةً عليه، فقالت: ويحك يا بلعم، أين تذهب بي؟ ألاَ ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي هذا؟ أتذهب بي إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم؟ فلم ينزع، فخلَّى الله سبيلها فانطلقت حتى إذا أشرفت به على جبل حُسْبَان جعل يدعو عليهم ولا يدعو عليهم بشيء إلا صرف الله به لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف الله به لسانه إلى بني إسرائيل، فقال له قومُه: يا بلعم، أتدري ماذا تصنع إنما تدعو لهم علينا؟! فقال: هذا ما لا أملكه، هذا شيء قد غلب الله عليه، فاندلع لسانه فوقع على صدره، فقال لهم: قد ذَهَبَتِ الآن مني الدنيا والآخرة، فلم يبق إلا المكر والحيلة، فسأمكر لكم وأحتال، جمِّلُوا النساءَ وزيِّنوهنَّ وأعطوهنَّ السلع، ثم أرسلوهنَّ إلى العسكر يبعنها فيه، ومُروهنَّ فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها، فإنهم إن زنا رجلٌ واحد منهم كفيتموهم، ففعلوا، فلما دخل النساء العسكر مَرَّتِ امرأة من الكنعانيين، اسمها: كستى[2] بنت صور، برجل من عظماء بني إسرائيل يقال له: زِمري بن شلوم، رأس سبط شمعون بن يعقوب، فقام إليها فأخذ بيدها حين (أعجبه جمالها)[3]، ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى، فقال: إني أظنك ستقول هذه حرام عليك؟ قال: أجلْ هي حرام عليك لا تقربها، قال: فوالله لا أطيعك في هذا، ثم دخل بها قبته فوقع عليها، فأرسل الله الطاعون على بني إسرائيل في الوقت، وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى، وكان رجلًا قد أُعطي بسطة في الخلق وقوة في البطش، وكان غائبًا حين صنع زمري بن شلوم ما صنع، فجاء والطاعون يجوس بني إسرائيل، فأُخبر الخبر، فأخذ

---

(١) في الطبري: (فلم يَحُرْ) بمهملتين، أي: لم يرجع إليه شيء، من حار يحور إليه حورًا.
(٢) في الطبري: (كسبى).
(٣) في «ر»: (أعجبته).

حربته وكانت من حديد كلها، ثم دخل عليهما القبة، وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته، ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء، والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته، وأسند الحربة إلى لحيته وكان بكر العيزار، وجعل يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك، ورُفع الطاعون، فحُسِب مَنْ هلك من بني إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصاب زمري المرأة إلى أن قتله فنحاص، فوجدوا قد هلك منهم سبعون ألفًا في ساعة من النهار، فمن هنالك يعطي بنو إسرائيل ولدَ فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها القِبَةَ[1] والذراع واللحي؛ لاعتماده بالحربة على خاصرته، وأخذه إيَّاها بذراعه، وإسناده إياها إلى لحيته، والبكرَ من كل أموالهم وأنفسهم؛ لأنه كان بكر العيزار، وفي بلعم أنزل الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا. . .﴾ الآية.

وقال مقاتل: إن ملك البلقاء قال لبلعام: ادعُ الله على موسى، فقال: إنه من أهل ديني لا أدعو عليه، فنحت خشبة ليصلبه، فلما رأى ذلك خرج على أتان له ليدعو عليه، فلما عاين عسكرهم قامت به الأتان ووقفت فضربها، فقالت: لِمَ تضربني؟ إني مأمورة، وهذه نار أمامي قد منعتني أن أمشي فرجع وأخبر الملك فقال: لتدعونَّ عليه أو لأصلبنَّك، فدعا على موسى بالاسم الأعظم: أن لا يدخل المدينة، فاستجيب له ووقع موسى وبنو إسرائيل في التيه بدعائه، فقال موسى: يا رب، بأيِّ ذنب وقعنا في التيه؟ فقال: بدعاء بلعام، قال: فكما سمعتَ دعاءَه عليَّ فاسمعْ دعائي عليه، (فدعا موسى عليه السلام)[2] أن ينزع عنه الاسم الأعظم والإيمان، فنزع الله عنه المعرفة وسلخه منها فخرجت من صدره كحمامة بيضاء، فذلك قوله: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم: نزلت هذه الآية في أُمية بن أبي الصلت الثقفي، وكانت قصته: أنه كان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسِلٌ رسولاً فَرَجَا أن يكون هو ذلك الرسول، فلمَّا أُرسل محمد ﷺ حسده وكفر به، وكان صاحب حكمةٍ وموعظة حسنة، وكان قَصَدَ بعض الملوك فلمَّا رجع مرَّ على قتلى بدر، فسأل عنهم فقيل: قتلهم محمد، فقال: لو كان نبيًّا ما قتل أقرباءه، فلمَّا مات أُمية أتت أُخته فارعة إلى رسول الله ﷺ، فسألها رسول الله ﷺ عن وفاة أخيها؟ فقالت: بينما هو راقد أتاه آتيان فكشفا سقف البيت، فنزلا فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: أوعى؟ قال: وعى، قال: أزكى؟ قال: أبى، قالت: فسألته عن ذلك فقال: خيرٌ أُريدَ بي فصُرف عني، فغشي عليه، فلما أفاق قال:

---

(١) القِبَة ـ بكسر القاف وفتح الباء المخففة ـ هي الكرش.

(٢) زيادة من نسخة «ب».

كـل عيـش وإن تطـاول دهـرًا ... صـائـرٌ مـرةً إلى أن يـزولا
ليتني كنتُ قبلَ مـا قـدْ بـدا لي ... في قـلال الجبـالِ أرعـى الوعُـولا
إنَّ يـومَ الحسـابِ يـومٌ عظيـمٌ ... شـابَ فيـه الصغيـرُ يـومًـا ثقيـلا

ثم قال لها رسول الله ﷺ: أنشديني من شعر أخيك، فأنشدته بعض قصائده، فقال لها رسول الله ﷺ: «آمنَ شِعرُه وكفر قلبه»، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا...﴾ الآية[١].

وفي رواية عن ابن عباس: أنها نزلت في البسوس: رجل من بني إسرائيل، وكان قد أُعطي له ثلاث دعوات مستجابات، وكانت له امرأة له منها ولد، فقالت: اجعلْ لي منها دعوة، فقال: لكِ منها واحدة فما تريدين؟ قالت: ادعُ الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل، فدعا لها فجُعلت أجمل النساء في بني إسرائيل، فلما علمت أنه ليس فيهم مثلها رغبت عنه، فغضب الزوج ودعا عليها فصارت كلبة نباحة، فذهبت فيها دعوتان، فجاء بنوها وقالوا: ليس لنا على هذا قرار، قد صارت أُمُّنا كلبةً نباحة، والناس يعيِّروننا بها، ادعُ الله أن يردَّها إلى الحال التي كانت عليها، فدعا الله فعادت كما كانت، فذهبت فيها الدعوات كلها[٢]. والقولان الأولان أظهر[٣].

وقال الحسن وابن كيسان: نزلت في منافقي أهل الكتاب الذين كانوا يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم.

وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله عزَّ وجلَّ لمن عُرض عليه الهدى فأبى أن يقبله، فذلك قوله: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾، قال ابن عباس والسدي: اسم الله الأعظم، قال ابن زيد: كان لا يسأل شيئًا إلا أُعطيه، وقال ابن عباس في رواية أُخرى: أُوتي كتابًا من كتب الله فانسلخ، أي: خرج منها كما تنسلخ، أي: خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي: لحقه وأدركه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥﴾.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري»: (١٣/ ٢٥٥ـ٢٥٧)، «أسباب النزول»: ص٢٦١، «الدر المنثور»: (٣/ ٦٠٩)، «فتح الباري»: (٧/ ١٥٤).

(٢) «أسباب النزول»: ص٢٦١ـ٢٦٢، «الدر المنثور»: (٣/ ٦٠٨)، «البحر المحيط»: (٤/ ٤٢٢).

(٣) قال أبو حيان في «البحر المحيط» (٤/ ٤٢٣): (والأولى في مثل هذا إذا ورد عن المفسرين أن تُحمل أقاويلهم على التمثيل، لا على الحصر في معين، فإنه يؤدي إلى الاضطراب والتناقض).

وقال إمام المفسرين الطبري رحمه الله: (والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله ـ تعالى ذكره ـ أمر نبيه ﷺ أن يتلو على قومه خبر رجل كان صالحًا آتاه الله حججه وأدلته، وهي «الآيات» ... وجائز أن يكون الذي آتاه الله ذلك «بلعم»، وجائز أن يكون «أمية»، ولا خبر بأي الرجلين ـ المعني ـ يوجب الحجة، ولا في العقل دلالة على أيِّ ذلك، المعنيُّ به من أيٍّ. فالصواب أن يقال فيه ما قال الله، ونقرّ بظاهر التنزيل، على ما جاء به الوحي من الله). «التفسير»: (١٣/ ٢٥٩ـ٢٦٠).

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦﴾

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ أي: رفعنا درجته ومنزلته / بتلك الآيات، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ١/١٤١ لرفعناه بعلمه بها، وقال مجاهد وعطاء: لرفعنا عنه الكفر وعصمناه بالآيات ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: سكن إلى الدنيا ومال إليها، قال الزَّجَّاج: خلد وأخلد واحد، وأصله من الخلود: وهو الدوام والمقام، يقال: أخلد فلان بالمكان إذا أقام بها، والأرض هاهنا عبارة عن الدنيا؛ لأن ما فيها من القفار والرباع كلها أرض، وسائر متاعها مستخرج من الأرض ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ انقاد لما دعاه إليه الهوى، قال ابن زيد: كان هواه مع القوم، قال عطاء: أراد الدنيا وأطاع شيطانه، وهذه أشدّ آية على العلماء، وذلك أن الله أخبر أنه آتاه آية[1] من اسمه الأعظم والدعوات المستجابة والعلم والحكمة، فاستوجب بالسكون إلى الدنيا واتباع الهوى تغيير النعمة عليه والانسلاخ عنها، ومَن الذي يَسْلَمُ من هاتين الخلتين إلا من عصمه الله؟

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أنا محمد بن أحمد بن الحارث، أنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنا عبد الله بن محمود، أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، أنا عبد الله بن المبارك، عن زكريا بن أبي زائدة، عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة، عن كعب بن مالك الأنصاري، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ذِئْبانِ جائعان أُرسلا في غَنَم بأفسدَ لها من حرص المرءِ على المال والشرف لدينه»[2].

قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ يقال: لهث الكلب يلهث لهثًا: إذا أدلع لسانه، قال مجاهد: هو مثل الذي يقرأ الكتاب ولا يعمل به.

والمعنى: إن هذا الكافر إن زجرته لم ينزجر، وإن تركته لم يهتد، فالحالتان عنده سواء، كحالتي الكلب: إن طرد وحُمل عليه بالطرد كان لاهثًا، وإن تُرك ورَبضَ كان لاهثًا، قال القتيبي: كل شيء يلهث إنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب، فإنه يلهث في حال الكلال وفي حال الراحة وفي حالة العطش،

---

(١) في «ب»: (آياته).

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد، باب رقم٣٠: (٧/ ٤٦)، وقال: هذا حديث صحيح، وصححه ابن حبان: ص٦١٢ من «موارد الظمآن»، وأخرجه الدارمي في الرقاق: (٢/ ٣٠٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨)، وعزاه ابن رجب الحنبلي ـ أيضًا ـ للنسائي، وقال: ورُوي من وجه آخر عن النبي ﷺ من حديث ابن عمر، وابن عباس، وأبي هريرة، وأُسامة بن زيد، وأبي سعيد، وعاصم بن عدي الأنصاري رضي الله عنهم. وأخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٣/ ٤٥٦ ـ ٤٦٠). وانظر: شرح حديث «ما ذئبان جائعان» لابن رجب الحنبلي في «مجموع الرسائل المنيرية»: (٣/ ١، وما بعدها).

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ۝١٧٧ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝١٧٨ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ۝١٧٩﴾

فضربه الله مثلًا لمن كذب بآياته فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال، كالكلب إن طردته يلهث، وإن تركته على حاله يلهث، نظيره قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ﴾[الأعراف: ١٩٣]، ثم عمَّ بهذا التمثيل جميع من يكذب بآيات الله فقال: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦﴾ وقيل: هذا مثل لكفار مكة؛ وذلك أنهم كانوا يتمنَّون هاديًا يهديهم ويدعوهم إلى طاعة الله، فلما جاءهم نبي لا يشكُّون في صدقه كذَّبوه، فلم يهتدوا تُركوا أو دُعوا.

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي: بئس مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، وتقديره: ساء مثلًا مثلُ القوم، فحذف مثل وأقيم القوم مقامه فرُفع ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ۝١٧٧﴾.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝١٧٨﴾.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ أخبر الله تعالى أنه خلق كثيرًا من الجن والإنس للنار، وهم الذين حقَّت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة، ومَنْ خلقه الله لجهنم فلا حيلة له في الخلاص منها.

أخبرنا أبو بكر يعقوب بن أحمد بن محمد بن علي الصيرفي، أنا أبو محمد الحسن بن أحمد المخلدي، أنا أحمد بن محمد بن أبي حمزة البلخي، حدثنا موسى بن محمد بن الحكم الشطوي، حدثنا حفص بن غياث، عن طلحة بن يحيى، عن عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين قالت: أدرك النبي ﷺ جنازة صبي من صبيان الأنصار، فقالت عائشة: طوبى له عصفورٌ من عصافير الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريكِ؟ إنَّ الله خلق الجنة وخلق لها أهلًا وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلًا وهم في أصلاب آبائهم»[1]، وقيل: اللام في قوله: ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ لام العاقبة، أي: ذرأناهم، وعاقبة أمرهم جهنم، كقوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[القصص: ٨]، ثم وصفهم فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي: لا يعلمون بها الخير والهدى ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ طريق الحق وسبيل الرشاد ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ مواعظ القرآن، فيتفكرون فيها ويعتبرون بها، ثم ضرب لهم مثلًا في الجهل

---

(١) أخرجه مسلم في القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة . . . برقم ٢٦٦٢: (٤/ ٢٠٥٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ١٤١).

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

والاقتصار على الأكل والشرب، فقال: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ أي: كالأنعام في أنَّ همتهم في الأكل والشرب والتمتع بالشهوات، بل هم أضل؛ لأن الأنعام تُميِّز بين المضار والمنافع، فلا تقدم على المضار، وهؤلاء يقدمون على النار معاندةً، مع العلم بالهلاك ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ قال مقاتل: وذلك أن رجلًا دعا الله في صلاته ودعا الرحمن، فقال بعض مشركي مكة: إن محمدًا ﷺ وأصحابه يَدَّعُون[1] أنهم يعبدون ربًا واحدًا، فما بال هذا يدعو اثنين؟ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا»، و«الحسنى» تأنيث الأحسن، كالكبرى والصغرى، فادعوه بها.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبد الله بن بشران، أنا أبو علي إسماعيل بن محمد الصفار، أنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ لله تسعةً وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، مَن أحصاها دخل الجنة، إنَّه وِترٌ يحب الوتر»[2].

﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ قرأ حمزة: «يَلْحَدون» ـ بفتح الياء والحاء حيث كان ـ وافقه الكسائي في النحل، والباقون بضم الياء وكسر الحاء، ومعنى الإلحاد هو: الميل عن المقصد[3]، يقال: أَلْحَدَ يُلحد إلحادًا، ولحد يلحد لحودًا: إذا مال، قال يعقوب بن السكِّيت: الإلحاد: هو العدول عن الحق، وإدخال ما ليس منه فيه، يقال: ألحد في الدين، ولحد، وبه قرأ حمزة.

﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ هم المشركون، عدلوا بأسماء الله تعالى عمَّا هي عليه، فسمَّوا بها أوثانهم فزادُوا ونقصوا، فاشتقوا اللَّات من «الله»، والعزى من «العزيز»، ومناة من «المنان»، هذا قول ابن عباس ومجاهد.

وقيل: هو تسميتهم الأصنام آلهة، ورُوي عن ابن عباس: «يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ»، أي: يكذبون، وقال أهل المعاني: الإلحاد في أسماء الله: تسميته بما لم يُسَمَّ به، ولم ينطق به كتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ.

---

(١) في «ب»: (يزعمون).

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات، باب لله مائة اسم غير واحد: (١١/ ٢١٤) وفي الشروط وفي التوحيد، ومسلم في الذكر والدعاء، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها برقم ٢٦٧٧: (٤/ ٢٠٦٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٣٠).

(٣) في «ب»: (القصد).

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾

١٤١/ب وجملته: أن أسماء الله تعالى على التوقيف / فإنه يُسمى جوادًا ولا يسمى سخيًا، وإن كان في معنى الجواد، ويسمى رحيمًا ولا يسمى رفيقًا، ويسمى عالمًا ولا يسمى عاقلًا، وقال تعالى: «يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ»[النساء: ١٤٢]، وقال عزَّ مِنْ قائل: «وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ»[آل عمران: ٥٤]، ولا يقال في الدعاء: يا مخادع، يا مكار، بل يدعى بأسمائه التي ورد بها التوقيف على وجه التعظيم، فيقال: يا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا عزيز، يا كريم ونحو ذلك ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ﴾ أي: عصابة ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ قال عطاء عن ابن عباس: يريد أمة محمد ﷺ، وهم المهاجرون والتابعون لهم بإحسان، وقال قتادة: بلغَنا أن النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: «هذه لكم وقد أُعطي القوم بين أيديكم مثلَها، ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون»(١).

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، أنا محمد بن إسماعيل، حدثنا الحميدي، حدثنا الوليد، حدثني ابن جابر وهو عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدثني عمير بن هانيء أنه سمع معاوية ـ رضي الله عنه ـ يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا تزال من أُمتي أُمةٌ قائمةٌ بأمر الله، لا يضرُّهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمرُ الله وهم على ذلك»(٢)، وقال الكلبي: هم من جميع الخلق.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ قال عطاء: سنمكر بهم من حيث لا يعلمون، وقيل: نأتيهم من مأمنهم، كما قال: «فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟»[الحشر: ٢]، قال الكلبي: يزين لهم أعمالهم ويهلكهم، وقال الضحاك: كلما جدَّدوا معصيةً جدَّدْنا لهم نعمة، قال سفيان الثوري: نسبغ عليهم النعمة وننسيهم الشكر، قال أهل المعاني: الاستدراج أن يتدرج إلى الشيء في خفية قليلًا قليلًا فلا يباغت ولا يجاهر، ومنه درج الصبيُّ إذا قارب بين خطاه في المشي، ومنه درج الكتابَ إذا طواه شيئًا بعد شيء.

﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ أي: أمهلهم وأطيل لهم مدة عمرهم ليتمادوا في المعاصي ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ أي: إن أخذي قوي شديد، قال ابن عباس: إن مكري شديد، قيل: نزلت في المستهزئين، فقتلهم الله في ليلة واحدة.

---

(١) «تفسير الطبري»: (١٣/ ٢٨٦).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب، باب رقم٢٨: (٦/ ٦٣٢)، ومسلم في الإمارة، باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أُمتي ظاهرين على الحق ...» برقم١٠٣٧: (٣/ ١٥٢٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٢١٢).

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ
حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾
يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ قال قتادة: ذُكر لنا أن النبي ﷺ قام على الصفا ليلًا، فجعل يدعو قريشًا فَخِذًا فَخِذًا، يا بني فلان، يا بني فلان، يحذِّرهم بأس الله ووقائعه، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا المجنون، بات يُصوِّت إلى الصباح، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم﴾(١) محمد ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ جنون ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما هو ﴿إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾ ثم حثَّهم على النظر المؤدي إلى العلم فقال:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ فيهما ﴿مِن شَيْءٍ﴾ أي: وينظروا إلى ما خلق الله من شيء ليستدلوا بها على وحدانيته ﴿وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: لعلَّ أن يكون قد اقترب أجلهم فيموتوا قبل أن يؤمنوا ويصيروا إلى العذاب ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ أي: بعد القرآن يؤمنون، يقول: بأي كتاب غير ما جاء به محمد ﷺ يصدِّقون، وليس بعده نبي ولا كتاب، ثم ذكر علة إعراضهم عن الإيمان فقال:

﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ﴾ قرأ أهل البصرة وعاصم بالياء ورفع الراء، وقرأ حمزة والكسائي بالياء وجزم الراء؛ لأن ذكر الله قد مرَّ قبله، وجزم الراء مردود على «يُضْلِلِ»، وقرأ الآخرون بالنون ورفع الراء على أنه كلام مستأنف ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ يترددون متحيرين.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ قال قتادة: قالت قريش لرسول الله ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة فأسرَّ إلينا متى الساعة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾(٢) يعني: القيامة ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: منتهاها، وقال قتادة: قيامها، وأصله: الثبات، أي: متى مثبتها؟ ﴿قُلْ﴾

---

(١) أخرجه الطبري في «التفسير»: (١٣/ ٢٨٩) بإسناد صحيح إلى قتادة. وكذلك ذكره الثعلبي فقال: (وقال قتادة: ذكر لنا...). انظر: «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي: (١/ ٤٧٥)، «الكافي الشاف»: ص٦٦.

(٢) أخرجه الطبري: (١٣/ ٢٩٢، ٢٩٨).

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾

يا محمد: ﴿إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ﴾ استأثر بعلمها ولا يعلمها إلا هو ﴿لَا يُجَلِّيهَا﴾ لا يكشفها ولا يظهرها، وقال مجاهد: لا يأتي بها ﴿لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يعني: ثقل علمها وخفي أمرها على أهل السموات والأرض، وكل خفي ثقيل، قال الحسن: يقول إذا جاء ثقلت وعظمت على أهل السموات والأرض ﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ﴾ فجاة على غفلة.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، حدثنا أحمد بن عبد الله النعيمي، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، حدثنا أبو الزناد، عن عبد الرحمن الأعرج، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لتقومنَّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومنَّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لَقحته فلا يطعمه، ولتقومنَّ الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومنَّ الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»[(١)].

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ﴾ أي: عالم بها، من قولهم: أحفيت في المسألة، أي: بالغت فيها، معناه: كأنك بالغت في السؤال عنها حتى علمتها ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧﴾ أن علمها عند الله حتى سألوا محمدًا ﷺ عنها.

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إن أهل مكة قالوا: يا محمد، ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو فنشتريه ونربح فيه عند الغلاء؟ وبالأرض التي يريد أن تجدب فنرتحل منها إلى ما قد أخصبت؟ فأنزل الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا﴾[(٢)] أي: لا أقدر لنفسي نفعًا، أي: اجتلاب نفع بأن أربح ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ أي: دفع ضرٍّ بأن أرتحل من أرض تريد أن تجدب ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أن أملكه.

﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ أي: لو كنت أعلم الخصب والجدب «لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ»، أي: من المال لسنة القحط «وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ»، أي: الضر والفقر والجوع.

وقال ابن جريج: «قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا»، يعني: الهدى والضلالة «وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ»، أي: متى أموت، «لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ»، يعني: من العمل الصالح «وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ».

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب حدثنا أبو اليمان: (١١/ ٣٥٢)، ومسلم في الفتن، باب قرب الساعة برقم٢٩٥٤: (٤/ ٢٢٧٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ٢٦ـ٢٧).

(٢) «أسباب النزول» للواحدي: ص٢٦٣.

﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾

قال ابن زيد: واجتنبت ما يكون من الشر واتقيته.

وقيل: معناه: ولو كنت أعلم الغيب، أي: متى الساعة لأخبرتكم حتى تؤمنوا، وما مسني السوء بتكذيبكم، وقيل: وما مسني السوء: ابتداء، يريد: وما مسني الجنون؛ لأنهم كانوا ينسبونه إلى الجنون.

﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ لمن لا يصدق بما جئت به ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بالجنة ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ يصدِّقون.

قوله تعالى: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يعني: آدم ﴿وَجَعَلَ﴾ وخلق ﴿مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني: حواء ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليأنس بها ويأوي إليها / ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي: واقعها وجامعها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ وهو أول ما تحمل المرأة من النطفة يكون خفيفًا عليها ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ أي: استمرت وقامت وقعدت به، لم يثقلها ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي: كبر الولد في بطنها، وصارت ذات ثقل بحملها، ودنت ولادتها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ يعني: آدم وحواء ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا﴾ يا ربنا ﴿صَٰلِحًا﴾ أي: بشرًا سويًّا مثلنا ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ قال المفسرون: فلما حملت حواء أتاها إبليس في صورة رجل، فقال لها: ما الذي في بطنك؟ قالت: ما أدري، قال: إني أخاف أن يكون بهيمة أو كلبًا أو خنزيرًا، وما يدريك من أين يخرج؟ من دبركِ فيقتلك، أو من قُبُلك[1] وينشق بطنك، فخافت حواء من ذلك، وذكرت ذلك لآدم عليه السلام فلم يَزَالاَ في همٍّ من ذلك، ثم عاد إليها فقال: إني من الله بمنزلة، فإن دعوتُ الله أن يجعله خلقًا سويًّا مثلَكِ ويسهِّل عليك خروجه تسمِّيه عبد الحارث؟ ـ وكان اسم إبليس في الملائكة: الحارث ـ فذكرت ذلك لآدم، فقال: لعلَّه صاحبنا الذي قد علمتِ، فعاودها إبليس، فلم يزل بهما حتى غرَّهما، فلما ولدت سمَّياه عبد الحارث[2]. ١٤٢/أ

---

(١) في «ب»: (فيك).

(٢) حديث ضعيف أخرجه الترمذي في تفسير سورة الأعراف: (٨/ ٤٦٠)، وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه، ورواه الإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ١١)، والطبراني في «الكبير» برقم: (٦٨٩٥)، والحاكم: (٢/ ٥٤٥)، والطبري: (١٣/ ٣٠٩)، وعمر بن إبراهيم: صدوق، في حديثه عن قتادة ضعف، قال أحمد: يروي عن قتادة أحاديث مناكير، وقال ابن عدي: يروي عن قتادة أشياء لا يوافق عليها، وحديثه خاصة عن قتادة مضطرب. «تهذيب التهذيب».

وساق الحافظ ابن كثير رواية ابن عباس: (٢/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧) دار المعرفة، وعزاه ـ أيضًا ـ لابن أبي حاتم في «تفسيره»، وكذا ابن مردويه، ثم قال: الحديث معلول من ثلاثة أوجه:

(أحدها): أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصري وقد وثقه ابن معين، ولكن قال أبو حاتم الرازي: لا يحتج به، ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعًا، فالله أعلم. =

. . . .

= (الثاني): أنه قد روي من قول سمرة نفسه، ليس مرفوعًا، كما قال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا المعتمر عن أبيه، حدثنا بكر بن عبد الله عن سليمان التيمي عن أبي العلاء بن الشخير عن سمرة بن جندب قال: سمى آدم ابنه عبد الحارث.

(الثالث): أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعًا لما عدل عنه.

قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا سهل بن يوسف عن عمر وعن الحسن ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾، قال: كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم.

وحدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا محمد بن نور عن معمر قال: قال الحسن: عنى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده يعني: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾.

وحدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال: كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادًا فهودوا ونصروا.

وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن ـ رضي الله عنه ـ أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظًا عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره ولاسيما مع تقواه لله وورعه فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب، من آمن منهم، مثل: كعب أو وهب بن منبه وغيرهما ـ كما سيأتي بيانه إن شاء الله ـ إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع، والله أعلم.

فأما الآثار: فقال محمد بن إسحاق بن يسار: عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولادًا فيعبّدهم لله، ويسميهم: عبد الله، وعبيد الله، ونحو ذلك، فيصيبهم الموت، فأتاهما إبليس فقال: إنكما لو سميتماه بغير الذي تسميانه به لعاش، قال: فولدت له رجلًا فسماه عبد الحارث ففيه أنزل الله يقول: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، إلى قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا . . .﴾ إلى آخر الآية.

وقال العوفي: عن ابن عباس قوله في آدم: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، إلى قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾، شكت أحملت أم لا؟ ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، فأتاهما الشيطان فقال: هل تدريان ما يُولَد لكما؟ أم هل تدريان ما يكون أبهيمة أم لا؟ وزين لهما الباطل إنه غوي مبين، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا، فقال لهما الشيطان: إنكما إن لم تسمياه بي لم يخرج سويًا ومات كما مات الأول، فسميا ولدهما عبد الحارث، فذلك قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا . . .﴾ الآية. وقال عبد الله بن أبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾، قال الله تعالى: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ آدم ﴿حَمَلَتْ﴾ فأتاهما إبليس ـ لعنه الله ـ فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتُطيعُاني أو لأجعلنّ له قرني أيل، فيخرج من بطنك فيشقه ولأفعلن ولأفعلن، يخوِّفهما، فسمياه عبد الحارث، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتًا ثم حملت الثانية فأتاهما أيضًا فقال: أنا صاحبكما الذي فعلت ما فعلت، لتفعلن أو لأفعلن ـ يخوفهما ـ فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتًا، ثم حملت الثالث فأتاهما أيضًا فذكر لهما فأدركهما حب الولد فسمياه عبد الحارث فذلك قوله تعالى: جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا رواه ابن أبي حاتم.

وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه كمجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة، ومن الطبقة الثانية: قتادة والسدي وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف، ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرةً، وكأنه والله أعلم أصله مأخوذ من أهل الكتاب، فإن ابن عباس رواه عن أُبي بن كعب كما رواه ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا أبو الجماهر حدثنا سعيد ـ يعني: ابن بشير ـ عن عقبة عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس عن أُبي بن كعب قال: لما حملت حواء أتاها الشيطان فقال لها: أتطيعيني ويسلم لك ولدك، سميه عبد الحارث فلم تفعل فولدت فمات، ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل، ثم حملت الثالثة فجاءها فقال: إن تطيعي يسلم وإلا فإنه يكون بهيمة فهيبهما فأطاعا.

وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم».

ثم أخبارهم على ثلاثة أقسام: فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله، ومنها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه=

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾

قال الكلبي: قال إبليس لها: إن دعوتُ اللهَ فولدتِ إنسانًا أتسمِّيه بي؟ قالت: نعم، فلما ولدت قال: سميه بي، قالت: وما اسمك؟ قال: الحارث، ولو سمى لها نفسه لعرفته فسمته عبد الحارث.

ورُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كانت حواء تلد لآدم فيسميه عبد الله، وعبيد الله، وعبد الرحمن، فيصيبهم الموت، فأتاهما إبليس وقال: إن سرَّكما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث، فولدت فسمياه عبد الحارث فعاش، وجاء في الحديث: «خَدَعَهُما إبليس مرتين: مرة في الجنة ومرة في الأرض»[(١)].

وقال ابن زيد: وُلد لآدم ولد فسماه عبد الله فأتاهما إبليس فقال لهما: ما سميتما ابنكما؟ قالا: عبد الله ـ وكان قد وُلد لهما قبل ذلك ولد فسمياه عبد الله فمات ـ فقال إبليس: أتظنان أن الله تارك عبده عندكما، لا والله ليذهبن به كما ذهب بالآخر، ولكن أدلكم على اسم يبقى لكما ما بقيتما، فسمَّياه عبد شمس. والأول أصح، فذلك قوله:

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ بشرًا سويًا ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ قرأ أهل المدينة وأبو بكر: «شِرْكًا» بكسر الشين والتنوين، أي: شركة، قال أبو عبيدة: أي حظًّا ونصيبًا، وقرأ الآخرون: «شُرَكَآءَ» بضم الشين ممدودًا على جمع شريك، يعني: إبليس، أخبر عن الواحد بلفظ الجمع، أي: جعلا له شريكًا؛ إذ سمّياه عبد الحارث، ولم يكن هذا إشراكًا في العبادة ولا أن الحارث ربُّهما، فإن آدم كان نبيًّا معصومًا من الشرك، ولكن قصد إلى أن الحارث كان سبب نجاة الولد وسلامة أمه، وقد يطلق اسم العبد على من لا يراد به أنه مملوك، كما يطلق اسم الرب على من لا يراد به أنه معبود هذا، كالرجل إذا نزل به ضيف يسمى نفسه عبد الضيف، على وجه الخضوع لا على أن الضيف ربه، ويقول للغير: أنا عبدك، وقال يوسف لعزيز مصر: إنه ربي، ولم يرد به أنه معبوده، كذلك هذا.

= من الكتاب والسنة أيضًا، ومنها ما هو مسكوت عنه، فهو المأذون في روايته بقوله ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» وهو الذي لا يصدق ولا يكذب؛ لقوله: «فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم»، وهذا الأثر هو من القسم الثاني أو الثالث فيه نظر، فأما من حدث به من صحابي أو تابعي فإنه يراه من القسم الثالث، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، ولهذا قال الله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ثم قال: فذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس.

وانظر: «تفسير الفخر الرازي»: (١٥/ ٩٠ ـ ٩٣)، «الإسرائيليات والموضوعات» للشيخ محمد أبي شهبة: ص٢٩٢ ـ ٣٠١، «المنهج السديد في تخريج أحاديث تيسير العزيز الحميد»: ص٢٣٦.

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل»: (٦/ ٢٢٤٦)، وهو ضعيف من الإسرائيليات. انظر: «تفسير القرطبي»: (٧/ ٣٣٨).

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾

وقوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ قيل: هذا ابتداء كلام وأراد به إشراك أهل مكة، ولئن أراد به ما سبق فمستقيم من حيث إنه كان الأولى بهما أن لا يفعلا ما أتيا به من الإشراك في الاسم.

وفي الآية قول آخر: وهو أنه راجع إلى جميع المشركين من ذرية آدم، وهو قول الحسن وعكرمة، ومعناه: جَعَلَ أولادهما شركاء، فحذف الأولاد وأقامهما مقامهم، كما أضاف فعل الآباء إلى الأبناء في تعييرهم بفعل الآباء، فقال: «ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ»[البقرة: ٩٢]، «وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا»[البقرة: ٧٢] خاطب به اليهود الذين كانوا في عهد النبي ﷺ، وكان ذلك الفعل من آبائهم.

وقيل: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولادًا فهوَّدُوا ونصَّروا.

وقال ابن كيسان: هم الكفار سمّوا أولادهم عبد العزيز وعبد اللات وعبد مناة ونحوه.

وقال عكرمة: خاطب كل واحد من الخلق بقوله: «خلقكم»، أي: خلق كل واحد من أبيه وجعل منها زوجها، أي: جعل من جنسها زوجها، وهذا قول حَسَنٌ، لولا قول السلف مثل عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ومجاهد وسعيد بن المسيب وجماعة من المفسرين أنه في آدم وحواء.

قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ يعني: إبليس والأصنام ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ أي: هم مخلوقون.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أي: الأصنام لا تنصر مَنْ أطاعها ﴿وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ قال الحسن: لا يدفعون عن أنفسهم مكروه مَنْ أراد بهم بكسر أو نحوه، ثم خاطب المؤمنين فقال:

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ﴾ وإن تدعوا المشركين إلى الإسلام ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ قرأ نافع بالتخفيف، وكذلك: «وَالشُّعَرَاءُ يَتْبَعُهُمُ الْغَاوُونَ» في الشعراء: الآية ٢٢٤، وقرأ الآخرون بالتشديد فيهما، وهما لغتان يقال: تبعه تبعًا وأتبعه إتباعًا ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾. إلى الدين ﴿أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾ عن دعائهم لا يؤمنون، كما قال: «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ»[البقرة: ٦]، وقيل: «وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ»، يعني: الأصنام، «لَا يَتَّبِعُوكُمْ»؛ لأنها غير عاقلة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ يعني: الأصنام ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ يريد: أنها مملوكة أمثالكم، وقيل: أمثالكم في التسخير، أي: أنهم مُسَخَّرون مذلَّلون لِمَا أُريد منهم، قال مقاتل: قوله: «عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ»

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ اللَّهُ الَّذِى نَزَّلَ الْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾

أراد به الملائكة، والخطاب مع قوم كانوا يعبدون الملائكة. والأول أصح.

﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ أنها آلهة، قال ابن عباس: فاعبدوهم، هل يثيبونكم أو يجازونكم إن كنتم صادقين أن لكم عندها منفعة؟ ثم بيّن عجزهم فقال:

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾ قرأ أبو جعفر بضم الطاء هنا وفي القصص والدخان، وقرأ الآخرون بكسر الطاء ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أراد أن قدرة المخلوقين تكون بهذه الجوارح والآلات، وليست للأصنام هذه الآلات، فأنتم مفضَّلون عليهم بالأرجل الماشية والأيدي الباطشة والأعين الباصرة والآذان السامعة، فكيف تعبدون مَنْ أنتم أفضل وأقدر منهم؟ ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَآءَكُمْ﴾ يا معشر المشركين ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ أنتم وهم ﴿فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ أي: لا تمهلوني واعجلوا في كيدي.

قوله: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ اللَّهُ الَّذِى نَزَّلَ الْكِتَٰبَ﴾ يعني: القرآن، أي: أنه يتولاّني وينصرني كما أيّدني بإنزال الكتاب ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد الذين لا يعدلون بالله شيئًا، فالله يتولاهم بنصره فلا يضرهم عداوة من عاداهم. / ١٤٢/ب

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا﴾ يعني: الأصنام ﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾ يا محمد ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ يعني: الأصنام ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ وليس المراد من النظر حقيقة النظر، إنما المراد منه: المقابلة، تقول العرب: داري تنظر إلى دارك، أي: تقابلها، وقيل: وتراهم ينظرون إليك، أي: كأنهم ينظرون إليك، كقوله تعالى: «وَتَرَى النَّاسَ سُكَٰرَىٰ»[الحج: ٢]، أي: كأنهم سُكارى، هذا قول أكثر[(١)] المفسرين، وقال الحسن: «وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ»، يعني: المشركين «لَا يَسْمَعُوا» ولا يفعلون ذلك بقلوبهم، وتراهم ينظرون إليك بأعينهم وهم لا يبصرون بقلوبهم.

---

(١) ساقط من «ب».

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾

قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ قال عبد الله بن الزبير: أمر الله نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس، وقال مجاهد: «خُذِ ٱلۡعَفۡوَ»، يعني: العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس، وذلك مثل قبول الاعتذار والعفو والمساهلة وترك البحث عن الأشياء ونحو ذلك.

ورُوي أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما هذا؟ قال: لا أدري حتى أسأله، ثم رجع فقال: إنَّ ربَّك يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك»(١).

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ والسدي والضحاك والكلبي: يعني: خُذْ ما عفا لك من الأموال وهو الفضل عن العيال، وذلك معنى قوله: «وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ»[البقرة: ٢١٩]، ثم نسخت هذه بالصدقات المفروضات. قوله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ أي: بالمعروف، وهو كل ما يعرفه الشرع، وقال عطاء: وأمُرْ بالعُرف، يعني: بلا إله إلا الله ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ أبي جهل وأصحابه، نسختها آية السيف، وقيل: إذا تسفه عليك الجاهل فلا تقابله بالسفه، وذلك مثل قوله: «وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا»[الفرقان: ٦٣]، وذلك سلام المُتاركة، قال جعفر الصادق: أمر الله نبيَّه ﷺ بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية.

أخبرنا عبد الله بن عبد الصمد الجرجاني(٢)، ثنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي، ثنا الهيثم بن كليب، ثنا أبو عيسى الترمذي، ثنا محمد بن بشار، ثنا محمد بن جعفر، ثنا شعبة، عن أبي إسحاق، عن أبي عبد الله الجدلي، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا ولا سَخَّابًا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح»(٣).

ثنا أبو الفضل زياد بن محمد الحنفي، ثنا أبو سعيد عبد الملك بن أبي عثمان الواعظ، ثنا عماد بن محمد البغدادي، ثنا أحمد بن محمد، عن سعيد الحافظ، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا عمر بن إبراهيم يعني:

---

(١) أخرجه الطبري من طريق سفيان بن عيينة عن أبي المرادي: (١٣/ ٣٠٣)، وعبد الرزاق في «التفسير»: (١/ ٢٤٦)، قال ابن حجر في «الكافي الشاف» ص٦٦: (هذا منقطع، وأخرجه ابن مردويه موصولاً من حديث جابر وحديث قيس بن سعد، وزاد في أوله: لما نظر رسول الله ﷺ إلى حمزة قال: والله لأمثِّلنَّ بسبعين منهم ـ فجاء جبريل بهذه الآية، فذكر الحديث).
وانظر: «تخريج أحاديث الكشاف»: (١/ ٤٧٧)، «جامع الأصول» لابن الأثير: (٢/ ١٤٣ ـ ١٤٤) مع حاشية المحقق.

(٢) في «أ»: (الجوزجاني).

(٣) أخرجه الترمذي في البر، باب ما جاء في خُلُق النبي ﷺ: (٦/ ١٥٧ ـ ١٥٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه ـ أيضًا ـ في كتابه المفرد «الشمائل المحمدية»: ص٢٠٠ بشرح الباجوري، والإمام أحمد في «المسند»: (٦/ ٢٣٦) وإسناده صحيح، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٢٣٧).

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ
يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

الكوفي، ثنا يوسف بن محمد بن المنكدر، عن أبيه، عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله بعثني لتمام مكارم الأخلاق وتمام محاسن الأفعال»[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ أي: يصيبك ويعتريك ويعرض لك من الشيطان نزغ نخسة، والنزغ من الشيطان: الوسوسة، وقال الزَّجَّاج: النزغ أدنى حركة تكون من الآدمي، ومن الشيطان أدنى وسوسة، وقال عبد الرحمن بن زيد: لما نزلت هذه الآية: «خُذِ ٱلْعَفْوَ»، قال النبي ﷺ: «كيف يا رب والغضب»؟ فنزل: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾[2]، أي: استجز بالله ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ يعني: المؤمنين ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ قرأ ابن كثير وأهل البصرة والكسائي: «طيف»، وقرأ الآخرون «طَٰٓئِفٌ» بالمد والهمز، وهما لغتان كالميت والمائت، ومعناهما: الشيء يُلِمُّ بك، وفرَّق قوم بينهما، فقال أبو عمرو: الطائف: ما يطوف حول الشيء، والطيف: اللمَّة والوسوسة، وقيل: الطائف: ما طاف به من وسوسة الشيطان، والطيف: اللمم والمسّ ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾ عرفوا، قال سعيد بن جبير: هو الرجل يغضب الغضبة فيذكر الله تعالى فيكظم الغيظ، وقال مجاهد: هو الرجل يهمّ بالذنب فيذكر الله فيدعه ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ أي: يبصرون مواقع خطاياهم بالتذكر والتفكر، قال السدي: إذا زلّوا تابوا، وقال مقاتل: إن المتقي إذا أصابه نزغ من الشيطان تذكر وعرف أنه معصية، فأبصر فنزع عن مخالفة الله.

قوله: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ﴾ يعني: إخوان الشياطين من المشركين يمدونهم، أي: يمدهم الشيطان، قال الكلبي: لكل كافر أخٌ من الشياطين ﴿فِى ٱلْغَىِّ﴾ أي: يطلبون هم الإغواء حتى يستمروا عليه، وقيل: يزيدونهم في الضلالة، وقرأ أهل المدينة: «يُمِدُّونَهم» بضم الياء وكسر الميم، من الإمداد، والآخرون: بفتح الياء وضم الميم وهما لغتان بمعنى واحد ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ أي: لا يكفُّون، قال ابن عباس

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط»: برقم (٦٨٩١)، وفيه عمر بن إبراهيم القرشي، وهو ضعيف. انظر: «مجمع الزوائد»: (٨/ ١٨٨). ورواه البغوي في «مصابيح السنة»: (٤/ ٤١)، وهو في «مشكاة المصابيح» برقم: (٥٧٧٠)، و«شرح السنة»: (١٣/ ٢٠٢).

(٢) انظر: «تفسير الطبري»: (١٣/ ٣٣٣).

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾

ـ رضي الله عنهما ـ: لا الإنس يقصرون عمَّا يعملون من السيئات، ولا الشياطين يمسكون عنهم، فعلى هذا قوله: «ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ» من فعل المشركين والشياطين جميعًا، قال الضحاك ومقاتل: يعني: المشركين لا يُقْصِرون عن الضلالة ولا يُبصرونها، بخلاف ما قال في المؤمنين: «تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ».

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ يعني: إذا لم تأت المشركين بآية ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ هلَّا افتعلتها وأنشأتها مِنْ قِبَلِ نفسك واختيارك؟ تقول العرب: اجتبيتُ الكلام إذا اختلقتُه، قال الكلبي: كان أهل مكة يسألون النبي ﷺ الآيات تعنُّتًا، فإذا تأخرت اتهموه وقالوا: لولا اجتبيتها؟ أي: هلَّا أحْدَثْتَها وأنشأتها من عندك؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ ثم قال: ﴿هَٰذَا﴾ يعني: القرآن ﴿بَصَائِرُ﴾ حجج وبيان وبرهان ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ واحدتها بصيرة، وأصلها: ظهور الشيء واستحكامه حتى يبصره الإنسان، فيهتدي به يقول: هذا دلائل تقودكم إلى الحق ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ اختلفوا في سبب
١/١٤٣ نزول هذه الآية، فذهب جماعة إلى أنها في القراءة في الصلاة، رُوي عن أبي هريرة: كانوا يتكلمون / في الصلاة بحوائجهم، فأُمروا بالسكوت والاستماع إلى قراءة القرآن[١]، وقال قوم: نزلت في ترك الجهر بالقراءة خلف الإمام[٢].

وروي عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي هريرة قال: نزلت هذه الآية في رفع الأصوات وهم خلف رسول الله ﷺ في الصلاة[٣].

وقال الكلبي: كانوا يرفعون أصواتهم في الصلاة حين يسمعون ذكر الجنة والنار[٤].

---

(١) انظر: «تفسير الطبري»: (١٣/ ٣٤٥، ٣٤٩) وفيه: إبراهيم بن مسلم الهجري وهو ضعيف، و«سنن البيهقي»: (٢/ ١٥٥)، «أسباب النزول» للواحدي: ص٢٦٤، وعزاه السيوطي في «الدر»: (٣/ ٦٣٦) لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ، وابن مردويه، وابن أبي شيبة.

(٢) جاء في ذلك آثار عديدة، انظرها في: «الدر المنثور»: (٣/ ٦٣٥)، «أسباب النزول» للواحدي: ص٢٦٤.

(٣) رواه الدارقطني في «السنن»: (١/ ٣٢٦)، وقال: فيه عبد الله بن عامر: ضعيف. وانظر: «نصب الراية» للزيلعي: (٢/ ١٤)، «إمام الكلام فيما يتعلق بالقراءة خلف الإمام» لأبي الحسنات اللكنوي: ص١٢٥ ـ ١٢٨.

(٤) أخرجه عبد الرزاق وابن المنذر عن الكلبي.

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع ناسًا يقرؤون مع الإمام فلما انصرف قال: أمَا آن لكم أن تفقهوا ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾ كما أمركم الله[١]؟ وهذا قول الحسن والزهري والنخعي: أن الآية في القراءة في الصلاة.

وقال سعيد بن جبير وعطاء ومجاهد: إن الآية في الخطبة، أُمروا بالإنصات لخطبة الإمام يوم الجمعة[٢].

وقال سعيد بن جبير: هذا في الإنصات يوم الأضحى والفطر ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام[٣].

وقال عمر بن عبد العزيز: يجب[٤] الإنصات لقول كلِّ واعظ.

والأول أولاها، وهو أنها في القراءة في الصلاة؛ لأن الآية مكيّة والجمعة وجبت بالمدينة[٥]. واتفقوا على أنه مأمور بالإنصات حالة ما يخطب الإمام.

أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب، ثنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، ثنا أبو العباس الأصم، ثنا الربيع، ثنا الشافعي، ثنا مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قُلْتَ لصاحِبِكَ أَنْصِتْ والإمامُ يخطبُ يوم الجمعة فقد لغوت»[٦].

واختلف أهل العلم في القراءة خلف الإمام في الصلاة، فذهب جماعة إلى إيجابها سواء جهر الإمام بالقراءة أو أسرَّ، رُوي ذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن عباس ومعاذ، وهو قول الأوزاعي والشافعي.

---

(١) أخرجه الطبري: (١٣/ ٣٤٦)، وعزاه السيوطي لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ عن ابن مسعود. انظر: «الدر المنثور»: (١٣/ ٦٣٥).

(٢) انظر: الطبري: (١٣/ ٣٥٢)، «الدر المنثور»: (٣/ ٦٣٧)، «أسباب النزول»: ص٢٦٤، وقال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٦/ ١٩٦): (وأما قول من قال إنها نزلت في الخطبة، فضعيف؛ لأن الآية مكية، والخطبة لم تكن إلا بعد هجرة النبي ﷺ من مكة. وكذلك ما ذكره الزهراوي، من أنها نزلت بسبب فتى من الأنصار كان يقرأ في الصلاة والنبي ﷺ يقرأ في الصلاة. وانظر: «القراءة خلف الإمام» للبيهقي.

(٣) أخرجه أبو الشيخ ـ كما في «الدر المنثور». وانظر: «إمام الكلام» للكنوي: ص١٢٨.

(٤) ساقط من «ب».

(٥) وهذا الذي رجحه شيخ المفسرين الطبريُّ رحمه الله، حيث قال في «التفسير» (١٣/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣): (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: أُمروا باستماع القرآن في الصلاة إذا قرأ الإمام، وكان مَنْ خلفه ممن يأتمُّ به يسمعه، وفي الخطبة.
وإنما قلنا: ذلك أولى بالصواب؛ لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وإذا قرأ فأنصتوا»، وإجماع الجميع على أن على من سمع خطبة الإمام ممن عليه الجمع: الاستماع والإنصات لها، مع تتابع الأخبار بالأمر بذلك عن رسول الله ﷺ، وأنه لا وقت يجب على أحد استماع القرآن والإنصات لسامعه من قارئه، إلا من هاتين الحالتين، على اختلاف في إحداهما، وهي حالة أن يكون خلف إمام مؤتمّ به، وقد صح الخبر عن رسول الله ﷺ بما ذكرنا من قوله: «إذا قرأ الإمام فأنصتوا» فالإنصات خلفه لقراءته واجب على مَنْ كان به مؤتمًا سامعًا قراءته، بعموم ظاهر القرآن والخبر عن رسول الله ﷺ).
وانظر بحثًا نفيسًا في هذا لأبي الحسنات اللكنوي في كتابه «إمام الكلام فيما يتعلق بالقراءة خلف الإمام»: ص١٣٠، وما بعدها، تحقيق د. عثمان ضميرية.

(٦) أخرجه البخاري في الجمعة، باب الإنصات والإمام يخطب: (٢/ ٤١٤)، ومسلم في الكتاب والباب نفسه برقم ٨٥١: (٢/ ٥٨٣)، والمصنف في «شرح السنة»: (٤/ ٥٨٣).

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾

وذهب قوم إلى أنه يقرأ فيما أسر الإمام فيه بالقراءة ولا يقرأ إذا جهر، يُروى ذلك عن ابن عمر، وهو قول عروة بن الزبير والقاسم بن محمد، وبه قال الزهري ومالك وابن المبارك وأحمد وإسحاق.

وذهب قوم إلى أنه لا يقرأ سواء أسر الإمام أو جهر، يُروى ذلك عن جابر، وبه قال الثوري وأصحاب الرأي[1]، ويتمسك من لا يرى القراءة خلف الإمام بظاهر هذه الآية.

ومن أوجبها قال الآية في غير الفاتحة، وإذا قرأ الفاتحة يتبع سكتات الإمام ولا ينازع الإمام في القراءة.

والدليل عليه: ما أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي، ثنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي، ثنا أبو العباس المحبوبي، ثنا أبو عيسى الترمذي، ثنا هناد، ثنا عبدة بن سليمان، عن محمد بن إسحاق، عن مكحول، عن محمود بن الربيع، عن عبادة بن الصمت ـ رضي الله عنه ـ قال: صلى النبيُّ ﷺ الصبح فثقلت عليه القراءة، فلما انصرف قال: «إنِّي أراكم تقرؤون وراءَ إمامكم» قال: قلنا: يا رسول الله، إي والله، قال: «لا تفعلوا إلاَّ بأمِّ القرآن، فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها»[2].

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ قال ابن عباس: يعني بالذكر: القراءةَ في الصلاة، يريد: يقرأ سِرًّا في نفسه ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ خوفًا، أي: تتضرع إليَّ وتخاف مني هذا في صلاة السِّرِّ، وقوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أراد: في صلاة الجهر جهرًا شديدًا، بل في خفض وسكون، يسمعُ مَنْ خلفك، وقال مجاهد وابن جريج: أمر أن يذكروه في الصدور بالتضرع إليه في الدعاء والاستكانة دون رفع الصوت والصياح بالدعاء ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ أي: بالبُكَرِ والعَشِيَّات، واحد آصال: أصيل، مثل: يمين وأيمان، وهو ما بين العصر والمغرب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني: الملائكة المقربين بالفضل والكرامة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لا يتكبرون ﴿عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ وينزهونه ويذكرونه، فيقولون: سبحان الله ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

---

(١) انظر هذه الآراء مع أدلتها في: «التمهيد» لابن عبد البر: (١١/ ٢٢ ـ ٥٦)، «الاستذكار»: (٢/ ١٦٦ ـ ١٩٣)، «إمام الكلام» للكنوي: ص٧١ وما بعدها، فقد جمع فيه الأقوال مع الأدلة وناقشها بتجرد، ورجح ما يساعد عليه الدليل.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب من ترك القراءة في صلاته: (١/ ٣٩٠)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في القراءة خلف الإمام: (٢/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧)، وقال: حديث عبادة حديث حسن، والدارقطني: (١/ ٣١٨)، وقال: إسناده حسن، وصححه الحاكم: (١/ ٣١٨)، وابن حبان: ص١٢٧ من «موارد الظمآن»، وأخرجه البخاري في جزء القراءة خلف الإمام، والبيهقي أيضًا في القراءة، وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (٣/ ٨٢).

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أنبأنا أحمد بن الحسن الحيري، أنبأنا حاجب بن أحمد الطوسي، ثنا عبد الرحيم بن منيب، ثنا يعلى بن عبيد، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابنُ آدمَ السَّجدة فسجدَ اعتزلَ الشيطانُ يبكي، فيقول: يا ويله، أُمرَ هذا بالسجود فسجدَ فَلَهُ الجنَّةُ، وأُمرتُ بالسجود فعصيت فليَ النار»[١].

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، ثنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، حدثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا محمد بن يوسف، ثنا الأوزاعي، عن الوليد بن هشام، عن معدان قال: سألتُ ثوبان مولى رسول الله ﷺ، قلت: حدِّثني حديثًا ينفعني الله به، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ عَبْدٍ يسجدُ لله سجدةً إلاَّ رفعه الله بها درجة وحطَّ عنه بها سيئةً»[٢].

* * *

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر من ترك الصلاة برقم٨١: (١/ ٨٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (٣/ ١٤٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه في الإقامة، باب ما جاء في كثرة السجود برقم١٤٢٣: (١/ ٤٥٧)، والإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ٢٧٦، ٢٨٠)، وأخرجه مسلم في الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه برقم٤٨٨، بلفظ: «عليك بكثرة السجود لله فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك . . .».

سورة الأنفال

مدنية، وهي خمس وسبعون آية، قيل: إلا سبع آيات من قوله: «وإذ يمكر بك الذين كفروا» إلى آخر سبع آيات، فإنها نزلت بمكة، والأصح أنها نزلت بالمدينة، وإن كانت الواقعة بمكة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ...﴾ الآية، قال أهل التفسير: سبب نزول هذه الآية هو أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «مَنْ أتى مكان كذا فله من النَّفَل كذا، ومَنْ قتلَ قتيلًا فله كذا، ومَنْ أسر أسيرًا فله كذا»، فلما التقوا تسارع إليه الشبان وأقام الشيوخ ووجوه الناس عند الرايات، فلما فتح الله على المسلمين جاؤوا يطلبون ما جعل لهم النبي ﷺ، فقال الأشياخ: كنَّا رِدءًا لكم ولو انهزمتم لانحزتم إلينا، فلا تذهبوا بالغنائم دوننا، وقام أبو اليَسَر بن عمرو الأنصاري أخو بني سلمة فقال: يا رسول الله، وعدت من قتل قتيلًا فله كذا، ومن أسر أسيرًا فله كذا، وإنا قد قتلنا منهم سبعين وأسرنا منهم سبعين، فقام سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ فقال: والله يا رسول الله، ما منعنا أن نطلب ما طلب هؤلاء زهادةٌ في الأجر ولا جبن عن العدو، ولكن
كرهنا أن نعري مصافك فيعطف عليه[1] خيل من المشركين / فيصيبوك، فأعرض عنهما رسول الله ﷺ، ١٤٣/ب
وقال سعيد: يا رسول الله، إن الناس كثير والغنيمة دون ذلك، فإن تعط هؤلاء الذين[2] ذكرت لا يبقى لأصحابك كبير شيء، فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾[3].

---

(١) في «ب»: (فتعطف علينا).

(٢) في «ب»: (الذي).

(٣) جاء هذا السبب في نزول الآية، في جملة أحاديث جمع بينها المصنف رحمه الله، وهي عند الطبري من طرق، بسند صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما. انظر: «تفسير الطبري»: (١٣/ ٣٦٧ ـ ٣٦٩)، «المستدرك»: (٢/ ٣٢٦ ـ ٣٢٧)، «السنن الكبرى» للبيهقي: (٦/ ٣١٥). وانظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٦)، «تفسير ابن كثير»: (٢/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤)، «الفتح السماوي» للمناوي: (٢/ ٦٤٤ ـ ٦٤٥).

وقال ابن إسحاق: أمر رسول الله ﷺ بما في العسكر فجمع فاختلف المسلمون فيه، فقال مَنْ جمعه: هو لنا، قد كان رسول الله ﷺ نَفَّل كلَّ امرىءٍ ما أصاب، وقال الذين كانوا يقاتلون العدو: لولا نحن ما أصبتموه، وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله ﷺ: لقد رأينا أن نقتل العدو وأن نأخذ المتاع ولكنَّا خفنا على رسول الله ﷺ كرَّة العدوة، وقمنا دونه فما أنتم بأحق به منَّا[1].

وروى مكحول عن أبي أُمامة الباهليّ قال: سألت عُبادة بنَ الصامتِ عن الأنفال، قال: فينا مَعْشَرَ أصحاب بدر نزلتْ، حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، فجعله إلى رسول الله ﷺ، فقسمه رسولُ الله بيننا عن بواء ـ يقول: على السواء ـ وكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وصلاح ذات البين[2].

وقال سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ: لما كان يوم بدر قُتِل أخي عُمَيْر، وقتلتُ سعيد بن العاص ابن أمية، وأخذت سيفه، وكان يسمى ذا الكثيفة، فأعجبني فجئت به إلى النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إنَّ الله قد شفى صدري من المشركين فهبْ لي هذا السيف؟ فقال: ليس هذا لي ولا لك، اذهب فاطرحه في القَبَض، فطرحته ورجعت، وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلاحي، وقلت: عسى أن يعطى هذا السيف من لم يَبْلُ بلائي، فما جاوزت إلا قليلًا حتى جاءني الرسول، وقد أنزل الله عزَّ وجلَّ: «يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ. . .» الآية، فخفت أن يكون قد نزل فيَّ شيء، فلما انتهيت إلى رسول الله ﷺ قال: «يا سعد، إنك سألتني السيف وليس لي، وإنه قد صار لي الآن فاذهبْ فخذْه فهو لك»[3].

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كانت المغانم لرسول الله ﷺ خاصة ليس لأحد فيها شيء، وما أصاب سرايا المسلمين من شيءٍ أتوه به، فمن حبس منه إبرةً أو سِلْكًا فهو غلول[4].

قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ﴾ أي: عن حكم الأنفال وعلمها، وهو سؤال استخبار لا سؤال طلب، وقيل: هو سؤال طلب ـ قاله الضحاك وعكرمة، وقوله: «عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ»، أي: من الأنفال، «عن» بمعنى

---

(١) «سيرة ابن هشام»: (١/ ٦٤١ ـ ٦٤٢) طبع الحلبي.

(٢) انظر: «تفسير الطبري»: (١٣/ ٣٧٠ ـ ٣٧١)، و«المستدرك»: (٢/ ٣٢٦)، والبيهقي: (٦/ ٢٩٢)، «المسند» للإمام أحمد: (٥/ ٣٢٢)، «سيرة ابن هشام»: (١/ ٦٤٢)، وقال الهيثمي ـ بعدما عزاه للإمام أحمد ـ: (ورجال الطريقين ثقات). وانظر تعليق الشيخ محمود شاكر على «تفسير الطبري» في الموضع السابق، وابن كثير: (٢/ ٢٨٤).

(٣) الطبري: (١٣/ ٣٧٣) من طرق عدة، وأخرجه مسلم مختصرًا في الجهاد، باب الأنفال برقم١٧٤٨، وبأتمّ منه في فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص برقم١٧٤٨: (٤/ ١٨٧٧).
والقَبَضُ ـ بالتحريك ـ بمعنى المقبوض: وهو ما جمع من الغنيمة قبل أن تُقْسم.

(٤) الطبري: (١٣/ ٣٧٨)، والبيهقي: (٦/ ٢٩٣) مطولاً، وعزاه السيوطي ـ أيضًا ـ لابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه: «الدر المنثور»: (٤/ ٨)، وعلي بن أبي طلحة لم يلق ابن عباس، لكنه إنما حمل عن ثقات أصحابه، فلذلك حكم العلماء على هذه الطريق بالصحة. انظر: «العجاب في بيان الأسباب» لابن حجر: (١/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧).

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾

«من»، وقيل: «عن» صلة، أي: يسألونك الأنفال، وهكذا قراءة ابن مسعود بحذف «عن»، والأنفال: الغنائم، واحدها: نَفَل، وأصله: الزيادة، يقال: نفلتك وأنفلتك، أي: زدتك سُمِّيت الغنائم أنفالاً؛ لأنها زيادة من الله تعالى لهذه الأمة على الخصوص.

وأكثر المفسرين على أن الآية في غنائم بدر، وقال عطاء: هي ما شذَّ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال، من عبد أو أمة ومتاع فهو للنبي ﷺ يصنع به ما شاء.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ يقسمها كما شاء[(١)]، واختلفوا فيه، فقال مجاهد وعكرمة والسُّدي: هذه الآية منسوخة بقوله عزَّ وجلَّ: «﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾...» الآية[الأنفال: ٤١]، كانت الغنائم يومئذ للنبي ﷺ فنسخها الله عزَّ وجلَّ بالخُمس[(٢)].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هي ثابتة غير منسوخة، ومعنى الآية: قل: الأنفال لله مع الدنيا والآخرة، وللرسول يضعها حيث أمره الله تعالى، أي: الحكم فيها لله ولرسوله، وقد بيَّن الله مصارفها في قوله عزَّ وجلَّ: «﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾...» الآية[(٣)].

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: اتقوا الله بطاعته، وأصلحوا الحال بينكم بترك المنازعة والمخالفة، وتسليم أمر الغنيمة إلى الله والرسول ﷺ ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يقول: ليس المؤمن الذي يخالف الله ورسوله، إنما المؤمنون الصادقون في إيمانهم ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ خافت وفَرَقَتْ قلوبهم، وقيل: إذا خُوِّفوا بالله انقادوا خوفًا من عقابه ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ تصديقًا ويقينًا، وقال عمير بن حبيب ـ وكانت له صحبة ـ:

---

(١) في «ب»: (يقسمانها كما شاءا).

(٢) انظر: «الناسخ والمنسوخ» لأبي القاسم هبة بن سلامة: ص٤٨ـ٤٩، وهو مروي عن مجاهد وعكرمة. انظر: الطبري: (١٣/ ٣٨٠ـ٣٨١).

(٣) أخرجه الطبري: (١٣/ ٣٨١)، ورجح أنها محكمة غير منسوخة فقال: (والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله جل ثناؤه أخبر أنه جعل الأنفال لنبيه ﷺ، ينفِّل من شاء، فنفَّل القاتل السَّلَبَ وجعل للجيش في البدأةِ (ابتداء سفر الغزو) الربع، وفي الرجعةِ الثلث بعد الخمس. ونفَّل قومًا بعد سُهْمَانهم بعيرًا بعيرًا في بعض المغازي. فجعل الله تعالى ذكره حُكْمَ الأنفال إلى نبيه ﷺ، ينفِّل على ما يرى مما فيه صلاح المسلمين، وعلى مَنْ بعده من الأئمة أن يستُّوا بسنته في ذلك.

وليس في الآية دليل على أن حكمها منسوخ؛ لاحتمالها ما ذكرتُ من المعنى الذي وصفتُ. وغير جائز أن يحكم بحكم قد نزل به القرآن أنه منسوخ إلا بحجة يجب التسليم لها، فقد دللنا في غير موضع من كتبنا أن لا منسوخ إلا ما أبطل حكمه حادثُ حكمٍ بخلافه، ينفيه من كل معانيه، أو يأتي خبرٌ يوجب الحجة أن أحدهما ناسخٌ الآخر).

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾

إن للإيمان زيادةً ونقصانًا، قيل: فما زيادته؟ قال: إذا ذكرنا الله عزَّ وجلَّ وحمدناه فذلك زيادته، وإذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن علي: إن للإيمان فرائضَ وشرائط وشرائع وحدودًا وسُننًا فمن استكملها استكمل الإيمان، ومَنْ لم يستكملها لم يستكملِ الإيمان ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ أي: يُفوِّضون إليه أمورهم ويثقون به ولا يرجون غيره ولا يخافون سواه.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ﴾ يعني: يقينًا، قال ابن عباس: بَرِئوا من الكفر، قال مقاتل: «حقًّا» لا شك في إيمانهم، وفيه دليل على أنه ليس لكل أحد أن يصف نفسه بكونه مؤمنًا حقًّا؛ لأن الله تعالى إنما وصف بذلك قومًا مخصوصين على أوصاف مخصوصة، وكل أحد لا يتحقق وجود تلك الأوصاف فيه.

وقال ابن أبي نجيح: سأل رجل الحسن فقال: أمؤمن أنت؟ فقال: إن كنتَ تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب، فأنا بها مؤمن، وإن كنتَ تسألني عن قوله: «إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...» الآية، فلا أدري أمنهم أنا أم لا؟

وقال علقمة: كنَّا في سفرٍ فلقينا قومًا فقلنا: مَنِ القوم؟ قالوا: نحن المؤمنون حقًّا، فلم ندرِ ما نُجيبهم حتى لقينا عبد الله بن مسعود فأخبرناه بما قالوا، قال: فما رددتم عليهم؟ قلنا: لم نردّ عليهم شيئًا، قال: أفلا قلتم أمِنْ أهل الجنة أنتم؟ إن المؤمنين أهل الجنة.

وقال سفيان الثوري: من زعم أنه مؤمن حقًّا أو عند الله، ثم لم يشهد أنه في الجنة فقد آمن بنصف الآية دون النصف.

﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قال عطاء: يعني: درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم، وقال الربيع بن أنس:
١/١٤٤ سبعون درجة ما بين كل درجتين حَضرِ الفرس المُضَمَّر سبعين / سنة[(١)] ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ حسن، يعني: ما أعدَّ لهم في الجنة.

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ اختلفوا في الجالب لهذه الكاف التي في قوله: «كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ»، قال المبرِّد: تقديره: الأنفال لله وللرسول وإن كرهوا، كما أخرجك ربك من بيتك بالحق

---

(١) «تفسير الطبري»: (١٣/ ٣٩٠).

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾

وإن كرهوا، وقيل: تقديره: امض لأمر الله في الأنفال وإن كرهوا، كما مضيت لأمر الله في الخروج من البيت لطلب العير وهم كارهون.

وقال عكرمة: معناه: فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن ذلك خير لكم، كما أن إخراج محمد ﷺ من بيته بالحق خير لكم، وإن كرهه فريق منكم.

وقال مجاهد: معناه: كما أخرجك ربك من بيتك بالحق على كره فريق منهم، كذلك يكرهون القتال ويجادلون فيه.

وقيل: هو راجع إلى قوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، تقديره: وَعْدُ الله[1] الدرجات لهم حقٌّ ينجزه الله عزَّ وجلَّ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، فأنجز الوعد بالنصر والظفر.

وقيل: «الكاف» بمعنى «على»، تقديره: امضِ على الذي أخرجك ربُّك.

وقال أبو عبيدة: هي بمعنى القسم مجازها: والذي أخرجك؛ لأن «ما» في موضع «الذي»، وجوابه: «يُجَٰدِلُونَكَ»، وعليه يقع القسم، تقديره: يجادلونك والله الذي أخرجك من بيتك بالحق.

وقيل: «الكاف» بمعنى «إذ»، تقديره: واذكر إذْ أخرجك ربُّك.

قيل: المراد بهذا الإخراج هو إخراجه من مكة إلى المدينة، والأكثرون على أن المراد منه إخراجه من المدينة إلى بدر، أي: كما أمرك ربك بالخروج من بيتك إلى المدينة بالحق، قيل: بالوحي لطلب المشركين ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ منهم ﴿لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾.

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ﴾ أي: في القتال ﴿بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ وذلك أن المؤمنين لما أيقنوا بالقتال كرهوا ذلك، وقالوا: لم تُعْلِمْنَا أنَّا نلقى العدو فنستعدّ لقتالهم، وإنَّما خرجنا للعير، فذلك جدالهم بعد ما تبين لهم أنك لا تصنع إلاَّ ما أمرك، وتبين صدقك في الوعد ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ لشدَّة كراهيتهم القتال ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾ فيه تقديم وتأخير، تقديره: وإنَّ فريقًا من المؤمنين لكارهون كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون، يجادلونك في الحق بعد ما تبيَّن.

قال ابن زيد: هؤلاء المشركون جادلوه في الحق كأنما يساقون إلى الموت حين يدعون إلى الإسلام لكراهيتهم إيَّاه وهم ينظرون.

---

(١) ساقط من «أ».

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ قال ابن عباس وابن الزبير ومحمد بن إسحاق والسدي[١]: أقبل أبو سفيان من الشام في عير لقريش في أربعين راكبًا من كفار قريش، فيهم: عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل الزهري، وفيها تجارة كثيرة: وهي اللطيمة[٢]، حتى إذا كانوا قريبًا من بدر، فبلغ النبيَّ ﷺ ذلك، فندب أصحابه إليه وأخبرهم بكثرة المال وقلة العدد، وقال: هذه عير قريش فيها أموالكم فاخرجُوا إليها لعل الله تعالى أن يُنفِلَكُموها، فانتدب الناسَ فخفَّ بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حربًا.

فلما سمع أبو سفيان بمسير النبي ﷺ استأجر ضَمْضَم بن عَمْرو الغِفَاريّ، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشًا فيستنفرهم ويخبرهم أن محمدًا قد عرض لعيرهم في أصحابه، فخرج ضمضم سريعًا إلى مكة.

وقد رأت عاتكة بنت عبد المطلب قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال رؤيا أفزعتها فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب فقالت له: يا أخي، والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتني وخشيت أن يدخل على قومك منها شرٌّ ومصيبة، فاكتمْ عليَّ ما أحدثك، قال لها: وما رأيتِ؟ قالت: رأيت راكبًا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته ألا انفروا يا آل غُدُر[٣] لمصارعكم في ثلاث، فأرى الناس قد اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه فبينما هم حوله، مَثُل به بعيره على ظهر الكعبة ثم صرخ بمثلها بأعلى صوته ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث، ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس، فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضَّت فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار من دورها إلا دخلتها منها فِلْقَة[٤].

فقال العباس: والله، إنَّ هذه لرؤيا! وأنت فاكتميها ولا تذكريها لأحد.

ثم خرج العباس فلقي الوليد بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وكان له صديقًا فذكرها له واستكتمه إيَّاها، فذكرها الوليد لأبيه عتبة ففشا الحديث حتى تحدثت به قريش.

---

(١) الطبري: (١٣/ ٣٩٩)، وابن إسحاق في «السيرة»: (١/ ٦٠٧، وما بعدها) طبع الحلبي، وعزاه السيوطي ـ أيضًا ـ لابن المنذر. انظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٢٦).

(٢) اللطيمة: العير التي تحمل الطيب وبز التجارة.

(٣) آل: مضاف إلى غُدُر، معدول به من «الغادر» للمبالغة.

(٤) الفلقة ـ بالكسر ـ: الكِسْرة.

قال العباس: فغدوتُ أطوف بالبيت وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة، فلما رآني أبو جهل قال: يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا، قال: فلما فرغتُ أقبلتُ حتى جلست معهم، فقال لي أبو جهل: يا بني عبد المطلب متى حدَثت هذه النبيَّة فيكم؟

قلت: وما ذاك؟

قال: الرؤيا التي رأت عاتكة؟

قلت: وما رأت؟

قال: يا بني عبد المطلب، أما رضيتم أن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم؟ قد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاث، فسنتربَّص بكم هذه الثلاث، فإن يكُ ما قالت حقًّا فسيكون، وإنْ تمضِ الثلاث، ولم يكن من ذلك شيء، نكتبْ عليكم كتابًا أنكم أكذب أهل بيت في العرب.

فقال العباس: والله، ما كان مني إليه كبير، إلا أني جحدت ذلك وأنكرت أن تكون رأتْ شيئًا، ثم تفرقنا، فلما أمسيت لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني فقالت: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم ثم قد تناول النِّساء وأنت تسمع، ثم لم تكن عندك غيرة لشيء مما سمعت؟

قال: قلت: والله، قد فعلت ما كان مني إليه من كثير، وايم الله لأتعرضنَّ له فإن عاد لأكفينَّكنَّه.

قال: فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مغضب أرى أن قد فاتني منه أمر أحب أن أدركه منه، قال: فدخلت المسجد فرأيته، فوالله إني لأمشي نحوه أتعرضه ليعود لبعض ما قال فأقع به، وكان رجلًا خفيفًا، حديد الوجه، حديد اللسان، حديد النظر، إذ خرج نحو باب المسجد يشتدُّ.

قال: قلت في نفسي: ما لَهُ لعنه الله؟ أكلُّ هذا فَرَقًا / مني أن أشاتمه؟ قال: فإذا هو قد سمع ما لم أسمع، ١٤٤/ب
صوتَ ضمضم بن عمرو، وهو يصرخ ببطن الوادي واقفًا على بعيره، وقد جدع بعيره[1] وحوَّل رحله وشقَّ قميصه وهو يقول: يا معشر قريش اللطيمةَ اللطيمةَ، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمدٌ في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوثَ الغوثَ، قال: فشغلني عنه وشغله عني ما جاء من الأمر، فتجهز الناس سراعًا فلم يتخلف من أشراف قريش أحد، إلاَّ أن أبا لهب قد تخلف وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة.

فلما اجتمعت قريش للمسير ذكرتِ الذي بينها وبين بني بكر بن عبد مناة بن كنانة بن الحارث، فقالوا: نخشى أن يأتونا من خلفنا، فكاد ذلك أن يثنيهم، فتبدَّى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم وكان من أشراف بني بكر، فقال: أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه.

فخرجوا سراعًا، وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه، في ليالٍ مضت من شهر رمضان، حتى إذا بلغ

---

(١) أي: قطع أنف بعيره.

واديًا يقال له: ذَفِران، فأتاه الخبر عن مسير قريش ليمنعوا عيرهم، فخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بالروحاء أخذ عينًا للقوم فأخبره بهم.

وبعث رسول الله ﷺ أيضًا عينًا له من جهينة حليفًا للأنصار يدعى: عبد الله بن أريقط، فأتاه بخبر القوم، وسبقت العير رسول الله ﷺ، فنزل جبريل وقال: إن الله وعدكم إحدى الطائفتين: إمَّا العيرَ وإمَّا قريشًا، وكانت العير أحب إليهم، فاستشار النبي ﷺ أصحابه في طلب العير وحرب النفير، فقام أبو بكر فقال فأحسن، ثم قام عمر فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امْضِ لما أراك الله فنحن معك، فوالله ما نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهبْ أنت وربُّك فقاتلا إنَّا هاهنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب أنت وربُّك فقاتلا إنَّا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْك الغماد يعني: مدينة الحبشة، لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له بخير.

ثم قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليَّ أيها الناس» وإنَّما يريد الأنصار؛ وذلك أنهم عدد الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنا براء من ذِمامِك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذِمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءَنا ونساءَنا، فكان رسول الله ﷺ يتخوَّف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا على من دهمه بالمدينة من عدوّه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم.

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ؛ قال له سعد بن معاذ: والله لكأنَّك تريدنا يا رسول الله؟

قال: «أجل».

قال: قد آمنَّا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئتنا به هو الحق، وأعطيناك على ذلك (عهودنا ومواثيقنا)(١) على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلَّف منَّا رجلٌ واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنَّا لصُبُرٌ عند الحرب صُدُق في اللقاء، ولعلَّ الله تعالى يُريك منَّا ما تقر به عينك، فسِرْ بنا على بركة الله، فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشَّطه ذلك، ثم قال: «سيروا على بركة الله، وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم».

قال ثابت عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان»، قال: ويضع يده على الأرض هاهنا وهاهنا، قال: فما ماط أحدٌ عن موضع يد رسول الله ﷺ، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾، أي: الفريقين، إحداهما: أبو سفيان مع العير، والأخرى: أبو جهل مع النفير.

---

(١) في «أ»: (عهود ومواثيق).

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾

﴿وَتَوَدُّونَ﴾ أي: تريدون ﴿أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ يعني: العير التي ليس فيها قتال، و«الشوكة»: الشدة والقوة، ويقال: السلاح.

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ أي: يظهره ويُعْليه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بأمره إيَّاكم بالقتال، وقيل: بعِدَاتِه[1] التي سبقت من إظهار الدين وإعزازه ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾ أي: يستأصلهم حتى لا يبقى منهم أحد، يعني: كفار العرب.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ ليثبت الإسلام ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: يفني الكفر ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ المشركون، وكانت وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشر ليلة من شهر رمضان.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ تستجيرون به من عدوكم وتطلبون منه الغوث والنصر، رُوي عن ابن عباس قال: قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: لمَّا كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين، وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا، دخل العريش هو وأبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ واستقبل القبلة ومدَّ يده فجعل يهتف بربه عزَّ وجلَّ: اللَّهم أنجز لي ما وعدتني، اللَّهم إنَّك إنْ تُهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض، فمازال يهتف بربِّه عزَّ وجلَّ مادًّا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأخذ أبو بكر رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتُك ربَّك فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾[2] ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم﴾ مرسلٌ إليكم مددًا وردءًا لكم ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ قرأ أهل المدينة ويعقوب «مُرْدَفِين» بفتح الدال، أي: أردف الله المسلمين وجاء بهم مددًا، وقرأ الآخرون بكسر الدال، أي: متتابعين بعضهم في إثر بعض، يقال: أردفته وردفته بمعنى تبعته.

يُروى أنه نزل جبريل في خمسمائة، وميكائيل في خمسمائة، في صورة[3] الرجال على خيل بلق، عليهم ثياب بيض، وعلى رؤوسهم عمائم بيض قد أرخوا أطرافها بين أكتافهم[4].

---

(١) في «أ»: (بعداوته).

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر برقم١٧٦٣: (٣/١٣٨٣ ـ ١٣٨٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/٣٧٩).

(٣) في «ب»: (صفة).

(٤) أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس. انظر: «الدر المنثور»: (٤/٢٧).

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾

ورُوي أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا ناشد ربَّه عزَّ وجلَّ وقال أبو بكر: إنَّ الله منجزٌ لك ما وعدك فخفق رسول ﷺ خفقةً وهو في العريش ثم انتبه، فقال: «يا أبا بكر، أتاك نصرُ الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع»[١].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا إبراهيم بن موسى، ثنا عبد الوهاب، ثنا خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريلُ آخذٌ برأسِ فرسِه عليه أداةُ الحرب»[٢].

وقال عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض، ويوم حنين عمائم خضر، ولم تقاتل الملائكة / في يوم سوى بدر من الأيام، وكانوا يكونون فيما سواه عددًا ومددًا[٣]. ١/١٤٥

ورُوي عن أبي أسيد مالك بن ربيعة ـ قد شهد بدرًا ـ أنه قال بعد ما ذهب بصره: لو كنت معكم اليوم ببدر ومعي بصري لأريتكم الشِّعْبَ الذي خرجت منه الملائكة[٤].

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ يعني: الإمداد بالملائكة ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أي: بشارة ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «يغشاكم» بفتح الياء، «النعاسُ» رفع على أن الفعل له، كقوله تعالى في سورة آل عمران «أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ»[آل عمران: ١٥٤]، وقرأ أهل المدينة: «يُغْشِيكُم» بضم الياء وكسر الشين مخففًا، «النعاسَ» نصب، كقوله تعالى: «كأنَّما أُغْشِيَتْ وجوههم»، وقرأ الآخرون بضم الياء وكسر الشين مشدَّدًا، «النعاسَ» نصب، على أن الفعل لله عزَّ وجلَّ، كقوله تعالى: «فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ»[النجم: ٥٤]، والنعاس: النوم الخفيف ﴿أَمَنَةً﴾ أمنًا ﴿مِّنْهُ﴾ مصدر أمنت أمنًا وأمنةً وأمانًا، قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: النعاس في القتال أمنة من الله، وفي الصلاة وسوسة من الشيطان.

---

(١) قطعة من الحديث السابق.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب شهود الملائكة بدرًا: (٧/ ٣١٢).

(٣) رواه الطبراني موقوفًا على ابن عباس، وفيه عمار بن أبي مالك الجنبي، ضعفه الأزدي. انظر: «مجمع الزوائد»: (٦/ ٨٣).

(٤) عزاه السيوطي لابن مردويه والبيهقي في «الدلائل». «الدر المنثور»: (٤/ ٣٤).

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ وذلك أن المسلمين نزلوا يوم بدر على كثيب أعفر، تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب، وسبقهم المشركون إلى ماء بدر، وأصبح المسلمون بعضهم مُحْدِثين وبعضهم مُجْنِبِينَ، وأصابهم الظمأ، ووسوس إليهم الشيطان، وقال: تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبي الله وأنكم أولياء الله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلُّون مُحْدِثِيْنَ ومُجْنِبِيْنَ، فكيف ترجون أن تظهروا عليهم؟ فأرسل الله عزَّ وجلَّ عليهم مطرًا سال منه الوادي، فشرب المؤمنون واغتسلوا وتوضؤوا، وسَقَوا الركاب وملؤوا الأسقية، وأطفأ الغبارَ ولبَّد الأرض حتى ثبتت عليه الأقدام، وزالت عنهم وسوسة الشيطان، وطابت أنفسهم؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ من الأحداث والجنابة.

﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ وسوسته ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ باليقين والصبر ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ حتى لا تسوخ في الرمل بتلبيد الأرض، وقيل: يثبت به الأقدام بالصبر وقوَّة القلب.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ الذين أمدَّ بهم المؤمنين ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ بالعون والنصر ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: قوُّوا قلوبهم، قيل: ذلك التثبيت: حضورهم معهم القتال ومعونتهم، أي: ثبتوهم بقتالكم معهم المشركين.

وقال مقاتل: أي: بشّروهم بالنصر، وكان المَلَكُ يمشي أمام الصف في صورة الرجل ويقول: أبشروا فإن الله ناصرُكم ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ قال عطاء: يريد الخوف من أوليائي ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ قيل: هذا خطاب مع المؤمنين، وقيل: هذا خطاب مع الملائكة، وهو متصل بقوله: «فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا»، وقوله: «فَوْقَ الْأَعْنَاقِ» قال عكرمة: يعني: الرؤوس؛ لأنها فوق الأعناق، وقال الضحاك: معناه: فاضربوا الأعناق، و«فوق» صلة كما قال تعالى: «فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ»[محمد: ٤]، وقيل: معناه: فاضربوا على الأعناق، «فوق» بمعنى: «على».

﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ قال عطية: يعني: كل مفصل، وقال ابن عباس وابن جريج والضحاك: يعني: الأطراف، والبَنَانُ جمع بنانة، وهي أطراف أصابع اليدين والرجلين، قال ابن الأنباري: ما كانت الملائكة تعلم كيف يُقْتل الآدميون، فعلَّمهم الله عزَّ وجلَّ.

أخبرنا إسماعيل بن عبد القادر الجرجاني، أنا عبد الغفار بن محمد الفارسي، أنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، ثنا مسلم بن الحجاج، ثنا زهير بن حرب، ثنا عمرو بن يونس الحنفي، ثنا عكرمة بن عمار، ثنا أبو زميل هو سماك الحنفي، ثنا عبد الله بن عباس قال: بينما رجل من

المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه؛ إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حَيْزُوم؛ إذ نظر إلى المشرك أمامه فخرّ مستلقيًا، فنظر إليه فإذا هو قد حطم أنفه وشق وجهه كضربة السَّوْط فاخضرّ ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدّث ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: «صدقتَ، ذلك من مَدَدَ السماء الثالثة»، فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين[1].

ورُوي عن أبي داود المازني، وكان شهد بدرًا قال: إني لأتبع رجلًا من المشركين لأضربه، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قد قتله غيري[2].

ورَوى أبو أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه قال: والله، لقد رأيتنا يوم بدر، وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك، فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف[3].

وقال عكرمة: قال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ: كنتُ غلامًا للعباس بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، وأسلمتْ أُمُّ الفضل وأسلمتُ، وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم، وكان يكتم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه، وكان أبو لهب عدو الله قد تخلّف عن بدر وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، فلما جاءه الخبر عن مصاب أصحاب بدر كَبَته الله وأخزاه، ووجدنا في أنفسنا قوةً وعزًّا، وكنتُ رجلًا ضعيفًا، وكنت أعمل القداح وأنحتها في حجرة زمزم، فوالله إني لجالس أنحت القداح، وعندي أم الفضل جالسة، إذْ أقبل الفاسق أبو لهب يجرُّ رجليه حتى جلس على طُنُبِ[4] الحجرة، فكان ظهره إلى ظهري، فبينا هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم، فقال أبو لهب: إليَّ يا ابن أخي فعندك الخبر، فجلس إليه والناس قيام عليه، قال: يا ابن أخي، أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: لا شيء والله إن كان إلاَّ أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا ويأسروننا كيف شاؤوا، وايْمُ الله مع ذلك ما لُمْتُ الناس، لقينا رجالاً بيضًا على خيل بُلْق بين السماء والأرض، لا والله ما تليق شيئًا ولا يقوم لها شيء، قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجرة بيدي، ثم قلت: تلك والله الملائكة، قال: فرفع أبو لهب يده فضرب وجهي ضربة شديدة فثاورته، فاحتملني فضرب بي الأرض، ثم برك عليَّ يضربني، وكنت رجلًا ضعيفًا فقامت أُمُّ الفضل إلى عمود من عُمُد
١٤٥/ب الحجرة، فأخذته فضربته به ضربةً / فلقت في رأسه شجة منكرة، وقالت: تستضعفه أنْ غاب عنه سيّده؟ فقام مُولّيًا ذليلًا، فوالله ما عاش إلا سبع ليالٍ حتى رماه الله بالعدسة فقتلته»[5].

---

(١) قطعة من حديث ابن عباس الذي أخرجه مسلم آنفًا. و«حيزوم»: اسم فرس جبريل.

(٢) أخرجه عبد بن حميد وابن مردويه. انظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٣٥ـ٣٦).

(٣) عزاه السيوطي لأبي الشيخ وابن مردويه: (٤/ ٣٣).

(٤) الطنب: حَبْل الخِباء، والجمع: أطناب.

(٥) رواه الطبراني والبزار، وفي إسناده حسن بن عبد الله، وثّقه أبو حاتم وغيره، وضعّفه جماعة، وبقية رجاله ثقات. «مجمع الزوائد»: (٦/ ٨٩).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١٣ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٦﴾

ورَوى مقسم عن ابن عباس قال: كان الذي أسر العباس أبو اليسر: كعب بن عمرو أخو بني سلمة، وكان أبو اليسر رجلًا مجموعًا، وكان العباس رجلًا جسيمًا، فقال رسول الله ﷺ لأبي اليسر: «كيف أسَرْتَ العباس»؟ قال: يا رسول الله، لقد أعانني عليه رجل ما رأيتُه قبل ذلك ولا بعده، هيئتُه كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أعانك عليه ملك كريم»[1].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ خالفوا الله ﴿وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١٣﴾.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: هذا العذاب والضرب الذي عجلته لكم أيها الكفار ببدر ﴿فَذُوقُوهُ﴾ عاجلًا ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: واعلموا وأَيْقِنوا أن للكافرين آجلًا في المعاد ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٤﴾.

روى عكرمة عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالعير ليس دونها شيء، فناداه العباس وهو أسير في وثاقه: لا يصلح، فقال رسول الله ﷺ: «لِمَهْ»؟ قال: لأن الله تعالى وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك ما وعدك[2].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا﴾ أي: مجتمعين متزاحفين بعضكم إلى بعض، والتزاحف: التداني في القتال، والزحف مصدر؛ لذلك لم يُجمع، كقولهم: قوم عدل ورضًا، قال الليث: الزحف جماعة يزحفون إلى عدوّ لهم بمرة، فهم الزحف، والجمع: الزحوف ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١٥﴾ يقول: فلا تولوهم ظهوركم، أي: تنهزموا، فإن المنهزم يولي دُبره.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ ظهره ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ أي: منعطفًا يُري من نفسه الانهزام، وقصده طلب الغِرّة، وهو يريد الكرة ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أي: منضمًّا صائرًا إلى جماعة من المؤمنين يريد[3] العودة إلى القتال، ومعنى الآية: النهي عن الانهزام من الكفار والتولي عنهم، إلا على نيّة التحرّف للقتال

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (١/ ٣٥٣)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٨٦): (رواه أحمد، وفيه راوٍ لم يسم، وبقية رجاله ثقات).

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الأنفال: (٨/ ٤٧١ ـ ٤٧٢)، وقال: هذا حديث حسن، والإمام أحمد في «المسند»: (١/ ٣١٤).
وعزاه السيوطي: للفريابي، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبي يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني وأبي الشيخ، وابن مردويه. «الدر المنثور»: (٤/ ٢٨).

(٣) في «أ»: (يريدون).

والانضمام إلى جماعة من المسلمين؛ ليستعين بهم ويعودوا إلى القتال، فمن ولَّى ظهره لا على هذه النية لحقه الوعيد، كما قال تعالى: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾.

واختلف العلماء في هذه الآية، فقال أبو سعيد الخدري: هذا في أهل بدر خاصة، ما كان يجوز لهم الانهزام؛ لأن النبي ﷺ كان معهم، ولم يكن لهم فئة يتحيّزون إليها دون النبي ﷺ، ولو انحازُوا لانحازُوا إلى المشركين، فأمَّا بعد ذلك فإن المسلمين بعضهم فئة لبعض[1]، فيكون الفارُّ متحيِّزًا إلى فئة فلا يكون فراره كبيرة، وهو قول الحسن وقتادة والضحاك.

قال يزيد بن أبي حبيب[2]: أوجب الله النار لمن فرَّ يوم بدر، فلما كان يوم أُحد بعد ذلك قال: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾[آل عمران: ١٥٥]، ثم كان يوم حُنين بعده فقال: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[التوبة: ٢٥]، ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾[التوبة: ٢٧].

وقال عبد الله بن عمر: كنَّا في جيش بعثنا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة فانهزمنا، فقلنا: يا رسول الله، نحن الفرَّارون[3]، قال: «بل أنتم الكرَّارون، أنا فئة المسلمين»[4].

وقال محمد بن سيرين: لما قُتل أبو عبيدة جاء الخبر إلى عمر فقال: لو انحاز إليَّ كنت له فئة، فأنا فئة كل مسلم[5].

وقال بعضهم: حكم الآية عام في حق كل من ولَّى منهزمًا، جاء في الحديث: «من الكبائر الفِرَارُ من الزحف»[6].

وقال عطاء بن أبي رباح: هذه الآية منسوخة بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾[الأنفال: ٦٦]، فليس لقوم أن يفروا من مثلهم[7] فنسخت تلك إلاَّ في هذه العدة[8]، وعلى هذا أكثر أهل العلم: أن

---

(١) أخرجه الطبري في «التفسير»: (١٣/ ٤٣٧)، ورواه مختصرًا أبو داود في الجهاد، باب التولي يوم الزحف: (٣/ ٤٣٩)، والحاكم: (٢/ ٣٢٧)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وعزاه السيوطي: لعبد بن حميد، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ»، وأبي الشيخ، وابن مردويه. «الدر المنثور»: (٤/ ٣٦).

(٢) أخرجه الطبري: (١٣/ ٤٣٨).

(٣) في «أ»: (الفارُّون).

(٤) أخرجه الترمذي في الجهاد، باب ما جاء في الفرار من الزحف: (٥/ ٣٧٨)، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث يزيد ابن أبي زياد، وأبو داود في الجهاد، باب التولي يوم الزحف: (٣/ ٤٣٨)، وسعيد بن منصور في «السنن»: (٢/ ٢٠٩ ـ ٢١٠)، والشافعي في «المسند»: (٢/ ١١٦)، والحميدي في «المسند»: (٢/ ٣٠٢)، ومعنى حاصوا حيصة، أي: جالوا جولة يطلبون الفرار.

(٥) أخرجه الطبري في «التفسير»: (١٣/ ٤٣٩ ـ ٤٤٠)، وفيه: أن عمر لما بلغه قَتْلُ أبي عبيد قال: ...، وعبد الرزاق: (٥/ ٢٥١)، وابن أبي شيبة: (١٢/ ٥٣٦).

(٦) عزاه السيوطي لابن أبي شيبة. «الدر المنثور: (٤/ ٣٨). وقد ورد في أحاديث كثيرة عدّ الفرار من الزحف كبيرة من الكبائر.

(٧) في «ب»: (مثليهم).

(٨) أخرجه الطبري: (١٣/ ٤٣٩). وانظر: «أصول العلاقات الدولية»: (٢/ ١٠٤٠، تعليق ١).

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

المسلمين إذا كانوا على الشطر من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا أو يولّوا ظهورهم إلا متحرفين لقتالٍ أو متحيّزين إلى فئة، وإن كانوا أقل من ذلك جاز لهم أن يُولّوا ظهورهم وينحازوا عنهم[١]، قال ابن عباس: مَنْ فرَّ من ثلاثة فلم يفر، ومن اثنين فقد فرَّ[٢].

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ قال مجاهد[٣]: سبب هذه الآية أنهم لمَّا انصرفُوا عن القتال كان الرجل يقول: أنا قتلتُ فلانًا، ويقول الآخر مثله، فنزلت الآية، ومعناه: فلم تقتلوهم أنتم بقوتكم ولكنَّ الله قتلهم بنصره[٤] إيَّاكم وتقويته لكم.

وقيل: لكن الله قتلهم بإمداد الملائكة.

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ قال أهل التفسير والمغازي: ندب[٥] رسول الله ﷺ الناس، فانطلقوا حتى نزلوا بدرًا، ووردتْ عليهم روايا قريش وفيهم أسلم: غلامٌ أسود لبني الحجاج، وأبو يسار: غلامٌ لبني العاص بن سعيد، فأتوا بهما رسول الله ﷺ فقال لهما: «أين قريش»؟ قالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى ـ والكثيب: العقنقل ـ فقال رسول الله ﷺ لهما: «كَمِ القوم»؟ قالا: كثير، قال: «ما عِدتُهم»؟ قالا: لا ندري، قال: «كم ينحرون كلّ يوم»؟ قالا: يومًا عشرة ويومًا تسعة،

---

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي: (٢/ ٨٤٣ ـ ٨٤٤)، «أحكام القرآن» للجصاص: (٤/ ٢٢٦ ـ ٢٢٨)، «شرح السير الكبير» للسرخسي: (١/ ١٢٣ ـ ١٢٥)، وراجع: «منهج الإسلام في الحرب والسلام» تأليف عثمان جمعة: ص١٥٠ ـ ١٥٤، وله أيضًا: «أصول العلاقات الدولية في فقه الإمام الشيباني»: (٢/ ١٠٣٨ ـ ١٠٤٨).

(٢) أخرجه الطبري: (١٣/ ٤٤٠)، والشافعي: (٢/ ١١٦)، وسعيد بن منصور في «السنن»: (٢/ ٢٠٩)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني مرفوعًا ورجاله ثقات. «مجمع الزوائد»: (٥/ ٣٢٨).

وننقل هنا ترجيح الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في أن الآية محكمة غير منسوخة حيث قال في «التفسير»: (١٣/ ٤٤٠ ـ ٤٤١): (وأولى التأويلين في هذه الآية بالصواب عندي، قَوْلُ مَن قال: حكمها محكم، وأنها نزلت في أهل بدر، وحكمها ثابت في جميع المؤمنين، وأن الله حرَّم على المؤمنين إذا لقوا العدو، أن يولّوهم الدُّبُر منهزمين إلا لتحرفٍ لقتال أو لتحيّز إلى فئة من المؤمنين حيث كانت من أرض الإسلام، وأن مَنْ ولّاهم الدبر بعد الزحف لقتالٍ منهزمًا بغير نية إحدى الخلّتين اللتين أباح الله التولية بهما، فقد استوجب من الله وعيده، إلا أن يتفضل عليه بعفوه. وإنما قلنا: هي محكمة غير منسوخة، لما قد بيَّنَّا في غير موضع من كتابنا هذا وغيره: أنه لا يجوز أن يحكم لحكم آية بنسخٍ وله في غير النسخ وجه، إلا بحجة يجب التسليم لها: من خبر يقطع العذر، أو حجة عقل، ولا حجة من هذين المعنيين تدل على نسخ حكم قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾.

(٣) انظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٣٩).

(٤) في «ب»: (بنصرته).

(٥) نَدَبْتُه: بعثتُه ودعوته.

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٨﴾

قال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف»، ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشراف قريش؟» قالا: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البختري ابن هشام وحكيم بن حزام والحارث بن عامر وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث وأبو جهل بن هشام وأُميّة بن خلف ونبيه ومُنبّه ابنا الحجاج وسُهيل بن عمرو، فقال رسول الله ﷺ: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»[1]، فلما أقبلت قريش ورآها رسول الله تصوَّب من العقنقل، وهو الكثيب الذي جاؤوا منه إلى الوادي، قال لهم: «هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك[2] وتكذّب رسولك، اللَّهمَّ فنصرَكَ الذي وعدتَني»، فأتاه جبريل عليه السلام وقال له: خُذْ قبضةً من تراب فارمِهم بها، فلمَّا التقى الجمعان تناول رسول الله ﷺ كفًّا من حصًى عليه تراب، فرمى به في وجوه القوم، وقال: «شاهتِ الوجوه»، فلم يبق منهم مشرك إلاَّ دخل في عينيه وفمه ومنخريه منها شيء، فانهزموا وردَفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم[3].

وقال قتادة وابن زيد: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ أخذ يوم بدر ثلاثَ حصيات فرمَى بحصاة في ميمنة القوم وبحصاة في ميسرة القوم وبحصاة بين أظهرهم، وقال: «شاهتِ الوجوه»، فانهزموا فذلك قوله تعالى:
١٤٦/أ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾؛ إذ ليس في وسع أحد من البشر أن يرمي كفًّا من / الحصا إلى وجوه جيش فلا يبقى فيهم عين إلاَّ ويصيبها منه شيء.

وقيل: معنى الآية: وما بلَّغتَ إذْ رميت ولكنَّ الله بلَّغ.

وقيل: وما رميت بالرعب في قلوبهم إذْ رميت بالحصباء، ولكنَّ الله رمى بالرعب في قلوبهم حتى انهزموا ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾، أي: ولينعم على المؤمنين نعمةً عظيمةً بالنصر والغنيمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعائكم ﴿عَلِيمٌ ۝١٧﴾ بنيَّاتكم.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي ذكرت من القتل والرمي والبلاء الحسن ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ قيل: فيه إضمار، أي: واعلموا[4] أن الله ﴿مُوهِنُ﴾ مضعف ﴿كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٨﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأهل البصرة: «مُوهِّنٌ» بالتشديد والتنوين، «كيدَ» نَصْبٌ، وقرأ الآخرون «موهِنٌ» بالتخفيف والتنوين، إلاَّ حفصًا فإنه يضيفه فلا ينوِّن، ويخفض «كَيْدِ».

---

(١) الأفلاذ: جمع فلذ، والفلذ: جمع فلذة، وهي القطعة، وهو استعارة أراد: لباب قريش وأشرافها؛ لأن الفلذ من أشرف الأعضاء. من هامش التفسير.

(٢) تحادّك: تعاديك. وفي «أ»: (تجادل).

(٣) انظر: «سيرة ابن هشام»: (١/ ٦١٦، وما بعدها) طبع الحلبي، و«المسند» للإمام أحمد: (١/ ١١٧).

(٤) في «أ»: (واعلم).

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ وذلك أن أبا جهل قال يوم بدر لما التقى الناس: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لم نعرف فَأَحِنْهُ الغداة، فكان هو المستفتح على نفسه[١].

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن جده قال: قال عبد الرحمن بن عوف: إني لفي الصف يوم بدر إذِ التفتُّ فإذا عن يميني وعن يساري فَتَيَان حديثا السن، فكأني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سرًّا من صاحبه: يا عمّ، أرني أبا جهل، فقلت: يا ابن أخي وما تصنع به؟ فقال: عاهدتُ الله عزَّ وجلَّ إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه، فقال لي الآخر سرًّا من صاحبه مثله، فما سرني أني بين رجلين بمكانهما، فأشرت لهما إليه، فشدَّا عليه مثل الصَّقْرَين حتى ضرباه، وهما ابنا عفراء[٢].

وأخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا محمد بن المثنى، ثنا ابن أبي عدي، عن سليمان التيمي، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «مَنْ ينظرُ لنا ما صنع أبو جهل»؟ قال: فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى بَرَدَ، قال: فأخذ بلحيته فقال: أنت أبو جهل؟ فقال: وهل فوق رجل قتله قومه أو قتلتموه[٣].

[قال محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر قال: قال معاذ بن عمرو بن الجموح: لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوه أمر بأبي جهل بن هشام أن يُلتمس في القتلى، فقال: اللَّهمَّ لا يعجزنَّك، قال: فلما سمعتها جعلته من شأني فعمدت نحوه فضربته ضربة أطَنَّت[٤] قدمه بنصف ساقه، قال: وضربني ابنُه عكرمةُ على عاتقي، فَطَرَحَ يدي فتعلَّقَتْ بجلدة من جَنْبِي، وأجهضني[٥] القتالُ عنه، فلقد قاتلتُ عامّة يومي، وإني لأسحبُها خلفي، فلما آذتني جعلت عليها قدمي، ثم تمطَّيْتُ بها حتى طرحتها، ثم مرَّ بأبي جهل وهو عَقِيْرٌ معوِّذُ بن عفراء، فضربه حتى أثْبته، فتركه وبه رَمَقٌ، فمرَّ عبد الله بن مسعود (بأبي جهل)[٦]

(١) انظر: «سيرة ابن هشام»: (١/ ٦٢٨)، ومعنى أَحِنْهُ: أهلكه، والمستفتح: الحاكم على نفسه بهذا الدعاء.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب إذا أكبوكم فارموهم: (٧/ ٣٠٧ـ٣٠٨)، ومسلم في الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل برقم ١٧٥٢: (٣/ ١٧٢).

(٣) أخرجه البخاري في المغازي، باب قتل أبي جهل: (٧/ ٢٩٣).

(٤) أطنت قدمه: أطارتها.

(٥) أجهضني: غلبني واشتدَّ علي.

(٦) من «سيرة ابن هشام».

قال عبد الله بن مسعود: وجدته بآخر رمق فعرفته فوضعت رجلي على عنقه، ثم قلت: هل أخزاك الله يا عدو الله؟ قال: وبماذا أخزاني، أعْمَدُ من رجلٍ قتلتموه[١]، أخبِرْني لمنِ الدائرة؟ قلت: لله ولرسوله.

ورُوي عن ابن مسعود أنه قال: قال لي أبو جهل: لقد ارتقيتَ يا رُوَيْعِيَ الغنمِ مرتقًى صعبًا، ثم احتززت رأسه، ثم جئت به إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، هذا رأس أبي جهل، فقال: آللهِ الذي لا إله غيره[٢]؟! قلت: نعم، والذي لا إله غيره، ثم ألقيته بين يدي رسول الله ﷺ فحمد الله عزَّ وجلَّ][٣].

وقال السدي والكلبي: كان المشركون حين خرجوا إلى النبي ﷺ من مكة أخذوا بأستار الكعبة وقالوا: اللَّهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين وأفضل الدينين، ففيه نزلت: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الْفَتْحُ﴾، أي: إن تستنصروا فقد جاءكم النصر[٤].

وقال عكرمة: قال المشركون: والله لا نعرف ما جاء به محمد فافتح بيننا وبينه بالحق، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الْفَتْحُ﴾[٥]، أي: إن تستقضوا فقد جاءكم القضاء[٦].

وقال أبي بن كعب: هذا خطاب لأصحاب رسول الله ﷺ، قال الله تعالى للمسلمين: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الْفَتْحُ﴾، أي: إن تستنصروا فقد جاءكم الفتح والنصر.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أنا أحمد بن الحسن الحيري، أنا حاجب بن أحمد، ثنا عبد الرحيم بن منيب، ثنا الفضل بن موسى، ثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس، عن خباب ـ رضي الله عنه ـ قال: شكونا إلى النبي ﷺ وهو متوسِّد بُرْدَةً له في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة، فقلنا: ألا تدعو الله لنا، ألا تستنصر لنا؟ فجلس محمارًا لونه أو وجهه فقال لنا: «قد كان مَنْ قبلكم يؤخذ الرجل ويحفر له في الأرض ثم يُجاء بالمنشار فيجعل فوق رأسه ثم يجعل بفرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه، ويُمْشَطُ بأمشاط الحديد ما دون

---

(١) قال السهيلي في «الروض الأنف» (٢/ ٧٢): (أي: هل فوق رجل قتله قومه؟ وهو معنى تفسير ابن هشام حيث قال: (أي: ليس عليه عار ...).

(٢) قال السهيلي أيضًا (٢/ ٧٢): (قول النبي ﷺ: «آلله الذي لا إله إلا هو» بالخفض ـ عند سيبويه وغيره ـ؛ لأنَّ الاستفهام عوض من الخافض عنده، وإذا كنت مخبرًا قلت: «الله» بالنصب، لا يجيز المبرِّد غيره، وأجاز سيبويه الخفض أيضًا؛ لأنه قَسَم، وقد عرف أن المقسم به مخفوض بالباء أو بالواو، ولا يجوز إضمار حرف الجر إلا في مثل هذا الموضع أو ما كثر استعماله جدًّا، كما روى أن رُؤبَةَ كان يقول إذا قيل له: كيف أصبحت؟ خير عافاك الله).

(٣) انظر: «سيرة ابن هشام»: (٢/ ٧١ ـ ٧٢) مع «الروض الأنف» للسهيلي: (١/ ٦٣٤ ـ ٦٣٦) طبع الحلبي، وقد جاءت هذه الرواية في نسخة «ب» بعد قول السدي والكلبي الذي يليها مباشرة، وهو ما وضعناه بين القوسين.

(٤) «تفسير الطبري»: (١٣/ ٤٥٣)، «أسباب النزول» للواحدي: ص٢٦٩.

(٥) «أسباب النزول» للواحدي: ص٢٦٩.

(٦) «تفسير الطبري»: (١٣/ ٤٥١)، «الدر المنثور»: (٤/ ٤٢).

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

لحمه من عظم وعصب ما يصرفه عن دينه، والله لَيَتِمَّنَّ هذا الأمرُ حتى يسيرَ الراكب منكم من صنعاء إلى حضرموت لا يخشىٰ إلا الله، ولكنكم تعجلون»[1].

قوله: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ يقول للكفار: إن تنتهوا عن الكفر بالله وقتال نبيّه ﷺ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ﴾ لحربه وقتاله ﴿نَعُدْ﴾ بمثل الواقعة التي وقعت بكم يوم بدر، وقيل: وإن تعودوا إلى الدعاء والاستفتاح نَعُدْ للفتح لمحمد ﷺ ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ جماعتكم ﴿شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ قرأ أهل المدينة وابن عامر وحفص «وَأَنَّ ٱللَّهَ» بفتح الهمزة، أي: ولأن الله مع المؤمنين، كذلك «وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا»، وقيل: هو عطف على قوله: «ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ»، وقرأ الآخرون: «وإنَّ الله» بكسر الألف على الابتداء.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ أي: لا تُعرضوا عنه ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ القرآن ومواعظه.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: يقولون بألسنتهم سمعنا بآذاننا وهم لا يسمعون، أي: لا يتعظون ولا ينتفعون بسماعهم فكأنهم لم يسمعوا.

قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: شرّ من دبَّ على وجه الأرض (من خلق الله)[2] ﴿ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ﴾ عن الحق، فلا يسمعونه ولا يقولونه ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أمْرَ الله عزَّ وجلَّ، سمّاهم دواب؛ لقلة انتفاعهم بعقولهم، كما قال تعالى: «أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ»[الأعراف: ١٧٩]، قال ابن عباس: هم نفر من بني عبد الدار بن قصي، كانوا يقولون: نحن صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ عما جاء به محمد، فقُتلوا جميعًا بأُحد، وكانوا أصحاب اللواء لم يسلم منهم إلا رجلان: مصعب بن عُمير وسويبط بن حرملة.

١٤٦/ب / ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي: لأسمَعَهم سماع التفهم والقبول ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ بعد أن

(١) أخرجه البخاري بلفظ قريب، في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام: (٦/ ٦١٩)، وفي مناقب الأنصار: (٧/ ١٦٤ ـ ١٦٥)، وذكره المصنف في «شرح السنة»: (٤/ ٧٤).

(٢) ما بين القوسين زيادة من «ب».

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

علم أن لا خير فيهم ما انتفعوا بذلك ﴿ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ لعنادهم وجحودهم الحق بعد ظهوره، وقيل: إنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ: أحيي لنا قصيًا فإنه كان شيخًا مباركًا حتى يشهد لك بالنبوة فنؤمن بك، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ كلام قصي ﴿ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ يقول: أجيبوهما بالطاعة ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ الرسول ﷺ ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ أي: إلى ما يُحييكم، قال السدي: هو الإيمان؛ لأن الكافر ميت فيحيا بالإيمان.

وقال قتادة: هو القرآن فيه الحياة وبه النجاة والعصمة في الدارين.

وقال مجاهد: هو الحق.

وقال ابن إسحاق: هو الجهاد أعزكم الله به بعد الذلّ.

وقال القتيبي: بل الشهادة، قال الله تعالى في الشهداء: ﴿ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[آل عمران: ١٦٩].

ورُوينا أن النبي ﷺ مرَّ على أُبيِّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ وهو يصلي، فدعاه فعجل أُبي في صلاته، ثم جاء فقال رسول الله ﷺ: «ما منعك أن تُجيبني إذْ دعوتُك»؟ قال: كنت في الصلاة، قال: «أليس يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾»؟ (فقال: لا جرم يا رسول الله، لا تدعوني إلاَّ أجبت وإن كنت مصليًا»[(١)])[(٢)].

قوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ قال سعيد بن جبير وعطاء: يحول بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان.

وقال الضحاك: يحول بين الكافر والطاعة، ويحول بين المؤمن والمعصية.

وقال مجاهد: يحول بين المرء وقلبه فلا يعقل ولا يدري ما يعمل.

---

(١) أخرجه الطبري في «التفسير»: (١٣/ ٤٦٧) بهذا اللفظ، وأخرجه بنحوه الترمذي في فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل فاتحة الكتاب: (٨/ ١٧٨ ـ ١٨٠)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والإمام أحمد في «المسند»: (٢/ ٤١٢ ـ ٤١٣)، وأخرجه البخاري بغير هذا السياق في التفسير: (٨/ ١٥٦) وفي فضائل القرآن، وقال المنذري: رواه ابن خزيمة وابن حبان في «صحيحيهما» والحاكم باختصار عن أبي هريرة عن أُبي، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم.
وأخرجه النسائي في «التفسير»: (١/ ٥٢٣)، والدارمي: (٢/ ٤٤٦).
انظر: «الكافي الشاف»: ص٦٨ ـ ٦٩، «تحفة الأحوذي»: (٨/ ١٨٠)، «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢٠/ ٢١)..

(٢) ما بين القوسين من «ب».

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾

وقال السدي: يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا أن يكفر إلا بإذنه.

وقيل: هو أنَّ القوم لمَّا دُعُوا إلى القتال في حالة الضعف ساءت ظنونهم واختلجت صدورهم فقيل لهم: قاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه، فيبدل الخوف أمنًا والجبن جُرْأةً ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ فيجزيكم بأعمالكم.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أنا أحمد بن الحسن الحيري، أنا حاجب بن أحمد الطوسي، أنا محمد ابن حماد، ثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مُقَلِّبَ القُلوبِ ثَبِّتْ قلبي على دينك»، قالوا: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: «القلوبُ بين أُصبعين من أصابع الله يُقلِّبها»(١).

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ اختبارًا وبلاءً ﴿لَا تُصِيبَنَّ﴾ قوله: ﴿لَا تُصِيبَنَّ﴾ ليس بجزاء محض، ولو كان جزاءً لم تدخل فيه النون، لكنه نفي(٢) وفيه طرف من الجزاء كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾[النمل: ١٨]، وتقديره: واتقوا فتنة إنْ لم تتقوها أصابتكم، فهو كقول القائل: انزل عن الدابة لا تطرحنَّك، فهذا جواب الأمر بلفظ النهي، معناه: إن تنزل لا تطرحك.

قال المفسرون: نزلت هذه الآية في أصحاب رسول الله ﷺ، ومعناه: اتقوا فتنة تصيب الظالم وغير الظالم.

قال الحسن: نزلت في عليّ وعمّار وطلحة بن الزبير ـ رضي الله عنهم ـ، قال الزبير: لقد قرأنا هذه الآية زمانًا وما أُرانا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها، يعني: ما كان يوم الجمل(٣).

وقال السدي ومقاتل والضحاك وقتادة: هذا في قوم مخصوصين من أصحاب رسول الله ﷺ أصابتهم الفتنة يوم الجمل(٤).

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ: الإمام أحمد في «المسند»: (٣/ ١١٢، ٢٥٧)، والترمذي بزيادة «كيف شاء» في القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن: (٦/ ٣٤٩).
وأخرجه مسلم من رواية عبد الله بن عمرو، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء برقم٢٦٥٤: (٤/ ٢٠٤٥)، وذكره البغوي في «مصابيح السنة»: (١/ ١٤١).

(٢) في «أ»: (نهي).

(٣) «تفسير الطبري»: (١٣/ ٤٧٢ ـ ٤٧٣)، «تفسير عبد الرزاق»: (١/ ٢٥٧)، «تفسير النسائي»: (١/ ٥٢٥)، و«المسند»: (١/ ١٦٧).

(٤) «تفسير الطبري»: (١٣/ ٤٧٣).

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)﴾

وقال ابن عباس: أمر الله عزَّ وجلَّ المؤمنين أن لا يُقِرُّوا المُنْكَرَ بَيْنَ أظهرهم فيعمهم الله بعذاب يصيب الظالم وغير الظالم(١).

أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أنا أبو طاهر الحارثي، أنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنا عبد الله ابن محمود، أنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، ثنا عبد الله بن المبارك، عن سيف بن أبي سليمان قال: سمعت عديَّ بن عدي الكندي يقول: حدثني مولًى لنا أنه سمع جدي يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله لا يُعذبُ العامَّة بعملِ الخاصة حتى يَرَوا المُنْكَرَ بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن يُنكروه فلا ينكرون، فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة»(٢).

وقال ابن زيد: أراد بالفتنة افتراق الكلمة ومخالفة بعضهم بعضًا(٣).

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا أبو اليمان، أنا شعيب، عن الزهري، أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ستكونُ فِتَنٌ القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، من تشرّفَ لها تستشرفه، فمن وجد ملجأ أو معاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ»(٤).

قوله: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ يعني: العذاب ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يقول: واذكروا يا معشر المهاجرين إذْ أنتم قليل في العدد، مستضعفون في أرض مكة، في ابتداء الإسلام ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ يذهب بكم الناس، يعني: كفار مكة، وقال عكرمة: كفار العرب، وقال وهب: فارس والروم ﴿فَآوَاكُمْ﴾ إلى المدينة ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾ أي: قوّاكم يوم بدر بالأنصار، وقال الكلبي: قوّاكم يوم بدر بالملائكة ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني: الغنائم، أحلَّها لكم ولم يُحلّها لأحدٍ قبلكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦)﴾.

---

(١) «تفسير الطبري»: (١٣/ ٤٧٤)، دون قوله: «يصيب الظالم وغير الظالم».

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٤/ ١٩٢)، والطحاوي في «مشكل الآثار»: (٢/ ٦٦)، وعبد الله بن المبارك في «الزهد» برقم١٣٥٢: ص٤٧٦، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٣٤٦).

(٣) قارن قوله الآخر في الطبري: (١٣/ ٤٧٥)، قال: الفتنة: الضلالة.

(٤) أخرجه البخاري في الفتن، باب تكون الفتنة، القاعد فيها خير من القائم: (١٣/ ٢٩)، وفي الأنبياء، وفي المناقب، وأخرجه مسلم في الفتن، باب نزول الفتن كمواقع القطر برقم٢٨٨٦: (٤/ ٢٢١٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ٢٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٧﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ قال السدي: كانوا يسمعون الشيء من رسول الله ﷺ فيفشونه، حتى يبلغ المشركين[١].

وقال الزهري والكلبي: نزلت الآية في أبي لبابة، هارون بن عبد المنذر الأنصاري، من بني عوف بن مالك، وذلك أن رسول الله ﷺ حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوا رسول الله الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من بني النضير، على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام، فأبى رسول الله ﷺ أن يعطيهم إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر، وكان مناصحًا لهم؛ لأن ماله وولده وعياله كانت عندهم، فبعثه / رسول الله ﷺ، وأتاهم، ١٤٧/أ
فقالوا له: يا أبا لبابة ما ترى أننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه أنه الذبح، فلا تفعلوا، قال أبو لبابة: والله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله، ثم انطلق على وجهه ولم يأت رسول الله ﷺ وشد نفسه على سارية من سواري المسجد وقال: والله، لا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتى أموت أو يتوب اللهُ عليَّ، فلما بلغ رسول الله ﷺ خبرُه قال: أما لو جاءني لاستغفرتُ له، فأما إذ فعل ما فعل فإني لا أطلقه حتى يتوب الله عليه، فمكث سبعة أيام، لا يذوق طعامًا ولا شرابًا حتى خرَّ مغشيًا عليه ثم تاب الله عليه، فقيل له: يا أبا لبابة قد تيب عليك، فقال: لا والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني، فجاءه فحله بيده، ثم قال أبو لبابة: يا رسول الله، إنَّ من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي كله، قال النبي ﷺ: «يجزيك الثُّلُث فتصدق به»، فنزلت فيه: «لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ»[٢]، ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ أي: (ولا تخونوا أماناتكم)[٣] ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٧﴾ أنها أمانة، وقيل: وأنتم تعلمون أن ما فعلتم من الإشارة إلى الحلق: خيانةٌ.

قال السدي: إذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم.

وقال ابن عباس: لا تخونوا الله بترك فرائضه، والرسول بترك سنته، وتخونوا أماناتكم.

قال ابن عباس: هي ما يخفَى عن أعين الناس من فرائض الله، والأعمال التي ائتمن الله عليها.

قال قتادة: اعلموا أنَّ دين الله أمانة، فأدوا إلى الله عزَّ وجلَّ ما ائتمنكم عليه من فرائضه وحدوده، ومن كانت عليه أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

---

(١) الطبري: (١٣/ ٤٨٣).

(٢) انظر: «تفسير الطبري»: (١٣/ ٤٨١)، «سيرة ابن هشام»: (٢/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨)، «أسباب النزول» للواحدي: ص٢٦٩ ـ ٢٧٠، وأخرجه أيضًا: البيهقي في «الدلائل»، وعبد الرزاق في «المصنف». انظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٤٨ ـ ٤٩)، «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٢٣ ـ ٢٤).

(٣) زيادة من «ب».

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ قيل: هذا أيضًا في أبي لبابة؛ وذلك أن أمواله وأولاده كانوا في بني قريظة، فقال ما قال خوفًا عليهم.

وقيل: هذا في جميع الناس.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي ـ إملاءً ـ وأخبرنا أبو بكر محمد بن محمد بن الحسن الطوسي قالا: حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الإسفراييني أنا محمد بن محمد بن رَزْمُويَه[1] حدثنا يحيى بن محمد بن غالب حدثنا يحيى بن يحيى حدثنا عبد الله بن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة عن عائشة أن النبي ﷺ أُتي بصبي فقبّله وقال: «أما إنَّهم مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ وإنَّهم لَمِنْ ريحانِ الله عزَّ وجلَّ»[2].

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٨﴾ لمن نصح لله ولرسوله وأدى أمانته.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بطاعته وترك معصيته ﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ قال مجاهد: مخرجًا في الدنيا والآخرة.

وقال مقاتل بن حيان: مخرجًا في الدين من الشبهات.

وقال عكرمة: نجاة، أي: يفرّق بينكم وبين ما تخافون.

وقال الضحاك: بيانًا، وقال ابن إسحاق: فصلًا بين الحق والباطل يُظهر الله به حقكم ويطفىء باطل من خالفكم، و«الفرقان» مصدر كالرجحان والنقصان ﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ يمح عنكم ما سلف من ذنوبكم ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هذه الآية معطوفة (على قوله)[3]: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ﴾، واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا، وإذ قالوا: اللهم . . . ؛ لأن هذه السورة مدنية، وهذا المكر والقول إنما

(١) في «ب»: (فرقويه).

(٢) أخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٣٥)، وفيه ابن لهيعة: وهو سيىء الحفظ، وللحديث شواهد يتقوى بها، عند أحمد: (٦/ ٤٠٩)، والترمذي في البر والصلة.

(٣) في «ب»: (على ما قبلها).

كانا بمكة، ولكن الله ذكَّرهم بالمدينة كقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾[التوبة: ٤٠]، وكان هذا المكر على ما ذكره ابن عباس وغيره من أهل التفسير:

أنَّ قريشًا فَرِقوا لما أسلمت الأنصار أن يتفاقم أمر رسول الله ﷺ، فاجتمع نفر من كبارهم في دار الندوة ليتشاوروا في أمر رسول الله ﷺ، وكانت رؤوسهم: عتبةَ وشيبة ابني ربيعة وأبا جهل بن هشام وأبا سفيان وطعيمة بن عدي وشيبة بن ربيعة والنضر بن الحارث وأبا البختري بن هشام وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام ونبيه ومنبه ابني الحجاج وأمية بن خلف، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال: شيخ من نجد، سمعت باجتماعكم، فأردت أن أحضركم، ولن تَعْدَمُوا مني رأيًا ونصحًا، قالوا: ادخل فدخل، فقال أبو البختري: أمَّا أنا فأرى أن تأخذوا محمدًا وتحبسوه في بيتٍ، وتشدوا وثاقه، وتسدُّوا باب البيت غير كُوَّةٍ تلقون إليه طعامه وشرابه، وتربَّصوا به ريب المنون حتى يهلك فيه، كما هلك من كان قبله من الشعراء، قال: فصرخ عدو الله الشيخ النجدي وقال: بئس الرأي رأيتم، والله لئن حبستموه في بيت، لخرج أمره من وراء الباب الذي غلَّقتم دونه إلى أصحابه، فيوشك أن يثبوا عليكم ويقاتلوكم ويأخذوه من أيديكم، قالوا: صدق الشيخ، فقال هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي: أمَّا أنا فأرى أن تحملوه على بعير تخرجونه من بين أظهركم فلا يضركم ما صنع، ولا أين وقع إذا غاب عنكم واسترحتم منه، فقال إبليس: ما هذا لكم برأي تعتمدون عليه، تعمدون إلى رجل قد أفسد أحلامكم فتخرجونه إلى غيركم فيفسدهم، ألم تروا إلى حلاوة منطقه وحلاوة لسانه وأخذ القلوب بما تسمع من حديثه؟ والله لئن فعلتم ذلك ليذهبن، وليستميلن قلوب قوم ثم يسير بهم إليكم فيخرجكم من بلادكم، قالوا: صدق الشيخ، فقال أبو جهل: والله لأشيرنَّ عليكم برأي ما أرى غيره، إني أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش شابًا نسيبًا وسيطًا فتيًا، ثم يُعطى كل فتى منهم سيفًا صارمًا، ثم يضربوه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرَّق دمه في القبائل كلها، ولا أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها، وأنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل فتؤدي قريش ديته، فقال إبليس: صدق هذا الفتى، وهو أجودكم رأيًا، القول ما قال، لا أرى رأيًا غيره، فتفرقوا على قول أبي جهل وهم مجمعون له. فأتى جبريلُ النبيَّ ﷺ وأخبره بذلك وأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وأذن الله له عند ذلك بالخروج إلى المدينة، فأمر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب أن ينام في مضجعه وقال له: تسجَّ ببردتي هذه فإنه لن يخلص إليك منهم أمر تكرهه، ثم خرج النبي ﷺ فأخذ قبضة من تراب فأخذ الله أبصارهم عنه فجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهو يقرأ:
﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ إلى قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[يس: ٨-٩]، / ومضى إلى الغار من ثور هو وأبو بكر، ١٤٧/ب
وخلف عليًا بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي قبلها وكانت الودائع تودع عنده ﷺ؛ لصدقه وأمانته، وبات المشركون يحرسون عليًا في فراش رسول الله ﷺ، يحسبون أنه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه فرأوا

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾

عليًا ـ رضي الله عنه ـ، فقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدري، فاقتصوا أثره وأرسلوا في طلبه فلما بلغوا الغار رأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخله لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاثًا، ثم قدم المدينة، ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[1].

﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ ليحبسوك ويسجنوك ويوثقوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ﴾ قال الضحاك: يصنعون ويصنع الله، والمكر: التدبير، وهو من الله التدبير بالحق، وقيل: يجازيهم جزاء المكر ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟﴾ يعني: النضر بن الحارث ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ﴾ وذلك أنه كان يختلف تاجرًا إلى فارس والحيرة فيسمع أخبار رستم واسفنديار، وأحاديث العجم ويمر باليهود والنصارى فيراهم يقرؤون التوراة والإنجيل ويركعون ويسجدون، فجاء إلى مكة فوجد رسول الله ﷺ يصلي ويقرأ القرآن فقال النضر: قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا[2] ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ أخبار الأمم الماضية وأسماؤهم وما سطر الأولون في كتبهم، والأساطير: جمع أسطورة، وهي المكتوبة، من قولهم: سطرت، أي: كتبت[3].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ . . .﴾ الآية، نزلت في النضر بن الحارث من بني عبد الدار[4].

قال ابن عباس: لما قص رسول الله ﷺ شأن القرون الماضية، قال النضر: لو شئت لقلت مثل هذا، إنْ هذا إلا أساطير الأولين ـ أي: ما هذا إلا ما سطره الأولون في كتبهم ـ فقال له عثمان بن مظعون رضي الله عنه:

---

(١) أخرج هذه القصة: ابن إسحاق: (١/ ٣٨٠ ـ ٤٨٤)، قال: حدثني من لا أتهم من أصحابنا، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد بن جبير أبي الحجاج وغيره ممن لا أتهم، عن عبد الله بن عباس . . . ومن طريقه أخرجها أبو نعيم في «الدلائل» والطبري في «التفسير». وأخرجها أيضًا: عبد الرزاق في «المصنف» وفي «التفسير» وابن سعد في «الطبقات». وانظر: «الطبري»: (١٣/ ٤٩٦، وما بعدها) مع تعليق الشيخ محمود شاكر، «تفسير عبد الرزاق»: (١/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩)، «مجمع الزوائد»: (٧/ ٢٧)، «الدر المنثور»: (٤/ ٥١ ـ ٥٢)، «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٢٦ ـ ٢٧).

(٢) انظر: الطبري: (١٣/ ٥٠٣ ـ ٥٠٤)، «أسباب النزول» للواحدي: ص ٢٧٠، «الدر المنثور»: (٤/ ٥٥).

(٣) انظر: الطبري: (١١/ ٣٠٨ ـ ١٠)، (١٣/ ٥٠٣).

(٤) «تفسير الطبري»: (١٣/ ٥٠٥ ـ ٥٠٦)، «الدر المنثور»: (٤/ ٥٥).

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾

اتق الله، فإنَّ محمدًا يقول الحق، قال: فأنا أقول الحق، قال عثمان: فإن محمدًا يقول لا إله إلا الله، قال: وأنا أقول لا إله إلا الله، ولكن هذه بنات الله، يعني: الأصنام، ثم قال: اللّهم إن كان هذا الذي يقول محمد هو الحق من عندك ـ و«الحق» نصب بخبر كان، وهو عمادٌ وصِلةٌ ـ ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كما أمطرتها على قوم لوط ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ أي: ببعض ما عذبت به الأمم، وفيه نزل: «سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ»[1] [المعارج: ١].

وقال عطاء: لقد نزل في النضر بن الحارث بضع عشرة آية فحاق به ما سأل من العذاب يوم بدر[2].

قال سعيد بن جبير: قتل رسول الله ﷺ يوم بدر ثلاثة صبرًا من قريش: طُعيمة بن عدي، وعقبة بن أبي مُعيط، والنضر بن الحارث[3].

وروى أنس ـ رضي الله عنه ـ أن الذي قاله أبو جهل.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، حدثنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا محمد بن النضر، ثنا عبيد الله بن معاذ، ثنا أبي، ثنا شعبة، عن عبد الحميد صاحب الزيادي سمع أنس بن مالك قال: قال أبو جهل: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطرْ علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فنزلت: «وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ»[4].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ﴾ اختلفوا في معنى هذه الآية، فقال محمد بن إسحاق: هذا حكاية عن المشركين أنهم قالوها وهي متصلة بالآية الأولى، وذلك أنهم كانوا يقولون: إن الله لا يعذبنا ونحن نستغفره، ولا يعذب أمةً ونبيُّها معها، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ يذكر جهالتهم وغرتهم واستفتاحهم على أنفسهم: «وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ...» الآية، وقالوا[5]:

---

(١) انظر: «الدر المنثور»: (٨/ ٢٧٧).

(٢) «الدر المنثور»: (٨/ ٢٧٨).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»: (١٤/ ٣٧٢)، وأبو عبيد في «الأموال»: ص١٥٤ طبع قطر، من طريق هشيم عن أبي بشر، وفيه: مطعم بن عدي بدلاً من طعيمة ثم قال: هكذا حديث هشيم، فأما أهل العلم بالمغازي فينكرون مقتل مطعم بن عدي، يقولون: مات بمكة موتًا قبل بدر، وإنما قتل أخوه طعيمة بن عدي، ولم يقتل صبرًا، قتل في المعركة. ومما يصدِّق قولهم الحديث الذي ذكرناه عن الزهري أن النبي ﷺ قال لجبير بن مطعم ـ حين كلمه في الأساري ـ: شيخ لو كان أتانا لشفعناه ـ يعني: أبا مطعم بن عدي ـ فكيف يكون مقتولاً يومئذ، والنبي ﷺ يقول فيه هذه المقالة؟ وأما مقتل عقبة والنضر: فلا يختلفون فيه. «الأموال» لأبي عبيد: ص١٥٤ ـ ١٥٥.

(٤) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ﴾: (٨/ ٣٠٨).

(٥) جاء السياق في الطبري هكذا: وقال حين نعى عليهم سوء أعمالهم: «وما كان الله ليعذبهم...» وهو أتم.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، ثم قال ردًّا عليهم: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾؟ وإن كنت بين أظهرهم وإن كانوا يستغفرون ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾(١).

وقال الآخرون: هذا كلام مستأنف، يقول الله عزَّ وجلَّ إخبارًا عن نفسه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾.

واختلفوا في تأويلها، فقال الضحاك وجماعة: تأويلها: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم مقيم بين أظهرهم، قالوا: أُنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو مقيم بمكة، ثم خرج بين أظهرهم وبقيت بها بقية من المسلمين يستغفرون، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾، ثم خرج أولئك من بينهم فعُذِّبوا، وأُذِنَ في فتح مكة، فهو العذاب الذي وعدهم(٢).

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لم يعذب الله قرية حتى يخرج النبي منها والذين آمنوا ويلحق بحيث أمر، فقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(٣)، يعني: المسلمين، فلما خرجوا قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ﴾، فعذَّبهم الله يوم بدر.

وقال أبو موسى الأشعري: كان فيكم أمانان: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، فأمّا النبي ﷺ فقد مضى، والاستغفار كائن فيكم إلى يوم القيامة(٤).

وقال بعضهم: هذا الاستغفار راجع إلى المشركين، وذلك أنهم كانوا يقولون بعد الطواف: غفرانك غفرانك(٣).

وقال يزيد بن رومان: قالت قريش: إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء، فلما أمسوا ندموا على ما قالوا، فقالوا: غفرانك اللهم، فقال الله عزَّ وجلَّ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(٥).

وقال قتادة والسدي: معناه: وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون، أي: لو استغفروا، ولكنهم لم يكونوا يستغفرون، ولو أنهم أقرُّوا بالذنب، واستغفروا لكانوا مؤمنين(٦).

وقيل: هذا دعاء إلى الإسلام والاستغفار بهذه الكلمة، كالرجل يقول لغيره: لا أعاقبك وأنت تطيعني، أي: أطعني حتى لا أعاقبك.

---

(١) أخرجه الطبري في «التفسير»: (١٣/ ٥١٢ـ٥١٣).

(٢) الطبري: (١٣/ ٥١٠ـ٥١١).

(٣) الطبري: (١٣/ ٥١١).

(٤) أخرجه الترمذي في التفسير: (٨/ ٤٧٢ـ٤٧٣) مرفوعًا، وقال: (هذا حديث غريب، وإسماعيل بن إبراهيم يضعَّف في الحديث).
وأخرجه الطبري موقوفًا على أبي موسى: (١٣/ ٥١٣).

(٥) الطبري: (١٣/ ٥١٢).

(٦) الطبري: (١٣/ ٥١٤).

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

وقال مجاهد وعكرمة: وهم يستغفرون، أي: يُسْلِمون، يقول: لو أسلموا لما عُذِّبوا[(١)]. وروى الوالبي عن ابن عباس: أي: وفيهم من سبق له من الله أن يسلم ويؤمن ويستغفر[(٢)]، وذلك مثل: أبي سفيان، وصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام وغيرهم.

وروى عبد الوهاب عن مجاهد: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، أي: وفي أصلابهم مَنْ يستغفر[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: وما يمنعهم من أن يعذبوا، يريد: بعد خروجك من بينهم ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: يمنعون المؤمنين / من الطواف بالبيت. ١/١٤٨

وقيل: أراد بالعذاب الأول عذاب الاستئصال، وأراد بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: بالسيف.

وقيل: أراد بالأول عذاب الدنيا، وبهذه الآية عذاب الآخرة.

وقال الحسن: الآية الأولى وهي قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾[(٤)].

﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ قال الحسن: كان المشركون يقولون: نحن أولياء المسجد الحرام، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾، أي: أولياء البيت ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ﴾ أي: ليس أولياء البيت ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ يعني: المؤمنين الذين يتقون الشرك ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ قال ابن عباس والحسن:

---

(١) الطبري: (١٣/ ٥١٥).

(٢) الطبري: (١٣/ ٥١٦).

(٣) قال الطبري رحمه الله (١٣/ ٥١٧): (وأولى هذه الأقوال عندي في ذلك بالصواب، قولُ من قال: تأويله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ يا محمد، وبين أظهرهم مقيم، حتى أخرجك من بين أظهرهم؛ لأني لا أهلك قرية وفيها نبيها ـ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ من ذنوبهم وكفرهم، ولكنهم لا يستغفرون من ذلك، بل هم مصرُّون عليه، فهم للعذاب مستحقون ثم قيل: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، بمعنى: وما شأنهم، وما يمنعهم أن يعذبهم الله وهم لا يستغفرون الله من كفرهم فيؤمنوا، وهم يصدون المؤمنين بالله ورسوله عن المسجد الحرام؟).

(٤) قال الإمام الطبري رحمه الله: (لا وجه لقول من قال: ذلك منسوخ بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ...﴾ الآية؛ لأن قوله جل ثناؤه ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ خبر، والخبر لا يجوز أن يكون فيه نسخ، وإنما يكون النسخ للأمر أو النهي). «التفسير»: (١٣/ ٥١٨).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

المكاء: الصفير، وهو في اللغة: اسم طائر أبيض، يكون بالحجاز له صفير، كأنه قال: إلاَّ صوت مكاء، والتصدية: التصفيق.

قال ابن عباس: كانت قريش تطوف بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون(١).

قال مجاهد: كان نفر من بني عبد الدار يُعارضون النبي ﷺ في الطواف، ويستهزئون به، ويُدخلون أصابعهم في أفواههم ويصفرون، فالمكاء: جعل الأصابع في الشدق، والتصدية: الصَّفير، ومنه الصدىٰ الذي يسمعه المصوت في الجبل.

قال جعفر بن ربيعة: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ فجمع كفيه ثم نفخ فيهما صفيرًا(١).

قال مقاتل: كان النبي ﷺ إذا صلى في المسجد قام رجلان عن يمينه فيصفران، ورجلان عن شماله فيصفقان؛ ليخلطوا على النبي ﷺ صلاته، وهم من بني عبد الدار(٢).

قال سعيد بن جبير: التصدية: صدُّهم المؤمنين عن المسجد الحرام وعن الدين والصلاة، وهي على هذا التأويل: التصددة بدالين، فقلبت إحدى الدالين ياءً، كما يقال: تظنيت من الظن، وتقضَّى البازي إذا البازي كسر، أي: تقضض البازي، قال ابن الأنباري: إنما سماه صلاة؛ لأنهم أُمروا بالصلاة في المسجد فجعلوا ذلك صلاتهم ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ليصرفوا عن دين الله.

قال الكلبي ومقاتل: نزلت في المُطْعِمين يوم بدر وكانوا اثنى عشر رجلًا: أبو جهل بن هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأبو البختري بن هشام والنضر بن الحرث وحكيم ابن حزام وأُبي بن خلف وزمعة بن الأسود والحارث بن عامر بن نوفل والعباس بن عبد المطلب، وكلهم من قريش، كان يطعم كلُّ واحدٍ منهم كلَّ يوم عشر جزر(٣).

وقال الحكم بن عتينة: نزلت في أبي سفيان أنفق على المشركين يوم أُحد أربعين أوقية(٤).

---

(١) الطبري: (١٣/ ٥٢٢).

(٢) انظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٦١) عن ابن عباس.

(٣) انظر: «سيرة ابن هشام»: (١/ ٦٧١)، «أسباب النزول» للواحدي: ص٢٧١.

(٤) انظر: الطبري: (١٣/ ٥٣١)، «أسباب النزول»: ص٢٧٢، «الدر المنثور»: (٤/ ٦٣).

لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

قال الله تعالى: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ يريد: ما أنفقوا في الدنيا يصير حسرة عليهم في الآخرة ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ ولا يظفرون ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ منهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ خص الكفار لأن منهم من أسلم.

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ يعني: الكافر من المؤمن، فينزل المؤمن الجنان والكافر النيران.

وقال الكلبي: العمل الخبيث من العمل الصالح الطيب، فيثيب على الأعمال الصالحة الجنة، وعلى الأعمال الخبيثة النار.

وقيل: يعني: الإنفاق الخبيث في سبيل الشيطان من الإنفاق الطيب في سبيل الله.

﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: فوق بعض ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ أي: يجمعه، ومنه السحاب المركوم: وهو المجتمع الكثيف ﴿فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ ردّه إلى قوله: «إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ ... أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ»، الذين خسرت تجارتهم؛ لأنهم اشتروا بأموالهم عذاب الآخرة.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟﴾ عن الشرك ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: ما مضى من ذنوبهم قبل الإسلام ﴿وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ في نصر الله أنبياءه وإهلاك أعدائه، قال يحيى بن معاذ الرازي: توحيدٌ لم يعجزْ عن هدم ما قبله من كفر، أرجو أن لا يعجزَ عن هدم ما بعده من ذنب.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: شرك، قال الربيع: حتى لا يفتن مؤمن عن دينه ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ أي: ويكون الدين خالصًا لله لا شرك فيه ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن الكفر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ قرأ يعقوب «تعملون» بالتاء، وقرأ الآخرون بالياء.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن الإيمان، وعادوا إلى قتال أهله ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم ومعينكم ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ . . . ﴾ الآية، الغنيمة والفيء: اسمان لمالٍ يصيبه المسلمون من أموال الكفار، فذهب جماعة إلى أنهما واحد، وذهب قوم إلى أنهما مختلفان، فالغنيمة: ما أصابه المسلمون منهم عُنْوةً بقتال، والفيء: ما كان عن صلح بغير قتال، فذكر الله عزَّ وجلَّ في هذه الآية حكم الغنيمة فقال: ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾[1].

فذهب أكثر المفسرين والفقهاء إلى أن قوله: «لِلَّهِ» افتتاح كلام على سبيل التبرك، وإضافة هذا المال إلى نفسه لشرفه، وليس المراد منه أنَّ سهمًا من الغنيمة لله مفردًا، فإن الدنيا والآخرة كلها لله عزَّ وجلَّ، وهو قول الحسن وقتادة وعطاء وإبراهيم والشعبي، قالوا: سَهْمُ الله وسهم الرسول واحد، والغنيمة تقسم خمسة أخماس، أربعة أخماسها لمن قاتل عليها، والخمس لخمسة أصناف كما ذكر الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

قال بعضهم: يقسم الخمس على ستة أسهم، وهو قول أبي العالية، سهم لله: فيصرف إلى الكعبة، والأول أصح، أنَّ خُمُس الغنيمة يقسم على خمسة أسهم، سهم كان لرسول الله ﷺ في حياته، واليوم هو لمصالح المسلمين وما فيه قوة الإسلام، وهو قول الشافعي رحمه الله.

وروى الأعمش عن إبراهيم قال: كان أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ يجعلان سهم النبيِّ ﷺ في الكراع والسلاح.

وقال قتادة: هو للخليفة بعده، وقال بعضهم: سهم رسول الله ﷺ مردود في الخمس، والخمس لأربعة أصناف.

١٤٨/ب قوله: ﴿ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ أراد: أن سهمًا من الخمس / لذوي القربى وهم أقارب النبي ﷺ، واختلفوا فيه، فقال قوم: جميع قريش، وقال قوم: هم الذين لا تحل لهم الصدقة.

وقال مجاهد وعلي بن الحسين: هم بنو هاشم.

(١) انظر: الطبري: (١٣/ ٥٤٥ ـ ٥٤٨)، القرطبي: (٨/ ١، وما بعدها)، «أحكام القرآن» لابن العربي: (٢/ ٨٥٥، وما بعدها)، «أحكام القرآن» للجصاص: (٤/ ٢٢٩، وما بعدها) «الخراج» لأبي يوسف: ص١٩ ـ ٣٠، «الخراج» ليحيى بن آدم: ص١٨ ـ ٤٥، «الأموال» لأبي عبيد: ص٢٨، وما بعدها. ففيها تفصيل لآراء العلماء والمفسرين في قسمة الفيء والغنيمة.

وقال الشافعي: هم بنو هاشم وبنو المطلب، وليس لبني عبد شمس ولا لبني نوفل منه شيء، وإن كانوا إخوة، والدليل عليه:

ما أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب، أنا عبد العزيز أحمد الخلال، ثنا أبو العباس الأصم، أنبأنا الربيع، أنبأنا الشافعي، أنبأنا الثقة، عن ابن شهاب، عن ابن المسيب، عن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: قسم رسول الله ﷺ سهم ذي القربى بين بني هاشم وبني المطلب، ولم يعط منه أحدًا من بني عبد شمس ولا بني نوفل شيئًا(١).

وأخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب، أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، ثنا أبو العباس الأصم، أنا الربيع، أنا الشافعي، أنا مطرف بن مازن، عن معمر بن راشد، عن ابن شهاب، أخبرني محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: لمَّا قسم رسول الله ﷺ سهم ذوي القربى بين بني هاشم وبني المطلب، أتيته أنا وعثمان بن عفان فقلنا: يا رسول الله، هؤلاء إخواننا من بني هاشم لا ننكر فضلهم؛ لمكانك الذي وضعك الله منهم، أرأيت إخواننا من بني المطلب أعطيتهم وتركتنا أو منعتنا، وإنما قرابتنا وقرابتهم واحدة، فقال رسول الله ﷺ: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد هكذا، وشبَّك بين أصابعه»(٢).

واختلف أهل العلم في سهم ذوي القربى هل هو ثابت اليوم؟

فذهب أكثرهم إلى أنه ثابت، وهو قول مالك والشافعي.

وذهب أصحاب الرأي إلى أنه غير ثابت، وقالوا: سهم رسول الله ﷺ وسهم ذوي القربى مردُودَان في الخمس، وخمس الغنيمة لثلاثة أصناف اليتامى والمساكين وابن السبيل.

وقال بعضهم: يُعطى للفقراء منهم دون الأغنياء.

والكتاب والسنة يدلان على ثبوته، والخلفاء بعد الرسول ﷺ كانوا يعطونه، ولا يُفضّل فقير على غني؛ لأن النبي ﷺ والخلفاء بعده كانوا يعطون العباس بن عبد المطلب مع كثرة المال، فألحقه الشافعي بالميراث الذي يستحق باسم القرابة، غير أنه يعطى القريب والبعيد، وقال: يفضل الذكر على الأنثى فيُعطى الرجل سهمين، والأنثى سهمًا واحدًا.

قوله: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ وهو جمع اليتيم، واليتيم الذي له سهم في الخمس هو الصغير المسلم، الذي

---

(١) أخرجه الشافعي في «المسند»: (٢/ ١١٢). وانظر: البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر: (٧/ ٤٨٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (١١/ ١٢٦).

(٢) أخرجه الشافعي في «المسند»: (٢/ ١١١)، وأبو داود في الخراج والإمارة، باب في بيان مواضع قسم الخمس: (٤/ ٢٢٠ ـ ٢٢١)، والنسائي في قسم الفيء: (٧/ ١٣٠ ـ ١٣١)، وابن ماجه في الجهاد، باب قسم الخمس: (٢/ ٩٦١)، والمصنف في «شرح السنة»: (١١/ ١٢٥ ـ ١٢٦)، والطبري في «التفسير»: (١٣/ ٥٥٦).

لا أب له، إذا كان فقيرًا ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ هم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو المسافر البعيد عن ماله، فهذا مصرف خمس الغنيمة، ويقسم أربعة أخماس الغنيمة بين الغانمين الذين شهدوا الوقعة، للفارس منهم ثلاثة أسهم، وللرَّاجِل سهم واحد:

لِمَا أخبرنا أبو صالح أحمد بن عبد الملك المؤذن، أنا عبد الله بن يوسف، أنا أبو سعيد بن الأعرابي، ثنا سعدان بن نصر، ثنا أبو معاوية، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر أنَّ رسول الله ﷺ أسهم لرجل ولفرسه ثلاثة أسهم: سهمًا له، وسهمين لفرسه»[١]، وهذا قول أكثر أهل العلم، وإليه ذهب الثوري والأوزاعي ومالك وابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق.

وقال أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ: للفارس سهمان، وللراجل سهم واحد.

ويُرْضخ[٢] للعبيد والنسوان والصبيان إذا حضروا القتال، ويقسم العقار الذي استولى عليه المسلمون كالمنقول، وعند أبي حنيفة: يتخيَّر الإمام في العقار: بين أن يقسمه بينهم، وبين أن يجعله وقفًا على المصالح.

وظاهر الآية لا يفرق بين العقار والمنقول.

ومن قتل مشركًا في القتال يستحق سَلَبَهُ من رأس الغنيمة، لِمَا رُوي عن أبي قتادة أن النبي ﷺ قال يوم حنين: «من قتل قتيلًا له عليه بينة فله سَلَبُهُ»[٣]، والسَّلَبُ: كل ما يكون على المقتول من ملبوس وسلاح وفرسه الذي هو راكبه.

ويجوز للإمام أن ينفِّل بعض الجيش من الغنيمة؛ لزيادة عناءٍ وبلاء يكون منهم في الحرب، يَخُصُّهُم به من بين سائر الجيش ويجعله أُسوة الجماعة في سهمان الغنيمة:

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا يحيى بن بكير، ثنا الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن سالم، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ كان ينفِّل بعض من يبعثُ من السرايا لأنفسهم خاصة، سوى قسم عامة الجيش[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب سهام الفرس: (٦/ ٦٧)، ومسلم في الجهاد والسير، باب كيفية قسمة الغنيمة بين الحاضرين برقم١٧٦٢: (٣/ ١٣٨٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (١١/ ١٠١).

(٢) الرَّضْخُ: العطيَّة القليلة.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي، باب قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾: (٨/ ٣٤ ـ ٣٥)، وأخرجه ـ أيضًا ـ في الجهاد، وأخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب استحقاق سلب القتيل برقم١٧٥١: (٣/ ١٣٧٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (١١/ ١٠٥ ـ ١٠٦).

(٤) أخرجه البخاري في فرض الخُمس، باب ومن الدليل على أن الخُمس لنوائب المسلمين: (٦/ ٢٣٧)، ومسلم في الجهاد والسير، باب الأنفال برقم١٧٥٠: (٣/ ١٣٦٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (١١/ ١١٢).

ورُوي عن حبيب بن مَسْلَمَة الفِهرِيّ، قال شهدت النبيَّ ﷺ نفَّل الرُّبُع في البَدأة والثُّلث في الرجعة[1].

واختلفوا في أن النفل من أين يعطى؟ فقال قوم: من خمس الخمس، سهم النبي ﷺ، وهو قول سعيد بن المسيب، وبه قال الشافعي، وهذا معنى قول النبي ﷺ: «ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخُمُسَ، والخُمُسُ مردودٌ فيكم»[2].

وقال قوم: هو من الأربعة الأخماس بعد إفراز الخمس كسهام الغزاة، وهو قول أحمد وإسحاق.

وذهب بعضهم إلى أن النفل من رأس الغنيمة قبل الخمس كالسلب للقاتل.

وأمّا الفيء: وهو ما أصابه المسلمون من أموال الكفار بغير إيجاف خيل ولا ركاب، بأن صالحهم على مال يؤدونه، ومالُ الجزية، وما يؤخذ من أموالهم إذا دخلوا دار الإسلام للتجارة، أو يموت واحد منهم في دار الإسلام ولا وارث له، فهذا كله فيء.

ومال الفيء كان خالصًا لرسول الله ﷺ في حياته، قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: إنَّ الله قدْ خص رسول الله ﷺ في هذا الفيء بشيء لم يعطه أحدًا غيره[3]، ثم قرأ: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾، إلى قوله: ﴿شَىۡءٍ قَدِيرٌ﴾[الحشر: ٦]، وكانت هذه خالصة لرسول الله ﷺ كان ينفق على أهله وعياله نفقة سنتهم من هذا المال، ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجعل مال الله عزَّ وجلَّ.

واختلف أهل العلم في مصرف الفيء بعد رسول الله ﷺ، فقال قوم: هو للأئمة بعده، وللشافعي فيه قولان، أحدهما: للمقاتِلة الذين أُثبِتَتْ أساميهم في ديوان الجهاد؛ لأنهم القائمون مقام النبي ﷺ في إرهاب العدو، والقول الثاني: أنه لمصالح المسلمين، ويُبدأ بالمقاتِلة فيُعْطَوْنَ منه كفايتهم، ثم بالأهم فالأهم من المصالح.

واختلف أهل العلم في تخميس الفيء، فذهب الشافعي إلى أنه يُخَمَّس: خمسه لأهل الغنيمة على خمسة أسهم، وأربعة أخماسه للمقاتلة وللمصالح.

وذهب الأكثرون: إلى أن الفيء لا يُخَمَّس، بل مصرفُ جميعه واحد، / ولجميع المسلمين فيه حق: ١/١٤٩

أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري، أنا جدي عبد الصمد بن عبد الرحمن البزاز، أنا محمد بن

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب فيمن قال: الخمس قبل النفل: (٤/٥٧)، والترمذي في السير، باب النفل: (٥/١٧٦)، من حديث عبادة، وقال: (حديث حسن)، وقال: (وفي الباب عن ابن عباس وحبيب بن مسلمة ومعن بن يزيد وابن عمر وسلمة بن الأكوع)، وأخرجه ابن ماجه في النفل برقم٢٨٥٢: (٢/ ٩٥١ ـ ٩٥٢)، قال في «الزوائد»: إسناده حسن، وصححه ابن حبان برقم١٦٧٢: ص٤٠٣ من «موارد الظمآن»، وأخرجه سعيد بن منصور في «السنن»: (٢/ ٢٦٢)، والإمام أحمد في «المسند»: (٤/ ١٦٠).

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب الإمام يستأثر بشيء من الفيء لنفسه بلفظ آخر: (٤/ ٦٢)، والنسائي في الفيء: (٧/ ١٣١ ـ ١٣٢)، والإمام أحمد في «المسند»: (٤/ ١٢٨)، (٥/ ٣١٦)، وعزاه في «الدر المنثور»: (٤/ ٦٧) لابن أبي حاتم.

(٣) جاء ذلك في روايات صحيحة كثيرة مطولة ـ ساقها السيوطي في «الدر المنثور»: (٨/ ١٠١ ـ ١٠٣).

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)﴾

زكريا العُذَافِري، أنا إسحاق الدَّبري، ثنا عبد الرزاق، ثنا معمر، عن الزهري، عن مالك بن أوس بن الحدثان: أنه سمع عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: «ما على وجه الأرض مسلم إلاَّ له في هذا الفيء حق إلاَّ ما ملكت أيمانكم»(١).

وأخبرنا أبو سعيد الطاهري، أنبأنا جدي عبد الصمد بن عبد الرحمن البزاز، أنبأنا محمد بن زكريا العذافري، أنبأنا أبو إسحاق الدبري ثنا عبد الرزاق، أنا معمر، عن أيوب، عن عكرمة بن خالد، عن مالك ابن أوس بن الحدثان قال: قرأ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾»، حتى بلغ: «﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: ٦٠]»، فقال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ: «﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾» حتى بلغ: «﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[الأنفال: ٤١]»، ثم قال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ: «﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾»، حتى بلغ: «﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا﴾[الحشر: ٧-٨]»، ثم قال: هذه استوعبت المسلمين عامة، فلئن عشت فليأتينَّ الراعي وهو بِسَرْوِ حِمْيَر نصيبه منها، لم يعرق فيها جبينه»(٢).

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ﴾ قيل: أراد «﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾» يأمر فيه بما يريد، فاقبلوه إن كنتم آمنتم بالله ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي: إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلنا على عبدنا، يعني: قوله: «﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ﴾»، ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يعني: يوم بدر، فرَّق الله بين الحق والباطل وهو ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ حزب الله وحزب الشيطان، وكان يوم الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١)﴾ على نصركم مع قلَّتكم وكثرتهم.

﴿إِذْ أَنتُم﴾ أي: إذ أنتم نزول يا معشر المسلمين ﴿بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بشفير الوادي الأدنى إلى المدينة، والدنيا: تأنيث الأدنى ﴿وَهُم﴾ يعني: عدوكم من المشركين ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ بشفير الوادي الأقصى من المدينة، والقصوى: تأنيث الأقصى.

---

(١) أخرجه الشافعي: (٢/ ١٢٧)، وعبد الرزاق في «المصنف»: برقم(٢٠٠٣٩)، وأبو عبيد في «الأموال»: ص٢٤٣ طبع قطر، ويحيى بن آدم في «الخراج»: ص٤٢، والبيهقي: (٦/ ٣٤٧)، وفيه: عبد الله بن عمر العمري، وهو ضعيف من السابعة. «تقريب».
وانظر: «إرواء الغليل» للألباني: (٥/ ٨٣)، «كنز العمال»: (٤/ ٥٢٥).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف»: برقم(٢٠٠٤٠)، وأبو عبيد بنحوه في «الأموال»: ص٢٥، ٢٤٤، ورواه البخاري مطولاً بنحوه في فرض الخمس وفي المغازي وفي التفسير، ومسلم في الجهاد. وانظر: البيهقي: (٦/ ٣٥٢)، «شرح السنة»: (١١/ ١٣١ ـ ١٣٤).

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

قرأ ابن كثير وأهل البصرة «بالعِدوة» بكسر العين فيهما، والباقون بضمها، وهما لغتان، كالكِسوة والكُسوة والرِّشوة والرُّشوة ﴿وَٱلرَّكْبُ﴾ يعني: العير، يريد: أبا سفيان وأصحابه ﴿أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي: في موضع أسفل منكم إلى ساحل البحر، على ثلاثة أميال من بدر ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ﴾ وذلك أن المسلمين خرجوا ليأخذوا العير وخرج الكفار ليمنعوها، فالتقوا على غير ميعاد، فقال تعالى: «وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ»؛ لقلتكم وكثرة عدوكم ﴿وَلَٰكِن﴾ الله جمعكم على غير ميعاد ﴿لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ من نصر أوليائه وإعزاز دينه وإهلاك أعدائه ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ أي: ليموت من يموت على بينة رآها وعبرة عاينها وحجة قامت عليه ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ ويعيش من يعيش على بينة لوعده: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا»[الإسراء: ١٥]، وقال محمد ابن إسحاق: معناه ليكفر من كفر بعد حجة قامت عليه، ويؤمن من آمن على مثل ذلك، فالهلاك هو الكفر، والحياة هي الإيمان.

وقال قتادة: ليضلّ من ضلّ عن بينه، ويهدي من اهتدى على بينة.

وقرأ أهل الحجاز وأبو بكر ويعقوب: «حَيِيَ» بيائين، مثل «خشي»، وقرأ الآخرون: بياء واحدة مشددة؛ لأنه مكتوب بياء واحدة.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ لدعائكم ﴿عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ بنياتكم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ يريكَ يا محمد المشركين ﴿فِى مَنَامِكَ﴾ أي: نومك، وقال الحسن: «فِى مَنَامِكَ»، أي: في عينك؛ لأن العين موضع النوم ﴿قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ لجبنتم ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ﴾ أي: اختلفتم ﴿فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: في الإحجام والإقدام ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي: سلّمكم من المخالفة والفشل ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ قال ابن عباس: علم ما في صدوركم من الحب لله عزَّ وجلَّ.

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ قال مقاتل: وذلك أن النبي ﷺ رأى في المنام أن العدد قليل قبل لقاء العدو، وأخبر أصحابه بما رأى، فلما التقوا ببدر قلَّل الله المشركين في أعين المؤمنين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: لقد قُلِّلُوا في أعيننا حتى قُلْتُ لرجلٍ إلى جنبي أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، فأسرنا رجلًا فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفًا.

﴿وَيُقَلِّلُكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين ﴿فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ قال السدي: قال ناس من المشركين: إن العير قد انصرفت فارجعُوا، فقال أبو جهل: الآن إذْ برزَ لكم محمد وأصحابه؟ فلا ترجعوا حتى تستأصلوهم، إنما محمد وأصحابه أَكَلَةُ جَزُور، فلا تقتلوهم، واربطوهم بالحبال ـ يقوله من القدرة التي في نفسه ـ، قال الكلبي: استقل بعضهم بعضًا ليجترئوا على القتال، فقلَّل المشركين في أعين المؤمنين لكي لا يَجْبُنُوا، وقلَّلَ المؤمنين في أعين المشركين؛ لكي لا يهربوا ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا﴾ من إعلاء الإسلام وإعزاز أهله وإذلال الشرك وأهله ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾ كائنًا ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي: جماعة كافرة ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ لقتالهم ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: ادعوا الله بالنصر والظفر بهم ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: كونوا على رجاء الفلاح.

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ لا تختلفوا ﴿فَتَفْشَلُواْ﴾ أي: تجبنُوا وتضعفوا ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ قال مجاهد: نُصرتكم، وقال السدي: جراءتكم وجَدُّكم، وقال مقاتل بن حيان: حدتكم، وقال النَّضْرُ بن شُمَيْل: قوتكم، وقال الأخفش: دولتكم، والريح هاهنا كناية عن نفاذ الأمر وجريانه على المراد، تقول العرب: هبت ريح فلان إذا أقبل أمره على ما يريد، قال قتادة وابن زيد: هو ريح النصر لم يكن نصر قط إلا بريح يبعثها الله عزَّ وجلَّ تضرب وجوه العدو، ومنه قول النبي ﷺ: «نُصرتُ بالصَّبَا وأُهلكتْ عادٌ بالدبور»(١).

وعن النعمان بن مُقَرِّن قال: شهدت مع رسول الله ﷺ فكان إذا لم يقاتل أول النهار انتظر حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الاستسقاء، باب قول النبي ﷺ: «نصرت بالصبا»: (٢/ ٥٢٠)، وفي بدء الخلق، والأنبياء، ومسلم في الاستسقاء، باب في ريح الصبا والدَّبُور برقم ٩٠٠: (٢/ ٦١٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (٤/ ٣٨٧).

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب في أي وقت يستحب اللقاء؟: (٤/ ٧)، والترمذي في السير، باب ما جاء في الساعة التي يستحب فيها القتال: (٥/ ٢٣٨)، وقال: حديث حسن صحيح، والحاكم: (٢/ ١١٦)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، والإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ٤٤٤ ـ ٤٤٥)، وعزاه المنذري في «مختصر السنن» للنسائي.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد ابن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا عبد الله بن محمد، ثنا معاوية بن عمرو، ثنا أبو إسحاق، عن موسى بن عقبة، عن سالم أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله وكان كاتبًا له قال: كتب إليه عبد الله بن أبي أوفى فقرأته أن رسول / الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، انتظر حتى مالت ١٤٩/ب
الشمس، ثم قام في الناس فقال: «يا أيها الناس لا تمنَّوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أنَّ الجنَّة تحت ظلال السيوف»، ثم قال: «اللَّهمَّ مُنَزِّل الكتاب ومُجريَ السحاب وهَازِمَ الأحزاب اهْزِمْهُمْ وانصُرنا عليهم»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا﴾ فخرًا وأشرًا ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ قال الزَّجّاج: البطر: الطغيان في النعمة وترك شكرها، والرياء: إظهار الجميل لِيُرى وإبطان القبيح ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ نزلت في المشركين حين أقبلوا إلى بدر ولهم بغيٌ وفخرٌ، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهم هذه قريشٌ قدْ أقبلتْ بخيلائها وفخرها تُجادِلُكَ وتُكَذِّبُ رسولَكَ، اللهم فنصرُكَ الذي وعدتني»، قالوا: لما رأى أبو سفيان أنه قد أحرزَ عِيْرَهُ إلى قريش: إنكم إنَّما خرجتُم لتمنعوا عِيْرَكم فقد نجاها الله فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدرًا، وكان بدرٌ موسمًا من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام، فنقيمَ بها ثلاثًا فننحر الجزور ونُطعم الطعام ونُسقي الخمر وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدًا، فوافوها فسُقوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان، فنهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثلهم وأمرهم بإخلاص النية والحسبة في نصر دينه ومؤازرة نبيه ﷺ[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ وكان تزيينه أن قريشًا لما اجتمعت للسير ذكرت الذي

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار . . . : (٦/ ١٣٠)، ومسلم في الجهاد والسير، باب كراهية تمني لقاء العدو برقم ١٧٤٢ : (٣/ ١٣٦٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (١١/ ٣٨-٣٩).

(٢) انظر - فيما سبق - تفسير الآية (٧) من السورة، والروايات التي ساقها المصنف هناك.

بينها وبين بني بكر من الحرب، فكاد ذلك أن يثنيهم فجاء إبليس في جند من الشياطين معه رايته، فتبدَّىٰ لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم ﴿وَقَالَ﴾ لهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ أي: مجير لكم من كنانة ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ أي: التقى الجمعان رأى إبليس الملائكة نزلوا من السماء علم أنه لا طاقة له بهم ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ قال الضحاك: ولّى مدبرًا، وقال النضر بن شميل: رجع القهقرى على قفاه هاربًا، قال الكلبي: لما التقوا كان إبليس في صف المشركين على صورة سراقة آخذًا بيد الحارث بن هشام، فنكص على عقبيه، فقال له الحارث: أفرارًا من غير قتال؟ فجعل يمسكه، فدفع في صدره وانطلق وانهزم الناس، فلما قدموا مكة قالوا: هزم النَّاسَ سُرَاقَةُ، فبلغ ذلك من سراقة، فقال: بلغني أنكم تقولون: إنِّي هزمت الناس، فوالله ما شعرت بمسيركم، حتى بلغني هزيمتكم! فقالوا: أما أتيتنا في يوم كذا؟ فحلف لهم، فلما أسلموا علموا أن ذلك كان الشيطان.

قال الحسن في قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ قال: رأى إبليسُ جبريلَ معتجرًا ببرد يمشي بين يدي النبي ﷺ، وفي يده اللجام يقودُ الفرس، ما رَكِبَ.

وقال قتادة: كان إبليس يقول: إني أرى ما لا ترون وصدق، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ وكذب، والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة به ولا منعة فأوردهم وأسلمهم، وذلك عادة عدو الله لمن أطاعه، إذا التقى الحق والباطل أسلمهم وتبرأ منهم.

وقال عطاء: إني أخاف الله أن يهلكني فيمن يهلك.

وقال الكلبي: خاف أن يأخذه جبريل عليه السلام ويُعرّف حاله فلا يطيعوه.

وقيل: معناه: إني أخاف الله، أي: أعلم صدق وعده لأوليائه؛ لأنه كان على ثقة من أمره.

﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ قيل: معناه: إني أخاف الله عليكم والله شديد العقاب، وقيل: انقطع الكلام عند قوله: «أَخَافُ ٱللَّهَ»، ثم يقول الله: «وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ».

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنا أبو إسحاق الهاشمي، أنا أبو مصعب، عن مالك، عن إبراهيم بن أبي عُلَيَّة، عن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيْز أن رسول الله ﷺ قال: «ما رُئي الشيطانُ يومًا هو فيه أصغرُ ولا أدحرُ ولا أحقرُ ولا أغيظُ منه يوم عرفة، وما ذاك إلاَّ لِمَا يرى من تَنَزُّلِ الرحمة وتجاوزِ الله تعالى عن الذنوب العِظَام، إلاَّ ما كان من يوم بدر»، فقيل: وما رأى يوم بدر؟ قال: «أما إنه قد رأى جبريل عليه السلام وهو يَزَعُ الملائكة» هذا حديث مرسل(١).

---

(١) أخرجه مرسلًا: الإمام مالك في «الموطأ»، كتاب الحج، باب جامع الحج: (١/ ٤٢٢)، وعبد الرزاق في «المصنف»: (٥/ ١٧ ـ ١٨)، والمصنف في «شرح السنة»: (٧/ ١٥٨).

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك ونفاق: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ يعني: غرَّ المؤمنين دينهم، هؤلاء قوم كانوا مستضعفين بمكة قد أسلموا، وحبسهم أقرباؤهم من الهجرة، فلما خرجت قريش إلى بدر، أخرجوهم كرهًا، فلما نظروا إلى قلة المسلمين ارتابوا وارتدُّوا، وقالوا: غرَّ هؤلاء دينُهم، فقتلوا جميعًا، منهم: قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة المخزوميان والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب وعلي بن أمية بن خلف الجمحي والعاص بن منبه بن الحجاج، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: ومن يسلم أمره إلى الله ويثق به ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ قوي، يفعل بأعدائه ما يشاء ﴿حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمد ﴿إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ﴾ أي: يقبضون أرواحهم، اختلفوا فيه؛ قيل: هذا عند الموت، تضرب الملائكة وجوه الكفار وأدبارهم بسياط النار، وقيل: أراد الذين قتلوا من المشركين ببدر، كانت الملائكة يضربون ﴿وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ قال سعيد بن جبير ومجاهد: يريد أستاههم، ولكن الله حييٌّ يكني.

قال ابن عباس: كان المشركون إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسلمين ضربت الملائكة وجوههم بالسيوف، وإذا ولَّوا أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم.

وقال ابن جريج: يريد: ما أقبل منهم وما أدبر، أي: يضربون أجسادهم كلها، والمراد بالتَّوفي: القتل ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ أي: وتقول لهم الملائكة: ذوقوا عذاب الحريق.

وقيل: كان مع الملائكة مقامع من حديد يضربون بها الكفار، فتلتهب النار في جراحهم، فذلك قوله تعالى: «وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ».

وقال الحسن: هذا يوم القيامة تقول لهم خزنة جهنم: ذوقوا عذاب الحريق، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يقولون لهم ذلك بعد الموت.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الضرب الذي وقع بكم ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: بما كسبت أيديكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ كفعل آل فرعون وصنيعهم وعادتهم، معناه: أن عادة هؤلاء في كفرهم كعادة آل فرعون، قال ابن عباس: هو أن آل فرعون أيقنوا أن موسى نبي من الله فكذبوه، كذلك هؤلاء جاءهم محمد ﷺ بالصدق فكذبوه، فأنزل الله بهم عقوبة كما أنزل بآل فرعون. / ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: ﴿كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾. ١/١٥٠

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أراد: أنَّ الله تعالى لا يغيِّر ما أنعم على قوم حتى يغيِّروا هم ما بهم، بالكفران وترك الشكر، فإذا فعلوا ذلك غيَّر الله ما بهم، فسلبهم النعمة.

وقال السدي: نعمة الله: محمد ﷺ، أنعم الله به على قريش وأهل مكة، فكذَّبوه وكفروا به، فنقله الله إلى الأنصار ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ كصنع آل فرعون ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من كفار الأمم ﴿كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أهلكنا بعضهم بالرجفة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالمسخ وبعضهم بالريح وبعضهم بالغرق، فكذلك أهلكنا كفار بدر بالسيف، لمَّا كذَّبوا بآيات ربِّهم ﴿وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ يعني: الأولين والآخرين.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ قال الكلبي ومقاتل: يعني: يهود بني قريظة، منهم كعب بن الأشرف وأصحابه.

﴿الَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ يعني: عاهدتهم، وقيل: أي: عاهدت معهم، وقيل: أدخل «مِنْ»؛ لأن معناه: أخذت منهم العهد ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ وهم بنو قريظة، نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ، وأعانوا المشركين بالسلاح على قتال النبي ﷺ وأصحابه، ثم قالوا: نسينا وأخطأنا فعاهدهم الثانية، فنقضوا العهد ومالؤوا الكفار على رسول الله ﷺ يوم الخندق، وركب كعبُ بن الأشرف إلى مكة، فوافقهم على مخالفة النبي ﷺ ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ لا يخافون الله تعالى في نقض العهد.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ۝٥٨ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩﴾

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ تجدَنَّهم ﴿فِي الْحَرْبِ﴾ قال مقاتل: إن أدركتهم في الحرب وأسرتهم ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ قال ابن عباس: فنكِّلْ بهم مَنْ وَرَاءهم، وقال سعيد بن جبير: أنذر بهم من خلفهم، وأصل التشريد: التفريق والتبديد، معناه: فرِّقْ بهم جمع كل ناقض، أي: افعل بهؤلاء الذين نقضوا عهدك وجاؤوا لحربك فعلًا من القتل والتنكيل، يَفْرَقُ منك ويخافك مَنْ خلفهم من أهل مكة واليمن ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧﴾ يتذكرون ويعتبرون فلا ينقضون العهد.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾ أي: تعلمن يا محمد ﴿مِن قَوْمٍ﴾ معاهدين ﴿خِيَانَةً﴾ نقض عهد بما يظهر لكم منهم من آثار الغدر كما ظهر من قريظة والنضير ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ فاطرح إليهم عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ يقول: أعلِمْهمْ قبلَ حربك إيّاهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم حتى تكون أنت وهم في العلم بنقض العهد سواءً، فلا يتَّهِمُوا[1] أنك نقضت العهد بنَصْبِ الحرب معهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ۝٥٨﴾.

أخبرنا محمد بن الحسن المروزي، أنا أبو سهل محمد بن عمر بن طرفة السجزي، أنا أبو سليمان الخطابي، أنا أبو بكر محمد بن بكر بن محمد بن عبد الرزاق بن داسة التمار، ثنا أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، ثنا حفص بن عمر النمري، ثنا شعبة، عن أبي الفيض، عن سليم[2] بن عامر، عن رجل من حِمْيَر قال: كان بين معاوية وبين الروم عهدٌ، وكان يسير نحو بلادهم، حتى إذا انقضى العهد غزاهم، فجاء رجل على فرس وهو يقول: الله أكبر الله أكبر، وفاء لا غدر، فنظر فإذا هو عمرو بن عَبَسة، فأرسل إليه معاوية فسأله فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء» فرجع معاوية رضي الله عنه[3].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة وحفص «يحسبن» بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء، «سَبَقُوا»، أي: فاتُوا، نزلت في الذين انهزموا يوم بدر من المشركين، فمن

---

(١) في «ب»: (فلا يتوهموا).

(٢) في «ب»: (سليمان).

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب في الإمام يكون بينه وبين العدو، فيسير إليه: (٤/ ٦٣ - ٦٤)، والترمذي في السير، باب ما جاء في الغدر: (٥/ ٢٠٣ - ٢٠٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن حبان: ص٤٠٥ من «موارد الظمآن»، والإمام أحمد في «المسند»: (٤/ ١١٣)، وعزاه المنذري - أيضًا - للنسائي.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠)﴾

قرأ بالياء يقول: لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سابقين فائتين من عذابنا، ومن قرأ بالتاء فعلى الخطاب، قرأ ابن عامر «أَنَّهُمْ لا يُعْجِزُون» بفتح الألف، أي: لأنهم لا يعجزون، ولا يفوتونني، وقرأ الآخرون بكسر الألف على الابتداء.

قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ الإعداد: اتخاذ الشيء لوقت الحاجة «مِّن قُوَّةٍ»، أي: من الآلات التي تكون لكم قوة عليهم من الخيل والسلاح.

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أنبأنا عبد الغافر بن محمد، أنا محمد بن عيسى الجلودي، ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، عن مسلم بن الحجاج، ثنا هارون بن معروف، ثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن أبي علي ثمامة بن شُفَيٍّ أنه سمع عقبة بن عامر يقول: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول وهو على المنبر: «وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إنَّ القُوَّةَ الرمي، ألا إنَّ القُوَّةَ الرمي، ألا إنَّ القُوَّةَ الرمي»[(١)].

وبهذا الإسناد قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله عزَّ وجلَّ، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه»[(٢)].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا أبو نعيم، ثنا عبد الرحمن بن الغسيل، عن حمزة بن أبي أسيد، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ يوم بدر حين صففنا لقريش وصفُّوا لنا: «إذا أكثبوكم فعليكم بالنبل»[(٣)].

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، ثنا أبو جعفر محمد ابن أحمد بن عبد الجبار الرياني، ثنا حميد بن زنجويه، ثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، ثنا هشام الدستوائي، عن قتادة، عن سالم بن أبي الجعد، عن معدان بن أبي طلحة، عن أبي نجيح السلمي قال: حاصرنا مع النبي ﷺ الطائف فسمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «من بلغ بسهم في سبيل الله فهو له درجة في الجنة»، قال: فبلغت يومئذ ستة عشر سهمًا، وسمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة، باب فضل الرمي برقم ١٩١٧: (٣/ ١٥٢٢).

(٢) أخرجه مسلم في الموضع السابق نفسه.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد، باب التحريض على الرمي: (٦/ ٩١)، والمصنف في «شرح السنة»: (١١/ ٦١).

«من رمى بسهم في سبيل الله فهو عدل محرر»(١).

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أنا أبو الحسين علي بن محمد بن بشران، أنا إسماعيل بن محمد الصفار، ثنا أحمد بن منصور الرمادي، ثنا عبد الرزاق، أنا معمر، عن يحيى بن كثير، عن زيد بن سلام، عن عبد الله ابن زيد الأزرق، عن عقبة بن عامر الجهني، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله يُدخل بالسهم الواحد الجنة ثلاثة: صانعه، والمِمِدَّ به، والرامي به في سبيل الله»(٢).

وروي عن خالد بن زيد بن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله يُدخلُ بالسهم الواحد ثلاثةَ نفرٍ في الجنة: صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به ومُنْبِلَه، وارْمُوا وارْكَبُوا، وإن ترموا أحب / إليَّ ١٥٠/ب
من أن تركبوا، كل شيء يلهو به الرجل باطل إلاَّ رميَهُ بقوسه وتأديبَهُ فرسَهُ وملاعبتَهُ امرأتَه فإنهُنَّ من الحق، ومن ترك الرمي بعدما علمه رغبة عنه فإنَّه نعمة تركها أو قال كفرها»(٣).

قوله: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ يعني: ربطها واقتناؤها للغزو، وقال عكرمة: القوة: الحصون، ومن رباط الخيل: الإناث، ورُوي عن خالد بن الوليد أنه كان لا يركب في القتال إلاَّ الإناث لقلَّة صهيلها، وعن أبي محيريز قال: كان الصحابة - رضي الله عنهم - يستحبون ذكور الخيل عند الصفوف، وإناث الخيل عند البيات والغارات.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، ثنا محمد ابن إسماعيل، ثنا أبو نعيم، ثنا زكريا عن عامر، ثنا عروة البارقي أن النبي ﷺ قال: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والمَغْنَم»(٤).

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا علي بن حفص، ثنا ابن المبارك، ثنا طلحة بن أبي سعيد قال: سمعتُ سعيدًا المقبري يحدث

---

(١) أخرجه أبو داود في العتق، باب أي الرقاب أفضل؟: (٥/ ٤٢٥)، والترمذي في فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الرمي: (٥/ ٢٦٧-٢٦٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في الجهاد، باب فضل من رمى بسهم: (٦/ ٢٧)، والحاكم: (٢/ ١٢١)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، والإمام أحمد في «المسند»: (٤/ ٣٨٦)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ٣٨٣).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف»: برقم(١٩٥٢٢)، وأحمد في «المسند»: (٤/ ١٥٤)، وعبد الله بن زيد الأزرق لم يوثقه غير ابن حبان، وذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا.

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب في الرمي: (٣/ ٣٧٠)، والترمذي في فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الرمي: (٥/ ٢٦٥-٢٦٦)، وقال: هذا حديث حسن، دون قوله: «ومن ترك الرمي»، والنسائي في الخيل، باب تأديب الرجل فرسه: (٦/ ٢٢٢-٢٢٣)، وابن ماجه في الجهاد، باب الرمي في سبيل الله برقم٢٨١١: (٢/ ٩٤٠) بلفظ الترمذي، وصححه الحاكم: (٢/ ٩٥) ووافقه الذهبي، والإمام أحمد: (٤/ ١٤٤).

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد، باب الجهاد ماضٍ مع البر والفاجر: (٦/ ٥٦)، ومسلم في الإمارة، باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة برقم١٨٧٢: (٣/ ١٤٩٣)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٠/ ٣٨٥).

﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾

أنه سمع أبا هريرة يقول: قال النبي ﷺ: «مَنِ احتبسَ فرسًا في سبيل الله إيمانًا بالله وتصديقًا بوعده، فإنَّ شِبَعَهُ ورِيَّهُ ورَوْثَهُ وبَوْلَهُ في ميزانه يوم القيامة»[(١)].

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنا زاهر بن أحمد، أنبأنا أبو إسحاق الهاشمي، أنبأنا أبو مصعب، عن مالك، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «الخيل ثلاثة: لِرَجُلٍ أجرٌ، ولِرَجُلٍ سِتْرٌ، وهي لِرَجُلٍ وِزْرٌ، فأمَّا التي هي له أجر: فرجل ربطها في سبيلِ الله، فأطال لها في مرج أو روضة فما أصابت في طيلها من ذلك المرج أو الروضة كان له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها ذلك فاستَنَّتْ شَرَفًا أو شرفين، كانت آثارُها وأرواثُها حسناتٍ له، ولو أنها مرَّت بنهرٍ فشربتْ منه، ولم يُرِد أن يسقيها كان ذلك له حسنات، فهي لذلك الرجل أجر، وأمَّا التي هي له سِتْرٌ: فرجلٌ ربطها تغنيًا وتعففًا، ثم لم يَنْسَ حقَّ الله في ظُهورها ولا رقابها، فهي له سِتْرٌ، وأمَّا التي هي له وِزْرٌ: فرجلٌ ربطها فخرًا ورياءً، ونواءً لأهل الإسلام، فهي على ذلك وزر» وسُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن الحُمُرِ فقال: «ما أُنزل عليَّ فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: فمن يعمل مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خيرًا يَرَهُ، ومَنْ يعمل مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شرًّا يَرَهُ»[(٢)] ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾ تُخَوِّفُونَ ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ﴾ أي: وترهبون آخرين ﴿مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ قال مجاهد ومقاتل وقتادة: هم بنو قريظة، وقال السدي: هم أهل فارس، وقال الحسن وابن زيد: هم المنافقون، لا تعلمونهم؛ لأنهم معكم يقولون: لا إله إلا الله، وقيل: هم كفار الجن. ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ يوفَ لكم أجره ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ لا تنقص أجوركم.

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ﴾ أي: مالوا إلى الصلح ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ أي: مِلْ إليها وصالحهم، رُوي عن قتادة والحسن: أنَّ هذه الآية منسوخة[(٣)] بقوله: «﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾»[براءة: ٥]، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ثق بالله ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب من احتبس فرسًا: (٦/ ٥٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٠/ ٣٨٨).

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد، باب الخيل لثلاثة . . . : (٦/ ٦٣ ـ ٦٤)، وفي الشرب والأنبياء والتفسير والاعتصام، ومسلم في الزكاة بأطول من هذا، باب إثم مانع الزكاة برقم ٩٨٧: (٢/ ٦٨٠ ـ ٦٨٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (٦/ ٢٤).

(٣) أخرجه الطبري في «التفسير»: (١٠/ ٣٤) طبع الحلبي، ثم قال عنه إنه: (قول لا دلالة عليه من كتاب ولا سنة ولا فطرة عقل، وقد دلَّلنا في غير موضع من كتابنا هذا ـ التفسير ـ وغيره، وعلى أن الناسخ لا يكون إلا ما نفى حكم المنسوخ من كل وجه، فأما ما كان بخلاف ذلك فغير كائن ناسخًا، وقول الله في براءة ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ غير نافٍ حكمُه حكمَ قوله: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾؛ لأن قوله: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ﴾، إنما عُني به بنو قريظة، وكانوا يهودًا أهل كتاب، وقد أذن الله جلَّ ثناؤه للمؤمنين بصلح أهل الكتاب، ومتاركتهم الحرب، على أخذ الجزية منهم. وأما قوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، فإنما عني به مشركي العرب من عبدة الأوثان الذين لا يجوز قبول الجزية منهم، فليس في إحدى الآيتين نفي حكم الأخرى، بل كل واحدة منهما مُحْكَمَةٌ فيما أُنزلت فيه).

وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾
وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ
صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
بِأَنَّهُمْ قَوْمٞ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ﴾ يغدروا ويمكروا بك، قال مجاهد: يعني: بني قريظة ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ كافيك الله ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ أي: بالأنصار.

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ﴾ أي: بين الأوس والخزرج، كانت بينهم إحن وثارات في الجاهلية، فصيَّرهم الله إخوانًا بعد أن كانوا أعداء ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ قال سعيد بن جبير: أسلم مع رسول الله ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلًا وستُّ نسوة، ثم أسلم عمر بن الخطاب فتم به الأربعون، فنزلت هذه الآية[1].

واختلفوا في محل «مَن»؛ فقال أكثر المفسرين: محلُّه خفض عطفًا على الكاف في قوله: «حَسْبُكَ ٱللَّهُ» وحسب من اتبعك، وقال بعضهم: هو رفع عطفًا على اسم الله، معناه: حسبك الله ومتبعوك من المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ﴾ أي: حُثَّهم على القتال ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ﴾ رجلًا ﴿صَٰبِرُونَ﴾ محتسبون ﴿يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ﴾ من عدوهم يقهروهم ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ﴾ صابرة محتسبة ﴿يَغْلِبُوٓاْ أَلْفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ذلك ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٞ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: إن المشركين يقاتلون على غير احتساب ولا طلب ثواب، ولا يثبتون إذا صدقتموهم القتال، خشية أن يُقتلوا، وهذا خبر بمعنى الأمر، وكان هذا يوم بدر فرض الله على الرجل الواحد من المؤمنين قتال عشرة من الكافرين، فثقلت على المؤمنين، فخفَّف الله عنهم، فنزل:

---

(١) انظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٢٧٣.

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾

﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ أي: ضعفًا في الواحد عن قتال العشر، وفي المائة عن قتال الألف، وقرأ أبو جعفر: «ضُعَفاء» بفتح العين والمد على الجمع، وقرأ الآخرون بسكون العين ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ من الكفار ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ فردَّ من العشرة إلى الاثنين، فإن كان المسلمون على الشطر من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا.

وقال سفيان: قال ابن شبرمة: وأرى الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر مثلَ هذا.

قرأ أهل الكوفة: «وإنْ يكنْ منكم مائة» بالياء فيهما، وافق أهل البصرة في الأول والباقون بالتاء فيهما، وقرأ عاصم وحمزة «ضَعْفًا» بفتح الضاد هاهنا وفي سورة الروم، والباقون بضمها.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ قرأ أبو جعفر وأهل البصرة: «تكون» بالتاء، والباقون بالياء، وقرأ أبو جعفر: «أسارى»، والآخرون «أسرى».

وروى الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: لمَّا كان يوم بدر وجيء بالأسرى، فقال رسول الله ﷺ: «ما تقولون في هؤلاء»؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله، قومك وأهلك فاستبقهم واستأنِ بهم، لعلَّ الله أن يتوب عليهم، وخُذْ منهم فدية، تكون لنا قوة على الكفار، وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله، كذَّبوك وأخرجوك قدِّمْهُم نضربْ أعناقهم، مكِّن عليًّا
١/١٥١ من عقيل فيضرب عنقه، ومكِّني من فلان ـ نسيب لعمر ـ فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر، / وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، انظر واديًا كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرم عليهم نارًا، فقال له العباس: قطعتَ رحمك، فسكت رسول الله ﷺ فلم يُجبهم ثم دخل، فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول ابن رواحة، ثم خرج رسول الله ﷺ فقال: «إنَّ الله تعالى لَيُلَيِّنُ قلوب رجال حتى تكون ألْيَنَ من اللبن، ويشدِّد قلوب رجال حتى تكون أشدَّ من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[إبراهيم: ٣٦]، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى حيث قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[المائدة: ١١٨]، وإن مثل يا عمر مثل نوح حيث قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[نوح: ٢٦]، ومثل موسى قال:

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[يونس: ٨٨]، ثم قال رسول الله ﷺ: «أنتم اليوم عالة فلا يفلتنَّ منهم أحد إلا بفداء أو ضرب عنق»، قال عبد الله بن مسعود إلا سهيل بن بيضاء فإني سمعته يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ، فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع عليَّ الحجارة من السماء من ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ﷺ: «إلا سهيل بن بيضاء»[(١)]، قال ابن عباس: قال عمر بن الخطاب فَهَوِيَ رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهوَ ما قلتُ، فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان[(٢)] قلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله ﷺ: أبكي للذي عرض عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة، لشجرة قريبة من رسول الله ﷺ، وأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾[الأنفال: ٦٨ - ٦٩]، فأحل الله الغنيمة لهم[(٣)] بقوله: ﴿لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ جمع أسير، مثل: قتلى وقتيل.

قوله: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يبالغ في قتال المشركين وأسرهم ﴿تُرِيدُونَ﴾ أيها المؤمنون ﴿عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ بأخذكم الفداء ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ يريد لكم ثواب الآخرة بقهركم المشركين ونصر دين الله عزَّ وجلَّ ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧﴾.

وكان الفداء لكل أسير أربعين أوقية، والأوقية أربعون درهمًا.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان هذا يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل، فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله في الأسارى ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾[محمد: ٤]، فجعل الله عزَّ وجلَّ نبيه ﷺ والمؤمنين في امر الأسارى بالخيار: إن شاؤوا قتلوهم، وإن شاؤوا استعبدوهم، وإن شاؤوا فادَوْهم، وإن شاؤوا أعتقوهم[(٤)].

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير، تفسير سورة الأنفال: (٨/ ٤٧٦)، وقال: هذا حديث حسن، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه (فهو منقطع)، وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»: (١٤/ ٣٧٠ ـ ٣٧٢)، ومن طريقه: البيهقي في «السنن»: (٦/ ٣٢١)، وأخرجه أبو عبيد في «الأموال»: ص١٣٥ طبع قطر، وصححه الحاكم: (٣/ ٢١ ـ ٢٢)، ووافقه الذهبي، والطبري: (١٠/ ٤٣) طبع الحلبي، والواحدي: ص٢٧٤، وانظر: «مجمع الزوائد»: (٦/ ٨٦ـ٨٧)، وفي رواية الطبري: ومثلك يابن رواحة كمثل موسى . . . .

(٢) زيادة من «ب».

(٣) الطبري: (١٠/ ٤٤) طبع الحلبي.

(٤) عزاه السيوطي لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في «ناسخه» وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما. «الدر المنثور»: (٤/ ١٠٨).

﴿لَوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٦٩﴾

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ قال ابن عباس: كانت الغنائم حرامًا على الأنبياء والأمم، فكانوا إذا أصابوا شيئًا من الغنائم جعلوه[1] للقربان، فكانت تنزل نار من السماء فتأكله، فلما كان يوم بدر أسرع المؤمنون في الغنائم وأخذوا الفداء، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «لَوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ»[2]، يعني: لولا قضاء من الله سبق في اللوح المحفوظ بأنه يحلّ لكم الغنائم.

وقال الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير: لولا كتاب من الله سبق أنه لا يعذب أحدًا ممن شهد بدرًا مع النبي ﷺ[3].

وقال ابن جريج: لولا كتاب من الله سبق أنه لا يضل قومًا بعد إذ هداهم حتى يُبيِّن لهم ما يتقون، وأنه لا يأخذ قومًا فعلوا أشياء بجهالة[3] ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ لَنَالَكُمْ وأصابكم ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ من الفداء قبل أن تؤمروا به ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨﴾.

قال ابن إسحاق: لم يكن من المؤمنين أحد ممن حضر إلا أحب الغنائم إلاَّ عمر بن الخطاب، فإنه أشار على رسول الله ﷺ بقتل الأسرى، وسعد بن معاذ قال: يا رسول الله، كان الإثخان في القتل أحب إليَّ من استبقاء الرجال، فقال رسول الله ﷺ: «لو نزل عذاب من السماء ما نجا منه غير عمر بن الخطاب وسعد ابن معاذ»[4].

فقال الله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٦٩﴾ رُوي أنه لما نزلت الآية الأولى كفَّ أصحاب رسول الله ﷺ أيديهم عما أخذوا من الفداء فنزل: «فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ...» الآية.

ورُوِّينا عن جابر - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «أُحلتْ لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي»[5].

أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي، أنا أبو طاهر الزيادي، أنا محمد بن الحسين القطان، ثنا أحمد بن

---

(١) في «أ»: (كان).

(٢) عزاه السيوطي لابن مردويه. «الدر المنثور»: (٤/ ١١١).

(٣) انظر: الطبري: (١٠/ ٤٧).

(٤) أخرجه الطبري: (١٤/ ٧١)، قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» ص٧١: (ورواه الواقدي في المغازي من وجه آخر منقطع بمعناه، وروى ابن مردويه من حديث ابن عمر رَفَعه: «لو نزل العذاب ما أفلت منه إلا ابن الخطاب». وانظر: «الأموال» لأبي عبيد: ص١٣٦ - ١٣٧.

(٥) أخرجه البخاري في التيمم: (١/ ٤٣٥ - ٤٣٦) وفي المساجد، والجهاد، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة برقم٥٢١: (١/ ٣٧٠ - ٣٧١)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ١٩٦).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾

يوسف السلمي، ثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن همام، ثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لم تحلّ الغنائمُ لأحد من قبلنا؛ وذلك بأنّ الله رأى ضعفنا وعجزنا فطيّبها لنا»[١].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ قرأ أبو عمرو وأبو جعفر: «من الأسارى» بالألف، والباقون بلا ألف.

نزلت في العباس بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ وكان أُسر يوم بدر، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا طعام أهل بدر، وكان يوم بدر نوبته، وكان خرج بعشرين أوقية من الذهب ليطعم بها الناس، فأراد أن يطعم ذلك اليوم فاقتتلوا وبقيت[٢] العشرون أوقية معه، فأُخذتْ منه في الحرب، فكلّم النبي ﷺ أن يحتسب العشرين أوقية في فدائه فأبى، وقال: «أمّا شيء خرجتَ تستعينُ به علينا فلا أتركه لك»، وكلف فداء ابني أخيه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث، فقال العباس: يا محمد، تركتني أتكفف قريشًا ما بقيت؟ فقال رسول الله ﷺ: «فأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدث فهو لكِ ولعبد الله ولعبيد الله وللفضل وقثم» يعني: بنيه، فقال له العباس: وما يدريك؟ قال: أخبرني به ربي عزَّ وجلَّ، قال العباس: أشهد أنك صادق! وأن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله، ولم يطلع عليه أحد إلاَّ الله عزَّ وجلَّ، فذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ الذين أخذتم منهم الفداء ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾ أي: إيمانًا ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ من الفداء ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ ذنوبكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾
(قال العباس ـ رضي الله عنه ـ)[٢]: فأبدلني الله عنها عشرين عبدًا / كلهم تاجر يضرب بمال كثير وأدناهم ١٥١/ب
يضرب بعشرين ألف درهم مكان عشرين أوقية، وأعطاني زمزم وما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربي عزَّ وجلَّ[٣].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف»: (٥/ ٢٤٢)، والبخاري في فرض الخمس، باب «لم تحل الغنائم لأحد من قبلنا...»: (٦/ ٢٢٠)، ومسلم مطولاً واللفظ له، في الجهاد، باب تحليل الغنائم... برقم١٧٤٧: (٣/ ١٣٦٦ ـ ١٣٦٧).

(٢) ساقط من «ب».

(٣) أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» عن الكلبي: ص٢٧٦، والطبري: (١٤/ ٧٣)، والحاكم في «المستدرك»: (٣/ ٣٢٤) عن عائشة، وقال: (صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٨): (رواه الطبراني في «الأوسط» و«الكبير» باختصار، ورجال «الأوسط» رجال «الصحيح» غير ابن إسحاق وقد صرّح بالسماع وفي «الصحيح» بعضه). وانظر: «الكافي الشاف»: ص٧١.

﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ يعني: الأسارى ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ ببدر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ قال ابن جريج: أراد بالخيانة الكفر، أي: إن كفروا بك فقد كفروا بالله من قبل فأمكن منهم المؤمنين ببدر حتى قتلوهم وأسروهم، وهذا تهديد لهم إن عادوا إلى قتال المؤمنين ومعاداتهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ أي: هجروا قومهم وديارهم، يعني: المهاجرين ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا﴾ رسول الله ﷺ والمهاجرين معه، أي: أسكنوهم منازلهم ﴿وَّنَصَرُوا﴾ أي: ونصروهم على أعدائهم وهم الأنصار رضي الله عنهم ﴿أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ دون أقربائهم من الكفار، قيل: في العون والنصرة، وقال ابن عباس: في الميراث وكانوا يتوارثون بالهجرة، فكان المهاجرون والأنصار يتوارثون دون ذوي الأرحام، وكان من آمن ولم يهاجر لا يرث من قريبه المهاجر حتى كان فتح مكة وانقطعت الهجرة، وتوارثوا بالأرحام حيث ما كانوا، وصار ذلك منسوخًا بقوله عزَّ وجلَّ[1]: «وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ»[الأحزاب: ٦]، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ يعني: الميراث ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ قرأ حمزة: «وِلايتهم» بكسر الواو، والباقون بالفتح، وهما واحد كالدَّلالة والدِّلالة ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي: استنصركم المؤمنون الذين لم يهاجروا ﴿فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ عهد، فلا تنصروهم عليهم ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في العون والنصرة، وقال ابن عباس: في الميراث، أي: يرث المشركون بعضهم من بعض ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: إلاَّ تأخذوا في الميراث بما أمرتكم به.

(١) انظر: الطبري: (١٤/ ٦٨) بتحقيق محمود شاكر.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)﴾

وقال ابن جريج: إلاّ تعاونوا وتناصروا.

وقال ابن إسحاق: جعل الله المهاجرين والأنصار أهل ولاية في الدين دون من سواهم، وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض، ثم قال: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ وهو أن يتولى المؤمن الكافر دون المؤمن ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣)﴾ فالفتنة في الأرض: قوة الكفر، والفساد الكبير: ضعف الإسلام.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لا مرية ولا ريب في إيمانهم، وقيل: حققوا إيمانهم بالهجرة والجهاد وبذل المال في الدين ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤)﴾ في الجنة، فإن قيل: أي معنى في تكرار هذه الآية؟ قيل: المهاجرون كانوا على طبقات: فكان بعضهم أهل الهجرة الأولى، وهم الذين هاجروا قبل الحديبية، وبعضهم أهل الهجرة الثانية، وهم الذين هاجروا بعد صلح الحديبية قبل فتح مكة، وكان بعضهم ذا هجرتين هجرة الحبشة والهجرة إلى المدينة، فالمراد من الآية الأولى الهجرة الأولى، ومن الثانية الهجرة الثانية.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾ أي: معكم، يريد: أنتم منهم وهم منكم ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ وهذا نسخ التوارث بالهجرة، ورد الميراث إلى ذوي الأرحام(١).

قوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في حكم الله عزَّ وجلَّ، وقيل: أراد بكتاب الله القرآن، يعني: القسمة التي بيّنها في سورة النساء ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)﴾.

* * *

(١) انظر: «الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز» لأبي عبيد القاسم بن سلام: ص٢٢٤.

سورة التوبة

قال مقاتل: هذه السورة مدنية إلا آيتين من آخر السورة.

قال سعيد بن جبير: قلتُ لابن عباس: سورة التوبة؟ قال: هي الفاضحة، مازالت تنزل: «ومنهم . . .»، «ومنهم . . .» حتى ظنوا أنها لم تُبْقِ أحدًا منهم إلا ذُكر فيها، قال: قلتُ: سورة الأنفال؟ قال: تلك سورة بدر، قال: قلت: سورة الحشر؟ قال: قل سورة بني النضير[1].

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد إبراهيم الثعلبي، أنبأنا أبو الحسين علي بن محمد بن الحسين الجرجاني، أنبأنا أبو أحمد عبدُ الله بن عديّ الحافظ، أنبأنا أحمد بن علي ابن المثنى، حدثنا عبيد الله القواريري، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا عوف بن أبي جميلة الأعرابي، حدثني يزيد الفارسي، حدثني ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قلت لعثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما «بسم الله الرحمن الرحيم» ووضعتموها في السبع الطُّوالِ؟

فقال عثمان: إن رسول الله ﷺ كان مما يأتي عليه الزمان، وهو ينزل عليه السُّوَرُ ذوات العدد، فإذا نزل عليه الشيء يدعو بعضَ من يكتب عنده، فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا، وقُبِضَ رسول الله ﷺ ولم يبيِّنْ لنا أنها منها، فمن ثَمَّ قرنتُ بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتُها في السبع الطُّوالِ[2].

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٤/ ١٢٠) لأبي عبيد وابن المنذر وابن مردويه، مختصرًا.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب من جهر بها «بسم الله الرحمن الرحيم»: (١/ ٣٨٠)، والترمذي في التفسير: (٨/ ٤٧٧ ـ ٤٨٠)، وقال: هذا حديث حسن ـ وفي نسخة: حسن صحيح ـ لا نعرفه إلا من حديث عوف عن يزيد الفارسي عن ابن عباس، ويزيد الفارسي روى عن ابن عباس غير حديث، ويقال: هو يزيد بن هرمز، وأخرجه ابن حبان: ص١٢٥، من «موارد الظمآن»، والحاكم: (٢/ ٢٢١، ٣٣٠)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والإمام أحمد في «المسند»: (١/ ٥٧، ٦٩)، والطبري: (١/ ١٠٢)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار»: (١/ ٢٠١ ـ ٢٠٢)، وعزاه ابن كثير للنسائي. «تفسير ابن كثير»: (٤/ ٥٨٨).

ورواه الحافظ ابن حجر في «موافقة الخبر الخبر»: ص٦٨، ٦٩، بإسناده إلى أبي داود وحسَّنه، وقال: رجاله رجال الصحيح إلا يزيد الفارسي، وزاد الزيلعي نسبته لأبي يعلى والبزار والبيهقي في «دلائل النبوة» وفي «المعرفة»، وضعف أحمد شاكر هذا الحديث في تعليقه على «المسند»: (١/ ٣٢٩)، وقال: هو حديث ضعيف، بل هو حديث لا أصل له، يدور في كل رواياته على يزيد الفارسي الذي رواه عن ابن عباس، تفرد به عنه عوف بن أبي جميلة الأعرابي وهو ثقة. =

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ أي: هذه براءة من الله، وهي مصدر كالنَّشاءة والدَّناءة.

قال المفسرون: لما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك، كان المنافقون يرجفون الأراجيف، وجعل المشركون ينقضون عهودًا كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ، فأمر الله عزَّ وجلَّ بنقض عهودهم، وذلك قوله عزَّ وجلَّ: «وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً...» الآية[الأنفال: ٥٨].

قال الزَّجَّاج: «بَرَآءَةٌ»، أي: قد برىء الله - تعالى - ورسوله من إعطائهم العهود والوفاء لهم بها إذا نكثوا.

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾ الخطاب مع أصحاب النبي ﷺ وإن كان النبي ﷺ هو الذي عاهدهم وعاقدهم؛ لأنه عاهدهم وأصحابه راضون بذلك، فكأنهم عاقدوا وعاهدوا.

﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ رَجع من الخبر إلى الخطاب، أي: قلْ لهم: سيحوا، أي: سيروا في الأرض، مقبلين ومدبرين، آمنين غير خائفين أحدًا من المسلمين ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ أي: غير فائتين ولا سابقين ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾﴾ أي: مذلُّهم بالقتل في الدنيا والعذاب في الآخرة.

واختلف العلماء في هذا التأجيل وفي هؤلاء الذين برىء الله ورسوله إليهم من العهود التي كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ:

١٥٢/أ فقال جماعة: هذا تأجيل من الله تعالى / للمشركين، فمن كانت مدةُ عهده أقلَّ من أربعة أشهر: رفعه إلى أربعة أشهر، ومن كانت مدة عهده أكثر من أربعة أشهر: حطّه إلى أربعة أشهر، ومن كانت مدة عهده بغير أجل محدود: حدَّه بأربعة أشهر، ثم هو حرب بعد ذلك لله ورسوله، فيُقتل حيث أُدرك ويُؤسر إلا أن يتوب[(١)].

وابتداء هذا الأجل: يوم الحج الأكبر، وانقضاؤه إلى عشر من شهر ربيع الآخر.

فأما مَن لم يكن له عهد فإنما أجله انسلاخ الأشهر الحُرُم، وذلك خمسون يومًا، وقال الزهري: الأشهر الأربعة: شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم[(٢)]؛ لأن هذه الآية نزلت في شوال، والأول هو الأصوب وعليه الأكثرون.

= ومن قبل: ضعفه ابن عطية قال: هذا القول يضعفه النظر أن يختلف في كتاب الله هكذا.

وانظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٣٢)، (٤/ ١٠٦، ٥٨٨)، «فضائل القرآن» الملحق بالتفسير لابن كثير: ص١٧ - ١٨، «شرح السنة» للبغوي: (٤/ ٥١٨)، و«الدر المنثور»: (٤/ ١١٩)، «فتح القدير» للشوكاني: (٢/ ٣٣١ - ٣٣٢)، «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي: (٢/ ٤٧ - ٤٨)، «تفسير المنار»: (٩/ ٦٨٥).

(١) «تفسير الطبري»: (١٤/ ٩٦ - ٩٧).

(٢) «تفسير الطبري»: (١٤/ ١٠١).

وقال الكلبي: إنما كانت الأربعة الأشهر لمن كان له عهد دون أربعة أشهر، فأتمَّ له أربعة أشهر، فأمَّا مَن كان له عهد أكثر من أربعة أشهر فهذا أمر بإتمام عهده بقوله تعالى: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾[1][التوبة: ٤]،

قال الحسن: أمر الله عزَّ وجلَّ رسولَه ﷺ بقتال من قاتله من المشركين، فقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾[البقرة: ١٩٠]، فكان لا يقاتل إلا من قاتله، ثم أمره بقتال المشركين والبراءة منهم، وأجَّلهم أربعة أشهر، فلم يكن لأحد منهم أجل أكثر من أربعة أشهر، لا من كان له عهد قبل البراءة ولا من لم يكن له عهد، فكان الأجل لجميعهم أربعة أشهر، وأحلَّ دماءَ جميعهم من أهل العهد وغيرهم بعد انقضاء الأجل.

وقيل: نزلت هذه قبل تبوك.

قال محمد بن إسحاق ومجاهد وغيرهما: نزلت في أهل مكة، وذلك أن رسول الله ﷺ عاهد قريشًا عام الحديبية على أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمَنُ فيها الناسُ، ودخلت خزاعةُ في عهد رسول الله ﷺ، ودخل بنو بكر في عهد قريش، ثم عَدَتْ بنو بكر على خزاعة فنالت منها، وأعانتهم قريش بالسلاح، فلما تظاهر بنو بكر وقريش على خزاعة ونقضوا عهدهم خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى وقف على رسول الله ﷺ وقال:

لا هُمَّ إني ناشدٌ محمدَا ... حِلْفَ أبينا وأبيه الأتْلَدَا
فانصرْ هداكَ اللهُ نصرًا أبدَا ... وادعُ عِبَادَ الله يأتوا مَدَدًا
أبيض مثل الشمس يسمو صعدًا ... إن سِيْمَ خَسْفًا وجهُهُ تربَّدا
هم بيَّتونا بالهَجِيْر هُجَّدًا ... وقَتَلُونَا رُكَّعًا وسُجَّدا
كنتَ لنا أبًا وكنا ولدا ... ثَمَّتَ أسلمنا ولم نَنْزِعْ يدا
فيهم رسولُ الله قدْ تجرَّدا ... في فَيْلَقٍ كالبحر يَجْري مُزْبِدا
إنَّ قريشًا أخلفُوك المَوْعِدَا ... ونقضُوا ميثاقَك المؤكَّدا
وزَعَمُوا أن لستَ تنجي أحدًا ... وهم أذلُّ وأقلُّ عَدَدا

فقال رسول الله ﷺ: «لا نُصرتُ إنْ لم أنصركم»، وتجهز إلى مكة سنة ثمان من الهجرة.

فلما كان سنة تسع أراد رسول الله ﷺ أن يحج، ثم قال: إنه يحضر المشركون فيطوفون عراة، فبعث أبا بكر تلك السنة أميرًا على الموسم ليقيم للناس الحج، وبعث معه بأربعين آية من صدر براءة؛ ليقرأها على أهل الموسم، ثم بعث بعده عليًا ـ كرَّم الله وجهه ـ على ناقته العضباء؛ ليقرأ على الناس صدر براءة، وأمره أن يُؤذِّن بمكة ومنى وعرفة: أن قد بَرِئَتْ ذِمَّةُ الله وذمة رسوله ﷺ من كل مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

---

(1) «تفسير الطبري»: (١٠٢/١٤).

فرجع أبو بكر فقال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، أَنَزَلَ في شأني شيء؟ قال: لا، ولكن لا ينبغي لأحدٍ أن يبلِّغ هذا إلا رجل من أهلي، أمَا ترضى يا أبا بكر أنك كنت معي في الغار وأنك صاحبي على الحوض؟ قال: بلى يا رسول الله.

فسار أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ أميرًا على الحج، وعلي ـ رضي الله عنه ـ ليؤذن ببراءة، فلما كان قبل يوم التروية بيوم خطب أبو بكر الناس وحدَّثهم عن مناسكهم، وأقام للناس الحج، والعربُ في تلك السنة على منازلهم التي كانوا عليها في الجاهلية من الحج، حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ فأذَّن في الناس بالذي أُمر به، وقرأ عليهم سورة براءة[1].

وقال زيد بن يُثَيع[2]: سألنا عليًا بأي شيء بُعثت في تلك الحجة؟ قال: بُعثتُ بأربعٍ: لا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فهو إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا[3].

ثم حج النبي ﷺ سنة عشر حجة الوداع.

فإن قال قائل: كيف بعث رسول الله ﷺ أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ ثم عزله وبعث عليًا رضي الله عنه؟

قلنا: ذكر العلماء أن رسول الله ﷺ لم يعزل أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ، وكان هو الأمير، وإنما بعث عليًا ـ رضي الله عنه ـ لينادي بهذه الآيات، وكان السبب فيه: أن العرب تعارفوا فيما بينهم في عقد العهود ونقضها، أن لا يتولى ذلك إلا سيدهم، أو رجل من رَهْطِه، فبعث عليًا ـ رضي الله عنه ـ إزاحةً للعلَّة، لئلا يقولوا: هذا خلاف ما نعرفه فيُنَافي نقضَ العهد.

والدليل على أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ كان هو الأمير: ما أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي حدثنا محمد بن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا إسحاق حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن أخي ابن شهاب عن عمه أخبرني حُمَيْد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ في تلك الحجَّة في مؤذِّنين يوم النحر نؤذِّن بمنى: ألاَ لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، قال حميد بن عبد الرحمن: ثم أردف رسول الله ﷺ عليًا فأمره أن يؤذِّن ببراءة، قال أبو هريرة: فأذن

---

(١) جمع المصنف الروايات وساقها مساقًا واحدًا، وهي عند ابن إسحاق والواقدي، وطرف منها في «صحيح البخاري»، و«المستدرك» للحاكم. وانظر: «سيرة ابن هشام»: (٢/ ٣٩٤ ـ ٣٩٦، ٥٤٥ ـ ٥٤٦)، «تفسير الطبري»: (١٤/ ٩٦ ـ ٩٧)، «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٥٠ ـ ٥١).

(٢) زيد بن يُثَيع ـ بضم التحتانية، وقد تبدل همزة بعدها مثلثة ثم تحتانية ساكنة ثم مهملة، الهمداني الكوفي ـ ثقة مخضرم، من الثانية. «التقريب». وفي «الأصل» كانت «تبيع».

(٣) «تفسير الطبري»: (١٤/ ١٠٦)، ورواه الترمذي في الحج: (٣/ ٦١٠)، وفي التفسير: (٨/ ٤٨٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه الإمام أحمد في «المسند» برقم ٤، ٥٩٤، بتحقيق الشيخ أحمد شاكر. وانظر: «فتح الباري»: (٨/ ٣١٩).

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾

معنا علي في أهل منًى يوم النحر: ألاَ لا يحج بعدَ العام مشركٌ، ولا يطوفُ بالبيت عُرْيان[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَذَٰنٌ﴾ عطف على قوله: «بَرَآءَةٌ»، أي: إعلام، ومنه الأذان بالصلاة، يقال: آذنته فأذن، أي: أعلمته، وأصله من الأُذن، أي: أوقعته في أذنه.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ واختلفوا في يوم الحج الأكبر، روى عكرمة عن ابن عباس: أنه يوم عرفة، ورُوي ذلك عن عمر بن الخطاب وابن الزبير، وهو قول عطاء وطاووس ومجاهد وسعيد بن المسيب.

وقال جماعة: هو يوم النحر، رُوي عن يحيى بن الجزار قال: خرج علي ـ رضي الله عنه ـ يوم النحر على بغلة بيضاء، يريد الجبانة، فجاءه رجل وأخذ بلجام دابته وسأله عن يوم الحج الأكبر؟ فقال: يومك هذا، خَلِّ سبيلها، ويُروى ذلك عن عبد الله بن أبي أوفى والمغيرة بن شعبة، وهو قول الشعبي والنخعي وسعيد ابن جبير والسدي.

وروى ابن جريج، عن مجاهد: يوم الحج الأكبر حين الحج أيام منى كلها، وكان سفيان الثوري يقول: يوم الحج الأكبر أيام منى كلها، مثل: يوم صفين ويوم الجمل ويوم بُعاث، يُراد به: الحين والزمان؛ لأن هذه الحروب دامت أيامًا كثيرة.

وقال عبد الله بن الحارث بن نوفل: يوم الحج الأكبر اليوم الذي حج فيه رسول الله ﷺ، وهو قول ابن سيرين؛ لأنه اجتمع فيه حج المسلمين وعيد اليهود والنصارى والمشركين، / ولم يجتمع قبله ولا بعده. ١٥٢/ب

واختلفوا في الحج الأكبر، فقال مجاهد: الحج الأكبر: القِران، والحج الأصغر: إفراد الحج.

وقال الزهري والشعبي وعطاء: الحج الأكبر: الحج، والحج الأصغر: العمرة؛ قيل لها الأصغر لنقصان أعمالها.

قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: ورسوله أيضًا بريء من المشركين، وقرأ يعقوب «ورسولَه» بنصب اللام، أي: أنَّ اللهَ ورسولَه بريءٌ ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ رجعتم من كفركم وأخلصتم

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة، باب ما يستر من العورة: (١/ ٤٧٧ ـ ٤٧٨)، ومسلم في الحج، باب لا يحج بالبيت مشرك... برقم ١٣٤٧: (٢/ ٩٨٢).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا
فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ
فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ
فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

التوحيد ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عن الإيمان ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هذا استثناء من قوله: «بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ» إلا مِنْ عَهْد الذين عاهدتم من المشركين، وهم بنو ضُمْرَةَ، حيٌّ من كنانة، أمر الله تعالى رسولَه ﷺ بإتمام عهدهم إلى مدتهم، وكان قد بقي من مدتهم تسعة أشهر، وكان السبب فيه: أنهم لم ينقضوا العهد، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾ من عهدهم الذي عاهدتموهم عليه ﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟﴾ لم يعاونوا ﴿عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من عدوكم، وقرأ عطاء بن يسار: «لم ينقضوكم» بالضاد المعجمة، من نقض العهد ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾ فأوفوا لهم بعهدهم ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ إلى أجلهم الذي عاهدتموهم عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ﴾ انقضى ومضى ﴿ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ قيل: هي الأشهر الأربعة: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم.

وقال مجاهد وابن إسحاق: هي شهور العهد، فمن كان له عهد فعهده أربعة أشهر، ومن لا عهد له: فأجله إلى انقضاء المحرم خمسون يومًا، وقيل لها: «حُرُمٌ»؛ لأن الله تعالى حرَّم فيها على المؤمنين دماءَ المشركين والتعرُّضَ لهم.

فإن قيل: هذا القدر بعض الأشهر الحرم والله تعالى يقول: «فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ»؟

قيل: لمَّا كان هذا القدر متصلًا بما مضى أُطلق عليه اسم الجمع، ومعناه: مضت المدة المضروبة التي يكون معها انسلاخ الأشهر الحُرم.

قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ في الحل والحرم ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ وأسروهم ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ أي: احبسوهم.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد إن تَحَصَّنُوا فاحصروهم، أي: امنعوهم من الخروج.

وقيل: امنعوهم من دخول مكة والتصرف في بلاد الإسلام.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾

﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي: على كل طريق، والمرصد: الموضع الذي يرقب فيه العدو، من رصدتُ الشيء أرصده: إذا ترَقَّبْتُه، يريد: كونوا لهم رصدًا؛ لتأخذوهم من أي وجهٍ توجهوا.

وقيل: اقعدوا لهم بطريق مكة، حتى لا يدخلوها.

﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ من الشرك ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ يقول: دعوهم فليتصرفوا في أمصاركم ويدخلوا مكة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن تاب ﴿رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ به.

وقال الحسين بن الفضل: هذه الآية نسخت كل آية في القرآن فيها ذكر الإعراض والصبر على أذى الأعداء[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ أي: وإن استجارك أحد من المشركين الذين أمرتُك بقتالهم وقتلهم، أي: استأمنك بعد انسلاخ الأشهر الحرم ليسمع كلام الله ﴿فَأَجِرْهُ﴾ فأعِذْهُ وآمنه ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ فيما له وعليه من الثواب والعقاب ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ أي: إن لم يسلم أبلغه مأمنه، أي: الموضع الذي يأمن فيه: وهو دار قومه، فإن قاتلك بعد ذلك فقدرتَ عليه فاقتله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ أي: لا يعلمون دين الله تعالى وتوحيده فهم محتاجون إلى سماع كلام الله، قال الحسن: وهذه الآية محكمة إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ هذا على وجه التعجب، ومعناه جحد، أي: لا يكون لهم عهد عند الله، ولا عند رسوله، وهم يغدرون وينقضون العهد، ثم استثنى فقال جلَّ وعلا: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قال ابن عباس: هم قريش، وقال قتادة: هم أهل مكة الذين عاهدهم رسول الله ﷺ يوم الحديبية.

قال الله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ﴾ أي: على العهد ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ فلم يستقيموا، ونقضوا العهد، وأعانوا بني بكر على خزاعة، فضرب لهم رسول الله ﷺ بعد الفتح أربعة أشهر يختارون من أمرهم: إمّا أن يُسْلِمُوا، وإمّا أن يلحقوا بأي بلاد شاؤوا، فأسلموا قبل الأربعة الأشهر.

---

(١) تقدم في مناسبة سابقة أن بعض العلماء ـ رحمهم الله ـ قد توسع في هذه القضية، فجعل آية السيف ناسخة لكل آية في القرآن فيها أمر بالصبر أو الصفح أو المسالمة، ولا يسلَّم لهم ذلك فإنه لا تنافي بينها، وهي من «المُنسأ» كما يقول الزركشي وغيره، وليست من المنسوخ.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾﴾

قال السدي والكلبي وابن إسحاق: هم من قبائل بكر: بنو خُزيمة وبنو مُدْلج وبنو ضُمْرة وبنو الدِّيل، وهم الذين كانوا قد دخلوا في عهد قريش يوم الحديبية، ولم يكن نقض العهد إلا قريش وبنو الدِّيل من بني بكر، فأمر بإتمام العهد لمن لم ينقض وهم بنو ضمرة.

وهذا القول أقرب إلى الصواب؛ لأن هذه الآيات نزلت بعد نقض قريش العهد وبعد فتح مكة، فكيف يقول لشيء قد مضى: «فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ»؟ وإنما هم الذين قال عزَّ وجلَّ: «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا»، كما نقصتكم قريش، ولم يظاهروا عليكم أحدًا كما ظاهرت قريش بني بكر على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ هذا مردود على الآية الأولى، تقديره: كيف يكون لهم عهد عند الله كيف[1] وإن يظهروا عليكم! ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ قال الأخفش: كيف لا تقتلونهم وهم إن يظهروا عليكم، أي: يظفروا بكم، لا يرقبوا: لا يحفظوا؟ وقال الضحاك: لا ينتظروا، وقال قطرب: لا يراعوا فيكم إلاًّ، قال ابن عباس والضحاك: قرابةً، وقال يمان: رحمًا، وقال قتادة: «الإلُّ» الحِلْفُ، وقال السدي: هو العهد، وكذلك الذمة، إلاَّ أنه كرر لاختلاف اللفظين، وقال أبو مجلز ومجاهد: «الإلُّ» هو الله عزَّ وجلَّ، وكان عبيد بن عمير يقرأ: «جبر إلّ» بالتشديد، يعني: «عبد الله»، وفي الخبر أن ناسًا قَدِمُوا على أبي بكر من قوم مسيلمة الكذاب، فاستقرأهم أبو بكر كتاب مسيلمة فقرأوا، فقال أبو بكر - رضي الله عنه -: إن هذا الكلام لم يخرج من إلّ، أي: من الله.

والدليل على هذا التأويل قراءة عكرمة «لا يرقبون في مؤمن إيلًا» بالياء، يعني: الله عزَّ وجلَّ، مثل: جبرائيل وميكائيل، «ذِمَّةً»، أي: عهدًا ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: يُعْطُونكم بألسنتهم خلاف ما في قلوبهم ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ الإيمان ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾﴾.

فإن قيل: هذا في المشركين وكلهم فاسقون، فكيف قال: «وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ»؟

قيل: أراد بالفسق: نقضَ العهد، وكان في المشركين من وفَّى بعهده، وأكثرُهم نقضوا، فلهذا قال: «وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ».

---

(١) ساقط من «ب».

﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وذلك أنهم نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ بأكلةٍ
أطعمهم إيَّاها أبو سفيان، قال مجاهد: أطعم أبو سفيان / حلفاءه ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ فمنعوا الناس من ١/١٥٣
الدخول في دين الله، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: وذلك أنَّ أهل الطائف أمدُّوهم بالأموال ليقوُّوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ﴾ بئس ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ يقول: لا تُبقُوا عليهم أيها المؤمنون كما لا يُبْقُونَ عليكم لو ظهروا ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ بنقض العهد.

﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ من الشرك ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أي: فهم إخوانكم ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾ لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ ونبين الآيات ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ قال ابن عباس: حرمت هذه الآية دماء أهل القبلة، قال ابن مسعود: أمرتم بالصلاة والزكاة، فمن لم يزك فلا صلاة له.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع، حدثنا شعيب بن أبي حمزة، عن الزهري، حدثنا عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: لما توفي رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ بعده، وكفر من كفر من العرب، فقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حتى يقولوا لا إله إلا الله، فَمَنْ قال لا إله إلا الله عَصَمَ منِّي مالَهُ ونفسَه إلا بحقِّهِ وحسابُه على الله»؟ فقال أبو بكر: والله لأقاتلنَّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حقُّ المال، والله لو منعوني عَنَاقًا كانوا يُؤدُّونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتُهم على مَنْعها، قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: فوالله ما هو إلا أن قد شرح صدرَ أبي بكر للقتال، فعرفتُ أنه الحق[1].

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عمرو بن عباس، حدثنا ابن مهدي، حدثنا منصور بن سعد، عن ميمون بن

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ: (١٣/ ٢٥٠)، ومسلم في الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله . . . برقم ٢٠: (١/ ٥١ ـ ٥٢).

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

سِيَاهٍ، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلَّى صلاتَنا واستقبل قِبْلَتَنا وأكل ذبيحتنا: فذلك المسلمُ الذي له ذِمَّةُ الله وذِمَّةُ رسوله»[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾ نقضوا عهودهم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ عقدهم، يعني: مشركي قريش ﴿وَطَعَنُواْ﴾ قدحوا ﴿فِي دِينِكُمۡ﴾ عابوه، فهذا دليل على أن الذمي إذا طعن في دين الإسلام ظاهرًا لا يبقى له عهد ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ قرأ أهل الكوفة والشام: «أئمة» بهمزتين حيث كان، وقرأ الباقون بتليين الهمزة الثانية، وأئمة الكفر: رؤوس المشركين وقادتهم من أهل مكة.

قال ابن عباس: نزلت في أبي سفيان بن حرب، وأبي جهل بن هشام، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وسائر رؤساء قريش يومئذٍ الذين نقضوا العهد، وهم الذين همُّوا بإخراج الرسول[2]، وقال مجاهد: هم أهل فارس والروم[3].

وقال حذيفة بن اليمان: ما قُوتِلَ أهلُ هذه الآية ولم يأتِ أهلُها بعد[4] ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ أي: لا عهود لهم، جمع يمين، قال قطرب: لا وفاء لهم بالعهد، وقرأ ابن عامر: «لا إيمان لهم» بكسر الألف، أي: لا تصديق لهم ولا دين لهم، وقيل: هو من الأمان، أي: لا تؤمنوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: لكي ينتهوا عن الطعن في دينكم والمظاهرة عليكم، وقيل: عن الكفر، ثم حض المسلمين على القتال، فقال جلَّ ذِكْرُه: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ نقضوا عهودهم، وهم الذين نقضوا عهد الصلح بالحديبية وأعانوا بني بكر على قتال خزاعة ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ من مكة حين اجتمعوا في دار الندوة ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ﴾ بالقتال ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يعني: يوم بدر، وذلك أنهم قالوا حين سَلِمَ العير: لا ننصرف حتى نستأصل محمدًا وأصحابه.

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة، باب فضل استقبال القبلة: (١/ ٤٩٦).

(٢) أخرجه الطبري في التفسير: (١٤/ ١٥٤)، وبنحوه مطولاً: البخاري: (٨/ ٣٢٢). وانظر: «الدر المنثور»: (٤/ ١٣٦).

(٣) في «الدر المنثور»: (عن مجاهد قال: أبو سفيان).

(٤) انظر: الطبري: (١٤/ ١٥٥ - ١٥٦)، «فتح الباري»: (٨/ ٣٢٣).

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

وقال جماعة من المفسرين: أراد أنهم بدأوا بقتال خُزاعةَ حلفاء رسول الله ﷺ.

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ اتخافونهم فتتركون قتالهم؟ ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ في ترك قتالهم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ يقتلهم الله بأيديكم ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ ويذلهم بالأسر والقهر ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ﴾ ويبرئ داء قلوب قوم ﴿مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ مما كانوا ينالونه من الأذى منهم، وقال مجاهد والسدي: أراد صُدُورَ خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ حيث أعانت قريش بني بكر عليهم، حتى نكأوا فيهم فشفىٰ الله صدورهم من بني بكر بالنبي ﷺ وبالمؤمنين.

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ كَرْبَها ووَجْدَها بمعونة قريش بكرًا عليهم، ثم قال مستأنفًا: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ فيهديه إلى الإسلام كما فعل بأبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ ورُوي أن النبي ﷺ قال يوم فتح مكة: «ارفعوا السَّيْفَ إلا خزاعة من بني بكر إلى العصر»[(١)].

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ اظننتم ﴿أَن تُتْرَكُوا۟﴾ قيل: هذا خطاب للمنافقين، وقيل: للمؤمنين الذين شق عليهم القتال، فقال: أم حسبتم أن تُتركوا فلا تؤمروا بالجهاد، ولا تُمتحنوا، ليظهر الصادق من الكاذب ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ ولم يرَ الله ﴿ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ بطانةً وأولياءَ يُوالونَهم ويُفشون إليهم أسرارهم، وقال قتادة: وليجة خيانة، وقال الضحاك: خديعة، وقال عطاء: أولياء، وقال أبو عبيدة: كل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة، والرجل يكون في القوم وليس منهم: وليجة، فوليجة الرجل: من يختص بدخيلة أمره دون الناس، يقال: هو وليجتي، وهم وليجتي، للواحد والجمع ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»: (١٤/ ٤٨٧)، وأبو عبيد في «الأموال»: ص١٣١.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ...﴾ الآية.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لما أُسر العباسُ يوم بدرٍ عيَّره المسلمون بالكفر وقطيعة الرحم، وأغلظ علي ـ رضي الله عنه ـ له القولَ، فقال العباس: ما لكم تذكرون مساوينا ولا تذكرون محاسننا؟!

فقال له علي ـ رضي الله عنه ـ: ألكم محاسن؟ فقال: نعم، إنَّا لَنَعْمُرُ المسجدَ الحرام ونحجبُ الكعبةَ ونسقي الحاج، فأنزل الله عزَّ وجلَّ ردًّا على العباس: «مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ»[1]، أي: ما ينبغي للمشركين أن يعمروا مساجد الله.

أوجب على المسلمين منعهم من ذلك؛ لأن المساجد إنما تعمر لعبادة الله وحده، فمن كان كافرًا بالله
١٥٣/ب فليس من شأنه أن يعمرها، فذهب جماعة إلى أنَّ المراد منه: العمارة المعروفة من بناء المساجد / ومرمَّته عند الخراب فيمنع منه الكافر حتى لو أوصى به لا تمتثل، وحمل بعضهم العمارة هاهنا على دخول المسجد والقعود فيه، قال الحسن: ما كان للمشركين أن يتركوا فيكونوا أهل المسجد الحرام.

قرأ ابن كثير وأهل البصرة: «مسجد الله» على التوحيد، وأراد به: المسجد الحرام، لقوله تعالى: «وعمارة المسجد الحرام»، ولقوله تعالى: «فلا يقربوا المسجد الحرام»، وقرأ الآخرون: «مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ» بالجمع، والمراد منه أيضًا: المسجد الحرام، قال الحسن: إنما قال مساجد؛ لأنه قبلة المساجد كلها، قال الفرَّاء: ربما ذهبت العرب بالواحد إلى الجمع وبالجمع إلى الواحد، ألا ترى أن الرَّجل يركب البِرْذَوْنَ فيقول: أخذت في ركوب البراذين؟ ويقال: فلان كثير الدرهم والدينار، يريد: الدراهم والدنانير؟

قوله تعالى: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ أرادَ: وهم شاهدون، فلما طرحت «وهم» نصبت، قال الحسن: لم يقولوا نحن كفار، ولكن كلامهم بالكفر شاهد عليهم بالكفر.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: شهادتهم على أنفسهم بالكفر: سجودهم للأصنام، وذلك أن كفار قريش كانوا نصبوا أصنامهم خارج البيت الحرام عند القواعد، وكانوا يطوفون بالبيتِ عراة، كلما طافوا شوطًا سجدوا لأصنامهم، ولم يزدادوا بذلك من الله تعالى إلا بُعْدًا.

وقال السدي: شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو أن النصراني يُسأل من أنت؟ فيقول: أنا نصراني، واليهودي يقول: أنا يهودي، ويقال للمشرك: ما دينك؟ فيقول: مشرك، قال الله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ لأنها لغير الله عزَّ وجلَّ ﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

---

(١) «أسباب النزول» للواحدي: ص٢٧٨.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾

وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: معناه: شاهدين على رسولهم بالكفر؛ لأنه ما من بطن إلا ولدته، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ ولم يَخَفْ في الدين غيرَ الله، ولم يترك أمر الله لخشية غيره ﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ و«عسى» من الله واجب، أي: فأولئك هم المهتدون، والمهتدون: هم المتمسكون بطاعة الله عزَّ وجلَّ التي تؤدي إلى الجنة.

أخبرنا أبو عمرو محمد بن عبد الرحمن النسوي، حدثنا محمد بن الحسين الحيري، حدثنا محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن الفرج الحجازي، حدثنا بقية، حدثنا أبو الحجاج المهدي، عن عمرو بن الحارث، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يتعاهد المسجد فاشهدُوا له بالإيمان»، فإن الله قال: «﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾»[1].

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، أنبأنا محمد بن إسماعيل، حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن مطرف، عن يزيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ غَدا إلى المسجد أو راحَ أعدَّ الله له نُزُلَه مِنَ الجنةِ كلَّما غَدا أو رَاحَ»[2].

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، حدثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني، حدثنا حميد بن زنجويه، حدثنا أبو عاصم عن عبد الحميد بن جعفر حدثني أبي، عن محمود بن لبيد أن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ أراد بناء المسجد فكره الناسُ ذلك، وأحبُّوا أن يَدَعَهُ، فقال عثمان: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «مَنْ بَنَى للهِ مسجدًا بنىٰ اللهُ له كهيئته في الجنة»[3].

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة: (٧/ ٣٦٦)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وفي تفسير سورة التوبة: (٨/ ٤٩٠)، وقال: حسن غريب، وابن ماجه في المساجد، باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة برقم٨٠٢: (١/ ٢٦٣)، والدارمي في الصلاة، باب المحافظة على الصلوات: (١/ ٢٢٢)، وصححه ابن حبان: ص٩٩ من «موارد الظمآن»، والحاكم: (١/ ٢١٢)، (٢/ ٣٣٢)، وتعقبه الذهبي فقال: دَرَّاج كثير المناكير، وأخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٣/ ٦٨، ٧٦)، وابن خزيمة في «صحيحه»: (٢/ ٣٧٩)، والبيهقي: (٣/ ٦٦)، وأبو نعيم في «الحلية»: (٨/ ٣٢٧).

(٢) أخرجه البخاري في صلاة الجماعة، باب فضل من غدا إلى المسجد أو راح: (٢/ ١٤٨)، ومسلم في المساجد، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا . . . برقم٦٦٩: (١/ ٤٦٣)، والمصنف في «شرح السنة»: (٢/ ٣٥٢).

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة، باب من بنى مسجدًا: (١/ ٥٤٤)، ومسلم في المساجد، باب فضل بناء المساجد برقم٥٣٣: (١/ ٣٧٨) بنحوه، والمصنف في «شرح السنة»: (٢/ ٣٤٧).

﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَـٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

وأخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنا أبو طاهر الزيادي، أخبرنا محمد بن الحسين القطان، حدثنا علي بن الحسين الدَّارَابَجِرْدِيّ، حدثنا أبو عاصم بهذا الإسناد، وقال: «بنَى اللهُ له بيتًا في الجنَّة»[١].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ . . . ﴾ الآية.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي، حدثنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، حدثنا عبد الله بن حامد بن محمد الوزان، حدثنا أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن عبيد الله المعافري، حدثنا أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع الحلبي، حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد ابن سلام، عن أبي سلام، حدثنا النعمان بن بشير قال: كنتُ عند منبر رسول الله ﷺ فقال رجل: ما أُبالي أن لا أعمل عملًا بعد أن أسقي الحاج، وقال الآخر: ما أُبالي أن لا أعمل عملًا بعد أن أعمر المسجد الحرام، وقال الآخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتما، فزجرهم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صليتُ دخلت فاستفتيت رسول الله ﷺ فيما اختلفتم فيه، ففعل فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ»، إلى قوله: «وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ»[٢].

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قال العباس حين أُسِرَ يومَ بدرٍ: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنَّا نعمر المسجد الحرام، ونَسْقي الحاجّ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأخبر أن عمارتهم المسجد الحرام وقيامهم على السقاية لا ينفعهم مع الشرك بالله، والإيمان بالله والجهاد مع النبي ﷺ خيرٌ مما هم عليه[٣].

وقال الحسن والشعبي ومحمد بن كعب القرظي: نزلت في علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وطلحة بن شيبة، افتخروا فقال طلحة: أنا صاحب البيت بيدي مفتاحه، وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، وقال علي: ما أدري ما تقولون لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية: «۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ»[٤].

---

(١) انظر: المراجع السابقة نفسها.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله برقم١٨٧٩: (٣/ ١٤٩٩)، والواحدي في «أسباب النزول»: ص٢٧٩.

(٣) انظر: «تفسير الطبري»: (١٤/ ١٧٠)، «أسباب النزول» للواحدي: ص٢٧٩.

(٤) أخرجه الطبري: (١٤/ ١٧١)، والواحدي: ص٢٧٩ ـ ٢٨٠، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السنة النبوية» (٥/ ١٨ ـ ١٩) من=

والسقاية: مصدر كالرعاية والحماية.

قوله: ﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فيه اختصار تقديره: أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كإيمان مَن آمن بالله وجهاد من جاهد في سبيل الله؟

وقيل: السقاية والعمارة بمعنى الساقي والعامر، وتقديره: أجعلتم ساقي الحاج وعامرَ المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله؟! وهذا كقوله تعالى: «والعاقبة للتقوى»، أي: للمتقين، يدل عليه قراءة عبد الله بن الزبير وأُبيّ بن كعب «أجعلتم سُقَاةَ الحاجِّ وعَمَرَةَ المسجدِ الحرام» على جمع الساقي والعامر.

﴿كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثني إسحاق بن إبراهيم، حدثنا أبو أسامة، حدثنا يحيى بن مهلب، عن حسين، عن عكرمة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ جاء إلى السقاية فاستسقىٰ، فقال العباس: يا فضل اذهب إلى أمك فأتِ رسولَ الله ﷺ بشرابٍ من عندها، / فقال: اسقني، فقال: يا رسول الله، إنّهم يجعلون أيديهم فيه، قال: اسقني، فشرب منه، ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها، فقال: اعملوا فإنكم على عمل صالح، ثم قال: لولا أن تُغْلَبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذه، وأشار إلى عاتقه[1]. ١٥٤/أ

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أنا عبد الغافر بن محمد، حدثنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، عن مسلم بن الحجاج، حدثني محمد بن منهال الضرير، حدثنا يزيد بن زُرَيْع، حدثنا حميد الطويل، عن بكر بن عبد الله المُزَنِيّ قال: كنتُ جالسًا مع ابن عباس عند الكعبة فأتاه أعرابي فقال: ما لي أرى بني عمّكم يسقون العسل واللبن وأنتم تسقون النبيذ؟ أمِنْ حاجةٍ بكم؟ أم مِنْ بُخْلٍ؟ فقال ابن عباس: الحمد لله ما بِنا حاجةٌ ولا بُخْلٌ، قدم رسول الله ﷺ على راحلته وخلفه أُسامة فاستسقى، فأتيناه بإناءٍ من نبيذ فشرب وسقى فضلَه أُسامةَ، وقال: أحسنتم وأَجْمَلْتُم كذا فاصنعوا، فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله ﷺ[2].

= طبعة جامعة الإمام: (هذا اللفظ لا يعرف في شيء من كتب الحديث المعتمدة، بل ودلالات الكذب عليه ظاهرة، منها: أن طلحة بن شيبة لا وجود له، وإنما خادم الكعبة هو شيبة بن عثمان بن أبي طلحة، وهذا مما يبين لك أن الحديث لم يصح . . . .

وقول علي: «صليت ستة أشهر قبل الناس»، فهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة، فإن بين إسلامه وإسلام زيد وأبي بكر وخديجة يومًا أو نحوه فكيف يصلي قبل الناس بستة أشهر).

(١) أخرجه البخاري في الحج، باب سقاية الحاج: (٣/ ٤٩١).

(٢) أخرجه مسلم في الحج، باب وجوب المبيت بمنى ليالي أيام التشريق . . . برقم ١٣١٦: (٢/ ٩٥٣).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ فضيلة ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الذين افتخروا بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ الناجون من النار.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ قال مجاهد: هذه الآية متصلة بما قبلها، نزلت في قصة العباس وطلحة وامتناعهما من الهجرة[1].

وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: لمّا أمر النبيُّ ﷺ الناس بالهجرة إلى المدينة، فمنهم من يتعلق به أهله وولده، يقولون: ننشدك بالله أن لا تضيّعنا، فيرقّ لهم فيقيم عليهم ويدع الهجرة، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية[2].

وقال مقاتل: نزلت في التسعة الذين ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بمكة، فنهى الله عن ولايتهم، فأنزل الله: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ»[3] بطانةً وأصدقاء فتفشون إليهم أسراركم وتؤثرون المقام معهم على الهجرة ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟﴾ اختاروا ﴿ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ فيطلعهم على عورة المسلمين ويؤثر المقام معهم على الهجرة والجهاد ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ وكان في ذلك الوقت لا يُقبل الإيمان إلاَّ من مهاجر، فهذا معنى قوله: «فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ».

---

(١) «تفسير الطبري»: (١٤/ ١٧٦)، وعزاه السيوطي لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
انظر: «الدر المنثور»: (٤/ ١٥٧).

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول»: ص٢٨٠، وعزاه الزيلعي للثعلبي من رواية جويبر عن الضحاكِ عن ابن عباس.
انظر: «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٦٠)، «الكافي الشاف»: ص٧٤.

(٣) عزاه الزيلعي وابن حجر للثعلبي: المرجع السابق.

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمتخلفين عن الهجرة: ﴿إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ﴾ وذلك أنه لما نزلت الآية الأولى قال الذين أسلموا ولم يهاجروا: إنْ نحنُ هاجرنا ضاعت أموالُنا وذهبت تجاراتُنا وخُرِّبتْ دُورُنَا وقطعنا أرحامنا، فنزل: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم: «عشيراتكم» بالألف على الجمع، والآخرون بلا ألف على التوحيد؛ لأن جمع العشيرة عشائر ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ اكتسبتموها ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ أي: تستطيبونها، يعني: القصور والمنازل ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ فانتظروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ قال عطاء: بقضائه، وقال مجاهد ومقاتل: بفتح مكة، وهذا أمر تهديد ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى﴾ لا يُوفِّق ولا يُرشد ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ الخارجين عن الطاعة.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ﴾ أي: مشاهد ﴿كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ وحُنَين: وادٍ بين مكة والطائف، وقال عروة: إلى جنب ذي المجاز.

وكانت قصة حُنَين على ما نقله الرواة(١): أن رسول الله ﷺ فتح مكة وقد بقيت عليه أيام من شهر رمضان، ثم خرج إلى حُنين لقتال هوازن وثقيف في اثني عشر ألفًا: عشرة آلاف من المهاجرين، وألفان من الطلقاء، قال عطاء: كانوا ستة عشر ألفًا.

وقال الكلبي: كانوا عشرة آلاف، وكانوا يومئذ أكثر ما كانوا قط، والمشركون أربعة آلاف من هوازن وثقيف، وعلى هوازن مالك بن عوف النَّصْري، وعلى ثقيف كنانة بن عبد ياليل الثقفي، فلما التقى الجمعان قال رجل من الأنصار يقال له سلمة بن سلامة بن وقش: لن نُغلبَ اليومَ عن قلة، فساء رسولَ الله ﷺ كلامُه، ووكلوا إلى كلمة الرجل، وفي رواية: فلم يرض الله قوله، ووكَلَهم إلى أنفسهم فاقتتلوا قتالاً شديدًا،

(١) انظر: «سيرة ابن هشام»: (٢/ ٤٣٧، وما بعدها)، «الدر المنثور»: (٤/ ١٥٨، وما بعدها).

فانهزم المشركون وخلوا عن الذراري، ثم نادوا: يا حماة السواد، اذكروا الفضائح، فتراجعوا وانكشف المسلمون.

قال قتادة: وذكر لنا أن الطلقاء انجفلوا يومئذ بالناس، فلما انجفل القوم هربوا.

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، (أخبرنا عبد العزيز)[1]، أخبرنا عبد الغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا يحيى بن يحيى، أخبرنا أبو خيثمة، عن أبي إسحاق قال: قال رجل للبراء بن عازب: يا أبا عُمارة فررتُم يومَ حنين؟ قال: لا والله ما ولّىٰ رسولُ الله ﷺ، ولكنه خرج شُبّانُ أصحابِه وأخِفّاؤُهُم، وهم حُسّرٌ ليس عليهم سلاح، أو كثيرُ سلاح، فلقوا قومًا رماة لا يكاد يسقط لهم سهم، جمع هوازن وبني نَصْر، فَرَشَقُوهم رَشْقًا ما يكادون يخطؤونَ، فأقبلوا هناك إلى رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقود به، فنزل واستنصر وقال: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، ثم صفَّهُم[2].

ورواه محمد بن إسماعيل، عن عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، وزاد قال: فما رُؤي مِنَ الناس يومئذ أشدُّ منه[3].

ورواه زكريا، عن أبي إسحاق، وزاد قال البراء: كنّا إذا احمرَّ البأس نتقي به، وإن الشجاع منا لَلَّذي يحاذي به، يعني: النبي ﷺ[4].

وروى شعبة، عن أبي إسحاق قال: قال البراء: إن هوازن كانوا قومًا رماة، وإنّا لمّا لقيناهم حملنا عليهم، فانهزموا، فأقبل المسلمون على الغنائم فاستقبلونا بالسِّهام، فأمّا رسول الله ﷺ فلم يفرَّ.

قال الكلبي: كان حول رسول الله ﷺ ثلاثمائة من المسلمين وانْهَزَمَ سائرُ الناسِ.

وقال آخرون: لم يَبْقَ مع النبي ﷺ يومئذ غير العباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن الحارث وأيمن ابن أم أيمن، فقُتِل يومئذ بين يدي رسول الله ﷺ.

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أخبرنا عبد الغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، / حدثنا مسلم بن الحجاج قال: حدثنا أبو طاهر أحمد بن عمرو بن سرح، ١٥٤/ب
حدثنا ابن وهب، أخبرنا يونس، عن ابن شهاب قال: حدثني كثير بن عباس بن عبد المطلب قال: قال عباس: شهدتُ مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمتُ أنا وأبو سفيان بن الحارث رسول الله ﷺ فلم نفارقه،

---

(١) ساقط من «ب».
(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب غزوة حنين برقم١٧٧٦: (٣/ ١٤٠٠).
(٣) أخرجه البخاري في الجهاد، باب من قال: خذها وأنا ابن فلان . . . : (٦/ ١٦٤).
(٤) أخرجه مسلم في الموضع السابق: (٣/ ١٤٠١).

ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، فلما التقى المسلمون والكفار ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يُرْكِض بغلته قِبَلَ الكفار، وأنا آخذٌ بلجام بغلةِ رسولِ الله ﷺ أكفُّها إرادةَ أن لا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركابه، فقال رسول الله ﷺ: أيْ عبّاسُ، نادِ أصحابَ السَّمُرة، فقال عباس ـ وكان رجلًا صيِّتًا ـ فقلت بأعلى صوتي: أين أصحابُ السَّمُرة؟ قال: فوالله لكأن عَطْفَتَهُمْ حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك يا لبيك، قال: فاقتتلوا والكفار، والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار يا معشر الأنصار، ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطال عليها إلى قتالهم، فقال: هذا حين حَمِيَ الوَطِيسُ[١]، ثم أخذ رسولُ الله ﷺ حصياتٍ فرمَى بهنَّ وجوهَ الكفار، ثم قال: انهزموا وربِّ محمد، فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فمازلت أرى حَدَّهم كليلًا، وأمْرَهُمْ مُدْبِرًا[٢].

وقال سلمة بن الأكوع: غزونا مع رسول الله ﷺ حُنينًا قال: فلما غَشُوا رسولَ الله ﷺ نزلَ عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب الأرض، ثم استقبل به وجوههم، فقال: «شاهت الوجُوه»، فما خلق الله منهم إنسانًا إلا ملأ عينه ترابًا بتلك القبضة، فَوَلَّوا مُدْبِرين، فهزمهم الله عزَّ وجلَّ فقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين[٣].

قال سعيد بن جبير: أمدَّ الله تعالى نبيَّه ﷺ بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين[٤].

وفي الخبر: أن رجلًا من بني نضر يقال له: شجرة، قال للمؤمنين بعد القتال: أين الخيل البُلْق والرجال الذين عليهم ثياب بيض، ما كنَّا نراكم فيهم إلاَّ كهيئة الشامة، وما كان قتلنا إلا بأيديهم؟! فأخبروا بذلك النبي ﷺ فقال: تلك الملائكة.

قال الزهري: وبلغني أن شيبة بن عثمان بن طلحة قال[٥]: استدبرتُ رسولَ الله ﷺ يوم حنين وأنا أريد قتله بطلحة بن عثمان وعثمان بن طلحة، وكانا قد قتلا يوم أُحد، فأطلع اللهُ رسولَه ﷺ على ما في نفسي فالتفتَ إليَّ وضرب في صدري وقال: أُعيذك بالله يا شيبة، فأُرْعِدَتْ فرائصي، فنظرت إليه فهو أحب إليَّ من سمعي وبصري، فقلت: أشهد أنكَ رسول الله، وأن الله قد أطلعك على ما في نفسي.

---

(١) لم تسمع هذه الكلمة إلا من رسول الله ﷺ.
والوطيس: حفرة تحتفر تحت الأرض، فتوقد فيها النار، ويصغّر رأسها، ويخرق فيها خرق للدخان، ثم يوضع فيها اللحم ويُسَدُّ، ثم يؤتى من الغد واللحم خابٌّ لم يحترق، ولحمها شواء، وهي مجاز في شدة الحرب.

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب في غزوة حنين برقم ١٧٧٥: (٣/ ١٣٩٨ ـ ١٣٩٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٣١ ـ ٣٢).

(٣) أخرجه مسلم في الموضع السابق برقم ١٧٧٧: (٣/ ١٤٠٢).

(٤) عزاه السيوطي لابن أبي حاتم. «الدر المنثور»: (٤/ ١٦١).

(٥) انظر: «سيرة ابن هشام»: (٢/ ٤٤٤).

فلما هزم الله المشركين وولّوا مدبرين، انطلقوا حتى أتوا أوطاس وبها عيالهم وأموالهم، فبعث رسول الله ﷺ رجلًا من الأشعريين يقال له: أبو عامر، وأمَّرَه على جيش المسلمين إلى أوطاس، فسار إليهم فاقتتلوا، وقتل: دريد بن الصِّمَّة، وهزم الله المشركين، وسبىٰ المسلمون عيالهم، وهرب أميرهم مالك بن عوف النصري، فأتى الطائف فتحصَّنَ بها وأُخِذ مالُه وأهله فيمن أُخذ، وقُتل أميرُ المسلمين أبو عامر[١].

قال الزهري: أخبرني سعيد بن المسيب أنهم أصابوا يومئذ ستة آلاف سبيّ، ثم إن رسول الله ﷺ أتى الطائف فحاصرهم بقية ذلك الشهر، فلما دخل ذو القعدة وهو شهر حرام انصرف عنهم، فأتى الجعرانة فأحرم منها بعُمرة وقسَّم فيها غنائم حنين وأوطاس، وتألف أناسًا، منهم: أبو سفيان بن حرب، والحارث ابن هشام، وسهيل بن عمرو، والأقرع بن حابس، فأعطاهم[٢].

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، حدثنا الزهري، أخبرني أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنَّ أناسًا من الأنصار قالوا لرسول الله ـ حين أفاء الله على رسولِه من أموال هوازن ما أفاء، فطَفِقَ يعطي رجالاً من قريش المائة من الإبل ـ فقالوا: يَغْفِرُ الله لرسولِ الله ﷺ يُعطي قريشًا ويَدَعُنَا، وسيوفُنا تَقْطُرُ من دمائِهم؟ قال أنس: فَحُدِّثَ رسولُ الله ﷺ بمقالتهم، فأرسل إلى الأنصار، فجمعهم في قُبَّةٍ من أَدَمٍ ولم يَدْعُ معهم أحدًا غيرهم، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: «ما كان حديثٌ بلغني عنكم»؟ فقال له فقهاؤهم: أمَّا ذوُو رأينا يا رسول الله، فلم يقولوا شيئًا، وأما أناسٌ منَّا حديثةٌ أسنانُهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يُعطي قريشًا ويترك الأنصار، وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأُعطي رجالاً حديثي عهد بكفر، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون إلى رحالكم برسول الله ﷺ؟ فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به»، قالوا: بلى يا رسول الله قد رضينا، فقال لهم: «إنكم سترون بعدي أَثَرَةً شديدة، فاصبروا حتى تَلْقَوا الله ورسوله على الحوض»[٣].

وقال يونس، عن ابن شهاب: «فإني أُعطي رجالاً حديثي عهد بالكفر أتألفهم»، وقال: «فاصبروا حتى تَلْقَوُا اللهَ ورسولَه فإني على الحوض»، قالوا: سنصبر[٤].

---

(١) سيرة ابن هشام: (٢/ ٤٤٩، ٤٥٣)، «طبقات ابن سعد»: (٢/ ١٥١ ـ ١٥٢).

(٢) انظر: «إمتاع الأسماع» للمقريزي: (١/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣).

(٣) أخرجه البخاري في فرض الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة: (٦/ ٢٥٠ ـ ٢٥١)، ومسلم في الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم برقم ١٠٥٩: (٢/ ٧٣٣، ٧٣٤).

(٤) في رواية مسلم، في الموضع السابق.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا وهيب، حدثنا عمرو بن يحيى، عن عباد بن تميم، عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال: لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حُنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئًا، فكأنهم وجدوا إذْ لم يصبهم ما أصابه الناس، فخطبهم فقال: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضُلَّالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وكنتم عالَةً فأغناكم الله بي»؟ كلما قال شيئًا قالوا: اللهُ ورسولُه أَمَنُّ، قال: ما يمنعكم أن تُجيبوا رسولَ الله كلَّما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ؟ قال: «لو شئتم قلتُم كذا وكذا، أترْضَوْنَ أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا أو شِعْبًا لسلكت وادي الأنصار وشعبهم، الأنصار شِعارٌ والناسُ دِثار، إنكم ستلقون بعدي أَثَرَةً فاصْبِرُوا حتى تلقوني على الحوض»[1].

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أخبرنا عبد الغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا محمد بن / أبي عمر المكي، حدثنا سفيان، ١٥٥/أ
عن عمر ابن سعيد بن مسروق، عن أبيه، عن عباية بن رفاعة، عن رافع بن خديج - رضي الله عنه - قال: أعطى رسولُ الله ﷺ أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أُميَّة وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الإبل، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك، فقال عباس بن مرداس:

فَمَا كانَ حِصْنٌ ولا حَابِسٌ ... يَفُوقَان مِرْدَاسَ في المَجْمَعِ
أَتَجْعَلُ نَهْبِي ونَهْبَ العُبَيْـ ... ـدِ بَيْنَ عُيَيْنَةَ والأَقْرَعِ
وما كنتُ دونَ امرِئٍ مِنْهُمَا ... ومَن تَخْفِضِ اليَوْمَ لا يُرْفَعِ

قال: فأتم له رسول الله ﷺ مائة[2].

وفي الحديث: أن ناسًا من هوازن أقبلوا مسلمين بعد ذلك، فقالوا: يا رسول الله، أنت خيرُ الناس وأَبَرُّ الناس، وقد أُخِذَتْ أبناؤنا ونساؤنا وأموالنا[3].

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا سعيد بن عفير، حدثني الليث، حدثني عقيل عن ابن شهاب، عن عروة بن الزبير:

---

(١) أخرجه البخاري في المغزي، باب غزوة الطائف: (٨/ ٤٧)، ومسلم في الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام برقم١٠٦١: (٢/ ٧٣٨)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٣٤).

(٢) أخرجه مسلم في الموضع السابق برقم١٠٦٠: (٢/ ٧٣٧).

(٣) ذكره الثعلبي بغير سند، وذكره ابن إسحاق وموسى بن عقبة في المغازي مطولاً. انظر: «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٦٤)، «الكافي الشاف»: ص٧٤، «فتح الباري»: (٨/ ٣٨). وانظر: التعليق التالي.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

أن مروان والمِسْوَر بن مَخْرَمَة أخبراه أن رسول الله ﷺ قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين، فسألوه أن يردَّ إليهم أموالهم وسَبْيَهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن معي من ترون وأحبُّ الحديث إليَّ أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين: إما السبي، وإما المال»، قالوا: فإنا نختار سَبْيَنَا، فقام رسول الله ﷺ فأثنى على الله عزَّ وجلَّ بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، فإن إخوانكم هؤلاء جاؤوا تائبين، وإني قد رأيت أن أردَّ إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يُطَيِّبَ ذلك لهم فليفعل، ومن أحب أن يكون على حظ حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل، فقال الناس: قد طَيَّبْنا ذلك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «إنا لا ندري من أَذِنَ منكم في ذلك ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم»، فرجع الناس، فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا[1]، فأنزل الله تعالى في قصة حنين: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ حتى قلتم: لن نغلب اليوم من قلة ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ﴾ كثرتكم ﴿شَيْـًٔا﴾ يعني: إن الظفر لا يكون بالكثرة ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: برحبها وسعتها ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ منهزمين.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ بعد الهزيمة ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾ يعني: الأَمَنَة والطمأنينة، وهي فعيلة من السكون ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يعني: الملائكة، قيل: لا للقتال، ولكن لتجبين الكفار وتشجيع المسلمين؛ لأنه يُروى: أن الملائكة لم يقاتلوا إلا يوم بدر ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالقتل والأسر وسبي العيال وسلب الأموال ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ فيهديه إلى الإسلام ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ...﴾ الآية، قال الضحاك وأبو عبيدة: نجس: قذر، وقيل: خبيث، وهو مصدر يستوي فيه الذكر والأنثى والتثنية والجمع، فأما النِّجْس: بكسر

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب قوله تعالى: ﴿ويوم حنين...﴾: (٨/ ٣٢-٣٣).

النون وسكون الجيم، فلا يقال على الانفراد، إنما يقال: رِجْسٌ نِجْسٌ، فإذا أُفرد قيل: نَجِسٌ، بفتح النون وكسر الجيم، وأراد به: نجاسة الحكم لا نجاسةَ العين، سُمّوا نَجَسًا على الذم، وقال قتادة: سماهم نجسًا لأنهم يُجنبون فلا يغتسلون، ويُحْدِثون فلا يتوضؤون.

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ أراد: منعهم من دخول الحرم؛ لأنهم إذا دخلوا الحرم فقد قربوا من المسجد الحرام، وأراد به: الحرم، وهذا كما قال الله تعالى: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ»[الإسراء: ١]، وأراد به: الحرم؛ لأنه أسرى به من بيت أم هانىء.

قال الشيخ الإمام الأجل: وجملة بلاد الإسلام في حق الكفار على ثلاثة أقسام:

أحدها: الحرم، فلا يجوز للكافر أن يدخله بحال، ذمّيًا كان أو مستأمنًا؛ لظاهر هذه الآية، وإذا جاء رسول من بلاد الكفار إلى الإمام، والإمامُ في الحرم: لا يأذن له في دخول الحرم، بل يبعث إليه من يسمع رسالته خارج الحرم، وجوّز أهل الكوفة للمعاهد دخول الحرم.

والقسم الثاني من بلاد الإسلام: الحجاز، فيجوز للكافر دخولها بالإذن، ولكن لا يقيم فيها أكثر من مقام السفر وهو ثلاثة أيام، لِمَا رُوي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لئن عشتُ إن شاء الله تعالى لأخرجنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدعَ فيها إلا مسلمًا»(١)، فمضى رسول الله ﷺ وأوصى فقال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»(٢)، فلم يتفرغ لذلك أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ، وأجلاهم عمر ـ رضي الله عنه ـ في خلافته، وأجّل لمن يقدم منهم تاجرًا ثلاثًا، وجزيرة العرب: من أقصى عدن أبين إلى ريف العراق في الطول، وأما العرض فمن جدة وما وَالاَهَا من ساحل البحر إلى أطراف الشام.

والقسم الثالث: سائر بلاد المسلمين، فيجوز للكافر أن يقيم فيها بذمة وأمان، ولكن لا يدخلون المساجد إلاَّ بإذن مسلم.

قوله: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ يعني: العام الذي حجَّ فيه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ بالنَّاس، ونادى علي ـ كرّم الله وجهه ـ ببراءة، وهو سنة تسع من الهجرة.

قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ وذلك أنَّ أهل مكة كانت معايشهم من التجارات وكان المشركون يأتون مكة بالطعام ويتجرون، فلما مُنِعُوا من دخول الحرم خافُوا الفقر وضيقَ العيش، وذكروا ذلك لرسول الله

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد، باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب برقم١٧٦٧: (٣/ ١٣٨٨)، والمصنف في «شرح السنة»: (١١/ ١٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في باب إخراج اليهود من جزيرة العرب من كتاب الجزية: (٦/ ٢٧١) مطولاً، ومسلم في الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه برقم١٦٣٧: (٣/ ١٢٥٧ ـ ١٢٥٨)، والمصنف في «شرح السنة»: (١١/ ١٨٠ ـ ١٨١).

﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾

ﷺ فأنزل الله تعالى: «وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً»: فقرًا وفاقةً، يُقال: عال يعيل عَيْلَةً ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ قال عكرمة: فأغناهم الله عزَّ وجلَّ بأن أنزل عليهم المطر مدرارًا فكثر خيرهم، وقال مقاتل: أسلم أهل جدة وصنعاء وجُرَش من اليمن وجلبوا الميرة الكثيرة إلى مكة فكفاهم الله ما كانوا يخافون، وقال الضحاك وقتادة: عوَّضهم الله منها الجزية فأغناهم بها، وذلك قوله تعالى: «قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ»، قال مجاهد: نزلت هذه الآية حين أمر رسول الله ﷺ بقتال الروم، فغزا بعد نزولها غزوة تبوك(١).

وقال الكلبي: نزلت في قريظة والنضير من اليهود، فصالحهم وكانت أول جزية أصابها أهل الإسلام،
١٥٥/ب وأول ذُلّ أصاب أهل الكتاب / بأيدي المسلمين.

قال الله تعالى: ﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ فإنْ قيل: أهل الكتاب يؤمنون بالله واليوم الآخر؟ قيل: لا يؤمنون كإيمان المؤمنين، فإنهم إذا قالوا: عزير ابن الله والمسيح ابن الله، لا يكون ذلك إيمانًا بالله ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لا يدينون الدين الحق، أضاف الاسم إلى الصفة، وقال قتادة: الحق هو الله، أي: لا يدينون دينَ الله، ودينه الإسلام، وقال أبو عبيدة: معناه: لا يطيعون الله تعالى طاعة أهل الحقّ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يعني: اليهود والنصارى ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ﴾ وهي الخراج المضروب على رقابهم ﴿عَن يَدٍ﴾ عن قهر وذلّ، قال أبو عبيدة: يقال لكل من أعطى شيئًا كرهًا من غير طيب نفس: أعطاه عن يدٍ، وقال ابن عباس: يعطونها بأيديهم ولا يرسلون بها على يد غيرهم، وقيل: عن يدٍ، أي: عن نقد لا نسيئة، وقيل: عن إقرار بإنعام المسلمين عليهم بقبول الجزية منهم ﴿وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أذلاء مقهورون، قال عكرمة: يعطون الجزية عن قيام، والقابض جالس، وعن ابن عباس قال: تُؤخذ منه ويُوطأ عنقه، وقال الكلبي: إذا أعطى صفع في قفاه، وقيل: يؤخذ بلحيته ويضرب في لهزمتيه، وقيل: يُلبّب ويُجر إلى موضع الإعطاء بعنف، وقيل: إعطاؤه إيّاها هو الصَّغار.

وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الصَّغار هو جريان أحكام الإسلام عليهم.

---

(١) انظر: «الدر المنثور»: (٤/ ١٦٧).

واتفقت الأُمة على جواز أخذ الجزية من أهل الكتابين، وهم اليهود والنصارى إذا لم يكونوا عربًا.

واختلفوا في الكتابي العربي وفي غير أهل الكتاب من كفار العجم، فذهب الشافعي: إلى أنَّ الجزية على الأديان لا على الأنساب، فتؤخذ من أهل الكتاب عربًا كانوا أو عجمًا، ولا تؤخذ من أهل الأوثان بحال، واحتج بأن النبي ﷺ أخذها من أكيدر دومة، وهو رجل من العرب يقال: إنه من غسان، وأخذ من أهل ذمة اليمن، وعامَّتهُم عرب.

وذهب مالك والأوزاعي: إلى أنها تؤخذ من جميع الكفار إلا المرتد.

وقال أبو حنيفة تُؤخذ من أهل الكتاب على العموم، وتؤخذ من مشركي العجم، ولا تؤخذ من مشركي العرب، وقال أبو يوسف: لا تؤخذ من العربي، كتابيًا كان أو مشركًا، وتُؤخذ من العجمي كتابيًا كان أو مشركًا.

وأما المجوس: فاتفقت الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على أخذ الجزية منهم.

أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي، أخبرنا سفيان، عن عمرو بن دينار، سمع بَجَالة يقول: لم يكن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن النبي ﷺ أخذها من مجوس هَجَر(١).

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، عن مالك، عن جعفر بن محمد، عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس فقال: ما أدري كيف أصنع في أمرهم؟ فقال عبد الرحمن بن عوف: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «سُنُّوا بهم سُنَّةَ أهل الكتاب»(٢).

وفي امتناع عمر ـ رضي الله عنه ـ عن أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن (بن عوف أن النبي ﷺ أخذها من مجوس هجر، دليلٌ على أن رأي الصحابة كان على أنها لا تُؤخذ)(٣) من كل مشرك، وإنما تُؤخذ من أهل الكتاب.

---

(١) أخرجه البخاري في الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب: (٦/ ٢٥٧)، والشافعي في «المسند»: (٢/ ١٣٠).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ»، باب الزكاة: (١/ ٢٧٨)، والشافعي: (٢/ ١٣٠ ـ ترتيب المسند)، وأبو عبيدة في «الأموال»: ص٤٢، وابن أبي شيبة في «المصنف»: (٣/ ٢٢٤)، والخطيب في «تاريخ بغداد»: (١٠/ ٨٨)، والبيهقي في «السنن»: (٩/ ١٨٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (١١/ ١٦٩).

وقال ابن عبد البر: هذا حديث منقطع، لكن معناه يتصل من وجوه حِسَان. وانظر: «نصب الراية»: (٣/ ٤٤٨ ـ ٤٤٩)، «مجمع الزوائد»: (٦/ ١٣)، «إرواء الغليل»: (٥/ ٨٨).

(٣) ما بين القوسين ساقط من «أ».

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾

واختلفوا في أن المجوس: هل هم من أهل الكتاب أم لا؟ فرُوي عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: كان لهم كتاب يدرسونه، فأصبحوا وقد أُسري على كتابهم، فرُفِعَ من بين أظهرهم[1].

واتفقوا على تحريم ذبائح المجوس ومناكحتهم بخلاف أهل الكتابين.

أما من دخل في دين اليهود والنصارى من غيرهم من المشركين نُظِرَ: إن دخلوا فيه قبل النسخ والتبديل يُقَرّون بالجزية، وتحلّ مناكحتهم وذبائحهم، وإن دخلوا في دينهم بعد النسخ بمجيء محمد ﷺ لا يُقَرّون بالجزية، ولا تحلّ مناكحتهم وذبائحهم، ومن شككنا في أمرهم أنهم دخلوا فيه بعد النسخ أو قبله: يقرون بالجزية تغليبًا لحقن الدم، ولا تحل مناكحتهم وذبائحهم تغليبًا للتحريم، فمنهم نصارى العرب من تنوخ وبهراء وبني تغلب، أقرّهم عمر ـ رضي الله عنه ـ على الجزية، وقال لا تحل لنا ذبائحهم.

وأما قدر الجزية: فأقله دينار، لا يجوز أن ينقص منه، ويقبل الدينار من الفقير والغني والوسط لما أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي، أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي، حدثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي، حدثنا أبو عيسى الترمذي، حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن مسروق، عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فأمره أن يأخذ من كل حالم دينارًا أو عَدْلَه مَعَافِرَ[2]، فالنبي ﷺ أمره أن يأخذ من كل حَالِم ـ أي: بالغ ـ دينارًا ولم يفصل بين الغني والفقير والوسط، وفيه دليل على أنها لا تجب على الصبيان وكذلك لا تجب على النسوان، إنما تُؤخذ من الأحرار العاقلين البالغين من الرجال.

وذهب قوم إلى أنه على كل موسر أربعة دنانير، وعلى كل متوسط ديناران، وعلى كل فقير دينار، وهو قول أصحاب الرأي.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ روى سعيد بن

---

(١) جاء ذلك في خبر عن علي ـ رضي الله عنه ـ أخرجه الشافعي في «المسند»: (٢/ ١٣١)، وفيه سعيد بن المرزبان: مجروح، قال يحيى بن سعيد القطان: لا أستحلّ أروي عنه. وانظر: «نصب الراية»: (٣/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠).

(٢) أخرجه الترمذي في الزكاة، باب ما جاء في زكاة البقر: (٣/ ٢٥٧)، وقال: هذا حديث حسن، وأبو داود في الإمارة، باب في أخذ الجزية: (٤/ ٢٤٩)، والنسائي في الزكاة: (٥/ ٢٥ ـ ٢٦)، وابن حبان في «موارد الظمآن»: ص٧٩٤، والإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ٢٣٠، ٢٣٣)، وصححه الحاكم: (١/ ٣٩٨)، وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١١/ ١٧٢).

جبير وعكرمة، عن ابن عباس قال: أتى رسولَ الله ﷺ جماعةٌ من اليهود: سلام بن مكشم، والنعمان بن أوفى، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، فقالوا: كيف نتبعك وقد تركتَ قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيرًا ابن الله؟ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[1].

قرأ عاصم والكسائي ويعقوب ﴿عُزَيْرٌ﴾ بالتنوين، والآخرون بغير تنوين؛ لأنه اسم أعجمي ويشبه اسمًا مصغرًا، ومَن نوَّن قال: لأنه اسم خفيف، فوجهه أن يصرف، وإن كان أعجميًا مثل: نوح وهود ولوط، واختار أبو عبيدة التنوين وقال: لأن هذا ليس بمنسوب إلى أبيه، إنما هو كقولك: زيد ابن الأمير، وزيد ابن أختنا، فعزيرٌ مبتدأ وما بعده خبر له.

وقال عبيد بن عمير: إنما قال هذه المقالة رجل واحد من اليهود اسمه فنحاص بن عازوراء[2]، وهو الذي قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾[آل عمران: ١٨١].

وروى عطية العوفي، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: إنما قالت اليهود عزير ابن الله من أجل أن عزيرًا كان فيهم وكانت التوراة عندهم والتابوت فيهم، فأضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق، فرفع الله عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم، فدعا الله عزيرٌ وابتهل إليه أن يرد إليه الذي نسخ من صدورهم، فبينما هو يصلي مبتهلًا إلى الله تعالى، نزل نور من السماء فدخل جوفه فعادت إليه التوراة، فأذَّن في قومه وقال: يا قوم، قد آتاني الله التوراة وردها إليَّ! فعلق به / الناس يعلمهم، فمكثوا ما شاء الله ١٥٦/أ
تعالى، ثم إن التابوت نزل بعد ذهابه منهم، فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان فيه على الذي كان يعلمهم عزير فوجدوه مثله، فقالوا: ما أوتي عزير هذا إلا أنه ابن الله[3].

وقال الكلبي: إن بختنصر لما ظهر على بني إسرائيل وقتل منهم مَن قرأ التوراة، وكان عزير إذ ذاك صغيرًا فاستصغره فلم يقتله، فلما رجع بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله عزيرًا ليجدد لهم التوراة وتكون لهم آية بعد مائة سنة، يقال: أتاه ملك بإناء فيه ماء فسقاه فمثلت التوراة في صدره، فلما أتاهم قال: أنا عزير، فكذبوه وقالوا: إن كنت كما تزعم فأملِ علينا التوراة، فكتبها لهم، ثم إن رجلًا قال: إن أبي حدثني عن جدي أن التوراة جعلت في خابية ودفنت في كرم، فانطلقوا معه حتى أخرجوها، فعارضوها بما كتب لهم عزير فلم يجدوه غادر منها حرفًا، فقالوا: إن الله لم يقذف التوراة في قلب رجل إلا لأنه ابنه، فعند ذلك قالت اليهود: عزيرٌ ابن الله.

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير: (١٤/ ٢٠٢)، وابن إسحاق في «السيرة»: (١/ ٥٧٠)، وعزاه السيوطي أيضًا مع الرواية الأخرى لابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه. «الدر المنثور»: (٤/ ١٧٠ ـ ١٧١).

(٢) «تفسير الطبري»: (١٤/ ٢٠١)، وأخرجه ابن المنذر عن ابن جريج. «الدر المنثور»: (٤/ ١٧١).

(٣) أخرجه الطبري: (١٤/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣). وانظر: «الدر المنثور»: (٤/ ١٧١).

وأمَّا النصارى فقالوا: المسيح ابن الله، وكان السبب فيه أنهم كانوا على دين الإسلام إحدى وثمانين سنة بعدما رُفع عيسى عليه السلام يُصَلُّون إلى القبلة، ويصومون رمضان، حتى وقع فيما بينهم وبين اليهود حرب، وكان في اليهود رجل شجاع يقال له: «بولص» قتل جملة من أصحاب عيسى عليه السلام، ثم قال لليهود: إن كان الحق مع عيسى فقد كفرنا به والنار مصيرنا، فنحن مغبونون إن دخلوا الجنة ودخلنا النار، فإني أحتال وأُضِلُّهم حتى يدخلوا النار، وكان له فرس يقال له: «العقاب» يقاتل عليه، فعرقب فرسه وأظهر الندامة، ووضع على رأسه التراب، فقال له النصارى: من أنت؟ قال: «بولص» عدوكم، فنوديت من السماء: ليست لك توبة إلا أن تتنصَّر، وقد تبت، فأدخلوه الكنيسة، ودخل بيتًا سنة لا يخرج منه ليلًا ولا نهارًا حتى تعلَّم الإنجيل، ثم خرج وقال: نوديت أن الله قَبِلَ توبتك، فصدَّقوه وأحبوه، ثم مضى إلى بيت المقدس، واستخلف عليهم «نسطورا» وعلَّمه أن عيسى ومريم والإله كانوا ثلاثة، ثم توجه إلى الروم وعلَّمهم اللَّاهوت والنَّاسوت، وقال: لم يكن عيسى بإنس ولا بجسم، ولكنه ابن الله، وعلَّم ذلك رجلًا يقال له: «يعقوب»، ثم دعا رجلًا يقال له: «مَلْكا»، فقال: إن الإله لم يزل ولا يزال عيسى، فلمَّا استمكن منهم دعا هؤلاء الثلاثة واحدًا واحدًا، وقال لكل واحد منهم: أنت خالصتي، وقد رأيت عيسى في المنام فرضي عني، وقال لكل واحد منهم: إني غدًا أذبح نفسي، فادعُ الناس إلى نِحْلَتِكَ، ثم دخل المذبح فذبح نفسه وقال: إنما أفعل ذلك لمرضاة عيسى، فلما كان يوم ثالثه دعا كلُّ واحد منهم الناسَ إلى نِحلَتِه، فتبع كلَّ واحد طائفةٌ من الناس، فاختلفوا واقتتلوا فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ يقولون بألسنتهم من غير علم، قال أهل المعاني: لم يذكر الله تعالى قولاً مقرونًا بالأفواه والألسن إلا كان ذلك زورًا ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ قرأ عاصم بكسر الهاء مهموزًا، والآخرون بضم الهاء غير مهموز، وهما لغتان، يقال: ضاهيته وضاهأته، ومعناهما واحد، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يشابهون، والمضاهاة: المشابهة، وقال مجاهد: يواطؤون، وقال الحسن: يوافقون ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ قال قتادة والسدي: ضاهت النصارى قول اليهود من قبل، فقالوا: المسيح ابن الله، كما قالت اليهود: عزير ابن الله، وقال مجاهد: يضاهؤن قول المشركين من قبل الذين كانوا يقولون: اللَّات والعُزَّى ومناة بنات الله، وقال الحسن: شبَّه كفرَهم بكفر الذين مضوا من الأُمم الكافرة كما قال في مشركي العرب: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[البقرة: ١١٨]، وقال القتيبي: يريد: أن من كان في عصر النبي ﷺ من اليهود والنصارى يقولون ما قال أوّلهم ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ قال ابن عباس: لعنهم الله، وقال ابن جريج: أي: قتلهم الله، وقيل: ليس هو على تحقيق المقاتلة، ولكنه بمعنى التعجب ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: يصرفون عن الحق بعد قيام الأدلة عليه.

ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا﴾ أي: علماءهم وقرّاءهم، والأحبار: العلماء، واحدها: حِبْر وحَبْر بكسر الحاء وفتحها، والرهبان من النصارى: أصحاب الصوامع، فإن قيل: إنهم لم يعبدوا الأحبار والرهبان؟ قلنا: معناه: أنهم أطاعوهم في معصية الله واستحلوا ما أحلُّوا وحرَّموا ما حرَّموا، فاتخذوهم كالأرباب، رُوي عن عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال لي: «يا عدي اطرحْ هذا الوثن من عنقك»، فطرحته ثم انتهيت إليه، وهو يقرأ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حتى فرغ منها، قلت له: إنَّا لسنا نعبدهم، فقال: «أليس يُحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرمونه، ويحلُّون ما حرَّم الله فتستحلونه»؟ قال: قلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم»[1].

قال عبد الله بن المبارك:

وهلْ بدَّلَ الدينَ إلاَّ الملوكُ ... وأحبارُ سَوْءٍ ورهبانُها

﴿ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ أي: اتخذوه إلهًا ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أي: يبطلوا دين الله بألسنتهم وتكذيبهم إياه، وقال الكلبي: «النور» القرآن، أي: يريدون أن يردوا القرآن بألسنتهم تكذيبًا ﴿ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ أي: يُعلي دينه ويظهر كلمته ويتم الحق الذي بعثَ به محمدًا ﷺ ﴿ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

---

(١) أخرجه الطبري في «التفسير»: (١٤/ ٢١٠)، ورواه مختصرًا الترمذي في تفسير سورة براءة: (٨/ ٤٩٢ ـ ٤٩٤)، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغُطَيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث»، ورواه الثعلبي بهذا الإسناد واللفظ، وكذلك رواه الواقدي في «كتاب الردة»، وأبو يعلى في «مسنده»، وأخرجه البيهقي: (١٠/ ١١٦)، والطبراني: (١٧/ ٩٢).
وعزاه السيوطي أيضًا: لابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه.
انظر: «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٦٦)، «الدر المنثور»: (٤/ ١٧٤)، «الكافي الشاف»: ص٧٥، «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر: ص٤٣٧.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٣٣﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ يعني: الذي يأبىٰ إلا إتمام دينه هو الذي أرسل رسوله محمدًا ﷺ ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ قيل: بالقرآن، وقيل: ببيان الفرائض ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ ليعليه وينصره ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ على سائر الأديان ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٣٣﴾.

واختلفوا في معنى هذه الآية: فقال ابن عباس: الهاء عائدة إلى رسول الله ﷺ، أي: ليعلمه شرائع الدين كلها فيظهره عليها حتى لا يخفى عليه منها شيء.

وقال الآخرون: الهاء راجعة إلى دين الحق، وظهوره على الأديان هو أن لا يُدَان الله تعالى إلا به.

وقال أبو هريرة والضحاك: وذلك عند نزول عيسى ابن مريم لا يبقى أهل دين إلا دخل في الإسلام،
١٥٦/ب / وروينا عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ في نزول عيسى عليه السلام قال: «ويهلك في زمانه المللُ كلُّها إلاَّ الإسلام»[1]، وروى المقداد قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على ظهر الأرض بيتُ مدرٍ ولا وبرٍ إلاَّ أدخله الله كلمة الإسلام إمَّا بعزِّ عزيزٍ أو ذلِّ ذليلٍ»[2]، إمَّا يعزهم الله فيجعلهم من أهله، فيعز به، أو يذلهم فيدينون له.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب، حدثنا أبو جعفر محمد سليمان بن منصور، حدثنا أبو مسلم بن إبراهيم، عن عبد الله الكجي، حدثنا أبو عاصم النبيل، حدثنا عبد الحميد هو ابن جعفر، عن الأسود بن العلاء، عن أبي سلمة، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يذهب الليل والنهار حتى تُعبدَ اللَّاتُ والعُزَّى»، قالت: قلت: يا رسول الله، ما كنت أظن أن يكون ذلك بعدما أنزل الله تعالى عليك: «﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾»، ثم قال: «يكون ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله تعالى ريحًا طيبة، فتقبض من كان في قلبه مثقال ذرة من خير، ثم يبقىٰ من لا خير فيه، فيرجع الناس إلى دين آبائهم»[3].

---

(١) قطعة من حديث أبي هريرة، أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٢/ ٤٣٧)، وقال الحافظ ابن حجر: رواه أحمد وأبو داود بإسناد صحيح من طريق عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة مرفوعًا.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٦/ ٤)، وذكره الهيثمي من رواية المقداد وتميم الداري وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجال الطبراني رجال الصحيح. «مجمع الزوائد»: (٦/ ١٤). هذا وفي «أ» جاء في الرواية: «يعز عزيزًا ويذل ذليلًا».

(٣) أخرجه مسلم في الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة برقم ٢٩٠٧: (٤/ ٢٢٣٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ٩١ـ٩٢).

﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۗ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾

قال الحسين بن الفضل: معنى الآية: ليظهره على الدين كله بالحجج الواضحة.

وقيل: ليظهره على الأديان التي حول النبي ﷺ فيغلبهم.

قال الشافعي رحمه الله: فقد أظهر الله رسوله ﷺ على الأديان كلها بأن أبان لكل من سمعه أنه الحق، وما خالفه من الأديان باطل، وقال: وأظهره بأن جماع الشرك دينان: دين أهل الكتاب، ودين أُمِّيين، فقهر رسول الله ﷺ الأميين حتى دانوا بالإسلام طوعًا وكرهًا، وقتل أهل الكتاب وسبى، حتى دان بعضهم بالإسلام، وأعطى بعضهم الجزية صاغرين، وجرى عليهم حكمه، فهذا ظهوره على الدين كله، والله أعلم[1].

قوله تعالى: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ﴾ يعني: العلماء والقراء من أهل الكتاب ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ (يريد: ليأخذون)[2] الرشا في أحكامهم، ويُحرِّفون كتاب الله، ويكتبون بأيديهم كتبًا يقولون: هذه من عند الله، ويأخذون بها ثمنًا قليلًا من سفلتهم، وهي المآكل التي يصيبونها منهم على تغيير نعت النبي ﷺ، يخافون لو صدقوهم لذهبت عنهم تلك المآكل ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ ويصرفون الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دين الله عزَّ وجلَّ.

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ قال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: كل مال تؤدَّى زكاته فليس بكنز، وإن كان مدفونًا، وكل مالٍ لا تُؤدَّى زكاته فهو كنز، وإن لم يكون مدفونًا، ومثله عن ابن عباس[3].

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أخبرنا عبد الغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثني سويد بن سعيد، حدثنا حفص بن ميسرة، عن زيد بن أسلم أن أبا صالح ذكوان أخبره أنه سمع أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ صاحب ذهبٍ ولا فِضَّةٍ لا يؤدي منها حقَّها إلاَّ إذا كان يومُ القيامة صُفِّحتْ له صفائحُ من نار، فأُحمي عليها في نار جهنم فيُكوىٰ بها جبينُه وظهره، كلما بردت أُعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف

---

(١) راجع: «أحكام القرآن» للشافعي: (٢/ ٤٩ ـ ٥٠)، «سنن البيهقي»: (٩/ ١٨٢).

(٢) في «أ»: (يريدون يأخذون).

(٣) انظر: «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي: (٢/ ٦٧).

سنة، حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار، ولا صاحبِ إبلٍ لا يُؤدي منها حقّها، ومن حقها حلبها يوم وِرْدِها إلاّ إذا كان يوم القيامة، بُطِحَ لها بقاع قرقر، أوفر ما كانت، لا يفقد منها فصيلًا واحدًا، تطؤه بأخفافِها، وتعضّه بأفواهها، كلّما مرَّ عليه أُولاها رُدَّ عليه أُخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضي الله بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار، ولا صاحبَ بَقَرٍ ولا غنم، لا يُؤدي منها حقّها، إلاّ إذا كان يوم القيامة، بُطِحَ لها بقَاعٍ قرقر، لا يفقد منها شيئًا، ليس فيها عقصاء، ولا جلحاء، ولا عضباءَ، تنطحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها، كلّما مرَّ عليه أُولاها رُدَّ عليه أُخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يَقضي الله بين العباد، فيرى سبيله إمَّا إلى الجنة وإما إلى النار»[1].

وروينا عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يؤدِ زكاتَه، مُثِّلَ له مالُه يوم القيامة شجاعًا أقرع، له زبيبتان يُطوّقه يوم القيامة، فيأخذه بِلِهْزِمَتَيْهِ، يعني: شِدْقيه، ثم يقول: أنا مالُك، أنا كنزُك، ثم تلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ...﴾»[2] الآية[آل عمران: ١٨٠].

ورُوي عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: كل مال زاد على أربعة آلاف درهم فهو كنز، أدَّيْتَ منه الزكاة أو لم تُؤدِّ، وما دونها نفقة[3].

وقيل: ما فضل عن الحاجة فهو كنز.

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أخبرنا عبد الغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن المعرور بن سويد، عن أبي ذر قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة، فلما رآني قال: «هم الأخسرون وربِّ الكعبة»، قال: فجئت حتى جلست، فلم أتقارّ أن قمت فقلت: يا رسول الله، فداك أبي وأمي، مَنْ هم؟ قال: «هم الأكثرون أموالاً إلا من قال: هكذا وهكذا وهكذا، من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، وقليلٌ مَّا هم»[4].

ورُوي عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ أنه كان يقول: من ترك بيضاء، أو حمراء، كوي بها يوم القيامة[5].

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة، باب إثم مانع الزكاة برقم ٩٨٧: (٢/ ٦٨٠ ـ ٦٨١)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٤٨٠).

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب إثم مانع الزكاة: (٣/ ٢٦٨)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٤٧٨).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف»: (٤/ ١٠٩)، ومن طريقه: الطبري في «التفسير»: (١٤/ ٢١٩ ـ ٢٢٠).

(٤) أخرجه البخاري في الأيمان، باب كيف كان يمين النبي ﷺ: (١١/ ٥٢٤)، ومسلم في الزكاة، باب تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة برقم ٩٩٠: (٢/ ٦٨٦).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ١٦٨)، والطبري: (١٤/ ٢٢٠)، وعزاه الزيلعي وابن حجر أيضًا للبخاري في «التاريخ»، وابن مردويه من طريق عبد الله بن عبد الواحد الثقفي عن أبي النجيب الشامي عن أبي ذر، وعن ثوبان أخرجه ابن مردويه والطبراني في «مسند الشاميين» بلفظ آخر. انظر: «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٧١ ـ ٧٢)، «الكافي الشاف»: ص ٧٥ ـ ٧٦.

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾

ورُوي عن أبي أمامة قال: مات رجل من أهل الصُّفَّة، فوجد في مئزره دينار، فقال النبي ﷺ: «كَيَّةٌ»، ثم توفي آخر فوجد في مئزره ديناران، فقال النبي ﷺ: «كيَّتان»[(١)].

والقول الأول أصح؛ لأن الآية في منع الزكاة لا في جمع المال الحلال، قال النبي ﷺ: «نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح»[(٢)].

ورَوى مجاهد، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما نزلت هذه الآية، كبُرَ ذلك على المسلمين وقالوا: ما يستطيع أحد منا أن يدع لولده شيئًا، فذكر عمر ذلك لرسول الله فقال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يفرض الزكاة إلا ليطيِّبَ بها ما بقي من أموالكم»[(٣)].

وسئل ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن هذه الآية؟ فقال: كان ذلك قبل أن تنزل الزكاة، فلما أنزلت جعلها الله طُهْرًا للأموال.

وقال ابن عمر: ما أبالي لو أن لي مثل أُحد ذهبًا أعلم عدده / أزكيه وأعمل بطاعة الله. ١/١٥٧

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولم يقل: ولا ينفقونهما، وقد ذكر الذهب والفضة جميعًا، قيل: أراد: الكنوز وأعيان الذهب والفضة، وقيل: ردَّ الكناية إلى الفضة لأنها أعم، كما قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾[البقرة: ٤٥]، ردَّ الكناية إلى الصلاة لأنها أعمُّ، وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾[الجمعة: ١١] ردَّ الكناية إلى التجارة لأنها أعمُّ ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: أنذرهم.

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي: تدخل النار فيوقد عليها، أي: على الكنوز ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا﴾ فتحرق بها ﴿جِبَاهُهُمْ﴾ أي: جباه كانزيها ﴿وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ رُوي عن ابن مسعود قال: إنه لا يوضع دينار على دينار ولا درهم على درهم، ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل دينار ودرهم في موضع على حدة.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد: (١/ ١٠١)، قال ابن حجر: رواه أحمد وابن أبي شيبة وأبو يعلى والطبراني والطبري من طريق شهر بن حوشب، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» من طريق معمر عن قتادة به، ومن طريق عبد الرزاق رواه الطبري، ورواه ابن حبان من حديث ابن مسعود بالشطر الثاني. انظر: «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٧٣)، «الكافي الشاف: ص٧٦.

(٢) أخرجه الإمام أحمد: (٤/ ١٩٧، ٢٠٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٠/ ٩١).

(٣) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب حقوق المال: (٢/ ٢٥٠)، وصححه الحاكم: (٢/ ٣٣٣)، والبيهقي: (٤/ ٨٣)، وذكره المصنف في «المصابيح»: (٢/ ١٠)، وذكره الهيثمي في «المجمع»: (٧/ ٣٠)، وقال: رواه أبو يعلى، وفيه عثمان بن عمير وهو ضعيف. وانظر: «الدر المنثور»: (٤/ ١٧٨).

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

وسئل أبو بكر الوراق: لِمَ خَصَّ الجباه والجنوب والظهور بالكي؟ قال: لأن الغني صاحب الكنز إذا رأى الفقير قبض وجهه، وزوى ما بين عينيه، وولاه ظهره، وأعرض عنه بكشحه.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾ أي: يقال لهم: هذا ما كنزتم ﴿لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: تمنعون حقوق الله تعالى في أموالكم، وقال بعض الصحابة: هذه الآية في أهل الكتاب، وقال الأكثرون: هي عامة في أهل الكتاب والمسلمين، وبه قال أبو ذر رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ أي: عدد الشهور ﴿عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ وهي المحرَّم وصفر وربيع الأول وشهر ربيع الثاني وجُمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجب وشعبان وشهر رمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة، وقوله: «فِي كِتَابِ اللَّهِ»، أي: في حكم الله، وقيل: في اللوح المحفوظ، قرأ أبو جعفر: اثنا عشر، وتسعة عشر، وأحد عشر، بسكون الشين، وقرأ العامة بفتحها ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ والمراد منه: الشهور الهلالية، وهي الشهور التي يعتدُّ بها المسلمون في صيامهم وحجهم وأعيادهم وسائر أمورهم، وبالشهور الشمسية تكون السنة ثلاث مائة وخمسة وستين يومًا وربع يوم، والهلالية تنقص عن ثلاث مائة وستين يومًا بنقصان الأهلة، والغالب أنها تكون ثلاثمائة وأربعًا وخمسين يومًا ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ من الشهور أربعة حرم وهي: رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، واحد فرد وثلاثة سَرْد ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: الحساب المستقيم.

﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ قيل: قوله: «فِيهِنَّ» ينصرف إلى جميع شهور السنة، أي: فلا تظلموا فيهن أنفسكم بفعل المعاصي وترك الطاعة، وقيل: «فِيهِنَّ»، أي: في الأشهر الحرم، قال قتادة: العمل الصالح أعظم أجرًا في الأشهر الحرم، والظلم فيهنَّ أعظم من الظلم فيما سواهنَّ، وإن كان الظلم على كل حال عظيمًا، وقال ابن عباس: «فلا تظلموا فيهنَّ أنفسكم»، يريد: استحلال الحرام والغارة فيهنَّ، قال محمد بن إسحاق بن يسار: لا تجعلوا حلالها حرامًا، ولا حرامها حلالاً، كفعل أهل الشرك وهو النسيء.

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ جميعًا عامة ﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ واختلف العلماء في تحريم القتال في الأشهر الحرم، فقال قوم: كان كبيرًا ثم نسخ بقوله: «وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً»، كأنه يقول فيهن وفي غيرهنَّ، وهو قول قتادة وعطاء الخراساني والزهري

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾

وسفيان الثوري، وقالوا: إنَّ النبي ﷺ غزا هَوازن بحُنين، وثقيفًا بالطائف، وحاصرهم في شوال وبعض ذي القعدة، وقال آخرون: إنه غير منسوخ، قال ابن جريج: حلف بالله عطاء بن أبي رباح: ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم، ولا في الأشهر الحرم، إلا أن يُقاتلُوا فيها وما نسخت[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ قيل: هو مصدر كالسعير والحريق، وقيل: هو مفعول كالجريح والقتيل، وهو من التأخير، ومنه النسيئة في البيع، يقال: أنسأ الله في أجله، أي: أخَّر، وهو ممدود مهموز عند أكثر القراء، وقرأ ورش عن نافع من طريق البخاري بتشديد الياء من غير همز، وقد قيل: أصله الهمزة فخفف.

وقيل: هو من النسيان على معنى المنسي، أي: المتروك، ومعنى النسيء: هو تأخير تحريم شهر إلى شهر آخر، وذلك أن العرب كانت تعتقد تعظيم الأشهر الحرم، وكان ذلك مما تمسكت به من ملة إبراهيم عليه السلام وكانت عامة معايشهم من الصيد والغارة، فكان يشقُّ عليهم الكفُّ عن ذلك ثلاثةَ أشهر على التوالي، وربما وقعت لهم حرب في بعض الأشهر الحرم فيكرهون تأخير حربهم، فنسؤوا، أي: أخَّروا تحريم ذلك الشهر إلى شهر آخر، وكانوا يؤخِّرون تحريم المحرَّم إلى صفر، فيحرمون صفر ويستحلون المحرم، فإذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر أخَّروه إلى ربيع، هكذا شهرًا بعد شهر، حتى استدار التحريم على السنة كلها، فقام الإسلام وقد رجع المحرم إلى موضعه الذي وضعه الله عزَّ وجلَّ فيه، وذلك بعد دهر طويل، فخطب النبي في حجته.

كما أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف الفربري، حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا محمد بن سَلَام، حدثنا عبد الواحد، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا أيوب، عن محمد بن سيرين، عن أبي بكرة، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الزمان قد استدار كهيئته يومَ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ، السنةُ اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»، وقال: «أيّ شهر هذا»؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: «أليس ذا الحجة»؟ قلنا: بلى، قال: «أي بلد هذا»؟ قلنا: الله ورسوله أعلم،

(١) انظر الرأيين والروايات في: «الناسخ والمنسوخ» لأبي عبيد: ص٢٠٧ـ٢٠٨.

فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: «أليس البلد الحرام»؟ قلنا: بلى، قال: «فأيّ يوم هذا»؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر»؟ قلنا: بلى، قال: «فإنّ دماءَكم وأموالكم ـ قال محمد: أحسبه قال: وأعراضَكم ـ عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربَّكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضُلَّالاً يضرب بعضُكم رقابَ بعض، ألا ليبلغ الشاهدُ الغائب، فلعلَّ بعضَ من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه، ألا هل بلغتُ ألا هل بلغت»[1]؟

١٥٧/ب قالوا: وكان قد استمر النسيء بهم، فكانوا ربما يحجون في بعض السنين في شهر / ويحجون من قابل في شهر آخر.

قال مجاهد: كانوا يحجون في كل شهر عامين، فحجوا في شهر ذي الحجة عامين، ثم حجوا في المحرم عامين، ثم حجوا في صفر عامين، وكذلك في الشهور، فوافقت حجة أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ قبل حجة الوداع السنة الثانية من ذي القعدة، ثم حج النبي ﷺ في العام القابل حجة الوداع، فوافق حجُّه شهر الحج المشروع وهو ذو الحجة، فوقف بعرفة يوم التاسع، وخطب اليوم العاشر بمنى، وأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان، وعاد الأمر إلى ما وضع الله عليه حساب الأشهر يوم خلق الله السموات والأرض، وأمرهم بالمحافظة عليه لئلا يتبدل في مستأنف الأيام.

واختلفوا في أول مَنْ نسأ النسيء، فقال ابن عباس والضحاك وقتادة ومجاهد: أول من نسأ النسيء بنو مالك بن كنانة، وكانوا ثلاثة: أبو ثُمَامة جُنَادُ بن عوف بن أمية الكناني، وقال الكلبي: أول من فعل ذلك رجل من بني كنانة يقال له: نعيم بن ثعلبة، وكان يكون أميرًا على الناس بالموسم، فإذا همَّ الناس بالصدر، قام فخطب الناس فقال: لا مردَّ لما قضيت، أنا الذي لا أعاب ولا أجاب، فيقول له المشركون: لبيك، ثم يسألونه أن ينسأهم شهرًا يغيرون فيه، فيقول: فإنَّ صفرًا العامَ حرام، فإذا قال ذلك حلُّوا الأوتار، ونزعوا الأسنة والأزجة، وإن قال حلال عقدوا الأوتار، وشدُّوا الأزجة، وأغاروا، وكان من بعد نعيم بن ثعلبة رجل يقال له: جنادة بن عوف، وهو الذي أدركه النبي ﷺ.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو رجل من بني كنانة يقال له: القلمس، قال شاعرهم: (وفينا ناسيء الشهر القَلَمَّس)، وكانوا لا يفعلون ذلك إلا في ذي الحجة إذا اجتمعت العرب للموسم.

وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إن أول مَن سنَّ النسيء عمرو بن لحي ابن قمعة بن خندف.

---

(١) أخرجه البخاري في الأضاحي، باب من قال: الأضحى يوم النحر: (١٠/ ٧ ـ ٨)، ومسلم في القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض، برقم١٦٧٩: (٣/ ١٣٠٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (٧/ ٢١٥ ـ ٢١٦).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أنبأنا عبد الغافر بن محمد، أنبأنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم ابن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثني زهير بن حرب، حدثنا جرير، عن سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبا بني كعب وهو يجر قُصْبَهُ في النار»[1].

فهذا الذي ذكرنا هو النسيء الذي ذكره الله تعالى فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِۖ﴾ يريد: زيادة كفر على كفرهم ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص: «يُضَلُّ» بضم الياء وفتح الضاد، كقوله تعالى: «زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْۗ»، وقرأ يعقوب بضم الياء وكسر الضاد، وهي قراءة الحسن ومجاهد على معنى «يضل» به الذين كفروا الناس، وقرأ الآخرون بفتح الياء وكسر الضاد؛ لأنهم هم الضالون لقوله: ﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾ يعني: النسيء ﴿عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾ أي: ليوافقوا، والمواطأة: الموافقة ﴿عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ يريد: أنهم لم يحلوا شهرًا من الحرام إلا حرَّموا مكانه شهرًا من الحلال، ولم يحرموا شهرًا من الحلال إلا أحلوا مكانه شهرًا من الحرام، لئلا يكون الحرام أكثر من أربعة أشهر، كما حرم الله فيكون موافقة العدد ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْۗ﴾ قال ابن عباس: زين لهم الشيطان ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٣٧﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ...﴾ الآية، نزلت في الحث على غزوة تبوك، وذلك أن النبي ﷺ لما رجع من الطائف أمر بالجهاد لغزوة الروم، وكان ذلك في زمان عسرة من الناس، وشدة من الحرِّ، حين طابت الثمار والظلال، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلاَّ ورَّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حَرٍّ شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا، ومفاوز هائلة، وعدوًّا كثيرًا، فجلى للمسلمين أمرهم؛ ليتأهبوا أهبة عدوهم، فشقَّ عليهم الخروج وتثاقلوا، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ﴾[2]، أي: قال لكم رسول الله: ﴿ٱنفِرُواْ﴾ اخرجوا في سبيل الله ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ﴾ أي: لزمتم أرضكم

---

(١) سبق تخريجه في سورة المائدة: (١/ ٧٢٣) تعليق رقم (١)، وليس في الحديث ما يدل على أن عمرو بن لحي أول من سنَّ النسيء.

(٢) انظر: الطبري: (١٤/ ٢٥٣)، «أسباب النزول» للواحدي: ص٢٨٣، «الدر المنثور»: (٤/ ١٩٠).

﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

ومساكنكم ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي: بخفض الدنيا ودَعَتِها من نعيم الآخرة ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾.

ثم أوعدهم على ترك الجهاد، فقال تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الآخرة، وقيل: هو احتباس المطر عنهم في الدنيا، وسأل نجدةُ بن نفيع ابنَ عباس عن هذه الآية، فقال: إن رسول الله ﷺ استنفر حيًّا من أحياء العرب، فتثاقلوا عليه، فأمسك عنهم المطر، فكان ذلك عذابهم[1] ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ خيرًا منكم وأطوع، قال سعيد بن جبير: هم أبناء فارس، وقيل: هم أهل اليمن ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ بترككم النفير ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ هذا إعلام من الله عزَّ وجلَّ أنه المتكفِّلُ بنصر رسوله وإعزاز دينه، أعانوه أو لم يعينوه، وأنه قد نصره عند قلة الأولياء، وكثرة الأعداء، فكيف به اليوم وهو في كثرة من العَدَدِ والعُدَد ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من مكة حين مكروا به وأرادوا تبييته وهمُّوا بقتله ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ أي: هو أحد الاثنين، والاثنان: أحدهما رسول الله ﷺ، والآخر أبو بكر الصديق رضي الله عنه ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ وهو نقب في جبل ثور بمكة ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ قال الشعبي: عاتب الله عزَّ وجلَّ أهل الأرض جميعًا في هذه الآية غير أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

أخبرنا أبو المظفر محمد بن أحمد التميمي، أنبأنا محمد بن عبد الرحمن بن عثمان، أنبأنا خيثمة بن سليمان، حدثنا أحمد بن عبد الدَّورقي، حدثنا سعيد بن سليمان، عن علي بن هاشم، عن كثير النَّوَّاء، عن جُمَيْع بن عُمَيْر قال: أتيت ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ فسمعته يقول: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر ـ رضي

(١) أخرجه الطبري: (١٤/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥)، وصححه الحاكم في «المستدرك»: (٢/ ١١٨)، وأخرجه أبو داود في «السنن» مختصرًا: (٣/ ٣٦٧)، والبيهقي في «السنن»: (٩/ ٤٨). وانظر: «الدر المنثور»: (٤/ ١٩٣ ـ ١٩٤).

الله عنه ـ: «أنت صاحبي في الغار، وصاحبي على الحوض»(١).

قال الحسين بن الفضل: من قال إن إبا بكر لم يكن صاحب رسول الله ﷺ فهو كافر لإنكاره نصَّ القرآن، وفي سائر الصحابة إذا أنكر يكون مبتدعًا، لا يكون كافرًا.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ لم يكن حزن أبي بكر جُبْنًا منه، وإنَّما كان إشفاقًا على
رسول الله ﷺ، وقال: إن أُقتل فأنا رجل واحد وإن قُتِلْتَ هلكَتْ الأمة. / ١٥٨/أ

ورُوي أنه حين انطلق مع رسول الله ﷺ إلى الغار جعل يمشي ساعة بين يديه، وساعة خلفه، فقال له رسول الله ﷺ: ما لك يا أبا بكر؟! قال: أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك، فلما انتهيا إلى الغار قال: مكانك يا رسول الله حتى أستبرىء الغار، فدخل فاستبرأه ثم قال: انزل يا رسول الله، فنزل فقال عمر: والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من آل عمر(٢).

أخبرنا أبو المظفر التميمي، أخبرنا محمد بن عبد الرحمن بن عثمان المعروف بابن أبي النظر، أخبرنا خيثمة بن سليمان، حدثنا أبو قلابة الرقاشي، حدثنا حيان بن هلال، حدثنا همام بن يحيى، حدثنا ثابت البناني، حدثنا أنس بن مالك أن أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ حدَّثهم قال: نظرتُ إلى أقدام المشركين فوق رؤوسنا ونحن في الغار فقلت: يا رسول الله، لو أنَّ أحدهم نظرَ تحتَ قدميه أبصرَنا، فقال: «يا أبا بكر ما ظنُّك باثنين اللهُ ثالثُهما»(٣)؟

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، حدثنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن عقيل قال ابن شهاب: فأخبرني عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: لم أعقل أبويَّ قط إلاَّ وهما يدينان الدين، ولم يمرّ علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرةً وعشيًّا، فلما ابتلي المسلمون . . . قال النبي ﷺ للمسلمين: «إني أُريت دار هجرتكم، ذات نخل، بين لابتين وهما الحرتان»، فهاجر من هاجر قِبَلَ المدينة ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ قِبَلَ المدينة، فقال له رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب، باب بشارة لأبي بكر وعمر: (١٠/ ١٥٤)، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٨٢)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وفي الحديث: كثير بن إسماعيل أو ابن نافع النوّاء: ضعيف من السادسة. «تقريب».

(٢) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٤/ ١٩٧ ـ ١٩٨) للبيهقي في «الدلائل»، ولابن عساكر عن ضبة بن محصن.
قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٣/ ١٨٠): في هذا السياق غرابة ونكارة.
وأخرجه ابن إسحاق مختصرًا: (١/ ٤٨٦)، وقال ابن كثير عن هذه الرواية: وهذا فيه انقطاع من طرفيه، وساقه من رواية أبي القاسم البغوي مطولاً، وقال: وهذا مرسل، وقد ذكرنا له شواهد.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب المهاجرين: (٧/ ٨ ـ ٩)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ برقم ٢٣٨١: (٤/ ١٨٥٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٣٦٥).

«على رِسْلِكَ فإني أرجو أن يؤذن لي» فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: «نعم»، فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين ـ كانتا عنده ـ ورق السَّمُر: وهو الخَبْط، أربعة أشهر.

قال ابن شهاب: قال عروة: قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: فبينما نحن يومًا جلوس في بيت أبي بكر في نَحْرِ الظَّهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ مُتَقَنِّعًا في ساعةٍ لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداءٌ له أبي وأُمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمْرٌ، قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأذن له فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: أَخْرِجْ مَنْ عندك، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله، قال: «فإني قد أُذِنَ لي في الخروج»، فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتيَّ هاتين، قال رسول الله ﷺ: «بالثَّمَن»، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: فجهزناهما أَحَثَّ الجهاز، وصنعنا لهما سُفْرَةً في جِرَابٍ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سُمِّيت ذات النطاقين، قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور، فمكثا فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر، وهو غلام شاب ثقف لقن، فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة، كبائتٍ فيها، فلا يسمع أمرًا يُكَادَانِ به إلاَّ وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فُهَيْرَة، مولى أبي بكر، مِنْحَةً من غنمٍ، فيُرِيْحَها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رِسْلٍ، وهو لبن منحتهما ورَضِيفُهُما حتى يَنْعِقَ بهما عامر بن فهيرة بغَلَسٍ، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسولُ الله ﷺ وأبو بكر رجلًا من بني الدِّيْل، وهو من بني عبد بن عدي هاديًا خِرِّيتًا، والخِرِّيتُ: الماهر بالهداية، قد غمس حلفًا في آل العاص بن وائل السَّهْمِيّ، وهو على دين كفار قريش فأَمِنَاهُ، فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم على طريق السواحل.

قال ابن شهاب: وأخبرني عبد الرحمن بن مالك المُدْلِجِيّ، وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جُعْشُمٍ: أن أباه أخبره أنه سمع سراقة بن مالك بن جعشم يقول: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج، أقبل رجل منهم، حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: يا سراقة، إني قد رأيت آنفًا أَسْوِدَةً بالساحل أُرَاهَا محمدًا وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانًا وفلانًا انطَلَقُوا بأعيننا، ثم لبثتُ في المجلس ساعةً، ثم قمتُ فدخلت البيت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة، فتحبسها عليَّ، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت، فخططت بزُجِّه الأرض، وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها فدفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم فعثرت بي فرسي، فخررت عنها فقمت، فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها أَضُرُّهُم أم

لا؟ فخرج الذي أكره، فركبت فرسي وعصيت الأزلام، تقْربُ بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ، وهو لا يلتفت وأبو بكر يُكْثِرُ الالتفات، فساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تُخرج يديها فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر النبي ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرتهم خبرَ ما يُريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني ولم يسألاني شيئًا إلا أن قالا: أَخْفِ عنَّا، فسألته أن يكتب لي كتابَ أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أدم، ثم مضى رسول الله ﷺ.

قال ابن شهاب: فأخبرني عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجارًا قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياب بياض، وسمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرّة فينتظرونه حتى يردّهم حرُّ الظهيرة، فانقلبوا يومًا بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أَوَوْا إلى بيوتهم أوفى رجلٌ من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب، هذا جَدُّكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتًا، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم يرَ رسول الله ﷺ يحيّ أبا بكر حتى أصابت الشمسُ رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناسُ رسولَ الله ﷺ عند ذلك، فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأُسِّسَ المسجد الذي أُسس على التقوى، وصلى فيه رسول الله ﷺ ثم ركب راحلته، فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة، وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مربدًا للتمر، لسهيل وسهلٍ، غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: هذا إن شاء الله المنزل، ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين، فَسَاوَمَهُمَا بالمربَدِ ليتخذه مسجدًا فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، ثم بناه مسجدًا، وطفق رسول الله ينقل معهم اللَّبِنَ في بنايته ويقول وهو ينقل اللَّبِن:

هــذا الحِمَــالُ لا حِمَــالُ خَيْبَــر ... هــــذا أَبَــرُّ ربَّنــــا وأَطْهَــــرْ

ويقول:

اللهــم إن الأجــر أجــر الآخــرة ... فــارحــمِ الأنصــار والمهــاجــرة

فتمثل ببيت رجلٍ من المسلمين لم يسمّ لي.

﴿انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

قال ابن شهاب: ولم يبلغنا في الأحاديث أن رسول الله ﷺ تمثل ببيت شعر تام غير هذه الأبيات[1].

قال الزهري: لما دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر الغار أرسل الله تعالى زوجًا من حمام حتى باضا في أسفل النقب، والعنكبوت حتى نسجت بيتًا، وفي القصة أنبت يمامة على فم الغار، وقال النبي ﷺ: اللَّهُمَّ
١٥٨/ب أعمِ أبصارهم / عنَّا فجعل الطلب يضربون يمينًا وشمالاً حول الغار يقولون: لو دخلا هذا الغار لتكسر بيض الحمام وتفسخ بيت العنكبوت[2].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ قيل: على النبي ﷺ، وقال ابن عباس: على أبي بكر - رضي الله عنه -، فإن النبي ﷺ كانت عليه السكينة من قبل ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة نزلوا يصرفون وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته، وقيل: ألقوا الرعب في قلوب الكفار حتى رجعوا، وقال مجاهد والكلبي: أعانه بالملائكة يوم بدر، أخبر أنه صرف عنه كيد الأعداء في الغار ثم أظهر نصره بالملائكة يوم بدر.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ وكلمتهم الشرك، وهي السفلى إلى يوم القيامة ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ إلى يوم القيامة، قال ابن عباس: هي قول لا إله إلا الله، وقيل: «كلمة الذين كفروا»: ما قدّروا بينهم في الكيد به ليقتلوه، و«كلمة الله»: وَعْدُ الله أنه ناصره، وقرأ يعقوب: «وكلمةَ الله» بنصب التاء على العطف ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ قال الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة وعكرمة: شُبَّانًا وشُيوخًا، وعن ابن عباس: نشاطًا وغير نشاط، وقال عطية العوفي: ركبانًا ومشاةً، وقال أبو صالح: خفافًا من المال، أي: فقراء، وثقالاً أي: أغنياء، وقال ابن زيد: الثقيل الذي له الضيعة، فهو ثقيل يكره أن يدع ضيعته، والخفيف الذي لا ضيعة له، ويروى عن ابن عباس قال: خفافًا أهل الميسرة من المال، وثقالاً أهل العسرة، وقيل: خفافًا من السلاح، أي: مقلِّين منه، وثقالاً أي: مستكثرين منه، وقال الحكم

---

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة: (٧/ ٢٣٠ - ٢٣٣)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٣٥٤ - ٣٦٢)، وقد اختصر جُمَلًا في التفسير، أشرنا إليها بنقاط.

(٢) هذا مجموع روايتين، أخرج الأولى منهما: الطبراني في «معجمه»، والبزار في «مسنده»، والبيهقي وأبو نعيم في «دلائل النبوة» لهما، وابن سعد في «الطبقات». وأخرج الثانية: عبد الرزاق في «مصنفه» ومن طريقه رواه الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه في «مسنديهما» ثم الطبراني في «معجمه» وابن مردويه في «تفسيره» وأبو نعيم في «الدلائل». وقوله ﷺ: «اللهم أعم أبصارهم» فقال عنه الزيلعي: لم أجده. انظر: «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي: (٢/ ٧٦ - ٧٧)، وقال الحافظ ابن كثير في «البداية» (٣/ ١٨٢): «وهو حديث غريب من هذا الوجه».

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾

ابن عتيبة: مشاغيل وغير مشاغيل، وقال مرّة الهمذاني: أصحاء ومرضى، وقال يمان بن رباب: عزابًا ومتأهلين.

وقيل: خفافًا من حاشيتكم وأتباعكم، وثقالاً مستكثرين بهم، وقيل: خفافًا مسرعين خارجين ساعة سماع النفير، وثقالاً بعد التروي فيه والاستعداد له.

﴿وَجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ قال الزهري: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه، فقال له: إنك عليل صاحب ضر، فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكني الحرب كثّرت السواد وحفظت المتاع.

وقال عطاء الخراساني عن ابن عباس: نُسخت هذه الآية بقوله: «﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾»[1] [التوبة: ١٢٢].

وقال السدي: لما نزلت هذه الآية اشتد شأنها على الناس فنسخها الله تعالى وأنزل: «ليس على الضعفاء ولا على المرضى...»[2] الآية.

ثم نزل في المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك[3]:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ واسم كان مضمر، أي: لو كان ما تدعوهم إليه عرضًا قريبًا، أي: غنيمة قريبة المتناول ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: قريبًا هيّنًا ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ لخرجوا معك ﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ أي: المسافة، والشقة: السفر البعيد؛ لأنه يشقُّ على الإنسان، وقيل: الشقة الغاية التي يقصدونها ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ يعني: باليمين الكاذبة ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ في أيمانهم وإيمانهم؛ لأنهم كانوا مستطيعين.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾ قال عمرو بن ميمون: اثنان فعلهما رسول الله ﷺ ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين، وأخذه الفدية من أُسارى بدر، فعاتبه الله كما تسمعون.

---

(١) انظر: «الناسخ والمنسوخ» لابن سلامة: ص٥٢، وللنحاس: ص٢٠١، «أسباب النزول»: ص٢٨٣ ـ ٢٨٤، ابن كثير: (٢/ ٣٦٠).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي. «الدر المنثور»: (٤/ ٢٠٨).

(٣) «أسباب النزول» للواحدي: ص٢٨٤.

لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ
قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً
وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾
لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ
وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

قال سفيان بن عيينة: انظروا إلى هذا اللطف بدأ بالعفو قبل أن يُعيِّره بالذنب. وقيل: إن الله عزَّ وجلَّ وقَّره ورفع محله بافتتاح الكلام بالدعاء له، كما يقول الرجل لمن يخاطبه إذا كان كريمًا عنده: عفا الله عنك ما صنعت في حاجتي؟ ورضي الله عنك ألاَ زرتني، وقيل: معناه: أدام الله لك العفو.

﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ أي: في التخلُّف عنك ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ﴾ في أعذارهم ﴿ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ فيها، أي: تعلم من لا عذر له، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين يومئذ.

﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ ﴾ أي: لا يستأذنك في التخلف ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي: شكَّتْ ونافقت ﴿ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ متحيِّرين.

﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ ﴾ إلى الغزو ﴿ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ ﴾ أي: لهيَّؤوا ﴿ عُدَّةً ﴾ أهبة وقوة من السلاح والكراع ﴿ وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ ﴾ خروجهم ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ منعهم وحبسهم عن الخروج ﴿ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ ﴾ في بيوتكم ﴿ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ يعني: مع المرضى والزَّمْنَى، وقيل: مع النسوان والصبيان، قوله عزَّ وجلَّ: «وَقِيلَ»، أي: قال بعضهم لبعض: اقعدوا، وقيل: أوحى إلى قلوبهم وأُلْهِمُوا أسباب الخذلان.

﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ أمرهم بالجهاد لغزوة تبوك، فضرب رسول الله ﷺ عسكره على ثنية الوداع، وضرب عبد الله بن أُبَيّ على (ذي جُدَّة)[1] أسفل من ثنية الوداع، ولم يكن بأقل

(١) في «أ»: (ذي حلوة). و(ذُو جُدَّة): الطريق الواضح المسلوك.

﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾

العسكرين، فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه عبد الله بن أُبيّ فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب، فأنزل الله تعالى يعزّي نبيه ﷺ[1]: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ﴾ يعني: المنافقين ﴿فِيكُم﴾ أي: معكم ﴿مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ أي: فسادًا وشرًّا، ومعنى الفساد: إيقاع الجبن والفشل بين المؤمنين بتهويل الأمر ﴿وَلَأَوۡضَعُواْ﴾ أسرعوا ﴿خِلَٰلَكُمۡ﴾ وسطكم، بإيقاع العداوة والبغضاء بينكم بالنميمة ونقل الحديث من البعض إلى البعض، وقيل: «وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ»، أي: أسرعوا فيما يخلّ بكم ﴿يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ أي: يطلبون لكم ما تفتنون به، يقولون: لقد جُمع لكم كذا وكذا، وإنكم مهزومون وسيظهر عليكم عدوكم ونحو ذلك، وقال الكلبي: «يبغونكم الفتنة»، يعني: العَيْبَ والشرَّ، وقال الضحاك: «الفتنة»: الشرك، ويقال: بغيته الشر والخير أبغيه بُغَاءً إذا التمستُه له، يعني: بغيت له.

﴿وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ﴾ قال مجاهد: معناه: وفيكم محبون لهم يؤدون إليهم ما يسمعون منكم، وهم الجواسيس، وقال قتادة: معناه: وفيكم مطيعون لهم، أي: يسمعون كلامهم ويطيعونهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ﴾ أي: طلبوا صدَّ أصحابك عن الدين وردَّهم إلى الكفر، وتخذيل الناس عنك قبل هذا اليوم، كفعل عبد الله بن أُبيّ يوم أحد حين انصرف عنك بأصحابه ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ﴾ وأجالوا فيك وفي إبطال دينك الرأي، بالتخذيل عنك / وتشتيت أمرك ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ ١/١٥٩
النصر والظفر ﴿وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ دين الله ﴿وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ﴾ نزلت في جَدِّ بن قَيسٍ المنافق، وذلك أن النبي ﷺ لَمّا تجهّز لغزوة تبوك قال: «يا أبا وهب، هل لك في جلاد بني الأصفر؟ ـ يعني: الروم ـ، تتخذ منهم سراري ووصفاء»، فقال جد: يا رسول الله، لقد عرف قومي أني رجل مغرم بالنساء، وإني أخشى إن رأيت بنات بني الأصفر أن لا أصبر عنهن، ائذنْ لي في القعودِ ولا تفتني بهنَّ وأُعينُك بمالي، قال ابن عباس: اعتلَّ جد بن قيس ولم تكن له علة إلا النفاق، فأعرض عنه النبي ﷺ، فقال: «أذنت لك» فأنزل الله

(١) «أسباب النزول» للواحدي: ص٢٨٤.

إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

عزَّ وجلَّ[1]: ﴿وَمِنْهُم﴾ يعني: من المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي﴾ في التخلف ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ ببنات الأصفر، قال قتادة: ولا تؤثمني ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي: في الشرك والإثم وقعوا بنفاقهم وخلافهم أمرَ الله وأمرَ رسوله ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ (مطبقة بهم)[2] وجامعة لهم فيها.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾ نصرة وغنيمة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ تُحزنُهم، يعني: المنافقين ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ قتل وهزيمة ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا﴾ حذَرنا، أي: أخذنا بالحزم في القعود عن الغزو، ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هذه المصيبة ﴿وَيَتَوَلَّوا﴾ ويدبروا ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ مسرورون بما نالك من المصيبة.

﴿قُل﴾ لهم يا محمد: ﴿لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي: علينا في اللوح المحفوظ ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ ناصرنا وحافظنا، وقال الكلبي: هو أولى بنا من أنفسنا في الموت والحياة ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا﴾ تنتظرون بنا أيها المنافقون ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ إما النصر والغنيمة أو الشهادة والمغفرة، وروينا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «تَكَفَّلَ اللهُ لِمَنْ جاهد في سبيلِه لا يُخرِجُه من بيته إلا الجهاد في سبيله، وتصديق كلمته: أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة»[3].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ إحدى السوأتين: إمَّا ﴿أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ فيهلككم كما أهلك الأمم الخالية ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ أي: بأيدي المؤمنين إن أظهرتم ما في قلوبكم ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾

(١) انظر: «تفسير الطبري»: (١٤/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨)، «أسباب النزول» للواحدي: ص٢٨٤ ـ ٢٨٥، «سيرة ابن هشام»: (٢/ ٥١٦).

(٢) في «ب»: (مطيفة بهم).

(٣) أخرجه البخاري في الخُمس، باب قول النبي ﷺ: «أحلت لكم الغنائم»: (٦/ ٢٢٠)، ومسلم في الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله برقم ١٨٧٦: (٣/ ١٤٩٦).

﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ قال الحسن: فتربصوا مواعيد الشيطان، إنا متربصون مواعيد الله: من إظهار دينه، واستئصال من خالفه.

﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أمرٌ بمعنى الشرط والجزاء، أي: إن أنفقتم طوعًا أو كرهًا، نزلت في جدِّ بن قيس حين استأذن في القعود، قال: أُعِيْنُكم بمالي، يقول: إن أنفقتم طوعًا أو كرهًا ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ﴾ أي: لأنكم ﴿كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي: «يقبل» بالياء لتقدم الفعل، وقرأ الباقون بالتاء؛ لأن الفعل مسند إلى جمع مؤنث وهو النفقات، فأنَّث الفعل ليعلم أن الفاعل مؤنث ﴿نَفَقَاتُهُمْ﴾ صدقاتهم ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ أي: المانع من قبول نفقاتهم كفرهم ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ متثاقلون؛ لأنهم لا يرجون على أدائها ثوابًا، ولا يخافون على تركها عقابًا، فإن قيل: كيف ذمّ(١) الكسلَ في الصلاة ولا صلاة لهم أصلاً؟ قيل: الذم واقع على الكفر الذي يبعث على الكسل، فإن الكفر مُكسل، والإيمان منشط ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ لأنهم يعدونها مغرمًا ومنعها مغنمًا.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ والإعجاب: هو السرور بما يتعجب منه، يقول: لا تستحسن ما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد؛ لأن العبد إذا كان من الله في استدراج كثَّر الله ماله وولده ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فإن قيل: أيُّ تعذيب في المال والولد وهم يتنعمون بها في الحياة الدنيا؟

قيل: قال مجاهد وقتادة: في الآية تقديم وتأخير، تقديره: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنَّما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة، وقيل: التعذيب بالمصائب الواقعة في المال والولد.

وقال الحسن: يعذبهم بها في الدنيا بأخذ الزكاة منها والنفقة في سبيل الله، وقيل: يعذبهم بالتعب في جمعه، والوجل في حفظه، والكره في إنفاقه، والحسرة على تخليفه عند من لا يحمده، ثم يُقدم على مَلِكٍ لا يُعْذره

(١) في «أ»: (ذكر).

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝٥٧ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨﴾

﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: تخرج ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ ۝٥٥﴾ أي: يموتون على الكفر.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ أي: على دينكم ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦﴾ (يخافون أن يظهروا ما هم عليه)[1].

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً﴾ حرزًا وحصنًا ومعقلًا، وقال عطاء: مهربًا، وقيل: قومًا يأمنون فيهم ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ غِيرَانًا في الجبال، جمع مغارة: وهو الموضع الذي يغور فيه، أي: يستتر، وقال عطاء: سراديب ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ موضع دخول فيه، وأصله: مدتخل مفتعل، من أدخل يدخل، قال مجاهد: محرزًا، وقال قتادة: سرَبًا، وقال الكلبي: نفقًا في الأرض كنفق اليربوع، وقال الحسن: وجهًا يدخلونه على خلاف رسول الله ﷺ، وقرىء: «مَدْخَلًا» بفتح الميم وتخفيف الدال، وكذلك قرأ يعقوب ﴿لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾ لأدبروا إليه هربًا منكم ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝٥٧﴾ يسرعون في إباءٍ ونفورٍ لا يردّ وجوهَهم شيء، ومعنى الآية: أنهم لو يجدون مخلصًا منكم ومهربًا لفارقوكم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ...﴾ الآية، نزلت في ذي الخويصرة التميمي، واسمه: حرقوص بن زهير، أصل الخوارج.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسمًا فينا، أتاه ذُو الخُوَيصرة، وهو رجل من بني تميم فقال: يا رسول الله اعدل، فقال: «وَيْلَكَ فمَنْ يعدلُ إذا لم أعدلْ، قد خبت وخسرت إن لم أكنْ أعدل»، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله، ائذن لي فيه فأضرب عنقه، فقال له: «دعه فإن له أصحابًا يحقر أحدُكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يُجاوز تراقيهم، يمرقون من الدِّين كما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ينظر إلى نَصْلِهِ فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رِصَافِهِ فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نَضِيِّه ـ وهو قِدْحُه ـ فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قُذَذِهِ فلا يوجد فيه شيء، قد سَبَقَ الفَرْثَ والدَّم، آيَتُهم: رجل أسود إحدى عضديه مثل ثَدْيِ المرأة، أو مثل البَضْعَةِ تَدَرْدَرُ،

(١) ساقط من «أ».

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ۝٥٩ ۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠﴾

يخرجون على حين فُرْقَةٍ من الناس»، قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ، وأشهد أن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل فالْتُمِس، فوُجِدَ، فأُتِيَ به حتى نظرتُ إليه على نعت رسول الله ﷺ الذي نعته[1].

١٥٩/ب وقال الكلبي: قال رجل / من المنافقين يقال له (أبو الجَوَّاظ)[2] لرسول الله ﷺ: لم تقسمْ بالسوية، فأنزل الله تعالى[3]: «وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ»، أي: يعيبك في أمرها وتفريقها ويطعن عليك فيها، يُقال: لمزه وهمزه، أي: عابه، يعني: أن المنافقين كانوا يقولون: إن محمدًا لا يعطي إلا من أحب، وقرأ يعقوب «يلمزك» حيث كان، وقال مجاهد: يلمزك، أي: يَرُوزُك، يعني: يختبرك ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨﴾ قيل: إن أعطوا كثيرًا فرحوا وإن أعطوا قليلًا سخطوا.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أي: قنعوا بما قسم لهم الله ورسوله ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ كافينا الله ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ ما نحتاج إليه ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ۝٥٩﴾ في أن يوسِّع علينا من فضله، فيُغنينا عن الصدقة وغيرها من أموال الناس، وجواب «وَلَوْ» محذوف، أي: لكان خيرًا لهم وأعود عليهم.

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ...﴾ الآية، بيَّن الله تعالى في هذه الآية أهل سهمان الصدقات وجعلها لثمانية أصناف، ورُوي عن زياد بن الحارث الصُّدَائي قال: أتيت رسولَ الله ﷺ فبايعته، فأتاه رجل وقال: أعطني من الصدقة، فقال له رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لم يرضَ بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو فجزَّأها ثمانية أجزاء، فإن كنتَ من تلك الأجزاء أعطيتك حقك»[4].

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام: (٦/ ٦١٧ ـ ٦١٨)، ومسلم في الزكاة، باب ذكر قتال الخوارج وصفاتهم برقم١٠٦٤: (٢/ ٧٤٤ ـ ٧٤٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٠/ ٢٢٤).

(٢) في «ب»: (ذو الخواظ).

(٣) «أسباب النزول» للواحدي: ص٢٨٦. واستغربه الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٧٩)، وقال ابن حجر: «لم أجده». وهذه العبارة تدل على الحكم بالوضع. انظر: «المصنوع في معرفة الحديث الموضوع» لملا علي القاري: ص٢٥ من مقدمة المحقق.

(٤) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب من يعطى من الصدقة: (٢/ ٢٣٠ ـ ٢٣١)، والدارقطني في الزكاة: (٢/ ١٣٧)، والبيهقي في «السنن»: =

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ فأحدُ أصناف الصدقة: الفقراءُ، والثاني: المساكين.

واختلف العلماء في صفة الفقير والمسكين، فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وعكرمة والزهري: «الفقير»: الذي لا يسأل، و«المسكين»: الذي يسأل.

وقال ابن عمر: ليس بفقير من جمع الدرهم إلى الدرهم والتمرة إلى التمرة، ولكن من أنقى نفسه وثيابه لا يقدر على شيء، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف.

وقال قتادة: «الفقير»: المحتاج الزَّمِنُ، و«المسكين»: الصحيح المحتاج.

ورُوي عن عكرمة أنه قال: الفقراء من المسلمين، والمساكين من أهل الكتاب.

وقال الشافعي: «الفقير» من لا مالَ ولا حِرْفَةَ تقع منه موقعًا، زَمِنًا كان أو غير زَمِن، و«المسكين» من كان له مال أو حرفة ولا يغنيه، سائلًا أو غير سائل. فالمسكين عنده أحسن حالاً من الفقير؛ لأن الله تعالى قال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾[الكهف: ٧٩]، أثبت لهم ملكًا مع اسم المسكنة.

وعند أصحاب الرأي: الفقير أحسن حالاً من المسكين.

وقال القتيبي: «الفقير»: الذي له البُلْغَة من العيش، و«المسكين»: الذي لا شيء له.

وقيل: الفقير من له المسكن والخادم، والمسكين من لا ملك له، وقالوا: كل محتاج إلى شيء فهو مفتقر إليه وإن كان غنيًّا عن غيره، قال الله تعالى: ﴿أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾[فاطر: ١٥]، والمسكين المحتاج إلى كل شيء، ألا ترى كيف حض على إطعامه، وجعل طعام الكفارة له، ولا فاقة أشد من الحاجة إلى سدِّ الجوعة.

وقال إبراهيم النخعي: الفقراء هم المهاجرون، والمساكين من لم يهاجروا من المسلمين.

وفي الجملة: الفقر والمسكنة عبارتان عن الحاجة وضعف الحال، فالفقير المحتاج الذي كسرت الحاجة فَقَارَ ظهره، والمسكين الذي ضعفت نفسه وسكنت عن الحركة في طلب القوت.

أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب، حدثنا عبد العزيز بن أحمد الخلَّال، حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا الربيع، أنبأنا الشافعي، أنبأنا سفيان بن عيينة، عن هشام يعني: ابنَ عروة، عن أبيه، عن عبيد الله ابن عدي بن الخِيَار: أن رجلين أخبراه أنهما أتيا رسول الله فسألاه عن الصدقة (فصعَّد فيهما وصوَّب)(١)، فقال: «إنْ شئتما أعطيتُكما ولا حظَّ فيها لغني ولا لذي قوة مكتسب»(٢).

= (٤/ ١٧٤)، وقال المنذري: في إسناده عبد الرحمن بن زياد الإفريقي وقد تكلم فيه غير واحد.

(١) ما بين القوسين من «مسند الشافعي».

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب فيمن يعطى من الصدقة: (٢/ ٢٣٣)، والنسائي في الزكاة، باب مسألة الغني المكتسب: (٥/ ٩٩ - ١٠٠)، والشافعي في «المسند»: (١/ ٢٤٤)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار»: (٢/ ١٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (٦/ ٨١). قال الإمام أحمد: ما أجوده من حديث. انظر: «التلخيص الحبير»: (٣/ ١٠٨).

واختلفوا في حدِّ الغنى الذي يمنع أخذ الصدقة، فقال الأكثرون: حدُّه أن يكون عنده ما يكفيه وعياله سنة، وهو قول مالك والشافعي.

وقال أصحاب الرأي: حدُّه أن يملك مائتي درهم.

وقال قوم: من ملك خمسين درهمًا لا تحل له الصدقة، لِما رُوينا عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سأل النَّاسَ وله ما يُغنيه جاءَ يومَ القيامةِ ومسألتُه في وجهه خموش أو خدوش أو كدوح»، قيل: يا رسول الله، وما يغنيه؟ قال: «خمسون درهمًا أو قيمتُها من الذهب»[1]، وهو قول الثوري وابن المبارك وأحمد وإسحاق، وقالوا: لا يجوز أن يعطى من الزكاة أكثر من خمسين درهمًا، وقيل: أربعون درهمًا لِما رُوي أنَّ النبي ﷺ قال: «من سأل وله أوقية أو عدلها فقد سأل إلحافًا»[2].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ وهم السُّعَاة الذين يتولون قبض الصدقات من أهلها ووضعها في حقها، فيُعطون من مال الصدقة، فقراء كانوا أو أغنياء، فيُعطَون أجر مثل عملهم.

وقال الضحاك ومجاهد: لهم الثمن من الصدقة.

﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ فالصنف الرابع من المستحقين للصدقة هم: المؤلَّفَةُ قلوبهُم، وهم قسمان: قسم مسلمون، وقسم كفار، فأمَّا المسلمون فقسمان: قسم دخلوا في الإسلام ونيتهم ضعيفة فيه، فكان النبي ﷺ يعطيهم؛ تألفًا كما أعطى عيينة بن بدر والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس، أو أسلموا ونيتهم قوية في الإسلام، وهم شرفاء في قومهم مثل: عدي بن حاتم والزِّبرقان بن بدر، فكان يعطيهم تألفًا لقومهم وترغيبًا لأمثالهم في الإسلام، فهؤلاء يجوز للإمام أن يعطيهم من خمس خمس الغنيمة، والفيء سهم النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ يعطيهم من ذلك ولا يعطيهم من الصدقات.

والقسم الثاني من مؤلفة المسلمين: أن يكون قوم من المسلمين بإزاء قوم كفار في موضع مُتَناطٍ[3]، لا تبلغهم جيوش المسلمين إلا بمؤنة كثيرة وهم لا يجاهدون، إمَّا لضعف نيتهم أو لضعف حالهم، فيجوز للإمام أن يعطيهم من سهم الغزاة من مال الصدقة، وقيل: من سهم المؤلفة، ومنهم قوم بإزاء جماعة من مانعي الزكاة يأخذون منهم الزكاة يحملونها إلى الإمام، فيعطيهم الإمام من سهم المؤلفة من الصدقات، وقيل: من سهم سبيل الله.

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب من يعطى من الصدقة وحدّ الغنى: (٢/ ٢٢٦)، والترمذي في الزكاة، باب ما جاء من تحلّ له الزكاة: (٣/ ٣١٣ ـ ٣١٤)، وقال: «حديث حسن، وقد تكلم شعبة في حكيم بن جبير من أجل هذا الحديث»، وأخرجه النسائي في الزكاة، باب حد الغنى: (٥/ ٩٧)، وابن ماجه في الزكاة، باب من سأل عن ظهر غنى برقم ١٨٤٠: (١/ ٥٨٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (٦/ ٨٣).

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب من يعطى من الصدقة: (٢/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩)، والنسائي في الزكاة، باب إذا لم يكن له دراهم وكان له عدلها: (٥/ ٩٨ ـ ٩٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (٦/ ٨٤).

(٣) متناط: متناءٍ بعيد.

رُوي أنَّ عدي بن حاتم جاء أبا بكر الصديق بثلاثمائة من الإبل من صدقات قومه فأعطاه أبو بكر منها ثلاثين بعيرًا.

وأمَّا الكفار من المؤلفة: فهم من يُخشى شرُّهُ منهم، أو يُرجى إسلامه، فيريد الإمام أن يُعطي هذا حذرًا من شره، أو يُعطي ذلك ترغيبًا له في الإسلام، / فقد كان النبي ﷺ يعطيهم من خمس الخمس، كما ١/١٦٠
أعطى صفوان بن أمية لِمَا يرى من ميله إلى الإسلام، أما اليوم فقد أعز الله الإسلام فله الحمد، وأغناه أن يُتألف عليه رجالٌ، فلا يُعطى مشركٌ تألفًا بحال، وقد قال بهذا كثير من أهل العلم أن المؤلفة منقطعة وسهمهم ساقط، رُوي ذلك عن عكرمة، وهو قول الشعبي، وبه قال مالك والثوري، وأصحاب الرأي، وإسحاق بن راهوية.

وقال قوم: سهمهم ثابت، يُروى ذلك عن الحسن، وهو قول الزهري وأبي جعفر محمد بن علي وأبي ثور، وقال أحمد: يعطون إن احتاج المسلمون إلى ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ والصنف الخامس: وهم الرقاب، وهم المكاتَبون، لهم سهم من الصدقة، هذا قول أكثر الفقهاء، وبه قال سعيد بن جبير والنخعي والزهري والليث بن سعد والشافعي، وقال جماعة: يشترىٰ بسهم الرقاب عبيد فيُعتقون، وهذا قول الحسن، وبه قال مالك وأحمد وإسحاق.

قوله تعالى: ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ الصنف السادس: هم الغارمون، وهم قسمان: قسم ادَّانوا لأنفسهم في غير معصية، فإنهم يُعطَون من الصدقة إذا لم يكن لهم من المال ما يفي بديونهم، فإن كان عندهم وفاءٌ فلا يُعطون، وقسم ادَّانوا في المعروف وإصلاح ذات البين فإنهم يُعطَون من مال الصدقة ما يقضون به ديونهم، وإن كانوا أغنياء.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنبأنا زاهر بن أحمد، أنبأنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، عن مالك، عن زيد بن إسلم، عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «لا تَحِلُّ الصدقة لغني إلاَّ لخمسة: لغازٍ في سبيل الله، أو لغارمٍ، أو لرجلٍ اشتراها بماله، أو لرجلٍ له جارٌ مسكين فتصدق على المساكين فأهدى المسكين للغني، أو لعاملٍ عليها»(١).

ورواه معمر، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ متصلًا بمعناه(٢).

أما من كان دَينه في معصيةٍ فلا يُدفع إليه.

---

(١) رواه مرسلًا: مالك في «الموطأ»، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة ومن يجوز له أخذها وهو غني: (٢/ ٢٣٤ـ٢٣٥).

(٢) أخرجه أبو داود في الموضع السابق نفسه، وابن ماجه في الزكاة برقم ١٨٤١: (١/ ٥٩٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (٦/ ٨٩).

وقوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أراد بها: الغزاة، فلهم سهم من الصدقة، يُعْطَون إذا أرادوا الخروج إلى الغزو ما يستعينون به على أمر الغزو من: النفقة والكسوة والسلاح والحمولة، وإن كانوا أغنياء، ولا يُعطى منه شيء في الحج عند أكثر أهل العلم.

وقال قوم: يجوز أن يصرف سهم في سبيل الله إلى الحج، ويُروى ذلك عن ابن عباس، وهو قول الحسن وأحمد وإسحاق.

قوله تعالى: ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ الصنف الثامن: هم أبناء السبيل، فكل من يريد سفرًا مباحًا ولم يكن له ما يقطع به المسافة يُعطى من الصدقة بقدر ما يقطع به تلك المسافة، سواء كان له في البلد المنتقل إليه مالٌ أو لم يكن.

وقال قتادة: «ابن السبيل» هو الضيف.

وقال فقهاء العراق: «ابن السبيل» الحاج المنقطع.

قوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً﴾ أي: واجبةً ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ وهو نصب على القطع، وقيل: على المصدر، أي: فرض الله هذه الأشياء فريضةً ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

اختلف الفقهاء في كيفية قسم الصدقات، وفي جواز صرفها إلى بعض الأصناف:

فذهب جماعة إلى أنه لا يجوز صرفها كلها إلى بعضهم مع وجود سائر الأصناف، وهو قول عكرمة، وبه قال الشافعي، قال: يجب أن تقسم زكاة كل صنف من ماله على الموجودين من الأصناف الستة، الذين سُهْمَانهم ثابتة قسمةً على السواء؛ لأن سهم المؤلفة ساقط، وسهم العامل إذا قسم بنفسه، ثم حصة كل صنف منهم لا يجوز أن تصرف إلى أقل من ثلاثة منهم إن وجد منهم ثلاثة أو أكثر، فلو فاوت بين أولئك الثلاث يجوز، فإن لم يوجد من بعض الأصناف إلا واحد صرف حصة ذلك الصنف إليه ما لم يخرج عن حدِّ الاستحقاق، فإن انتهتْ حاجتُه وفضل شيء رَدَّه إلى الباقين.

وذهب جماعة إلى أنه لو صرف الكل إلى صنف واحد من هذه الأصناف، أو إلى شخص واحد منهم يجوز، وإنَّما سمَّى الله تعالى هذه الأصناف الثمانية إعلامًا منه أن الصدقة لا تخرج عن هذه الأصناف، لا إيجابًا لقسمها بينهم جميعًا، وهو قول عمر وابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير وعطاء، وإليه ذهب سفيان الثوري وأصحاب الرأي، وبه قال أحمد، قال: يجوز أن يضعها في صنف واحد، وتفريقها أولى.

وقال إبراهيم: إن كان المال كثيرًا يحتمل الإجزاء قسَّمه على الأصناف، وإن كان قليلًا جاز وضعه في صنف واحد.

وقال مالك: يتحرى موضع الحاجة منهم ويُقَدِّم الأَوْلَى فالأَوْلَى من أهل الخُلَّة والحاجة، فإن رأى الخلة في الفقراء في عام أكثر قدَّمَهم، وإن رآها في عام في صنف آخر حوَّلها إليهم.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦١﴾

وكلُّ من دُفِعَ إليه شيءٌ من الصدقة لا يزيد على قدر الاستحقاق، فلا يزيد الفقير على قدر غناه، فإذا حصل أدنى اسم الغنى لا يُعطى بعده، فإن كان محترفًا لكنه لا يجد آلة حرفته: فيعطى قدر ما يحصل به آلة حرفته، ولا يزاد العامل على أجر عمله، والمُكاتب على قدر ما يُعتق به، وللغريم على قدر دينه، وللغازي على قدر نفقته للذهاب والرجوع والمقام في مغزاه وما يحتاج إليه من الفرس والسلاح، ولابن السبيل على قدر إتيانه مقصده أو مآله.

واختلفوا في نقل الصدقة عن بلد المال إلى موضع آخر، مع وجود المستحقين فيه: فكرهه أكثر أهل العلم لما أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي، أنبأنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي، حدثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي، حدثنا أبو عيسى الترمذي، حدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع حدثنا زكريا بن إسحاق المكي، حدثنا يحيى بن عبد الله بن الصيفي، عن أبي معبد، عن ابن عباس أنَّ رسول الله ﷺ بعث معاذًا إلى اليمن فقال: «إنَّكَ تأتي قومًا أهل كتاب فادْعُهُمْ إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعْلِمْهُمْ أنَّ الله فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعْلِمْهم أنَّ الله قد فرض عليهم صدقة تُؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتَّقِ دعوةَ المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[١].

فهذا يدل على أن صدقة أغنياء كل قوم تُرَدّ على فقراء ذلك القوم.

١٦٠/ب واتفقوا على أنه إذا نقل من بلد إلى بلد آخر أُدّي مع الكراهة، وسقط الفرض عن ذمته، إلا ما حُكي / عن عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ أنَّه ردَّ صدقة حملت من خراسان إلى الشام إلى مكانها من خراسان.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾ نزلت في جماعة من المنافقين كانوا يُؤذون النبي ﷺ، ويقولون ما لا ينبغي، فقال بعضهم: لا تفعلوا، فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا، فقال الجُلَاس بن سُوَيْد منهم: بل نقول ما شئنا، ثم نأتيه فننكر ما قلنا، ونحلف فيصدقنا بما نقول، فإنَّما محمدٌ أُذُنٌ[٢]، أي: أُذُنٌ سامعة، يقال: فلانٌ أُذُنٌ وأُذُنَةٌ على وزن فَعُلَة إذا كان يسمع كل ما قيل له ويقبله، وأصله من أذن يأذن أذنًا، أي: استمع، وقيل: هو أذن، أي: ذو أذن سامعة.

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة: (٣/ ٢٦١)، ومسلم: (١/ ٥٠ ـ ٥١)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٤٧٢).

(٢) «أسباب النزول» للواحدي: (ص٢٨٦)، «سيرة ابن هشام»: (١/ ٥٢١).

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ۝٦٢﴾

وقال محمد بن إسحاق بن يسار: نزلت في رجل من المنافقين يقال له: نبتل بن الحارث، وكان رجلًا أذلم، ثائر شعر الرأس، أحمر العينين، أسفع الخدين، مشوَّه الخلقة، وقد قال النبي ﷺ: «من أحب أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث»، وكان ينم حديث النبي ﷺ إلى المنافقين، فقيل له: لا تفعل، فقال: إنما محمد أُذن، فمن حدثه شيئًا صدقه، فنقول ما شئنا، ثم نأتيه ونحلف بالله فيصدقنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية[1].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ قرأه العامة بالإضافة، أي: مستمعُ خير وصلاح لكم، لا مستمع شر وفساد، وقرأ الأعمش والبُرْجُمِيّ عن أبي بكر: «أُذُنٌ خيرٌ لكم» مرفوعين منونين، يعني: أن يسمع منكم ويصدقكم خير لكم من أن يكذبكم ولا يقبل قولكم، ثم كذَّبهم فقال: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ أي: لا، بل يؤمن بالله ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يصدِّق المؤمنين ويقبل منهم لا من المنافقين، يقال: أمنته وأمنت له بمعنى صدقته ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ قرأ حمزة: «ورحمةٍ» بالخفض على معنى أذن خير لكم، وأذن رحمة، وقرأ الآخرون: «ورحمة» بالرفع، أي: هو أذن خير، وهو رحمة ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ لأنه كان سبب إيمان المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦١﴾.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ قال قتادة والسُّدِّي: اجتمع ناس من المنافقين فيهم الجُلاس بن سُوَيْد ووديعة بن ثابت، فوقعوا في النبي ﷺ، وقالوا: إن كان ما يقول محمد حقًّا فنحن شرٌّ من الحمير، وكان عندهم غلام من الأنصار يقال له: عامر بن قيس، فحقروه وقالوا هذه المقالة، فغضب الغلام وقال: والله إن ما يقول محمد حقٌّ وأنتم شرٌّ من الحمير، ثم أتى النبيَّ فأخبره، فدعاهم وسألهم رسول الله ﷺ، فحلفوا أنَّ عامرًا كذاب، وحلف عامر أنهم كذبة، فصدقهم النبي ﷺ، فجعل عامر يدعو ويقول: اللهم صدِّق الصادقَ وكذِّب الكاذِبَ فأنزل الله تعالى هذه الآية[2].

وقال مقاتل الكلبي: نزلت في رهط من المنافقين تخلَّفوا عن غزوة تبوك، فلما رجع رسول الله ﷺ أتوه يعتذرون إليه ويحلفون، فأنزل الله تعالى هذه الآية[3]: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ۝٦٢﴾.

---

(١) ذكره ابن إسحاق بلاغًا: (١/ ٥٢١)، وانظر: الطبري: (١٤/ ٣٢٤)، «أسباب النزول»: ص٢٨٦، و«الدر المنثور»: (٤/ ٢٢٧).

(٢) ذكره ابن هشام في «السيرة»، ورواه عبد الرزاق في «مصنفه»، وابن سعد في الطبقات»، والبيهقي في «الدلائل»، وانظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٢٢٨)، «أسباب النزول»: ص٢٨٧، الطبري: (١٤/ ٣٢٩)، «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٨٢).

(٣) قال الزيلعي: ذكره الثعلبي ثم البغوي في تفسيريهما من قول الكلبي بلفظ المصنف. انظر: «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٨٢).

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يخالف الله ورسوله أن يكونوا في جانب واحد من الله ورسوله ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ أي: الفضيحة العظيمة.

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ أي: يخشى المنافقون ﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: تنزل على المؤمنين ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: بما في قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين، كانوا يقولون فيما بينهم ويُسرون ويخافون الفضيحة بنزول القرآن في شأنهم.

قال قتادة: هذه السورة تُسمى الفاضحة والمبعثرة والمثيرة، أثارت مخازيهم ومثالبهم.

قال عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنزل الله تعالى ذكر سبعين رجلًا من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم نسخ ذكر الأسماء رحمة للمؤمنين، لئلا يعير بعضهم بعضًا؛ لأنَّ أولادهم كانوا مؤمنين.

﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ﴾ مُظهر ﴿مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

قال ابن كيسان: نزلت هذه الآية في اثني عشر رجلًا من المنافقين، وقفوا لرسول الله ﷺ على العقبة لمَّا رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به إذا علاها، ومعهم رجل مسلم يخفيهم شأنه، وتنكروا له في ليلة مظلمة، فأخبر جبريلُ رسولَ الله ﷺ بما قدَّروا، وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحلهم، وعمار بن ياسر يقود برسول الله ﷺ راحلته، وحذيفة يسوق به، فقال لحذيفة: «اضرب وجوه رواحلهم» فضربها حتى نحاها، فلما نزل رسول الله ﷺ قال لحذيفة: «من عرفت من القوم»؟ قال: لم أعرف منهم أحدًا، فقال رسول الله ﷺ: «فإنهم فلان وفلان» حتى عدَّهم كلهم، فقال حذيفة: ألا تبعثُ إليهم فتقتلهم؟ فقال: «أكره أن تقول العرب: لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم، بل يكفيناهم الله بالدُّبَيْلَة»[1].

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أنبأنا عبد الغافر بن عيسى، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أبي نضرة، عن قيس بن عبادة قال: قلنا لعمَّار أرأيتَ قتالكم أرأيًا رأيتموه؟ فإن الرأي يُخطىء ويصيب، أو عهد عهده إليكم رسول الله ﷺ؟ فقال: ما عَهِدَ إلينا رسولُ الله ﷺ شيئًا لم يعهده إلى الناس كافة، وقال: إن رسول الله

(١) قال الزيلعي (٢/ ٨٣ ـ ٨٤): رواه أحمد في «مسنده»، والطبراني في «معجمه»، والبيهقي في «دلائل النبوة»، والبزار في «مسنده» عن حذيفة بن اليمان. وانظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٢٤٤)، «الفتح السماوي» للبيضاوي: (٢/ ٦٨٩ ـ ٦٩٠).

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

ﷺ قال: «إنَّ في أمتي ـ قال شعبة: وأحسبه قال: حدثني حذيفة قال: في أمتي ـ اثنا عشر منافقًا لا يدخلون الجنة، ولا يجدون ريحها، حتى يَلِجَ الجمل في سَمِّ الخياط، ثمانية منهم تكفيهم الدُّبَيْلة، سراجٌ من النار يظهر في أكتافهم، حتى ينجم من صدورهم»[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ...﴾ الآية، وسبب نزول هذه الآية على ما قال الكلبي ومقاتل وقتادة: أن النبي ﷺ كان يسير في غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين، اثنان يستهزئان بالقرآن والرسول، والثالث يضحك.

قيل: كانوا يقولون: إن محمدًا يزعم أنه يغلب الروم ويفتح مدائنهم، ما أبعده من ذلك! وقيل: كانوا يقولون: إن محمدًا يزعم أنه نزل في أصحابنا المقيمين بالمدينة قرآن، وإنما هو قوله وكلامه، فأَطْلَعَ اللهُ نبيَّه ﷺ على ذلك؛ فقال: احبسوا عليَّ الركب، فدعاهم وقال لهم: قلتم كذا وكذا، فقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، أي: كنَّا نتحدث ونخوض في الكلام كما يفعل الركب لقطع الطريق بالحديث واللعب.

١٦١/أ قال عمر[2]: فلقد / رأيت عبد الله بن أبي يشتد قدام رسول الله ﷺ والحجارة تنكبه وهو يقول: إنَّما كنَّا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: «﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾»، ما يلتفت إليه ولا يزيد عليه[3].

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: قل يا محمد: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ﴾ كتابه ﴿وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ فإن قيل: كيف قال: كفرتم بعد إيمانكم، وهم لم يكونوا مؤمنين؟ قيل: معناه: أظهرتم الكفر بعدما أظهرتم الإيمان.

﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ أي: نتب على طائفة منكم، وأراد بالطائفة واحدًا ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ بالاستهزاء، قرأ عاصم: «نَعْفُ» بالنون وفتحها وضم الفاء، «نُعَذِّب» بالنون وكسر الذال، «طائفةً» نصبٌ، وقرأ الآخرون: «يُعْفَ» بالياء وضمها وفتح الفاء، «تُعَذَّبْ» بالتاء وفتح الذال، «طائفةٌ» رفعٌ على غير تسمية الفاعل.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم برقم ٢٧٧٩: (٤/ ٢١٤٣).

(٢) هكذا في النسختين: (قال عمر)، والصواب: (ابن عمر).

(٣) انظر: «تفسير الطبري»: (١٤/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤)، «أسباب النزول» للواحدي: ص ٢٨٨، «الدر المنثور»: (٤/ ٢٣٠ ـ ٢٣١).

ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾

وقال محمد بن إسحاق: الذي عفا عنه رجلٌ واحد، هو مَخْشِيّ بن حُمَيِّر الأشجعي، يقال: هو الذي كان يضحك ولا يخوض، وكان يمشي مجانبًا لهم وينكر بعض ما يسمع، فلما نزلت هذه الآية تاب من نفاقه، وقال: اللَّهم إني لا أزال أسمع آية تقرأ أُعْنَىٰ بها، تقشعرُّ الجلود منها، وتجب[1] منها القلوب، اللَّهم اجعلْ وفاتي قتلًا في سبيلك، لا يقول أحد: أنا غسلت، أنا كفنت، أنا دفنت، فأُصيب يومَ اليمامة، فما أحد من المسلمين إلا عُرِفَ مصرعُه غيره[2].

قوله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ أي: هم على دين واحد، وقيل: أمرهم واحد بالاجتماع على النفاق ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ﴾ بالشرك والمعصية ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: عن الإيمان والطاعة ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ﴾ أي: يمسكونَها عن الصدقة والإنفاق في سبيل الله ولا يبسطونها بخير ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ﴾ تركوا طاعةَ الله، فتركهم الله من توفيقه وهدايته في الدنيا، ومن رحمته في الآخرة، وتركهم في عذابه ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ﴾ كافيتهم جزاءً على كفرهم ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ أبعدهم من رحمته ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ دائم.

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: فعلتم كفعل الذين من قبلكم بالعُدول عن أمر الله، فَلُعِنتُم كما لُعِنُوا ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾ بطشًا ومنعةً ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ فتمتعوا وانتفعوا بخلاقهم؛ بنصيبهم من الدنيا باتباع الشهوات ورضوا به عوضًا عن الآخرة ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾ أيُّها

---

(١) وَجَبَ قلبه يَجِبُ وَجِيبًا: خفق واضطرب.

(٢) «سيرة ابن هشام»: (٢/ ٥٢٥)، وفيه: مخشّن بن حمير، ويقال: مَخْشِي.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

الكفار والمنافقون ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ﴾ وسلكتم سبيلهم ﴿وَخُضْتُمْ﴾ في الباطل والكذب على الله تعالى، وتكذيب رُسله، والاستهزاء بالمؤمنين ﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أي: كما خاضوا، وقيل: «كالذي» بمعنى «كالذين» خاضُوا، وذلك أن «الذي» اسم ناقص، مثل «ما» و«من» يُعبّر به عن الواحد والجميع، نظيره قوله تعالى: «كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا»، ثم قال: «ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ»[البقرة: ١٧].

﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: كما حبطت أعمالهم وخسروا، كذلك حبطتْ أعمالُكم وخسرتُم.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا محمد بن عبد العزيز، حدثنا أبو عمر الصنعاني من اليمن، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُم شِبْرًا بشبرٍ وذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لاتَّبعتُموهُم»، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»؟ وفي رواية أبي هريرة: «فهلِ الناسُ إلاَّ هُمْ»، وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل سَمْتًا وهَدْيًا تتبعون عملهم حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ غيرَ أني لا أدْرِي أتعبُدُون العِجْلَ أمْ لا؟»[1].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ يعني: المنافقين ﴿نَبَأُ﴾ خبر ﴿الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ حين عصوا رُسلنا وخالفوا أمرنا، كيف عذبناهم وأهلكناهم، ثم ذكرهم فقال: ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ أهلكوا بالطُّوفان ﴿وَعَادٍ﴾ أُهلِكُوا بالريح ﴿وَثَمُودَ﴾ بالرجفة ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ بسلب النعمة وهلاك نمرود ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ يعني: قوم شعيب، أُهلكوا بعذاب يوم الظُّلَّة ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ المنقلبات التي جعلنا عاليها سافلها وهم قوم لوط ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فكذَّبوهم وعَصَوْهم كما فعلتم يا معشر الكفار، فاحذرُوا تعجيلَ النِّقمة ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام، باب قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم...»: (١٣/ ٣٠٠)، ومسلم في العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى برقم ٢٦٦٩: (٤/ ٢٠٥٤)، والمصنف في شرح السنة: (١٤/ ٣٩٢).

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في الدِّين واتفاق الكلمة والعون والنصرة ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان والطاعة والخير ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عن الشرك والمعصية وما لا يُعرف في الشرع ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ منازل طيبة ﴿فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ أي: بساتين خلد وإقامة، يُقال: «عَدَنَ بالمكان» إذا قام به.

قال ابن مسعود: هي بُطْنَان الجنة، أي: وسطها.

قال عبد الله بن عمرو بن العاص: إن في الجنة قصرًا يقال له: «عَدْنٌ» حوله البروج والمروج، له خمسة آلاف باب لا يدخله إلاَّ نبيٌّ أو صديق أو شهيدٌ.

وقال الحسن: قصرٌ من ذهب لا يدخله إلا نبيٌّ أو صديقٌ أو شهيدٌ أو حَكَمٌ عدلٌ.

وقال عطاء بن السائب: «عدن» نهر في الجنة جنانه(1) على حافتيه.

وقال مقاتل والكلبي: «عدن» أعلى درجة في الجنة، وفيها عين التسنيم، والجنان حولها، محدقة بها، وهي مغطَّاة من حين خلقها الله تعالى حتى ينزلها أهلها: الأنبياءُ والصِّدِّيقُون والشهداءُ والصالحون، ومن شاء الله، وفيها قصورُ الدُّرِّ واليواقيت والذهب، فتهب ريح طيبة من تحت العرش فتدخل عليهم كُثْبَانُ المِسْكِ الأذفَر الأبيض.

﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: رضا الله عنهم أكبر من ذلك ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ رُوينا عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن النبيَّ ﷺ قال: «يقول الله عزَّ وجلَّ لأهلِ الجنةِ: يا أهلَ الجنَّة هل رضيتُم؟ فيقولون: ربَّنا ما لنا لا نرضى وقد أعطيتَنا ما لم تُعْطِهِ أحدًا من خلقك، فيقول: أفلا أعطيكم

---

(1) في «ب»: (جنباته).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

أفضلَ من ذلك؟ فيقولون: ربَّنا وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رِضْوَاني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»[1].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ بالسيف والقتل ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ واختلفوا في صفة جهاد المنافقين، قال ابن / مسعود: بيده فإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه، وقال: لا تَلْقَ المنافقين إلا بوجه مكفهِرّ[2]، وقال ابن عباس: باللسان وترك الرفق، وقال الضحاك: بتغليظ الكلام، وقال الحسن وقتادة: بإقامة الحدود عليهم ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ قال عطاء: نسخت هذه الآية كلَّ شيء من العفو والصفح. ١٦١/ب

قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ جالسًا في ظل حجرة فقال: «إنه سيأتيكم إنسانٌ فينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاء فلا تكلموه»، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «عَلَامَ تشتمني أنتَ وأصحابُك»؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما قالوا، فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية[3].

وقال الكلبي: نزلت في الجُلَاس بن سُوَيد، وذلك أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم بتبوك، فذكر المنافقين وسمَّاهم رجسًا وعابهم، فقال جُلَاس: لئن كان محمد صادقًا لنحن شرٌّ من الحمير، فسمعه عامر بن قيس، فقال: أجل إنَّ محمدًا لصادقٌ وأنتم شرٌّ من الحمير، فلما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قال الجُلاس، فقال الجُلاس: كذب عليَّ يا رسول الله، وأمرهما رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، باب كلام الرب مع أهل الجنة: (١٣/ ٤٨٧)، وفي الرقاق أيضًا، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة برقم ٢٨٢٩: (٤/ ٢١٧٦)، والمصنف في شرح السنة: (١٥/ ٢٣١-٢٣٢).

(٢) أخرجه الطبري عن ابن مسعود: (١٤/ ٣٥٨)، ومعنى (بوجه مكفهر): عابس متقبض، لا طلاقة فيه ولا بشر ولا انبساط.

(٣) أخرجه الطبري: (١٤/ ٣٦٣)، وصحح الشيخ شاكر إسناده، وزاد السيوطي نسبته للطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه. «الدر المنثور»: (٤/ ٢٤١).

﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

أن يحلفا عند المنبر، فقام الجلاس عند المنبر بعد العصر فحلف بالله الذي لا إله إلا هو ما قاله ولقد كَذَبَ عليَّ عامر، ثم قام عامر فحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد قاله وما كذَبْتُ عليه، ثم رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم أنزل على نبيّك تصديق الصادق منّا، فقال رسول الله ﷺ والمؤمنون: آمين، فنزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل أن يتفرقا بهذه الآية، حتى بلغ: «فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ»، فقام الجُلاس فقال: يا رسول الله، أسمعُ (اللهَ عزَّ وجلَّ)[1] قد عرضَ عليَّ التوبة، صدقَ عامرُ بن قيس فيما قاله، لقد قلتُه وأنا أستغفر الله وأتوب إليه، فَقَبِلَ رسول الله ذلك منه وحَسُنَتْ توبته[2].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ أي: أظهروا الكفر بعد إظهار الإيمان والإسلام، قيل: هي سبُّ النبي ﷺ، وقيل: كلمة الكفر قول الجلاس: لئن كان محمد صادقًا لنحن شرٌّ من الحمير، وقيل: كلمة الكفر قولهم: «لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ»[المنافقون: ٨]، وستأتي تلك القصة[3] ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ قال مجاهد: هَمَّ المنافقون بقتل المسلم الذي سمع قولهم: لنحن شر من الحمير، لكي لا يفشيه.

وقيل: هَمَّ اثنا عشر رجلًا من المنافقين وقفوا على العقبة في طريق تبوك ليفتِكُوا برسول الله ﷺ، فجاء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وُجُوهَ رَوَاحِلِهِم، فأرسل حذيفة لذلك.

وقال السدي: قالوا: إذا قدمنا المدينة عقدنا على رأس عبد الله بن أبي تاجًا، فلم يصلوا إليه.

﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ وما كرهوا وما أنكروا منهم ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وذلك أن مولى الجُلَاس قُتل، فأمر رسول الله ﷺ بديته اثني عشر ألف درهم فاستغنى، وقال الكلبي: كانوا قبل قدوم النبي ﷺ في ضَنْكٍ من العيش، فلما قَدِمَ عليهم النبي ﷺ استغنوا بالغنائم.

﴿فَإِن يَتُوبُوا﴾ من نفاقهم وكفرهم ﴿يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا﴾ يعرضوا عن الإيمان ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا﴾ بالخزي ﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾ أي: وفي الآخرة بالنار ﴿وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ...﴾ الآية، أخبرنا أبو سعيد الشريحي، حدثنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرنا أبو عبد الله بن حامد الأصفهاني، حدثنا أحمد بن محمد بن إبراهيم السمرقندي، حدثنا محمد بن نصر، حدثني أبو الأزهر أحمد بن الأزهر، حدثنا مروان بن محمد بن

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) انظر التعليق على سبب نزول الآية (٦٢) فيما سبق.

(٣) انظر فيما سيأتي تفسير الآية (٨) من سورة المنافقين.

شعيب، حدثنا مُعَان(١) بن رفاعة، عن علي بن يزيد(٢)، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبي أُمامة الباهلي قال: جاء ثعلبة بن حاطب الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ادعُ اللهَ أن يرزقني مالاً، فقال رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة، قليلٌ تُؤدي شُكْرَهُ خيرٌ من كثير لا تُطيقه»، ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله، ادعُ اللهَ أن يرزقني مالاً، فقال رسول الله ﷺ: «أمَا لَكَ في رسولِ الله أُسْوَةٌ حسنة؟ والذي نفسي بيده لو أردتُ أن تسيَّر الجبال معي ذهبًا وفضةً لسَارتْ»، ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله، ادعُ اللهَ أن يرزقني مالاً، فوالذي بعثك بالحق لئن رزقني اللهُ مالاً لأُعطين كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ ارْزُقْ ثعلبةَ مالاً».

قال: فاتخذ غنمًا فَنَمَتْ كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها، فنزل واديًا من أوديتها وهي تنمو كالدود، فكان يصلي مع النبي ﷺ الظهر والعصر، ويصلي في غنمه سائر الصلوات، ثم كثُرت ونَمَتْ حتى تباعد بها عن المدينة، فصار لا يشهد إلا الجمعة، ثم كَثُرتْ فَنَمَتْ فتباعد أيضًا حتى كان لا يشهد جمعة ولا جماعة، فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقَّى الناسَ يسألهم عن الأخبار، فذكره ﷺ ذات يوم فقال: ما فعل ثعلبة؟ قالوا: يا رسول الله، اتخذ ثعلبة غنمًا ما يسعها وادٍ، فقال رسول الله ﷺ: «يا وَيْحَ ثعلبةَ، يا وَيْحَ ثعلبة، يا وَيْحَ ثعلبة»، فأنزل الله آيات الصدقات، فبعث رسول الله ﷺ رجلًا من بني سليم ورجلًا من جُهينة وكتب لهما أسنان الصدقة، كيف يأخذان، وقال لهما: «مُرّا بثعلبة بن حاطب، وبفلان رجلٍ من بني سليم فخذا صدقاتهما، فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتابَ رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلاَّ أُخت الجزية، انطلقا حتى تفرغا ثمَّ عُودا إليَّ، فانطلقا وسمع بهما السلمي فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها، فلما رأوها قالوا: ما هذه عليك، قال: خذاه فإن نفسي بذلك طيبة، فمرَّا على الناس فأخذا الصدقات، ثم رجعَا إلى ثعلبة، فقال: أروني كتابكما فقرأه، ثم قال: ما هذه إلا أُخت الجزية، اذهبا حتى أرى رأيي.

قال: فأقبلا، فلما رآهما رسول الله ﷺ قبل أن يكلِّماه قال: يا وَيْحَ ثعلبة، يا وَيْحَ ثعلبة، ثم دعا للسُّلمي بخير، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن/ فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ . . .﴾ الآية، إلى قوله: ﴿وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾، وعند رسول الله ﷺ رجلٌ من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال: ويحك يا ثعلبة لقد أنزل الله فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى النبيَّ ﷺ فسأله أن يقبل منه الصدقة، فقال: «إن الله عزَّ وجلَّ منعني أن أقبل منك صدقتك»، فجعل يحثو التراب على رأسه، فقال رسول الله ﷺ: «هذا عملك وقد أمرتُك فلم تطعني»، فلما أبى رسول ١/١٦٢

(١) في «أ»: (معاذ) بالذال. (٢) في «الأصل»: (زيد) وهو خطأ.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾

الله ﷺ أن يقبض صدقته، رجع إلى منزله، وقُبض رسولُ الله ﷺ، ثم أتى أبا بكر فقال: اقْبَلْ صدقتي، فقال أبو بكر: لم يقبلها منك رسولُ الله ﷺ ثم أنا أقبلها؟ فقُبضَ أبو بكر ولم يقبلها، فلمَّا وَلِيَ عمرُ أتاه فقال: اقبَلْ صدقتي، فقال: لم يقبلها منك رسولُ الله ولا أبو بكر، أنا أقبلها منك؟ فلم يقبلها، فلمَّا وَلِيَ عثمان أتاه فلم يقبلها منه، وهلك ثعلبة في خلافة عثمان[1].

قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة: أتى ثعلبة مجلسًا من الأنصار فأشهدهم لئن آتاني الله من فضله آتيت منه كل ذي حقٍّ حقَّه، وتصدقت منه، ووصلت الرحم، وأحسنت إلى القرابة، فمات ابن عم له فورَّثه[2] مالاً فلم يفِ بما قال، فأنزل الله تعالى هذه الآية[3].

وقال الحسن ومجاهد: نزلت في ثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير، وهما من بني عمرو بن عوف، خرجا على ملأ قعودٍ وقالا: والله لئن رزقنا اللهُ مالاً[4] لنصدقنَّ، فلما رزقهما الله عزَّ وجلَّ بَخِلَا به[5]، فقوله عزَّ وجلَّ: ﴿۞ وَمِنْهُم﴾ يعني: المنافقين ﴿مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ ولنؤدين حقَّ الله منه ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ نعمل بعمل أهل الصلاح فيه: من صلة الرحم، والنفقة في الخير.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

---

(1) أخرجه الطبري: (١٤/ ٣٧٠ ـ ٣٧٢)، والواحدي في «أسباب النزول»: ص٢٩٠ ـ ٢٩٢، وابن الأثير في «أسد الغابة»: (١/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥)، وأشار إلى أنه مخرج عن ابن منده وأبي نعيم وابن عبد البر في «الاستيعاب»: (١٠/ ٢١٠)، وعزاه الهيثمي للطبراني وقال: (فيه علي ابن يزيد الألهاني، وهو متروك)، وعزاه السيوطي في «الدر»: (٤/ ٢٤٦)، والهيثمي في «المجمع»: (٧/ ٢١) للحسن بن سفيان وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والعسكري في «الأمثال» وابن مردويه وأبي نعيم في «معرفة الصحابة»، وابن عساكر والبيهقي في «الشعب»: (٨/ ٣٠٤ـ٣٠٦)، وفي «الدلائل»: (٥/ ٢٨٩ ـ ٢٩١)، وقال: «وفي إسناده نظر، وهو مشهور بين أهل التفسير...».

ومعان بن رفاعة السلمي: ليِّن الحديث، وعلي بن يزيد: ضعيف بمرة، فالخبر ضعيف، قال فيه ابن حجر: (وهذا إسناد ضعيف جدًا)، وقال الشيخ محمود شاكر: (هو ضعيف كل الضعف ـ ليس له شاهد من غيره ـ وفي بعض رواته ضعف شديد)، وفي كون المراد بالآية ثعلبة ابن حاطب نظر، فإنه بدري، وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل النار أحد شهد بدرًا والحديبية»، وحكى ﷺ عن ربِّه تبارك وتعالى أنه قال لأهل بدر: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، فمن يكون بهذه المثابة كيف يعقبه الله نفاقًا في قلبه، وينزل فيه ما نزل؟

وثعلبة بن حاطب ـ رضي الله عنه ـ الذي شهد بدرًا، قتل في غزوة أُحد، وفي هذه الرواية أنه هلك في عهد عثمان ـ رضي الله عنه ـ، فتأكد أنه ليس هو ثعلبة بن حاطب البدري.

وانظر: «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٨٦)، «الكافي الشاف»: ص٧٧، «الإصابة»: (١/ ٤٠١)، «الحاوي للفتاوى»: (٢/ ١٨٣)، «دلائل النبوة» للبيهقي: (٥/ ٢٨٩ـ ٢٩٢)، «أسباب النزول» للواحدي: ص٢٩٣.

(2) في «أ»: (فورث منه).

(3) انظر: الطبري: (١٤/ ٣٧٣ـ ٣٧٤)، «الدر المنثور»: (٤/ ٢٤٧). وراجع التعليق رقم (١) السابق.

(4) ساقط من «أ».

(5) الطبري: (١٤/ ٣٧٤ـ٣٧٥).

فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ فأخلفهم ﴿ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أي: صيَّر عاقبة أمرهم النفاق، يقال: أعقب فلانًا ندامةً إذا صيَّر عاقبة أمره ذلك، وقيل: عاقبهم بنفاق قلوبهم، يُقال: عاقبتُه وأعقبته بمعنى واحد ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾ يريد: حرمهم التوبة إلى يوم القيامة ﴿ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي، حدثنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني، حدثنا عبد الله ابن عمر الجوهري، حدثنا أحمد بن علي الكشميهني، حدثنا علي بن حجر، حدثنا إسماعيل بن جعفر، أخبرنا أبو سهيل نافع بن مالك، عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «آيةُ المنافقِ ثلاث: إذا حدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أخلف، وإذا ائتُمِنَ خان»[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ ﴾ يعني: ما أضمروا في قلوبهم وما تناجوا به بينهم ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ... ﴾ الآية.

قال أهل التفسير: حثَّ رسولُ الله على الصدقة، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وقال: يا رسول الله، مالي ثمانية آلاف جئتك بأربعة آلاف فاجعلها في سبيل الله، وأمسكتُ أربعة آلاف لعيالي، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيتَ وفيما أمسكتَ»، فبارك الله في ماله حتى أنه خلَّف امرأتين يوم مات فبلغ ثُمُنُ ماله لهما مائة وستين ألف درهم، وتصدَّق يومئذ عاصم بن عدي العجلاني بمائة وَسْقٍ من تمر، وجاء أبو عقيل الأنصاري، واسمه: الحباب، بصاع من تمر، وقال: يا رسول الله، بتُّ ليلتي أجر بالجرير الماءَ حتى نِلْتُ صاعين من تمرٍ فأمسكتُ أحدهما لأهلي وأتيتُك بالآخر، فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقة، فلمزهم المنافقون، فقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياءً، وإن الله ورسوله لغنيَّان عن صاع أبي عقيل، ولكنه أراد أن يُذكِّر بنفسه ليعطى من الصدقة، فأنزل الله عزَّ وجلَّ[2]:

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب علامات المنافق: (١/ ٨٩)، ومسلم في الإيمان، باب خصال المنافق برقم٥٩: (١/ ٧٨)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ٧٢).

(٢) رواه الطبري: (١٤/ ٣٨٣ـ٣٨٨)، والبزار في «مسنده» موصولاً ومرسلًا، وقال: «لم يسنده أحد إلا طالوت بن عباد» ورواه ابن مردويه=

ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ أي: يعيبون ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ المتبرعين ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ يعني: عبد الرحمن بن عوف وعاصمًا ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ أي: طاقتهم، يعني: أبا عقيل، والجُهد: الطاقة، بالضم لغة قريش وأهل الحجاز، وقرأ الأعرج بالفتح، قال القتيبي: الجهد بالضم: الطاقة، وبالفتح: المشقة ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ يستهزئون منهم ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي: جازاهم الله على السخرية ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ لفظه أمر، ومعناه خبر، تقديره: أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفرَ الله لهم ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ وذكر عدد السبعين للمبالغة في اليأس عن طمع المغفرة.

قال الضحاك: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله قد رخص لي فلأزيدنَّ على السبعين لعلَّ الله أن يغفر لهم»، فأنزل الله على رسوله ﷺ «سواءٌ عليهم أستغفرتَ لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم»(1).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ عن غزوة تبوك، والمخلَّف: المتروك ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ أي: بقعودهم ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ قال أبو عبيدة: أي بعد رسول الله ﷺ، وقيل: مخالفة لرسول الله ﷺ حين سار وأقاموا ﴿وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ وكانت غزوة تبوك في شدة الحرِّ ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ يعلمون، وكذلك هو في مصحف عبد الله بن مسعود.

= في «تفسيره» مرسلًا، وذكره ابن هشام في «السيرة»: (٢/ ٥٥١ ـ ٥٥٢)، والطبراني في «معجمه»، وفي إسناده موسى بن عبيدة الربذي. وقصة أبي عقيل أخرجها البخاري باختصار. انظر: «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٨٧ ـ ٩٠)، «الدر المنثور»: (٤/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠)، «الفتح السماوي» للمناوي: (٢/ ٦٩٢ ـ ٦٩٤).

(1) الطبري: (١٤/ ٣٩٥)، «الدر المنثور»: (٤/ ٢٥٣)، «الفتح السماوي»: (٢/ ٦٩٤ ـ ٦٩٥)، وأصله في البخاري: (٨/ ٣٣٣)، ومسلم: (٤/ ١٨٦٥).

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ في الدنيا ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ في الآخرة، تقديره: فليضحوا قليلًا فسيكون كثيرًا ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنبأنا السيد أبو الحسن محمد بن (الحسين العلوي قال: أخبرنا عبد الله بن محمد الحسين الشرقي، حدثنا عبد الله بن هاشم، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا شعبة، عن موسى بن أنس، عن أنس ـ رضي الله عنهم ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ولو تعلمون ما أعلم لضحكتُم قليلًا ولبكيتُم كثيرًا»[(١)].

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة، حدثنا أبو طاهر محمد بن أحمد الحارث، حدثنا أبو الحسن محمد بن)[(٢)] يعقوب الكسائي، حدثنا عبد الله بن محمود، حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله الخلال، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن عمران بن زيد الثعلبي، حدثنا يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيّها الناس ابكوا، فإن لم تستطيعوا فتباكوا، فإن أهل النار يبكون في النار حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول، ثم تنقطع الدموع، فتسيل الدماء فتقرّح العيون، فلو أن سُفُنًا أُجريتْ فيها لَجَرَتْ»[(٣)].

قوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ﴾ أي: ردَّك يا محمد من غزوة تبوك ﴿إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ يعني: من المخلفين، وإنما قال: «طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ»؛ لأنه ليس كل من تخلف عن غزوة تبوك كان منافقًا ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ معك في غزوة أخرى ﴿فَقُل﴾ لهم: ﴿لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ في سفر ﴿وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ في غزوة تبوك ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: مع النساء والصبيان، وقيل: مع الزَّمْنَى والمرضى، وقال / ابن عباس: مع الذين تخلفوا بغير عذر. ١٦٢/ب

وقيل: «مَعَ الْخَالِفِينَ» قال الفرّاء: «صاحب خالف» إذا كان مخالفًا.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾: (٨/ ٢٨٠)، ومسلم في الفضائل، باب توقيره ﷺ برقم ٢٣٥٩: (٤/ ١٨٣٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٣٦٨ ـ ٣٦٩).

(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٣) رواه أبو يعلى: (٤/ ١٥٨)، وقال الهيثمي: وأضعف من فيه يزيد الرقاشي، وقد وثّق على ضعفه. انظر: «المجمع»: (١٠/ ٣٩١)، وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ٢٥٢)، وانظر: «المطالب العالية»: (٤/ ٣٩٨).

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا...﴾ الآية، قال أهل التفسير: بعث عبد الله بن أُبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ وهو مريض، فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال له: «أهلكك حبُّ اليهود»؟ فقال: يا رسول الله، إني لم أبعث إليك لتؤنبني، إنما بعثت إليك لتستغفر لي، وسأله أن يكفنه في قميصه ويصلي عليه[١].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، حدثنا أحمد بن عبد الله النعيمي، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا يحيى بن بكير، حدثني الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عباس، عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهم ـ أنه قال: لما مات عبد الله بن أُبي بن سلول دُعِيَ له رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فلما قام رسول الله ﷺ وَثَبْتُ إليه، فقلت: يا رسول الله، أتصلي على ابن أُبيٍّ وقد قال يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ أعدِّد عليه قوله، فتبسَّم رسولُ الله ﷺ وقال: «أخِّرْ عني يا عمر» فلما أكثرتُ عليه قال: «إني خُيِّرتُ فاخترتُ، لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها»، قال: فصلَّى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيرًا حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾، إلى قوله: ﴿وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، قال: فعجبتُ بعدُ من جرأتي على رسول الله ﷺ يومئذ، والله ورسوله أعلم[٢].

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، حدثنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان قال عمرو: سمعتُ جابر بن عبد الله قال: أتى رسولُ الله ﷺ عبدَ الله بنَ أُبيٍّ بعدما أُدخل في حفرته فأمر به فأُخرج فوضعه على ركبتيه ونفث في فيه من ريقه وألبسه قميصه. فالله أعلم وكان كَسَا عبَّاسًا قَمِيصًا.

قال سفيان: وقال هارون: وكان على رسول الله ﷺ قميصان فقال ابن عبد الله: يا رسول الله، (ألبِسْ أبي) قميصك الذي يلي جلدك[٣].

ورُوي عن جابر قال: لما كان يوم بدر أُتي بالعباس ولم يكن عليه ثوب فوجدوا قميص عبد الله بن أُبيٍّ يقدر عليه، فكساه النبي ﷺ إياه، فلذلك نزع النبي قميصه الذي ألبسه عبد الله.

---

(١) رواه الحاكم والبيهقي. وانظر: «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي: (٢/ ٩١ ـ ٩٢). وقال ابن حجر: وأصل سؤال ابنه في الصحيح. وانظر التعليق التالي.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز، باب ما يكره من الصلاة على المنافقين: (٣/ ٢٢٨).

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز، باب هل يخرج الميت من القبر واللحد لعلَّة؟ (٣/ ٢١٤).

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾

قال ابن عيينة: كانت له عند النبي ﷺ يدٌ فأحبَّ أن يُكافئه[1].

ورُوي أن النبي ﷺ كُلِّم فيما فعل بعبدِ الله بن أُبيٍّ فقال ﷺ: «وما يغني عنه قميصي وصلاتي من الله شيئًا، والله إني كنتُ أرجو أنْ يُسلم به ألف من قومه»، ورُوي أنه أسلم به ألفٌ من قومه لمَّا رأوه يتبرك بقميص النبي ﷺ[2].

قوله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ ولا تقِفْ عليه، ولا تَتَولَّ دَفْنَهُ، من قولهم: قام فلان بأمر فلان: إذا كفاه أمره ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ فما صلى النبيُّ ﷺ بعدها على منافق ولا قام على قبره حتى قُبِضَ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ ذوو الغنى والسَّعة منهم في القعود ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ في رحالهم.

﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ يعني: النساء، وقيل: مع أدنياء الناس وسفلتهم، يقال: فلانٌ خَالِفَةُ قومه إذا كان دونهم ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ يعني: الحسنات، وقيل: الجواري الحسان في الجنة، قال الله تعالى: «فيهنَّ خيراتٌ حِسَان»، جمع خَيْرَة[3]، وحكي

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب الكسوة للأسارى: (٦/ ١٤٤).

(٢) أخرجه الطبري: (١٤/ ٤٠٩ - ٤١٠)، والخازن: (٣/ ١٠٨)، وعزاه السيوطي لأبي الشيخ. انظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٢٥٩)، «أسباب النزول» للواحدي: ص٢٩٥، «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٩٣).

(٣) قال الطبري: «الخيرات»: هي خيرات الآخرة، وذلك: نساؤها، وجنَّاتها، ونعيمها، واحدتها: «خَيْرَة»، كما قال الشاعر:

ولقد طَعَنْتُ مَجَامِعَ الرَّبَلاتِ رَبَلاتِ هِـنْدٍ خَيْرَةِ المَلِكَـاتِ

=

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ
ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾

عن ابن عباس: أنَّ الخير[1] لا يعلم معناه إلا الله كما قال جلَّ ذكره: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[السجدة: ١٧] ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ...﴾ الآية، قرأ يعقوب ومجاهد: «المُعْذِرُونَ» بالتخفيف: وهم المبالغون في العذر، يقال في المَثَل: «لقد أعذر من أنذر»، أي: بالغ في العذر من قدم النذارة، وقرأ الآخرون ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ بالتشديد، أي: المقصرون، يقال: عذَّر، أي: قصر، وقال الفراء: «المعذرون»: المتعذرون، أُدغمت التاء في الذال ونُقلت حركة التاء إلى العين.

وقال الضحاك: «المعذرون»: هم رهط عامر بن الطفيل جاؤوا إلى رسول الله ﷺ دفاعًا عن أنفسهم فقالوا: يا نبي الله، إنْ نحنُ غزونا معك تغير أعراب طيء على حلائلنا وأولادنا ومواشينا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «قد أنبأني الله من أخباركم وسيغني الله عنكم»[2].

وقال ابن عباس: هم الذي تخلَّفوا بعذر بإذن رسول الله ﷺ[3].

﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يعني: المنافقين.

قال أبو عمرو بن العلاء: كلا الفريقين كان مسيئًا، قوم تكلفوا عذرًا بالباطل، وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾، وقوم تخلَّفوا عن غير تكلّف عذر فقعدوا جرأةً على الله تعالى، وهم المنافقون، فأوعدهم الله بقوله: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾ ثم ذكر أهل العذر، فقال جلَّ ذِكْرُه:

= والخيرة من كل شيء: الفاضلة.
انظر: «تفسير الطبري»: (١٤/ ٤١٨).

(١) في «أ»: (الخيرات).

(٢) انظر: «البحر المحيط»: (٥/ ٨٤).

(٣) انظر: «تفسير الطبري»: (١٤/ ٤١٨).

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ قال ابن عباس: يعني: الزَّمْنَى والمشايخ والعجزة، وقيل: هم الصبيان، وقيل: النسوان ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ يعني: الفقراء ﴿حَرَجٌ﴾ مأثم، وقيل: ضيق في القعود عن الغزو ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ في مغيبهم وأخلصُوا الإيمان والعمل لله وبايعُوا الرسول ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: من طريق بالعقوبة ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾.

قال قتادة: نزلت في عائذ بن عمرو وأصحابه[(١)].

وقال الضحاك: نزلت في عبد الله بن أم مكتوم وكان ضرير البصر[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ معناه: أنه لا سبيل على الأولين ولا على هؤلاء الذين أتوك وهم سبعة نفر سُمّوا البكّائين: مَعْقِل بن يَسار، وصَخْر بن خنساء، وعبد الله بن كعب الأنصاري، وعُلْبة[(٣)] بن زيد الأنصاري، وسالم بن عمير، وثعلبة بن غنمة[(٤)]، وعبد الله بن مُغَفَّل المزني، أتَوْا رسولَ الله فقالوا: يا رسول الله، إنَّ الله قد ندبنا إلى الخروج معك فاحملنا[(٥)].

واختلفوا في قوله: «لِتَحْمِلَهُمْ»، قال ابن عباس: سألوه أن يحملهم على الدواب.

وقيل: سألوه أن يحملهم على الخفاف المرقوعة والنعال / المخصوفة، ليغزو معه، فقال النبي ﷺ:
﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ تولّوا وهم يبكون، فذلك قوله تعالى: ﴿تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ ١/١٦٣
حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري»: (١٤/ ٤٢٠).

(٢) قارن بـ «الدر المنثور»: (٤/ ٢٦٢).

(٣) في «الأصل»: (خَلَبَة)، وفي «المطبوع»: (عَبَلَة)، والتصويب من «الروض الأنف» للسهيلي: (٢/ ٣٢١).

(٤) في «أ»: (عنمه).

(٥) أخرجه الطبري: (١٤/ ٤٢٣)، وانظر: «السيرة» لابن هشام: (٢/ ٥١٨)، «أسباب النزول» للواحدي: ص٢٩٦، «إمتاع الأسماع» للمقريزي: (١/ ٤٤٨).

إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ
وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ۞ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ
قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ
وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾
سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ
وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ ﴾ بالعقوبة ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ ﴾ في التخلُّف ﴿ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ﴾ مع النساء والصبيان ﴿ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

﴿ ۞ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ ﴾ يُروى أن المنافقين الذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك كانوا بضعة وثمانين نفرًا، فلما رجع رسول الله ﷺ جاؤوا يعتذرون بالباطل، قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ لن نصدقكم ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ ﴾ فيما سلف ﴿ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ في المستأنف، أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه؟ ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ إذا انصرفتم إليهم من غزوكم ﴿ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ ﴾ لتصفحوا عنهم ولا تؤنبوهم ﴿ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ ﴾ فدعوهم وما اختاروا لأنفسهم من النفاق ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ ﴾ نجس، أي: إن عملهم قبيح ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

قال ابن عباس: نزلت في جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما وكانوا ثمانين رجلًا من المنافقين، فقال النبي ﷺ حين قدم المدينة: «لا تُجالِسُوهم ولا تُكلموهم»[1].

وقال مقاتل: نزلت في عبد الله بن أُبيّ حَلَفَ للنبي ﷺ بالله الذي لا إله إلا هو لا يتخلف عنه بعدها، وطلب من النبي ﷺ أن يرضى عنه، فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية، ونزل:

---

(١) انظر الرواية عن ابن عباس مطولة في: الطبري: (١٤/٤٢٦ ـ ٤٢٧)، وقوله ﷺ: «لا تجالسوهم ...» عزاه السيوطي لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
انظر: «الدر المنثور»: (٤/٢٦٦).

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ
عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ
ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ
بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا
قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾(١).

﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾ أي: أهل البدو ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل الحضر ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أخلق وأحرى ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ وذلك لبعدهم عن سماع القرآن ومعرفة السُّنن ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما في قلوب خلقه ﴿حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ فيما فرض من فرائضه.

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا﴾ قال عطاء: لا يرجو(٢) على إعطائه ثوابًا، ولا يخاف على إمساكه عقابًا، إنما ينفق خوفًا أو رياءً، والمغرم: التزام ما لا يلزم ﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾ وينتظر ﴿بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ يعني: صروف الزمان، التي تأتي مرة بالخير ومرة بالشر، وقال يمان بن رباب: يعني: ينقلب الزمان عليكم فيموت الرسول ويظهر المشركون ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ عليهم(٣) يدور البلاء والحزن، ولا يرون في محمد ودينه إلاَّ ما يسوءهم.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «دَآئِرَةُ السُّوءِ» هاهنا وفي سورة الفتح بضم السين، معناه: الضر والبلاء والمكروه، وقرأ الآخرون بفتح السين على المصدر، وقيل: بالفتح الردة والفساد، وبالضم: الضر والمكروه.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ نزلت في أعراب أسد وغطفان وتميم(٤)، ثم استثنى فقال:

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ قال مجاهد: هم بنو مُقَرِّن من مُزينة، وقال الكلبي: أسلم وغفار وجُهينة.

---

(١) انظر: «البحر المحيط»: (٤/ ٨٩_٩٠).

(٢) في «ب»: (يرجون . . . يخافون).

(٣) ساقط من «أ».

(٤) انظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٢٩٧، «الدر المنثور»: (٤/ ٢٦٦).

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطَّاهريُّ، أنبأنا جدي عبد الصمد بن عبد الرحمن البزار، أنبأنا أبو بكر محمد بن زكريا العذافري، أنبأنا إسحاق بن إبراهيم الدَّبَريُّ، أنبأنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن أيوب، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أسلمُ وغفارٌ وشيءٌ من جُهينة ومُزينة خيرٌ عندَ الله يومَ القيامة مِن تميمٍ وأسدِ بن خُزَيْمَةَ وهوازنَ وغطفان»[١].

﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ القربات جمع القربة، أي: يطلب القربة إلى الله تعالى ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي: دعاءه واستغفاره، قال عطاء: يرغبون في دعاء النبي ﷺ ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ قرأ نافع برواية ورش «قُرُبة» بضم الراء، والباقون بسكونها ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ في جنته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ...﴾ الآية، قرأ يعقوب بالرفع عطفًا على قوله: «وَٱلسَّٰبِقُونَ».

واختلفوا في السابقين الأولين، قال سعيد بن المسيب وقتادة وابن سيرين وجماعة: هم الذين صلَّوا إلى القبلتين.

وقال عطاء بن أبي رباح: هم أهل بدر.

وقال الشعبي: هم الذين شهدوا بيعة الرضوان، وكانت بيعة الرضوان بالحديبية.

واختلفوا في أول من آمن برسول الله ﷺ بعد امرأته خديجة، مع اتفاقهم على أنَّها أولُ من آمن برسول الله ﷺ، فقال بعضهم: أول من آمن وصلَّى علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، وهو قول جابر، وبه قال مجاهد وابن إسحاق، أسلم وهو ابن عشر سنين.

وقال بعضهم: أول من آمن بعد خديجة أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ، وهو قول ابن عباس وإبراهيم النخعي والشعبي.

وقال بعضهم: أول من أسلم زيد بن حارثة، وهو قول الزهري وعروة بن الزبير.

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب، باب ذكر أسلم...: (٦/٥٤٣)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل غفار برقم٢٥٢١: (٤/١٩٥٥)، والمصنف في«شرح السنة»: (١٤/ ٦٥)، ومعمر في كتاب الجامع: (١١/ ٤٧) من «مصنف عبد الرزاق».

وكان إسحاق بن إبراهيم الحنظلي يجمع بين هذه الأقوال فيقول: أول من أسلم من الرجال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ، ومن النساء خديجة، ومن الصبيان علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، ومن العبيد زيد بن حارثة.

قال ابن إسحاق: فلما أسلم أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله، وكان رجلًا محببًا سهلًا، وكان أنسب قريش وأعلمها بما كان فيها، وكان تاجرًا ذَا خُلُقٍ ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر؛ لعلمه وحُسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه، فأسلم على يديه ـ فيما بلغني ـ: عثمان بن عفان، والزبير بن العوَّام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له فأسلموا وصلُّوا، فكان هؤلاء الثمانية النفر الذين سبقوا إلى الإسلام[1]، ثم تتابع الناس في الدخول في الإسلام، أما السَّابقون من الأنصار: فهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة، وكانوا ستة[2] في العقبة الأولى، وسبعين في الثانية، والذين آمنوا حين قدم عليهم مُصعب بن عُمير يعلمهم القرآن، فأسلم معه خلق كثير وجماعة من النساء والصبيان.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ الذينَ هاجرُوا قومَهم وعشيرتَهم وفارقوا أوطانهم ﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾ أي: ومن الأنصار، وهم الذين نصروا رسول الله ﷺ على أعدائه من أهل المدينة ١٦٣/ب
وآووا أصحابه ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ قيل: هم بقية المهاجرين والأنصار سوى / السابقين الأوَّلين.

وقيل: هم الذين سلكوا سبيلهم في الإيمان والهجرة أو النصرة إلى يوم القيامة.

وقال عطاء: هم الذين يذكرون المهاجرين والأنصار بالترحم والدعاء.

وقال أبو صخر حميد بن زياد: أتيتُ محمد بن كعب القرظي فقلت له: ما قولك في أصحاب رسول الله ﷺ؟ فقال: جميع أصحاب رسول الله ﷺ في الجنة محسنهم ومسيئهم، فقلت: من أين تقول هذا؟ فقال: يا هذا اقرأ قولَ الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ إلى أن قال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ شرط في التابعين شريطة وهي أن يتبعوهم في أفعالهم الحسنة دون السيئة.

قال أبو صخر: فكأني لم أقرأ هذه الآية قط[3].

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام»: (١/ ٢٤٩ـ٢٥٢).

(٢) في «أ»: (سبعة).

(٣) عزاه السيوطي في «الدر»: (٤/ ٢٧٢) لأبي الشيخ وابن عساكر.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)﴾

رُوِّينا أن النبي ﷺ قال: «لا تَسُبُّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنَّ أحدَكم أنفقَ مثلَ أُحدٍ ذَهبًا ما أدركَ مُدَّ أحَدِهم ولا نَصِيفه»(١).

ثم جمعهم الله عزَّ وجلَّ في الثواب فقال: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ قرأ ابن كثير: «من تحتها الأنهار»، وكذلك في مصاحف أهل مكة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ وهم من مُزينة وجُهينة وأشجع وأسلم وغفار، كانت منازلهم حول المدينة، يقول: من هؤلاء الأعراب منافقون ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ أي: ومن أهل المدينة من الأوس والخزرج قوم منافقون ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ أي: مرنوا على النفاق، يقال: تمرد فلان على ربِّه، أي: عتا ومرد على معصيته، أي: مرن وثبت عليها واعتادها، ومنه: المريد والمارد، قال ابن إسحاق: لجوا فيه وأبوا غيرَه، وقال ابن زيد: أقاموا عليه ولم يتوبوا.

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ أنتَ يا محمد ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ اختلفوا في هذين العذابين.

قال الكلبي والسدي: قام النبي ﷺ خطيبًا يوم الجمعة فقال: «اخرُجْ يا فلان فإنَّك منافق، اخرج يا فلان»، أخرجَ ناسًا من المسجد وفضحهم، فهذا هو العذاب الأول، والثاني: عذاب القبر(٢).

وقال مجاهد: الأول: القتل والسبي، والثاني: عذاب القبر، وعنه رواية أخرى: عُذِّبُوا بالجوع مرتين.

وقال قتادة: الدُّبَيْلة في الدنيا وعذاب القبر.

وقال ابن زيد: الأولى: المصائب في الأموال والأولاد في الدنيا، والأُخرى: عذاب الآخرة.

وعن ابن عباس: الأولى: إقامة الحدود عليهم، والأُخرى: عذاب القبر.

وقال ابن إسحاق: هو ما يدخل عليهم من غيظ الإسلام ودخولهم فيه من غير حسبة ثم عذاب القبر.

وقيل: إحداهما: ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم، والأُخرى: عذاب القبر.

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلًا...»: (٧/ ٢١)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب تحريم سبِّ الصحابة برقم ٢٥٤١: (٤/ ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٦٩).

(٢) أخرجه الطبري من رواية السدي عن أبي مالك عن ابن عباس: (١٤/ ٤٤١ ـ ٤٤٢)، وعزاه الهيثمي للطبراني في «الأوسط» أيضًا، وقال: فيه الحسين بن عمرو بن محمد العنقزي وهو ضعيف. وذكره الثعلبي عن السدي. انظر: «مجمع الزوائد»: (٧/ ٣٤)، «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٩٦ ـ ٩٧).

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

وقيل: الأولى: إحراق مسجدهم، مسجد الضرار، والأخرى: إحراقهم بنار جهنم[1] ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ أي: إلى عذاب جهنم يخلدون فيه.

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ أي: ومن أهل المدينة، أو من الأعراب آخرون، ولا يرجع هذا إلى المنافقين ﴿ٱعْتَرَفُوا۟﴾ اقرُّوا ﴿بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ وهو إقرارُهم بذنوبهم وتوبتُهم ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ أي: بعمل آخر سيء، وضع الواو موضع الباء، كما يُقال: خلطتُ الماءَ واللبن، أي: باللبن.

والعمل السيء: هو تخلُّفهم عن رسول الله.

والعمل الصالح: هو ندامتهم وربطهم أنفسهم بالسواري، وقيل: غزواتُهم مع النبي ﷺ.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ نزلت هذه الآية في قوم تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، ثم ندِمُوا على ذلك، وقالوا: نكون في الظِّلال مع النساء، ورسولُ الله ﷺ وأصحابه في الجهاد واللَّأواء! فلما قرب رسول الله ﷺ من المدينة قالوا: والله لَنُوثِقَنَّ أنفسَنا بالسواري فلا نُطلقها حتى يكونَ رسول الله ﷺ هو الذي يطلقها، ويعذُرُنا، فأوثقوا أنفسهم بسواري المسجد، فلما رجع رسول الله ﷺ مرَّ بهم فرآهم فقال: مَنْ هؤلاء؟ فقالوا: هؤلاء الذين تخلفوا عنك فعاهدُوا اللهَ عزَّ وجلَّ أن لا يُطلقوا أنفسَهم حتى تكون أنت تطلقهم وترضى عنهم، فقال رسول الله ﷺ: وأنا أقسم بالله لا أُطلِقهم ولا أعذرهم حتى أُومر بإطلاقهم، رغبوا عني وتخلَّفوا عن الغزو مع المسلمين! فأنزل الله هذه الآية، فأرسل إليهم رسول الله ﷺ فأطلقهم وعذرهم، فلما أطلقوا قالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا التي خلَّفتْنا عنك فتصدقْ بها وطَهِّرْنا واستغفرْ لنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما أُمرتُ أن آخذ من أموالكم شيئًا»، فأنزل الله تعالى: «خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً . . .» الآية[2].

---

(١) انظر هذه الأقوال في: الطبري: (١٤/ ٤٤١ ـ ٤٤٥)، «الدر المنثور»: (٤/ ٢٧٤).
قال الطبري رحمه الله: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال: إن الله أخبر أنه يعذِّب هؤلاء الذين مردوا على النفاق مرتين، ولم يضع لنا دليلًا يوصَّل به إلى علم صفة ذينك العذابين ـ وجائز أن يكون بعض ما ذكرنا عن القائلين ما أنبتا عنهم، وليس عندنا علم بأيٍّ ذلك من أيٍّ، غير أن في قوله جلَّ ثناؤه: ﴿ثم يردُّون إلى عذاب عظيم﴾ دلالة على أن العذاب في المرتين كلتيهما قبل دخولهم النار، والأغلب من إحدى المرتين أنها في القبر).

(٢) رواه البيهقي في «الدلائل»، وابن مردويه في «تفسيره»، وانظر: «تفسير الطبري»: (١٤/ ٤٤٧ ـ ٤٥٠)، «أسباب النزول»: ص٢٩٧ ـ ٢٩٨، «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٩٧ ـ ٩٨)، «الفتح السماوي»: (٢/ ٦٩٧).

﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾

واختلفوا في أعداد هؤلاء التائبين، فرُوي عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: كانوا عشرة منهم أبو لبابة، ورَوَى عطية عنه: أنهم كانوا خمسة أحدهم أبو لبابة، وقال سعيد بن جبير وزيد بن أسلم: كانوا ثمانية، وقال الضحاك وقتادة: كانوا سبعة، وقالوا جميعًا: أحدهم أبو لبابة[1].

وقال قوم: نزلت في أبي لبابة خاصة، واختلفوا في ذنبه، قال مجاهد: نزلت في أبي لبابة حين قال لقريظة: إن نزلتم على حكمه فهو الذبح وأشار إلى حلقه[2].

وقال الزهري: نزلت في تخلُّفه عن غزوة تبوك فربط نفسه بسارية، وقال: والله لا أحلّ نفسي ولا أذوق طعامًا ولا شرابًا، حتى أموتَ أو يتوبَ الله عليَّ! فمكث سبعة أيام لا يذوق طعامًا ولا شرابًا حتى خرَّ مغشيًا عليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فقيل له: قد تِيبَ عليك، فقال: والله لا أحلّ نفسي حتى يكون رسولُ الله ﷺ هو الذي يحلني، فجاء النبي ﷺ فحلَّه بيده، ثم قال أبو لبابة: يا رسول الله، إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي كله صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال: يُجزيك يا أبا لبابة الثلث[3].

قالوا جميعًا: فأخذ رسول الله ﷺ ثلث أموالهم، وترك الثلثين؛ لأن الله تعالى قال: «خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ»، ولم يقل: خذ أموالهم، قال الحسن وقتادة: هؤلاء سوى الثلاثة الذين خُلِّفوا.

قوله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ﴾ بها من ذنوبهم ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أي: ترفعهم من منازل المنافقين إلى منازل المخلصين، وقيل: تنمِّي أموالهم ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ أي: ادْعُ لهم واستغفرْ لهم، وقيل: هو قول الساعي للمصَّدق[4] إذا أخذ الصدقة منه: آجَرَكَ اللهُ فيما أعطيتَ وبارَكَ لكَ فيما أبقيت، والصلاةُ في اللغة: الدعاء ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾ قرأ حمزة والكسائي: / «صلاتَك» على التوحيد ونصب التاء هاهنا، وفي ١٦٤/أ
سورة هود «أصلاتك»، وفي سورة المؤمنين «على صلاتهم» (كلهن على التوحيد)[4]، وَافَقَهُما حفصٌ هاهنا وفي سورة هود، وقرأ الآخرون بالجمع فيهن ويكسرون التاء هاهنا.

﴿سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ أي: إن دعاءك رحمة لهم، قاله ابن عباس، وقيل: طمأنينة لهم، وسكون لهم، أن الله عزَّ وجلَّ قد قَبِلَ منهم، وقال أبو عبيدة: تثبيتٌ لقلوبهم ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾.

---

(١) انظر في هذه الأقوال: الطبري: (١٤/ ٤٤٧ ـ ٤٥٠)، «الدر المنثور»: (٤/ ٢٧٥، وما بعدها).

(٢) الطبري: (١٤/ ٤٥١ ـ ٤٥٢). (٣) الطبري: (١٤/ ٤٥٢). (٤) زيادة من «المطبوع» يقتضيها السياق.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

واختلفوا في وجوب الدعاء على الإمام عند أخذ الصدقة، قال بعضهم: يجب، وقال بعضهم: يستحب، وقال بعضهم: يجب في صدقة الفرض، ويستحب في صدقة التطوع، وقيل: يجب على الإمام، ويستحب للفقير أن يدعو للمعطي.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شعبة، عن عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن أبي أوْفَى ـ وكان من أصحاب الشجرة ـ قال: كان النبيُّ ﷺ إذا أتاه قومُه بصدقةٍ قال: «اللَّهُمَّ صلِّ عليهم»، فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللَّهُمَّ صلِّ على آل أبي أوْفَى»[(١)].

وقال ابن كيسان: ليس هذا في صدقة الفرض، إنما هو في صدقة كفارة اليمين.

وقال عكرمة: هي صدقة الفرض، فلما نزلت توبة هؤلاء قال الذين لم يتوبوا من المتخلِّفين: هؤلاء كانوا معنا بالأمس لا يُكَلَّمُون[(٢)] ولا يُجَالَسُون، فما لهم؟ فقال تعالى:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي: يقبلها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم، أنبأنا الربيع بن سليمان، أنبأنا الشافعي، أنبأنا سفيان بن عيينة، عن ابن عجلان، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعتُ أبا القاسم ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده، ما من عبدٍ يتصدَّق بصدقةٍ من كسبٍ طيِّبٍ، ولا يقبلُ اللهُ إلا طيِّبًا، ولا يَصْعَدُ إلى السماءِ إلا طيِّبٌ، إلاَّ كأنما يضعها في يد الرحمن عزَّ وجلَّ فيُربيها له كما يُربي أحدكم فَلُوَّه، حتى إنَّ اللّقمةَ لتأتي يومَ القيامةِ وإنَّها لمثلِ الجبلِ العظيم، ثم قرأ: «أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة، باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة: (٣/ ٣٦١)، ومسلم في الزكاة، باب الدعاء لمن أتى بصدقة برقم١٠٧٨: (٢/ ٧٥٦ـ٧٥٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٤٨٥).

(٢) في «ب»: (يكالمون).

(٣) أخرجه الشافعي بإسناد حسن في «المسند»: (١/ ٢٢٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (٦/ ١٣١)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين: (٢/ ٣٣٥)، وأصل معنى الحديث ثابت في «الصحيحين» وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه. انظر: تعليق الشيخ شاكر على الطبري: (٦/ ١٨ـ٢٠).

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ قال مجاهد: هذا وعيد لهم، قيل: رؤية النبي ﷺ بإعلام الله تعالى إيَّاه، ورؤية المؤمنين بإيقاع المحبة في قلوبهم لأهل الصلاح، والبغضة لأهل الفساد.

قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ قرأ أهل المدينة والكوفة غير أبي بكر: «مرجون» بغير همز، والآخرون: بالهمز، والإرجاء: التأخير، ﴿مُرْجَوْنَ﴾: مؤخرون، ﴿لِأَمْرِ اللَّهِ﴾: لحكم الله عزَّ وجلَّ فيهم، وهم الثلاثة الذين تأتي قصتهم من بعدُ: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، لم يبالغوا في التوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة، فوقفهم رسول الله ﷺ خمسين ليلة ونهى الناس عن مكالمتهم[1] ومخالطتهم، حتى شقهم القلق وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَتْ، وكانوا من أهل بدر فجعل أناسٌ يقولون: هلكوا، وآخرون يقولون: عسى الله أن يغفر لهم، فصاروا مُرْجَئِينَ لأمر الله (لا يدرون)[2] أيعذبهم أم يرحمهم، حتى نزلت توبتهم بعد خمسين ليلة[3].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ قرأ أهل المدينة والشام «الذين» بلا واو، وكذلك هو في مصاحفهم، وقرأ الآخرون: «والذين» بالواو ﴿مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ نزلت هذه الآية في جماعة من المنافقين، بنوا مسجدًا يضارّون به مسجدَ قباء، وكانوا اثني عشر رجلًا من أهل النفاق: وديعة بن ثابت، وجِذام بن خالد ومن داره أُخرِجَ هذا المسجد، وثعلبة بن حاطب، وجارية بن عامر، وابناه مجمع وزيد، ومعتب بن قشير، وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف، وأبو حبيبة بن الأزعر، ونبتل بن الحارث، وبجاد بن عثمان، ورجل يقال له: بَحْزَج[4]، بنوا هذا المسجد ضرارًا، يعني: مضارةً للمؤمنين ﴿وَكُفْرًا﴾ بالله ورسوله

---

(١) في «أ»: (مخالطتهم).
(٢) زيادة من «ب».
(٣) انظر: الطبري: (١٤/٤٦٦)، «أسباب النزول»: ص٢٩٨.
(٤) في «أ»: (بخدج)، وفي «ب»: (بخرج)، والمثبت من الطبري: (١٤/٤٦٩، ٤٧١)، مع تعليق الشيخ محمود شاكر.

﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم كانوا جميعًا يصلُّون في مسجد قباء، فبنوا مسجد الضِّرار ليصلي فيه بعضهم، فيؤدي ذلك إلى الاختلاف وافتراق الكلمة، وكان يصلي بهم مجمع بن جارية.

فلما فرغوا من بنائه أتوا رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجدًا لذي العلَّة والحاجة، والليلة المَطِيْرة والليلة الشاتية، وإنَّا نحب أن تأتينا وتصلي بنا فيه وتدعو لنا بالبركة، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إني على جناح سفرٍ، ولو قَدِمْنَا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه»(١).

﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: انتظارًا وإعدادًا لمن حارب الله ورسوله، يقال: أرصدت له: إذا أعددت له، وهو أبو عامر الراهب، وكان أبو عامر هذا رجلًا منهم، وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة، وكان قد ترهَّب في الجاهلية وتنصَّر ولبس المُسُوح، فلما قدم النبي ﷺ المدينة قال له أبو عامر: ما هذا الذي جئتَ به؟ قال: جئت بالحنيفية دين إبراهيم، قال أبو عامر: فإنَّا عليها، فقال النبي ﷺ: «إنك لستَ عليها»، قال: بلى، ولكنَّك أدخلت في الحنيفية ما ليس منها، فقال النبي ﷺ: «ما فعلتُ، ولكنِّي جئتُ بها بيضاءَ نقية»، فقال أبو عامر: أمات الله الكاذبَ منَّا طريدًا وحيدًا غريبًا، فقال النبي ﷺ: «آمين»، وسماه: أبا عامر الفاسق.

فلما كان يوم أحد قال أبو عامر لرسول الله ﷺ: لا أجد قومًا يقاتلونك إلاَّ قاتلتك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حُنين، فلما انهزمت هوازن يئس وخرج هاربًا إلى الشام فأرسل إلى المنافقين: أنِ استعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، وابْنُوا لي مسجدًا فإني ذاهبٌ إلى قيصر ملك الروم فآتٍ بجندٍ من الروم، فأُخرج محمدًا وأصحابه، فبنوا مسجدَ الضرار إلى جنب مسجد قباء، فذلك قوله تعالى: «وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ»، وهو أبو عامر الفاسق، ليصلي فيه إذا رجع من الشام.

قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ يرجع إلى أبي عامر، يعني: حارب الله ورسوله من قبل، أي: من قبل بناء مسجد الضرار.

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا﴾ ما أردنا ببنائه ﴿إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ إلا الفعلة الحسنى، وهو الرفق بالمسلمين والتوسعة على أهل الضعف والعجز عن المسير إلى مسجد رسول الله ﷺ.

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ في قيلهم وحلفهم، رُوي أنه لما انصرف رسول الله ﷺ من تبوك

---

(١) انظر في قصة مسجد الضرار: الطبري: (١٤/ ٤٦٨ ـ ٤٧٥)، «أسباب النزول»: ص٢٩٨ ـ ٣٠٠، «سيرة ابن هشام»: (٢/ ٥٣٠)، «الدر المنثور»: (٤/ ٤٨٢، وما بعدها)، وضعفه الألباني في تخريج «فقه السيرة» للغزالي: ص٤٢٧. وقال ابن حجر: ذكره الثعلبي بغير إسناد . . . ، وفي سياق الطبري: أن النبي ﷺ بعث مالك بن الدخشم ومعن بن عدي، ولم يذكر وحشيًا وعامر بن السكن، ورواه ابن مردويه من طريق ابن إسحاق، قال: ذكر الزهري عن ابن أكيمة الليثي عن ابن أخي رهم أنه سمع أبا رهم الغفاري، فذكر نحوه.
وأما كونهم بنوه بسبب أبي عامر الراهب: فرواه ابن مردويه من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. انظر: «الكافي الشاف»: ص٨١.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ۝١٠٨﴾

١٦٤/ب ونزل بذي أَوَان موضع قريب من المدينة أتوه فسألوه إتيان مسجدهم فدعا / بقميصه ليلبسه ويأتيهم، فنزل عليه القرآن وأخبره الله تعالى خبر مسجد الضرار وما همُّوا به، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدُّخْشُم، ومعن بن عدي، وعامر بن السكن، ووحشيًا قاتل حمزة، وقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهلُه فاهدمُوه واحرقوه، فخرجوا سريعًا حتى أتوا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدُّخْشُم، فقال مالك: أَنْظِرُوني حتى أخرج إليكم بنار من أهلي، فدخل أهله فأخذ سَعَفًا من النخل فأشعل فيه نارًا، ثم خرجوا يشتدُّون، حتى دخلوا المسجد وفيه أهله، فحرَّقُوه وهدموه، وتفرق عنه أهله، وأمر النبي ﷺ أن يتخذ ذلك كناسة تلقىٰ فيه الجِيَف والنتن والقمامة، ومات أبو عامر الراهب بالشام وحيدًا فريدًا غريبًا(١).

ورُوي أن بني عمرو بن عوف، الذين بنو مسجد قباء، أتوا عمر بن الخطاب في خلافته ليأذن لمجمع ابن حارثة فيؤمهم في مسجدهم، فقال: لا، ولا نعمة عين، أليس بإمام مسجد الضرار؟ فقال له مجمع: يا أمير المؤمنين، لا تعجل عليَّ، فوالله لقد صليت فيه وإني لا أعلم ما أضمروا عليه، ولو علمتُ ما صليتُ معهم فيه، كنتُ غلامًا قارئًا للقرآن، وكانوا شيوخًا لا يقرؤون القرآن، فصليت ولا أحسب إلا أنهم يتقربون إلى الله تعالى، ولم أعلم ما في أنفسهم، فعذره عمر وصدقه وأمره بالصلاة في مسجد قباء.

قال عطاء: لما فتح الله على عمر الأمصار أمر المسلمين أن يبنوا المساجد، وأمرهم أنْ لا يبنوا في مدينتهم مسجدين يضارّ أحدُهما صاحبَه.

قوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ قال ابن عباس: «لا تُصلِّ فيه» منعَ اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ أن يصلي في مسجد الضِّرار ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾ اللام لام الابتداء، وقيل: لام القسم، تقديره: والله لمسجدٌ أُسِّس، أي: بُني أصلُه على التقوى ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ أي: من أول يوم بُني ووضع أساسه ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ مصليًا.

واختلفوا في المسجد الذي أُسس على التقوى، فقال ابن عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدري: هو مسجد المدينة، مسجد الرسول ﷺ، والدليل عليه:

(١) أخرجه الطبري: (١٤/٤٦٨ ـ ٤٦٩)، وابن هشام في «السيرة»: (٢/٥٢٨ ـ ٥٢٩)، وعزاه الواحدي في «أسباب النزول»: ص٢٩٨ للمفسرين، وذكره الثعلبي من غير سند ولا راوٍ، ورواه ابن مردويه في «التفسير». وانظر: «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/١٠٠ ـ ١٠٢)، «الكافي الشاف»: ص٨١.

ما أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أنبأنا عبد الغافر بن محمد، حدثنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا محمد بن حاتم، حدثنا يحيى بن سعيد، عن حميد الخراط قال: سمعتُ أبا سلمة عبد الرحمن قال: مرَّ بي عبد الرحمن بن أبي سعيد قال: فقلت له: كيف سمعتَ أباك يذكر في المسجد الذي أسس على التقوى؟ فقال: قال أبي: دخلت على رسول الله ﷺ في بيت بعض نسائه فقلت: يا رسول الله، أيُّ المسجدين الذي أسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفًّا من الحصباء فضرب به الأرض، ثم قال: «هو مسجدكم هذا، مسجد المدينة»، قال: فقلت: أشهد أني سمعت أباك هذا يذكره[(١)].

وأخبرنا أبو الحسن الشّيرَزيُّ، أنبأنا زاهر بن أحمد، أنبأنا أبو إسحاق الهاشمي، أنبأنا أبو مصعب، عن مالك، عن خُبَيْب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي»[(٢)].

وذهب قوم إلى أنه مسجد قباء، وهو رواية عطية عن ابن عباس، وهو قول عروة بن الزبير (وسعيد بن جبير)[(٣)] وقتادة:

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان النبي ﷺ يأتي مسجد قباء كلَّ سبت ماشيًا وراكبًا، وكان عبد الله بن عمر يفعله[(٤)].

وزاد نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ فيصلي فيه ركعتين[(٥)].

قوله تعالى: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ﴾ من الأحداث والجنابات والنجاسات، وقال عطاء: كانوا يستنجون بالماء ولا ينامون بالليل على الجنابة.

أخبرنا أبو طاهر عمر بن عبد العزيز القاشاني، أنبأنا أبو عمر القاسم بن جعفر بن عبد الواحد الهاشمي، أنبأنا أبو علي محمد بن أحمد بن عمرو اللؤلؤي، حدثنا أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، أخبرنا محمد بن العلاء، حدثنا معاوية بن هشام، عن يونس بن الحارث، عن إبراهيم بن أبي ميمونة، عن أبي صالح،

---

(١) أخرجه مسلم في الحج، باب بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي ﷺ بالمدينة برقم١٣٩٨: (٢/ ١٠١٥).

(٢) أخرجه البخاري في فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل ما بين القبر والمنبر: (٣/ ٧٠)، ومسلم في الحج، باب ما بين القبر والمنبر روضة من رياض الجنة برقم١٣٩١: (٢/ ١٠١١)، ومالك: (١/ ١٩٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (٢/ ٣٣٨).

(٣) ساقط من «أ».

(٤) أخرجه البخاري في الموضع السابق: (٣/ ٦٩)، ومسلم في الحج، باب فضل مسجد قباء برقم١٣٩٩: (٢/ ١٠١٦ـ١٠١٧).

(٥) في رواية مسلم في الموضع السابق.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «نزلت هذه الآية في أهل قباء»: «﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾»، قال: «كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية»[1] ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: المتطهرين.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ﴾ قرأ نافع وابن عامر «أُسِّسَ» بضم الهمزة وكسر السين، «بنيانُه» رفع فيهما جميعًا على غير تسمية الفاعل، وقرأ الآخرون «أَسَّسَ» فتح الهمزة والسين، «بنيانَه» بنصب النون، على تسمية الفاعل ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ﴾ أي: على طلب التقوى ورضا الله تعالى خيرٌ ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ شَفَا﴾ على شفير ﴿جُرُفٍ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر «جُرْف» ساكنة الراء، والباقون بضم الراء، وهما لغتان، وهي البئر التي لم تُطْوَ، قال أبو عبيدة: هو الهوة وما يجرفه السيل من الأودية فينجرف[2] بالماء فيبقى واهيًا ﴿هَارٍ﴾ أي: هائر، وهو الساقط، يقال: هار يهور فهو هائر، ثم يقلب فيقال: هار، مثل: شاك وشائك وعاق وعائق، وقيل: هو من يهار: إذا انهدم، ومعناه: الساقط الذي يتداعى بعضه في إثر بعض، كما ينهار الرمل والشيء الرخو ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ﴾ أي: سقط بالباني ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ يريد: بناء هذا المسجد الضرار كالبناء على شفير جهنم فيهور بأهلها فيها، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد: صيَّرهُم النفاقُ إلى النار.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ قال قتادة[3]: والله ما تناهى أن وقع في النار، وذكر لنا أنه حفرت بقعة فيه، فرُؤِيَ الدخان يخرج منها، وقال جابر بن عبد الله: رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار[4].

---

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة، باب الاستنجاء بالماء: (١/ ٣٩)، والترمذي في تفسير سورة التوبة: (٨/ ٥٠٣)، وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي الباب عن أبي أيوب وأنس بن مالك ومحمد بن عبد الله بن سلام، وأخرجه ابن ماجه في الطهارة، باب الاستنجاء بالماء: برقم ٣٥٧.

وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه»: برقم ٢٨٦.

وانظر: «تلخيص الحبير»: (١/ ١١٢ ـ ١١٣)، «خلاصة البدر المنير» لابن الملقن: (١/ ٥٠).

(٢) في «ب»: (فينحفر)، أي: يصير فيها حفرة.

(٣) «تفسير الطبري»: (١٤/ ٤٩٢ ـ ٤٩٣).

(٤) أخرجه الطبري: (١٤/ ٤٩٥)، وصححه الحاكم: (٤/ ٥٩٦) ووافقه الذهبي، وزاد السيوطي نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه. «الدر المنثور»: (٤/ ٢٩٢).

وعزاه ابن حجر في «المطالب العالية»: (٣/ ٣٤٠) لمسدَّد بزيادة.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً﴾ أي: شكًّا ونفاقًا ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾ يحسبون أنهم كانوا في بنيانه مُحسنين كما حُبب العجل إلى قوم موسى، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الكلبي: حسرة وندامة؛ لأنهم ندموا على بنائه، وقال السدي: لا يزال هدم بنائهم ريبة وحزازةً وغيظًا في قلوبهم.

﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تتصدَّع قلوبهم فيموتوا، قرأ ابن عامر وأبو جعفر وحمزة وحفص: «تَقطَّع» بفتح التاء، أي: تتقطع، والآخرون بضمِّها، وقرأ يعقوب وحده: «إلى أن» خفيفٌ، على الغاية، «تُقطع» بضم التاء، خفيف، من القطع يدل عليه تفسيرُ الضحَّاك وقتادةَ: لا يزالون في شك منه إلى أن يموتوا فيستيقنوا ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم...﴾ الآية، قال محمد بن كعب القرظي: لما بايعتِ الأنصارُ رسولَ الله ﷺ ليلة العقبة / بمكة وهم سبعون نفسًا، قال عبد الله بن رواحة: ١٦٥/أ
يا رسول الله، اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: «أشترط لربي عزَّ وجلَّ: أن تعبدوه ولا تُشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي: أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسَكم وأموالكم»، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: «الجنة»، قالوا: رَبِحَ البيعُ، لا نقيلُ ولا نستقيل[1]، فنزلت: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[2]. وقرأ الأعمش: «بالجنة».

﴿يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي: «فَيُقْتَلُون» بتقديم المفعول على الفاعل بمعنى يقتل بعضهم بعضًا، ويقتل الباقون، وقرأ الآخرون بتقديم الفاعل ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي: ثواب الجنة لهم وعدٌ وحقٌّ ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ يعني: أنَّ الله عزَّ وجلَّ وعدهم هذا الوعد،

---

(١) (أقاله البيعَ يقيلُه إقالة) و(تقايل البيعان): إذا فسخا البيع، وعاد المبيع إلى مالكه، والثمن إلى المشتري، إذا كان قد ندم أحدهما أو كلاهما، وتكون (الإقالة) في البيعة والعهد، و(استقاله): طلب إليه أن يقيله.

(٢) أخرجه الطبري: (١٤/٤٩٩)، وانظر: «الكافي الشاف»: ص٨١، «أسباب النزول»: ص٣٠٠، «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/١٠٤).

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾

وبيَّنه في هذه الكتب، وقيل[1]: فيه دليل على أن أهل الملل كلهم أمروا بالجهاد على ثواب الجنة ثم هنَّأهم فقال: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ﴾ فافرحوا ﴿بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾ قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: إنَّ الله عزَّ وجلَّ بايعك وجعل الصفقتين لك.

وقال قتادة: ثَامَنَهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ فأغلَى لهم[2]، وقال الحسن: اسمعوا إلى بيعة ربيحة بايع اللهُ بها كل مؤمن، وعنه أنه قال: إن الله أعطاك الدنيا فاشتر الجنة ببعضها.

ثم وصفهم فقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ قال الفرَّاء: استُؤنِفَتْ بالرفع لتمام الآية وانقطاع الكلام، وقال الزَّجَّاج: التائبون رفع للابتداء، وخبره مضمر، المعنى: التائبون ـ إلى آخر الآية ـ لهم الجنة أيضًا، أي: من لم يجاهد غير معاند ولا قاصد لترك الجهاد؛ لأنَّ بعض المسلمين يُجزي عن بعض في الجهاد، (فمن كانت هذه صفته)[3] فله الجنة أيضًا، وهذا أحسن، فكأنه وعدَ الجنَّةَ لجميع المؤمنين، كما قال: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾[النساء: ٩٥] فمن جعله تابعًا للأول كان الوعد بالجنة خاصًّا للمجاهدين الموصوفين بهذه الصفة[4].

قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ أي: الذين تابوا من الشرك وبرؤوا من النفاق ﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ المطيعون الذين أخلصوا العبادة لله عزَّ وجلَّ ﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾ الذين يحمدون الله على كل حال في السراء والضراء.

ورُوِّينا عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ﷺ قال: «أول من يُدْعَىٰ إلى الجنة يومَ القيامة الذين يحمدُون الله في السراء والضراء»[5]، ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هم الصائمون[6].

---

(١) (قيل:) ساقطة من «أ».

(٢) (ثامنت الرجل في المبيع): إذا قاولتَه في ثمنه وفاوضته، وساومته على بيعه واشترائه. وانظر: الطبري: (١٤/ ٤٩٩).

(٣) ما بين القوسين في «ب».

(٤) في «ب»: (الصفات).

(٥) أخرجه الحاكم في «المستدرك»: (١/ ٥٠٢) وصححه على شرط مسلم، وأبو نعيم في «الحلية»: (٥/ ٦٩)، قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الثلاثة بأسانيد، وفي أحدها: قيس بن الربيع: وثقه شعبة والثوري وغيرهما، وضعفه يحيى القطان وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح، ورواه البزار بنحوه، وإسناده حسن). «مجمع الزوائد»: (١٠/ ٩٥)، وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٥٠)، وفي سنده حبيب بن أبي ثابت، مدلِّس وقد عنعن.

(٦) رُوي مرفوعًا وموقوفًا، والموقوف صحيح. انظر: الطبري: (١٤/ ٥٠٢ ـ ٥٠٤)، «الدر المنثور»: (٤/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨)، «تفسير ابن كثير»: (٢/ ٣٩٣).

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾

وقال سفيان بن عيينة: إنَّما سُمِّيَ الصائمُ سائحًا؛ لتركه اللذات كلها من المطعم والمشرب والنكاح.

وقال عطاء: السائحون الغزاة المجاهدون في سبيل الله، رُوي عن عثمان بن مظعون ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: يا رسول الله، ائذن لي في السياحة، فقال: «إن سياحة أُمّتي الجهاد في سبيل الله»(١).

وقال عكرمة: السائحون هم طلبة العلم.

﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ يعني: المصلين ﴿ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ عن الشرك، وقيل: المعروف: السنة، والمنكر: البدعة ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ القائمون بأوامر الله، وقال الحسن: أهل الوفاء ببيعة الله ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ اختلفوا في سبب نزول هذه الآية.

قال قوم: سبب نزولها: ما أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، عن الزُّهري، حدثني سعيد بن المسيب، عن أبيه، قال: لما حضرتْ أبا طالب الوفاةُ جاء رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال: «أيْ عمِّ، قل: لا إله إلا الله، كلمةً أحاجُّ لكَ بها عند الله»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: أترْغَبُ عن مِلَّةِ عبدِ المطلب؟ فلم يزلْ رسولُ الله ﷺ يَعْرِضُها عليه ويُعيدان بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: على مِلَّةِ عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: «والله لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عنكَ»، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ وأنزل في أبي طالب: «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ» [القصص: ٥٦] (٢).

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أنبأنا عبد الغافر بن محمد، أنبأنا محمد بن عيسى، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثني محمد بن حاتم بن ميمون، حدثنا يحيى بن سعيد،

---

(١) حديث ضعيف رواه الطبراني، وفيه: معلى بن هلال، وهو متروك، والمصنف في «شرح السنة»: (٢/ ٣٧٠ ـ ٣٧١)، ورواه أبو داود في الجهاد من طريق أبي أمامة، وفي إسناده: رشدين بن سعد، وانظر: «مجمع الزوائد»: (٤/ ٢٥٤)، فقد روى الهيثمي أوله، و«سلسلة الأحاديث الضعيفة» للألباني: (٣/ ٤٧٩).

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله: (٣/ ٢٢٢)، وفي مناقب الأنصار: (٧/ ١٩٣)، ومسلم في الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع برقم ٢٤: (١/ ٥٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٥٥).

حدثنا يزيد بن كيسان، حدثني أبو حازم الأشجعي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ لعمه: «قلْ لا إله إلا الله أشهدُ لكَ بها يوم القيامة»، فقال: لولا أن تُعيِّرَني قريشٌ، فيقولون: إنَّما حمله على ذلك الجَزَعُ، لأقررتُ بها عَيْنَكَ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[1].

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، (ثنا عبد الله بن يوسف)[2]، حدثني الليث، حدثني يزيد بن الهاد، عن عبد الله بن خباب، عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أنَّه سمع النبي ﷺ، وذُكِرَ عنده عمُّه فقال: «لعله تنفعُه شفاعتي يومَ القيامة، فيُجْعَلَ في ضَحْضَاحٍ مِنَ النار يبلغُ كعبيه يغلي منه دِماغُه»[3].

وقال أبو هريرة وبريدة: لما قدم رسول الله ﷺ مكة أتى قبر أمه آمنة فوقف عليه حتى حميت الشمس رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها، فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾[4] الآية.

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، حدثنا عبد الغافر بن محمد، حدثنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، أنبأنا محمد بن عبيد، عن يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: زار النبيُّ ﷺ قبرَ أُمِّه فبكى وأبكى من حوله فقال: «استأذنتُ ربي عزَّ وجلَّ في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذِنَ لي، فزوروا القبور فإنها تُذَكِّر الموت»[5].

قال قتادة: قال النبيُّ ﷺ: «لأستغفرنَّ لأبي كما استغفرَ إبراهيم لأبيه» فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[6].

وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: لما أنزل الله عزَّ وجلَّ خبرًا عن إبراهيم عليه السلام قال لأبيه: «سلامٌ عليكَ سأستغفرُ لكَ ربِّي» سمعت رجلًا يستغفر لوالديه وهما مشركان، فقلت له: / ١٦٥/ب
تستغفر لهما وهما مشركان؟ فقال: أولم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فأتيت النبيَّ ﷺ فذكرتُ ذلك له، فأنزل الله عزَّ وجلَّ:

---

(١) أخرجه مسلم في الموضع السابق: (١/ ٥٥).

(٢) ساقط من «أ» واستدركناه من «الصحيح».

(٣) أخرجه البخاري في فضائل الأنصار، باب قصة أبي طالب: (١/ ١٩٣)، وفي الرقاق: (١١/ ٤١٧)، ومسلم في الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب . . . برقم ٢١٠: (١/ ١٩٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ٢٤١).

(٤) أخرجه الطبري عن سليمان بن بريدة عن أبيه: (١٤/ ٥١٢)، والإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ٣٥٩) مطولاً وبغير هذا اللفظ.

(٥) أخرجه مسلم في الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه عزَّ وجلَّ في زيارة قبر أمه برقم ٩٧٧: (٢/ ٦٧٢).

(٦) أخرجه الطبري مطولاً: (١٤/ ٥١٣).

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، إلى قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾(١) [الممتحنة: ٤].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ قال بعضهم: الهاء في «إياه» عائدة إلى إبراهيم عليه السلام، والوعد كان من أبيه، وذلك أن أباه كان وعده أن يسلم، فقال له إبراهيم: سأستغفر لك ربي، يعني: إذا أسلمت.

وقال بعضهم: الهاء راجعة إلى الأب، وذلك أن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له رجاء إسلامه، وهو قوله: «سأستغفِرُ لك ربي»، يدل عليه قراءة الحسن: «وعدها أباه» بالباء الموحدة.

والدليل على أن الوعد من إبراهيم، وكان الاستغفار في حال شرك الأب، قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، إلى قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾[الممتحنة: ٤]، فصرّح أن إبراهيم ليس بقدوة في هذا الاستغفار، وإنما استغفر له وهو مشرك لمكان الوعد رجاء أن يسلم.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ لموته على الكفر ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وقيل: فلما تبين له في الآخرة أنه عدو لله تبرأ منه، (أي: يتبرأ منه)(٢)، وذلك ما أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا إسماعيل بن عبد الله، حدثني أخي عبد الحميد، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد المَقْبُري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيمُ أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قَتَرَةٌ وغَبَرَة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تَعْصِني؟! فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم عليه السلام: يا رب، إنك وعدتني أن لا تُخْزِيَني يومَ يُبْعَثُون، فأيُّ خزيٍ أخزَى من أبي الأبْعَدِ؟ فيقول الله تعالى: إني حَرَّمْتُ الجنةَ على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم، ما تحتَ رجليك؟ فينظر فإذا هو بِذِيخٍ(٣) مُلْتَطِخٍ، فيُؤخَذُ بقوائمِه فيُلْقَىٰ في النار»(٤)، وفي رواية: يتبرأ منه يومئذ.

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير، سورة التوبة: (٨/ ٥٠٥)، وقال: هذا حديث حسن، وفيه: فنزلت: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا . . .﴾ وصححه الحاكم: (٢/ ٣٣٥)، وأخرجه أحمد والنسائي وابن أبي شيبة وأبو يعلى والبزار وإسحاق بن راهويه وأبو داود الطيالسي. انظر: «الكافي الشاف»: ص٨٢، «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ١٠٦)، «تحفة الأحوذي»: (٨/ ٥٠٥).

(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٣) هكذا في «الأصل»، وفي البخاري «بذيخ» وهو كذلك في «شرح السنة»، والذِّيخ: الضَّبُع الذكر.

(٤) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب واتخذ الله إبراهيم خليلًا: (٦/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧)، وفي تفسير سورة الشعراء، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ١١٨ـ ١١٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ١١٤﴾ اختلفوا في معنى الأوّاه، جاء في الحديث: «إن الأوّاه الخاشعُ المتضرع»[1].

وقال عبد الله بن مسعود: «الأوّاه» الدَّعَّاء.

وعن ابن عباس قال: هو المؤمن التواب.

وقال الحسن وقتادة: «الأوّاه» الرحيم بعباد الله.

وقال مجاهد: «الأوّاه» الموقن.

وقال عكرمة: هو المستيقن بلغة الحبشة.

وقال كعب الأحبار: هو الذي يكثر التأوّه، وكان إبراهيم عليه السلام يكثر أن يقول: آهٍ من النار، قبل أن لا ينفع آه.

وقيل: هو الذي يتأوه من الذنوب.

وقال عقبة بن عامر: «الأوّاه» الكثير الذكر لله تعالى.

وعن سعيد بن جبير قال: الأوّاه المسبّح، ورُوي عنه: «الأوّاه»: المعلم للخير.

وقال النخعي: هو الفقيه.

وقال عطاء: هو الراجع عن كل ما يكره الله، وقال أيضًا: هو الخائف من النار.

وقال أبو عبيدة: هو المتأوّه شَفَقًا وفَرَقًا المتضرع يقينًا، يريد: أن يكون تضرعه يقينًا ولزومًا للطاعة.

قال الزجاج: قد انتظم في قول أبي عبيدة أكثر ما قيل في الأوّاه.

وأصله: من التأوّهِ، وهو أن يسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء، والفعل منه أوّه وتأوّه، و«الحليم» الصفوح عمن سبّه أو ناله بالمكروه، كما قال لأبيه، عند وعيده، وقوله: «لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا * قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ» [مريم: ٤٦-٤٧].

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: «الحليم» السيد[2].

---

(١) أخرجه الطبري: (١٤/ ٥٣١، ٥٣٢).

وعزاه السيوطي أيضًا لابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن شداد بن الهاد، وهو تابعي ثقة، فالحديث مرسل، وفي سند الحديث: عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب، وهو ثقة، متكلم في روايته عن شهر.

انظر: تعليق محمود شاكر على الطبري: (١٤/ ٥٣٢).

(٢) انظر في هذه الأقوال: الطبري: (١٤/ ٥٢٣، وما بعدها) - وقد رجح أن الصواب هو ما قاله عبد الله بن مسعود الذي رواه عنه زرٌّ: أنه الدعاء - و«الدر المنثور»: (٤/ ٣٠٥-٣٠٧).

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن
دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ
الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ
تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ...﴾ الآية، معناه: ما كان الله ليحكم عليكم بالضلالة بترك الأوامر باستغفاركم للمشركين ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ يريد: حتى يتقدم إليكم بالنهي، فإذا تبيّن ولم تأخذوا به فعند ذلك تَسْتَحِقُّون الضلال.

قال مجاهد[1]: بيان الله للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصّةً، وبيانه لهم في معصيته وطاعته عامة، فافعلوا أو ذروا.

وقال الضحاك: ما كان الله ليعذّبَ قومًا حتى يبينّ لهم ما يأتون وما يَذَرُون.

وقال مقاتل والكلبي: هذا في المنسوخ، وذلك أن قومًا قدموا على النبي ﷺ فأسلموا، ولم تكن الخمر حرامًا، ولا القبلة مصروفةً إلى الكعبة، فرجعوا إلى قومهم وهم على ذلك ثم حرمت الخمر وصرفت القبلة، ولا علم لهم بذلك، ثم قدموا بعد ذلك المدينة فوجدوا الخمر قد حُرِّمت والقبلة قد صُرفت، فقالوا: يا رسول الله، قد كنت على دين ونحن على غيره فنحن ضُلّال؟ فأنزل الله تعالى: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ»[2]، يعني: ما كان الله ليبطل عمل قوم قد عملوا بالمنسوخ حتى يتبيَّن[3] لهم الناسخ ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ ثم عظّم نفسه فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يحكم بما يشاء ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ...﴾ الآية، تاب الله، أي: تجاوز وصفح، ومعنى توبته على النبي ﷺ بإذنه للمنافقين بالتخلُّف عنه، وقيل: افتتح الكلام به؛ لأنه كان سبب توبتهم، فذكره معهم،

---

(١) الطبري: (١٤/٥٣٦-٥٣٧).

(٢) انظر: «زاد المسير»: (٣/٥١٠)، «البحر المحيط»: (٥/١٠٦).

(٣) في «ب»: (يبين).

كقوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾[الأنفال: ٤١]، ونحوه ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ أي: في وقت العسرة، ولم يرد ساعةً بعينها، وكانت غزوة تبوك تُسمى غزوة العسرة، والجيش يسمى جيش العسرة، والعسرة: الشدة، وكانت عليهم غزوة عسرة في الظَّهر والزاد والماء.

قال الحسن: كان العشرة منهم يخرجون على بعير واحد يعتقبونه، يركب الرجل ساعةً، ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك، وكان زادهم التمر المسوس والشعير المتغير، وكان النفر منهم يخرجون ما معهم إلاَّ التمرات بينهم، فإذا بلغ الجوع من أحدهما أخذ التمرة فَلاَكَها حتى يجد طعمَها ثم يعطيها صاحبه فيمصها، ثم يشرب عليها جرعة من ماء، كذلك حتى يأتي على آخرهم، ولا يبقى من التمرة إلا النواة، فمضوا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك على صِدْقِهم ويقينهم[١].

وقال عمر بن الخطاب: خرجنا مع النبي ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، وحتى إن كان الرجل ليذهب فيلتمس الماء فلا يرجع حتى نظن أن رقبته ستنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله قد عودك في الدعاء خيرًا، فادْعُ اللهَ لنا . . . قال: «أتحبُّ ذلك»؟ قال: نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماءُ فأظلَّتْ ثم سَكبت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جازت[٢] العسكر[٣] ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ﴾ قرأ حمزة وحفص: «يزيغ» بالياء لقوله: «كاد»

١٦٦/أ ولم يقل: كادث، وقرأ الآخرون بالتاء، والزيغ: الميل، أي: من بعد ما / كاد تميل ﴿قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: قلوب بعضهم، ولم يُرِدِ الميلَ عن الدين، بل أراد الميل إلى التخلُّف والانصراف للشِّدة التي عليهم، قال الكلبي: هَمَّ ناسٌ بالتخلُّف ثم لحقوه.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ فإن قيل: كيف أعاد ذكر التوبة وقد قال في أول الآية: «لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ»؟

قيل: ذكر التوبة في أول الآية قبل ذكر الذنب، وهو محض الفضل من الله عزَّ وجلَّ، فلما ذكر الذنب أعاد ذكر التوبة، والمراد منه قبولها.

﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ قال ابن عباس: من تاب الله عليه لم يعذبه أبدًا.

---

(١) انظر: «البحر المحيط»: (٥/ ١٠٨)، «المحرر الوجيز»: (٧/ ٦٩).

(٢) في «ب»: (حادت).

(٣) أخرجه الطبري: (١٤/ ٥٤١)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين: (١/ ١٥٩)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة»: ص١٩٠، باب ذكر ما كان في غزوة تبوك.

وقال الهيثمي في «المجمع»: (٦/ ١٩٤ ـ ١٩٥): (رواه البزار، والطبراني في «الأوسط»، ورجال البزار ثقات)، وزاد السيوطي نسبته لابن خزيمة وابن حبان وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» والضياء في «المختارة». انظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٣٠٨).

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ أي: خُلِّفُوا عن غزوة تبوك، وقيل: خُلِّفوا، أي: أُرجيء أمرهم، عن توبة أبي لُبابة وأصحابه، وهؤلاء الثلاثة هم: كعب بن مالك الشاعر، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، كلهم من الأنصار.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب بن مالك ـ وكان قائد كعب من بنيه حين عَمِيَ ـ قال: سمعتُ كعبَ بن مالك يحدِّث حين تخلَّف عن غزوة[1] تبوك، قال كعب: لم أتخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلَّفت عن غزوة بدر، ولم يُعاتب أحدًا تخلَّف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عِيرَ قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوِّهم على غير ميعاد، ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلةَ العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أنَّ لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدرٌ أذْكَرَ في الناس منها، وكان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط، حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوةً إلاَّ وَرَّىٰ بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديدٍ واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا وعدوًّا كثيرًا، فَجَلَّى للمسلمين أمرهم؛ ليتأهَّبُوا أهْبَةَ غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد: الديوان ـ قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلاَّ ظنَّ أنَّ ذلك سيخفىٰ له ما لم ينزل فيه وحي من الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أغْدُو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئًا، وأقول في نفسي: أنا قادر عليه إذا أردت، فلم يزل يتمادَى بي الأمرُ حتى اشتد بالناس الجِدُّ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه، ولم أقضِ من جهازي شيئًا، فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أنْ فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقضِ شيئًا، ثم غدوت ثم رجعْتُ ولم أقضِ شيئًا فلم يزل يتمادَى بي حتى

(١) في «أ»: (قصة).

أسرعُوا، وتفارط الغزو، وهممتُ أن أرتحل فأُدرِكَهم، وليتني فعلتُ، فلم يُقَدِّرْ لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفتُ فيهم أحزنني أني لا أرى لي أُسوة إلاَّ رجلًا مغموصًا عليه في النفاق، أو رجلًا ممن عَذَرَ الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعبٌ»؟ فقال رجلٌ من بني سَلِمَة: يا رسول الله، حبسه بُرْدَاه ونَظَرُهُ في عِطْفيه، فقال معاذ ابن جبل: بئسَ ما قلتَ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا، فسكتَ رسولُ الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجَّه قَافِلًا حضرني هَمِّي، فطفقتُ أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سَخَطِه غدًا؟ واستعنتُ على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادمًا زاح عني الباطلُ، وعرفتُ أني لن أخرج منه أبدًا بشيء فيه كذب، فأجمعتُ صِدْقَهُ، وأصبح رسول الله ﷺ قادمًا، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلَّفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلًا، فَقَبِلَ منهم رسولُ الله ﷺ علانيتَهم، وبايعهم، واستغفر لهم، وَوَكَلَ سرائرهم إلى الله، فجئته فلما سلمتُ عليه تبسَّم تَبَسُّم المُغْضَبِ، ثم قال: تعالَ، فجئتُ أمشي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي: «ما خلَّفَك ألم تكن قد ابتعت ظهرك»؟ فقلت: بلى يا رسول الله، إني والله لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطِيتُ جَدَلاً، ولكنِّي والله لقد علمت لئن حدثتُك اليوم حديثَ كذبٍ ترضى به عني ليوشكنَّ الله أن يُسْخِطَك عليَّ، ولئن حدثتُك حديثَ صدقٍ تجدُ علي فيه، إني لأرجو فيه عفوَ الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنتُ أقوَى قطُّ ولا أيسرَ مني حين تخلفتُ عنك، فقال رسول الله ﷺ: أمَّا هذا فقد صدق، فَقُمْ حتى يقضيَ الله فيك.

فقمتُ وثارَ رجالٌ من بني سلمة فاتَّبعوني فقالوا لي: والله ما علمناكَ كنتَ أذنبتَ ذنبًا قبل هذا، ولقد عجزت في أنْ لا تكونَ اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلَّفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ، فوالله مازالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع وأكذِّب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مُرارةُ بن الربيع العَمْري، وهلال بن أمية الواقفيّ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا فيهما أُسوة، فمضيتُ حين ذكروهما لي.

قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين مَن تخلَّف عنه، فاجتنبَنا الناس وتغيَّروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أَشَبَّ القوم وأَجْلَدَهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسولَ الله ﷺ فأسلِّم عليه وهو في

مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حَرَّك شفتيه بردِّ السلام عليَّ أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليَّ وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني، حتى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إليَّ، فسلمتُ عليه / فوالله ما ردَّ ١٦٦/ب
عليَّ السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشُدُك بالله هل تعلمني أحِبُّ اللهَ ورسولَه؟ فسكتَ، فعدتُ له فنشدتُه فسكتَ، فعدتُ فنشدتُه فقال: اللهُ ورسولُه أعلم، ففاضت عيناي، وتولَّيتُ حتى تسَوَّرْتُ الجدار.

قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نَبَطِيٌّ من أنباط الشام ممَّن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدلُّ على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له نحوي، حتى إذا جاءني دفع إليَّ كتابًا من ملك غسان فقرأته فإذا فيه: أما بَعْدُ: فإنه قد بلغني أنَّ صاحبَك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بنا نُواسِكَ، فقلتُ لما قرأته: وهذا أيضًا من البلاء، فتيممت به التنور فسجرته.

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسولٌ لرسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلتُ: أطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال: لا بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك وكوني عندهم؛ حتى يقضي الله في هذا الأمر

قال كعب: فجاءت امرأةُ هلال بن أمية رسولَ الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربك»، قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله مازال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا.

قال كعب: فقال لي بعضُ أهلي: لو استأذنتَ رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول لي رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب، فلبثتُ بعد ذلك عشر ليالٍ حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت الفجر صبح خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقتْ عليَّ نفسي وضاقتْ عليَّ الأرضُ بما رَحُبَتْ سمعتُ صوتَ صارخٍ أوْفَى على جبلِ سَلْعٍ، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشِرْ، فخررتُ لله ساجدًا وعرفتُ أنه قد جاء فرج، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَلَ صاحِبَيَّ مبشِّرون، وركض رجلٌ إليَّ فرسًا وسعى ساعٍ من أسلم، فأوْفَى على الجبل فكان الصوتُ أسرعَ من الفرس، فلما جاءني سمعتُ صوته يبشرُني نزعتُ له ثوبيَّ فكسوته إيَّاهما ببشراه، ووالله ما أملك غيرهما يومئذٍ، واستعرتُ ثوبين فلبستهما وانطلقتُ إلى رسول الله ﷺ، فتلقاني الناس فوجًا فوجًا يُهنؤنني بالتوبة ويقولون: لِيَهْنِكَ توبةُ اللهِ عليك، قال كعب: حتى دخلتُ المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقامَ إليَّ طلحة بن عبيد الله يُهَرْوِلُ حتى صافحني وهنَّأني، والله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾

قال كعب: فلما سلمتُ على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يَبْرُقُ وجهه من السرور: «أبْشِرْ بخير يوم مرَّ عليكَ منذُ ولدتْك أُمك»! قال: قلت: أمِنْ عندِكَ يا رسولَ الله أمْ مِن عند الله؟ قال: لا، بل من عند الله، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنارَ وجهُهُ حتى كأنه قطعة قمر، وكنَّا نعرف ذلك منه، فلما جلستُ بين يديه قلت: (يا رسول الله)[1]، إنَّ من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله، قال رسول الله ﷺ: «أمسِكْ عليكَ بعضَ مالِك فهو خيرٌ لك»، قلت: فإني أُمسك سهمي الذي بخيبر.

فقلت: يا رسول الله، إنَّما نجاني الله بالصدق، وإن من توبتي ألاَّ أحدث إلاَّ صدقًا ما بقيت، فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ أحسنَ مما أبلاني، ما تعمدت منذُ ذَكَرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبًا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت، وأنزل الله على رسوله: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[2].

وروى إسحاق بن راشد، عن الزهري بهذا الإسناد عن كعب، قال: نهى رسول الله ﷺ عن كلامي وكلام صاحِبَيَّ، فلبثتُ كذلك حتى طال عليَّ الأمر، وما من شيءٍ أهم إليَّ من أن أموت ولا يُصلي عليَّ رسول الله ﷺ، أو يموت رسولُ الله ﷺ فأكونَ من الناس بتلك المنزلة، فلا يكلمني أحد منهم ولا يصلي عليَّ! وأنزل الله توبتنا على نبيه ﷺ حين بقي الثلث الأخير من الليل، ورسول الله ﷺ عند أُم سلمة وكانت أُم سلمة محسنة في شأني، معينة في أمري، فقال رسول الله ﷺ: «يا أُمَّ سلمة، تِيبَ على كعب»، قالت: أفلا أرسل إليه فأبشره؟ قال: «إذًا يحطمكم الناس، فيمنعونكم النوم سائر الليلة»، حتى إذا صلَّى ﷺ صلاة الفجر آذن بتوبة الله علينا[3].

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ اتسعت ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ غمًّا وهمًّا ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾ أي: تيقنوا ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ لا مفزع من الله ﴿إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ أي: ليستقيموا على التوبة، فإن توبتهم قد سبقت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ قال نافع: مع محمد وأصحابه، وقال

---

(١) ساقط من «أ»، والمثبت من «ب» و«صحيح البخاري».

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب حديث كعب بن مالك . . . : (٨/ ١١٣ ـ ١١٦)، ومسلم في التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه برقم ٢٧٦٩: (٤/ ٢١٢٠ ـ ٢١٢٨).

(٣) «سيرة ابن هشام»: (٢/ ٥٣٤ ـ ٥٣٥).

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

سعيد بن جبير: مع أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ، وقال ابن جريج: مع المهاجرين، لقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[الحشر: ٨]، وقال ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ: مع الذين صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وأعمالهم وخرجوا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك بإخلاص نية، وقيل: مع الذين صدقوا في الاعتراف بالذنب ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة.

وكان ابن مسعود يقرأ: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، وقال ابن مسعود: إن الكذب لا يصلح في جِدٍّ ولا هزل، ولا أن يعد أحدكم صبيَّه شيئًا ثم لا ينجز له، اقرؤا إن شئتم وقرأ هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ ظاهره خبرٌ، ومعناه نهي، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ
١/١٦٧ أَن تُؤْذُوا/ رَسُولَ اللَّهِ﴾[الأحزاب: ٥٣] ﴿وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ﴾ سكان البوادي: مُزينة، وجُهينة، وأشجع، وأسلم، وغِفار ﴿أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ﴾ إذا غزا ﴿وَلَا يَرْغَبُوا﴾ أي: ولا أن يرغبوا ﴿بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ في مصاحبته ومعاونته والجهاد معه، قال الحسن: لا يرغبوا بأنفسهم أن يصيبهم من الشدائد فيختاروا الخفض والدَّعة، ورسول الله ﷺ في مشقة السفر ومقاساة التعب ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ﴾ في سفرهم ﴿ظَمَأٌ﴾ عطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ تعب ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ مجاعة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا﴾ أرضًا ﴿يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ وطؤهم إياه ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ أي: لا يصيبون من عدوهم قتلًا أو أسرًا أو غنيمةً أو هزيمةً ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا يزيد بن أبي مريم، حدثنا عباية بن رفاعة قال: أدركني أبو عبس وأنا ذاهب إلى الجمعة فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنِ اغْبَرَّتْ قدماه في سبيل الله حرَّمهما اللهُ على النار»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة، باب المشي إلى الجمعة ...: (٢/ ٣٩٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٠/ ٣٥٣).

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

واختلفوا في حكم هذه الآية، قال قتادة: هذه خاصة لرسول الله ﷺ، إذا غزا بنفسه لم يكن لأحد أن يتخلَّف عنه إلا بعذر، فأمّا غيره من الأئمة والولاة فيجوز لمن شاء من المسلمين أن يتخلَّف عنه إذا لم يكن بالمسلمين إليه ضرورة[(١)].

وقال الوليد بن مسلم: سمعتُ الأوزاعي وابنَ المبارك وابنَ جابر وعمر[(٢)] بن عبد العزيز يقولون في هذه الآية: إنها لأوّلِ هذه الأمة وآخرها[(٣)].

وقال ابن زيد: هذا حين كان أهل الإسلام قليلًا، فلما كثروا نسخها الله تعالى وأباح التخلُّف لمن يشاء قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً﴾ أي: في سبيل الله ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ ولو عِلَاقَة[(٥)] سوط ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ لا يجاوزون واديًا في مسيرهم مقبلين أو مدبرين ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ يعني: آثارهم وخطاهم ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ رُوي عن خُرَيْمِ بن فاتِكٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق نفقةً في سبيل الله كُتِبَ له سبعُمائةِ ضِعفٍ»[(٦)].

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أخبرنا عبد الغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي، أخبرنا جرير، عن الأعمش، عن أبي عمرو الشيباني، عن أبي مسعود الأنصاري قال: جاء رجلٌ بناقةٍ مخطومة فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعُمائةِ ناقة كلها مخطومة»[(٧)].

---

(١) انظر: الطبري: (١٤/ ٥٦٢)، «المحرر الوجيز»: (٧/ ٧٦)، «البحر المحيط»: (٥/ ١١٢).

(٢) في الطبري: (سعيد بن عبد العزيز).

(٣) الطبري: (١٤/ ٥٦٣)، والمراجع السابقة.

(٤) المراجع السابقة. وقد ردَّ الطبري رحمه الله دعوى النسخ. انظر: «التفسير»: (١٤/ ٥٦٣ ـ ٥٦٤).

(٥) العِلاقة: ما يعلق به السيف ونحوه.

(٦) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل النفقة في سبيل الله: (٥/ ٢٥٤)، وقال: هذا حديث حسن، والنسائي في الجهاد، باب فضل النفقة في سبيل الله: (٦/ ٤٩)، وصححه ابن حبان: (٣٩٦) من «الموارد»، والحاكم: (٢/ ٨٧)، وقال الألباني في تعليقه على «المشكاة»: إسناده صحيح.

(٧) أخرجه مسلم في الإمارة، باب فضل الصدقة في سبيل الله برقم ١٨٩٢: (٣/ ١٥٠٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٠/ ٣٥٩).

﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا الحسين، (حدثني يحيى بن أبي كثير)[1]، حدثني أبو سلمة، حدثني بُسْر بن سعيد، حدثني زيد بن خالد ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ جهز غازيًا في سبيل الله فقدْ غزَا، ومن خَلَفَ غازيًا في سبيل الله بخيرٍ فقدْ غزَا»[2].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ الآية، قال ابن عباس في رواية الكلبي: لما أنزل الله عزَّ وجلَّ عيوب المنافقين في غزوة تبوك كان النبي ﷺ يبعث السرايا فكان المسلمون ينفرون جميعًا إلى الغزو ويتركون النبي ﷺ وحده، فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية[3]. وهذا نفي بمعنى النهي.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ أي: فهلّا خرج إلى الغزو من كل قبيلة جماعةٌ (ويبقى مع رسول الله ﷺ جماعةٌ)[4] ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾ يعني: الفرقة القاعدين، يتعلمون القرآن والسُّنَنَ والفرائضَ والأحكام، فإذا رجعت السرايا أخبروهم بما أُنزل بعدهم، فتمكث السرايا يتعلمون ما نزل بعدهم، وتبعث سرايا أُخر، فذلك قوله: ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ وليعلموهم بالقرآن ويخوفوهم به ﴿إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ لا يعملون بخلافه.

وقال الحسن: هذا التفقه والإنذار راجع إلى الفرقة النافرة، ومعناه: هلّا نفرَ فرقةٌ ليتفقهوا، أي: ليتبصروا بما يريهم الله من الظهور على المشركين ونصرة الدين، ولينذروا قومَهم من الكفار إذا رجعوا إليهم من الجهاد فيخبروهم بنصر الله رسولَه ﷺ والمؤمنين لعلَّهم يحذرون أن يُعادُوا النبيَّ ﷺ، فينزل بهم ما نزل بأصحابهم من الكفار[5].

وقال الكلبي: لها وجه آخر: وهو أن أحياء من بني أسد من خزيمة أصابتهم سنة شديدة فأقبلوا بالذراري حتى نزلوا المدينة فأفسدوا طُرقها بالعذرات وأغلَوا أسعارها فنزل قوله: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٢) رواه البخاري في الجهاد، باب فضل من جهز غازيًا أو خلفه بخير: (٦/٤٩)، ومسلم في الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله ... من طريق بكير بن الأشج عن بسر بن سعيد عن زيد بن خالد الجهني برقم١٨٩٥: (٣/١٥٠٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٠/٣٥٩).

(٣) «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٠٤.

(٤) ساقط من «أ».

(٥) وهذا المعنى الذي رجحه الإمام الطبري ووجهه توجيهًا سديدًا: «التفسير»: (١٤/٥٧٣ـ٥٧٤).

﴿لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾[١]، أي: لم يكن لهم أن ينفروا كافة ولكن من كل قبيلة طائفة ليتفقهوا في الدين.

وقال مجاهد: نزلت في ناس خرجوا في البوادي ابتغاء الخير من أهلها فأصابوا منهم معروفًا، ودَعَوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا وقد تركتم صاحبكم وجئتمونا، فوجدوا في أنفسهم من ذلك حرجًا، وأقبلوا كلهم من البادية حتى دخلوا على النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية، أي: هلَّا نَفَرَ من كل فرقة طائفةٌ ليتفقهوا في الدين ويستمعوا ما أنزل بعدهم ولينذروا قومهم، يعني: الناس كلهم إذا رجعوا إليهم ويدعوهم إلى الله، لعلَّهم يحذرون بأس الله ونقمته، وقعدت طائفة يبتغون الخير[٢].

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي، أنبأنا أبو الحسن الطيسفوني، حدثنا عبد الله بن عمر الجوهري، حدثنا أحمد بن علي الكشميهني، حدثنا علي بن حجر، حدثنا إسماعيل بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أبي سعيد ابن أبي هند، عن أبيه، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يُرِدِ اللهُ به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّين»[٣].

أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب، حدثنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، حدثنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعيُّ، أنبأنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تجدون الناسَ معادنَ كمعادنِ الذهب والفضةِ، فخيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فَقُهُوا»[٤].

والفقه: هو معرفة أحكام الدين، وهو ينقسم إلى فرض عين وفرض كفاية، ففرض العين مثل: علم الطهارة، والصلاة، والصوم، فعلى كل مكلف معرفته، قال النبي ﷺ: «طلبُ العلم فريضةٌ على كلِّ مسلم»[٥]،

---

(١) انظر: الطبري: (١٤/ ٥٦٩)، «الدر المنثور»: (٤/ ٣٢٣).

(٢) الطبري: (١٤/ ٥٦٦).

(٣) أخرجه البخاري في العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين: (١/ ١٦٤)، وفي المناقب، ومسلم في الزكاة، باب النهي عن المسألة برقم١٠٣٧ : (٢/ ٧١٨)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ٣٨٥).

(٤) أخرجه البخاري في المناقب، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾: (٦/ ٥٢٥ ـ ٥٢٦)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب خيار الناس برقم٢٥٢٦ : (٨/ ١٩٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ٢٨٦)، والشافعي: (١/ ٦١).

(٥) في «ب»: (ومسلمة)، والحديث رواه ابن ماجه في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم برقم٢٢٤ : (١/ ٨١)، قال في «الزوائد»: إسناده ضعيف لضعف حفص بن سلمان، وعزاه في «كنز العمال»: (١٠/ ١٣٠ ـ ١٣١) لابن عدي والبيهقي والطبراني والخطيب، وقد رُوي الحديث من طرق كثيرة عن عدد من الصحابة، وكل طريق منها لا يخلو من ضعف، ولكنها لكثرتها تقوي الحديث، لذلك حسنه المزي وابن القطان، وصححه السيوطي لغيره، وذكره في الأحاديث المتواترة.

وقال في «المقاصد الحسنة»: قد ألحق بعض المصنفين بهذا الحديث: «ومسلمة» وليس لها ذكر في شيء من طرقه وإن كان معناها صحيحًا.

انظر: «تمييز الطيب من الخبيث» لابن الديبع: ص١١٦، «كشف الخفاء»: (٢/ ٥٦ ـ ٥٧)، «نظم المتناثر من الحديث المتواتر» للكتاني: ص٣٥ ـ ٣٧.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ١٢٣﴾

وكذلك كل عبادة أوجبها الشرع على كل واحدٍ يجب عليه معرفة علمها، مثل: علم الزكاة إن كان له مال، وعلم الحج إن وجب عليه.

وأما فرض الكفاية فهو: أن يتعلم حتى يبلغ درجة / الاجتهاد ورتبة الفتيا، فإذا قعد أهل بلد عن ١٦٧/ب
تعلمه عصوا جميعًا، وإذا قام من كل بلد واحد فتعلَّمه سقط الفرض عن الآخرين، وعليهم تقليده فيما يقع لهم من الحوادث، روى أبو أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلُ العَالِمِ على العابد كفضلي على أدناكم»[(١)].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد»[(٢)].

قال الشافعي: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ...﴾ الآية، أُمروا بقتال الأقرب فالأقرب إليهم في الدار والنسب، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: مثل بني قريظة والنضير وخيبر ونحوها.

وقيل: أراد بهم الروم؛ لأنهم كانوا سكان الشام (وكان الشام)[(٣)] أقرب إلى المدينة من العراق ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ شِدَّةً وحمية، قال الحسن: صبرًا على جهادهم ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ١٢٣﴾ بالعون والنصرة.

---

(١) أخرجه الترمذي في العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة: (٧/ ٤٥٦ ـ ٤٥٧)، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح، والدارمي عن مكحول مرسلًا بسند حسن في المقدمة، باب من قال: العلم الخشية وتقوى الله: (١/ ٨٨)، وأخرجه أيضًا عن الحسن مرفوعًا في باب فضل العلم والعالم: (١/ ٩٧ ـ ٩٨)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ٢٧٨)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم»: (١/ ٤٦). وانظر: «تعليق الألباني على المشكاة»: (١/ ٧٤ ـ ٧٥).

(٢) أخرجه الترمذي في العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة: (٧/ ٤٥٠)، وقال: «هذا حديث غريب، ولا نعرفه إلا من هذا الوجه»، وابن ماجه في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم برقم ٢٢٢: (١/ ٨١)، وفيه رَوْح بن جناح، وهو ضعيف جدًا، متهم بالوضع.
وأخرجه ابن عبد البر عن ابن عباس، وعن أبي هريرة أيضًا في «جامع بيان العلم»: (١/ ٥٢ ـ ٥٣)، وفيه: يزيد بن عياض، وهو كذاب. انظر: «تعليق الألباني على المشكاة»: (١/ ٧٥)، و«شرح السنة»: (١/ ٢٧٨).

(٣) ساقط من «أ».

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ يقينًا، كان المنافقون يقولون هذا استهزاءً، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ يقينًا وتصديقًا ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ يفرحون بنزول القرآن.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شكٌّ ونفاق ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أي: كفرًا إلى كفرهم، فعند نزول كل سورة ينكرونها يزداد كفرهم بها.

قال مجاهد: هذه الآية إشارة إلى الإيمان: يزيد وينقص.

وكان عمر يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه فيقول: تعالوا حتى نزداد إيمانًا.

وقال علي بن أبي طالب: إن الإيمان يبدو لُمظَة[١] بيضاء في القلب، فكلَّما ازْدَادَ الإيمان عِظَمًا ازداد ذلك البياضُ حتى يَبْيَضَّ القلبُ كله، وإن النفاق يبدو لمظة سوداء في القلب، فكلما ازدادَ النفاقُ ازدادَ ذلك السوادُ حتى يسودَّ القلبُ كله، وايْمُ الله لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض، ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود[٢].

قوله: ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

قوله: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ قرأ حمزة ويعقوب: «ترون» بالتاء على خطاب المؤمنين، وقرأ الآخرون بالياء، خبرٌ عن المنافقين المذكورين ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ يُبتلون ﴿فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ بالأمراض والشدائد، وقال مجاهد: بالقحط والشدة، وقال قتادة: بالغزو والجهاد، وقال مقاتل بن حيان: يفضحون بإظهار نفاقهم، وقال عكرمة: ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون، وقال يمان: ينقضون عهدهم في السنة مرَّةً أو مرتين ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ من نقض العهد، ولا يرجعون إلى الله من النفاق ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ أي: لا يتعظون بما يرون من تصديق وعد الله بالنصر والظفر للمسلمين.

---

(١) في «النهاية» لابن الأثير: يبدأ لمظة، واللُّمْظَةُ ـ بالضم ـ: مثل النكتة، من البياض.

(٢) أخرجه أبو عبيد في «غريب الحديث»: (٣/ ٤٦٠)، وابن المبارك في «الزهد»، وخشيش في «الاستقامة»، والبيهقي، واللالكائي في «السنة»، والأصبهاني في «الحجة». انظر: «كنز العمال»: (١/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧).

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها عيب المنافقين وتوبيخهم ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يريدون الهرب، يقول بعضهم لبعض إشارة: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي: أحد من المؤمنين إن قمتم، فإن لم يرهم أحد خرجوا من المسجد، وإن علموا أن أحدًا يراهم أقاموا وثبتوا ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ عن الإيمان بها، وقيل: انصرفوا عن مواضعهم التي يسمعون فيها ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن الإيمان، قال أبو إسحاق الزجاج: أضلَّهُم اللهُ مجازاةً على فعلهم ذلك ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ عن الله دينه، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «لا تقولوا إذا صليتم انصرفنا من الصلاة، فإنَّ قومًا انصرفُوا فصرفَ اللهُ قلوبَهم، ولكن قُولُوا قد قضينا الصلاة»[(١)].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ تعرفون نسبه وحسبه، قال السدي: من العرب، من بني إسماعيل، قال ابن عباس: ليس من العربي قبيل إلاَّ وقد ولدت النبي ﷺ، وله فيهم نسب.

وقال جعفر بن محمد الصادق: لم يصبه شيء من ولاد الجاهلية من زمان آدم عليه السلام.

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أخبرنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أخبرنا عبد الله بن حامد، حدثنا حامد بن محمد، أخبرنا علي بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن أبي نعيم، حدثنا هشيم، حدثني المدني ـ يعني: أبا معشر ـ، عن أبي الحويرث، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ولدَني من سفاح أهل الجاهلية شيء، ما ولدني إلا نكاحٌ كنكاحِ الإسلام»[(٢)].

وقرأ ابن عباس والزهري وابن محيصن «من أنْفَسكم» بفتح الفاء، أي: من أشرفكم وأفضلكم ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ شديد عليه ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ قيل: «ما» صلة، أي: عنتكم، وهو دخول المشقة والمضرة عليكم، وقال القتيبي: ما أعنتكم وضرَّكم، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما ضللتم.

وقال الضحاك والكلبي: ما أثمتم.

---

(١) أخرجه الطبري في «التفسير»: (١٤/ ٥٨٣)، وصححه الحاكم: (٢/ ٣٣٨)، ووافقه الذهبي.

(٢) قال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢١٤): (رواه الطبراني عن المديني عن أبي الحويرث، ولم أعرف المديني ولا شيخه، وبقية رجاله وثقوا). وعزاه في «كنز العمال»: (١١/ ٤٣٠) أيضًا للبيهقي وابن عساكر.

فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على إيمانِكم وصلاحِكم، وقال قتادة: حريص عليكم، أي: على ضالّكم أن يهديه الله ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ قيل: رؤوف بالمطيعين، رحيم بالمذنبين ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ إن أعرضوا عن الإيمان وناصبوك الحرب ﴿فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

روي عن أُبي بن كعب قال: آخر ما نزل من القرآن هاتان الآيتان «لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ» إلى آخر السورة، وقال: هما أحدث الآيات بالله عهدًا[1].

* * *

(١) أخرجه الحاكم: (٢/ ٣٣٨)، والإمام عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند»: (٥/ ١١٧)، وعزاه ابن حجر في «المطالب العالية»: (٣/ ٣٣٧) لإسحاق بن راهويه، كلهم دون قوله: «هما أحدث الآيات . . .».

وقال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٣٦): (رواه عبد الله بن أحمد والطبراني، وفيه علي بن زيد بن جدعان، وهو ثقة سيء الحفظ، وبقية رجاله ثقات).

سورة يونس

سورة يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ مكيّة إلا ثلاث آيات من قوله: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ إلى آخرها.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

﴿الٓر﴾ و«الٓمٓر» قرأ أهل الحجاز والشام وحفص بفتح الراء فيها، وقرأ الآخرون بالإمالة.

قال ابن عباس والضحاك: «الٓر» أنا الله أرى، و«الٓمٓر» أنا الله أعلم وأرى.

وقال سعيد بن جبير: «الٓر» و«حمٓ» و«نٓ» حروف اسم الرحمن، وقد سبق الكلام في حروف التهجي[1].

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ أي: هذه، وأراد بالكتاب الحكيم: القرآن، وقيل: أراد بها الآيات التي أنزلها من قبل ذلك، ولذلك قال: «تِلْكَ»، و«تِلْكَ»: إشارة إلى غائب مؤنث، و«ٱلْحَكِيمِ»: المحكم بالحلال والحرام، والحدود والأحكام، فعيل بمعنى مُفْعَل، بدليل قوله: «كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ»[هود: ١].

وقيل: هو بمعنى الحاكم، فعيل بمعنى فاعل، دليله قوله عزَّ وجلَّ: «وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ»[البقرة: ٢١٣].

وقيل: هو بمعنى المحكوم، فعيل بمعنى المفعول، قال الحسن: حكم فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وبالنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، وحكم فيه بالجنة لمن أطاعه وبالنار لمن عصاه.

قوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ العَجَبُ: حالة تعتري الإنسان من رؤية شيء على خلاف العادة.

١/١٦٨ وسبب نزول الآية: / أن الله عزَّ وجلَّ لمَّا بعث محمدًا ﷺ رسولاً، قال المشركون: الله أعظم من أن

(١) راجع فيما سبق: (١/ ١١ ـ ١٢)، وانظر هذه الأقوال كلها في: الطبري: (١/ ٢٠٥ ـ ٢٢٤).

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾

يكون رسوله بشرًا، فقال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾[1]، يعني: أهل مكة، الألِفُ فيه للتوبيخ ﴿عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ يعني: محمدًا ﷺ ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أي: اعْلِمْهم مع التخويف ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ واختلفوا فيه، قال ابن عباس: أجرًا حسنًا بما قدموا من أعمالهم، قال الضحاك: ثواب صدق، وقال الحسن: عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه، وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: هو السعادة في الذكر الأول، وقال زيد بن أسلم: هو شفاعة الرسول ﷺ، وقال عطاء: مقام صدق لا زوال له، ولا بؤس فيه، وقيل: منزلة رفيعة[2].

وأضيف «القَدَمُ» إلى الصدق وهو نعته، كقولهم مسجد الجامع، وحب الحصيد، وقال أبو عبيدة: كل سابق في خير أو شر فهو عند العرب قدم، يقال: لفلان قدم في الإسلام، وله عندي قدم صدق وقدم سوء، وهو يؤنث فيقال: قدم حسنة، وقدم صالحة ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ قرأ نافع وأهل البصرة والشام: «لَسِحْرٌ» بغير ألف يعنون «القرآن»، وقرأ ابن كثير وأهل الكوفة: «لساحر» بالألف يعنون محمدًا ﷺ.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ يقضيه وحده ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ معناه: أن الشفعاء لا يشفعون إلا بإذنه، وهذا رَدٌّ على النَّضر ابن الحارث فإنه كان يقول: إذا كان يوم القيامة تشفعني اللات والعزى.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ يعني: الذي فعل هذه الأشياء ربكم لا ربّ لكم غيره ﴿فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ تتعظون.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ صدقًا لا خلف فيه، نصب على المصدر، أي: وعدكم وعدًا

---

(١) أخرجه الطبري عن ابن عباس: (١٥/ ١٣)، وانظر: «أسباب النزول»: ص٣٠٥، «الدر المنثور»: (٤/ ٣٤٠)، وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه مطولاً.

(٢) انظر في هذه الأقوال: الطبري: (١٥/ ١٣ ـ ١٦)، وقال: (وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب: قولُ من قال: معناه: أن لهم أعمالاً صالحة عند الله يستوجبون بها منه الثواب) ثم ساق على ذلك شواهد من الشعر.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾

حقًّا ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: يُحييهم ابتداء ثم يُميتهم ثم يُحييهم، قراءة العامة: «إِنَّهُۥ» بكسر الألف على الاستئناف، وقرأ أبو جعفر «أنه» بالفتح على معنى بأنه ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ماءٌ حارٌ انتهى حرّه ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٤﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ بالنهار ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ بالليل، وقيل: جعل الشمس ذات ضياء، والقمر ذَا نُور ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ أي: قدَّر له، يعني: هيَّأ له منازل لا يجاوزها ولا يقصر دونها، ولم يقل: قَدَّرهما.

قيل: تقدير المنازل ينصرف إليهما غير أنه اكتفى بذكر أحدهما، كما قال: «وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ»[التوبة: ٦٢].

وقيل: هو ينصرف إلى القمر خاصة؛ لأن القمر يُعرف به انقضاء الشهور والسنين، لا بالشمس.

ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلة، وأسماؤها: الشرطين، والبطين، والثرياء، والدبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنسر، والطوف، والجبهة، والزبرة، والصرفة، والعواء، والسماك، والغفر، والزباني، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعايم، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، وفرع الدلو المقدم، وفرع الدلو المؤخر، وبطن الحوت.

وهذه المنازل مقسومة على البروج، وهي اثنا عشر برجًا: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت.

ولكل برج منزلان وثلث منزل، فينزل القمر كل ليلة منزلاً منها، ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين، وإن كان تسعًا وعشرين فليلة واحدة، فيكون تلك المنازل ويكون مقام الشمس في كل منزلة ثلاثة عشر يومًا، فيكون انقضاء السنة مع انقضائها.

قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ أي: قدَّر المنازل «لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ» دخولها وانقضاءها ﴿وَٱلْحِسَابَ﴾ يعني: حساب الشهور والأيام والساعات ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ ردَّه إلى الخلق والتقدير، ولو ردَّه إلى الأعيان المذكورة لقال: تلك ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: لم يخلقه باطلًا، بل إظهارًا لصنعه، ودلالةً على قدرته ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب «يفصل» بالياء، لقوله: «ما خلق»، وقرأ الباقون «نفصل» بالنون على التعظيم.

إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا
غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ
ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ
لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ يؤمنون.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ أي: لا يخافون عقابنا، ولا يرجون ثوابنا، والرجاء يكون بمعنى الخوف والطمع ﴿ وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ فاختاروها وعملوا لها ﴿ وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا ﴾ سكنوا إليها ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ أي: عن أدلتنا غافلون لا يعتبرون، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «عن آياتنا»: عن محمدٍ ﷺ والقرآنِ «غافلون» معرضون.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ ﴾ من الكفر والتكذيب.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾ فيه إضمار، أي: يرشدهم ربهم بإيمانهم إلى الجنة ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ قال مجاهد: يهديهم على الصراط إلى الجنة، يجعل لهم نورًا يمشون فيه، وقيل: «يَهْدِيهِمْ» معناه: يثيبهم ويجزيهم، وقيل: معناه: بإيمانهم يهديهم ربهم لدينه، أي: بتصديقهم هداهم، «تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ»، أي: بين أيديهم، كقوله عزَّ وجلَّ: «قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا»[مريم: ٢٤]، لم يُرِدْ به أنه تحتها وهي قاعدة عليه، بل أراد بين يديها.

وقيل: «تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ»، أي: بأمرهم ﴿ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ دَعْوَىٰهُمْ ﴾ أي: قولهم وكلامهم، وقيل: دعاؤهم ﴿ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ وهي كلمة تنزيه، تنزه الله من كل سوء، وروينا: «أن أهل الجنةِ يلهمون الحمدَ والتسبيح، كما يُلهمون النَّفَسَ»(١).

قال أهل التفسير: هذه الكلمة علامة بين أهل الجنة والخدم في الطعام، فإذا أرادوا الطعام قالوا:

---

(١) عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفِلُون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون» قالوا: فما بال الطعام؟ قال: «جُشَاءٌ ورَشْحٌ كرشح المسك، يُلْهَمون التسبيح والتحميد كما يُلهمون النَّفَسَ».
رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب في صفات الجنة وأهلها . . . برقم٢٨٣٥: (٤/ ٢١٨٠ـ٢١٨١).

۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾

سبحَانَكَ اللَّهُمَّ، فأتوهم في الوقت بما يشتهون على الموائد، كل مائدة مِيلٌ في مِيل، على كل مائدة سبعون ألف صَحْفَة، وفي كل صَحْفَة لون من الطعام لا يشبه بعضُها بعضًا، فإذا فرغوا من الطعام حمدوا الله، فذلك قولُه تعالى: / ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(1). ١٦٨/ب

قوله تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي: يحيي بعضهم بعضًا بالسلام.

وقيل: تحية الملائكة لهم بالسلام، وقيل: تأتيهم الملائكة من عند ربهم بالسلام.

﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ يريد: يفتتحون كلامهم بالتسبيح، ويختمونه بالتحميد.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ قال ابن عباس: هذا في قول الرجل عند الغضب لأهله وولده: لعنكم الله، ولا بارك الله فيكم، قال قتادة: هو دعاء الرجل على نفسه وأهله وماله بما يكره أن يستجاب، معناه: لو يعجل الله الناس إجابة دعائهم في الشر والمكروه استعجالهم بالخير، أي: كما يحبون استعجالهم بالخير ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب «لَقَضى» بفتح القاف والضاد «أجلَهم» نصب، أي: لأهلك من دعا عليه وأماته، وقال الآخرون: «لَقُضِي» بضم القاف وكسر الضاد، «أجلُهم» رفع، أي: لفرغ من هلاكهم ومَاتوا جميعًا.

وقيل: إنها نزلت في النضر بن الحارث حين قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾(2) الآية[الأنفال: ٣٢]، يدل عليه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لا يخافون البعث والحساب ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبد الله بن بشران، حدثنا أبو علي إسماعيل بن محمد الصفار، أنبأنا أحمد بن منصور الزيادي، حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن همام بن منبِّه أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «اللهمَّ إني اتخذتُ عندك عهدًا لن تُخْلِفَنِيه، فإنَّما أنا بشر فيصدر مني ما يصدر من البشر، فأيّ المؤمنين آذيتُه أو شتمته أو جلدتُه أو لعنته فاجعلها له صلاةً وزكاةً وقربةً، تقرّبه بها إليك يوم القيامة»(3).

---

(1) ساق السيوطي عدة روايات في ذلك. «الدر المنثور»: (٤/ ٣٤٥ـ٣٤٦).

(2) انظر: «المحرر الوجيز»: (٧/ ١١٣).

(3) أخرجه البخاري في الدعوات، باب قول النبي ﷺ: «من آذيته فاجعله له زكاة ورحمة»: (١١/ ١٧١)، ومسلم في البر والصلة، باب من لعنه النبيُّ ﷺ أو سبَّه... برقم ٢٦٠١: (٤/ ٢٠٠٨)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٨).

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ الجَهْد والشدة ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ أي: على جنبه مضطجعًا ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ يريد في جميع حالاته؛ لأن الإنسان لا يعدو إحدى هذه الحالات ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ دفعنا ﴿عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ أي: استمر على طريقته الأولى قبل أن يصيبه الضر، ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء، كأنه لم يدعنا إلى ضُرٍّ مَسَّه، أي: لم يطلب منا كشف ضُرٍّ مَسَّه ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحدَّ في الكفرِ والمعصية ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ من العصيان، قال ابن جريج: كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون من الدعاء عند البلاء وترك الشكر عند الرخاء، وقيل: معناه: كما زَيَّن لكم أعمالكم زَيَّن للمسرفين الذين كانوا من قبلكم أعمالهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ أشركوا ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما أهلكناهم بكفرهم ﴿نَجْزِى﴾ نعاقب ونهلك ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ الكافرين، بتكذيبهم محمدًا ﷺ، يُخوِّف كفار مكة بعذابِ الأُمم الخالية المكذبة.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ أي: خلفاء ﴿فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد القرون التي أهلكناهم ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ وهو أعلم بهم.

وروينا عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا إنَّ هذه الدنيا حُلْوةٌ خَضِرَةٌ، وإنَّ اللهَ مستخلِفُكم فيها، فناظرٌ كيفَ تعملون»[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ قال قتادة[2]: يعني: مشركي مكة، وقال

---

(١) أخرجه مسلم في الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء . . . برقم ٢٧٤٢: (٤/ ٢٠٩٨)، والمصنف في «شرح السنة»: (٩/ ١٢).

(٢) في «أسباب النزول» للواحدي ص٣٠٥: (مجاهد). وانظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٣٤٧).

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾

مقاتل[1]: هم خمسة نفر: عبد الله بن أمية المخزومي، والوليد بن المغيرة، ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس العامري، والعاص بن عامر بن هاشم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ هم السابق ذكرهم، قالوا للنبي ﷺ: إن كنت تريد أن نؤمن بك ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ ليس فيه ترك عبادة اللَّاتِ والعُزَّى ومَناة، وليس فيه عيبها، وإن لم ينزلها الله فقلْ أنت من عند نفسك ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة، أو مكان حرام حلالاً، أو مكان حلالٍ حرامًا ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾ من قِبَلِ نفسي ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ أي: ما أتبع إلاَّ ما يُوحى إليَّ فيما آمركم به وأنهاكم عنه ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: لو شاء الله ما أنزل القرآن عليَّ ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: ولا أعلمكم الله.

قرأ البزي عن ابن كثير: «ولأدْرَاكم به» بالقصر به على الإيجاب، يريد: ولا علَّمكم به من غير قراءتي عليكم، وقرأ ابن عباس: «ولا أنذرتُكم به» من الإنذار ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ حينًا: وهو أربعون سنة ﴿مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ من قبل نزول القرآن ولم آتكم بشيء ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ أنه ليس من قِبَلي، ولبث النبي ﷺ فيهم قبل الوحي أربعين سنة، ثم أوحى الله إليه فأقام بمكة بعد الوحي ثلاث عشرة سنة، ثم هاجر فأقام بالمدينة عشر سنين، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة.

ورَوى أنسٌ: أنه أقام بمكة بعد الوحي عشر سنين وبالمدينة عشر سنين، وتوفي وهو ابن ستين سنة، والأول أشهر وأظهر[2].

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فزعم أن له شريكًا أو ولدًا ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ بمحمد ﷺ وبالقرآن ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ لا ينجو المشركون.

---

(١) «أسباب النزول»: ص٣٠٥.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»: (١٣/ ٥٤)، (١٤/ ٢٩١)، وابن سعد في «الطبقات»: (٢/ ٣٠٨)، وعبد الرزاق: (٣/ ٥٩٩).
وانظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٣٤٨-٣٤٩)، «كنز العمال»: (رقم ٤٧٥٠).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن عصوه وتركوا عبادته ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ إن عبدوه، يعني: الأصنام ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾ أتخبرون الله ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ اللهُ صحتَه، ومعنى الآية: أَتُخْبِرُونَ اللهَ أن له شريكًا، أو عنده شفيعًا بغير إذنه، ولا يعلم الله لنفسه شريكًا؟! ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ قرأ حمزة والكسائي: «تشركون» بالتاء هاهنا وفي سورة النحل موضعين، وفي سورة الروم، وقرأ الآخرون كلها بالياء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: على الإسلام، وقد ذكرنا الاختلاف فيه في سورة البقرة[1] ﴿فَٱخْتَلَفُوا۟ۚ﴾ وتفرقوا إلى مؤمن وكافر ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بأن جعل لكل أُمّة أجلًا، وقال الكلبي: هي إمهال هذه الأمة، وأنه لا يهلكهم بالعذاب في الدنيا ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بنزول العذاب وتعجيل العقوبة للمكذبين، وكان ذلك فصلًا بينهم ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ وقال الحسن: «وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ»: مضت في حكمه أنه: لا يقضي بينهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون القيامة، لقضي بينهم في الدنيا، فأدخل المؤمن الجنة والكافر النار، ولكنه سبق من الله الأجل فجعل موعدهم يوم القيامة.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ يعني: أهل مكة ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي: على محمد ﷺ ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾ على ما نقترحه ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ يعني: قل إنما سألتموني الغيب وإنما الغيب لله، لا يعلم أحد لِمَ لَمْ
١/١٦٩ يفعلْ ذلك ولا يعلمه إلا هو، وقيل: «الغيب» نزول الآية / لا يعلم متى تنزلُ أحدٌ غيره ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ نزولها ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ وقيل: فانتظروا قضاء الله بيننا بالحق بإظهار المحق على المبطل.

---

(١) انظر فيما سبق: (١/ ٢٠٠ـ٢٠١).

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ
رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى
ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ
مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ
لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾ يعني: الكفار ﴿رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ﴾ أي: راحة ورخاء من بعد شدة وبلاء، وقيل: القطر بعد القحط ﴿مَسَّتْهُمْ﴾ أي: أصابتهم ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ قال مجاهد: تكذيب واستهزاء، وقال مقاتل بن حيان: لا يقولون: هذا رزقُ الله، إنما يقولون: سُقِينا بِنَوْءِ كذا، وهو قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[الواقعة: ٨٢].

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أعجل عقوبة وأشد أخذًا وأقدر على الجزاء، يريد: عذابه في إهلاككم أسرع إليكم مما يأتي منكم في دفع الحق ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ حفظتنا ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ وقرأ يعقوب: «يمكرون» بالياء.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾ يجريكم ويحملكم، وقرأ جعفر وابن عامر: «ينشركم» بالنون والشين، من النشر: وهو البسط والبث ﴿فِى ٱلْبَرِّ﴾ على ظهور الدواب ﴿وَ﴾ في ﴿ٱلْبَحْرِ﴾ على الفلك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي: في السفن، تكون واحدًا وجمعًا ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ يعني: جرت السفن بالناس، رجع من الخطاب إلى الخبر ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ ليّنة ﴿وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾ أي: بالريح ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ﴾ أي: جاءت الفلك ريحٌ ﴿عَاصِفٌ﴾ شديدة الهبوب، ولم يقل ريح عاصفة؛ لاختصاص الريح بالعصوف، وقيل: الريح تُذكَّر وتؤنَّث ﴿وَجَآءَهُمُ﴾ يعني: ركبانَ السفينة ﴿ٱلْمَوْجُ﴾ وهو حركة الماء واختلاطه ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟﴾ أيقنوا ﴿أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ دنوا من الهلكة، أي: أحاط بهم الهلاك ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: أخلصوا في الدعاء لله ولم يدعوا أحدًا سوى الله، وقالوا: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾ يا ربنا ﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ الريح العاصف ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ لك بالإيمان والطاعة.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يظلمون ويتجاوزون إلى غير أمر الله عزَّ وجلَّ في الأرض ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: بالفساد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ لأن وباله راجع عليها، ثم ابتدأ فقال:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ
وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ
أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ
لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥)﴾

﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: هذا متاع الحياة الدنيا، خبرُ ابتداءٍ مضمر، كقوله: «لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ»[الأحقاف: ٣٥]، أي: هذا بلاغ، وقيل: هو كلام متصل، والبغي: ابتداء، ومتاعٌ: خبره.

ومعناه: إنما بغيكم متاع الحياة الدنيا، لا يصلح (زادًا لمعادٍ)[1]؛ لأنكم تستوجبون به غضب الله.

وقرأ حفص: «متاعَ» بالنصب، أي: تتمتعون متاع الحياة الدنيا ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في فنائها وزوالها ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾ أي: بالمطر ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: نبت بالماء من كل لون ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ﴾ من الحبوب والثمار ﴿وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ من الحشيش ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ حسنَها وبهجتَها وظهر الزهرُ أخضر وأحمر وأصفر وأبيض ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ أي: تزينت، وكذلك هي في قراءة ابن مسعود: «تزينت» ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ على جذاذِها وقطافِها وحصادِها، ردَّ الكنايةَ إلى الأرض، والمراد: النبات؛ إذ كان مفهومًا، وقيل: ردَّها إلى الغلَّة، وقيل: إلى الزينة ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ قضاؤنا بإهلاكها ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾ أي: محصودة مقطوعة ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ كأن لم تكن بالأمس، وأصله من غَنِيَ بالمكان إذا أقام به، وقال قتادة: معناه: إن المتشبِّث بالدنيا يأتيه أمر الله وعذابه أغفل ما يكون ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ قال قتادة: «السلام» هو الله، وداره: الجنة، وقيل: «السلام» بمعنى السلامة، سُمِّيت الجنة دارَ السلام؛ لأنَّ من دخلها سَلِمَ من الآفات، وقيل: المراد بالسلام التحية، سُمِّيت الجنة دار السلام؛ لأنَّ أهلها يحيِّي بعضُهم بعضًا بالسلام، والملائكة تسلم عليهم، قال الله تعالى: «وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم»[الرعد: ٢٣-٢٤].

---

(١) في «أ»: (لزاد المعاد).

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾

ورُوينا عن جابر قال: جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم (فقال بعضُهم: إنه نائم، وقال بعضُهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا)[1]: إن لصاحبكم هذا مثلًا، قال: فاضربوا له مثلًا، فقال بعضهم: مثله كمثل رجل بَنى دارًا، وجعل فيها مأدُبةً، وبعث داعيًا، فمن أجاب الداعي: دخل الدار، وأكل من المأدبة، ومَنْ لمْ يُجِبِ الداعي: لم يدخل الدار ولم يأكلْ من المأدبة، (فقالوا: أوِّلُوهَا له يَفْقَهْهَا، قال بعضُهم: إنه نائم، وقال بعضُهم: إن العينَ نائمةٌ والقلب يقظان، فقالوا)[1]: فالدارُ الجنة، والداعي محمد ﷺ، فمن أطاع محمدًا فقد أطاع الله، ومن عصى محمدًا فقد عصى الله، ومحمد فرّقَ بين الناس»[2].

﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ فالصراط المستقيم هو الإسلام، عمَّ بالدعوة؛ لإظهار الحجة، وخَصَّ بالهداية؛ استغناءً عن الخلق.

قوله تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ أي: للذين أحسنوا العمل في الدنيا الحسنَى، وهي الجنة، وزيادة: وهي النظر إلى وجه الله الكريم، هذا قول جماعة من الصحابة، منهم: أبو بكر وحذيفة وأبو موسى وعبادة بن الصامت ـ رضي الله عنهم ـ، وهو قول الحسن وعكرمة وعطاء ومقاتل والضحاك والسدي.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن (محمد بن)[3] العباس الحُمَيْدِيُّ، أنبأنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو العباس محمد بن يعقوب إملاءً، حدثنا أبو بكر محمد بن إسحاق الصَّغاني، حدثنا الأسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت ـ يعني: البناني ـ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صُهيب ـ رضي الله عنه ـ قال: قرأ رسولُ الله ﷺ هذه الآية: «﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾»، قال: «إذا دخلَ أهلُ الجنّةِ الجنّةَ وأهلُ النّارِ النّارَ نادى منادٍ: يا أهلَ الجنةِ إنَّ لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزَكُمُوه، قالوا: ما هذا الموعود[4]؟ ألمْ يثقِّلْ موازيننا، ويبيِّضْ وجوهَنا، ويدخلْنَا الجنةَ، ويُجِرْنَا من النار؟ قال: فيرفع الحجاب فينظرون إلى وجه الله عزَّ وجلَّ، قال: فما أُعطوا شيئًا أحبَّ إليهم من النظر إليه»[5].

ورُوي عن ابن عباس: أنَّ الحُسْنَى هي: أنَّ الحسنة بمثلها، والزيادة: هي التضعيف عشر أمثالها إلى

---

(١) ما بين القوسين من «صحيح البخاري» و«شرح السنة» للمصنف، وهو أيضًا في «المطبوع».

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ: (١٣/ ٢٤٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ١٩٢).

(٣) ساقط من «ب».

(٤) في «ب»: (الموعد).

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى برقم ١٨١ ـ ١٨٢: (١/ ١٦٣)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ٢٣٠).

وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٨﴾

سبعمائة ضعف(١)، وقال مجاهد: «الحُسنَى»: حسنة مثل حسنة، و«الزيادة»: المغفرة والرضوان(٢).

﴿وَلَا يَرۡهَقُ﴾ لا يغشى ﴿وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ﴾ غبار، جمع قترة، قال ابن عباس وقتادة: سواد الوجه ﴿وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾ هَوَانٌ، قال قتادة: كآبة، قال ابن أبي ليلى: هذا بعد نظرهم إلى ربهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

١٦٩/ب ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ/ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا﴾ أي: لهم مثلها، كما قال: «وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا»[الأنعام: ١٦٠] ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ﴾ و«مِنۡ» صلة، أي: ما لهم من الله عاصم ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ﴾ أُلبست ﴿وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا﴾ جمع قطعة ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾ نصبت على الحال دون النعت، ولذلك لم يقل: مظلمة، تقديره: قِطَعًا من الليل في حال ظلمته، أو قطعًا من الليل المظلم، وقرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب: «قِطْعًا» ساكنة الطاء، أي: بعضًا، كقوله: «بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ»[هود: ٨١] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ﴾ (أي: الزمُوا مكانكم)(٣) ﴿أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ﴾ يعني: الأوثان، معناه: ثم نقول للذين أشركوا: الزمُوا أنتم وشركاؤكم مكانكم، ولا تبرحوا ﴿فَزَيَّلۡنَا﴾ ميّزنا وفرّقنا ﴿بَيۡنَهُمۡۖ﴾ أي: بين المشركين وشركائهم، وقَطَعْنَا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا، وذلك حين يتبرأ كلُّ معبودٍ من دون الله ممن عبده ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ يعني: الأصنام ﴿مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ بطلبتنا، فيقولون: بلى، كنا نعبدكم، فتقول الأصنام:

---

(١) أخرجه الطبري عن ابن عباس: (١٥/ ٧٠).

(٢) الطبري: (١٥/ ٧١)، وقال رحمه الله: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تبارك وتعالى وَعَدَ المحسنين من عباده على إحسانهم الحسنى، أن يجزيهم على طاعتهم إيَّاه الجنة، وأن تبيضَّ وجوههم، ووعدهم مع الحسنى الزيادةَ عليها، ومن الزيادة على إدخالهم الجنة: أن يكرمهم بالنظر إليه، وأن يعطيهم غُرَفًا من لآلىء، وأن يزيدهم غفرانًا ورضوانًا، كل ذلك من زيادات عطاء الله إياهم على الحسنى التي جعلها الله لأهل جناته، وعمَّ ربُّنا جل ثناؤه بقوله: ﴿وزيادة﴾ الزيادات على ﴿الحسنى﴾ فلم يخصص منها شيئًا دون شيء، وغيْر مُستَنكَرٍ من فضل الله أن يجمع ذلك لهم، بل ذلك كله مجموع لهم إن شاء الله، فأَوْلَى الأقوال في ذلك بالصواب: أن يُعَمَّ، كما عمَّه عزَّ ذكره».

(٣) ساقط من «أ».

فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ
نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ
مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ
وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ
رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ
عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: ما كنا عن عبادتكم إيَّانا إلا غافلين، ما كنَّا نسمع ولا نبصر ولا نعقل.

قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ﴾ أي: تُختبر، وقيل: معناه: تعلم وتقف عليه، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب: «تتلو» بتاءين، أي: تقرأ ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ صحيفتها، وقيل: معناه: تتبع كل نفس ﴿مَّآ أَسْلَفَتْۚ﴾ ما قدَّمَتْ من خير أو شر، وقيل: معناه: تعاين ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى حكمه فيتفرد فيهم بالحكم ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۖ﴾ الذي يتولى ويملك أمورهم، فإن قيل: أليس قد قال: «وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ»[محمد: ١١]؟ قيل: المولى هناك بمعنى: الناصر، وهاهنا بمعنى: المالك ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ زال عنهم وبطل ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ في الدنيا من التكذيب.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: من السماء بالمطر، ومن الأرض بالنبات ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أي: من إعطائكم السمع والأبصار ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ يخرج الحي من النطفة والنطفة من الحي ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ﴾ أي: يقضي الأمر ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ هو الذي يفعل هذه الأشياء ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ أفلا تخافون عقابه في شرككم؟ وقيل: أفلا تتقون الشرك مع هذا الإقرار؟

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ الذي يفعل هذه الأشياء هو ربكم ﴿ٱلْحَقُّۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: فأين تصرفون عن عبادته وأنتم مقرون به؟

﴿كَذَٰلِكَ﴾ قال الكلبي: هكذا ﴿حَقَّتْ﴾ وجبتْ ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ حكمه السابق ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ كفروا ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر: «كلماتُ ربِّك» بالجمع هاهنا موضعين، وفي المؤمن، والآخرون على التوحيد.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ أوثانكم ﴿مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ ينشىء الخلق من غير أصل ولا مثال ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ ثم يحييه من بعد الموت كهيئته؟ فإن أجابوك وإلا فـ ﴿قُلِ﴾ أنتَ: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: تصرفون عن قصد السبيل.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ﴾ يرشد ﴿إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ فإذا قالوا: لا ـ ولابدَّ لهم من ذلك ـ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ أي: إلى الحق.

﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾ قرأ حمزة والكسائي: «يَهْدِي» ساكنة الهاء، خفيفة الدال، وقرأ الآخرون بتشديد الدال، ثم قرأ أبو جعفر وقالون بسكون الهاء، وأبو عمرو بِرَوْمِ الهاء بين الفتح والسكون، وقرأ حفص بفتح الياء وكسر الهاء، وأبو بكر بكسرهما، والباقون بفتحها، ومعناه: يهتدي ـ في جميعها ـ، فمن خفَّف الدال قال: يقال: هديته فهدى، أي: اهتدى، ومن شدَّد الدالَ أدغم التاء في الدال، ثم أبو عمرو يروم على مذهبه في إيثار التخفيف، ومن سكَّن الهاء تركها على حالتها كما فعل في «تعدوا» و«يخصمون»، ومن فتح الهاء نقل فتحة التاء المدغمة إلى الهاء، ومن كسر الهاء فلالتقاء الساكنين، وقال: الجزم يُحرِّكُ إلى الكسر، ومن كسر الياء مع الهاء أتبع الكسرةَ الكسرةَ.

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ معنى الآية: الله الذي يهدي إلى الحق أحقُّ بالاتباع أم الصنم الذي لا يهتدي إلا أن يُهْدَى؟ فإن قيل: كيف قال: «إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ»، والصنم لا يتصور أن يهتدي ولا أن يُهْدَى؟!

قيل: معنى الهداية في حق الأصنام: الانتقال، أي: أنها لا تنتقل من مكان إلى مكان إلا أن تُحمل وتُنقل، يَتَبيَّنُ به عجز الأصنام.

وجواب آخر هو: أن ذِكْرَ الهداية على وجه المجاز، وذلك أن المشركين لمَّا اتخذوا الأصنام آلهةً وأنزلوها منزلة مَن يسمع ويعقل عبَّر عنها بما يُعبِّر عمن يعلم ويعقل، ووُصِفَتْ بصفة من يعقل.

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ كيف تقضون حين زعمتم أن لله شريكًا؟

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ منهم يقولون: إن الأصنام آلهة، وإنها تشفع لهم في الآخرة ظنًّا منهم، لم يَرِدْ بِهِ كتابٌ ولا رسولٌ، وأراد بالأكثر: جميع من يقول ذلك ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ أي:

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾

لا يدفع عنهم من عذاب الله شيئًا، وقيل: لا يقوم مقام العلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال الفرّاء: معناه: وما ينبغي لمثل هذا القرآن أنْ يُفترى من دون الله، كقوله تعالى: «وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ»[آل عمران: ١٦١].

وقيل: «أنْ» بمعنى اللام، أي: وما كان هذا القرآنُ لِيُفتَرى من دُونِ الله.

قوله: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: بين يدي القرآن من التوراة والإنجيل، وقيل: تصديق الذي بين يدي القرآن من القيامة والبعث ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تبيين ما في الكتاب من الحلال والحرام والفرائض والأحكام ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ قال أبو عبيدة: «أم» بمعنى الواو، أي: ويقولون: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ اختلق محمد القرآن من قِبَلِ نفسه ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ شبه القرآن ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ ممن تعبدون ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لِيُعِينُوكم على ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ أن محمدًا افتراه، ثم قال:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ يعني: القرآن، كذبوا به ولم يحيطوا بعلمه ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي: عاقبة ما وعد اللهُ في القرآن، أنه يؤول إليه أمرهم من العقوبة، يريد: أنهم لم يعلموا ما يؤول إليه عاقبة أمرهم ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: كما كذب هؤلاء الكفار بالقرآن كذلك كذَّب الذين من قبلهم من كفار الأمم الخالية ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ آخر أمر المشركين بالهلاك.

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي: من قومك من يؤمن بالقرآن ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ لعلم الله السابق فيهم ﴿وَرَبُّكَ/ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾ الذين لا يؤمنون. ١/١٧٠

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ يا محمد ﴿فَقُل لِّى عَمَلِى﴾ وجزاؤه ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ وجزاؤه ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ هذا كقوله تعالى: «لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ»[القصص: ٥٥]، «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ»[الكافرون: ٦].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦)﴾

قال الكلبي ومقاتل: هذه الآية منسوخة بآية الجهاد[١].

ثم أخبر أن التوفيق للإيمان به لا بغيره فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ بأسماعِهم الظاهرة، فلا ينفعهم ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ يريد: سَمعَ القلبِ ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٢)﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ بأبصارهم الظاهرة ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ يريد: عمى القلب ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣)﴾ وهذا تسلية من الله عزَّ وجلَّ لنبيه ﷺ، يقول: إنك لا تقدر أن تُسْمِعَ من سلبتُه السمعَ، ولا أن تهديَ من سلبتُه البصرَ، ولا أن تُوفق للإيمان من حكمتُ عليه أن لا يُؤمن.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ لأنه في جميع أفعاله مُتفضِّل عادل ﴿وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤)﴾ بالكفر والمعصية.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ قرأ حفص بالياء، والآخرون بالنون ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ قال الضحاك: كأن لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من النهار، وقال ابن عباس: كأن لم يلبثوا في قبورهم إلاَّ قدر ساعة من النهار ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعرف بعضُهم بعضًا حين بعثوا من القبور كمعرفتهم في الدنيا، ثم تنقطع المعرفة إذا عاينوا أهوال القيامة، وفي بعض الآثار: أن الإنسان يعرف يوم القيامة مَنْ بجنبه ولا يُكلمه هيبةً وخشيةً[٢] ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥)﴾ والمراد من الخسران: خسران النفس، ولا شيء أعظم منه.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمد ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ في حياتك مِنَ العذاب ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل تعذيبهم ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ في الآخرة ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦)﴾ فيجزيهم به، «ثم» بمعنى الواو، تقديره: والله شهيدٌ، قال مجاهد: فكان البعض الذي أراه قتلهم ببدر، وسائر أنواع العذاب بعد موتهم.

---

(١) ورواه الطبري أيضًا عن ابن زيد: (١٥/ ٩٥)، وانظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٣٦٤)، وانظر: فيما سبق: (١/ ٦٥٣)، تعليق (١).

(٢) عزاه السيوطي لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن الحسن. «الدر المنثور»: (٤/ ٣٦٥).

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا
إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ
آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ وكذبوه ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أي: عُذِّبوا في الدنيا وأُهلكوا بالعذاب، يعني: قبل مجيء الرسول، لا ثواب ولا عقاب، وقال مجاهد ومقاتل: فإذا جاء رسولهم الذي أرسل إليهم يوم القيامة قُضِيَ بينه وبينهم بالقسط ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ لا يعذبون بغير ذنب، ولا يُؤاخذون بغير حجة، ولا ينقص من حسناتهم، ولا يزاد على سيئاتهم.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: ويقول المشركون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ الذي تعدنا يا محمد من العذاب، وقيل: قيام الساعة ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ أنتَ يا محمدُ وأتباعُك.

﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي﴾ لا أقدر لها على شيء ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: دفع ضر ولا جلب نفع ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن أملكه ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مدة مضروبة ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ وقت فناء أعمارهم ﴿فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: لا يتأخرون ولا يتقدمون.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا﴾ ليلًا ﴿أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: ماذا يستعجل من الله المشركون، وقيل: ماذا يستعجل من العذاب المجرمون، وقد وقعوا فيه، وحقيقة المعنى: أنهم كانوا يستعجلون العذاب، فيقولون: «اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»[الأنفال: ٣٢]، فيقول الله تعالى: «مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ»، يعني: أيش[١] يعلم المجرمون ماذا يستعجلون ويطلبون!! كالرجل يقول لغيره وقد فعل قبيحًا: ماذا جنيت على نفسك!!

﴿أَثُمَّ﴾ قيل: معناه: أهنالك؟ وحينئذ، وليس بحرف عطف ﴿إِذَا مَا وَقَعَ﴾ نزل العذاب ﴿آمَنتُم بِهِ﴾ أي: بالله، في وقت اليأس، وقيل: «آمَنتُم بِهِ»، أي: صدقتم بالعذاب وقت نزوله ﴿آلْآنَ﴾ فيه إضمار، أي: يقال لكم: آلآن تؤمنون حين وقع العذاب؟ ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ تكذيبًا واستهزاءً.

---

(١) أيُّ شيءٍ؟

ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾
۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ
نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم
بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ
جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾
قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ أشركوا ﴿ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ في الدنيا.

﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ ﴾ أي: يستخبرونك يا محمد ﴿ أَحَقٌّ هُوَ ﴾ أي: ما تعدنا من العذاب وقيام الساعة ﴿ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ ﴾ أي: نعم وربي ﴿ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ لا شك فيه ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ أي: بفائتين من العذاب؛ لأن من عجز عن شيء فقد فاته.

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ﴾ أي: أشركت ﴿ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾ يوم القيامة، والافتداء هاهنا: بذل ما ينجو به من العذاب ﴿ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ ﴾ قال أبو عبيدة: معناه: أظهروا الندامة؛ لأنه ليس ذلك اليوم يوم تصبُّرٍ وتصنُّعٍ، وقيل: معناه: أخفوا، أي: أخفىٰ الرؤساء الندامةَ من الضعفاءِ، خوفًا من ملامتهم وتعييرهم ﴿ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾ فرغ من عذابهم ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ ﴾ تذكرة ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ أي: دواء للجهل، لما في الصدور، أي: شفاء لعَمَىٰ القلوب، والصدر: موضع القلب، وهو أعز موضع في الإنسان لجوار القلب ﴿ وَهُدًى ﴾ من الضلالة ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ والرحمة: هي النعمة على المحتاج، فإنه لو أهدى ملك إلى ملك شيئًا لا يقال: قد رحمه، وإن كان ذلك نعمة؛ لأنه لم يضعها في محتاج.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ ﴾ قال مجاهد وقتادة: فضل الله: الإيمان، ورحمته: القرآن[1]،

(١) انظر: الطبري: (١٥/ ١٠٧).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦٠ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦١﴾

وقال أبو سعيد الخدري: «فضل الله»: القرآن، و«رحمته»: أن جعلنا من أهله[1]، وقال ابن عمر: «فضل الله»: الإسلام، و«رحمته»: تزيينه في القلب، وقال خالد بن معدان: «فضل الله»: الإسلام، و«رحمته»: السُّنَن.

وقيل: «فضل الله»: الإيمان، و«رحمته»: الجنة.

﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ أي: ليفرح المؤمنون أن جعلهم الله من أهله ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ أي: مما يجمعه الكفار من الأموال، وقيل: كلاهما خبر عن الكفار.

وقرأ أبو جعفر وابن عامر: «فليفرحوا» بالياء، و«تجمعون» بالتاء، وقرأ يعقوب كلاهما بالتاء مختلف عنه، خطابًا للمؤمنين.

﴿قُلْ﴾ يا محمد، لكفار مكة: ﴿أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ عبَّر عن الخَلْقِ بالإنزال؛ لأن ما في الأرض من خير فمما أُنزل من السماء من رزق، من زرع وضرع ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ هو ما حرموا من الحرث ومن الأنعام: كالبحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، قال الضحاك: هو قوله تعالى:
١٧٠/ب «وَجَعَلُوا۟/ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا»[الأنعام: ١٣٦] ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في هذا التحريم والتحليل ﴿أَمْ﴾ بل ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩﴾ وهو قولهم: «وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا»[الأعراف: ٢٨].

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أيحسبون أنَّ الله لا يؤاخذهم به ولا يعاقبهم عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦٠﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا تَكُونُ﴾ يا محمد ﴿فِى شَأْنٍ﴾ عمل من الأعمال، وجمعه: شُؤون ﴿وَمَا تَتْلُوا۟﴾ من الله ﴿مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ نازلٍ، وقيل: منه، أي: من الشأن من قرآن نزل فيه، ثم خاطبه وأُمَّته فقال: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تدخلون وتخوضون فيه، الهاء عائدة إلى

(١) الطبري: (١٠٦/١٥)، وانظر: «الدر المنثور»: (٣٦٧/٤-٣٦٨)، وفيهما سائر الأقوال.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

العمل، والإفاضة: الدخول في العمل، وقال ابن الأنباري: تندفعون فيه، وقيل: تُكْثِرون فيه، والإفاضة: الدفع بكثرة.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ يغيب عن ربك، وقرأ الكسائي «يَعْزِب» بكسر الزاي، وقرأ الآخرون بضمها، وهما لغتان ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ أي: مثقال ذرة، و«من» صلة، والذرة هي: النملة الحمراء الصغيرة ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: من الذرة ﴿وَلَآ أَكْبَرَ﴾ قرأ حمزة ويعقوب برفع الراء فيهما، عطفًا على موضع المثقال قبل دخول «من»، وقرأ الآخرون بنصبهما، إرادة للكسرة، عطفًا على الذرة في الكسر ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ وهو اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ واختلفوا فيمن يستحق هذا الاسم، قال بعضهم: هم الذين ذكرهم الله تعالى فقال:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ وقال قوم: هم المتحابُّون في الله عزَّ وجلَّ.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد بن بشران، أخبرنا إسماعيل بن محمد الصفَّار، حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن ابن[1] أبي حسين، عن شهر بن حوشب، عن أبي مالك الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت عند النبي ﷺ فقال: «إنَّ لله عبادًا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيُّون والشهداء؛ لقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة»، قال: وفي ناحية القوم أعرابي فجثا على ركبتيه ورمى بيديه ثم قال: حدِّثْنا يا رسول الله عنهم من هم؟ قال: فرأيتُ في وجه النبي ﷺ البِشْرَ، فقال: «هُمْ عبادٌ مِنْ عبادِ الله، من بلدانٍ شتَّى وقبائل، لم يكن بينهم أرحام يتواصلون بها، ولا دنيا يتباذلون بها، يتحابون بروح الله، يجعل الله وجوههم نورًا، ويجعل لهم منابر من لؤلؤ قدام الرحمن، يفزع الناس ولا يفزعون، ويخاف الناس ولا يخافون»[2].

---

(١) من «شرح السنة» و«مصنف عبد الرزاق» و«مسند الإمام أحمد».

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف»: (١١/ ٢٠١ـ٢٠٢)، والطبري: (١٥/ ١٢٢)، والإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ٣٤١، ٣٤٣)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٥٠)، وذكره في «المصابيح»: (٣/ ٣٧٩)، وله شاهد من حديث ابن عمر أخرجه الحاكم وصححه: (٤/ ١٧٠ ـ ١٧١) وأقره الذهبي، ومن حديث أبي هريرة عند ابن حبان برقم٢٥٠٨: ص٦٢١ من «موارد الظمآن»، ومن حديث عمر ـ رضي الله عنه ـ أخرجه أبو داود وإسحاق بن راهويه وهناد: (١/ ٥٦٤)، وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم، والبيهقي في «الشعب». انظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٣٧٢)، «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ١٣٠ ـ ١٣١)، «الكافي الشاف»: ص٨٤، «مجمع الزوائد»: (١٠/ ٢٧٦ـ٢٧٩)، «الزهد» للإمام هناد بن السري: (١/ ٥٦٤ـ٥٦٥) مع تعليق المحقق، والحديث إسناده صحيح بشواهده.

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

ورواه عبد الله بن المبارك، عن عبد الحميد بن بهرام قال: حدثنا شهر بن حوشب، حدثني عبد الرحمن بن غنم، عن أبي مالك الأشعري، عن النبي ﷺ سئل: مَنْ أولياءُ الله؟ فقال: «الذين إذا رُؤوا ذُكِرَ الله»[1].

ويُرْوَى عن النبي ﷺ: قال الله تعالى: «إن أوليائي من عبادي الذين يُذكَرُون بذكري، وأُذْكَرُ بذكرِهم»[2].

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ اختلفوا في هذه البشرى: رُوي عن عبادة بن الصامت قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن قوله تعالى: «لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا»، قال: «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له»[3].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري، حدثني سعيد بن المسيب أن أبا هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لمْ يَبْقَ من النبوةِ إلاَّ المُبَشِّرات»، قالوا: وما المبشراتُ؟ قال: «الرؤيا الصالحةُ»[4].

وقيل: البشرى في الدنيا: هي الثناء الحسن، وفي الآخرة: الجنة.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا عبد الرزاق بن أبي شريح، أخبرنا أبو القاسم البغوي، حدثنا علي بن الجعد، أخبرنا شعبة، عن أبي عمران الجوني قال: سمعتُ عبد الله بن الصامت قال: قال أبو ذر: يا رسول الله، الرجل يعمل لنفسه ويحبه الناس؟ قال: «تلكَ عاجِلُ بُشْرَى المؤمن»[5]، وأخرج مسلم بن الحجاج هذا الحديث عن يحيى بن يحيى عن حماد بن زيد عن أبي عمران، وقال: «ويحمده الناس عليه»[6].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد»: ص٢٤٨ـ٢٤٩، والنسائي في «التفسير»: (١/ ٥٧١)، وأبو نعيم في «الحلية»: (١/ ٦) وله شواهد كثيرة. وانظر: «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ١٢٨ـ١٢٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٣/ ٤٣٠)، قال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٥٨): (رواه أحمد، وفيه رشدين بن سعد، وهو ضعيف)، وذكره أيضًا: (١/ ٨٩) من رواية الطبراني في «الكبير»، وقال: (فيه رشدين، وهو ضعيف).
وانظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٣٧١).

(٣) أخرجه الترمذي في الرؤيا، باب ذهبت النبوة وبقيت المبشرات: (٦/ ٥٥٤)، وابن ماجه في الرؤيا برقم٣٨٩٨: (٢/ ١٢٨٣)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي: (٢/ ٣٤٠)، (٤/ ٣٩١)، والدارمي في الرؤيا: (٢/ ١٢٣)، والإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ٣١٥، ٣٢١)، والطيالسي: ص٧٩. وقال ابن حجر في «فتح الباري»: (ورواته ثقات إلا أن أبا سلمة لم يسمعه من عبادة). وانظر: «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ١٣٢ـ١٣٥)، «الكافي الشاف»: ص٨٤.

(٤) أخرجه البخاري في التعبير، باب المبشرات: (١٢/ ٣٧٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٢/ ٢٠٢).

(٥) «شرح السنة» للبغوي: (١٤/ ٣٢٧).

(٦) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب إذا أثنى على الصالح فهي بشرى لا تضرّه برقم٢٦٤٢: (٤/ ٢٠٣٤ـ٢٠٣٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٣٢٨).

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

وقال الزهري وقتادة: هي نزول الملائكة بالبشارة من الله تعالى عند الموت، قال الله تعالى: «تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ»[فصلت: ٣٠].

وقال عطاء عن ابن عباس: البشرى في الدنيا، يريد: عند الموت تأتيهم الملائكة بالبشارة، وفي الآخرة عند خروج نفس المؤمن، يُعْرَجُ بها إلى الله، ويُبشَّر برضوان الله.

وقال الحسن: هي ما بَشَّرَ الله المؤمنين في كتابه من جنته وكريم ثوابه، كقوله: «وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»[البقرة: ٢٥]، «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ»[الأحزاب: ٤٧]، «وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ»[فصلت: ٣٠].

وقيل: بشَّرَهم في الدنيا بالكتاب والرسول أنهم أولياء الله، ويبشرهم في القبور وفي كتب أعمالهم بالجنة[١].

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ لا تغيير لقوله، ولا خُلْفَ لوعده ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ يعني: قول المشركين تمَّ الكلام هاهنا ثم ابتدأ، فقال: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ يعني: الغلبة والقدرة لله ﴿جَمِيعًا﴾ هو ناصرك، وناصر دينك، والمنتقم منهم.

قال سعيد بن المسيب: إنَّ العِزَّةَ للهِ جميعًا، يعني: إن الله يعزّ من يشاء، كما قال في آية أخرى: «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ»[المنافقون: ٨]، وعزة الرسول والمؤمنين بالله فهي كلها لله ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ هو استفهام معناه: وأيّ شيءٍ يتّبع الذين يدعون من دون الله شركاء؟

وقيل: وما يتبعون حقيقة؛ لأنهم يعبدونها على ظن أنهم شركاء فيشفعون لنا، وليس على ما يظنون ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ يظنون أنها تُقرِّبهم إلى الله تعالى ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ يكذبون.

---

(١) ساق الإمام الطبري رحمه الله الأقوال في تفسير «البشرى» التي بشَّر الله بها هؤلاء القوم، ثم قال: (وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب، أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أن لأوليائه المتقين البشرى في الحياة الدنيا، ومن البشارة في الحياة الدنيا: الرؤيا الصالحة، يراها المسلم أو ترى له، ومنها بشرى الملائكة إياه عند خروج نفسه برحمة الله، كما رُوي عن النبي ﷺ . . . ، ومنها بشرى الله إياه ما وعده في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ من الثواب الجزيل . . . وكل هذه المعاني من بشرى الله إياه في الحياة الدنيا بشَّره بها، ولم يخصص الله من ذلك معنًى دون معنًى، فذلك مما عمَّه جل ثناؤه: أن لهم البشرى في الحياة الدنيا، وأما في الآخرة فالجنة). انظر: «تفسير الطبري»: (١٥/ ١٤٠ـ ١٤١).

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ
لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾
قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا
مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ
نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَٰتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ
تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ
وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ مضيئًا يبصر فيه، كقولهم: ليل نائم وعيشة راضية، قال قُطرب: تقول العرب: أظلم الليل وأضاء النهار وأبصر، أي: صار ذا ظلمة وضياء وبصر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ سمعَ الاعتبار أنه مما لا يقدر عليه إلا عالم قادر.

﴿قَالُوا﴾ يعني: المشركين: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ وهو قولهم: الملائكة بنات الله ﴿سُبْحَٰنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن خلقه ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ عبيدًا وملكًا ﴿إِنْ عِندَكُم﴾ ما عندكم ﴿مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ حجة وبرهان، و«من» صلة ﴿بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى/ اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ لا ينجون، وقيل: لا يبقون في الدنيا، ولكن: ١/١٧١

﴿مَتَٰعٌ﴾ قليل يتمتعون به وبلاغ ينتفعون به إلى انقضاء آجالهم، و«متاع» رفع بإضمار، أي: هو متاع ﴿فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي: اقرأ يا محمد على أهل مكة خبر نوح ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ وهم ولد قابيل ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم﴾ عظُمَ وثقُلَ عليكم ﴿مَّقَامِي﴾ طول مكثي فيكم ﴿وَتَذْكِيرِي﴾ ووَعْظي إيّاكم ﴿بِآيَٰتِ اللَّهِ﴾ بحججه وبيناته، فعزمتم على قتلي وطردي ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ أي: أحكموا أمرَكم واعزِمُوا عليه ﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ أي: وادعوا شركاءَكم، أي: آلهتكم، فاستعينوا بها لتجتمع معكم.

وقال الزجاج: معناه: فأجمعوا أمركم مع شركائكم، فلما ترك «مع» انتصب، وقرأ يعقوب «وشركاؤكم» رفعٌ، أي: فأجمعوا أمركم أنتم وشركاؤكم.

فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: خفيًا مبهمًا، من قولهم: غمَّ الهلال على الناس، أي: أشكل عليهم ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ أي: أمضوا ما في أنفسكم وافرغوا منه، يقال: قضى فلان إذا مات، ومضى وقضى دينه إذا فرغ منه.

وقيل: معناه: توجهوا إليَّ بالقتل والمكروه، وقيل: فاقضوا ما أنتم قاضون، وهذا مثل قول السحرة لفرعون: «فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ»[طه: ٧٢]، أي: اعمل ما أنت عامل.

﴿وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ ولا تؤخرون، وهذا على طريق التعجيز، أخبر الله عن نوح أنه كان واثقًا بنصر الله تعالى غير خائف من كيد قومه، علمًا منه بأنهم وآلهتهم ليس إليهم نفع ولا ضر إلا أن يشاء الله.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عن قولي وقَبُولِ نصحي ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم﴾ على تبليغ الرسالة والدعوة ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾ جُعْلٍ وعِوَض ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ ما أجري وثوابي ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ أي: من المؤمنين، وقيل: من المستسلمين لأمر الله.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يعني: نوحًا ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ أي: جعلنا الذين معه في الفلك سكان الأرض خلفاء عن الهالكين ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: آخر أمر الذين أنذرتهم الرسل فلم يؤمنوا.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا﴾ أي: من بعد نوح رسلًا ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالدلالات الواضحات ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: بما كذب به قوم نوح من قبل ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾ أي: نختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ يعني: أشراف قومه ﴿بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا
جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا
وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ
سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟
قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾
وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن
قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ
لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ﴾ يعني: جاء فرعون وقومه ﴿ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ تقدير الكلام: أتقولون للحقّ لما جاءكم: سحر، أسحر هذا؟! فحذف السحر الأول اكتفاءً بدلالة الكلام عليه ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟﴾ يعني: فرعون وقومه لموسى ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ لتصرفنا، وقال قتادة: لتلوينا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ الملك والسلطان ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر، وقرأ أبو بكر «ويكون» بالياء ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ بمصدِّقين.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ قرأ أبو عمرو وأبو جعفر «آلسحر» بالمدّ على الاستفهام، وقرأ الآخرون بلا مدٍّ، يدل عليه قراءة ابن مسعود «ما جئتم به سحرٌ» بغير الألف واللام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بآياته ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ لم يصدِّق موسى مع ما أتاهم به من الآيات ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ اختلفوا في الهاء التي في «قومه»، قيل: هي راجعة إلى موسى، وأراد بهم: مؤمني بني إسرائيل الذين كانوا بمصر وخرجوا معه، قال مجاهد: كانوا أولاد الذين أرسل إليهم موسى من بني إسرائيل، هلك الآباء وبقي الأبناء.

وقال الآخرون: الهاء راجعة إلى فرعون، روى عطية عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: هم

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾

ناسٌ يسيرٌ من قوم فرعون آمنوا، منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه، وماشطته، وعن ابن عباس رواية أخرى: أنهم كانوا سبعين ألف بيت من القبط من آل فرعون، وأمهاتهم من بني إسرائيل فجعل الرجل يتبع أمه وأخواله.

وقيل: هم قوم نجوا من قتل فرعون، وذلك أن فرعون لما أمر بقتل أبناء بني إسرائيل كانت المرأة من بني إسرائيل إذا ولدت ابنًا وهبته لقبطية خوفًا من القتل، فنشؤوا عند القبط، وأسلموا في اليوم الذي غُلِبَت السحرة.

قال الفرَّاء: سُمّوا ذرية؛ لأن آباءهم كانوا من القبط وأمهاتهم من بني إسرائيل، كما يقال لأولاد أهل فارس الذين سقطوا إلى اليمن: الأبناء؛ لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم.

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ قيل: أراد بفرعون: آل فرعون، أي: على خوف من آل فرعون وملئهم، كما قال: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[يوسف: ٨٢]، أي: أهل القرية، وقيل: إنما قال: «وملئهم» وفرعون واحد؛ لأن الملك إذا ذكر يفهم منه هو وأصحابه، كما يُقال: قدم الخليفة، يُراد: هو ومن معه، وقيل: أراد ملأ الذرية، فإن ملأهم كانوا من قوم فرعون ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ أي: يصرفهم عن دينهم، ولم يقل: يفتنوهم؛ لأنه أخبر عن فرعون، وكان قومه على مثل ما كان عليه فرعون ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ﴾ لمتكبر ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ المجاوزين الحدّ؛ لأنه كان عبدًا فادّعى الربوبية.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لمؤمني قومه ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ اعتمدنا، ثم دعوا فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾ أي: لا تُظهِرْهم علينا، ولا تُهلكنا بأيديهم، فيظنوا أنا لم نكن على الحق فيزدادوا طغيانًا، وقال مجاهد: لا تعذبنا بعذابٍ من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على الحق لما عُذِّبوا ويظنوا أنهم خير منَّا فيُفتتنوا.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ هارون ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ يقال: تَبوَّأ فلان لنفسه

١٧١/ب بيتًا ومضجعًا إذا اتخذه، وبَوَّأته أنا إذا اتخذتُه له ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قال أكثر المفسرين: / كانت

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾

بنو إسرائيل لا يصلون إلا في كنائسهم وبِيَعِهم، وكانت ظاهرة، فلما أُرسل موسى أَمَرَ فرعونُ بتخريبها ومنعهم من الصلاة، فأُمروا أن يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلوا فيها خوفًا من فرعون، هذا قول إبراهيم وعكرمة عن ابن عباس.

وقال مجاهد: خاف موسى ومَن معه من فرعون أن يصلوا في الكنائس الجامعة، فأُمروا بأن يجعلوا في بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة، يصلون فيها سرًّا، معناه: واجعلوا بيوتكم إلى القبلة.

وروى ابن جريج عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كانت الكعبة قِبْلَةَ موسى ومَن معه.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ يا محمد.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ من متاع الدنيا ﴿وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ اختلفوا في هذه اللام، قيل: هي لامُ «كي»، معناه: آتيتهم كي تفتنهم فيَضلوا ويُضلوا، كقوله: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[الجن: ١٦-١٧].

وقيل: هي لام العاقبة، يعني: فيضلوا وتكون عاقبة أمرهم الضلال، كقوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[القصص: ٨].

قوله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ قال مجاهد: أَهْلِكها، والطمس: المَحْق، وقال أكثر أهل التفسير: امسخها وغيِّرها عن هيئتها، وقال قتادة: صارت أموالهم وحروثُهم وزروعُهم وجواهرُهم حجارةً.

وقال محمد بن كعب: جعل سكَّرهم حجارة[1]، وكان الرجل مع أهله في فراشه فصارَا حجرين، والمرأة قائمة تخبز فصارت حجرًا.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: بلغنا أن الدراهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحًا وأنصافًا وأثلاثًا.

ودعا عمر بن عبد العزيز بخريطة فيها أشياء من بقايا آل فرعون فأخرج منها البيضة مشقوقة والجوزة مشقوقة وإنها لحجر.

قال السدي: مسخ الله أموالهم حجارة، والنخيل والثمار والدقيق والأطعمة، فكانت إحدى الآيات التسع.

---

(١) انظر: الطبري: (١٥/ ١٧٩-١٨٢)، «الدر المنثور»: (٤/ ٣٨٤).

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾

﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: أقسِهَا واطبع عليها؛ حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ قيل: هو نصب بجواب الدعاء بالفاء، وقيل: هو عطف على قوله «ليضلوا»، أي: ليضلوا فلا يؤمنوا، وقال الفراء: هو دعاء محله جزم، فكأنه قال: اللهم فلا يؤمنوا ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ وهو الغرق، قال السدي: معناه: أمِتْهُم على الكفر.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى لموسى وهارون: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ إنما نسب إليهما، والدعاء كان من موسى؛ لأنه رُوي أن موسى كان يدعو وهارون يؤمِّن، والتأمين دعاء، وفي بعض القصص: كان بين دعاء موسى وإجابته أربعون سنة[1] ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ على الرسالة والدعوة، وامضيا لأمري إلى أن يأتيهم العذاب ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ﴾ نهي بالنون الثقيلة، ومحله جزم، يقال في الواحد: لا تتبعنَّ، بفتح النون لالتقاء الساكنين، ويكسر النون في التثنية لهذه العلة، وقرأ ابن عامر بتخفيف النون؛ لأن نون التوكيد تثقَّل وتخفف ﴿سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ يعني: ولا تسلكا طريق الذين يجهلون حقيقة وَعْدي، فإن وعدي لا خُلْفَ فيه، ووعيدي نازل بفرعونَ وقومِه.

﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْبَحْرَ﴾ عبرنا بهم ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ لحقهم وأدركهم ﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ يقال: «أتبعه وتَبِعه» إذا أدركه ولحقه، و«اتَّبعه» بالتشديد إذا سار خلفه واقتدى به، وقيل: هما واحد ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ أي: ظلمًا واعتداءً، وقيل: بغيًا في القول وعدوًا في الفعل، وكان البحر قد انفلق لموسى وقومه، فلما وصل فرعون بجنوده إلى البحر هابوا دخوله فتقدمهم جبريل على فرس وَدِيْقٍ[2] وخاض البحر، فاقتحمت الخيول خلفه، فلما دخل آخرهم وهمَّ أولهم أن يخرج انطبق عليهم الماء، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ أي: غمره الماء وقرب هلاكه ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ﴾ قرأ حمزة والكسائي «إنه» بكسر الألف، أي: آمنت وقلت إنه، وقرأ الآخرون «أنه» بالفتح على وقوع آمنت عليها ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ فدسَّ جبريلُ عليه السلام في فِيْهِ مِنْ حمأة البحر.

---

(١) انظر: الطبري: (١٥/ ١٨٧).

(٢) يقال: أتانٌ وفَرَسٌ وَدُوقٌ ووَدِيْقٌ، وودقَتْ وَدَاقًا: أرادت الفحل.

﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾

وقال: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ ورُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن النبي ﷺ قال: «لما أغرق الله فرعون قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، فقال جبريل عليه السلام: يا محمد، فلو رأيتني وأنا آخذ من حال[1] البحر فأدسّه في فيه مخافةَ أن تدركه[2] الرحمة»[3]، فلما أخبر موسى قومه بهلاك فرعون وقومه قالت بنو إسرائيل: ما مات فرعون، فأمر الله البحر فألقى فرعون على الساحل أحمر قصيرًا كأنّه ثور، فرآه بنو إسرائيل، فمن ذلك الوقت لا يقبل الماءُ مَيّتًا، فذلك قوله:

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ أي: نُلقيك على نجوة من الأرض، وهي: المكان المرتفع، وقرأ يعقوب «نُنْجِيك» بالتخفيف ﴿بِبَدَنِكَ﴾ بجسدك لا روح فيه، وقيل: ببدنك: بدرعك، وكان له درع مشهور مرصّع بالجواهر، فرأوه في درعه فصدَّقوا ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ عِبرةً وعظةً ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

---

(١) في «ب»: (حا).

(٢) في «أ»: (يدركه جانب الرحمة).

(٣) أخرجه الترمذي في تفسير سورة يونس: (٨/ ٢٢٥)، وقال: هذا حديث حسن، والنسائي في «التفسير»: (١/ ٥٧٨)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي: (١/ ٥٧)، (٤/ ٢٤٩)، وابن حبان: ص٤٣٢، والطبري: (١٤/ ١٩٠ ـ ١٩٢)، والطيالسي: ص٣٤١، والإمام أحمد في «المسند»: (١/ ٣٤٠)، وزاد الزيلعي نسبته لإسحاق والبزار وعبد بن حميد والطبراني. انظر: «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ١٣٨ ـ ١٣٩)، «الكافي الشاف»: ص٨٥.

وقد زعم الزمخشري في «الكشاف» أن ما جاء في الحديث من قول جبريل عليه السلام: «خشية أن تدركه الرحمة»: (من زيادات الباهتين لله وملائكته، وفيه جهالتان، أحداهما: أن الإيمان يصح بالقلب، كإيمان الأخرس، فحالُ البحر لا يمنعه. والأخرى: أن من كره إيمان الكافر وأحبَّ بقاءه على الكفر فهو كافر؛ لأن الرضى بالكفر كفر). «الكشاف»: (٢/ ٢٠٢).

وردَّ عليه الحافظ ابن حجر فقال: (وهذا إفراط منه في الجهل بالمنقول والغضّ من أهله، فإن الحديث صحيح الزيادات، وقد أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي وابن حبان والحاكم وإسحاق والبزار وأبو داود الطيالسي، كلهم من رواية شعبة . . . ثم ساق الروايات بأسانيدها ـ ثم قال:

وأما الوجهان اللذان ذكرهما الزمخشري، فللحديث توجيه وجيه، لا يلزم منه ما ذكره الزمخشري، وذلك أن فرعون كان كافرًا كفر عناد . . . ألا ترى إلى قصته حيث توقف النيل، وكيف توجه متفردًا وأظهر أنه مخلص، فأجرى له النيل، ثم تمادى على طغيانه وكفره، فخشي جبريل أن يعاود تلك العادة فيظهر الإخلاص بلسانه فتدركه رحمة الله فيؤخره في الدنيا، فيستمر في غيِّه وطغيانه فدسَّ في فمه الطين، ليمنعه التكلم بما يقتضي ذلك، هذا وجه الحديث، ولا يلزم منه جهل ولا رضًى بكفر، بل الجهل كل الجهل ممن اعترض على المنقول الصحيح برأيه الفاسد.

وأيضًا: فإن إيمانه في تلك الحالة ـ على تقدير أنه كان صادقًا ـ بقلبه لا يقبل؛ لأنه وقع في حال الاضطرار، ولذلك عقب في الآية بقوله: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ وفيه إشارة في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾.

انظر: «الكافي الشاف»: ص٨٥ ـ ٨٦.

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (أنزلنا بني إسرائيل)(١) بعد هلاك فرعون ﴿ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ منزل صدق، يعني: مصر، وقيل: الأردن وفلسطين، وهي الأرض المقدسة التي كتبَ اللهُ ميراثاً(٢) لإبراهيم وذريته، قال الضحاك: هي مصر والشام ﴿ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ الحلالات ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ يعني: اليهود الذين كانوا في عهد النبي ﷺ في تصديقه وأنه نبي ﴿ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ﴾ يعني: القرآن والبيان بأنّه رسولُ ﷺ(٢) صدق ودينُه حق.

وقيل: حتى جاءهم معلومهم، وهو محمد ﷺ؛ لأنهم كانوا يعلمونه قبل خروجه، فالعلم بمعنى المعلوم، كما يقال للمخلوق: خَلْقٌ، قال الله تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾[لقمان: ١١]، ويقال: هذا الدرهم ضَرْبُ الأمير، أي: مضروبُه.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ من الدين.

قوله تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ﴾ يعني: القرآن ﴿ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾ فيخبرونك أنه مكتوب عندهم في التوراة.

قيل: هذا خطاب للرسول ﷺ والمراد به غيره، على عادة العرب: فإنهم يخاطبون الرجل ويريدون به
١/١٧٢ غيره، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾[الأحزاب: ١]، / خاطب النبي ﷺ والمراد به المؤمنون، بدليل أنه قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[الأحزاب: ٢]، ولم يقل: «بما تعمل»، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾[الطلاق: ١].

وقيل: كان الناس على عهد النبي ﷺ بين مصدق ومكذب وشاك، فهذا الخطاب مع أهل الشك، معناه: إن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان رسولنا محمد، فاسأل الذين يقرؤون الكتابَ من قبلك.

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: يعني: من آمن من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأصحابه، فيشهدون على صدق محمد ﷺ ويخبرونك بنبوَّته.

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) زيادة من «ب».

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

قال الفرّاء: عَلِمَ الله سبحانه وتعالى أن رسوله غيرُ شاكٍّ، لكنه ذكره على عادة العرب، يقول الواحد منهم لعبده: إن كنت عبدي فأطعني، ويقول لولده: افعل كذا وكذا إن كنتَ ابني، ولا يكون ذلك على وجه الشك.

﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ من الشاكّين.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ وهذا كله خطاب مع النبي ﷺ والمراد منه غيره.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾ وجبتْ عليهم ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ قيل: لعنته، وقال قتادة: سخط الله، وقيل: «الكلمة» هي قوله: هؤلاء في النار ولا أبالي ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ دلالة ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ قال الأخفش: أنَّث فِعْلَ «كل»؛ لأنه مضاف إلى المؤنث وهي قوله: «آية»، ولفظ «كل» للمذكر والمؤنث سواء.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ﴾ أي: فهلا كانت ﴿قَرْيَةٌ﴾ ومعناه: فلم تكن قرية؛ لأن في الاستفهام ضربًا من الجحد، أي: أهل قرية ﴿ءَامَنَتْ﴾ عند معاينة العذاب ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ في (حالة البأس)[1] ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ فإنه نفعهم إيمانهم في ذلك الوقت، و«قومَ» نصبٌ على الاستثناء المنقطع، تقديره: ولكن قوم يونس ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ وهو وقت انقضاء آجالهم.

واختلفوا في أنهم هل رأوا العذاب عيانًا أم لا؟ فقال بعضهم: رأوا دليل العذاب، والأكثرون على أنهم رأوا العذاب عيانًا، بدليل قوله: «كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ»، والكشف يكون بعد الوقوع أو إذا قَرُب.

وقصة الآية ـ على ما ذكره عبد الله بن مسعود وسعيد بن جبير ووهب وغيرهم[2] ـ أن قوم يونس كانوا بنينوى، من أرض الموصل، فأرسل الله إليهم يونس يدعوهم إلى الإيمان، فدعاهم فأبوا، فقيل له:

(١) في «ب»: (في حال البأس).

(٢) انظر: «تفسير الطبري»: (١٥/٢٠٧ـ٢١٠)، «الدر المنثور»: (٤/٣٩٢ـ٣٩٣)، «البداية والنهاية» لابن كثير: (١/٢٣١، وما بعدها)، «تفسير ابن كثير»: (٢/٤٣٤).

أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث، فأخبرهم بذلك، فقالوا: إنا لم نجرب عليه كذبًا فانظرُوا فإن بات فيكم تلك الليلة فليس بشيء، وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبحكم، فلما كان في جوف تلك الليلة خرج يونس من بين أظهرهم، فلما أصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رؤوسهم قدر ميل.

وقال وهب: غامت السماء غيمًا أسود هائلًا يدخن دخانًا شديدًا، فهبط حتى (تغشّاهم في مدينتهم)[1] واسودت سطوحهم، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك، فطلبوا يونس نبيهم فلم يجدوه، وقذف الله في قلوبهم التوبة، فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم[2] ودوابهم، ولبسوا المسوح وأظهروا الإيمان والتوبة، وأخلصوا النية، وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والأنعام فحنَّ بعضُها إلى بعض، وعلتِ أصواتها، واختلطتْ أصواتُها بأصواتهم، وعجُّوا وتضرعوا إلى الله عزَّ وجلَّ، وقالوا: آمنَّا بما جاء به يونس، فرحمهم ربهم فاستجاب دعاءهم وكشف عنهم العذاب بعد ما أظلهم، وذلك يوم عاشوراء، وكان يونس قد خرج فأقام ينتظر العذاب وهلاك قومه فلم يرَ شيئًا، وكان مَنْ كذَّب ولم تكن له بينة قتل، فقال يونس: كيف أرجع إلى قومي وقد كذبتهم؟ فانطلق عاتبًا على ربِّه مغاضبًا لقومه، فأتى البحر فإذا قوم يركبون سفينة، فعرفوه فحملوه بغير أجر، فلما دخلها وتوسطت بهم ولججت، وقفت السفينة لا ترجع ولا تتقدم، قال أهل السفينة: إن لسفينتنا لشأنًا، قال يونس: قد عرفت شأنها ركبها رجل ذو خطيئة عظيمة، قالوا: ومن هو؟ قال: أنا، اقذفوني في البحر، قالوا: ما كنَّا لنطرحك من بيننا حتى نعذر في شأنك، واسْتَهَمُوا فاقترعُوا ثلاثَ مرات فأدحض سهمه، والحوت عند رِجْل السفينة فاغرًا فاه ينتظر أمر ربِّه فيه، فقال يونس: إنكم والله لتهلَكُنَّ جميعًا أو لَتَطْرَحُنَّني فيها، فقذفوه فيه وانطلقوا وأخذه الحوت.

ورُوي: أن الله تعالى أوحى إلى حوتٍ عظيم حتى قصد السفينة، فلما رآه أهل السفينة مثل الجبل العظيم وقد فغر فاه ينظر إلى مَنْ في السفينة كأنه يطلب شيئًا خافوا منه، ولما رآه يونس زجَّ نفسه في الماء.

وعن ابن عباس: أنه خرج مغاضبًا لقومه فأتى بحر الروم فإذا سفينة مشحونة، فركبها فلما لججت السفينة، تكفَّأت حتى كادوا أن يغرقوا، فقال الملَّاحون: هاهنا رجل عاصٍ أو عبد آبق، وهذا رسم السفينة إذا كان فيها آبق لا تجري، ومن رسمنا أن نقترع في مثل هذا فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه في البحر؛ ولأنْ يغرق واحد خير من أن تغرق السفينة بما فيها، فاقترعوا ثلاثَ مرات، فوقعت القرعة في كلها على يونس، فقال يونس: أنا الرجل العاصي والعبد الآبق، فألقى نفسه في الماء فابتلعه حوت، ثم جاء حوت آخر أكبر منه وابتلع هذا الحوت، وأوحى الله إلى الحوت لا تؤذِ منه شعرة، فإني جعلت بطنك سجنه ولم أجعله طعامًا لك.

---

(١) في «ب»: (غشي مدينتهم).

(٢) ليست في «أ».

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

ورُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نُودي الحوت: إنَّا لم نجعل يونس لك قوتًا، إنما جعلنا بطنك له حرزًا ومسجدًا.

ورُوي: أنه قام قبل القرعة فقال: أنا العبد العاصي والآبق، قالوا: من أنت؟ قال: أنا يونس بن متى، فعرفوه فقالوا: لا نلقيك يا رسول الله، ولكن نُساهِمْ فخرجتِ القرعةُ عليه، فألقى نفسه في الماء.

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: ابتلعه الحوت فأهوى به إلى قرار الأرض السابعة، وكان في بطنه أربعين ليلة فسمع تسبيح الحصى، فنادى في الظلمات: أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ مِنَ الظالمين، فأجاب الله له فأمر الحوت، فنبذه على ساحل البحر، وهو كالفرخ الممعط، فأنبت الله عليه شجرةً من يقطين، وهو الدباء، فجعل يستظل تحتها، ووكل به وعْلة يشرب من / لبنها، فيبست الشجرة، فبكى عليها، ١٧٢/ب
فأوحى الله إليه: تبكي على شجرة يبست، ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون وأردت أن أهلكهم، فخرج يونس فإذا هو بغلام يرعى، فقال: من أنت يا غلام؟ قال: من قوم يونس، قال: إذا رجعتَ إليهم فأخبرهم أني لقيت يونس، فقال الغلام: قد تعلم أنه إن لم تكن لي بينة قُتِلْتُ، قال يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ: تشهد لك هذه البقعة وهذه الشجرة، فقال له الغلام: فمُرْها، فقال يونس: إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له، قالتا: نعم، فرجع الغلام، فقال للملك: إني لقيت يونس فأمر الملك بقتله، فقال: إنَّ لي بينة، فأرسلوا معي، فأتى البقعة والشجرة، فقال: أنشدكما بالله هل أشهدكما يونس؟ قالتا: نعم، فرجع القوم مذعورين، وقالوا للملك: شهد له الشجرة والأرض، فأخذ الملك بيد الغلام وأجلسه في مجلسه، وقال: أنت أحق بهذا المكان مني، فأقام لهم أمرهم ذلك الغلامُ أربعين سنة.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ، وذلك أنه كان حريصًا على أن يؤمن جميع الناس، فأخبره الله جلَّ ذكره: أنه لا يؤمن إلاَّ مَن قد سبق له من الله السعادة، ولا يضل إلاَّ من سبق له الشقاوة.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ وما ينبغي لنفس، وقيل: ما كانت نفس ﴿أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ قال ابن عباس: بأمر الله، وقال عطاء: بمشيئة الله، وقيل: بعلم الله ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ قرأ أبو بكر: «ونجعل» بالنون، والباقون بالياء، أي: ويجعل الله الرجسَ، أي: العذاب وهو الرجز ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ عن الله أمره ونهيه.

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١
فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ
ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣
قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ
أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٤﴾

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ﴾ أي: قلْ للمشركين الذين يسألونك الآيات: انظروا ﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ من الآيات والدلائل والعبر، ففي السموات: الشمس والقمر والنجوم وغيرها، وفي الأرض: الجبال والبحار والأنهار والأشجار وغيرها ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾ الرسل ﴿عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ وهذا في قوم عَلِمَ الله أنهم لا يؤمنون.

﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ﴾ يعني: مشركي مكة ﴿إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾ مضوا ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ من مكذبي الأمم، قال قتادة: يعني: وقائع الله في قوم نوح وعاد وثمود، والعرب تسمي العذاب: أيامًا، والنعيم: أيامًا، كقوله: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ [إبراهيم: ٥]، وكل ما مضى عليك من خير وشر فهو أيام ﴿قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢﴾.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ قرأ يعقوب «نُنْجي» خفيف مختلف عنه ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ معهم عند نزول العذاب، معناه: نجينا، مستقبلٌ بمعنى الماضي ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما نجيناهم ﴿حَقًّا﴾ واجبًا ﴿عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ قرأ الكسائي وحفص ويعقوب «ننجي» بالتخفيف، والآخرون بالتشديد، ونَجَّا وأنجى بمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي﴾ الذي أدعوكم إليه.

فإن قيل: كيف قال: إن كنتم في شك، وهم كانوا يعتقدون بطلان ما جاء به؟

قيل: كان فيهم شاكُّون، فهم المراد بالآية، أو أنهم لما رأوا الآيات اضطربوا وشكوا في أمرهم وأمر النبي ﷺ.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأوثان ﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ﴾ يُميتكم ويقبض أرواحكم ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٤﴾.

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ
فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ
عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ
ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾
وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

قوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ قال ابن عباس: عملك، وقيل: استقم على الدين حنيفًا ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿وَلَا تَدْعُ﴾ ولا تعبد ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إن أطعته ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إن عصيته ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ فعبدت غيرَ الله ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ الضارين لأنفسهم، الواضعين للعبادة في غير موضعها.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أي: يصبك بشدة وبلاء ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ فلا دافع له ﴿إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ رخاء ونعمة وسَعة ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ فلا مانع لرزقه ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ بكل واحد من الضر والخير ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: القرآن والإسلام ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: على نفسه، ووبالُه عليه ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾ بكفيلٍ: أحفظ أعمالكم، قال ابن عباس: نسختها آية القتل[(١)].

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ بنصرك وقهر عدوك وإظهار دينه ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ فحكم بقتال المشركين وبالجزية على أهل الكتاب يعطونها عن يَدٍ وهم صاغرون.

* * *

(١) انظر فيما سبق: (١/٦٥٣)، تعليق(١)، «الفوز الكبير» للدهلوي: ص٥٣، ٦٠.

سورة هود

مكيّة إلا قوله: ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار﴾ وهي مائة وثلاث وعشرون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾

﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾ أي: هذا كتاب ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ قال ابن عباس: لم ينسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرائع به ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بُيِّنَتْ بالأحكام والحلال والحرام، وقال الحسن: «أُحْكِمَتْ» بالأمر والنهي، ثم «فُصِّلَتْ» بالوعد والوعيد، قال قتادة: «أُحْكِمَتْ»: أحكمها الله، فليس فيها اختلاف ولا تناقض، وقال مجاهد: «فُصِّلَتْ»، أي: فُسرت، وقيل: «فُصِّلَتْ»، أي: أُنزلت شيئًا فشيئًا ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: وفي ذلك الكتاب: أنْ لا تعبدوا إلا الله، ويكون محل «أن» رفعًا، وقيل: محله خَفضٌ، تقديره: بأن لا تعبدوا إلا الله ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ﴾ أي: من الله ﴿نَذِيرٌ﴾ للعاصين ﴿وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾﴾ للمطيعين.

﴿وَأَنِ﴾ عطف على الأول ﴿ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ﴾ أي: ارجعوا إليه بالطاعة، قال الفرّاء: «ثم» هنا بمعنى الواو، أي: وتوبوا ،/؛ لأن الاستغفار هو التوبة، والتوبة هي الاستغفار.

وقيل: أن استغفروا (ربكم من المعاصي ثم توبوا)[1] إليه في المستأنف[2].

﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ يعيشكم عيشًا (حسنًا في خفض ودعة وأمن وسعة)[3]، قال بعضهم: العيش الحسن هو الرضى بالميسور والصبر على المقدور.

---

(١) زيادة من «ب».

(٢) في «ب»: (المستقبل).

(٣) في «ب»: (في سعة ودَعَةٍ وأمن).

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى حين الموت ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ أي: ويؤت كل ذي عمل صالح في الدنيا أجره وثوابه في الآخرة، وقال أبو العالية: من كثرت طاعته في الدنيا زادت درجاته في الآخرة (في الجنة)[1]؛ لأن الدرجات تكون بالأعمال.

وقال ابن عباس: من زادت حسناته على سيئاته دخل الجنة، ومن زادت سيئاته على حسناته دخل النار، ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب[2] الأعراف، ثم يدخل الجنة بعد.

١/١٧٣ وقيل: «يؤت كل ذي فضل فضله» / يعني: من عمل لله عزَّ وجلَّ وفَّقه الله فيما يستقبل على طاعته.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أعرضوا ﴿فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣﴾ وهو يوم القيامة.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ قال ابن عباس[3]: نزلت في الأخنس بن شرُيق وكان رجلًا حلو الكلام حلو المنظر، يَلْقَى رسولَ الله ﷺ بما يحب، وينطوي بقلبه على ما يكره.

قوله: «يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ»، أي: يُخفون[4] ما في صدورهم من الشحناء والعداوة.

قال عبد الله بن شداد: نزلت في بعض المنافقين، كان إذا مَرَّ برسول الله ﷺ ثنى صدره وظهره، وطأطأ رأسه وغطَّى وجهه؛ كي لا يراه النبي ﷺ[5].

وقال قتادة: كانوا يَحْنُون صدورهم كي لا يسمعوا كتاب[6] الله تعالى ولا ذكره[7].

وقيل: كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخي ستره ويحني ظهره ويتغشى بثوبه، ويقول: هل يعلم الله ما في قلبي[8]؟

---

(١) ساقط من «ب».
(٢) زيادة من «ب».
(٣) انظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٠٦، القرطبي: (٩/ ٥).
(٤) في «ب»: (يجمعون).
(٥) انظر: «تفسير الطبري»: (١٥/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤).
(٦) في «ب»: (كلام).
(٧) انظر: الطبري: (١٥/ ٢٣٥).
(٨) قال المناوي: «الثابت في البخاري أنها نزلت في ناس من المسلمين يستحيون أن يتخلَّوا أو يجامعوا، فيفضوا بفروجهم إلى السماء. انظر: «الفتح السماوي»: (٢/ ٧١٨)، «فتح الباري»: (٨/ ٣٤٩)، وستأتي رواية البخاري بعد صفحتين. وراجع: «عمدة القاري» للعيني: (١٨/ ٢٨٨).

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾

وقال السدي: «يَثْنُونَ»، أي: يعرضون بقلوبهم، من قولهم: ثنيت عناني، وقيل: يعطفون، ومنه ثنى الثوب.

وقرأ ابن عباس: «يَثْنَوْنِي»[1] على وزن «يَحْلَوْلِي» جعل الفعل للمصدر، ومعناه المبالغة في الثني.

﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ أي: من رسول الله ﷺ، قال مجاهد: ليستخفوا من الله إن استطاعوا ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ يغطون رؤوسهم بثيابهم ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٥﴾ قال الأزهري: معنى الآية من أولها إلى آخرها: إن الذين أضمروا عداوة رسول الله ﷺ لا يخفى علينا حالهم.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا الحسن[2] بن محمد بن صبَّاح، حدثنا حجاج قال: قال ابن جريج: أخبرني محمد بن عبَّاد بن جعفر أنه سمع ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقرأ: «أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ» فقال: سألته عنها قال: كان أُناس يستحيون أن يتخلَّوا فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم[3].

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ليس دابة، «من» صلة، والدابة: كل حيوان يدب على وجه الأرض.

وقوله: ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ أي: هو المتكفل بذلك فضلًا، وهو إلى مشيئته إن شاء رزق وإن شاء لم يرزق.

وقيل: «على» بمعنى: «من»، أي: من الله رزقها.

وقال مجاهد[4]: ما جاءها من رزق فمن الله عزَّ وجلَّ، وربما لم يرزقها حتى تموت جوعًا.

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ قال ابن مقسم[5]: ويُروَى ذلك عن ابن عباس، «مُسْتَقَرَّهَا»: المكان الذي تأوي إليه، وتستقر فيه ليلًا ونهارًا، «وَمُسْتَوْدَعَهَا»: الموضع الذي تدفن فيه إذا ماتت.

---

(١) في الطبري: (تَثْنَوْنِي) بالتاء الفوقية، على مثال: (تَحْلَوْلِي الثمرة)، (تَفْعَوْعِل).

(٢) في «ب»: (الحسين)، وكذلك في الطبري، والمثبت من «أ» وهو كذلك في البخاري.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير، باب: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ...﴾: (٨/ ٣٤٩).

(٤) الطبري: (١٥/ ٢٤٠).

(٥) الطبري: (١٥/ ٢٤١ـ٢٤٢).

وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

وقال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه[1] ـ: المستقر أرحام الأمهات، والمستودع (المكان الذي تموت فيه)[2]، (وقال عطاء: المستقر أرحام الأمهات، والمستودع أصلاب الآباء)[3].

ورواه سعيد بن جبير وعلي بن أبي طلحة وعكرمة، عن ابن عباس[4].

وقيل: المستقر: الجنة أو النار، والمستودع: القبر؛ لقوله تعالى في صفة الجنة والنار: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[الفرقان: ٧٦].

﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ أي: كل مثبت في اللوح المحفوظ قبل أن خلقها.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ قبل أن خلق (السماءَ والأرض)[5]، وكان ذلك الماء على متن الريح[6].

قال كعب[7]: خلق الله عزَّ وجلَّ ياقوتةً خضراء، ثم نظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد، ثم خلق الريح، فجعل الماء على متنها، ثم وضع العرش على الماء.

قال ضمرة: إن الله تعالى كان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض، وخلق القلم فكتب به ما هو خالق وما هو كائن من خلقه، ثم إن ذلك الكتاب سبح الله ومجَّده ألف عام قبل أن يخلق شيئًا من خلقه[8].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) في «ب»: (أصلاب الآباء).

(٣) ساقط من «ب».

(٤) الطبري: (١٥/ ٢٤٢)، والذي رجحه أن قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ حيث تستقر فيه، وذلك مأواها الذي تأوي إليه ليلًا أو نهارًا ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ الموضع الذي يودعها، إما بموتها فيه أو دفنها . . . لأن الله جل ثناؤه أخبر أن ما رُزقت الدوابُّ من رزق فمنه، فأولى أن يتبع ذلك أنه يعلم مثواها ومستقرها، دون الخبر عن علمه بما تتضمنه الأصلاب والأرحام. انظر: الطبري: (١٥/ ٢٤١، ٢٤٣).

(٥) في «ب»: (السماء).

(٦) أخرج ذلك عن ابن عباس: الطبري: (١٥/ ٣٤٩)، وفي «التاريخ» كذلك: (١/ ٢١)، وصححه الحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٣٤١)، ووافقه الذهبي.

(٧) كعب الأحبار من رواة الإسرائيليات، ولم نجد من ذكر هذا غيره.

(٨) أخرجه الطبري: (١٥/ ٢٤٩).

=

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ
مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا
رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ
مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ليختبركم، وهو أعلم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أعْمَلُ بطاعة الله، وأوْرَعُ عن محارم الله تعالى ﴿وَلَئِن قُلْتَ﴾ يا محمد ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾ أي: ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ يعنون: القرآن.

وقرأ حمزة والكسائي: «ساحر» يعنون: محمدًا ﷺ.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ إلى أجل محدود، وأصل الأمة: الجماعة، فكأنه قال: إلى انقراض أمة ومجيء أمة أخرى ﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ أيُّ شيءٍ يحبسه؟ يقولونه استعجالاً للعذاب واستهزاءً، يعنون: أنه ليس بشيء.

قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ يعني: العذاب ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ لا يكون مصروفًا عنهم ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ نزل بهم ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾ أي: وبال استهزائهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ نعمة وسعة ﴿ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ﴾ أي: سلبناها منه ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ﴾ قنوط من الشدة ﴿كَفُورٌ ﴿٩﴾﴾ في النعمة.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ بعد بلاء أصابه ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾ زالت الشدائد عني ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾ أشِرٌ بَطِرٌ، والفرح: لذة في القلب بنيل المشتهى، والفخر: هو التطاول على الناس بتعديد المناقب، وذلك منهيٌّ عنه.

= وقد ساق الحافظ ابن كثير رحمه الله بعض الأحاديث في تفسير الآية منها حديث الإمام أحمد والشيخين عن عمران بن حصين . . . وفيه: «كان الله ولم يكن شيء قبله ـ وفي رواية: غيره، وفي رواية معه ـ وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض».

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء».

وأخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن لقيط بن عامر قال: قلت: يا رسول الله ﷺ، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان في عماء ما تحته هواء، وما فوقه هواء، ثم خلق العرش بعد ذلك».

انظر: «تفسير ابن كثير»: (٢/٤٣٨).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ قال الفرَّاء: هذا استثناء منقطع، معناه: لكنَّ الذين صبرُوا ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنهم إن نالتهم شدة صبروا، وإن نالوا نعمة شكروا ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ وهو الجنة.

﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يا محمد ﴿تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ فلا تبلِّغه إياهم، وذلك أن كفار مكة لما قالوا: «ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ»[يونس: ١٥] ليس فيه سب آلهتنا، همَّ النبيُّ ﷺ أن يَدَعَ آلهتَهم ظاهرًا، فأنزل الله تعالى: «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ...»(١)، يعني: سب الآلهة ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ أي: فلعلك يضيق صدرك ﴿أَن يَقُولُوا۟﴾ أي: لأن يقولوا ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ ينفقه ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ يصدقه، قاله عبد الله بن أبي أمية المخزومي.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ ليس عليك إلا البلاغ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ حافظ.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ بل يقولون: اختلقه ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾.

فإن قيلَ: قد قال في سورة يونس: «فأْتُوا بسورةٍ مثلِهِ» وقد عجزوا عنه، فكيف قال: «فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ»؟! فهو كرجل يقول لآخر: أعطِني درهمًا فيعجز، فيقول: أعطِني عشرة؟!

١٧٣/ب الجواب: قد قيل سورة / هود نزلت أولاً.

وأنكر المبرد هذا، وقال: بل نزلت سورة يونس أولاً، وقال: معنى قوله في سورة يونس: «فأْتُوا بسورةٍ مثلِهِ»، أي: مثله في الخبر عن الغيب والأحكام والوعد والوعيد، (فعجزوا، فقال لهم في سورة هود: إن عجزتم عن الإتيان بسورة مثله في الأخبار والأحكام والوعد والوعيد)(٢) فأتوا بعشر سور مثله من غير خبر

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» لابن عطية: (٧/ ٢٤٩) ـ وقال بعد أن ذكر سبب النزول: (فخاطب الله تعالى نبيه ﷺ على هذه الصورة من المخاطبة ووقفه بها توقيفًا رادًّا على أقوالهم ومبطلًا لها، وليس المعنى أنه ﷺ همَّ بشيء من هذا فزجر عنه، فإنه لم يرد قط ترك شيء مما أُوحي إليه، ولا ضاق صدره، وإنما كان يضيق صدره بأقوالهم وأفعالهم وبُعْدهم عن الإيمان).
ثم قال بعد ذلك: (... ويحتمل أن يكون النبي ﷺ قد عَظُم عليه ما يلقى من الشدة فمال إلى أن يكون من الله تعالى إذْنٌ في مساهلة الكفار بعض المساهلة، ونحو ذلك من الاعتقادات التي تليق به ﷺ كما جاءت بتلك آيات الموادعة).

(٢) ما بين القوسين ساقط من «ب».

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

ولا وعد ولا وعيد، وإنما هي مجرد البلاغة[1] ﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ واستعينوا بمن استطعتم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ يا أصحاب محمد، وقيل: لفظه جمع والمراد به الرسول ﷺ وحده ﴿فَاعْلَمُوٓاْ﴾ قيل: هذا خطاب مع المؤمنين، وقيل: مع المشركين ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ يعني: القرآن، وقيل: أنزله وفيه علمه ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: فاعلموا أن لا إله إلا هو ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ لفظه استفهام ومعناه أمر، أي: أسلموا.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا ﴿وَزِينَتَهَا﴾ نزلت في كل من عمل عملًا يريد به غير الله عزَّ وجلَّ[2] ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ أي: نُوَفِّ لهم أجور أعمالهم في الدنيا بسعة الرزق ودفع المكاره وما أشبهها ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي: في الدنيا لا ينقص حظهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ (أي: في الدنيا)[3] ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

اختلفوا في معنى هذه الآية[4]:

قال مجاهد: هم أهل الرياء.

---

(١) وقال ابن الزبير الغرناطي في «ملاك التأويل» (١/ ٣٩): (... لما قيل هنا: مفتريات، فوسَّع عليهم، ناسبه التوسعة في العدد المطلوب؛ لأن الكلام المُفْتَرَى أسهل فناسبه التوسعة، أما الوارد في السورتين قبلُ ـ سورة البقرة الآية ٢٣، وسورة يونس الآية ٣٨ ـ فلم يذكر لهم فيهما أن يكون مفترى عليه، بل السابق من الآيتين: المماثلة مطلقًا، وذلك أصعب وأشق عليهم مع عجزهم في كل حال، فوقع الطلب حيث التضييق بسورة واحدة، وحيث التوسعة بعشر سور مناسبة جليلة واضحة وقد جاوب بما هذا معناه بعضُ المفسرين).
وانظر: «الكشاف»: (١/ ٤٨ ـ ٥٠).

(٢) وهذا مروي بسند صحيح عن سعيد بن جبير في الآية، قال: «من عمل للدنيا نوفيه في الدنيا».
أخرجه هناد في الزهد: (٢/ ٢٧٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف»: (١٣/ ٥١٩) بلفظ: «وُفِّيه في الدنيا»، والطبري: (١٥/ ٢٦٣)، وعزاه السيوطي أيضًا لابن أبي حاتم بلفظ: «هو الرجل يعمل للدنيا، لا يريد به الله».

(٣) زيادة من «ب».

(٤) في «ب»: (المعني بهذه الآية).

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا
وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى
مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

وروينا أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكم الشركُ الأصغرُ»، قالوا: يا رسول الله، وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء»(١).

قيل: هذا في الكفار(٢)، وأما المؤمن: فيريد الدنيا والآخرة، وإرادته الآخرة غالبة فيجازى بحسناته في الدنيا، ويثاب عليها في الآخرة.

ورُوينا عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يظلم المؤمنَ حسنةً، يثاب عليها الرزق في الدنيا ويُجْزَى بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكنْ له حسنة يُعطى بها خيرًا»(٣).

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ بيان ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قيل: في الآية حذف، ومعناه: أفمن كان على بينة من ربه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها، أو مَنْ كان على بينة من ربه كمن هو في الضلالة والجهالة، والمراد بالذي هو على بينة من ربه: النبيُّ ﷺ.

﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: يتبعه من يشهد به بصدقه، واختلفوا في هذا الشاهد(٤)، فقال ابن عباس وعلقمة وإبراهيم ومجاهد وعكرمة والضحاك وأكثر أهل التفسير: إنه جبريل عليه السلام.

وروى ابن جريج، عن مجاهد قال: هو ملك يحفظه ويسدده.

وقال الحسن وقتادة: هو لسان رسول الله ﷺ.

وقال الحسين بن الفضل: هو القرآن ونظمه وإعجازه.

وقيل: هو علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٣٢٤). قال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٠٢): (رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح)، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (١/ ٦٩): (ورواه أحمد بإسناد جيد، وابن أبي الدنيا والبيهقي في الزهد وغيره)، ثم قال: (وقد رواه الطبراني بإسناد جيد عن محمود بن لبيد عن رافع بن خديج، وقيل: إن حديث محمود هو الصواب دون ذكر رافع بن خديج فيه، والله أعلم). وانظر: «النهج السديد في تخريج أحاديث تيسير العزيز الحميد»: ص٤٦.

(٢) انظر: الطبري: (١٥/ ٢٦٥).

(٣) أخرجه مسلم في صفات المنافقين، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة برقم٢٨٠٨: (٤/ ٢١٦١)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٣١٠).

(٤) انظر هذه الأقوال الآتية في: الطبري: (١٥/ ٢٧٠ـ٢٧٦).

قال علي: ما من رجل من قريش إلا وقد نزلت فيه آية من القرآن، فقال له رجل: وأنت أيُّ شيءٍ نزل فيك؟ قال: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾[1]. وقيل: شاهد منه هو الإنجيل[2].

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: ومن قبل مجيء محمد ﷺ، وقيل: من قبل نزول القرآن ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي: كان كتاب موسى ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ لمن اتبعها، يعني: التوراة، وهي مصدقة للقرآن، شاهدة للنبي ﷺ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ يعني: أصحاب محمد ﷺ، وقيل: أراد الذين أسلموا من أهل الكتاب.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي: بمحمد ﷺ، وقيل: بالقرآن ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ من الكفار من أهل الملل كلها ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾.

أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي، أخبرنا أبو طاهر الزيادي، أخبرنا محمد بن الحسين القطان، أخبرنا أحمد بن يوسف السلمي، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن همام بن منبه، حدثنا أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسُ محمدٍ بيدِه، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة، ولا يهوديٌّ، ولا نصرانيٌّ، ثم يموتُ ولم يؤمنْ بالذي أُرسلتُ به إلاَّ كان من أصحاب النار»[3].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: في شك منه ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

---

(١) أخرجه الطبري بسندٍ فيه جابر الجعفي، وهو ضعيف، وكان رافضيًا من أتباع عبد الله بن سبأ، وكذلك ضعَّف هذا القول ابن كثير في «التفسير»: (٢/ ٤٤١)، وقال: (هو ضعيف لا يثبت له قائل).

(٢) ورجح الطبري رَحِمَهُ اللهُ أن أولى الأقوال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ هو قول من قال: (هو جبريل)؛ لدلالة قوله: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ على صحة ذلك. «التفسير»: (١٥/ ٢٧٦).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: هو ما أوحاه الله إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة المكملة المعظمة المختتمة بشريعة محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ـ، ولهذا قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبو العالية والضحاك وإبراهيم النخعي والسدي وغير واحد في قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾: إنه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعن علي ـ رضي الله عنه ـ والحسن وقتادة: هو محمد ﷺ، وكلاهما قريب في المعنى؛ لأن كلًا من جبريل ومحمد ـ صلوات الله عليهما ـ بلَّغ رسالة الله تعالى، فجبريل إلى محمد، ومحمد إلى الأمة). «التفسير»: (٢/ ٤٤١).

(٣) أخرجه مسلم من وجه آخر عن أبي هريرة بلفظ: «... من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ...» كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ برقم١٥٣: (١/ ١٣٤)، والمصنف باللفظ أعلاه، «شرح السنة»: (١/ ١٠٤)، وهو كذلك عند أبي عوانة: (١/ ١٠٤)، والإمام أحمد في «المسند» برقم٨١٨٨ طبعة الحلبي، وهمام بن منبه في الصحيفة برقم٩١: ص٤٠٩.

والمراد بالأمة في هذا الحديث: كل من أُرسل إليه محمد ﷺ ولزمته حجته، سواء صدَّقه أو لم يصدقه، وعلى هذا يتناول اللفظُ جميع أمة الدعوة، من هو موجود في زمنه ﷺ، ومن يتجدد وجوده بعده إلى يوم القيامة، فكلهم يجب عليه الدخول في طاعته ﷺ. وقوله: «ولا يهودي ولا نصراني» من عطف الخاص على العام، وإنما ذكر تنبيهًا على من سواهما ... وقال القرطبي: إذا كانت الرواية من غير عطف «يهودي» «ونصراني» فهما بدل من الأمة.

أما بالعطف ـ كما في رواية البغوي هنا ـ فلا يدخل اليهودي ولا النصراني في الأمة المذكورة.

وقال العراقي: ويحتمل أن يراد بهذه الأمة: العرب الذين هم عبدة الأوثان، وحينئذ فعطف اليهودي والنصراني على بابه، لعدم دخولهما فيما تقدم، وقوله في روايتنا: «ولا يهودي ولا نصراني» يوافق ذلك. انظر: «صحيفة همام بن منبّه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ» بتحقيق وشرح الدكتور رفعت فوزي عبد المطلب: ص٤٠٩ ـ ٤١٠، والمراجع مشار إليها.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۘ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠)﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فزعم أنَّ له ولدًا أو شريكًا، أي: لا أحد أظلم منه ﴿أُولَٰئِكَ﴾ يعني: الكاذبين والمكذبين ﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فيسألهم عن أعمالهم.

﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ يعني: الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم، قاله مجاهد[(١)]. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إنهم الأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، وهو قول الضحاك[(١)].

وقال قتادة: الخلائق كلهم. ورُوينا عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ﷺ: «إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كَنَفَهُ ويستره، فيقول: أتعرفُ ذنبَ كذا؟ أتعرفُ ذنبَ كذا؟ فيقول: نعم أيْ ربِّ، حتى إذا قرَّرَهُ بذنوبِهِ ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: سترتُها عليكَ في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعطَى كتابَ حسناته» وأما الكفار والمنافقون (فينادي بهم على رؤوس الخلائق)[(٢)]، ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨)﴾[(٣)].

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يمنعون عن دين الله ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩)﴾.

﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ﴾ قال ابن عباس: سابقين، وقال قتادة: هاربين، وقال مقاتل: فائتين ﴿فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يعني: أنصارًا وأعوانًا يحفظونهم من عذابنا ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: يزاد في عذابهم، قيل: يضاعف العذاب عليهم لإضلالهم الغير واقتداء الأتباع بهم.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري»: (١٥/ ٢٨٣)، «الدر المنثور»: (٤/ ٤١٢ـ٤١٣).

(٢) في «ب»: (فيقول الأشهاد)، والمثبت من «أ» وهو الموافق لرواية البخاري.

(٣) أخرجه البخاري في المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾: (٥/ ٩٦) وفي التوحيد وفي الرقاق، وأخرجه مسلم في التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله برقم ٢٧٦٦: (٤/ ٢١٢٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ١٣٢ـ١٣٣).
وقوله في الحديث: «فيضع عليه كنفه» بفتح الكاف والنون بعدها فاء ـ المراد بالكنف: الستر، وقد جاء مفسرًا بذلك في رواية عبد الله بن المبارك عن محمد بن سواء عن قتادة فقال في آخر الحديث: قال عبد الله بن المبارك: كنفه: ستره. أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد».
والمعنى: أنه تحيط به عنايته التامة، ومن رواه بالمثناة المكسورة ـ كِتِفِه ـ فقد صحَّف، على ما جزم به جمع من العلماء.
انظر: «فتح الباري»: (١٣/ ٤٧٧).

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾

﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ قال قتادة: صُمٌّ عن سماع الحق فلا يسمعونه، وما كانوا يبصرون الهُدَى، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أخبر الله عزَّ وجلَّ أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا قال: «مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ»، وهو طاعتُه، وفي الآخرة قال: «فلا يستطيعون»، خاشعة أبصارهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ غَبَنُوا أنفسهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾ يزعمون من شفاعة / الملائكة والأصنام. ١/١٧٤

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًّا، وقيل: بلى، وقال الفراء: لا محالة ﴿أَنَّهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ يعني: من غيرهم، وإن كان الكل في الخسار[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ﴾ قال ابن عباس: خافوا، قال قتادة: أنابوا، قال مجاهد: اطمأنوا، وقيل: خشعوا، وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: لربهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ المؤمن والكافر ﴿كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ قال الفراء: لم يقل هل يستوون؛ لأن الأعمى والأصم في حيِّزٍ كأنهما واحد؛ لأنهما من وصف الكافر، والبصير والسميع في حيز كأنهما واحد؛ لأنهما من وصف المؤمن ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي[2]: تتعظون.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب[3] «أني» بفتح الهمزة، أي: بأني، وقرأ الباقون بكسرها، أي: فقال: إني؛ لأن في الإرسال معنى القول: إني لكم نذير مبين.

---

(١) في «ب»: (الخسارة).

(٢) في «ب»: (أفلا).

(٣) ساقط من «ب».

أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ
أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ
أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ
لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي: مؤلم، قال ابن عباس: بُعِث نوح عليه السلام بعد أربعين سنة، ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة، وعاش بعد الطوفان ستين سنة، وكان عمره ألفًا وخمسين سنة، وقال مقاتل: بُعث وهو ابن مائة سنة، وقيل: بُعث وهو ابن خمسين سنة، وقيل: بُعث وهو ابن مائتين وخمسين سنة، ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة، وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفًا وأربعمائة وخمسين سنة قال الله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[العنكبوت: ١٤]، أي: فلبث فيهم داعيًا.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ والملأ هم الأشراف والرؤساء ﴿مَا نَرَىٰكَ﴾ يا نوح ﴿إِلَّا بَشَرًا﴾ آدميًا ﴿مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ سفلتنا، والرذل: الدُّون من كل شيء، والجمع: أرذُل، ثم يجمع على أراذل، مثل: كَلْب وأَكْلُب وأَكَالِب، وقال في سورة الشعراء: «واتَّبعك الأرذَلُون» يعني: السفلة، وقال عكرمة: الحاكة والأساكفة ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ قرأ أبو عمرو «بادىء» بالهمز، أي: أول الرأي، يريدون أنهم اتبعوك في أول الرأي من غير روية وتفكر، ولو تفكروا لم يتبعوك، وقرأ الآخرون بغير همز، أي: ظاهر الرأي، من قولهم: بدا الشيء: إذا ظهر، معناه: اتبعوك ظاهرًا من غير أن يتدبروا ويتفكروا باطنًا، قال مجاهد: رأي العين ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ نوح: ﴿يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي: بيان مِن رَبِّي ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً﴾ أي: هدى ومعرفة ﴿مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: خفيت والتبست عليكم، وقرأ حمزة والكسائي وحفص: «فعُمِّيت عليكم» بضم العين وتشديد الميم[١]، أي: شُبهت ولُبِّست عليكم ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي: أنلزمكم البينة والرحمة ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ لا تريدونها، قال قتادة: لو قدر الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أن يُلزموا (قومَهم الإيمان لألزموهم)[٢]، ولكن لم يقدروا.

(١) أي: كانت في الأصل: (فَعَمِيَتْ) وهي قراءة الباقين التي قرأ بها المصنف رحمه الله.

(٢) في «ب»: (قومهم لألزموا).

وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾

قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ أي: على الوحي وتبليغ الرسالة، كناية عن غير مذكور ﴿إِنْ أَجْرِىَ﴾ ما ثوابي ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ هذا دليل على أنهم طلبوا منه طرد المؤمنين ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ (أي: صائرون إلى)[1] ربهم في المعاد فيجزي من طردهم ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ من يمنعني من عذاب الله ﴿إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ تتعظون.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ فآتي منها ما تطلبون ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ فأخبركم بما تريدون، وقيل: إنهم لما قالوا لِنُوح: إن الذين آمنوا بِكَ إنما اتَّبعوك في ظاهر ما ترى منهم، قال نوح مجيبًا لهم: ولا أقول لكم عندي خزائن غيوب الله، التي يعلم منها ما يضمر الناس، ولا أعلم الغيب، فأعلم ما يسترونه في نفوسهم، فسبيلي قَبُول ما ظهر من إيمانهم ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ هذا جواب قولهم: «ما نراك إلا بشرًا مثلَنا» ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ أي: تحقره وتستصغره أعينكم، يعني: المؤمنين، وذلك أنهم قالوا: هم أراذلنا ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ أي: توفيقًا وإيمانًا وأجرًا ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من الخير والشر مني ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ لو قلتُ هذا.

﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا﴾ خاصمتنا ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ يعني: بالعذاب ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾ بِفَائِتِين.

---

(١) ساقط من «أ».

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ﴾ أي: نصيحتي ﴿إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ يضلكم ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ له الحكم والأمر ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ فيجزيكم بأعمالكم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعني: نوحًا عليه السلام، وقال مقاتل: يعني: محمدًا ﷺ ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى﴾ أي: إثمي ووبال جُرمي، والإجرام: كسب الذنب ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ لا أؤاخذُ بذنوبكم.

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ روى الضحاك عن ابن عباس: أن قوم نوح عليه السلام كانوا يضربون نوحًا حتى يسقط، فيلقونه في لَبَدٍ[1]، ويلقونه في قعر بيت، يظنون أنه قد مات فيخرج في اليوم الثاني ويدعوهم إلى الله عزَّ وجلَّ.

رُوي أنَّ شيخًا منهم جاء يتوكأ على عصا، ومعه ابنه، فقال: يا بني، لا يغرنك هذا الشيخ المجنون، فقال له: يا أبت، أمكني من العصا، فأخذ العصا من أبيه، فضرب نوحًا حتى شجَّه شجة منكرة، فأوحى الله عزَّ وجلَّ إليه[2]: «أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ» ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: لا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ فإنِّي مهلكهم ومنقذك منهم، فحينئذ دعا نوح عليهم فقال: «رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا»[نوح: ٢٦].

وحكى محمد بن إسحاق، عن عبيد بن عمير الليثي أنه بلغه[3] أنهم كانوا يبطشون به فيخنقونه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: ربِّ اغفرْ لقومي فإنَّهم لا يعلمون، حتى إذا تمادوا في المعصية واشتد عليه منهم البلاء، وانتظر الجيل بعد الجيل، فلا يأتي قرن إلاَّ كان أخبث من الذي قبله، حتى إن كان الآخر منهم
١٧٤/ب ليقول: قد كان هذا مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنونًا لا يقبلون منه شيئًا، فشكا إلى الله تعالى فقال: / «رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا» إلى أن قال: «رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا»، فأوحى الله تعالى إليه:

---

(١) اللَّبَد: الصوف، ويقال: ماله سَبَدٌ ولا لَبَدٌ: لا شعر له ولا صوف، أي: ماله قليل ولا كثير.

(٢) عزاه السيوطي لإسحاق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس: (٤/ ٤١٧)، وما يفرد به ابن عساكر وأمثاله: ضعيف.

(٣) انظر: الطبري: (١٥/ ٣١٣ ـ ٣١٤)، وهو أيضًا في «التاريخ» للطبري: (١/ ٩٢ ـ ٩٣).

وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾

﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ قال ابن عباس: بمرأى منَّا، وقال مقاتل: بعلمنا، وقيل: بحفظنا ﴿وَوَحۡيِنَا﴾ بأمرنا ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ بالطوفان، قيل: معناه: لا تخاطبني في إمهال[1] الكفار، فإني قد حكمت بإغراقهم، وقيل: لا تخاطبني في ابنك كنعان وامرأتك وَاعِلة فإنهما هالكان مع القوم.

وفي القصةِ[2] أن جبريل أتى نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: إن ربَّك عزَّ وجلَّ يأمرك أن تصنع الفلك، قال: كيف أصنع ولستُ بنجارٍ؟ فقال: إن ربَّك يقول: اصنع فإنك بعيني، فأخذ القدوم وجعل يصنع ولا يخطىء، وقيل: أوحى الله إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ[3] الطائر.

قوله تعالى: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ فلما أمره الله تعالى أن يصنع الفلك أقبل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ على عمل الفلك ولَهَا عن قومه، وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيء عدة الفلك من القارّ وغيره، وجعل قومه يمرُّون به وهو في عمله ويسخرون منه، ويقولون: يا نوح، قد صرت نجارًا بعد النبوة؟ وأعقم الله أرحام نسائهم فلا يولد لهم ولد[4].

وزعم أهل التوراة[5]: أن الله أمره أن يصنع الفلك من خشب الساج، وأن يصنعه أَزْوَرَ[6]، وأن يطليه بالقار[7] من داخله وخارجه، وأن يجعل طوله ثمانين ذراعًا وعرضه خمسين ذراعًا وطوله في السماء ثلاثين ذراعًا، والذراع إلى المنكب، وأن يجعله ثلاثة أطباق سفلى ووسطى وعليا، ويجعل فيه كوى، ففعله نوح كما أمره الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) في «ب»: (إهلاك).

(٢) التي رواها الطبري كما سبق.

(٣) في «ب»: (خرطوم).

(٤) من القصة السابقة عن ابن إسحاق في رواية الطبري.

(٥) زعم أهل التوراة! وزعم: مطية الكذب، ونحن متعبدون بتصديق ما في الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

(٦) «الزَّوَر» من الزُّور ـ بفتح فسكون ـ: وهو الصدر، و«الزَّوَر» ـ بفتحتين ـ: وهو عوج الصدر، وهو أن يستدقّ جوشن الصدر، ويخرج الكلكل، كأنه عُصِر من جانبيه. انظر: «حاشية الطبري»: (١٥/ ٣١٤).

(٧) القار: الزفت، قال في «القاموس»: شيء أسود تطلى به الإبل والسفن، أو هو الزفت.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾

وقال ابن عباس: اتخذ نوح السفينة في ستين، وكان طول السفينة ثلثمائة ذراع، وعرضها خمسون ذراعًا، وطولها في السماء ثلاثون ذراعًا، وكانت من خشب الساج، وجعل لها ثلاثة بطون، فحمل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام، وفي البطن الأوسط الدواب والأنعام، وركب هو ومن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد.

وقال قتادة: كان بابها في عرضها.

وروى عن الحسن: كان طولها ألفًا ومائتي ذراع، وعرضها ست مائة ذراع.

والمعروف الأول: أن طولها ثلثمائة ذراع.

وعن زيد بن أسلم قال: مكث نوح عليه السلام مائة سنة يغرس الأشجار ويقطعها، ومائة سنة يعمل الفلك.

وقيل: غرس الشجر أربعين سنة وجفَّفه أربعين سنة.

وعن كعب الأحبار: أن نوحًا عمل السفينة في ثلاثين سنة، وروى أنها كانت ثلاث طبقات، الطبقة السفلى للدواب والوحوش، والطبقة الوسطى فيها الإنس، والطبقة العليا فيها الطير، فلما كثرت أرواث الدواب أوحى الله إلى نوح أنِ اغمِزْ ذنبَ الفيل، فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة، فأقبلا إلى الروث، فلما وقع الفار بجوف السفينة فجعل يقرضها ويقرض حبالها، فأوحى الله تعالى إليه أنِ اضربْ بين عيني الأسد، فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة، فأقبلا على الفار(١).

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ كانوا يقولون: إنَّ هذا الذي يزعم أنه نبي قد صار نجارًا، ورُوي أنهم كانوا يقولون له: يا نوح، ماذا تصنع؟ فيقول: أصنع بيتًا يمشي على الماء، فيضحكون منه ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ إذا عاينتم عذاب الله ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ فإن قيل: كيف تجوز السخرية من النبي؟ قيل: هذا على ازدواج الكلام، يعني: إن تستجهلوني فإني أستجهلكم إذا نزل العذاب بكم، وقيل: معناه: إن تسخروا منَّا فسترون عاقبة سخريتكم.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يهينه ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ يجب عليه ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ دائم.

---

(١) هذه التفصيلات عن السفينة وطولها وطبقاتها وما حمل فيها، وعن المخلوقات وكيفية خلقها من بعضها . . . إلخ ذكرها الطبري والسيوطي أيضًا، وهي من الإسرائيليات التي اختلقها اليهود وأضرابهم على مر العصور، وكانت شائعة مشهورة في الجاهلية، فلما جاء الإسلام نشرها أهل الكتاب الذين أسلموا بين المسلمين، وهؤلاء رووها بحسن نية، ولم يزيّفوها اعتمادًا على أن ظاهرها البطلان، وقد أشار ابن كثير رحمه الله إلى غرابة رواية ابن إسحاق التي سلفت عند البغوي.
انظر: «الإسرائيليات والموضوعات» للشيخ محمد أبي شهبة: ص٣٠١_٣٠٥، «تفسير ابن كثير»: (٢/ ٤٤٥_٤٤٦).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ اختلفوا في التنور[١]، قال عكرمة والزهري: هو وجه الأرض، وذلك أنه قيل لنوح: إذا رأيتَ الماء فارَ على وجه الأرض فاركبِ السفينة.

ورُوي عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: فار التنور، أي: طلع الفجر ونور الصبح.

وقال الحسن ومجاهد والشعبي: إنه التنور الذي يخبز فيه، وهو قول أكثر المفسرين[٢].

ورواية عطية عن ابن عباس قال الحسن: كان تنورًا من حجارة، كانت حواء تخبز فيه فصار إلى نوح عليه السلام، فقيل لنوح: إذا رأيتَ الماءَ يفور من التنور فاركب أنتَ وأصحابُك.

واختلفوا في موضعه[٣]، قال مجاهد والشعبي: كان في ناحية الكوفة، (وكان الشعبي يحلف: ما فار التنور إلاَّ من ناحية الكوفة)[٤]، وقال: اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة، وكان التنور على يمين الداخل مما يلي باب كندة، وكان فورانُ الماء منه عَلَمًا لنوح عليه السلام.

وقال مقاتل: كان ذلك تنور آدم، وكان بالشام بموضع يقال له: عين وردة.

ورُوي عن ابن عباس: أنه كان بالهند.

والفوران: الغليان.

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ أي: في السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ الزوجان: كل اثنين لا يستغني أحدهما عن الآخر، يقال لكل واحد منهما زوج، يقال: زوج خف وزوج نعل، والمراد بالزوجين هاهنا: الذكر والأنثى.

قرأ حفص هاهنا وفي سورة «المؤمنون»: «مِن كُلٍّ» بالتنوين، أي: من كل صنف زوجين اثنين، ذكَّره تأكيدًا.

وفي القصة: أن نوحًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: يا ربِّ كيفَ أحمل من كل زوجين اثنين؟ فحشر الله إليه السباعَ والطير، فجعل يضرب بيديه في كل جنس فيقع الذكر في يده اليمنى والأنثى في يده اليسرى، فيحملها في السفينة.

---

(١) انظر في هذا: الطبري: (١٥/ ٣١٨ـ٣٢١).

(٢) ورجح هذا الطبري فقال: (وأولى الأقوال عندنا بتأويل قوله: ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾ قول من قال: هو التنور الذي يخبز فيه؛ لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب، وكلام الله لا يُوَجَّه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب، إلا أن تقوم حجة على شيء منه بخلاف ذلك، فيسلم لها، وذلك أنه جل ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم به لإفهامهم معنى ما خاطبهم به). الطبري: (١٥/ ٣٢١).

(٣) انظر: الطبري: (١٥/ ٣٢٠ـ٣٢١).

(٤) ما بين القوسين ساقط من «ب».

﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي: واحمل أهلك، أي: ولدك وعيالك ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ بالهلاك، يعني: امرأته وَاعِلة وابنه كنعان ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ يعني: واحمل من آمن بك، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠﴾ واختلفوا في عددهم[1]، قال قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب القرظي: لم يكن في السفينة إلا ثمانية نفر: نوح، وامرأته[2]، وثلاثة بنين له: سام وحام ويافث، ونساؤهم.

(وقال الأعمش: كانوا سبعة: نوح، وثلاثة بنين له، وثلاث كنائن له)[3].

وقال ابن إسحاق: كانوا عشرة سوى نسائهم: نوح وبنوه: سام وحام ويافث، وستة أُناس ممن كان آمن به وأزواجهم جميعًا.

وقال مقاتل: كانوا اثنين وسبعين نفرًا رجلًا وامرأةً وبنيه الثلاثة ونساءَهم، فجميعهم ثمانية وسبعون، نصفهم رجال ونصفهم نساء.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان في سفينة نوح ثمانون رجلًا أحدهم جرهم.

١/١٧٥ قال مقاتل: / حمل نوح معه جسد آدم فجعله معترضًا بين الرجال والنساء، وقصد نوحًا جميعُ الدواب والطيور ليحملها.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أول ما حمل نوح الذرة وآخر ما حمل الحمار، فلما دخل الحمار ودخل صدره تعلق إبليس بذنبه، فلم يستقل رجلاه، فجعل نوح يقول: ويحك ادخل: فينهض فلم يَستطع، حتى قال نوح: ويحك ادْخُلْ وإن الشيطان معك ـ كلمة زلت على لسانه ـ، فلما قالها نوح خلى الشيطان سبيله فدخل ودخل الشيطان، فقال له نوح: ما أدخلك عليَّ يا عدو الله؟ قال: ألم تقل: ادخل وإن كان الشيطان معك، قال: اخرج عني يا عدو الله، قال: مالك بدّ من أن تحملني معك، فكان فيما يزعمون في ظهر الفلك.

ورُوي عن بعضهم: أن الحية والعقرب أتيا نوحًا فقالتا: احملنا، فقال: إنكما سبب الضر والبلاء، فلا أحملكما، فقالتا له: احملنا ونحن نضمن لك أن لا نضر أحدًا ذكرك، فمن قرأ حين خاف مضرتهما: «سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَٰلَمِينَ»[الصافات: ٧٩] ما ضرتاه.

---

(١) انظر في هذه الأقوال: الطبري: (١٥/ ٣٢٥ ـ ٣٢٧)، وقال: (والصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال الله: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ يصفهم بأنهم كانوا قليلًا، ولم يَحُدَّ عددهم بمقدار، ولا خبر عن رسول الله ﷺ صحيح، فلا ينبغي أن يُتَجاوز في ذلك حدُّ الله، إذا لم يكن لمبلغ عدد ذلك حدٌّ من كتاب الله، أو أثر عن رسول الله ﷺ).

(٢) قال ابن كثير رحمه الله: (وقيل: بل امرأة نوح كانت معهم في السفينة، وهذا فيه نظر، بل الظاهر أنها هلكت؛ لأنها كانت على دين قومها، فأصابها ما أصابهم، كما أصاب امرأة لوط ما أصاب قومها، والله أعلم وأحكم). «التفسير»: (٢/ ٤٤٦).

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب».

﴿۞وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٤١ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٢ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ۝٤٣﴾

قال الحسن: لم يحمل نوح في السفينة إلا ما يلد ويبيض، فأما ما يتولد من الطين من حشرات الأرض كالبق والبعوض فلم يحمل منه شيئًا[(١)].

﴿۞وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا﴾ أي: وقال لهم نوح: اركبوا فيها، أي: في السفينة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص: «مَجْرٜىٰهَا» بفتح الميم، أي: جَرْيها، «وَمُرْسَىٰهَآ» بضمها[(٢)]، وقرأ محمد بن محيصن «مَجْرٜىٰهَا ومَرساها» بفتح الميمين، من جرت ورست، أي: (بسم الله)[(٣)] جريها ورسوها، وهما مصدران، وقرأ الآخرون: «مُجراها ومُرساها» بضم الميمين من أجريت وأرسيت، أي: بسم الله إجراؤها وإرساؤها (وهما أيضًا مصدران)[(٤)]، كقوله: «أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا»[المؤمنون: ٢٩]، و«أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ»[الإسراء: ٨٠]، والمراد منها: الإنزال والإدخال والإخراج «إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٤١» قال الضحاك: كان نوح إذا أراد أن تجري السفينة قال: بسم الله، فجرت، وإذا أراد أن ترسوَ قال: بسم الله، فرست.

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ والموج ما ارتفع من الماء إذا اشتدت عليه الريح، شبّهه بالجبال في عظمه وارتفاعه على الماء ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ كنعان، وقال عبيد بن عمير: سام، وكان كافرًا ﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ عنه، لم يركب في السفينة: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ (قرأ ابن عامر وحمزة وعاصم ويعقوب)[(٢)] بإظهار الباء، والآخرون يدغمونها في الميم ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٢﴾ فتهلك.

﴿قَالَ﴾ له ابنه: ﴿سَـَٔاوِىٓ﴾ سأصير والتجىء ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ يمنعني من الغرق ﴿قَالَ﴾ له نوح: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ من عذاب الله ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ قيل: «من» في محل الرفع، أي: لا مانع من عذاب الله إلا الله الراحم، وقيل: «من» في محل النصب، معناه: لا معصوم إلا من رحمه الله، كقوله: «فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ»[الحاقة: ٢١]، أي: مرضية ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ﴾ فصار ﴿مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ۝٤٣﴾.

---

(١) هذه القصص وأمثالها، ذكرها السيوطي في «الدر»: (٤/ ٤٢٣، وما بعدها). قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٧/ ٢٩٥): (... وهذا كله قصص لا يصح إلا لو استند، والله أعلم كيف كان). وانظر فيما سبق: ص ٤٠٠، تعليق (١).

(٢) ساقط من «أ».

(٣) ساقط من «ب».

(٤) ساقط من «أ»، وانظر في هذه القراءات وتوجيهها: الطبري: (١٥/ ٣٢٧ـ٣٣٠).

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾

ورُوي أن الماء علا رؤوس الجبال قدر أربعين ذراعًا، (وقيل: خمسة عشر ذراعًا)[(١)].

ورُوي: أنه لما كثر الماء في السكك خشيت أمٌّ لصبيٍّ عليه، وكانت تحبه حبًّا شديدًا، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه، فلما بلغها ذهبت حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعت الصبي بيديها حتى ذهب بها الماء، فلو رحم الله منهم أحدًا لرحم أم الصبي[(٢)].

﴿وَقِيلَ﴾ يعني: بعدما تناهى أمر الطوفان: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي﴾ تَشرَّبي ﴿مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ أمسكي ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ نقص ونضب، يقال: غاض الماء يغيض غيضًا إذا نقص، وغاضه الله، أي: أنقصه ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ فرغ من الأمر وهو هلاك القوم ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾ يعني: السفينة استقرت ﴿عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ وهو جبل بالجزيرة بقرب الموصل ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا﴾ هلاكًا ﴿لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾.

ورُوي أن نوحًا عليه السلام بعث الغراب؛ ليأتيه بخبر الأرض، فوقع على جيفة فلم يرجع، فبعث الحمامة فجاءت بورق زيتون في منقارها ولطخت رجليها بالطين، فعلم نوح أن الماء قد نضب، فقيل: إنه دعا على الغراب بالخوف؛ فلذلك لا يألف البيوت، وطوق الحمامة الخضرة التي في عنقها ودعا لها بالأمان، فمن ثَم تأمن وتألف البيوت[(٣)].

ورُوي: أن نوحًا عليه السلام ركب السفينة لعشر مضت من رجب وجرت بهم السفينة ستة أشهر، ومرت بالبيت فطافت به سبعًا[(٤)]، وقدْ رفعَه الله من الغرق وبقي موضعه، وهبطوا يوم عاشوراء، فصام

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) أخرجه الحاكم: (٢/ ٣٤٢) وصححه، وقال الذهبي: إسناده مظلم، وموسى ليس بذاك.
وقد ذكر في القصة أن الله تعالى أيبس أصلاب الآباء وأعقم أرحام النساء قبل العذاب بأربعين سنة، وقيل: بسبعين سنة، ولم يكن فيهم صبي وقت العذاب، لقوله تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾، فلم يوجد التكذيب من الأطفال، فحكاية أُم الصبي عجيبة، ويمكن أن يقال: يجوز أن سنَّ بلوغهم فوق السبعين لطول أعمارهم فكان فيهم الصبيان فعمَّهم العذاب.
وقد يقال: إن في ذلك روايتين، الأولى: أنه أيبس أصلاب آبائهم وأعقم أرحام نسائهم قبل العذاب بأربعين سنة أو سبعين، ولم يكن فيهم صبي وقت العذاب، وفي رواية لم يكن ذلك الإيباس والإعقام، فيوجد فيهم الصبيان وقت العذاب تبعًا لآبائهم المكذبين في عذاب الدنيا، أما في عذاب الآخرة ففيه مذهبان وقولان، فعند البعض هم في الآخرة مع آبائهم المكذبين، وعند البعض هم في الجنة، وهو الأصح والأقوى. انتهى ملتقطًا من حاشية «أ» بشيء من التصرف.

(٣) انظر فيما سلف: ص٤٠٣، تعليق (١).

(٤) قال الساجي: حدثنا الربيع حدثنا الشافعي قال: قيل لعبد الرحمن بن زيد: حدثك أبوك عن جدك أن رسول الله ﷺ قال: إن سفينة نوح طافت بالبيت سبعًا وصلَّت خلف المقام ركعتين؟ قال: نعم. =

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾

نوح، وأمر جميع من معه بالصوم؛ شكرًا لله عزَّ وجلَّ.

وقيل: ما نجا من الكفار من الغرق غير عُوج بن عُنُق كان الماء إلى حجزته، وكان سبب نجاته أن نوحًا احتاج إلى خشب ساج للسفينة فلم يمكنه نقله فحمله عوج إليه من الشام، فنجاه الله تعالى من الغرق لذلك[1].

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ وَقَدْ وعدتني أن تنجيني وأهلي؟ ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ لا خلف فيه ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ حكمت على قوم بالنجاة، وعلى قوم بالهلاك.

﴿قَالَ﴾ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ﴾ قرأ الكسائي ويعقوب: «عَمِلَ» بكسر الميم وفتح اللام «غيرَ» بنصب الراء على الفعل، أي: عمل الشرك والتكذيب، وقرأ الآخرون بفتح الميم ورفع اللام وتنوينه، «غيرُ» برفع الراء، معناه: أن سؤالك إيَّاي أن أنجيه عمل غير صالح ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ﴾ يا نوح ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ﴾.

قرأ أهل الحجاز والشام «فلا تسألَنَّ»[2] بفتح اللام وتشديد النون، ويكسرون النون غير ابن كثير فإنه يفتحها، وقرأ الآخرون بجزم اللام وكسر النون خفيفة، ويُثبت أبو جعفر وأبو عمرو وورش ويعقوب الياء في الوصل.

﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

= وقال الساجي: وهو منكر الحديث، وقال الطحاوي: حديثه عند أهل العلم بالحديث في النهاية من الضعف، وقال الحاكم وأبو نعيم: روى عن أبيه أحاديث موضوعة. انظر: «التهذيب»: (٦/ ١٦٢)، والتعليق السابق.

(١) قال العلامة ابن القيم رحمه الله ـ وقد ذكر حديث عوج بن عنق مثالاً على ما قامت الشواهد الصحيحة على بطلانه: (... وليس العجب من جرأة مثل هذا الكذَّاب على الله، إنما العجب ممن يُدْخل هذا الحديث في كتب العلم من التفسير وغيره، ولا يبيِّن أمره، وهذا عندهم من ذرية نوحٍ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾[الصافات: ٧٧] فأخبر أن كل من بقي على وجه الأرض فهو من ذرية نوح، فلو كان لعوج ـ هذا ـ وجود لم يبق بعد نوح. «المنار المنيف في الصحيح والضعيف»: ص٧٧، وانظر: رسالة السيوطي بعنوان: «الأوج في خبر عوج» ضمن «الحاوي للفتاوى»: (٢/ ٥٧٣ ـ ٥٧٨)، «البداية والنهاية» لابن كثير: (١/ ١٤)، «الأسرار المرفوعة لملا علي القاري»: ص٤٢٥ ـ ٤٢٧) مع تعليق المحقق.

(٢) في «ب»: (فلا تسألَنِي).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾

واختلفوا في هذا الابن[1]، قال مجاهد والحسن: كان ولد حنث[2] من غير نوح، ولم يعلم بذلك نوح، ولذلك قال: «مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ»، وقرأ الحسن «فَخَانَتَاهُمَا»[التحريم: ١٠].

وقال أبو جعفر الباقر: كان ابن امرأته، وكان يعلمه نوح، ولذلك قال: «مِنْ أَهْلِى»، ولم يقل: مني.

وقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والأكثرون[3]: إنه كان ابن نوح عليه السلام من صلبه، وقال ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط، وقوله: «إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ»، أي: من أهل الدين[4]؛

١٧٥/ب / لأنه كان مخالفًا له في الدين، وقوله: «فَخَانَتَاهُمَا»، أي: في الدين والعمل الصالح لا في الفراش.

وقوله: «إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ»، يعني: أن تدعو بهلاك الكفار ثم تسأل نجاة كافر.

﴿قَالَ﴾ نوح ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ انزل من السفينة ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ أي: (بأمن وسلامة منّا)[5]، ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ البركة هي: ثبوت الخير، ومنه: بروك البعير، وقيل: البركة هاهنا هي: أن الله تعالى جعل ذريته هُمُ الباقين إلى يوم القيامة ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ أي: على ذرية أمم ممن كان معك في السفينة، يعني: على قرون

---

(١) انظر في هذه الأقوال: الطبري: (١٥/ ٣٤٠_٣٤٦).

(٢) في «أ»: (خبيث)، و«الحنث» ـ بكسر الحاء وسكون النون ـ: الذنب والمعصية، وفي الحديث: «يكثر فيهم أولاد الحنث» أي: أولاد الزنا، ويروى: «الخبث» ـ بالخاء مضمومة والثاء ـ من «الخبث»: وهو الفساد والفجور.
وفي الحديث: «إذا كثر الخبث كان كذا وكذا . . .» أي: الفسق والفجور، وفي الحديث: «أنه أُتي برجل مخدج سقيم، وجد مع أَمَةٍ يخبث بها»، أي: يزني بها، ويقال: «هو ابن خبثة» لابن الزنية، ولد لغير رشدة.
انظر: «تعليق الشيخ محمود شاكر على الطبري»: (١٥/ ٣٤٠).

(٣) وهو ما رجحه الطبري، قال: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: تأويل ذلك: إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم؛ لأنه كان لدينك مخالفًا وبي كافرًا ـ وكان ابنه؛ لأن الله تعالى ذكره قد أخبر نبيه محمدًا ﷺ أنه ابنه فقال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾، وغير جائز أن يخبر أنه «ابنه» فيكون بخلاف ما أخبر، وليس في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ دلالة على أنه ليس بابنه، إذ كان قوله: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ محتملًا من المعنى ما ذكرنا، ومحتملًا «إنه ليس من أهل دينك» ثم يحذف «الدين» فيقال: «إنه ليس من أهلك» كما قيل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾. انظر: الطبري: (١٥/ ٣٤٦).

(٤) في «ب»: (دينك).

(٥) ساقط من «ب».

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

تجيء من بعدك، من ذرية مَن معك، من ولدك وهم المؤمنون، قال محمد بن كعب القرظي: دخل فيه كل مؤمن إلى قيام الساعة ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ هذا ابتداء، أي: أمم سنمتعهم في الدنيا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ وهم الكافرون وأهل الشقاوة.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾ أخبار الغيب ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا﴾ من قبل نزول القرآن ﴿فَاصْبِرْ﴾ على القيام بأمر الله وتبليغ الرسالة وما تلقى من أذى الكفار كما صبر نوح ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ آخر الأمر بالسعادة والنصرة ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ﴾ أي: وأرسلنا إلى عاد ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾ في النسب لا في الدين ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ (وحّدوا الله)(١) ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ ما أنتم (في إشراككم)(١) إلا كاذبون.

﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على تبليغ الرسالة ﴿أَجْرًا﴾ جُعْلًا ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ ما ثوابي ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ خلقني ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: آمنوا به، والاستغفار هاهنا بمعنى الإيمان ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ من عبادة غيره ومن سالف ذنوبكم ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ أي: يرسل المطر عليكم متتابعًا، مرة بعد أخرى في أوقات الحاجة ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ أي: شدة مع شدتكم، وذلك أن الله عزَّ وجلَّ حبس عنهم القطر ثلاث سنين، وأعقم أرحام نسائهم فلم يلدن، فقال لهم هود عليه السلام: إن آمنتم أرسل الله عليكم المطر، فتزدادون مالاً، ويعيد أرحام الأمهات إلى ما كانت، فيلدن فتزدادون قوة بالأموال والأولاد، وقيل: تزدادون قوة في الدين إلى قوة البدن ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ أي: لا تدبروا مشركين.

---

(١) ساقط من «ب».

﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦﴾

﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ أي: ببرهان وحجة واضحة على ما تقول ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ﴾ أي: بقولك ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝٥٣﴾ بمصدقين.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا﴾ أي: أصابك، يعني: لست تتعاطى ما نتعاطاه من مخالفتنا وسبِّ آلهتنا إلاَّ أن[1] بعض آلهتنا اعتراك ﴿بِسُوٓءٖۗ﴾ أي: أصابك بخبلٍ وجنون، وذلك أنك سببت آلهتنا فانتقموا منك بالتخبيل، لا نحمل أمرك إلا على هذا ﴿قَالَ﴾ لهم هود: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ﴾ على نفسي ﴿وَٱشۡهَدُوٓاْ﴾ يا قوم ﴿أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤﴾.

﴿مِن دُونِهِۦۖ﴾ يعني: الأوثان ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا﴾ فاحتالوا في مكركم[2] وضري أنتم وأوثانكم ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥﴾ (لا تؤخرون ولا تمهلون)[3].

﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ﴾ أي: اعتمدتُ ﴿عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ قال الضحاك: يحييها ويميتها.

وقال الفرَّاء: مالكها والقادر عليها.

وقال القتيبي: يقهرها؛ لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته.

وقيل: إنما خصَّ الناصية بالذكر؛ لأن العرب تستعمل ذلك إذا وصفت إنسانًا بالذلة، فتقول: ناصية فلان بيد فلان، وكانوا إذا أسَرُوا إنسانًا وأرادوا إطلاقه والمَنَّ عليه جزُّوا ناصيته ليعتدُّوا بذلك فخرًا عليه، فخاطبهم الله بما يعرفون.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦﴾ يعني: إن ربي وإن كان قادرًا عليهم فإنه لا يظلمهم ولا يعمل إلا بالإحسان والعدل، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بعصيانه، وقيل: معناه: إن دين ربي إلى صراط مستقيم.

---

(١) في «ب»: (إلا لأن).

(٢) في «ب»: (مكري).

(٣) زيادة من «المطبوع».

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ
إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ
مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟
أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ
أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾

وقيل[١]: فيه إضمار، أي: إن ربي يحثكم ويحملكم على صراط مستقيم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: تتولوا، يعني: تعرضوا عمَّا دعوتُكم إليه ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: إن أعرضتم يهلككم الله عزَّ وجلَّ، ويستبدل بكم قومًا غيركم أطوع منكم، يوحِّدُونه ويعبدونه ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ بتوليكم وإعراضكم، إنما تضرون أنفسكم، وقيل: لا تنقصونه شيئًا إذا أهلككم؛ لأن وجودكم وعدمكم عنده سواء ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ أي: لكل شيء حافظ، يحفظني من أن تنالوني بسوء.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ وكانوا أربعة آلاف ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ بنعمة ﴿مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ وهو الريح التي أهلك بها عادًا، وقيل: العذاب الغليظ: عذاب يوم القيامة، أي: كما نجيناهم في الدنيا من العذاب كذلك نجيناهم في الآخرة.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ ردَّه إلى القبيلة ﴿جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ يعني: هودًا وَحْدَهُ، ذكره بلفظ الجمع؛ لأن من كذَّب رسولاً كان كمَن كذَّب جميع الرسل ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ أي: واتبع السفلة والسقاط أهل التكبر والعناد، والجبار: المتكبر، والعنيد: الذي لا يقبل الحق، يقال: عَنَدَ الرجلُ يعند عنودًا إذا أبى أن يقبل الشيء وإن عرفه، قال أبو عبيدة[٢]: العنيد والعاند والعنود والمعاند: المعارض لك بالخلاف.

﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: أُرْدِفُوا لعنة تلحقهم وتنصرف معهم، واللعنة: هي الإبعاد والطَّرد عن الرحمة ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: وفي يوم القيامة ـ أيضًا ـ لُعنوا كما لُعنوا في الدنيا والآخرة ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ أي: بربهم، (يقال: كفرته وكفرت به، كما)[١] يقال: شكرتُه وشكرتُ له، ونصحتُه ونصحتُ له ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ قيل: بعدًا من رحمة الله، وقيل: هلاكًا، ولِلْبُعْد معنيان، أحدهما: ضد القرب، يقال: منه بَعُدَ يبعُدُ بُعْدًا، (والآخر: بمعنى الهلاك، يقال: منه بَعِدَ يبعِدُ بَعْدًا وبُعْدًا)[١].

---

(١) ساقط من «ب».
(٢) في «ب»: (عبيد).

﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ﴾ أي: أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحًا في النسب (لا في الدين)[1] ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحّدُوا الله عزَّ وجلّ[2] ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ ابتدأ خلقَكُم من الأرض، وذلك أنهم من آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وآدم خُلق من الأرض ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: جعلكم عُمَّارَها وسُكَّانَها، قال الضحاك: أطال عمركم فيها حتى كان الواحد منهم يعيش ثلثمائة سنة إلى ألف سنة، وكذلك / قوم عاد. ١٧٦/أ

قال مجاهد: أعمَرَكم من العُمرى، أي: جعلها لكم ما عشتم، وقال قتادة: أسكنكم فيها.

﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ﴾ من المؤمنين ﴿مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ لدعائهم.

﴿قَالُوا۟﴾ يعني: ثمود: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ﴾ القول، (أي: كنَّا نرجو)[1] أن تكون سيدًا فينا، وقيل: كنَّا نرجو أن تعود إلى ديننا، وذلك أنهم كانوا يرجون رجوعه إلى دين عشيرته، فلما أظهر دعاءهم إلى الله عزَّ وجلَّ وترك الأصنام زعموا أن رجاءهم انقطع عنه، فقالوا: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ (من قَبْلُ)[1]، من الآلهة ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ موقع للريبة والتهمة، يقال: أربتُه إرابةً إذا فعلتُ به فعلًا يوجب له الريبة.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ نبوة وحكمة ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من يمنعني من عذاب[1] الله ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ قال ابن عباس: معناه: غير بصارة في خسارتكم.

قال الحسين[3] بن الفضل: لم يكن صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في خسارة حتى قال: «فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ»، وإنما المعنى: ما تزيدونني بما تقولون إلا نسبتي إيَّاكم إلى الخسارة.

والتفسيق والتفجير في اللغة هو: النسبة إلى الفسق والفجور، وكذلك التخسير هو: النسبة إلى الخسران.

---

(١) ساقط من «ب». (٢) في «ب»: (وحّدوه). (٣) في «ب»: (الحسن).

﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾

﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾ نصب على الحال والقطع، وذلك أن قومَهُ طلبوا منه أن يخرج ناقةً عُشَراء من هذه الصخرة، وأشاروا إلى صخرة، فدعا صالح عليه السلام فخرجت منها ناقة وولدت في الحال ولدًا مثلها[1]، فهذا معنى قوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ﴾ من العشب والنبات فليست عليكم مؤونتها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ ولا تصيبوها بعقر ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ﴾ إن قتلتموها ﴿عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤﴾.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ﴾ لهم صالح: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ عيشوا[2] ﴿فِي دَارِكُمۡ﴾ أي: في دياركم ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖ﴾ ثم تهلكون ﴿ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥﴾ أي: غير كذب.

رُوي أنه قال لهم: يأتيكم العذاب بعد ثلاثة أيام فتُصبحون في اليوم الأول ووجوهكم مُصْفَرَّة، وفي اليوم الثاني مُحْمَرَّة، وفي اليوم الثالث مسودَّة، فكان كما قال، وأتاهم العذاب اليوم الرابع.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ بنعمة منَّا ﴿وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍ﴾ أي: من عذابه وهوانه، قرأ أبو جعفر ونافع والكسائي «خزي يومَئذ» و«عذاب يومَئذ» بفتح الميم، وقرأ الباقون بالكسر ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦﴾.

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ كفروا ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ وذلك أنَّ جبريل عليه السلام صاح عليهم صيحة واحدة فهلكوا جميعًا، وقيل: أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء في الأرض، فتقطعت قلوبهم في صدورهم، وإنما قال: «وَأَخَذَ» الصيحةُ مؤنثة؛ لأن الصيحة بمعنى الصياح ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾ صَرْعَى هَلْكَى.

---

(١) انظر فيما سبق: سورة الأعراف: ص١٢٢ ـ ١٢٧.

(٢) في «ب»: (تعيشوا).

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ يقيموا ويكونوا فيها ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ قرأ حمزة وحفص ويعقوب «ثمودَ» غير منون، وكذلك في سورة الفرقان والعنكبوت والنجم، وافق أبو بكر في النجم، وقرأ الباقون بالتنوين، وقرأ الكسائي «لثمودٍ» بخفض الدال والتنوين، والباقون بنصب الدال، فمن جرَّه فلأنه اسم مذكر، ومن لم يجرّه جعله اسمًا للقبيلة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ﴾ أراد بالرسل الملائكة، واختلفوا في عددهم[1]، فقال ابن عباس وعطاء: كانوا ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقال الضحاك: كانوا تسعة، وقال مقاتل: كانوا اثني عشر مَلَكًا، وقال محمد بن كعب: كان جبريل ومعه سبعة، وقال السدي: كانوا أحد عشر مَلَكًا على صورة الغلمان الوضاء وجوههم ﴿بِالْبُشْرَىٰ﴾ بالبشارة بإسحاق ويعقوب، وقيل: بإهلاك قوم لوط.

﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ أي: سلَّموا سلامًا ﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿سَلَامٌ﴾ أي: عليكم سلام، وقيل: هو رفع على الحكاية، كقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾[البقرة: ٥٨، والأعراف: ١٦١]، وقرأ حمزة والكسائي «سِلْم» هاهنا وفي سورة الذاريات بكسر السين بلا ألف، قيل: هو بمعنى السلام، كما يقال: حِل وحَلال، وحِرم وحَرام، وقيل: هو بمعنى الصلح، أي: نحن سلم، أي: صلح لكم غير حرب.

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾ والحنيذ والمحنوذ: هو المشوي على الحجارة في خَدٍّ من الأرض، وكان سمينًا يسيل دسمًا، كما قال في موضع آخر: ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾[الذاريات: ٢٦]، قال قتادة: كان عامة مال إبراهيم البقر.

﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى العجل ﴿نَكِرَهُمْ﴾ أنكرهم ﴿وَأَوْجَسَ﴾ أضمر ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ خوفًا، قال مقاتل: وقع في قلبه، وأصل الوجس: الدخول، كان الخوف دخل قلبه، وقال قتادة: وذلك أنهم كانوا إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأتِ بخيرٍ وإنما جاء بِشَرٍّ ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ يا إبراهيم (إنا رسل ربك، يعني)[2]: ﴿إِنَّا﴾ ملائكة الله ﴿أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾.

---

(١) انظر في هذه الأقوال: «البحر المحيط»: (٥/ ٢٤١).
(٢) زيادة من «ب».

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ سارة بنت هاران بن أحور[١] وهي ابنة عم إبراهيم ﴿قَآئِمَةٞ﴾ من وراء الستر تسمع كلامهم، وقيل: كانت قائمة تخدم الرسل، وإبراهيم جالس معهم ﴿فَضَحِكَتۡ﴾ قال مجاهد وعكرمة: ضحكتْ، أي: حاضت في الوقت، تقول: العرب ضحكت الأرنب، أي: حاضت، والأكثرون على أن المراد منه الضحك المعروف.

واختلفوا في سبب ضحكها، قيل: ضحكت لزوال الخوف عنها وعن إبراهيم حين قالوا: لا تخف، وقال السدي: لما قرّب إبراهيم الطعام إليهم فلم يأكلوا خاف إبراهيم وظنهم لصوصًا فقال لهم: ألا تأكلون؟ قالوا: إنَّا لا نأكل طعامًا إلاَّ بثمن، قال إبراهيم: فإن له ثمنًا، قالوا: وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره، فنظر جبريل إلى ميكائيل وقال: حُقَّ لهذا أن يتخذه ربُّه خليلًا، فلما رأى إبراهيم وسارة أيديهم لا تصل إليه ضحكت سارة، وقالت: يا عجبًا لأضيافنا إنا نخدمهم بأنفسنا تكرمةً لهم وهم لا يأكلون طعامنا.

وقال قتادة: ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم.

وقال مقاتل والكلبي: ضحكت من خوف إبراهيم من ثلاثة (في بيته)[٢] وهو فيما بين خدمه وحشمه.

وقيل: ضحكت سرورًا بالبشارة.

وقال ابن عباس ووهب: ضحكت تعجبًا من أن يكون لها ولد على كبر سنِّها وسنِّ زوجها.

وعلى هذا القول تكون الآية على التقديم والتأخير، تقديره: وامرأتُه قائمةٌ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، فضحكتْ، وقالت: يا ويلتى ءألِدُ وأنا عجوزٌ؟

قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ﴾ أي: من بعد إسحاق ﴿يَعۡقُوبَ ٧١﴾ أراد به والد الولد فبشرت أنها تعيش حتى / ترى ولد ولدها قرأ ابن عامر وحمزة وحفص ويعقوب بنصب الباء، أي: ١٧٦/ب
من وراء إسحاق يعقوب، وقيل: بإضمار فعل، أي: ووهبنا له (من وراء)[١] يعقوب، وقرأ الباقون بالرفع على حذف حرف الصفة، وقيل: ومن بعد إسحاق يحدث يعقوب، فلما بشرت بالولد ضحكت فصكت وجهها، أي: ضربت وجهها تعجبًا.

---

(١) في «ب»: (ماخوذ).
(٢) ساقط من «ب».

قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ نداء ندبة[1]، وهي كلمة يقولها الإنسان عند رؤية ما يتعجب منه، أي: يا عجبًا، والأصل: يا ويلتاه ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ وكانت ابنة تسعين سنة في قول ابن إسحاق، وقال مجاهد: تسعًا وتسعين سنة ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي﴾ زوجي، سُمي بذلك؛ لأنَّه قيِّم أمرها ﴿شَيْخًاۖ﴾ نصب على الحال، وكان سنُّ إبراهيم مائة وعشرين سنة في قول ابن إسحاق، وقال مجاهد: مائة سنة، وكان بين البشارة والولادة سنة ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني: الملائكة ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۖ﴾ معناه: لا تعجبي من أمر الله، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إذا أراد شيئًا كان ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ﴾ أي: بيت إبراهيم عليه السلام، وقيل: هذا على معنى الدعاء من الملائكة، وقيل: معنى الخير والرحمة والنعمة.

والبركات جمع البركة، وهي ثبوت الخير، وفيه دليل على أن الأزواج من أهل البيت.

﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ فالحميد: المحمود في أفعاله، والمجيد: الكريم، وأصل المجد: الرفعة.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ الخوف ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بإسحاق ويعقوب ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾ فيه إضمار، أي: أخذ وظل يجادلنا.

قيل: معناه يكلمنا؛ لأن إبراهيم عليه السلام لا يجادل ربَّه عزَّ وجلَّ إنما يسأله ويطلب إليه.

وقال عامة أهل التفسير: معناه: يجادل رسلنا، وكانت مجادلته أنه قال للملائكة: أرأيتم لو كان في مدائن لوط خمسون من المؤمنين أتهلكونهم؟ قالوا: لا، قال: أو أربعون؟ قالوا: لا، قال: أو ثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ خمسة، (قالوا: لا)[2]، قال: أرأيتُم إنْ كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا، قال إبراهيم عليه السلام عند ذلك: إن فيها لوطًا، قالوا: نحن أعلم بمن فيها، لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾.

قال ابن جريج: وكان في قرى قوم لوط أربعة آلاف ألف، فقالت الرسل عند ذلك لإبراهيم:

---

(١) في «ب»: (تعجب).

(٢) ساقط من «ب».

﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧﴾

﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ أي: أعرض عن هذا المقال ودع عنك الجدال ﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ أي: عذاب ربِّك (وحكم ربِّك)[1] ﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ﴾ نازل بهم ﴿عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦﴾ أي: غير مصروف عنهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا﴾ يعني: هؤلاء الملائكة ﴿لُوطٗا﴾ على صورة غلمان مرد حسان الوجوه ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ أي: حزن لوط بمجيئهم، يقال: سؤته فسيء، كما يقال: سررته فسر ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ أي: قلبًا، يقال: ضاق ذرع فلان بكذا إذا وقع في مكروه لا يطيق الخروج منه، وذلك أن لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لما نظر إلى حسن وجوههم وطيب روائحهم أشفق عليهم من قومه أن يقصدوهم بالفاحشة، وعلم أنه سيحتاج إلى المدافعة عنهم.

﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧﴾ أي: شديد، كأنه عصب به الشر والبلاء، أي: شدَّ.

قال قتادة والسدي: خرجت الملائكة من عند إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ نحو قرية لوط فأتوا لوطًا نصف النهار، وهو في أرض له يعمل فيها.

وقيل: إنه كان يحتطب، وقد قال الله تعالى لهم: لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فاستضافوه فانطلق بهم، فلما مشى ساعة قال لهم: ما بلغكم أمر أهل هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله إنها لشرُّ قرية في الأرض عملًا، يقول ذلك أربع مرات، فدخلوا معه منزله.

ورُوي: أنه حمل الحطب وتبعته الملائكة فمرَّ على جماعة من قومه فغمزوا فيما بينهم، فقال لوط: إن قومي شر خلق الله، ثم مرَّ على قوم آخرين فغمزوا، فقال مثله، ثم مرَّ بقومٍ آخرين فقال مثله، فكان كلما قال لوط هذا القول قال جبريل للملائكة: اشهدوا، حتى أتى منزله.

ورُوي: أن الملائكة جاؤوا إلى بيت لوط فوجدوه في داره ولم يعلم بذلك أحد إلا أهل بيت لوط، فخرجت امرأته فأخبرت قومها، وقالت: إن في بيت لوط رجالاً ما رأيتُ مثل وجوههم قط[2].

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) انظر: الطبري: (١٥/٤٠٨-٤٠٩، ٤٢٤-٤٢٥)، «الدر المنثور»: (٤/٤٥٧، وما بعدها).

﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ قال ابن عباس وقتادة[1]: يسرعون إليه، وقال مجاهد: يهرولون، وقال الحسن: مشي بين مشيتين، وقال شمر بن عطية: بين الهرولة والجمز[2].

﴿وَمِن قَبۡلُ﴾ أي: من قبل مجيئهم إلى لوط ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ كانوا يأتون الرجال في أدبارهم ﴿قَالَ﴾ لهم لوط حين قصدوا أضيافه وظنوا أنهم غلمان ﴿يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ يعني: بالتزويج، وقى[3] أضيافه ببناته، وكان في ذلك الوقت، تزويج المسلمة من الكافر جائزًا كما زوج النبي ﷺ ابنته من عتبة بن أبي لهب، وأبي العاص بن الربيع قبل الوحي، وكانا كافرين[4].

وقال الحسين بن الفضل: عرض بناته عليهم بشرط الإسلام.

وقال مجاهد وسعيد بن جبير: «هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي» أراد: نساءهم، وأضاف إلى نفسه لأنَّ كلَّ نبي أبو أمته، وفي قراءة أبيّ بن كعب: «ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ»[الأحزاب: ٦]، وهو أب لهم.

وقيل: ذكر ذلك على سبيل الدفع لا على التحقيق، ولم يرضوا عنه.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾ (أي: خافوا اللهَ ولا تخزونِ في ضيفي)[1]، أي: لا تسوؤني ولا تفضحوني في أضيافي ﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾﴾ صالح سديد، قال عكرمة: رجل يقول: لا إله إلا الله، وقال ابن إسحاق: رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ﴾ يا لوط ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾ أي: لسن أزواجًا لنا فنستحقهن بالنكاح، وقيل: معناه مَا لَنَا فيهن من حاجة وشهوة ﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾ من إتيان الرجال.

﴿قَالَ﴾ لهم لوط عند ذلك: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً﴾ أراد: قوة البدن، أو القوة بالأتباع ﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾﴾ أي: انضم إلى عشيرةٍ مانعة، وجواب «لو» مضمر، أي: لقاتلناكم وحُلْنا بينكم وبينهم،

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) في «ب»: (الخبب).

(٣) في «ب»: (وفي).

(٤) ذكره ابن هشام والطبراني والبيهقي وأبو نعيم في «الدلائل» لهما. انظر: «الكافي الشاف»: ص٨٦ ـ ٨٧، «تخريج أحاديث الكشاف»: (١٤٦/٢ ـ ١٤٧).

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ (٨١)﴾

قال أبو هريرة: ما بعث الله بعده نبيًا إلا في منعة من عشيرته.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، أنبأنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب بن أبي حمزة، أنبأنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبيّ ﷺ قال: «يغفرُ اللهُ للوطٍ إنْ كانَ لَيأوي إلى رُكْنٍ شديدٍ»[(١)].

قال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوطٌ بابه والملائكة معه في الدار، وهو يناظرهم ويناشدهم من وراء الباب، / وهم يعالجون تسوُّرَ الجدار، فلما رأتِ الملائكة ما يلقى لوطٌ بسببهم: ١/١٧٧

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ﴾ إن رُكنك لشديد ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ فافتح الباب ودعنا وإيّاهم، ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل ربَّه عزَّ وجلَّ في عقوبتهم، فأذن له، فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه وعليه وشاح من دُرٍّ منظوم، وهو برّاق الثنايا، أجلَىٰ الجبين، ورأسه حُبُك[(٢)] مثل المرجان، كأنه الثلج بياضًا وقدماه إلى الخضرة، فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم، فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم فانصرفوا وهم يقولون: النجاء النجاء، فإن في بيت لوط أسحر قوم في الأرض سحرونا، وجعلوا يقولون: يا لوط كما أنت حتى تصبح فسترى ما تلقى منّا غدًا، يُوعِدُونه، فقال[(٣)] لوط للملائكة: متى موعد إهلاكهم، فقالوا: الصبح، قال: أريد أسرع من ذلك فلو أهلكتموهم الآن، فقالوا: ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾؟ ثم قالوا: ﴿فَأَسۡرِ﴾ يا لوط ﴿بِأَهۡلِكَ﴾ قرأ أهل الحجاز «فاسْرِ» و«أنِ اسْرِ» بوصل الألف (حيث وقع في القرآن)[(٤)] من سرى يسري، وقرأ الباقون بقطع الألف من أسرى يسري، ومعناهما واحد: وهو المسير بالليل.

﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ قال ابن عباس: بطائفة من الليل، وقال الضحاك: ببقية، وقال قتادة: بعد مُضيّ أوله، وقيل: إنه السحر الأول.

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾: (٦/ ٤١٥).

(٢) يعني: (حبك الشعر) وهو الجعد المتكسر منه. وانظر: الطبري: (١٥/ ٤٣٠) مع التعليق عليه.

(٣) هكذا في «المخطوط»، وفي «المطبوع» جاء قبل قول لوط: (قالت الملائكة: لا تخف، إنا أرسلنا لإهلاكهم، فقال لوط . . .).

(٤) ساقط من «ب».

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢﴾

﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتُكَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو «امرأتُك» برفع التاء على الاستثناء من الالتفات، أي: لا يلتفت منكم أحدٌ إلا امرأتُك فإنها تلتفت فتهلك، وكان لوط قد أخرجها معه، ونهى من تبعه ممن أسرى بهم أن يلتفت، سوى[1] زوجته، فإنها لما سمعت هدة العذاب التفتت، وقالت: يا قوماه، فأدركها حجر فقتلها.

وقرأ الآخرون: بنصب التاء على الاستثناء من الإسراء، أي: فأسر بأهلك إلا امرأتك فلا تَسْرِ بِهَا وخلِّفْها مع قومها، فإنَّ هَوَاهَا إليهم، وتصديقُه قراءة ابن مسعود «فأسْرِ بأهلك بقطعٍ من الليل إلا امرأتك ولا يلتفتْ منكم أحد».

﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ من العذاب ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُ﴾ أي: موعد هلاكهم وقت الصبح، فقال لوط: أريد أسرع من ذلك، فقالوا: ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ عذابُنا ﴿جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام أدخل جناحيه تحت قرى قوم لوط المؤتفكات وهي خمس مدائن، وفيها أربعمائة ألف، وقيل: أربعة آلاف ألف، فرفع المدائن كلها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة، ونباح الكلاب، فلم يُكفأ لهم إناءٌ ولم ينتبه نائمٌ، ثم قَلَبها فجعل عاليها سافلها ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا﴾ أي: على شذاذها ومسافريها، وقيل: بعدما قلبها أمطر عليها ﴿حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وسعيد بن جبير: (سنك وكل) فارسي معرب.

وقال قتادة وعكرمة: «السجيل» الطين، دليله قوله عزَّ وجلَّ: «لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ»[الذاريات: ٣٣].

قال مجاهد[2]: أولها حجر وآخرها طين.

وقال الحسن: كان أصل الحجارة طينًا فشددت.

وقال الضحاك: يعني: الآجر.

وقيل: «السجيل» اسم السماء الدنيا[3].

وقيل: هو جبال في السماء، قال الله تعالى: «وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ»[النور: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿مَّنضُودٖ ٨٢﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: متتابع، يتبع بعضها بعضًا، مفعول من النضد، وهو وضع الشيء بعضه فوق بعض.

---

(١) هكذا في «الأصل» وفي «المطبوع»، ولعلها: (فلم يلتفت سوى زوجته) كما جاء في هامش «أ».

(٢) في «ب»: (قال ابن عباس).

(٣) قاله أبو العالية وابن زيد، وهذا ضعيف؛ لوصفه بـ (منضود). انظر: «البحر المحيط»: (٥/٢٤٩).

مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ
يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ
أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ
وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾

﴿مُّسَوَّمَةً﴾ من نعت الحجارة، وهي نصب على الحال، ومعناها: معلمة، قال ابن جريج: عليها سيما لا تُشَاكِلُ حجارة الأرض، وقال قتادة وعكرمة: عليها خطوط حمر على هيئة الجزع، وقال الحسن والسدي: كانت مختومة عليها أمثال الخواتيم، وقيل: مكتوب على كل حجر اسم من رمي به.

﴿عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ﴾ يعني: تلك الحجارة ﴿مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: من مشركي مكة ﴿بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ وقال قتادة وعكرمة: يعني: ظالمي هذه الأمة، والله ما أجار اللهُ منها ظالمًا بعدُ.

وفي بعض الآثار: «مَا مِنْ ظالمٍ إلاَّ وهو بعرضِ حجرٍ يسقط عليه من ساعة إلى ساعة».

ورُوي: أن الحجر اتَّبع شذاذهم ومسافريهم أين كانوا في البلاد، ودخل رجل منهم الحرم فكان الحجر معلقًا في السماء أربعين يومًا حتى خرج فأصابه فأهلكه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ أي: وأرسلنا إلى ولد مدين ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ﴾ أي: لا تبخسوا، وهم كانوا يُطفِّفون مع شِرْكهم ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ قال ابن عباس: موسرين في نعمة، وقال مجاهد: في خصب وسعة، فحذَّرهم زوال النعمة، وغلاء السعر، وحلول النقمة، إن لم يتوبوا، فقال: ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ يحيط بكم فيهلككم.

﴿وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أتموهما ﴿بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ بالعدل، وقيل: بتقويم لسان الميزان، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟﴾ لا تنقصوا ﴿ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعني: ما أبقى الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن خيرٌ مما تأخذونه بالتطفيف، وقال مجاهد: بقية الله، أي: طاعة الله، خير لكم إن كنتم مؤمنين بأن ما عندكم من رزق الله وعطائه ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ بوكيل، وقيل: إنما قال ذلك؛ لأنه لم يؤمر بقتالهم.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الأوثان، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان شعيب عليه السلام كثير الصلاة، لذلك قالوا هذا، وقال الأعمش: يعني: أقراءتك ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ من الزيادة والنقصان.

وقيل: كان شعيب عليه السلام نهاهم عن قطع الدنانير والدراهم وزعم أنه محرم عليهم، فقالوا: أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء من قطعها[(١)].

﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أرادوا: السفيه الغاوي، والعرب تصف الشيء بضده فتقول للديغ: سليم، وللفلاة: مفازة، وقيل[(٢)]: قالوه على وجه الاستهزاء. وقيل: معناه الحليم الرشيد بزعمك، وقيل: هو على الصحة، أي: إنك يا شعيب فينا حليم رشيد، لا يجمل بك شق عصا قومك ومخالفة دينهم، كما قال قوم صالح عليه السلام: «قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا»[هود: ٦٢].

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ بصيرة وبيان ﴿مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ حلالاً،
١٧٧/ب وقيل: كثيرًا، وكان شعيب / عليه السلام كثير المال، وقيل: الرزق الحسن: العلم والمعرفة ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ أي: ما أريد أن أنهاكم عن شيء ثم أرتكبه ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾ ما أريد فيما (آمركم به وأنهاكم عنه)[(٣)] ﴿إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ والتوفيق: تسهيل سبيل الخير والطاعة ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدت ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ أرجع فيما ينزل بي من النوائب، وقيل: في المعاد.

﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يحملنكم ﴿شِقَاقِي﴾ خلافي ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ أي: على فعل ما أنهاكم عنه

---

(١) انظر: الطبري: (١٥/ ٤٥٠ـ٤٥١).
(٢) في «ب»: (وقد) وهو أليق بالسياق.
(٣) في «ب»: (أمرتكم به إلى ما أنهاكم عنه).

﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾

﴿مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ من الغرق ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ من الريح ﴿أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ من الصيحة ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ وذلك أنهم كانوا (حديثي عهد بهلاك)[1] قوم لوط.

(وقيل: معناه: وما دار قوم لوط منكم ببعيد، وذلك أنهم كانوا جيران قوم لوط)[2].

﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ وللودود[3] معنيان، أحدهما: أنه محب للمؤمنين، وقيل: هو بمعنى المودود، أي: محبوب المؤمنين، وجاء في الخبر: إن شعيبًا عليه السلام كان خطيب الأنبياء عليهم السلام[4].

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ﴾ ما نفهم ﴿كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ وذلك أنه كان ضرير البصر، فأرادوا ضعف البصر[5] ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ عشيرتك، وكان في منعة من قومه ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ لقتلناك، والرجم: أقبح من القتل ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا﴾ عندنا ﴿بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: مكان رهطي أهيب عندكم من الله، أي: إن تركتم قتلي لمكان رهطي فالأولى أن تحفظوني في الله ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي: نبذتم أمر الله وراء ظهوركم وتركتموه ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾.

---

(١) في «ب»: (جيران).

(٢) ساقط من «ب».

(٣) في «ب»: (وللود...).

(٤) ذكره أبو الشيخ عن سفيان.
انظر: «فتح القدير» للشوكاني: (٢/ ٥٢٢).

(٥) قال ابن عطية رحمه الله: وهذا ضعيف لا تقوم عليه حجة، بضعف بصره أو بدنه، والظاهر من قولهم: (ضعيفًا) أنه ضعيف الانتصار والقدرة، وأن رهطه الكفرة كانوا يراعون فيه.
وقال أبو روق: إن الله لم يبعث نبيًا أعمى، ولا نبيًا به زمانة.
انظر: «المحرر الوجيز»: (٧/ ٣٨٤)، «البحر المحيط»: (٥/ ٢٥٦).

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ
وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ٩٣ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ
جَٰثِمِينَ ٩٤ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ٩٥ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ
بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٩٦ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ
بِرَشِيدٖ ٩٧ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨
وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ٩٩﴾

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ أي: على تؤدتكم وتمكنكم، يقال: فلان يعمل على مكانته إذا عمل على تؤدة وتمكن ﴿إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾ على تمكني ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ أيّنا الجاني على نفسه، والمخطىء في فعله، فذلك قوله: ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ يذلّه ﴿وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ﴾ قيل: «من» في محل النصب، أي: فسوف تعلمون الكاذب، وقيل: محله رفع، تقديره: ومن هو كاذب يعلم كذبه ويذوق وبال أمره ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ﴾ وانتظروا العذاب ﴿إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ٩٣﴾ منتظر.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ قيل: إن جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة فخرجت أرواحهم، وقيل: أتتهم صيحة من السماء فأهلكتهم ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤﴾ ميتين ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ﴾ أي: كان لم (يقيموا ولم يكونوا)(١) ﴿فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا﴾ هلاكًا ﴿لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ﴾ هلكت ﴿ثَمُودُ ٩٥﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٩٦﴾ حجة بينة.

﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ٩٧﴾ بسديد.

﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ﴾ يتقدمهم ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ﴾ فأدخلهم ﴿ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨﴾ أي: بئس المدخل المدخول فيه.

﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ﴾ أي: في هذه الدنيا ﴿لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ٩٩﴾ أي: العون المعان، وقيل: العطاء المعطى، وذلك أنهم ترادفت عليهم اللعنتان: لعنة في الدنيا، ولعنة في الآخرة.

(١) في «ب»: (يكونوا فيها).

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ﴾ عامر ﴿وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ خراب، وقيل؛ منها قائم بقيت الحيطان وسقطت السقوف، وحصيد، أي: انمحى أثره، وقال مقاتل: قائم يرى له أثر، وحصيد لا يُرى له أثر، وحصيد بمعنى: محصود.

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بالعذاب والهلاك ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعصية ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ عذاب ربك ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ أي: غير تخسير، وقيل: تدمير.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وهكذا ﴿أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا صدقة بن الفضل، أنبأنا أبو معاوية، أنبأنا يزيد بن أبي بردة، عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلِتْهُ»، قال: ثم قرأ: «﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ...﴾»[1] الآية.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ لعبرة ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: يشهده أهل السماء والأرض.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ أي: وما نُؤخر ذلك اليوم، فلا نقيم عليكم القيامة، (وقرأ يعقوب «وما يُؤخره» بالياء)[2] ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ معلوم[3] عند الله.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة هود، باب ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ...﴾: (٨/ ٣٥٤)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم برقم ٢٥٨٣: (٤/ ١٩٩٧ - ١٩٩٨)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٣٥٨).

(٢) ساقط من «ب».

(٣) ساقط من «ب».

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾

﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ قرىء بإثباتِ الياء وحذفها ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ أي: لا تتكلم ﴿نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ أي: فمنهم من سبقت له الشقاوة، ومنهم من سبقت له السعادة.

أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري، أنبأنا جدي أبو سهل عبد الصمد بن عبد الرحمن البزار، أنبأنا أبو بكر محمد بن زكريا، العُذَافِرِيّ، أنبأنا إسحاق بن إبراهيم بن عباد الدَّبَرِيّ، أنبأنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن منصور، عن سعيد بن عبيدة بن أبي عبد الرحمن السُّلَمِيّ، عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: خرجنا على جنازة، فبينا نحن بالبقيع إذْ خرج علينا رسولُ الله ﷺ وبيده مِخْصَرَةٌ، فجاء فجلس، ثم نكتَ بها الأرض ساعة، ثم قال: «ما من نفسٍ منفوسةٍ إلاَّ قد كُتِبَ مكانُها من الجنة أو النار، وإلاَّ وقد كُتِبَتْ شقيةً أو سعيدة»، قال: فقال رجل: أفلا نتكل على كتابنا يا رسول الله وندعُ العملُ؟ قال: «لا، ولكن اعْمَلُوا فكلٌّ ميسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أما أهل الشقاء فيُيَسَّرُون لعمل أهل الشقاء، وأما أهل السعادة فييسَّرُون لعمل أهل السعادة»، قال: ثم تلا: «﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾» [الليل: ٥-١٠] (١).

قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: الزفير: الصوت الشديد، والشهيق: الصوت الضعيف، وقال الضحاك ومقاتل: الزفير: أول نهيق الحمير، والشهيق آخره إذا ردده في جوفه، وقال أبو العالية: الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لابثين مقيمين فيها ﴿مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ قال الضحاك: ما دامت سموات الجنة والنار وأرضهما وكلُّ ما علاكَ وأظلَّكَ فهو سماء، وكل ما استقر عليه قدمك فهو أرض.

قال أهل المعاني: هذا عبارة عن التأبيد على عادة العرب، يقولون: لا آتيك ما دامت السمواتُ والأرض، ولا يكون كذا ما اختلف الليل والنهار، يعنون: أبدًا.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، باب موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله: (٣/ ٢٢٥)، وفي تفسير سورة ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ وفي الأدب وفي القدر، وأخرجه مسلم في القدر، باب كيفية الخلق الآدمي برقم ٢٦٤٧: (٤/ ٢٠٣٩ - ٢٠٤٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ١٣١ - ١٣٢).

اختلفوا في هذين الاستثناءين، فقال بعضُهم: الاستثناء في أهل الشقاء يرجع إلى قوم من المؤمنين يدخلهم الله النار بذنوبٍ اقترفوها، ثم يخرجهم منها فيكون ذلك / استثناء من غير الجنس؛ لأن الذين ١٧٨/أ أخرجوا من النار سعداء استثناهم (الله من جملة الأشقياء)[(١)]، وهذا كما:

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد بن عبد الله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا حفص بن عمر حدثنا هشام عن قتادة، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «لَيُصِيبَنَّ أقوامًا سَفْعٌ من النار بذنوبٍ أصابوها، ثم يدخلهم الله الجنةَ بفضلِ رحمتِهِ، فيقال لهم: الجَهَنَّمِيُّون»[(٢)].

وأخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، قال: أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا مسدد، أخبرنا يحيى عن الحسن بن ذكوان، أنبأنا أبو رجاء، حدثني عمران ابن حصين ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «يخرج قومٌ من النار بشفاعةِ محمدٍ، فيدخلون الجنة، ويسمون الجُهَنَّمِيِّين»[(٣)].

وأما الاستثناء في أهل السعادة فيرجع إلى مدة لبثهم في النار قبل دخول الجنة.

وقيل: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ من الفريقين من تعميرهم في الدنيا واحتباسهم في البرزخ ما بين الموت والبعث، قبل مصيرهم إلى الجنة أو النار، يعني: هم خالدون في الجنة أو النار إلا هذا المقدار.

وقيل: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾: سوى ما شاء ربك، (معناه: خالدين فيها ما دامت السموات والأرض سوى ما شاء ربك)[(٤)] من الزيادة على قدر مدة بقاء السموات والأرض، وذلك هو الخلود فيها، كما تقول: لفلان عليَّ ألف إلا الألفين، أي: سوى الألفين اللتين تقدمتا.

---

(١) في «ب»: (من الأشقياء).

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، باب صفة الجنة والنار: (١١/ ٤١٦) وفي التوحيد، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: (١٣/ ٤٣٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ١٨٣).
وسَفْع من النار، أي: سواد من لفح النار، أو علامة منها.

(٣) أخرجه البخاري في الموضع السابق: (١١/ ٤١٨)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ١٨٣ ـ ١٨٤).

(٤) قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأولى الأقوال في تأويل هذه الآية بالصواب، القولُ الذي ذكرناه عن قتادة والضحاك: من أن ذلك استثناء في أهل التوحيد من أهل الكبائر، أنه يدخلهم النار خالدين فيها أبدًا، إلا ما شاء من تركهم فيها أقلّ من ذلك، ثم يخرجهم فيدخلهم الجنة، وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال بالصحة في ذلك: لأن الله جل ثناؤه أوعد أهل الشرك به الخلودَ في النار، وتظاهرت بذلك الأخبار عن رسول الله ﷺ، فغير جائز أن يكون استثناءً في أهل الشرك، وأن الأخبار قد تواترت عن رسول الله ﷺ أن الله يدخل قومًا من أهل الإيمان بذنوب أصابوها النارَ، ثم يخرجهم منها فيدخلهم الجنة، فغير جائز أن يكون ذلك استثناء في أهل التوحيد قبل دخولها، مع صحة الأخبار عن رسول الله ﷺ بما ذكرنا، وإنَّا وإن جعلناه استثناء في ذلك كنَّا قد دخلنا في قول من يقول: (لا يدخل الجنة فاسق، ولا النار مؤمن)، وذلك خلاف مذهب أهل العلم، وما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ فإذا فسد هذان الوجهان، فلا قول قال به القدوة من أهل العلم إلا الثالث ـ أي: هذا الراجح ـ. انظر: الطبري: (١٥/ ٤٨٤ ـ ٤٨٥).

۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾

وقيل: «إلاَّ» بمعنى الواو، أي: وقد شاء ربُّك خلود هؤلاء في النار وهؤلاء في الجنة، كقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[البقرة: ١٥٠]، أي: ولا الذين ظلموا.

وقيل: معناه: لو شاء ربك لأخرجهم منها، ولكنه لا يشاء أنه حكم لهم الخلود.

قال الفراء: هذا الاستثناء استثناه الله ولا يفعله، كقولك: والله لأضربنَّك إلا أن أرى غير ذلك، وعزيمتك أن تضربه[١].

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص «سُعِدُواْ» بضم السين (وكسر العين)[٢]، أي: رُزقوا السعادة، وسُعِدَ وأُسْعِدَ بمعنًى واحد، وقرأ الآخرون بفتح السين قياسًا على «شَقُواْ» ﴿فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ قال الضحاك: إلا ما مكثوا في النار حتى أُدخلوا الجنة، قال قتادة: الله أعلم بثنياه ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: غير مقطوع، قال ابن زيد: أخبرنا الله تعالى بالذي يشاء لأهل الجنة فقال: «عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ»، ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار.

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: ليأتين على جهنَّم زمان ليس فيها أحد، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقابًا[٣].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مثله[٤].

ومعناه عند أهل السنة إن ثبت: أن لا يبقى فيها أحد من أهل الإيمان، وأما مواضع الكفار فممتلئة أبدًا.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ في شك ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أنهم ضُلَّال ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ﴾ فيه إضمار، أي: كما كان يعبد ﴿ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ حظهم من الجزاء ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾.

---

(١) انظر: التعليق السابق.

(٢) ساقط من «ب».

(٣) رواه البزار موقوفًا على عمرو بن العاص، ورواه ابن عدي مرفوعًا عن أنس: (٥/ ١٨٦٣) وأعلَّه بالعلاء بن زيد، وقال: منكر الحديث، ورواه ابن الجوزي في «الموضوعات». انظر: «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي: (٢/ ١٤٨)، «سلسلة الأحاديث الضعيفة»: برقم٦٠٦، «فتح القدير» للشوكاني: (٢/ ٥٢٧).

(٤) عزاه السيوطي لإسحاق بن راهويه. «الدر المنثور»: (٤/ ٤٧٨)، وانظر: «فتح القدير»: الموضع السابق، وفيه ردّه على الزمخشري.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ التوراة ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ فَمن مصدق به ومكذب، كما فعل قومك بالقرآن، يُعزّي نبيَّه ﷺ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في تأخير العذاب عنهم ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لعُذّبوا في الحال وفُرغ من عذابهم وإهلاكهم ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ موقع في الريبة والتهمة.

﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر: «وإنْ كلًّا» ساكنة النون على تخفيف إن الثقيلة، والباقون بتشديدها، ﴿لَّمَّا﴾ شدَّدها هنا وفي يٓس والطارق: ابن عامر وعاصم وحمزة، (وافق أبو جعفر هاهنا، وفي الطارق وفي الزخرف، بالتشديد عاصم وحمزة)[1]، والباقون بالتخفيف، فمن شدد قال الأصل فيه «وَإِنَّ كُلًّا» (لمن ما، فوصلت من الجارة بما، فانقلبت النون ميمًا للإدغام، فاجتمعت ثلاث ميمات فحذفت إحداهن، فبقيت «لمّا» بالتشديد، و«ما» هاهنا بمعنى: «مَنْ» هو اسم لجماعة من الناس، كما قال تعالى: «فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم»[النساء: ٣]، أي: من طاب لكم، والمعنى: وإنَّ كلًّا لمن جماعة ليوفينَّهم)[1].

ومن قرأ بالتخفيف قال: «ما» صلة (زيدت بين اللامين ليفصل بينهما كراهة اجتماعهما، والمعنى)[1]: وإن كلًّا ليوفينَّهم.

وقيل: «ما» بمعنى «مَنْ»، تقدير: لمن ليوفينهم، واللام في «لما» لام التأكيد (التي تدخل على خبر إن)[1]، وفي ليوفينَّهم لام القسم، (والقسم مضمر)[1] تقديره: الله ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ أي: جزاء أعمالهم ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي: استقم على دين ربك، والعمل به، والدعاء إليه كما أمرت ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أي: ومن آمن معك فليستقيموا، قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ روغان الثعلب[2].

أخبرنا الإمام الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان، أخبرنا والدي إملاءً، حدثنا أبو بكر محمد بن إسحاق، حدثنا محمد بن العلاء بن كريب، حدثنا أبو أسامة، عن هشام بن

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٢) عزاه في «كنز العمال»: (٢/ ٤٩٥) لسعيد بن منصور وابن المبارك وأحمد في «الزهد» وعبد بن حميد والحاكم وابن المنذر ورُسْته في «الإيمان» والصابوني في «المائتين».

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾

عروة، عن أبيه، عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلتُ: يا رسول الله، قلْ لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا بعدك، قال: «قلْ آمنتُ بالله ثم استقم»[(١)].

﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ لا تجاوزوا أمري ولا تعصوني، وقيل: معناه: ولا تغلوا فتزيدوا على ما أمرتُ ونهيتُ.

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ لا يخفى عليه من أعمالكم شيء، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما نزلت على رسول الله ﷺ آية هي أشدُّ عليه من هذه الآية، ولذلك قال: «شيَّبتني هودٌ وأخواتُها»[(٢)].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا عبد السلام بن مُطَهَّر، ثنا عُمر بن علي، عن معن بن محمد الغفاري، عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُرِيّ، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الدين يُسْرٌ ولنْ يشادَّ الدينَ أحدٌ إلاَّ غلبه، فسدِّدُوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدُّلْجة»[(٣)].

قوله عزَّ وجل: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ولا تميلوا، والركون: هو المحبة والميل بالقلب، وقال أبو العالية: لا ترضوا بأعمالهم، قال السدي: لا تداهنوا الظلمة، وعن عكرمة: لا تطيعوهم، وقيل: لا تسكنوا إلى الذين ظلموا ﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾ فتصيبكم ﴿ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: أعوان يمنعونكم من عذابه ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: الغداة والعشي، (يعني: صلاة الصبح والمغرب)[(٤)]، قال مجاهد: طرفا النهار صلاة الصبح[(٤)] والظهر والعصر، «وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ»: صلاة المغرب والعشاء.

وقال مقاتل: صلاة الفجر والظهر طرف، وصلاة العصر والمغرب طرف، وزلفًا من الليل، يعني: صلاة العشاء.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام برقم٣٨: (١/ ٦٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ٣١).

(٢) سيأتي تخريجه قريبًا في ختام السورة.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان، باب الدين يسر: (١/ ٩٣)، والمصنف في «شرح السنة»: (٤/ ٤٩ ـ ٥٠).
والدُّلجة: هي السير آخر الليل، وقيل: الليل كله.

(٤) ساقط من «ب».

وقال الحسن: طرفا النهار: الصبح والعصر، وزُلَفًا من الليل: المغرب والعشاء، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: طرفا النهار: الغداة والعشي، يعني: صلاة الصبح والمغرب.

قوله: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: / ساعاته، واحدتها زلفة، وقرأ أبو جعفر «زُلُفًا» بضم اللام. ١٧٨/ب

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يعني: إن الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات.

رُوي أنها نزلت في أبي اليَسَر، قال: أتتني امرأة تبتاع تمرًا فقلتُ لها: إن في البيت تمرًا أطيب منه فدخلت معي البيت، فأهويتُ إليها فقبلتها، فأتيتُ أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ فذكرت ذلك له فقال: استرْ على نفسك وتُبْ، فأتيتُ عمر ـ رضي الله عنه ـ فذكرت ذلك له، فقال: استرْ على نفسك وتُبْ، فلم أصبر فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: «أخلفتَ غازيًا في سبيل الله في أهله بمثل هذا»؟! حتى ظنَّ أنه من أهل النار؟ فأطرق رسول الله ﷺ حتى أوحى الله إليه: «وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ. . .» الآية، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: ألهذا خاصةً أم للناس عامةً؟ قال: «بلْ للناس عامةً»[1].

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، أنبأنا قتيبة بن سعيد، حدثنا يزيد بن زريع، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي، عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن رجلًا أصاب من امرأة قبلة فأتى النبيَّ ﷺ فأخبره، فأنزل الله تعالى: «وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ»، قال الرجل: يا رسول الله أَلِيَ هذا؟ قال: «لجميع أُمتي كلهم»[2].

وأخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أنبأنا عبد الغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، أنبأنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثني أبو طاهر وهارون بن سعيد الأيلي قالا: حدثنا ابن وهب، عن أبي صخر أن عمر بن إسحاق مولى زائدة حدثه عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلواتُ الخمس والجمعةُ إلى الجمعة ورمضانُ إلى رمضان مكفراتٌ لما بينهنَّ إذا اجتُنِبَتِ الكبائر»[3].

وأخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا محمد الحسين بن أحمد المخلدي، أنبأنا أبو العباس محمد بن إسحاق السراج، أنبأنا قتيبة، أنبأنا الليث وبكر بن مضر، عن ابن الهادي، عن محمد بن إبراهيم التيمي،

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة هود، عن أبي اليسر: (٨/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب . . . وفي الباب عن أبي أُمامة وواثلة الأسقع وأنس بن مالك، وأبو اليَسَرَ اسمه: كعب بن عمرو. وأخرجه أيضًا النسائي والبزار وابن مردويه والطبراني والطبري. وانظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٤٨٢)، «فتح الباري»: (٨/ ٣٥٦)، «الكافي الشاف»: ص٨٨، «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٠٦ـ٣١٠.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، سورة هود، باب ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ. . .﴾: (٨/ ٣٥٥).

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة. . . برقم ٢٣٣: (١/ ٢٠٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (٢/ ١٧٧).

﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسلُ فيه كلَّ يومٍ خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء»؟ قالوا: لا، قال: «فكذلك مَثَلُ الصلواتِ الخمس، يمحو الله بهنَّ الخطايا»[(١)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الذي ذكرنا، وقيل: هو إشارة إلى القرآن ﴿ذِكْرَىٰ﴾ عِظة ﴿لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ أي: لمن ذكره.

﴿وَٱصْبِرْ﴾ يا محمد على ما تلقى من الأذى، وقيل: على الصلاة، ونظيره: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[طه: ١٣٢] ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ في أعمالهم، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعني: المصلين.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلا ﴿كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ التي أهلكناهم ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ والآية للتوبيخ ﴿أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ﴾ أي: أولو تمييز، وقيل: أولو طاعة، وقيل: أولو خير، يقال: فلان ذو بقية إذا كان فيه خير، معناه: فهلا كان من القرون من قبلكم من فيه خير ينهى عن الفساد في الأرض؟ (وقيل: معناه أُولو بقية من خير، يقال: فلان على بقية من الخير إذا كان على خصلة محمودة)[(٢)].

﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يقومون بالنهي عن الفساد، ومعناه: جحد، أي: لم يكن فيهما أولو بقية ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ هذا استثناء منقطع معناه: لكن قليلًا ﴿مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ وهم أتباع الأنبياء كانوا ينهون عن الفساد في الأرض ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟﴾ نَعِمُوا ﴿فِيهِ﴾ والمترَفُ: المُنعم، وقال مقاتل بن حيان: خُوِّلوا، وقال الفراء: (عُوِّدُوا من النعيم واللذات وإيثار الدنيا)[(٣)]، أي: واتبع الذين ظلموا ما عودوا من النعيم واللذات وإيثار الدنيا على الآخرة ﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ كافرين.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ أي: لا يهلكهم بشركهم ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ فيما

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة: (٢/ ١١)، ومسلم في المساجد، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا برقم٦٦٧: (١/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣)، والمصنف في «شرح السنة»: (٢/ ١٧٥).

(٢) ساقط من «ب».

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

بينهم، يتعاطون الإنصاف، ولا يظلم بعضهم بعضًا، وإنما يهلكهم إذا تظالموا، وقيل: لا يهلكهم بظلم منه وهم مصلحون في أعمالهم، ولكن يهلكهم بكفرهم وركوبهم السيئات.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ﴾ كلهم ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على دين واحد ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ على أديان شتى: من بين يهودي، ونصراني ومجوسي، ومشرك.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ معناه: لكن من رحم ربك فهداهم إلى الحق فهم لا يختلفون ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال الحسن وعطاء: وللاختلاف خلقهم. وقال أشهب: سألتُ مالكًا عن هذه الآية، فقال: خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير. وقال أبو عبيدة: الذي أختاره قول من قال: خلق فريقًا لرحمته وفريقًا لعذابه.

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: وللرحمة خلقهم، يعني: الذين رحمهم.

وقال الفراء: خلق أهل الرحمة للرحمة، وأهل الاختلاف للاختلاف.

وحاصل(1) الآية: أن أهل الباطل مختلفون، وأهل الحق متفقون، فخلق الله أهل الحق للاتفاق، وأهل الباطل للاختلاف.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وتم حكم ربك ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ معناه: وكل الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل، أي: من أخبارهم وأخبار أممهم نقصُّها عليك لنثبّتَ به فؤادك، لنزيدك يقينًا ونقوي قلبك، وذلك أنَّ النبي ﷺ إذا سمعها كان في ذلك تقوية لقلبه على الصبر على أذى قومه.

﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ﴾ قال الحسن وقتادة: في هذه الدنيا.

وقال غيرهما: في هذه السورة، وهذا قول الأكثرين.

خصَّ هذه السورة تشريفًا، وإن كان قد جاءه الحقُّ في جميع السور.

﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ أي: وجاءتك موعظة ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

---

(1) في «ب»: (ومحصول...).

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ۝١٢١ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝١٢٢ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٢٣﴾

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أمرُ تهديدٍ ووعيدٍ ﴿إِنَّا عَـٰمِلُونَ ۝١٢١﴾.

﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ ما يحل بنا من رحمة الله ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝١٢٢﴾ ما يحل بكم من نقمة الله.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: علم ما غاب عن العباد فيهما ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ في المعاد.

قرأ نافع وحفص: «يُرْجَع» بضم الياء وفتح الجيم، أي: يرد، وقرأ الآخرون بفتح الياء وكسر الجيم، أي: يعود الأمر كله إليه حتى لا يكون للخلق أمر.

﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وثِقْ به ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٢٣﴾ قرأ أهل المدينة والشام وحفص ويعقوب: «تعملون» بالتاء هاهنا وفي آخر سورة النمل، وقرأ الآخرون بالياء فيهما.

قال كعب: خاتمة التوراة خاتمة سورة هود[1].

أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني، أنبأنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي، أنبأنا أبو
١٧٩/أ سعيد / الهيثم بن كليب، حدثنا أبو عيسى الترمذي، حدثنا أبو كُريب محمد بن العلاء، حدثنا معاوية بن هشام، عن شيبان، عن أبي إسحاق، عن عكرمة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله قد شبت! فقال ﷺ: «شيبتني هودٌ، والواقعة، والمرسلاتُ، وعمَّ يتساءلونَ وإذا الشمس كُوِّرتْ»[2]. ويُروى: «شيبتني هودٌ وأخواتُها»[3].

---

(١) أخرجه الطبري عن كعب: (١١/ ٢٥٢)، (١٥/ ٥٤٥)، ورجال إسناده ثقات، وقال السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٤٩٣): (وأخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد»، وابن الضريس في «فضائل الأعمال»، وابن جرير، وأبو الشيخ).

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الواقعة: (٩/ ١٨٤)، وقال: (هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه)، وأخرجه في كتابه المفرد «الشمائل»: ص٤٦، وصححه الحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٣٤٣)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٣٧٢)، وأخرجه ابن أبي شيبة والبزار والطبراني، وذكره الدارقطني في «العلل»، وأخرجه البيهقي عن عمر بن الخطاب، وابن سعد وابن عدي من رواية يزيد الرقاشي عن أنس.
انظر: «المطالب العالية»: (٣/ ٣٤٢)، «الكافي الشاف»: ص٨٧، «فيض القدير» للمناوي: (٤/ ١٦٨)، «مجمع الزوائد»: (٧/ ٣٧).

(٣) أخرجه الترمذي في «الشمائل المحمدية»: ص٤٧ عن أبي جحيفة السُّوائي، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٣٧٤)، والطبراني عن عقبة بن عامر.
وقال البوصيري: (رواه أبو يعلى، والترمذي في «الشمائل»، ورواته ثقات). انظر: «فيض القدير»: (٤/ ١٦٨ ـ ١٦٩)، «المطالب العالية»: (٣/ ٣٤٢).

سورة يوسف

سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مكية[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾
نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن
قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾﴾ أي: البيِّن حلالُه وحرامه، وحدوده وأحكامه.

قال قتادة: مبين ـ والله ـ بركتُه وهداه ورشدُه، فهذا مِنْ بان، أي: ظهر.

وقال الزجَّاج: مبيِّنٌ الحَقَّ من الباطل والحلال من الحرام، فهذا من أبان بمعنى أظهر.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ يعني: الكتاب ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ أي: أنزلناه بلغتكم، لكي تعلموا معانيه، وتفهموا ما فيه.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي: نقرأ عليك ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ والقاصُّ: هو الذي يتبع[2] الآثار ويأتي بالخبر على وجهه.

معناه: نبيِّن لك أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية أحسن البيان.

وقيل: المراد منه: قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ خاصة، سمَّاها أحسن القصص لِمَا فيها من العِبَر والحِكَمِ والنُّكَتِ والفوائد التي تصلح للدِّين والدنيا، من سِيَرِ الملوك والمماليك، والعلماء، ومكر النساء، والصبر على أذى الأعداء، وحسن التجاوز عنهم بعد الالتقاء، وغير ذلك من الفوائد.

قال خالد بن معدان: سورة يوسف وسورة مريم يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة.

---

(١) قال ابن عباس وقتادة: مكية، إلا ثلاث آيات من أولها، ونقل القرطبي عنهما: إلا أربع آيات.
انظر: «البحر المحيط»: (٥/ ٢٧٧)، القرطبي: (٩/ ١١٨).

(٢) في «ب»: (يتتبع).

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾

وقال ابن عطاء: لا يسمع(١) سورة يوسف محزون إلا استراح إليها.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ «ما» المصدر، أي: بإيحائنا إليك ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ﴾ وقد كنت ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: (قبل وحينا)(٢) ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ لمن الساهين عن هذه القصة لا تعلمها.

قال سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زمانًا فقالوا: يا رسول الله لو حدثتنا، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾[الزمر: ٢٣]»، فقالوا: يا رسول الله لو قصصتَ علينا، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾»، فقالوا: يا رسول الله لو ذكرتنا، فأنزل الله عزَّ وجلَّ(٣): «﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[الحديد: ١٦]».

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ أي: واذكر إذْ قال يوسف لأبيه، ويوسف اسم عبري عُرِّب(٤)، ولذلك لا يجري (عليه الإعراب)(٢)، وقيل: عربي.

سئل أبو الحسن الأقطع عن يوسف؟ فقال: الأسف في اللغة: الحزن، والأسيف: العبد، واجتمعا في يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فسُمِّي به.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل قال: قال عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الصمد، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الكريمَ ابنَ الكريمِ ابن الكريم ابنِ الكريم يوسفُ بنُ يعقوبَ بن إسحاق بن إبراهيم»(٥).

﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر «يا أبتَ» بفتح التاء في جميع القرآن على تقدير: يا أبتاه.

وقرأ الآخرون: «يا أبتِ» بكسر التاء؛ لأن أصله: يا أبتْ، والجزم يحرك إلى الكسر.

---

(١) في «ب»: (يسمع).

(٢) ساقط من «أ».

(٣) أخرجه الطبري: (١٥/ ٥٥)، وصححه ابن حبان: ص٤٣٢ من «موارد الظمآن»، والحاكم: (٢/ ٣٤٥) ووافقه الذهبي، ومن طريقه أخرجه الواحدي في «أسباب النزول»: ص٣١١. وأخرجه أيضًا: إسحاق بن راهويه والبزار وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه. انظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٤٩٦)، «المطالب العالية»: (٣/ ٣٤٣).

(٤) ساقط من «ب».

(٥) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾: (٦/ ٤١٩)، وفي تفسير سورة يوسف، باب ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾: (٨/ ٣٦١) وفي المناقب أيضًا، ورواه مسلم مختصرًا، وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ١٢٦). انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للألباني: (٤/ ١٥٢).

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥﴾

﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا﴾ أي: نجمًا من نجوم السماء، ونصب الكواكب على التفسير.

﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤﴾ ولم يقل: رأيتها إليَّ ساجدة، والهاء والميم والياء والنون من كنايات من يعقل؛ لأنه لمَّا أخبر عنها بفعل من يعقل عبر عنها بكناية من يعقل كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾[النمل: ١٨].

وكان النجوم في التأويل إخوته[١]، وكانوا أحد عشر رجلًا، يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم، والشمس أبوه، والقمر أمه، قاله قتادة.

وقال السدي: القمر خالته؛ لأن أمه راحيل كانت قد ماتت.

وقال ابن جريج: القمر أبوه، والشمس أمه؛ لأن الشمس مؤنثة والقمر مذكر.

وكان يوسف عليه السلام ابن اثنتي عشرة سنة حين رأى هذه الرؤيا.

وقيل: رآها ليلة الجمعة ليلة القدر، فلما قصها على أبيه ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾ وذلك أن رؤيا الأنبياء عليهم السلام وحي، فعلم يعقوب أن الإخوة إذا سمعوها حسدوه فأمره بالكتمان ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ فيحتالوا في إهلاكك؛ لأنهم يعلمون تأويلها فيحسدونك، واللام في قوله «لك» صلة، كقوله تعالى: ﴿لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾[الأعراف: ١٥٤]، وقيل: هو مثل قولهم: نصحتك ونصحت لك، وشكرتك وشكرت لك ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥﴾ أي: يزين لهم الشيطانُ، ويحملهم على الكيد؛ لعداوته القديمة.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا عبد الرحمن بن أبي شريح، أنبأنا أبو القاسم البغوي، حدثنا علي بن الجعد، أنبأنا شعبة، عن عبد ربه بن سعيد قال: سمعت أبا سلمة قال: كنتُ أرى الرؤيا تهمّني حتى سمعتُ أبا قتادة يقول: كنت أرى الرؤيا فتمرضني، حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرؤيا الصالحةُ من الله تعالى، (والحُلْمُ من الشَّيطان)[٢]، فإذا رأى أحدُكم ما يحبُّ فلا يحدِّثْ به إلاَّ من يحبُّ، وإذا رأى ما يكره ليتعوذْ بالله من شرِّها ومن شرِّ الشيطان، وَلْيَتْفُلْ ثلاثًا، ولا يحدِّثْ به أحدًا فإنها لنْ تضرّ»[٣].

---

(١) في «أ»: (أخواته).

(٢) ساقط من «أ».

(٣) أخرجه البخاري في التعبير، باب الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة: (١٢/ ٣٧٣)، ومسلم في أول كتاب الرؤيا برقم ٢٢٦١: (٤/ ١٧٧٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٢/ ٢٠٦).

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا عبد الرحمن بن أبي شريح، أنبأنا أبو القاسم البغوي، حدثنا علي بن الجعد، أنبأنا شعبة عن يعلى بن عطاء، عن وكيع بن عدس، عن أبي رزين العقيلي قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا جزءٌ من أربعينَ أو ستةٍ وأربعينَ جزءًا من النبوة، وهو على رِجْلِ طائرٍ فإذا حدث بها وقعت»، وأحسبُهُ قال: «لا تُحَدِّثْ بها إلا حبيبًا أو لبيبًا»[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ يصطفيك ربك، يقوله يعقوب ليوسف، أي: كما رفع منزلتك بهذه الرؤيا، فكذلك يصطفيك ربُّك ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ يريد تعبير الرؤيا، سمي تأويلًا لأنه يؤول أمره إلى ما رأى في منامه، والتأويل ما يؤول إلى عاقبة الأمر ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ يعني: بالنبوة ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ أي: على أولاده، فإنَّ أولاده كلهم كانوا أنبياء ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ فجعلهما نبيين ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾.

وقيل: المراد من إتمام النعمة على إبراهيم الخلّة.

وقيل: إنجاؤه من النار، وعلى إسحاق إنجاؤه من الذبح[2].

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب الرؤيا: (٧/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩)، والترمذي في الرؤيا، باب ما جاء في تعبير الرؤيا: (٦/ ٥٥٨ ـ ٥٥٩)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وابن ماجه في تعبير الرؤيا، باب الرؤيا إذا عبرت وقعت . . . برقم٣٩١٤: (٢/ ١٢٨٨)، وصححه الحاكم: (٤/ ٣٩٠) ووافقه الذهبي، وأخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٤/ ١٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٢/ ٢١٣)، وقال: هذا حديث حسن.

وقوله: «على رِجْل طائر» مَثَلٌ، ومعناه: أنها لا تستقر قرارها ما لم تعبر، وأما تحديثه بها الحبيب فلأنه لا يستقبلك في تفسيرها إلا بما تحب، واللبيب يخبرك بحقيقتها أو بأقرب ما يعلم منها.

(٢) هذا على القول بأن الذبيح هو إسحاق عليه السلام، والصحيح الثابت خلافه، ولذلك نضع هنا كلمة ضافية لابن القيم وشيخه ابن تيمية ـ رحمهما الله ـ فيها إبطال القول بأن الذبيح هو إسحاق.

قال ابن القيم في «زاد المعاد» (١/ ٧١ ـ ٧٥): (وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهًا، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم، فإن فيه: إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنَه بِكْرَه، وفي لفظ: وحيده، ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده، والذي غرَّ أصحاب هذا القول أن في التوراة التي بأيديهم: اذبح ابنك إسحاق، قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم؛ لأنها تناقض قوله: اذبح بكرك ووحيدك، ولكن اليهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويحتازوه لأنفسهم دون العرب، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله، وكيف يسوغ أن يُقال: إن الذبيح إسحاق، والله تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب، فقال تعالى عن الملائكة: إنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۞ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧٠ ـ ٧١] فمحال أن يبشرها بأنه يكون لها ولد، ثم يأمر بذبحه، ولا ريبَ أن يعقوب عليه السلام داخل في البشارة، فتَنَاوُلُ البشارة لإسحاق ويعقوب في اللفظ واحد، وهذا ظاهِر الكلام وسياقُه.

=

فإن قيل: لو كان الأمر كما ذكرتموه لكان «يعقوب» مجرورًا عطفًا على إسحاق، فكانت القراءة «وَمِن وَرَاءِ إِسحاقَ يَعقوبَ»، أي: ويعقوب من وراء إسحاق، قيل: لا يمنع الرفعُ أن يكون يعقوبُ مبشرًا به؛ لأن البشارة قولٌ مخصوص، وهي أولُ خبر سارٍّ صادق، وقوله تعالى: «ومن وراء إسحاق يعقوب» جملة متضمنة لهذه القيود، فتكون بشارة، بل حقيقة البشارة هي الجملة الخبرية، ولما كانت البشارة قولاً، كان موضع هذه الجملة نصبًا على الحكاية بالقول، كأن المعنى: وقلنا لها: من وراء إسحاق يعقوب، والقائل إذا قال: بشرتُ فلانًا بقُدوم أخيه وثَقَلِه في أثره، لم يعقل منه إلا بشارته بالأمرين جميعًا، هذا مما لا يستريبُ ذو فهم فيه البتة، ثم يُضعف الجرَّ أمر آخر، وهو ضعف قولك: مررت بزيد وَمِنْ بعده عمرو؛ لأن العاطف يقوم مقام حرف الجرّ، فلا يفصل بينه وبين المجرور، كما لا يفصل بين حرف الجار والمجرور، ويدل عليه أيضًا أن الله سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح في سورة الصافات قال: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ * وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الصافات: ١٠٣ ـ ١١١]، ثم قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]، فهذه بشارة من الله تعالى له شكرًا على صبره على ما أُمِرَ به، وهذا ظاهر جدًّا في أن المبشَّر به غيرُ الأول، بل هو كالنص فيه.

فإن قيل: فالبشارة الثانية وقعت على نبوته، أي: لما صبر الأب على ما أُمر به، وأَسلم الولد لأمر الله، جازاه الله على ذلك بأن أعطاه النُّبوة.

قيل: البشارة وقعت على المجموع: على ذاته ووجوده، وأن يكون نبيًّا، ولهذا نصب «نبيًّا» على الحال المقدَّر، أي: مقدرًا نبوته، فلا يمكن إخراجُ البِشارة أن تقع على الأصل، ثم تخص بالحال التابعة الجارية مجرى الفَضْلَةِ، هذا مُحال من الكلام، بل إذا وقعت البِشارةُ على نبوته فوقوعها على وجوده أولى وأحرى.

وأيضًا فلا ريب أن الذبيح كان بمكَّة، ولذلك جُعلت القرابينُ يومَ النَّحر بها، كما جُعِل السعيُ بين الصفا والمروة ورمي الجمار تذكيرًا لشأن إسماعيل وأُمِّه، وإقامةً لذكر الله، ومعلوم أن إسماعيل وأُمه هما اللَّذان كانا بمكّة دون إسحاق وأمه، ولهذا اتصل مكانُ الذبح وزمانُه بالبيت الحرام الذي اشترك في بنائه إبراهيم وإسماعيل، وكان النَّحرُ بمكَّة مِن تمام حج البيت الذي كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زمانًا ومكانًا، ولو كان الذبيح بالشام كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم، لكانت القرابين والنَّحر بالشام، لا بمكَّة.

وأيضًا فإن الله سبحانه سمى الذبيح حليمًا؛ لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه، ولما ذكر إسحاق سماه عليمًا، فقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾[الذاريات: ٢٤، ٢٥] إلى أن قال: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾[الذاريات: ٢٨]، وهذا إسحاق بلا ريب؛ لأنه من امرأته، وهي المبشَّرة به، وأمَّا إسماعيل، فمن السُّرِّيَّة، وأيضًا فإنهما بُشِّرا به على الكِبَر واليَأْسِ من الولد، وهذا بخلاف إسماعيل، فإنه ولد قبل ذلك.

وأيضًا فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أنَّ بكر الأولاد أحبُّ إلى الوالدين ممن بعده، وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد، ووهبه له، تعلقت شُعْبَةٌ من قلبه بمحبته، والله تعالى قد اتخذه خليلًا، والخُلة مَنْصِبٌ يقتضي توحيدَ المحبوب بالمحبة، وأن لا يُشارك بينه وبين غيره فيها، فلما أخذ الولدُ شعبةً من قلب الوالد، جاءت غَيْرَةُ الخُلَّة تنتزعها من قلب الخليل، فأمره بذبح المحبوب، فلما أقدم على ذبحه، وكانت محبةُ الله أعظمَ عنده من محبة الولد، خَلَصَتِ الخلة حينئذٍ من شوائب المشاركة، فلم يبق في الذبح مصلحة، إذ كانت المصلحةُ إنما هي في العزم وتوطين النفس عليه، فقد حَصَل المقصودُ، فَنُسِخَ الأمر، وَفُدِي الذبيح، وصَدَّق الخليلُ الرؤيا، وحصل مراد الرَّبِّ.

ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما حصل عند أول مولود، ولم يكن ليحصل في المولود الآخر دون الأول، بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة ما يقتضي الأمر بذبحه، وهذا في غاية الظهور.

وأيضًا فإن سارة امرأة الخليل ﷺ غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة، فإنها كانت جارية، فلما ولدت إسماعيل وأَحبَّه أبوه، اشتدت غيرة «سارة»، فأمر الله سبحانه أن يُبعد عنها «هاجر» وابنها، ويسكنها في أرض مكّة لتبرد عن «سارة» حرارةُ الغيرة، وهذا من رحمته تعالى ورأفته، فكيف يأمره سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها، ويدع ابن الجارية بحاله، هذا مع رحمة الله لها وإبعاد الضرر عنها وجبره لها، فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية، بل حكمتُه البالغة اقتضت أن يأمر بعد هذا بذبح ولد السُّرِّيَّة، فحينئذٍ يرق قلبُ السيدة عليها

﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾

١٧٩/ب وقيل: بإخراج يعقوب / والأسباط من صلبه.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كان بين رؤيا يوسف هذه وبين تحقيقها بمصير أبويه وإخوته إليه أربعون سنة، وهو قول أكثر أهل التفسير.

وقال الحسن البصري: كان بينهما ثمانون سنة، فلما بلغت هذه الرؤيا إخوة يوسف حسدوه، وقالوا: ما رضي أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه فَبَغَوْهُ.

يقول الله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾ أي: في خبره وخبر إخوته، وأسماؤهم: روبيل، وهو أكبرهم، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وزبالون، وقيل: زبلون، وآشر، وأمهم ليا بنت ليان وهي ابنة خال يعقوب عليه السلام، ووُلِدَ له من سريتين له، اسم إحداهما زلفة والأخرى بلهمة[1] أربعة أولاد: دان، ونفتالي، وقيل: نفتولي، وجاد، وأشير، ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب عليه السلام أختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين، (وقيل: وابن يامين)[2]، فكان بنو يعقوب عليه السلام اثنى عشر رجلًا.

﴿ءَايَٰتٌ﴾ قرأ ابن كثير «آية» على التوحيد، أي: عظة وعبرة، وقيل: عجب.

وقرأ الآخرون: «آيات» على الجمع.

﴿لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ وذلك أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف عليه السلام.

وقيل: سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من كنعان إلى مصر، فذكر لهم قصة يوسف، فوجدوها موافقة لما في التوراة (فتعجبوا منها)[3]، فهذا معنى قوله: «ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ»، (أي: دلالة على نبوة رسول الله ﷺ، وقيل: آيات للسائلين ولمن لم يسأل، كقوله: «سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ»[فصلت: ١٠])[4].

وقيل: معناه عبرة للمعتبرين، فإنها تشتمل على حسد إخوة يوسف، وما آل إليه أمرهم في الحسد،

= وعلى ولدها، وتتبدل قسوةُ الغيرة رحمة، ويظهر لها بركةُ هذه الجارية وولدها، وأن الله لا يضيع بيتًا هذه وابنها منهم، وليُرِيَ عباده جبره بعد الكسر، ولطفه بعد الشدة، وأن عاقبة صبر «هاجر» وابنها على البُعد والوحدة والغربة والتسليم إلى ذبح الولد آلت إلى ما آلت إليه، من جَعْلِ آثارهما ومواطىء أقدامهما مناسكَ لعباده المؤمنين، ومتعبداتٍ لهم إلى يوم القيامة، وهذه سنته تعالى فيمَن يُريد رفعه من خلقه أن يمنَّ عليه بعد استضعافه وذله وانكساره، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[القصص: ٥] وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وانظر: «الإسرائيليات والموضوعات» للشيخ محمد أبو شهبة: ص٣٥٣ـ٣٦٣.

(١) في «ب»: (لهمة).

(٢) ساقط من «ب»، وقال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٨٣): (وإنما قيل له: ابن يامين؛ لأن أمه ماتت نفساء، ويامين بمعنى الوجع).

(٣) في «ب»: (فعجبوا منه).

(٤) ساقط من «ب».

﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾

وتشتمل على رؤياه، وما حقق الله منها، وتشتمل على صبر يوسف عليه السلام عن قضاء الشهوة، وعلى الرق، وفي السجن، وما آل إليه أمره من الملك، وتشتمل على حزن يعقوب وصبره وما آل إليه أمره من الوصول إلى المراد، وغير ذلك من الآيات.

﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ﴾ اللام فيه جواب القسم تقديره: والله ليوسف ﴿وَأَخُوهُ﴾ بنيامين ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ كان يوسف وأخوه بنيامين من أم واحدة، وكان يعقوب عليه السلام شديد الحب ليوسف عليه السلام، وكان إخوته يرون منه من الميل إليه ما لا يرونه مع أنفسهم فقالوا هذه المقالة[1] ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ جماعة، وكانوا عشرة.

قال الفراء: العصبة هي العشرة فما زاد. وقيل: العصبة ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل: ما بين الثلاثة إلى العشرة، وقال مجاهد: ما بين العشرة إلى خمسة عشر، وقيل: ما بين العشرة إلى الأربعين.

وقيل: جماعة يتعصب بعضها لبعض، لا واحد لها من لفظها كالنَّفَرِ والرَّهْط.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾ أي: خطأ بيِّن في إيثاره يوسف وأخاه علينا، وليس المراد منه الضلال عن الدين، ولو أرادوه لكفروا به، بل المراد منه: الخطأ في تدبير أمر الدنيا، يقولون: نحن أنفع له في أمر الدنيا وإصلاح أمر معاشه ورعي مواشيه، فنحن أولى بالمحبة منه، فهو مخطىء في صرف محبته إليه.

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ اختلفوا في قائل هذا القول، فقال وهب: قاله شمعون، وقال كعب: قاله دان.

﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي: إلى أرض يُبْعدُ[2] عن أبيه، وقيل: في أرض تأكله السباع.

﴿يَخْلُ لَكُمْ﴾ يخلصْ لكم ويَصْفُ لكم ﴿وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ عن[3] شغله بيوسف ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد قتل يوسف ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ تائبين، أي: توبوا بعدما فعلتم هذا يعفُ الله عنكم، وقال مقاتل: يُصْلِحْ أمركم فيما بينكم وبين أبيكم.

---

(١) قال ابن عطية (٧/ ٤٤٠): «وكان حبّ يعقوب ليوسف عليه السلام وبنيامين؛ لصغرهما وموت أمهما، وهذا من حُبِّ الصغير فطرةُ البشر»، وقد قيل لابنة الحسن: أيُّ بنيك أحب إليك؟ قالت: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يقدم، والمريض حتى يفيق).

(٢) في «أ»: (يبعد).

(٣) في «ب»: (من).

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ وهو يهوذا، وقال قتادة[1]: روبيل، وكان ابن خالة يوسف، وكان أكبرهم سنًّا وأحسنهم رأيًا فيه، والأول أصح أنه يهوذا، نهاهم عن قتله، وقال: القتل كبيرة عظيمة ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ قرأ أبو جعفر، ونافع: «غيابات الجب» على الجمع في الحرفين، وقرأ الباقون «غيابة الجب» على الواحد، أي: في أسفل الجب وظلمته، والغيابةُ: كلُّ موضعٍ ستر عنك الشيء وغيَّبه، والجُبُّ: البئر غير المطوية لأنه جُبَّ، أي: قطع ولم يطوَ.

﴿يَلْتَقِطْهُ﴾ يأخذه، والالتقاط: أخذ الشيء من حيث لا يحتسبه[2] ﴿بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ أي: بعض المسافرين، فيذهب به إلى ناحية أُخرى، فتستريحوا منه ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ أي: إن عزمتم على فعلكم، وهم كانوا يومئذ بالغين، ولم يكونوا أنبياء بعد.

وقيل: لم يكونوا بالغين، وليس بصحيح، بدليل أنهم قالوا: «وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ»[3].

«وقالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا» والصغير لا ذنب له.

وقال محمد بن إسحاق: اشتمل فعلهم على جرائم من: قطع الرحم، وعقوق الوالدين، وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له، والغدر بالأمانة، وترك العهد، والكذب مع أبيهم، وعفا الله عنهم ذلك كله حتى لا ييأس أحدٌ من رحمة الله.

وقال بعض (أهل العلم)[4]: إنهم عزموا على قتله وعصمهم الله رحمة بهم، ولو فعلوا لهلكوا جميعًا، وكل ذلك كان قبل أن أنبأهم الله تعالى[5].

---

(١) في «ب»: (مقاتل قاله).

(٢) في «ب»: (يحس به).

(٣) قال السدي ومقاتل بن سليمان: إنهم أرادوا صلاح الحال عند أبيهم، وهذا يشبه أن يكون قصدهم في تلك الحال، ولم يكونوا حينئذ أنبياء. وقال الجمهور: «صالحين» معناه بالتوبة، وهو الأظهر من اللفظ، وحالهم أيضًا تعطيه؛ لأنهم مؤمنون بنوا على عظيمة وعلّلوا أنفسهم بالتوبة. انظر: «المحرر الوجيز» لابن عطية: (٧/ ٤٤٣).
ومال الحافظ ابن كثير إلى الرأي الأول، فقال في «التفسير» (٢/ ٤٧٠ ـ ٤٧١): (اعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنهم أُوحي إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر، ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾، وهذا فيه احتمال لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال للعرب: قبائل، وللعجم: شعوب، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل فذكرهم إجمالاً؛ لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أُوحي إليهم، والله أعلم).

(٤) في «ب»: (بعضهم).

(٥) هذا على القول بأن الله نبّأهم فيما بعد، وهو ما قال عنه ابن كثير: فيه نظر.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣)﴾

وسئل أبو عمرو بن العلاء: كيف قالوا: «نرتع ونلعب» وهم أنبياء؟ قال: كان ذلك قبل أن نبّأهم الله تعالى، فلما أجمعوا على التفريق بينه وبين والده بضرب من الحيل.

﴿قَالُوا﴾ ليعقوب: ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ قرأ أبو جعفر «تأمنّا» بلا إشمام(١)، وهو رواية عن نافع، (وقرأ الباقون: تأمنّا بإشمام الضمة في النون الأولى المدغمة، وهو إشارة إلى الضمة، من غير إمحاض؛ ليعلم أن أصله: لا تأمنُنا بنونين على تفعلنا، فأُدغمتِ النون الأولى في الثانية)(٢)، بدؤوا بالإنكار عليه في ترك إرساله معهم كأنهم قالوا: إنك لا ترسله معنا أتخافنا عليه؟

﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١)﴾ قال مقاتل: في الكلام تقديم وتأخير، وذلك أنهم قالوا لأبيهم: «أرسله معنا» فقال أبوهم: «إني ليحزنني أن تذهبوا به»، فحينئذ قالوا: «مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ» النصح هاهنا هو: القيام بالمصلحة، وقيل: البر والعطف، معناه: إنا عاطفون عليه، قائمون بمصلحته، نحفظه حتى نردّه إليك.

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى الصحراء ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ قرأ أبو عمرو وابن عامر بالنون فيهما وجزم العين من «نرتع»، وقرأ أهل الكوفة بالياء فيهما وجزم العين من «يرتع» يعني: يوسف، وقرأ يعقوب: «نرتع» بالنون و«يلعب» بالياء.

والرتع: هو الاتساع في الملاذ، يقال: رتع فلان في ماله إذا أنفقه في شهواته، يريد: ونتنعم ونأكل ونشرب ونلهوا وننشط.

وقرأ أهل الحجاز: «يرتع» بكسر العين، وهو يفتعل(٣) من الرعي.

ثم ابن كثير قرأ بالنون فيهما، أي: نتحارس ويحفظ بعضُنا بعضًا.

وقرأ أبو جعفر ونافع بالياء إخبارًا عن يوسف، أي: يرعى الماشية كما نرعى نحن.

﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢)﴾. / ١/١٨٠

﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ أي: يحزنني ذهابكم به، والحزن هاهنا: ألم القلب وفراق المحبوب ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣)﴾ وذلك أن يعقوب كان رأى

---

(١) في «ب»: (شمة). (٢) ساقط من «ب». (٣) في «أ»: (تفعيل).

﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

في المنام أن ذئبًا شدَّ على يوسف، فكان يخاف من ذلك، فمن ثم قال هذه المقالة[1].

﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ عشرة ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ عجزة ضعفاء.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟﴾ أي: عزموا ﴿أَن يَجْعَلُوهُ﴾ يلقوه ﴿فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ هذه الواو زائدة[2]، تقديره: أوحينا إليه، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۞ وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾[الصافات: ١٠٣-١٠٤]، أي: ناديناه ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ يعني: أوحينا إلى يوسف عليه السلام لتصدقنَّ رؤياك ولتخبرنَّ إخوتك بصنيعهم هذا وهم لا يشعرون بوحي الله وإعلامه إيَّاه ذلك، قاله مجاهد.

وقيل: معناه: وهم لا يشعرون يوم تخبرهم أنك يوسف، وذلك حين دخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون.

وذهب وَهْبٌ وغيره: أنهم أخذوا يوسف عليه السلام بغاية الإكرام وجعلوا يحملونه، فلما برزوا إلى البرية ألقوه وجعلوا يضربونه فإذا ضربه واحد منهم استغاث بالآخر فضربه الآخر، فجعل لا يرى منهم رحيمًا، فضربوه حتى كادوا يقتلونه وهو يصيح: يا أبتاه لو تعلم ما يصنع بابنك بنو الإماء، فلما كادوا أن يقتلوه قال لهم يهوذا: أليس قد أعطيتموني موثقًا أن لا تقتلوه، فانطلقوا به إلى الجُبِّ ليطرحوه فيه، وكان ابن اثنتي عشرة سنة ـ وقيل: ثمانية عشرة سنة ـ فجاؤوا به إلى بئر على غير الطريق واسعة الأسفل ضيقة الرأس، قال مُقاتل: على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام، وقال كعب: بين مدين ومصر، وقال وهب: بأرض الأردن، وقال قتادة: هي بئر بيت المقدس، فجعلوا يدلونه في البئر فيتعلق بشفير البئر فربطوا يديه

---

(١) ضعَّف ابن عطية هذا القول؛ لأن يعقوب لو رأى ذلك لكان وحيًا، فإما أن يخرج على وجهه وذلك لم يكن، وإما أن يعرف يعقوب لمعرفته بالعبارة مثل هذا المرئي، فكان يتشكاه بعينه، اللهم إلا أن يكون قوله «أخاف أن يأكله الذئب» بمعنى: أخاف أن يصيبه مثل ما رأيت من أمر الذئب، وهذا بعيد، وكذلك يقول الربيع بن ضبع الفزاري:

والذئبَ أخشاه إن مَرَرْتُ بِهِ   وَحْدِي وأخشى الرِّيحَ والمطرا

إنما خصَّصه؛ لأنه كان حيوان قطره العادي، ويحتمل أن يخصصه يعقوب عليه السلام؛ لصغر سن يوسف، أي: أخاف عليه هذا الحقير فما فوقه، وكذلك خصصه الربيع في البيت السابق؛ لحقارته وضعفه في الحيوان.

انظر: «المحرر الوجيز»: (٤/ ٤٥٠ـ٤٥١)، «البحر المحيط»: (٥/ ٢٨٦).

(٢) هذا على رأي الكوفيين من النحاة، يزاد عندهم بعد «لمَّا» و«حتى» و«إذا» وعلى ذلك خرَّجوا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۞ وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ أي: ناديناه، قال أبو حيان: وهو قول مردود؛ لأنه ليس في القرآن شيء زائد لغير معنى.

وقال البصريون: ليس في الآية زيادة؛ لأن جواب «لمَّا» محذوف تقديره: «فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب عظمت فتنتهم»، وقدره بعضهم: «جعلوه فيها»، قال أبو حيان: وهذا أولى، إذ يدل عليه قوله: «وأجمعوا أن يجعلوه».

انظر: «المحرر الوجيز»: (٤/ ٤٥٢)، «البحر المحيط»: (٥/ ٢٨٧).

وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾

ونزعوا قميصه فقال: يا إخوتاه، رُدُّوا عليَّ القميص أتوارى به في الجب، فقالوا: ادعُ الشمسَ والقمرَ والكواكبَ تواريك[1]، قال: إني لم أرَ شيئًا، فألقوه فيها.

وقيل: جعلوه في دلو وأرسلوه فيها حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت فكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم أوى إلى صخرة فيها فقام عليها.

وقيل: إنهم لمَّا ألقوه فيها جعل يبكي فنادوه فظن أن رحمةً أدركتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فيقتلوه، فمنعهم يهوذا وكان يهوذا يأتيه بالطعام، وبقي فيها ثلاثَ ليالٍ[2].

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا﴾، الأكثرون على أن الله تعالى أوحى إليه بهذا وبعث إليه جبريل عليه السلام يؤنسه ويبشره بالخروج، ويخبره أنه ينبئهم بما فعلوه ويجازيهم عليه وهم لا يشعرون[3].

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ثم إنهم ذبحوا سخلة وجعلوا دمها على قميص يوسف عليه السلام.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾﴾ قال أهل المعاني: جاؤوا في ظلمة العِشاء ليكونوا أجرأ على الاعتذار بالكذب، ورُوي أن يعقوب عليه السلام سمع صياحهم وعويلهم فخرج وقال: ما لكم يا بَنِيَّ هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا، قال: فما أصابكم وأين يوسف؟!

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ أي: نترامى وننتضل، وقال السدي: نشتدُّ على أقدامنا ﴿وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ أي: عند ثيابنا وأقمشتنا ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ بمصدق لنا ﴿وَلَوۡ كُنَّا﴾ وإن كنَّا ﴿صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾.

فإن قيل: كيف قالوا ليعقوب: أنت لا تصدق الصادق؟

قيل: معناه: إنك تتهمنا في هذا الأمر؛ لأنك خفتنا في الابتداء واتهمتنا في حقه.

وقيل: معناه: لا تصدقنا؛ لأنه لا دليل لنا على صدقنا وإن كنَّا صادقين عند الله.

---

(١) في «ب»: (تؤنسك).

(٢) قال أبو حيان في أمثال هذه الروايات عن وهب وكعب وغيرهما: (وذكر المفسرون أشياء كثيرة تتضمن كيفية إلقائه في غيابة الجب، ومحاورته لهم بما يلين الصخر، وهم لا يزدادون إلا قساوة، ولم يتعرض القرآن الكريم ولا الحديث الصحيح لشيء منها فيوقف عليها في كتب التفسير).
انظر: «البحر المحيط»: (٥/٢٨٧).

(٣) قال ابن عطية: ويحتمل أن يكون الوحي حينئذ إلى يوسف برسول، ويحتمل أن يكون بإلهام أو نوم، وكل ذلك قد قيل، وقال الحسن: أعطاه الله النبوة في الجب. وهذا بعيد. انظر: «المحرر الوجيز»: (٤/٤٥٣).

وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةًۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ﴾ أي: بدمٍ هو كذب؛ لأنه لم يكن دم يوسف، وقيل: بدم مكذوب فيه، فوضع المصدر موضع الاسم.

وفي القصة: أنهم لطخوا القميص بالدم ولم يشقُّوه فقال يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: كيف أكله الذئب ولم يشق قميصه؟! فاتهمهم.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾ زيَّنت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ﴾ معناه: فأمري صبر جميل أو فعلي صبرٌ جميل.

وقيل: فصبر جميل أختاره.

والصبر الجميل: الذي لا شكوى فيه ولا جزع.

﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي: أستعين بالله على الصبر على ما تكذبون.

وفي القصة: أنهم جاؤوا بذئب وقالوا: هذا الذي أكله، فقال له يعقوب: يا ذئب أنت أكلت ولدي وثمرة فؤادي؟ فأنطقه الله عزَّ وجلَّ، فقال: تالله ما رأيت وجه ابنك قط.

قال: كيف وقعت بأرض كنعان؟

قال: جئت لصلة قرابة (فصادني هؤلاء)[1].

فمكث يوسف في البئر ثلاثة أيام[2].

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ وهم القوم المسافرون، سُمّوا سيارة؛ لأنهم يسيرون في الأرض، كانت رفقة من مدين تريد مصر، فأخطأوا الطريق فنزلوا قريبًا من الجب، وكان الجب في (قفرٍ بعيدٍ)[3] من العمران للرعاة والمارة، وكان ماؤه مالحًا[4] فعذب حين ألقي يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فيه، فلما نزلوا أرسلوا رجلًا من أهل مدين يقال له: مالك بن ذعر، (لطلب الماء)[5]، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾ والوارد: الذي يتقدم الرفقة إلى الماء فيهيىء الأرشية والدلاء.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) هذا كله مما لم يرد فيه نص في كتاب الله ولا حديث ثابت عن رسول الله ﷺ، وهو من الأمور الغيبية، ولا يتوقف فهم الآية على شيء من هذه الروايات المأخوذة بجملتها من الإسرائيليات حتى ولو كان لبعضها إسناد إلى بعض المفسرين من التابعين رحمهم الله.

(٣) في «أ»: (في قفرة بعيدًا). (٤) في «ب»: (ملحًا). (٥) في «ب»: (دُعَر) بالدال المهملة.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ أي: أرسلها في البئر، يقال: أدليتُ الدلو إذا أرسلتها في البئر، ودلوتها إذا أخرجتها، فتعلق يوسف بالحبل فلما خرج إذا هو بغلام أحسن ما يكون.

قال النبي ﷺ: «أعطيَ يوسفُ شطر الحُسْن»[1].

ويقال: إنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة، وكانت قد أُعطيت سُدسَ الحُسنِ.

قال ابن إسحاق: ذهب يوسف وأمه بثلثي الحسن[2].

فلما رآه مالك بن ذعر ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ﴾ قرأ الأكثرون هكذا بالألف وفتح الياء[3]، بشَّر المستقي أصحابه يقول[4]: أبشروا، وقرأ أهل الكوفة «يا بشرى» بغير إضافة، يريد: نادى المستقي رجلًا من أصحابه اسمه: بشرى ﴿هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ وروى ابن مجاهد عن أبيه: أن جدران البئر كانت تبكي على يوسف حين أُخرج منها ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ أخفوهُ ﴿بِضَٰعَةً﴾ قال مجاهد: أسره مالك بن ذعر وأصحابه من التجار الذين معهم، وقالوا: هو بضاعة استبضعها بعض أهل الماء إلى مصر خيفة أن يطلبوا منهم فيه المشاركة.

وقيل: أراد: أن إخوة يوسف أسرُّوا / شأن يوسف وقالوا: هذا عبد لنا أبق[5]. ١٨٠/ب

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ فأتى يهوذا يوسفَ بالطعام فلم يجده في البئر، فأخبر بذلك إخوته، فطلبوه فإذا هم بمالك وأصحابه نزولاً، فأتوهم فإذا هم بيوسف، فقالوا: هذا عبد آبق منَّا، ويقال: إنهم هدَّدوا يوسف حتى لم يعرف حاله، وقال مثل قولهم، ثم باعوه، فذلك قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَشَرَوْهُ﴾ أي: باعوه ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ قال الضحاك ومقاتل والسدي: حرام؛ لأنَّ ثمن الحرِّ حرام، وسُمي الحرام بخسًا؛ لأنه مبخوس البركة.

وعن ابن عباس وابن مسعود: بخس، أي: زيوف.

﴿دَرَٰهِمَ﴾ بدل من الثمن ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ ذكْر العدد عبارة عن قلتها.

وقيل: إنما قال: «معدودة»؛ لأنهم كانوا في ذلك الزمان لا يَزِنُون ما كان أقل من أربعين درهمًا، إنما كانوا يعدُّونها عدًّا، فإذا بلغت أوقية وزنوها.

---

(١) قطعة من حديث الإسراء، أخرجه مسلم في الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ برقم١٦٢: (١/ ١٤٥ ـ ١٤٧)، وفيه: «... فإذا أنا بيوسف ﷺ إذا هو قد أعطي شطر الحسن». والحديث أخرجه بلفظ المصنف: ابن أبي شيبة وأحمد والحاكم والواحدي في «التفسير». انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة»: (٣/ ٤٧٠)، «كشف الخفاء ومزيل الإلباس»: (١/ ١٦٠ ـ ١٦١)، «مجمع الزوائد»: (٨/ ٢٠٣)، «المطالب العالية»: (٣/ ٢٧٣)، «الدر المنثور»: (٤/ ٥٣١).

(٢) قال الألباني: منكر باطل بهذا اللفظ؛ لمخالفته للحديث الصحيح؛ ولأن إسناده واهٍ جدًا. وانظر: المراجع السابقة.

(٣) أي هكذا: يا بُشْرَايَ. (٤) في «ب»: (فقال). (٥) ساقط من «ب».

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾

واختلفوا في عدد تلك الدراهم، قال ابن عباس وابن مسعود وقتادة: عشرون درهمًا، فاقتسموها درهمين درهمين، وقال مجاهد: اثنان وعشرون درهمًا، وقال عكرمة: أربعون درهمًا[1].

﴿وَكَانُوا۟﴾ يعني: إخوة يوسف ﴿فِيهِ﴾ أي: في يوسف ﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ لأنهم لم يعلموا منزلته عند الله. وقيل: كانوا في الثمن من الزاهدين؛ لأنهم لم يكن قصدهم تحصيل الثمن، إنما كان قصدهم تبعيد يوسف عن أبيه.

ثم انطلق مالك بن ذعر وأصحابه بيوسف، فتبعهم إخوته يقولون: استوثقوا منه لا يأبق، قال: فذهبوا به حتى قدموا مصر، وعرضه مالك على البيع فاشتراه قطفير، قاله ابن عباس.

وقيل: إظفير صاحب أمر الملك، وكان على خزائن مصر، يسمى العزيز، وكان الملك يومئذ بمصر ونواحيها الريان بن الوليد بن شروان من العمالقة.

وقيل: إن هذا الملك لم يمت حتى آمن واتَّبَعَ يوسف على دينه، ثم مات ويوسف حي.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لمَّا دخلوا مصر تلقى قطفير مالك بن ذعر فابتاع منه يوسف بعشرين دينارًا وزوج نعل وثوبين أبيضين.

وقال وهب بن منبه: قدمت السيارة بيوسف مصر فدخلوا به السوق يعرضونه للبيع، فترافع الناس في ثمنه وزنه ذهبًا ووزنه فضة ووزنه مسكًا وحريرًا، وكان وزنه أربعمائة رطل، وهو ابن ثلاث عشرة سنة فابتاعه قطفير من مالك بن ذعر بهذا الثمن، فذلك قوله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ﴾ واسمها: راعيل، وقيل: زليخا ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ أي: منزلته ومقامه، والمثوى: موضع الإقامة.

وقيل: أكرميه في المطعم والملبس والمقام. وقال قتادة وابن جريج: منزلته.

---

(١) قال الإمام أبو جعفر الطبري في «التفسير» (١٦/ ١٥ ـ ١٦): (والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذِكره أخبر أنهم باعوه بدراهم معدودة غير موزونة، ولم يحدّ مبلغ ذلك بوزن ولا عدد، ولا وضع عليه دلالة في كتاب ولا خبر من الرسول ﷺ، وقد يحتمل أن يكون عشرين، ويحتمل أن يكون كان اثنين وعشرين، وأن يكون كان أربعين، وأقلّ من ذلك أو أكثر، وأيّ ذلك كان، فإنها كانت معدودة غير موزونة، وليس في العلم بمبلغ وزن ذلك فائدة تقع في دين، ولا في الجهل به دخولُ ضرٍّ فيه، والإيمان بظاهر التنزيل فرض، وما عداه فموضوعٌ عنا تكلُّف علمه).

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ أي: نبيعه بالربح إن أردنا البيع، أو يكفينا إذا بلغ بعض أمورنا.

﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أي: نتبنَّاه.

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أفرسُ الناس ثلاثة: العزيز في يوسف؛ حيث قال لامرأته: «أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ»، وابنة شعيب عليه السلام؛ حيث قالت لأبيها في موسى عليه السلام: «يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ» [القصص: ٢٦]، وأبو بكر في عمر ـ رضي الله عنهما ـ؛ حيث استخلفه[(١)].

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (أي: في أرض مصر)[(٢)]، أي: كما أنقذنا يوسف من القتل وأخرجناه من الجب، كذلك (مكنَّا له)[(٣)] في الأرض فجعلناه على خزائنها.

﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: (مكَّنا له)[(٣)] في الأرض لكي نعلمه من تأويل الأحاديث، وهي عبارة عن الرؤيا.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ قيل: الهاء في أمره كناية عن الله تعالى، يقول: إن الله غالب على أمره يفعل ما يشاء، لا يغلبه شيء ولا يردُّ حكمه رادّ.

وقيل: هي راجعة إلى يوسف عليه السلام، معناه: إن الله مستَوْلٍ على أمر يوسف بالتدبير والحياطة[(٤)] لا يَكِلُه إلى أحد حتى يبلغ منتهى علمه فيه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ ما الله به صانع.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ منتهى شبابه وشدته وقوته، قال مجاهد: ثلاثًا وثلاثين سنة، وقال السدي: ثلاثين سنة، وقال الضحاك: عشرين سنة، وقال الكلبي: «الأَشُدُّ» ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سنة.

وسئل مالك رحمه الله عن الأشد؟ قال: هو الحلم[(٥)].

---

(١) صححه الحاكم على شرط الشيخين وأقره الذهبي، «المستدرك»: (٢/٣٤٦)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/٢٦٨): (رواه الطبراني بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح إن كان محمد بن كثير هو العبدي، وإن كان الثقفي فقد وثق على ضعف كثير فيه).

(٢) ساقط من «ب».

(٣) في «ب»: (مكنّاه).

(٤) في «ب»: (والإحاطة).

(٥) قال الإمام الطبري (١٦/٢٣): (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أنه آتى يوسف لمَّا بلغ أشدَّه حكمًا وعلمًا، والأشد: هو انتهاء قوته وشبابه، وجائز أن يكون آتاه ذلك وهو ابن ثماني عشرة سنة، وجائز أن يكون آتاه وهو ابن عشرين سنة، وجائز أن يكون آتاه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، ولا دلالة له في كتاب الله، ولا أثر عن رسول الله ﷺ، ولا في إجماع الأمة على أي ذلك كان، وإذا لم يكن ذلك موجودًا من الوجه الذي ذكرت، فالصواب أن يقال فيه كما قال الله عزَّ وجلَّ، حتى تثبت حجة بصحة ما قيل في ذلك من الوجه الذي يجب التسليم له، فيسلم لها حينئذ).

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ فالحكم: النبوة، والعلم: الفقه في الدين.

وقيل: حكمًا، يعني: إصابة في القول، وعلمًا: بتأويل الرؤيا. وقيل: الفرق بين الحكيم والعالم، أن العالم: هو الذي يعلم الأشياء، والحكيم: الذي يعمل بما يوجبه العلم.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: المؤمنين، وعنه أيضًا: المهتدين.

وقال الضحاك: الصابرين على النوائب كما صبر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ يعني: امرأة العزيز، والمراودةُ: طلب الفعل، والمراد هاهنا: أنها دعته إلى نفسها ليواقعها ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ أي: أطبقتها، وكانت سبعة ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ أي: هلمَّ وأَقْبِلْ.

قرأه أهل الكوفة والبصرة «هَيْتَ لك» بفتح الهاء والتاء.

وقرأ أهل المدينة والشام «هِيْتَ» بكسر الهاء وفتح التاء.

وقرأ ابن كثير «هَيْتُ» بفتح الهاء وضم التاء.

وقرأ السلمي وقتادة: «هِئْتُ لك» بكسر الهاء وضم التاء مهموزًا، يعني: تهيأتُ لك، وأنكره أبو عمرو والكسائي، وقالا: لم يُحْكَ هذا عن العرب.

والأول هو المعروف عند العرب.

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أقرأني النبي ﷺ: «هَيۡتَ لَكَۚ»[1].

قال أبو عبيدة[2]: كان الكسائي يقول: هي لغة لأهل حوران رفعت إلى الحجاز، معناها: إليَّ[3] تعالَ.

وقال عكرمة: هي أيضًا بالحورانية «هلم».

وقال مجاهد وغيره: هي لغة عربية، وهي كلمة حثّ وإقبال على الشيء.

قال أبو عبيدة: إن العرب لا تثني «هَيْتَ» ولا تجمع ولا تؤنث، وإنها بصورة[4] واحدة في كل حال.

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٣٤٦)، وصححه على شرط الشيخين.
وانظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٣٠ ـ ٣١) مع تعليق الشيخ محمود شاكر.

(٢) في «ب»: (أبو عبيد). وانظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة: (١/ ٣٠٥).

(٣) زيادة من «ب».

(٤) في «أ»: (بصوت).

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قَالَ﴾ يوسف لها عند ذلك: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعوذ بالله وأعتصم بالله مما دعوتني إليه ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ﴾ يريد: أن زوجك قطفير[1] سيدي ﴿أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ أي: أكرم منزلي، هذا قول أكثر المفسرين. وقيل: الهاء راجعة إلى الله تعالى، يريد: أن الله تعالى ربِّي أحسن مثوايَ، أي: آواني، ومن بلاء الجبِّ عافاني.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ يعني: إن فعلت هذا فخنته في أهله بعد ما أكرم مثواي فأنا ظالم، ولا يفلح الظالمون.

وقيل: «لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ»، أي: لا يسعد الزناة.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ والهمُّ هو: المقاربة من الفعل من غير دخول فيه، فهمُّها: عزمُها على المعصية والزنا.

وأمَّا همُّه: فرُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: حلَّ الهميان وجلس منها مجلس الخائن[2].

وعن مجاهد قال: حلَّ سراويله وجعل يعالج ثيابه، وهذا قول أكثر المتقدمين مثل سعيد بن جبير والحسن[3].

وقال الضحاك: جرى الشيطان فيما بينهما فضرب بإحدى يديه إلى جيد يوسف وباليد / الأخرى إلى ١/١٨١
جيد المرأة حتى جمع بينهما.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: وقد أنكر قوم هذا القول، والقول ما قال متقدمو هذه الأمة، وهم كانوا أعلم بالله أن يقولوا في الأنبياء عليهم السلام من غير علم.

وقال السدي وابن إسحاق: لما أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف عليه السلام عن نفسه جعلت تذكر له محاسن نفسه وتشوِّقه إلى نفسها، فقالت: يا يوسف، ما أحسن شعرك!

قال: هو أول ما ينتثر من جسدي.

قالت: ما أحسن عينيك!

قال: هي أول ما تسيل على وجهي في قبري.

قالت: ما أحسن وجهك!

---

(١) في «تفسير الطبري»: (إطفير).

(٢) أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ وأبو نعيم في «الحلية» عن ابن عباس موقوفًا.
انظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٥٢١)، وسيأتي التعليق على هذه الروايات قريبًا.

(٣) ساق السيوطي الروايات عنهم في «الدر المنثور»: (٤/ ٥٢١ـ٥٢٢).

قال: هو للتراب يأكله[(١)].

وقيل: إنها قالت: إن فراش الحرير مبسوط، فقم فاقض حاجتي.

قال: إذًا يذهب نصيبي من الجنة.

فلم تزل تطمعه وتدعوه إلى اللذة، وهو شاب يجد من شبق الشباب ما يجده الرجل، وهي امرأة حسناء جميلة، حتى لان لها مما يرى من كلفها، وهمَّ بها، ثم إن الله تعالى تدارك عبده ونبيه بالبرهان الذي ذكره[(٢)].

وزعم بعض المتأخرين: أن هذا لا يليق بحال الأنبياء عليهم السلام[(٣)]، وقال: تمَّ الكلام عند قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾، ثم ابتدأ الخبر عن يوسف عليه السلام فقال: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ على التقديم والتأخير، أي: لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، ولكنه رأى البرهان فلم يهم.

وأنكره النحاة، وقالوا: إن العرب لا تُؤخِّر «لولا» عن الفعل، فلا تقول: لقد قمت[(٤)] لولا زيد، (وهو يريد: لولا زيدٌ لَقُمْتُ)[(٥)].

وقيل: همت بيوسف أن يفترشها، وهمَّ بها يوسف، أي: تمنى أن تكون له زوجة.

وهذا التأويل وأمثاله غير مرضية؛ لمخالفتها أقاويل القدماء من العلماء الذين يؤخذ عنهم الدين والعلم[(٦)].

---

(١) انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٣٤).

(٢) أخرجه الطبري في الموضع السابق.

(٣) وأبدى ابن عطية وجهًا أن هذا لم يكن في حال النبوة، فقال في «المحرر الوجيز» (٧/ ٤٧٧ ـ ٤٧٨): (والذي أقول في هذه الآية: إن كون يوسف نبيًّا في وقت هذه النازلة: لم يصحّ، ولا تظاهرت به رواية، وإذا كان ذلك فهو مؤمن قد أُوتي حكمًا وعلمًا، ويجوز عليه الهمُّ الذي هو إرادة الشيء دون مواقعته، وأن يستصحب الخاطر الرديء على ما في ذلك من الخطيئة، وإن فرضناه نبيًّا ـ في ذلك الوقت ـ فلا يجوز عليه ـ عندي ـ إلا الهمُّ الذي هو الخاطر، ولا يصح عليه شيء مما ذكر من حلِّ تكَّةٍ ونحو ذلك؛ لأن العصمة مع النبوة.

وما رُوي من أنه قيل له: «تكون في ديوان الأنبياء وتفعل فعل السفهاء» فإنما معناه: العِدَةُ بالنبوة فيما بعد.

وللهمِّ بالشيء مرتبتان، فالأولى: تجوز عليه مع النبوة، والثانية الكبرى: لا تقع إلا مع غير نبي؛ لأن استصحاب خاطر المعصية والتَّلذُّذ بها معصية في نفسها تُكتَبُ . . .).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «دقائق التفسير» (٣/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣): (الهمُّ: اسم جنس تحته نوعان، كما قال الإمام أحمد: الهمُّ همَّان: همُّ خطرات، وهمُّ إصرار، وقد ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ: إن العبد إذا همَّ بسيئة لم تكتب عليه، وإذا تركها لله كتبت له حسنة . . . ويوسف همَّ همًّا تركه لله، لذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لإخلاصه . . . وأما ما ينقل من أنه حلَّ سراويله وجلس مجلس الرجل من المرأة، وأنه رأى صورة يعقوب عاضًا على يده، وأمثال ذلك، فكله مما لم يخبر الله به ولا رسوله، وما لم يكن كذلك فهو مأخوذ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذبًا على الأنبياء وقدحًا فيهم، وكل من نقله من المسلمين فعنهم نقله، لم ينقل من ذلك أحد عن نبينا ﷺ حرفًا واحدًا).

(٤) في «ب»: (همت).

(٥) ساقطة من «ب».

(٦) قال العلامة الشنقيطي في تفسيره «أضواء البيان: تفسير القرآن بالقرآن» (٣/ ٦٠ ـ ٦٢): (والجواب الثاني ـ وهو اختيار أبي حيان: أن يوسف لم يقع منه همّ أصلًا، بل هو منفي عنه لوجود البرهان.

وهذا الذي اختاره أبو حيان وغيره هو أجرى الأقوال على قواعد اللغة العربية؛ لأن الغالب في القرآن وفي كلام العرب: أن الجواب=

وقال بعضهم: إن القدر الذي فعله يوسف عليه السلام كان من الصغائر، والصغائر تجوز على الأنبياء عليهم السلام [(١)].

روي أن يوسف عليه السلام لما دخل على الملك حين خرج من السجن وأقرَّتِ المرأة، قال يوسف: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾، قال له جبريل: ولا حين هممتَ بها يا يوسف؟ فقال يوسف عند ذلك: ﴿۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي...﴾ الآية[(٢)].

= المحذوف يذكر قبله ما يدل عليه، كقوله: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ أي: إن كنتم مسلمين فتوكلوا، فالأول: دليل الجواب المحذوف لا نفس الجواب؛ لأن جواب الشروط وجواب ﴿لَوْلَآ﴾ لا يتقدم، ولكن يكون المذكور قبله دليلاً عليه كالآية المذكورة، وكقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين فهاتوا برهانكم، وعلى هذا القول: معنى الآية، وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه، أي: لولا أن رآه همَّ بها، فما قبل ﴿لَوْلَآ﴾ هو دليل الجواب المحذوف، كما هو الغالب في القرآن واللغة.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾، فما قبل ﴿لَوْلَآ﴾ دليل الجواب، أي: لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تُبدي به.

واعلم أن جماعة من علماء العربية أجازوا تقديم جواب ﴿لَوْلَآ﴾ وتقديم الجواب في سائر الشروط، وعلى هذا القول يكون جواب ﴿لَوْلَآ﴾ في قوله ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهِۦ﴾ هو ما قبله من قوله: ﴿بِهِۦ وَهَمَّ﴾ وإلى جواز التقديم المذكور ذهب الكوفيون، ومن أعلام البصريين: أبو العباس المبرد، وأبو زيد الأنصاري).

وقال الشيخ أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط» (٥/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥) ما نصه: (طوّل المفسرون في تفسير هذين الهمَّين، ونسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لآحاد الفساق، والذي أختاره أن يوسف ؏ لم يقع منه همّ بها البتة، بل هو منفي؛ لوجود رُؤية البرهان، كما تقول: لقد فارقتَ لولا أن عصمك الله، ولا تقول: إن جواب ﴿لَوْلَآ﴾ متقدم عليها، وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك، بل صريح أدوات الشرط العاملة مُختَلَف في جواز تقديم أجوبتها عليها، وقد ذهب إلى ذلك الكوفيون، ومن أعلام البصريين أبو زيد الأنصاري وأبو العباس المبرد، بل نقول: إن جواب ﴿لَوْلَآ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه، كما تقول جمهور البصريين في قول العرب: أنت ظالم إن فعلت، فيقدرونه: إن فعلت فأنت ظالم، ولا يدل قوله: أنت ظالم على ثبوت الظلم، بل هو مثبت على تقدير وجود الفعل، وكذلك هنا التقدير: لولا أن رأى برهان ربِّه لهمَّ بها، فكان موجد الهمّ على تقدير انتفاء رؤية البرهان، ولكنه وجد رؤية البرهان، فانتفى الهم).

وبعد أن ردَّ على الزجاج اعتراضًا لغويًا، قال: (وأمّا أقوال السلف ـ والتي ساق بعضها الإمام البغوي هنا ـ فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيء من ذلك؛ لأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضُها بعضًا مع كونها قادحة في فساق المسلمين فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة. والذي رُوي عن السلف لا يساعد عليه كلام العرب؛ لأنهم قدّروا جواب ﴿لَوْلَآ﴾ محذوفًا ولا يدل عليه دليل؛ لأنهم لم يقدّروا «الهمَّ بها»، ولا يدل كلام العرب إنَّما على أن يكون المحذوف من معنى ما قبل الشرط؛ لأن ما قبل الشرط دليل عليه، ولا يُحذف الشيء لغير دليل عليه).

ثم يقول أبو حيان: (وقد طهرنا كتابنا هذا ـ أي: تفسيره «البحر المحيط» ـ عن نقل ما في كتب التفسير مما لا يليق ذكره، واقتصرنا على ما دلَّ عليه لسان العرب ومساق الآيات التي وردت في هذه السورة مما يدل على العصمة وبراءة يوسف ؏ من كل ما يشين).

وانظر: «الإسرائيليات والموضوعات» لمحمد محمد أبو شهبة: ص٣٠٧ ـ ٣١٩، «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا: (١٢/ ٢٨٠ ـ ٢٨٦)، «المعيار المعرب» للونشريسي: (١١/ ١٩٤، وما بعدها).

(١) انظر: فيما سبق: ص٤٥٠، تعليق (٣).

(٢) ليس هذا من كلام يوسف عليه السلام، بل هو من كلام امرأة العزيز كما يدل القرآن على ذلك دلالة بينة، لا يرتاب فيها من تدبر القرآن، حيث قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۞ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۞ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۞ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقال الحسن البصري: إن الله تعالى لم يذكر ذنوب الأنبياء عليهم السلام في القرآن ليُعَيِّرهم، ولكن ذكرها ليبيِّن موضع النعمة عليهم، ولئلا ييأس أحد من رحمته[1].

وقيل: إنه ابتلاهم بالذنوب ليتفرد بالطهارة والعزة، ويلقاه جميع الخلق يوم القيامة على انكسار المعصية.

وقيل: ليجعلهم أئمة لأهل الذنوب في رجاء الرحمة وترك الإياس من المغفرة والعفو.

وقال بعض أهل الحقائق: الهمُّ همَّان: همٌّ ثابتٌ، وهو إذا كان معه عزم وعقد ورضى، مثل همِّ امرأة العزيز، والعبد مأخوذ به، وهمٌّ عارضٌ وهو الخطرة، وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم، مثل همِّ يوسف عليه السلام، فالعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم أو يعمل.

أخبرنا أبو علي حسان بن سعيد المنيعي، أنبأنا أبو طاهر محمد بن محمد محمش الزيادي، حدثنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان، حدثنا أحمد بن يوسف السلمي، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام بن منبه قال: حدثنا أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عزَّ وجلَّ: إذا تحدث عبدي بأنْ يعملَ حَسنةً فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها له بعشر أمثالها، وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها»[2].

قوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ اختلفوا في ذلك البرهان، قال قتادة وأكثر المفسرين: إنه رأى صورة يعقوب، وهو يقول له: يا يوسف، تعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب من الأنبياء!

= فهذا كلام امرأة العزيز، ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر بعد إلى الملك، ولا سمع كلامه ولا رآه، ولكن لما ظهرت براءته في غيبته كما قالت امرأة العزيز: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾، أي: لم أخنه في حال مغيبه عني وإن كنت في حال شهوده راودته، فحينئذ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

وقد قال كثير من المفسرين: إن هذا من كلام يوسف، ومنهم من لم يذكر إلا هذا القول، وهو قول في غاية الفساد، ولا دليل عليه، بل الأدلة تدل على نقيضه.

انظر: «دقائق التفسير» لشيخ الإسلام ابن تيمية: (٣/ ٢٧٣).

(١) ويوسف عليه السلام لم يذكر الله تعالى عنه أنه ارتكب ذنبًا، وهو سبحانه لا يذكر لنبي من الأنبياء ذنبًا إلا ذكر استغفاره منه، ولم يذكر عن يوسف استغفارًا من تلك الكلمة، كما لم يذكر عنه استغفارًا من مقدمات الفاحشة، فعلم أنه لم يفعل ذنبًا في هذا ولا هذا، بل إن ما فعله كان من الحسنات المبرورة والمساعي المشكورة.

انظر: «دقائق التفسير»: (٣/ ٢٦٢، ٢٨٠).

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾: (٨/ ١٩٨)، وفي الرقاق، باب من همَّ بحسنة عن ابن عباس: (٧/ ١٧٨)، ومسلم في الإيمان، باب إذا همَّ العبد بحسنة كتبت، وإذا همَّ بسيئة لم تكتب برقم٢٠٥: (١/ ١١٧) من طريق عبد الرزاق بسنده لصحيفة همام بن منبه. انظر: «المصنف» لعبد الرزاق، كتاب الجامع: (١١/ ٢٨٧)، ومن طريقه أخرجها البغوي في «شرح السنة»: (١٤/ ٣٣٧، ٣٣٨).

وراجع: «صحيفة همام بن منبه» بتحقيق الدكتور رفعت فوزي: ص١٨٨ ـ ١٨٩.

وقال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك: انفرج له سقف البيت فرأى يعقوب عليه السلام عاضًا على أصبعه[١].

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: مُثِّل له يعقوب عليه السلام فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله[٢].

وقال السدي: نُودي يا يوسف تواقعها! إنما مثلك ما لم تواقعها مثل الطير في جوف السماء لا يطاق، ومثلك إن تواقعها مثله إذا مات ووقع على الأرض لا يستطيع أن يدفع عن نفسه، ومثلك ما لم تواقعها مثل الثور الصعب الذي لا يطاق، ومثلك إن واقعتها مثل الثور يموت فيدخل النمل في أصل قرنيه لا يستطيع أن يدفعه عن نفسه.

وعن مجاهد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ قال: حلَّ سراويله وقعد منها مقعد الرجل من امرأته، فإذا بكفٍّ قد بدت بينهما بلا معصم ولا عضد مكتوب عليها: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[الانفطار: ١٠-١٢]، فقام هاربًا وقامت، فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد، فظهرت تلك الكف مكتوبًا عليها: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾[الإسراء: ٣٢]، فقام هاربًا وقامت، فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد، فظهر ورأى تلك الكف مكتوبًا عليها: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾[البقرة: ٢٨١]، فقام هاربًا وقامت، فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد، فقال الله عزَّ وجلَّ لجبريل عليه السلام: أدرِكْ عبدي قبل أن يصيب الخطيئة، فانحطَّ جبريل عليه السلام عاضًا على أصبعه، يقول: يا يوسف، تعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله في الأنبياء[٣].

ورُوي أنه مسحه بجناحه فخرجت شهوته من أنامله.

وقال محمد بن كعب القرظي: رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت حين همَّ بها فرأى كتابًا في حائط البيت: «لا تقربُوا الزنا إنَّه كان فاحشةً وساءَ سبيلًا».

وروى عطية عن ابن عباس في البرهان: أنه رأى مثال الملك[٤].

وقال جعفر بن محمد الصادق ـ رضي الله عنهما ـ: البرهان النبوة التي أودعها الله في صدره حالت بينه وبين ما يسخط الله عزَّ وجلَّ[٥].

---

(١) انظر الروايات عنهم في: «الدر المنثور»: (٤/ ٥٢١ـ٥٢٣).

(٢) إذا خرجت منه الشهوة فإنه لا فضل له في ترك الهمّ بها، لو أنه حصل منه.

(٣) وهل نزلت هذه الآيات الكريمة على أحدٍ قبل نبينا محمد ﷺ؟

(٤) انظر تخريج هذه الروايات في: «الدر المنثور»: (٤/ ٥٢١ـ٥٢٤).

(٥) وقريب من هذا القول قول من قال: إن البرهان أنه علم ما أحلَّ الله مما حرم الله، فرأى تحريم الزنا، رُوي عن محمد بن كعب القرظي. =

وعن علي بن الحسين قال: كان في البيت صنم فقامت المرأة وسترته بثوب، فقال لها يوسف: لِمَ فعلتِ هذا؟

فقالت: استحييتُ منه أن يراني على المعصية.

فقال يوسف: أتستحين مما لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه؟ فأنا أحق أن أستحي من ربِّي، وهرب[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ جواب لولا محذوف، تقديره: لولا أن رأى برهان رَبِّه لواقع المعصية.

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ فالسوءُ: الإثم، وقيل: السوء: القبيح، والفحشاء: الزنا.

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ قرأ أهل المدينة والكوفة «المخلَصين» بفتح اللام حيث كان إذا لم يكن بعده ذكر الدِّين، زاد الكوفيون «مخلَصًا» في سورة مريم ففتحوا.

١٨١/ب ومعنى / ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: المختارين للنبوة، دليله: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾[ص: ٤٦].

وقرأ الآخرون بكسر اللام، أي: المخلِصين لله الطاعة والعبادة.

= قال ابن قتيبة: رأى حجة الله عليه وهي البرهان.

قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/٢٠٩): (وهذا هو القول الصحيح وما تقدَّمه فليس بشيء، وإنما هي أحاديث من أعمال القصاص، وقد أشرت إلى فسادها في كتاب «المغني في التفسير»، وكيف يُظَنّ بنبي لله كريم أنه يخوَّف ويرغَّب ويضطر إلى ترك هذه المعصية وهو مُصِرٌّ؟! وهذا غاية القبح).

(١) قال الإمام ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٦/٤٩) بعد أن ساق تلك الروايات المختلفة المضطربة: (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله جل ثناؤه أخبر عن همِّ يوسف وامرأة العزيز كل واحد منهما بصاحبه، لولا أن رأى يوسف برهان ربه، وذلك آية من الله زجرته عن ركوب ما همَّ به يوسف من الفاحشة، وجائز أن تكون تلك الآية صورة يعقوب، وجائز أن تكون صورة الملك، وجائز أن يكون الوعيد في الآيات التي ذكرها الله في القرآن على الزنا، ولا حجة للعذر قاطعة بأيِّ ذلك كان من أيٍّ.

والصواب أن يقال في ذلك ما قاله الله تبارك وتعالى، والإيمان به، وترك ما عدا ذلك إلى عالمه).

وقال الشيخ الشنقيطي في «أضواء البيان» (٣/٦٨): (وهذه الأقوال التي رأيت نسبتها إلى هؤلاء العلماء منقسمة إلى قسمين: قسم لم يثبت نقله عمن نقل عنه بسند صحيح، وهذا لا إشكال في سقوطه.

وقسم ثبت عن بعض من ذكر، ومن ثبت عنه منهم شيء من ذلك، فالظاهر الغالب على الظن، المزاحم لليقين: أنه إنما تلقاه عن الإسرائيليات؛ لأنه لا مجال للرأي فيه، ولم يرفع منه قليل ولا كثير إليه ﷺ.

وبهذا تعلم أنه لا ينبغي التجرؤ على القول في نبي الله يوسف بأنه جلس بين رجلي امرأة كافرة أجنبية، يريد أن يزني بها، اعتمادًا على مثل هذه الروايات، مع أن في الروايات المذكورة ما تلوح عليه لوائح الكذب، كقصة الكف التي خرجت له أربع مرات، وفي ثلاث منهنَّ لا يبالي بها؛ لأن ذلك ـ على فرض صحته ـ فيه أكبر زاجر لعوام الفسَّاق، فما ظنك بخيار الأنبياء! مع أننا قدمنا دلالة القرآن على براءته من جهات متعددة، وأوضحنا أن الحقيقة لا تتعدى أحد أمرين:

إما أن يكون لم يقع منه همٌّ بها أصلًا، بناء على تعليق همه على عدم رؤية البرهان، وقد رأى البرهان.

وإما أن يكون همه الميل الطبيعي المزموم بالتقوى، والعلم عند الله تعالى).

وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ وذلك أن يوسف لمَّا رأى البرهان قام مبادرًا إلى باب البيت هاربًا، وتبعته المرأة لتمسك الباب حتى لا يخرج يوسف، فسبق يوسف، وأدركته المرأة، فتعلَّقت بقميصه من خلفه، فجذبته إليها حتى لا يخرج.

﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ﴾ أي: فشقَّته ﴿مِن دُبُرٍ﴾ أي: من خلف، فلما خرجا لقيا العزيز، وهو قوله:

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ أي: وجدا زوج المرأة قطفيرَ عند الباب جالسًا مع ابن عمٍّ لراعيل، فلما رأته هابته و﴿قَالَتْ﴾ سابقةً بالقول لزوجها ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ يعني: الزنا، ثم خافت عليه أن يقتله فقالت: ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾ أي: يحبس ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ أي: ضرب بالسِّياط، فلما سمع يوسف مقالتها.

﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ يعني: طلبت مني الفاحشة فأبيت وفررت.

قيل: ما كان يريد يوسف أن يذكره، فلما قالت المرأة: ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا؟ ذكره، فقال: هي راودتني عن نفسي.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ وحكم حاكم ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ اختلفوا في ذلك الشاهد:

فقال سعيد بن جبير والضحاك: كان صبيًّا في المهد، أنطقه الله عزَّ وجلَّ[(١)]، وهو رواية العوفي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «تكلَّم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة ابنة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم عليه السلام»[(٢)].

---

(١) أخرجه عنهما: ابن جرير وأبو الشيخ وابن أبي شيبة وابن المنذر. انظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٥٢٦).

(٢) رواه ابن جرير في «التفسير» عن ابن عباس: (١٦/ ٥٥)، والإمام أحمد في «المسند» مطولاً برقم ٢٨٢٢ ـ ٢٨٢٥، ـ طبعة الحلبي ـ ولم يرفعه، وابن حبان في «صحيحه»: ص٤٠ من «موارد الظمآن».

وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٦٥): (رواه أحمد والبزار والطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، وفيه عطاء بن السائب وهو ثقة، ولكنه اختلط).

وأخرجه الحاكم في «المستدرك» عن أبي هريرة: (٢/ ٤٩٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وعزاه السيوطي للبيهقي في «الدلائل»، وزاد ابن حجر نسبته لابن أبي شيبة وأبي يعلى والبيهقي في «الشعب». انظر: «الكافي الشاف»: ص٨٩، وصححه الشيخ محمود شاكر في تعليقه على الطبري، في الموضع السابق.

وانظر: «فتح الباري» لابن حجر: (٦/ ٤٨٠).

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٧ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ۝٢٩﴾

وقيل: كان ذلك الصبي ابن خال المرأة.

وقال الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد: لم يكن صبيًا، ولكنه كان رجلًا حكيمًا ذا رأي[(١)].

قال السدي: هو ابن عم راعيل[(٢)]، فحكم فقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أي: من قدّام ﴿فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٦﴾.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٧﴾.

﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ أي: ﴿قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ عرف خيانة امرأته وبراءة يوسف عليه السلام ﴿قَالَ﴾ لها: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: إن هذا الصنيع ﴿مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾ وقيل: إن هذا من قول الشاهد، ثم أقبل قطفير على يوسف فقال:

﴿يُوسُفُ﴾ أي: يا يوسف ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أي: عن هذا الحديث، فلا تذكره لأحدٍ حتى لا يشيع.

وقيل: معناه: لا تكترث له، فقد بان عذرُك وبراءتُك.

ثم قال لامرأته: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ أي: توبي إلى الله ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ۝٢٩﴾.

وقيل: إن هذا من قول الشاهد ليوسف ولراعيل.

وأراد بقوله: «وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ»، أي: سلي زوجك أن لا يعاقبك ويصفح عنك «إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ»: من المذنبين، حتى راودتِ شابًا عن نفسه وخُنْتِ زوجك، فلما استعصم كذبتِ عليه، وإنما قال: «مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ»، ولم يقل: من الخاطئات؛ لأنه لم يقصد به الخبر عن النساء بل قصد به الخبر عمن يفعل ذلك، تقديره: من القوم الخاطئين، كقوله تعالى: «وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ»[التحريم: ١٢]، بيانه قوله تعالى: «إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ»[النمل: ٤٣].

---

(١) انظر: «الدر المنثور»: (٤/٥٢٦).

(٢) قال الطبري في «التفسير» (٢/٥٩):

(والصواب من القول في ذلك، قول من قال: كان صبيًا في المهد للخبر الذي ذكرناه عن رسول الله ﷺ، أنه ذكر من تكلم في المهد، فذكر أن أحدهم صاحب يوسف).

۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ. . . ﴾ الآية.

يقول: شاع أمرُ يوسف والمرأة في المدينة: مدينة مصر، وقيل: مدينة عين الشمس، وتحدث النساء بذلك وقلن ـ وهنَّ خمس نسوة: امرأة حاجب[1] الملك، وامرأة صاحب الدواب، وامرأة الخباز، وامرأة الساقي، وامرأة صاحب السجن، قاله مقاتل، وقيل: هنَّ نسوة من أشراف مصر ـ:

﴿ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا ﴾ أي: عبدها الكنعاني ﴿ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ أي: تطلب من عبدها الفاحشة ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ أي: عَلِقَها حبًا.

قال الكلبي: حجب حبُّه قلبَها حتى لا تعقل سواه.

وقيل: أحبَّتْهُ حتى دخل حبه شغاف قلبها، أي: داخل قلبها.

قال السدي: الشغاف: جلدة رقيقة في القلب، يقول: دخل الحبُّ الجلدَ حتى أصاب القلب.

وقرأ الشعبي والأعرج[2]: «شَعَفَهَا» بالعين غير المعجمة، معناه: ذهب الحُبُّ بها كلَّ مذهب، ومنه شعف الجبال وهو رؤوسها ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ أي: خطأ ظاهر، وقيل: معناه: إنها تركت ما يكون عليه أمثالها من العفاف والستر.

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ ﴾ راعيل ﴿ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ بقولهنَّ وحديثهن، قاله قتادة والسدي.

قال ابن إسحاق: إنما قلن ذلك؛ مكرًا بها لِتُرِيَهُنَّ يوسف، وكان يوصف لهنَّ حسنُه وجماله.

وقيل: إنها أفشت إليهنَّ سرَّها واستكتمتهن فأفْشَيْنَ ذلك، فلذلك سماه مكرًا.

﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ قال وهب: اتخذت مأدبة، ودعتْ أربعين امرأة، منهنَّ هؤلاء اللاتي عيَّرْنَها ﴿ وَأَعْتَدَتْ ﴾ أي: أعدت ﴿ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا ﴾ أي: ما يتكأ عليه.

وقال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وقتادة ومجاهد: «مُتَّكَأً»، أي: طعامًا، سماه متكأ؛ لأن أهل الطعام إذا جلسوا يتكئون على الوسائد، فسمى الطعام متكأ على الاستعارة، يقال: اتكأنا عند فلان،

---

(١) في «ب»: (صاحب).
(٢) في «ب»: (الأعمش).

أي: طعمنا[١]، ويقال: المتكأ: ما اتكأت عليه للشرب أو الحديث أو الطعام[٢]، ويقرأ في الشواذ مَتْكًا بسكون التاء.

واختلفوا في معناه، فقال ابن عباس: (هو الأترج، ويُروى عن مجاهد مثله، وقيل)[٣]: هو الأترج بالحبشة، وقال الضحاك: هو الرباورد[٤]، وقال عكرمة: هو كل شيء يقطع بالسكين.

وقال أبو زيد الأنصاري: كل ما يحز بالسكين، فهو عند العرب متك، والمتك والبتك بالميم والباء: القطع، فزينت (المأدبة بألوان)[٥] الفواكه والأطعمة، ووضعت الوسائد ودعت النسوة.

﴿وَءَاتَتْ﴾ وأعطت ﴿كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ فكُنَّ يأكلنَ اللحم حزًّا بالسكين.

﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وذلك أنها كانت أجلسته في مجلس آخر، فخرج عليهن يوسف.

قال عكرمة: كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم.

ورُوي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ ليلةَ أُسريَ بي إلى السماء يوسفَ كالقمر ليلة البدر»[٦].

قال إسحاق بن أبي فروة: كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يرى تلألأ وجهه على الجدران.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أعظمنه، قال أبو العالية: هالَهُنَّ أمرُه وبُهِتْنَ، وقيل: أكبرنَه، أي: حضن لأجله من جماله[٧]، ولا يصح.

﴿وَقَطَّعْنَ﴾ أي: حززن بالسكاكين التي معهنَّ ﴿أَيْدِيَهُنَّ﴾ وهنَّ يحسبن أنهن يقطعن الأترج، ولم يجدن

١/١٨٢ الألم لشغل قلوبهن بيوسف. قال مجاهد: / فما أحسسن إلا بالدم، وقال قتادة[٨]: أَبَنَّ أيديهنَّ حتى ألقينها.

والأصح: كان قطعًا بلا إبانة.

وقال وهب: ماتت جماعة منهنَّ[٩].

---

(١) في «أ»: (أطعمنا).

(٢) في «أ»: (لشراب أو لحديث أو لطعام).

(٣) ساقط من «أ».

(٤) في «ب»: (الزُّمَاورد).

(٥) في «ب»: (بيتًا بأنواع).

(٦) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» ص٨٩: (رواه الثعلبي من رواية أبي هارون العبدي عن أبي سعيد، وأخرجه الحاكم والبيهقي في «الدلائل»، وابن مردويه من هذا الوجه مطولاً، وأبو هارون العبدي ضعيف).

(٧) وضعّف هذا التفسير أيضًا: الطبري: (١٦/٧٦ـ٧٧)، وابن عطية في «المحرر الوجيز»: (٧/ ٤٩٥ـ٤٩٦).

(٨) في «ب»: (مجاهد).

(٩) قال الطبري في «التفسير» (١٦/ ٧٩): (والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر عنهنَّ أنهن قطّعن أيديهن وهنَّ لا يشعرن لإعظام يوسف، وجائز أن يكون ذلك قطعًا بإبانة، وجائز أن يكون قطع حزّ وخدش، ولا قول في ذلك أصوب من التسليم لظاهر التنزيل).

قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ أي: معاذ الله أن يكون هذا بشرًا، قرأ أبو عمرو «حاشى لله» بإثبات الياء في الوصل، على الأصل، وقرأ الآخرون بحذف الياء؛ لكثرة ورودها على الألسن، واتباعًا للكتاب.

وقوله: «مَا هَٰذَا بَشَرًا»، نصب بنزع حرف الصفة، أي: ليس هذا ببشر ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا ﴿إِلَّا مَلَكٌ﴾ من الملائكة ﴿كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ على الله تعالى.

﴿قَالَتْ﴾ يعني: راعيل: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أي: في حبّه، ثم صرحت بما فعلت، فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي: فامتنع، وإنما صرحت به لأنها علمت أنه لا ملامة عليها منهنَّ، وقد أصابهنَّ ما أصابها من رؤيته، فقلنَ له: أَطِعْ مولاتك، فقالتْ راعيل: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ ولئن لم يطاوعني فيما دعوته إليه ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ أي: ليعاقبن بالحبس ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ من الأذلاء، ونون التوكيد تثقل وتخفف، والوقف على قوله: «لَيُسْجَنَنَّ» بالنون؛ لأنها مشددة، وعلى قوله: «وَلَيَكُونًا» بالألف، لأنها مخففة، وهي شبيهة بنون الإعراب في الأسماء، كقوله: «لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۞ نَاصِيَةٍ»[العلق: ١٥-١٦]، فاختار يوسف عليه السلام السجن على المعصية حين توعدته المرأة.

﴿قَالَ رَبِّ﴾ أي: رب ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ قيل: كان الدعاء منها خاصة، ولكنه أضاف إليهن خروجًا من التصريح إلى التعريض، وقيل: إنهنَّ جميعًا دعونه إلى أنفسهن.

وقرأ يعقوب وحده: السَّجْنُ بفتح السين، وقرأ العامة بكسرها.

وقيل: لو لم يقل: السجن أحب إليَّ لم يُبْتَلَ بالسجن، والأَوْلى بالمرء أن يسأل الله العافية.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أَمِلْ إليهنَّ وأتابعهن، يقال: صبا فلان إلى كذا يصبو صبوًا وصُبوًا وصُبوةً إذا مال واشتاق إليه.

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ فيه دليل على أن المؤمن إذا ارتكب ذنبًا يرتكبه عن جهالة.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ﴾ أجاب له ﴿رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ لدعائه[1] العليم بمكرهنَّ.

---

(١) ساقط من «أ».

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ أي: للعزيز وأصحابه في الرأي، وذلك أنهم أرادوا أن يقتصروا من أمر يوسف على الأمر بالإعراض، ثم بدا لهم أن يحبسوه ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ الدالة على براءة يوسف من قَدِّ القميص، وكلام الطفل، وقطع النساء أيديهنَّ وذهاب عقولهنَّ ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾ إلى مدَّةٍ يرون فيه رأيهم.

وقال عطاء: إلى أن تنقطع مقالة[1] الناس.

قال عكرمة: سبع سنين، وقال الكلبي: خمس سنين.

قال السدي: وذلك أن المرأة قالت لزوجها: إن هذا العبد العبراني قد فضحني في الناس، يخبرهم أني راودتُه عن نفسه، فإما أن تأذن لي فأخرج فأعتذر إلى الناس، وإما أن تحبسه، فحبسهُ، وذُكر أن الله تعالى جعل ذلك الحبس تطهيرًا ليوسف عليه السلام من همّه بالمرأة[2].

قال ابن عباس: عثر يوسف ثلاث عثرات: حين همَّ بها فسجن، وحين قال: «اذكرني عند ربك» فلبث في السجن بضع سنين، وحين قال للإخوة: «إنكم لسارقون»، فقالوا: «إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل»[3].

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾ وهما غلامان كانا (للريان بن الوليد بن شروان العمليق)[4] ملك مصر الأكبر، أحدهما: خبَّازه وصاحب طعامه، والآخر: ساقيه وصاحب شرابه، غضب الملك عليهما فحبسهما.

وكان السبب فيه: أن جماعة من أهل مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله، فضمنوا لهذين مالاً ليسمَّا الملك في طعامه وشرابه فأجاباهم، ثم إن الساقي نكل عنه، وقبل الخباز الرشوة فسمَّ الطعام، فلما أحضر الطعام والشراب.

قال الساقي: لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم.

وقال الخباز: لا تشرب فإن الشراب مسموم.

---

(١) في «ب»: (قالة).

(٢) «تفسير الطبري»: (١٦/ ٩٣)، وراجع التعليق على الروايات سابقًا في معنى «الهمّ».

(٣) «تفسير الطبري»: (١٦/ ٩٣).

(٤) في «ب»: (للوليد بن ثوران العمليقي).

فقال الملك للساقي: اشرب فشربه فلم يضره، وقال للخباز: كل من طعامك، (فأبى فجرب)[١] ذلك الطعام على دابة فأكلته فهلكت، فأمر الملك بحبسهما.

وكان يوسف حين دخل السجن جعل ينشر علمه ويقول: إني أعبر الأحلام، فقال أحد الفتيين لصاحبه: هلمَّ فلنجرب هذا العبد العبراني، فَتَرَاءَيا له فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئًا، قال ابن مسعود: ما رأيا شيئًا وإنما تحالَمَا ليجرِّبَا يوسف.

وقال قوم: بل كانا رأيا حقيقة، فرآهما يوسف وهما مهمومان، فسألهما عن شأنهما، فذكرا أنهما صاحبا الملك، حبسهما، وقد رأيا رؤيا غمتهما، فقال يوسف: قُصَّا عليَّ ما رأيتُما، فقصَّا عليه.

﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ وهو صاحب الشراب: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ أي: عنبًا، سمي العنب خمرًا باسم ما يؤول إليه، كما يقال: فلان يطبخ الآجر، أي: يطبخ اللبِنَ للآجر، وقيل: الخمر العنب بلغة عمان، وذلك أنه قال: إني رأيتُ كأني في بستان، فإذا بأصل حَبَلَةٍ عليها ثلاثة عناقيد من عنب فجنيتهما، وكان كأس الملك بيدي فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه.

﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ﴾ وهو الخباز: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾ وذلك أنه قال: إني رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها الخبز وألوان الأطعمة وسباع الطير تنهش منه ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾ أخبرنا بتفسيره وتعبيره وما يؤول إليه أمر هذه الرؤيا.

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾ أي: العالمين بعبارة الرؤيا، والإحسان بمعنى: العلم.

ورُوي أن الضحاك بن مزاحم سئل عن قوله: «إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ»، ما كان إحسانه؟ قال: كان إذا مرض إنسان في السجن عاده وقام عليه، وإذا ضاق (عليه المجلس)[٢] وسع له، وإذا احتاج جمع له شيئًا، وكان مع هذا يجتهد في العبادة، ويقوم الليل كله للصلاة[٣].

وقيل[٤]: إنه لما دخل السجن وجد فيه قومًا قد اشتد بلاؤهم وانقطع رجاؤهم وطال حزنهم، فجعل يُسلِّيهم ويقول: أبشروا واصبروا تؤجروا، فيقولون: بارك الله فيك يا فتى، ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك، لقد بورك لنا في جوارك فمن أنت يا فتى؟ قال: أنا يوسف بن صفي الله يعقوب بن ذبيح الله إسحاق[٥] بن خليل الله إبراهيم، فقال له عامل السجن: يا فتى، والله لو استطعت لخلَّيت سبيلك، ولكن سأحسن جوارك فتمكن في أيِّ بيوت السجن شئت.

---

(١) في «ب»: (فإني مجرب).

(٢) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٣) وقول الضحاك هذا، هو الذي رجحه أبو جعفر الطبري: (١٦/ ١٠٠).

(٤) رواه الطبري في «التفسير»: (١٦/ ٩٩) عن قتادة، وقال في عقبه: وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب القول الذي ذكرناه عن الضحاك وقتادة.

(٥) راجع فيما سبق: التعليق (١) في ص١٦٢ عن الذبيح.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

ويُروى أن الفتيين لمَّا رأيا يوسف قالا له: لقد أحببناك حين رأيناك، فقال لهما يوسف: أنشدكما بالله أن لا تحباني، فوالله ما أحبني أحد قط إلاَّ دخل عليَّ من حبه بلاء، لقد أحبتني عمتي فدخل عليَّ بلاء، ثم
١٨٢/ب أحبني أبي فألقيت في الجب، وأحبتني / امرأة العزيز فحُبِسْت، فلما قصَّا عليه الرؤيا كره يوسف أن يعبّر لهما ما سألاه لِمَا علم في ذلك من المكروه على أحدهما، فأعرض عن سؤالهما وأخذ في غيره في إظهار المعجزة والدعاء إلى التوحيد[(١)].

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ قيل: أراد به: في النوم، يقول: لا يأتيكما طعام ترزقانه في نومكما ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ في اليقظة.

وقيل: أراد به: في اليقظة، يقول: لا يأتيكما طعام من منازلكما ترزقانه: تُطعمانه وتأكلانه، إلا نبأتكما بتأويله بقدره ولونه والوقت الذي يصل فيه إليكما.

﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ قبل أن يصل إليكُما، وأيّ طعام أكلتم وكم أكلتم ومتى أكلتم، فهذا مثل معجزة عيسى عليه السلام حيث قال: «وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ»[آل عمران: ٤٩]، فقالا: هذا فعل العرَّافين والكَهنَة[(٢)]، فمن أين لك هذا العلم؟ فقال: ما أنا بكاهن وإنَّما ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ العلم ﴿مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ وتكرار «هُمْ» على التأكيد.

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أظهر أنه من ولد الأنبياء ﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾ ما ينبغي لنا ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ معناه: أن الله قد عصمنا من الشرك ﴿ذَٰلِكَ﴾ التوحيد والعلم ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ما بيَّن لهم من الهدى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ ثم دعاهما إلى الإسلام فقال:

---

(١) أخرجه الطبري في «التفسير»: (١٦/ ١٠٢)، وعزاه السيوطي أيضًا لابن أبي حاتم عن ابن إسحاق.

(٢) العرَّاف: هو الذي يزعم أنه يعرف الأمور الغيبية بمقدمات وأسباب قولية أو فعلية، يستدل بها على مواقعها، كالشيء يُسْرَق، فيعرف المظنون به السرقة. وجعله شيخ الإسلام ابن تيمية اسمًا للكاهن والمنجم والرَّمَّال ونحوهم. والكاهن: هو الذي يدعي علم الغيب، كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب، والأصل فيه: استراق الجنِّي السمع من كلام الملائكة فيلقيه في أذن الكاهن.
وهذه صورة لادعاء علم الغيب حرَّمها الإسلام؛ إذ لا يعلم الغيب إلا الله.
انظر بالتفصيل: «عالم الغيب والشهادة في التصور الإسلامي» تأليف عثمان جمعة ضميرية: ص١١٧ ـ ١٣١.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٠ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ۝٤١﴾

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ جعلهما صاحبي السجن لكونهما فيه، كما يقال لسكان الجنة: أصحاب الجنة، ولسكان النار: أصحاب النار ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ أي: آلهة شتّى، هذا من ذهب، وهذا من فضة، وهذا من حديد، وهذا أعلى، وهذا أوسط، وهذا أدنى، متباينون لا تضر ولا تنفع ﴿خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٣٩﴾ الذي لا ثاني له، القهار: الغالب على الكل، ثم بيَّن عجز الأصنام فقال:

﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: من دون الله، وإنما ذُكر بلفظ الجمع وقد ابتدأ الخطاب للاثنين؛ لأنه أراد جميعَ أهل السجن، وكلَّ مَن هو على مثل حالهما من أهل[1] الشرك ﴿إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ آلهةً وأربابًا خالية عن المعنى لا حقيقة لتلك الأسماء ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ حجة وبرهان ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ﴾ ما القضاء والأمر والنهي ﴿إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ المستقيم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٠﴾ ثم فسَّر رؤياهما فقال:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ وهو صاحب الشراب ﴿فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ﴾ (يعني: الملك)[2] ﴿خَمۡرٗاۖ﴾ والعناقيد الثلاثة: ثلاثة أيام يبقى في السجن ثم يدعوه الملك بعد الثلاثة[3] الأيام، ويردّه إلى منزلته التي كان عليها ﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ﴾ يعني: صاحب الطعام فيدعوه الملك بعد ثلاثة أيام، والسلال الثلاث: الثلاثة[3] الأيام يبقى في السجن، ثم يخرجه ﴿فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ﴾.

قال ابن مسعود: لمَّا سَمِعَا قولَ يوسفَ قالا: ما رأينا شيئًا إنَّما كنَّا نلعب، قال يوسف: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ۝٤١﴾[4]، أي: فُرغ من الأمر الذي عنه تسألان، ووجب حكم الله عليكما الذي أخبرتكما به، رأيتُما أو لم ترَيا.

---

(١) ساقط من «ب».
(٢) ما بين القوسين ساقط من «ب».
(٣) في «ب»: (ثلاثة).
(٤) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٤/ ٥٤٠) لابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَقَالَ﴾ يعني: يوسف عند ذلك ﴿لِلَّذِى ظَنَّ﴾ علم ﴿أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ وهو الساقي ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني: سيدك الملك، وقل له: إن في السجن غلامًا محبوسًا ظلمًا طال حبسه.

﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ قيل: أنسى الشيطان الساقي ذِكر يوسف للملك، تقديره: فأنساه الشيطان ذكره لربه.

قال ابن عباس وعليه الأكثرون: أنسى الشيطانُ يوسفَ ذكرَ ربِّه حين ابتغى الفرج من غيره واستعان بمخلوق، وتلك غفلة عرضت ليوسف من الشيطان[(١)].

﴿فَلَبِثَ﴾ فمكث ﴿فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ واختلفوا في معنى البضع، فقال مجاهد: ما بين الثلاث إلى السبع، وقال قتادة: ما بين الثلاث إلى التسع، وقال ابن عباس: ما دون العشر.

وأكثر المفسرين على أن البضع في هذه الآية سبع سنين، وكان قد لبث قبله خمس سنين فجملته اثنتا عشرة سنة.

قال وهب: أصاب أيوب البلاء سبع سنين، وتُرِك يوسف في السجن سبع سنين، وعذب بختنصر فحول في السباع سبع سنين[(٢)].

---

(١) رجح أبو حيان أن الضمير عائد على الساقي، وهو القول الأول، وهو أيضًا ما رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية من وجوه عديدة، فقال:
(... بل الشيطان أنسى الذي نجا منهما ذكر ربه، وهذا هو الصواب، فإنه مطابق لقوله: ﴿اذكرني عند ربك﴾ قال تعالى: ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾، والضمير يعود إلى القريب إذا لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك؛ ولأن يوسف لم ينس ذكر ربه، بل كان ذاكرًا لربه ....

ثم قال بعد وجوه عديدة: فتبين أن قوله ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾، أي: أنسى الفتى ذكر ربه، أن يذكر هذا لربه، ونسي ذكر يوسف ربه، والمصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول، ويوسف قد ذكر ربه ونسي الفتى ذكر يوسف ربه، وأنساه الشيطان أن يذكر ربه هذا الذكر الخاص، فإنه وإن كان يسقي ربه خمرًا فقد لا يخطر هذا الذكر بقلبه، وأنساه الشيطان تذكير ربه، وإذكار ربه لما قال: ﴿اذكرني﴾ أمره بإذكار ربه فأنساه الشيطان إذكار ربه.

فإذكار ربه أن يجعله ذاكرًا فأنساه الشيطان أن يجعل ربه ذاكرًا ليوسف، والذكر هو مصدر، وهو اسم فقد يضاف من جهة كونه اسمًا، فيعمّ هذا كله، أي: أنساه الذكر المتعلق بربه، والمضاف إليه).

ومما يبين أن الذي نسي ربه هو الفتى لا يوسف قوله بعد ذلك: ﴿وقال الذي نجا منهما، وادَّكر بعد أُمة، أنا أنبئكم بتأويله فأرسِلُون﴾، وقوله: ﴿وادَّكر بعد أمة﴾ دليل على أنه نسي فادَّكر.

انظر: «دقائق التفسير» لابن تيمية: (٣/ ٢٥٩ـ٢٦٣)، وراجع: «البحر المحيط» لأبي حيان: (٥/ ٣١١ـ٣١٢).

(٢) قال الطبري في «التفسير» (١٦/ ١١٥): (والصواب في البضع من الثلاث إلى التسع، إلى العشر، ولا يكون دون الثلاث، وكذلك ما زاد على العقد إلى المائة، وما زاد على المائة فلا يكون فيه بضع).

قال مالك بن دينار: لما قال يوسف للساقي: اذكرني عند ربك، قيل له: يا يوسف اتخذتَ من دوني وكيلًا لأطيلنَّ حبسَك، فبكى يوسف، وقال: يا رب، أنسى قلبي كثرةُ البلوى فقلتُ كلمةً ولن أعود[١].

وقال الحسن: دخل جبريل على يوسف في السجن، فلما رآه يوسف عرفه فقال له: يا أخا المنذرين ما لي أراك بين الخاطئين؟ فقال له جبريل: يا طاهر الطاهرين، يقرأ عليك السلام ربُّ العالمين، ويقول لك: أما استحييت منّي أن استشفعتَ بالآدميين، فَوَعِزَّتي لألبثنّك في السجن بضع سنين، قال يوسف: وهو في ذلك عني راض؟ قال: نعم، قال: إذًا لا أبالي.

وقال كعب: قال جبريل ليوسف: إن الله تعالى يقول: من خلقك؟ قال: الله، قال: فمن حبَّبَكَ إلى أبيك؟ قال: الله، قال: فمن نجّاك من كرب البئر؟ قال: الله، قال: فمن علَّمك تأويلَ الرؤيا؟ قال: الله، قال: فمن صرف عنك السوء والفحشاء؟ قال: الله، قال: فكيف استشفعت بآدمي مثلك[٢]؟

فلما انقضت سبع سنين ـ قال الكلبي: وهذا السبع سوى الخمسة[٣] التي كانت قبل ذلك ـ ودَنَا فَرَجُ يوسف، رأى ملك مصر الأكبر رؤيا عجيبة هالته، وذلك أنه رأى سبع بقرات سمان، خرجت من البحر، ثم خرج عقبهن سبع بقرات عجاف في غاية الهزال، فابتلعت العجافُ السِّمانَ فدخلن في بطونهنَّ، ولم يُرَ

---

(١) أخرجه الطبري في «التفسير»: (١٦/ ١١١).

(٢) هذه الروايات عن الحسن ووهب ومالك بن دينار من الإسرائيليات، وهي بجملتها تعني أن يوسف عليه السلام لبث في السجن بضع سنين بسبب استشفاعه أو طلبه من الذي علم أنه ناج أن يذكره عند ربه، وكان الأولى أن يتوكل على الله ولا يقول: اذكرني عند ربك، فلما نسي أن يتوكل على ربه جوزي بلبثه في السجن بضع سنين.

وقد ردَّ ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فقال في «دقائق التفسير» (٣/ ٢٦١): (ليس في قوله: ﴿اذكرني عند ربك﴾ ما يناقض التوكل، بل قد قال يوسف: ﴿إن الحكم إلا لله﴾، كما أن قول أبيه: ﴿لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ لم يناقض توكله؛ بل قال: ﴿وما أغني عنكم من الله من شيء، إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون﴾.

وأيضًا: فيوسف قد شهد الله له أنه من عباده المخلصين، والمخلص لا يكون مخلصًا مع توكله على غير الله، فإن ذلك شرك، ويوسف لم يكن مشركًا، لا في عبادته ولا توكله، بل قد توكل على ربه في فعل نفسه بقوله: ﴿وإلاَّ تصرفْ عني كيدهنَّ أصْبُ إليهنَّ وأكنْ من الجاهلين﴾ فكيف لا يتوكل عليه في أفعال عباده؟!

وقوله: ﴿اذكرني عند ربك﴾ مثل قوله لربه: ﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾ فلما سأل الولاية للمصلحة الدينية لم يكن هذا مناقضًا للتوكل، ولا هو من سؤال الإمارة المنهي عنه، فكيف يكون قوله للفتى: ﴿اذكرني . . .﴾ مناقضًا للتوكل، وليس فيه إلا مجرد إخبار الملك به، ليعلم حاله ليتبين الحق، ويوسف كان من أثبت الناس.

ولهذا بعد أن طُلب ﴿وقال الملك ائتوني به﴾، قال: ﴿ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن؟ إن ربي بكيدهن عليم﴾ فيوسف يذكر ربه في هذه الحال، كما ذكره في تلك . . . فلم يكن في قوله له: ﴿اذكرني . . .﴾ ترك لواجب، ولا فعل لمحرم، حتى يعاقبه الله على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين، وكان القوم قد عزموا على حبسه إلى حين قبل هذا، ظلمًا له، مع علمهم ببراءته من الذنب، ولبثه في السجن كان كرامة من الله في حقه ليتم بذلك صبره وتقواه، فإنه بالصبر والتقوى نال ما نال).

وانظر: «الإسرائيليات والموضوعات»: ص ٣٢٠ـ٣٢١.

(٣) ظاهر الآيات لا يدل على أن هناك خمسًا قبل ذلك، والله أعلم.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾

منهنَّ شيء ولم يتبين على العجاف منها شيء، ثم رأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حَبُّها، (وسبعًا أُخرى)(١) يابسات قد استحصدت، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها ولم يبق من خضرتها شيء، فجمع السحرة والكهنة والحازة(٢) والمعبرين وقص عليهم رؤياه، فذلك قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ﴾ فقال لهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ﴾ أخلاط أحلام مشتبهة، أهاويل، واحدها(٣) ضِغْث، وأصله الحزمة من أنواع الحشيش، والأحلام جمع الحُلْم، وهو الرؤيا، والفعل منه حلمت أحلم، بفتح اللام في الماضي وضمها في الغابر، حُلُمًا وحُلْمًا، مثقّلًا ومخففًا ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا﴾ من القتل ﴿ مِنْهُمَا﴾ من الفتيين وهو الساقي ﴿ وَٱدَّكَرَ﴾ أي: تذكر قول يوسف: اذكرني عندَ ربِّك ﴿ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ بعد حين وهو سبع سنين: ﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ وذلك أن الغلام جثا بين يدي الملك، وقال: إن في السجن رجلًا يعبر الرؤيا ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ وفيه اختصار تقديره: فأرسلني أيها
١/١٨٣ الملك إليه؛ فأرسله فأتى السجن / قال ابن عباس: ولم يكن السجن في المدينة.

فقال: ﴿ يُوسُفُ﴾ يعني: يا يوسف ﴿ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ والصديق الكثير الصدق ﴿ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ فإن الملك رأى هذه الرؤيا ﴿ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أهل مصر ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ تأويل الرؤيا، وقيل: لعلَّهم يعلمون منزلتك في العلم.

(١) في «ب»: (وسبع أُخَر).
(٢) في هامش «أ»: (الحازة: المنجمون).
(٣) في «ب»: (واحدتها).

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

فقال لهم يوسف معبرًا ومعلمًا: أمّا البقرات السمان والسنبلات الخضر: فسبع سنين مخاصيب، والبقرات العجاف والسنبلات اليابسات[١]: فالسنون المجدبة، فذلك قوله تعالى إخبارًا عن يوسف:

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ هذا خبر بمعنى الأمر، يعني: ازرعُوا سبعَ سنين على عادتكم في الزراعة.

والدأب: العادة، وقيل: بجدٍّ واجتهاد.

وقرأ عاصم برواية حفص: ﴿دَأَبًا﴾ بفتح الهمزة، وهما لغتان، يقال: دأبت في الأمر أدأب دَأْبًا ودَأَبًا إذا اجتهدت فيه. ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ﴾ أمرهم بترك الحنطة في السنبلة لتكون أبقى على الزمان ولا تفسد ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: مما تدرسون قليلًا للأكل، أمرهم بحفظ الأكثر والأكل بقدر الحاجة.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ سمى السنين المجدبة شدادًا؛ لشدّتها على الناس ﴿يَأْكُلْنَ﴾ أي: يفنين ويُهلكن ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي: يؤكل فيهن ما أعددتم[٢] لهن من الطعام، أضاف الأكل إلى السنين على طريق التوسع ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ تُحْرِزُونَ وتدخرون للبذر.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: يمطرون، من الغيث: وهو المطر، وقيل: ينقذون من قول العرب: استغثت فلانًا فأغاثني ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ قرأ حمزة والكسائي: «تعصرون» بالتاء؛ لأن الكلام كله على الخطاب، وقرأ الآخرون بالياء ردًّا إلى الناس، ومعناه: يعصرون العنب خمرًا والزيتون زيتًا والسمسم دهنًا، وأراد به كثرة النعيم والخير.

وقال أبو عبيدة: يعصرون، أي: ينجون من الكروب والجدب، والعَصَر والعُصْرة: المنجاة والملجأ[٣].

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) في «ب»: (قدمتم).

(٣) قول أبي عبيدة هذا في كتابه «مجاز القرآن»: (١/ ٣١٣، ٣١٤)، وقد ردَّه الطبري في «التفسير»: (١٦/ ١٣١، ١٣٢)، وقال: (... وذلك تأويل يكفي من الشهادة على خطئه: خلافه قول جميع أهل العلم من الصحابة والتابعين).

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ وذلك أن الساقي لما رجع إلى الملك وأخبره بما أفتاه[1] يوسف من تأويل رؤياه، وعرف الملك أن الذي قاله كائن، قال: ائتوني به.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ وقال له: أجب الملك، أبى أن يخرج مع الرسول حتى تظهر براءته، ثم ﴿قَالَ﴾ للرسول: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يعني: سيدك الملك ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ ولم يصرح بذكر امرأة العزيز أدبًا واحترامًا.

قال النبي ﷺ: «لو لبثتُ في السجن طولَ ما لبثَ يوسفُ لأجبتُ الداعي»[2].

﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ أي: إن الله بصنيعهن عالم، وإنما أراد يوسف بذكرهنَّ بعد طول المدة حتى لا ينظر إليه الملك بعين التهمة، ويصير إليه بعدَ زوال الشك عن أمره، فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته، فدعا الملك النسوةَ وامرأة العزيز.

﴿قَالَ﴾ لهنَّ: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ ما شأنكنَّ وأمركنَّ ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ خاطبهنَّ، والمراد: امرأة العزيز، وقيل: إن امرأة العزيز راودته عن نفسه وسائر النسوة أَمَرْنَهُ بطاعتها فلذلك خاطبهن.

﴿قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ﴾ معاذَ الله ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ خيانة.

﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ ظهر وتبيَّن، وقيل: إن النسوة أقبلن على امرأة العزيز فقررنها فأقرت[3] وقيل: خافت أن يشهدن عليها فأقرت ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ في قوله: هي راودتني عن نفسي، فلما سمع ذلك يوسف قال[4]:

---

(١) في «ب»: (أخبره).

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة يوسف، باب ﴿فلما جاءه الرسول قال ارجع ...﴾: (٨/ ٣٦٦).

(٣) ساقط من «ب».

(٤) هذا القول عن يوسف حكاه ابن جرير وابن أبي حاتم، ولم يذكرا غيره. انظر: الطبري: (١٦/ ١٤٠)، ابن كثير: (٢/ ٤٨٢).
(والأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام: أن ذلك من قول امرأة العزيز، تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسي ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع، فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة ...). انظر: ابن كثير: (٢/ ٤٨٢).

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الذي فعلت من ردِّي رسول الملك إليه ﴿لِيَعْلَمَ﴾ العزيز ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ في زوجته ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: في حال غيبته ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ قوله ذلك ليعلم من كلام يوسف اتصل بقول امرأة العزيز: أنا راودته عن نفسه، من غير تميز، لمعرفة السامعين[1].

وقيل: فيه تقديم وتأخير، معناه: ارجع إلى ربِّك فاسأله ما بال النسوة اللَّاتي قطَّعنَ أيديَهنَّ إنَّ ربي بكيدهنَّ عليمٌ، ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب[1].

قيل: لما قال يوسف هذه المقالة، قال له جبريل: ولا حين هممت بها؟ فقال يوسف عند ذلك: «۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي»[2].

قال السدي: إنما قالت له امرأة العزيز: ولا حين حللت سراويلك يا يوسف؟ فقال يوسف[2]:

﴿۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ من الخطأ والزلل فأزكيها ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ بالمعصية ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ أي: إلا من رحم ربي فعصمه، «ما» بمعنى «من» ـ كقوله تعالى: «فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم»[النساء: ٣]، أي: مَنْ طاب لكم ـ وهم الملائكة، عصمهم الله عزَّ وجلَّ فلم يركَّبْ فيهم الشهوة.

وقيل: «إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي»: إشارة إلى حالة العصمة عند رؤية البرهان.

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ فلما تبيَّن للملك عذر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وعرف أمانته وعلمه:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أي: أجعله خالصًا لنفسي ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ فيه اختصار تقديره: فجاء الرسولُ يوسفَ فقال له: أجب الملك الآن.

رُوي أنه قام ودعا لأهل السجن فقال: اللهم عطِّف عليهم قلوب الأخيار، ولا تعمِّ عليهم الأخبار، فهم أعلم الناس بالأخبار في كل بلد، فلما خرج من السجن كتب على باب السجن: هذا قبر الأحياء،

= وهذا التفسير ذكره الماوردي، وانتدب لنصره شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: (هذا كله من كلام امرأة العزيز، ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر بعد إلى الملك، ولا سمع كلامه ولا رآه، ولكن ظهرت براءته في غيبته كما قالت امرأة العزيز: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾، أي: لم أخنه في حال مغيبه عني وإن كنت في حال شهوده راودته).

انظر: «دقائق التفسير»: (٢/ ٢٧٣)، «تفسير المنار»: (١٢/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤).

(١) انظر: التعليق السابق.

(٢) انظر: التعليق السابق، وراجع فيما سبق: ص٤٥١، تعليق (٢).

وبيت الأحزان، وتجربة الأصدقاء، وشماتة الأعداء، ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثيابًا حسانًا وقصد الملك[١].

قال وهب: فلما وقف بباب الملك قال: حسبي ربي من دنياي، وحسبي ربي من خلقه، عزَّ جارُه، وجلَّ ثناؤه، ولا إله غيره، ثم دخل الدار، فلما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بك من شره وشر غيره، فلما نظر إليه الملك سلَّم عليه يوسف بالعربية، فقال الملك: ما هذا اللسان؟ قال: هذا لسان آبائي، ولم يعرف الملك هذين اللسانين.

قال وهب: وكان الملك يتكلم بسبعين لسانًا، فكلما تكلم بلسان أجاب يوسف بذلك اللسان وزاد عليه بلسان العربية والعبرانية، فأعجب الملك (ما رأى منه)[٢] مع حداثة سنه، وكان يوسف يومئذ ابن ثلاثين سنة، فأجلسه و﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ (المكانة في الجاه)[٣] ﴿أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ أي: صادق.

ورُوي أنَّ الملك قال له: إني أحب أن أسمع رؤياي منك شفاهًا.

فقال يوسف: نعم أيها الملك، رأيتَ سبع بقرات سمان شهب غرٍّ حِسَانٍ، كشفَ لك عنهنَّ النيلُ، فطلعنَ عليك من شاطئه تشخب أخلافهن لبنًا، فبينما أنت تنظر إليهن ويعجبك حُسنهنَّ إذْ نضبَ النيلُ فغار ماؤه وبدا يبسه، فخرج من حمأته سبع بقراتٍ عجافٍ شُعثٍ غُبرٍ مُتقلِّصات (البطون، ليس لهن ضروع ولا أخلاف)[٤]، ولهنَّ أنياب وأضراس وأكف كأكف الكلاب، وخراطيم كخراطيم السباع، فافترسن السمان افتراس السَّبُع، فأكلن لحومهن، ومزَّقْنَ جلودهنَّ، وحطمنَ عظامهنَّ، وتمششن مخهن، فبينما
١٨٣/ب أنت تنظر وتتعجب / إذ سبع سنابل خضر وسبع أُخر سود في منبت واحد (عروقهن في الثرى والماء، فبينما أنت تقول في نفسك أنى هذا؟ خضر مثمرات وهؤلاء سود يابسات، والمنبت واحد وأصولهنَّ في الماء)[٥] إذ هَبَّتْ ريحٌ فذرت الأوراق من اليابسات على الخضر المثمرات فاشتعلت فيهن النار، فاحترقْنَ فصرن سودًا فهذا ما رأيت، ثم انتبهتَ من نومك مذعورًا.

فقال الملك: والله، ما شأن هذه الرؤيا ـ وإن كانت لعجيبة ـ بأعجب مما سمعتُ منك، فما ترى في رؤياي أيها الصِّدِّيق؟

---

(١) انظر: «البحر المحيط»: (٥/ ٣١٩)، ومثل هذه الأخبار، والخبران التاليان مما لا يوقف على صحته، وساق المصنف ذلك بصيغة التمريض، ولا يتوقف فهم الآيات على شيء منها، والله أعلم.

(٢) ساقط من «أ».

(٣) في «أ»: (أي: ذو مكانة وجاه).

(٤) جاءت هذه العبارة في «ب» هكذا: (متقلصات الضروع ليس لهن بطون ولا أخلاف).

(٥) ساقط من «أ».

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾

فقال يوسف عليه السلام: أرى أن تجمع الطعام وتزرع زرعًا كثيرًا في هذه السنين المخصبة، وتجعل الطعام في الخزائن بقصبه وسنبله؛ ليكون القصب والسنبل عَلَفًا للدواب، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم الخُمُس، فيكفيك من الطعام الذي جمعته لأهل مصر وَمَنْ حولها، ويأتيك الخلق من النواحي للميرة فيجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك.

فقال الملك: ومن لي بهذا ومن يجمعه ويبيعه ويكفيني الشغل فيه؟

فـ ﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ الخزائن: جمع خزانة، وأراد خزائن الطعام والأموال، والأرض: أرض مصر، أي: خزائن أرضك.

وقال الربيع بن أنس: على خراج مصر ودخله.

﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾ أي: (حفيظ للخزائن، عليم بوجوه مصالحها، وقيل: حفيظ عليم)[١]: كاتب وحاسب، وقيل: حفيظ لما استودعتني، عليم بما وليتني، وقيل: حفيظ للحساب[٢]، عليم بالألسن، أعلم لغة كل من يأتيني.

وقال الكلبي: حفيظ بتقديره في السنين الخصبة (في الأرض الجدبة)[٣] عليم بوقت الجوع حين يقع، فقال له الملك: ومن أحق به منك؟! فولاَّه ذلك وقال له: إنَّك اليوم لدينا مكين، ذو مكانة ومنزلة، أمين: على الخزائن.

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني أبو عبد الله الحسين بن محمد الفنجوي، حدثنا مخلد بن جعفر البقرجي، حدثنا الحسن بن علوية، حدثنا إسماعيل بن عيسى، حدثنا إسحاق بن بشر، عن جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته، ولكنه أخره لذلك سنة فأقام في بيته سنة مع الملك»[٤].

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٢) في «ب»: (حساب).

(٣) ساقط من «أ».

(٤) حديث موضوع. قال الزيلعي (٢/ ١٧٣): (قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» ص٩٠: أخرجه الثعلبي عن ابن عباس من رواية إسحاق بن بشر عن جويبر عن الضحاك، وهذا إسناد ساقط، وعن الثعلبي رواه الواحدي في «تفسيره الوسيط» بسنده ومتنه). وانظر: «سلسلة الأحاديث الضعيفة»: (١/ ٣٣٥).

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

وبإسناده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: لما انصرمت السنة من اليوم الذي سأل الإمارة دعاه الملك فتوجه (وقلده بسيفه)[1] ووضع له سريرًا من ذهب مكللًا بالدر والياقوت، وضرب عليه حلة من إستبرق، وطول السرير ثلاثون ذراعًا، وعرضه عشرة أذرع، عليه ثلاثون فراشًا وستون مقرمة، ثم أمره أن يخرج، فخرج متوَّجًا، ولونه كالثلج، ووجهه كالقمر، يرى الناظر وجهه في صفاء لون وجهه، فانطلق حتى جلس على السرير، ودانت له الملوك، ودخل الملك بيته وفوّض إليه أمر مصر، وعزل قطفير عمَّا كان عليه وجعل يوسف مكانه، قاله ابن إسحاق[2].

وقال ابن زيد: وكان لملك مصر خزائن كثيرة فسلم سُلطانه كله إليه وجعل أمره وقضاءه نافذًا، قالوا: ثم إن قطفير هلك في تلك الليالي فزوج الملكُ يوسفَ راعيلَ امرأة قطفير، فلما دخل عليها قال: أليس هذا خيرًا مما كنت تريدين؟ فقالت: أيها الصديق لا تلمني، فإني كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى في ملك ودنيا، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنتَ كما جعلك الله في حسنك وهيئتك فغلبتني نفسي، فوجدها يوسف عذراء فأصابها فولدت له ولدين: أفرائيم بن يوسف، وميشا بن يوسف[2].

واستوثق ليوسف مُلك مصر، أي: اجتمع، فأقام فيهم العدل، وأحبه الرجال والنساء، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: أرض مصر ملكناه[3] ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا﴾ أي: ينزل ﴿حَيْثُ يَشَاءُ﴾ ويصنع فيها ما يشاء.

قال ابن كثير «نشاء» بالنون ردًا على قوله: «مَكَّنَّا»، وقرأ الآخرون بالياء ردًا على قوله «يَتَبَوَّأُ».

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾ أي: بنعمتنا ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ قال ابن عباس ووهب: يعني: الصابرين.

قال مجاهد وغيره: فلم يزل يوسف عليه السلام يدعو الملك إلى الإسلام ويتلطف له حتى أسلم الملك وكثير من الناس، فهذا في الدنيا.

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ﴾ ثواب الآخرة ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

---

(١) في «ب»: (وردّاه بسيفه).

(٢) ساق ابن عطية هذه الرواية عن ابن إسحاق ثم قال: وروي في نحو هذا من القصص ما لا يوقف على صحته، ويطول الكلام بسَوْقه. انظر: «المحرر الوجيز»: (٨/ ٨).

(٣) في «أ»: (مكنّاه).

فلما اطمأن يوسف في ملكه دبَّر في جمع الطعام بأحسن التدبير، وبنى الحصون والبيوت الكثيرة، وجمع فيها الطعام للسنين المجدبة، وأنفق بالمعروف حتى خلت السنون المخصبة ودخلت السنون المجدبة بهول لم يعهد الناس بمثله.

ورُوي أنه كان قد دبر في طعام الملك وحاشيته كل يوم مرة واحدة نصف النهار[(١)]، فلما دخلت سنة القحط كان أول من أخذه الجوع هو الملك في نصف الليل فنادى: يا يوسف، الجوعَ الجوعَ!

فقال يوسف: هذا أوان القحط.

ففي السنة الأُولى من سنيِّ الجدب هلك كل شيء أعدُّوه في السنين المخصبة، فجعل أهل مصر يبتاعون من يوسف الطعام، فباعهم أول سنة بالنقود حتى لم يبق بمصر دينار ولا درهم إلا قبضه، وباعهم السنة الثانية بالحلي والجواهر حتى لم يبق في أيدي الناس منها شيء، وباعهم السنة الثالثة بالمواشي والدواب حتى احتوى عليها أجمع، وباعهم السنة الرابعة بالعبيد والإماء حتى لم يبق في يد أحد عبد ولا أمة، وباعهم السنة الخامسة بالضياع والعقار والدور حتى احتوى عليها، وباعهم في السنة السادسة بأولادهم حتى استرقهم، وباعهم السنة السابعة برقابهم (حتى استرقهم)[(٢)]، ولم يبق بمصر حرّ ولا حرة إلا صار عبدًا له.

فقال الناس: ما رأينا يومًا كاليوم ملكًا أجل ولا أعظم من هذا.

ثم قال يوسف للملك: كيف رأيت صنع ربي فيما خوَّلني فما ترى في ذلك؟

فقال له الملك: الرأي رأيك ونحن لك تبع.

قال: إني أشهد الله وأشهدك أني أعتقت أهل مصر عن آخرهم، ورددتُ عليهم أملاكهم[(٣)].

ورُوي أن يوسف كان لا يشبع من طعام في تلك الأيام، فقيل له: أتجوع وبيدك خزائن الأرض؟

فقال: أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع، وأمر يوسف عليه السلام طباخي الملك أن يجعلوا غداءه نصف النهار، وأراد بذلك أن يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائعين، فمن ثَمَّ جعل الملوك غذاءهم نصف النهار.

قال: وقصد الناسُ مصرَ من كل أوبٍ يمتارون الطعام فجعل يوسف لا يمكن أحدًا منهم - وإن كان عظيمًا - من أكثر من حمل بعير تقسيطًا بين الناس، وتزاحم الناس عليه وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب الناس في سائر البلاد من القحط والشدة، ونزل بيعقوب ما نزل بالناس، فأرسل بنيه إلى مصر للميرة، وأمسك بنيامين أخا يوسف لأمه، فذلك قوله تعالى:

---

(١) حكى الثعلبي أن يوسف عليه السلام كان لا يشبع في تلك السنين حتى لا ينسى الجيعان، وأنه إنما كان يأكل أكلة واحدة نصف النهار، قال: فمن ثم اقتدى به الملوك في ذلك. انظر: «البداية والنهاية»: (١/ ٢١٩).

(٢) ساقط من «ب».

(٣) قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٤٨٤): (وما ذكره بعض المفسرين من أنه باعهم في السنة الأولى بالأموال . . . ، الله أعلم بصحة ذلك، وهو من الإسرائيليات التي لا تصدّق ولا تكذب).

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ وكانوا عشرة، وكان منزلهم بالعرنات من أرض فلسطين، بغور الشام، وكانوا أهل بادية وإبل وشاة، فدعاهم يعقوب عليه السلام وقال: يا بني، بلغني أن بمصر ملكًا صالحًا يبيع
١٨٤/أ الطعام، فتجهزوا لِتَشْتَرُوا / منه الطعام، فأرسلهم فقدمُوا مصرَ، ﴿فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ على يوسف ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ يوسف عليه السلام.

قال ابن عباس ومجاهد: عرفهم بأول ما نظر إليهم.

وقال الحسن: لم يعرفهم حتى تعرفوا إليه.

﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾ أي: لم يعرفوه، قال ابن عباس: وكان بين أن قذفوه في البئر وبين أن دخلوا عليه أربعون سنة، فلذلك أنكروه.

وقال عطاء: إنما لم يعرفوه؛ لأنه كان على سرير الملك، وعلى رأسه تاج الملك.

وقيل: لأنه كان بِزِيِّ ملوك مصر، عليه ثياب من حرير وفي عنقه طوق من ذهب، فلما نظر إليهم يوسف وكلموه بالعبرانية، قال لهم: أخبروني من أنتم، وما أمركم، فإني أنكرت شأنكم؟ قالوا: قوم من أرض الشام رعاة، أصابنا الجهد فجئنا نمتار.

فقال: لعلكم جئتم تنظرون عورة بلادي.

قالوا: لا والله، وما نحن بجواسيس، إنَّما نحن إخوة بنو أب واحد، وهو شيخ صديق يقال له: يعقوب[(١)]، نبي من أنبياء الله.

قال: وكم أنتم؟ قالوا: كنا اثنى عشر، فذهب أخ لنا معنا إلى البرية، فهلك فيها، وكان أحبنا إلى أبينا.

قال: فكم أنتم هاهنا؟

قالوا: عشرة.

قال: وأين الآخر؟

قالوا: عند أبينا، لأنه أخو الذي هلك لأمه[(٢)]، فأبونا يتسلَّى به.

قال: فمن يعلم أن الذي تقولون حق؟

قالوا: أيها الملك، إنا ببلاد لا يعرفنا أحد (من أهلها)[(٣)].

---

(١) في «أ»: (صديق).

(٢) في «ب»: (من أمه).

(٣) ساقط من «ب».

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)﴾

فقال يوسف: فأتوني بأخيكم الذي من أبيكم إن كنتم صادقين، وأنا أرضى بذلك.

قالوا: فإن أبانا يحزن على فراقه، وسنراود عنه أباه.

قال: فَدَعُوا بعضكم عندي رهينة حتى تأتوني بأخيكم، فاقترعوا بينهم، فأصابت القرعة شمعون، وكان أحسنهم رأيًا في يوسف، فخلَّفوه عنده، فذلك قوله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أي: حمَّل لكل واحد بعيرًا بعدَّتهم ﴿قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ يعني: بنيامين ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ أي: أُتمه ولا أبخس الناس شيئًا، فأزيدكم حمل بعير لأجل أخيكم، وأكرم منزلتكم وأحسن إليكم ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩)﴾ قال مجاهد: أي: خير المضيفين، وكان قد أحسن ضيافتهم.

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾ أي: ليس لكم عندي طعام أكيله لكم ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠)﴾ أي: لا تقربوا داري وبلادي[1] بعد ذلك، وهو جزم على النهي.

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أي: نطلبه ونسأله أن يرسله معنا ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١)﴾ ما أمرتنا به.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص «لفتيانه» بالألف والنون، وقرأ الباقون[2] «لفتيته» بالتاء من غير ألف، يريد: لغلمانه، وهما لغتان، مثل: الصبيان والصبية ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾ ثمن طعامهم وكانت دراهم، وقال الضحاك عن ابن عباس: كانت النعال والأدم، وقيل: كانت ثمانية جرب من سويق المقل، والأول أصح.

﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ أوعيتهم، وهي جمع رحل ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا﴾ انصرفوا ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)﴾.

واختلفوا في السبب الذي فعله يوسف من أجله، قيل: أراد أن يريهم كرمه في رد البضاعة وتقديم الضمان في البر والإحسان، ليكون أدعى لهم إلى العود، لعلَّهم يعرفونها، أي: كرامتهم علينا.

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) في «أ»: (الآخرون).

فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾

وقيل: رأى لؤمًا أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع حاجتهم إليه، فردَّه عليهم من حيث لا يعلمون تكرُّمًا.

وقال الكلبي: تخوّف أن لا يكون عند أبيه من الوَرِق ما يرجعون به مرة أخرى.

وقيل: فعل ذلك؛ لأنه علم أن ديانتهم تحملهم على ردِّ البضاعة نفيًا للغلط ولا يستحلون إمساكها.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا﴾ إنا قدمنا على خيرِ رجلٍ، أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلًا من أولاد يعقوب ما أكرمنا كرامته، فقال لهم يعقوب: إذا أتيتم ملك مصر فأقرئوه مني السلام، وقولوا له: إنَّ أبانا يصلي عليك ويدعو لك بما أوليتنا، ثم قال: أين شمعون؟ قالوا: ارتهنه ملك مصر، وأخبروه بالقصة، فقال لهم: ولِمَ أخبرتموه؟ قالوا: إنه أخذنا وقال: أنتم جواسيس - حيث كلمناه بلسان العبرانية - وقصُّوا عليه القصة، وقالوا: يا أبانا،

﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾ (قال الحسن: معناه: يمنع منَّا الكيل)(1) إن لم تحمل أخانا معنا.

وقيل: معناه: أعطى باسم كل واحد حملًا ومنع منا الكيل لبنيامين، والمراد بالكيل: الطعام؛ لأنه يكال.

﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ بنيامين ﴿نَكۡتَلۡ﴾ قرأ حمزة والكسائي «يكتل» بالياء، يعني: يَكْتَلْ لنفسه كما نحن نكتال، (وقرأ الآخرون: «نكتل» بالنون، يعني: نكتل نحن)(2) وهو الطعام، وقيل: نكتل له ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾ يوسف ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي: كيف آمنكم عليه وقد فعلتم بيوسف ما فعلتم؟ ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗا﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص «حافظًا» بالألف على التفسير، كما يقال: هو خير رجلًا، وقرأ الآخرون «حفظًا» بغير ألف على المصدر، يعني: خيركم حفظًا، يقول: حفظه خير من حفظكم ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

---

(1) ساقط من «ب».

(2) ما بين القوسين ساقط من «ب».

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦)﴾

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾ الذي حملوه من مصر ﴿وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾ ثمن الطعام ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ أي: ماذا نبغي، وأي شيء نطلب؟ وذلك أنهم ذكروا ليعقوب عليه السلام إحسان الملك إليهم وحثّوه على إرسال بنيامين معهم، فلما فتحوا المتاع ووجدوا البضاعة ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ أيُّ شيء نطلب بالكلام، فهذا هو العيان من الإحسان والإكرام، أوْفَى لنا الكيلَ وردَّ علينا الثمن، أرادوا: تطييب نفس أبيهم ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: نشتري لهم الطعام فنحمله إليهم، يقال: مار أهله يَمِيرُ مَيْرًا: إذا حمل إليهم الطعام من بلد (إلى بلد آخر)[1]، ومثله: امتار يمتار امتيارًا ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ بنيامين، أي: مما نخاف عليه ﴿وَنَزْدَادُ﴾ على أحمالنا ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي: حمل بعير يكال لنا من أجله؛ لأنه كان يعطي باسم كل رجل حمل بعير ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥)﴾ (أي: ما حملناه قليل لا يكفينا وأهلنا، وقيل: معناه: نزداد كيل بعير ذلك كيل يسير)[1] لا مؤنة فيه ولا مشقة. وقال مجاهد: البعير هاهنا هو الحمار، كيل بعير، أي: حمل حمار، وهي لغة، يقال للحمار: بعير، وهم كانوا أصحاب حُمُرٍ، والأول أصح أنه البعير المعروف.

﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ﴾ تعطوني ﴿مَوْثِقًا﴾ ميثاقًا وعهدًا ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ والعهد الموثّق: المؤكّد بالقسم، وقيل: هو المؤكد (بإشهاد الله)[2] على نفسه ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ وأدخل اللام فيه لأن معنى الكلام: اليمين ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ قال مجاهد: إلاَّ أن تهلكوا جميعًا.

وقال قتادة: إلاَّ أن تغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك.

وفي القصة: أن الأخوة ضاق الأمر عليهم وجهدوا أشد الجهد، فلم يجد يعقوب بدًا من إرسال بنيامين معهم.

١٨٤/ب ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ / أعطوه عهودهم[3] ﴿قَالَ﴾ يعني: يعقوب: ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦)﴾ شاهد، وقيل: حافظ، قال كعب: لما قال يعقوب: فالله خير حافظًا، قال الله عزَّ وجلَّ: وعِزَّتي لأرُدَّنَّ عليك كليهما بعدما توكَّلتَ عليَّ.

---

(١) ساقط من «ب».   (٢) في «ب»: (بالشهادة).   (٣) في «ب»: (عهدهم).

وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ
ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾
وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا
حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

﴿ وَقَالَ﴾ لهم يعقوب لما أرادوا الخروج من عنده: ﴿ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ وذلك أنه خاف عليهم العين؛ لأنهم كانوا أعطوا جمالاً وقوَّة وامتداد قامة، وكانوا ولد رجل واحد، فأمرهم أن يتفرقوا في دخولهم؛ لئلا يصابوا بالعين، فإن العين حق[1]، وجاء في الأثر: «إنَّ العينَ تُدخلُ الرجلَ القبرَ والجملَ القدرَ»[2].

وعن إبراهيم النخعي: أنه قال ذلك؛ لأنه كان يرجو أن يروا يوسف في التفرق، والأول أصح.

ثم قال: ﴿ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ معناه: إن كان الله قضى فيكم قضاء فيصيبكم مجتمعين كنتم أو متفرقين، فإن المقدور كائن والحذر لا ينفع من القدر ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ ما الحكم ﴿ إِلَّا لِلَّهِ﴾ هذا تفويض يعقوب أموره إلى الله ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدتُ ﴿ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ أي: من الأبواب المتفرقة، وقيل: كانت المدينة مدينة الفرماء ولها أربعة أبواب، فدخلوها من أبوابها ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِى﴾ يدفع ﴿ عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ صَدَقَ اللهُ تعالى يعقوبَ فيما قال: ﴿ إِلَّا حَاجَةً﴾ مرادًا ﴿ فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ أشفق عليهم إشفاق الآباء على أبنائهم وجرى الأمر عليه ﴿ وَإِنَّهُۥ﴾ يعني: يعقوب عليه السلام ﴿ لَذُو عِلْمٍ﴾ يعني: كان يعمل ما يعمل عن علم لا عن جهل ﴿ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أي: لتعليمنا إيَّاه، وقيل: إنه لعامل بما علم.

قال سفيان: من لا يعمل بما يعلم لا يكون عالمًا، وقيل: وإنه لذو حفظ لِمَا علَّمْناه.

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ما يعلم يعقوب؛ لأنهم لم يسلكوا طريق إصابة العلم، وقال ابن عباس: لا يعلم المشركون ما ألهم الله أولياءه.

---

(١) انظر تفصيلًا في: «تفسير القرطبي»: (٩/ ٢٢٦ـ٢٢٨).

(٢) حديث ضعيف أخرجه أبو نعيم في «الحلية»: (٧/ ٩٠) عن جابر ـ رضي الله عنه ـ، وابن عدي في «الكامل» عن أبي ذر: (٦/ ٢٤٠٣)، وابن حبان في «المجروحين»: (٢/ ١٠٧)، وقد ضعفه السخاوي في «المقاصد الحسنة»، وقد أشار إليه الذهبي فقال: إنه منكر، وحسنه الشيخ الألباني في «الصحيحة»: (٣/ ٢٥٠)، وانظر: «كشف الخفاء»: (٢/ ٩٩ـ١٠٠).

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قالوا: هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به قد جئناك به، فقال: أحسنتم وأصبتم، وستجدون جزاء ذلك عندي، ثم أنزلهم وأكرمهم(١)، ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة، فبقي بنيامين وحيدًا، فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حيًّا لأجلسني معه، فقال يوسف: لقد بقي أخوكم هذا وحيدًا، فأجلسه معه على مائدته فجعل يُواكله، فلمَّا كان الليل أمر لهم (بمثل ذلك)(٢)، وقال: لينم كل أخوين منكم على مثال، فبقي بنيامين وحده، فقال يوسف: هذا ينام معي على فراشي، فنام معه، فجعل يوسف يضمه إليه ويشم ريحه حتى أصبح، وجعل روبين يقول: ما رأينا مثل هذا، فلما أصبح قال لهم: إني أرى هذا الرجل ليس معه ثان فسأضمه إليَّ فيكون منزله معي، ثم أنزلهم منزلاً وأجرى عليهم الطعام، وأنزل أخاه لأمه معه، فذلك قوله تعالى:

﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أي: ضم إليه أخاه، فلما خلا به قال: ما اسمك؟ قال: بنيامين، قال: وما بنيامين؟ قال: ابن المثكل، وذلك أنه لما وُلد هلكت أمُّه، قال: وما اسم أمك؟ قال: راحيل بنت لاوي، فقال: فهل لك من ولد؟ قال: نعم عشرة بنين، (قال: فهل لك من أخ لأمك، قال: كان لي أخ فهلك، قال يوسف)(٣): أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك، فقال بنيامين: ومن يجد أخًا مثلك أيها الملك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف عند ذلك وقام إليه وعانقه(٤): وقال له: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: لا تحزن ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ بشيء فعلوه بنا فيما مضى، فإن الله تعالى قد أحسن إلينا، ولا تعلمهم شيئًا مما أعلمتك، ثم أوفى يوسف لإخوته الكيل، وحمل لهم بعيرًا بعيرًا، ولبنيامين بعيرًا باسمه، ثم أمر بسقاية الملك فجعلت في رحل بنيامين.

قال السدي: جعلت السقاية في رحل أخيه، والأخ لا يشعر.

وقال كعب: لما قال له يوسف: إني أنا أخوك، قال بنيامين: أنا لا أفارقك، فقال له يوسف: قد علمت اغتمام والدي بي، وإذا حبستك ازداد غمه، ولا يمكنني هذا إلا بعد أن أشهرك بأمر فظيع وأنسبك

---

(١) في «ب»: (فأكرم مثواهم).

(٢) في «ب»: (بمُثُلٍ). والمُثُل هي: الفُرُش، واحدها: مثال.

(٣) ما بين القوسين من «المطبوع»، وهي زيادة تناسب السياق.

(٤) هذه التفصيلات في لقاء يوسف لأخيه أخرجها الطبري في «التاريخ»: (١/ ٣٥٢)، ولم يقم عليها دليل، وظاهر الآيات أنه اختلى بأخيه وأطلعه على شأنه وما جرى له وعرفه أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززًا مكرمًا معظمًا. انظر: ابن كثير: (٢/ ٤٨٦).

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾

إلى ما لا يحمد[1]، قال: لا أبالي، فافعل ما بدا لك، فإني لا أفارقكَ، قال: فإني أدسُّ صاعي في رحلك ثم أنادي عليكم بالسرقة، ليهيأ لي ردّك بعد تسريحك، قال: فافعل، فذلك قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ وهي المشربة التي كان الملك يشرب منها.

قال ابن عباس: كانت من زبرجد، وقال ابن إسحاق: كانت من فضة، وقيل: من ذهب، وقال عكرمة: كانت مشربة من فضة مرصعة بالجواهر، جعلها يوسف مكيالاً لئلا يكال بغيرها، وكان يشرب منها.

والسقاية والصواع واحد، وجعلت في وعاء طعام بنيامين، ثم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا وذهبوا منزلاً.

وقيل: حتى خرجوا من العمارة، ثم بعث خلفهم مَن استوقفهم وحبسهم.

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادى منادٍ ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ﴾ وهي القافلة التي فيها الأحمال، قال مجاهد: كانت العير حميرًا، وقال الفراء: كانوا أصحاب إبل ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ قفوا، قيل: قالوه من غير أمر يوسف، وقيل: قالوه بأمره، وكان هفوة منه، وقيل: قالوه على تأويل أنهم سرقوا يوسف من أبيه، فلما انتهى إليهم الرسول قال لهم: ألم نكرم ضيافتكم ونحسن منزلتكم ونوفكم كيلكم ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم؟ قالوا: بلى، وما ذاك؟ قالوا: سقاية الملك فقدناها، ولا نتّهمُ عليها غيركم، فذلك قوله عزَّ وجلَّ:

﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم﴾ عطفوا على المؤذن وأصحابه ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ ما الذي ضلَّ عنكم والفقدان: ضدُّ الوجد.

﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من الطعام ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾ كفيل، يقوله المؤذن.

﴿قَالُوا﴾ يعني: إخوة يوسف ﴿تَاللَّهِ﴾ أي: والله، وخصت هذه الكلمة بأن أبدلت الواو فيها بالتاء في اليمين دون سائر أسماء الله تعالى ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ لنسرق في أرض مصر.

فإن قيل: كيف قالوا لقد علمتم؟ ومن أين علموا ذلك؟

---

(١) في «ب»: (يجمل).

﴿قَالُوا فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ۝٧٤ قَالُوا جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٥ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦﴾

قيل: قالوا لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض، فإنا منذ قطعنا هذا الطريق لم نَرْزَأْ أحدًا شيئًا فاسألوا عنَّا مَن مررنا به، هل ضررنا أحدًا.

وقيل: لأنهم ردوا البضاعة التي جعلت في رحالهم، قالوا: فلو كنَّا سارقين ما رددناها.

وقيل: قالوا ذلك؛ لأنهم كانوا معروفين بأنهم لا يتناولون ما ليس لهم، وكانوا إذا دخلوا مصر كمموا أفواه دوابهم لكيلا تتناول شيئًا من حروث الناس.

﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ۝٧٣﴾.

﴿قَالُوا﴾ يعني: المنادي وأصحابه ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ أي: جزاء السارق ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ۝٧٤﴾ في قولكم: «وما كنَّا سارقين».

﴿قَالُوا﴾ (يعني: إخوة يوسف)[1]: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ أي: فالسارق جزاؤه أن يسلَّم السارق بسرقته إلى المسروق منه فيسترقه سنة، وكان ذلك سُنَّة آل يعقوب في حكم السارق، وكان حكم ملك مصر أن يضرب السارق / ويغرم ضعفي قيمة المسروق، فأراد يوسف أن يحبس أخاه عنده، ١/١٨٥ فرد الحكم إليهم ليتمكن من حبسه عنده على حكمهم.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٥﴾ الفاعلين ما ليس لهم فعله من سرقة مال الغير.

فقال الرسول عند ذلك: لابدَّ من تفتيش أمتعتكم.

فأخذ في تفتيشها، ورُوي أنه ردَّهم إلى يوسف فأمر بتفتيش أوعيتهم بين يديه.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ لإزالة التهمة ﴿قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ فكان يفتش أوعيتهم واحدًا واحدًا، قال قتادة: ذكر لنا أنه كان لا يفتح متاعًا ولا ينظر في وعاء إلاَّ استغفر الله تأثمًا مما قذفهم به حتى إذا لم يبق إلا رحل بنيامين، قال: ما أظن هذا أخذه، فقال إخوته: والله لا نترك حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك ولأنفسنا، فلما فتحوا متاعه استخرجوه منه، فذلك قوله تعالى:

---

(١) زيادة من «ب».

﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ وإنما أنَّث الكناية في قوله: «ثم استخرجها» والصُّوَاع مذكر، بدليل قوله: «ولمن جاء به حمل بعير»؛ لأنه ردَّ الكناية هاهنا إلى السقاية. وقيل: الصواع يذكر ويؤنث.

فلما أخرج الصواع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم من الحياء، وأقبلوا على بنيامين وقالوا: ما الذي صنعت فضحتنا وسودت وجوهنا يا بني راحيل؟ ما يزال لنا منكم البلاء، متى أخذت هذا الصواع؟ فقال بنيامين: بل بنو راحيل لا يزال لهم منكم بلاء ذهبتم بأخي فأهلكتموه في البرية، ووضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم، فأخذوا بنيامين رقيقًا[(١)].

وقيل: إن ذلك الرجل أخذ برقبته وردَّه إلى يوسف كما يرد[(٢)] السراق.

﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ والكيد هاهنا جزاء الكيد، يعني: كما فعلوا في الابتداء بيوسف من الكيد فعلنا بهم، وقد قال يعقوب عليه السلام ليوسف: «فيكيدُوا لكَ كيدًا»، فكدنا ليوسف في أمرهم.

والكيد من الخلق: الحيلة، ومن الله تعالى: التدبير بالحق.

وقيل: كدنا: ألهمنا، وقيل: دبرنا، وقيل: أردنا.

ومعناه: صنعنا ليوسف حتى ضم أخاه إلى نفسه، وحال بينه وبين إخوته.

﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾ فيضمه إلى نفسه ﴿فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أي: في حكمه، قاله قتادة، وقال ابن عباس: في سلطانه ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ يعني: إن يوسف لم يكن يتمكن من حبس أخيه في حكم الملك لولا ما كِدْنَا له بلطفنا حتى وجد السبيل إلى ذلك، وهو ما أجرى على ألسنة الإخوة أن جزاء السارق الاسترقاق، فحصل مراد يوسف بمشيئة الله تعالى.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ بالعلم، كما رفعنا درجة يوسف على إخوته.

وقرأ يعقوب «يرفع» و«يشاء» بالياء فيهما، (وإضافة درجات إلى «من» في هذه السورة، والوجه أن الفعل فيهما مسند إلى الله تعالى، وقد تقدم ذكره في قوله: «إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ»، أي: يرفع الله درجات من يشاء، وقرأ الباقون بالنون فيهما، إلاَّ أن الكوفيين قرؤوا «درجاتٍ» بالتنوين، ومَنْ سِواهم بالإضافة، أي: نرفع به نحن، والرافع أيضًا هو الله تعالى)[(٣)].

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ قال ابن عباس: فوقَ كلِّ عالمٍ عالمٌ إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى، فالله تعالى فوق كل عالم.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٢٠٠)، «تاريخ الطبري»: (١/ ٣٥٥).

(٢) في «أ»: (يرقّ).

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب».

۞ ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾

﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ يريدون أخا له من أمه، يعني: يوسف.

واختلفوا في السرقة التي وصفوا بها يوسف عليه السلام، فقال سعيد بن جبير وقتادة: كان لجده، أبي أمه، صنم يعبده، فأخذه سرًا وكسره وألقاه في الطريق؛ لئلا يعبد[1].

وقال مجاهد: إن يوسف جاءه سائل يومًا، فأخذ بيضة من البيت فناولها للسائل.

وقال سفيان بن عيينة: أخذ دجاجة من الطير التي كانت في بيت يعقوب فأعطاها سائلًا.

وقال وهب: كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء[2].

وذكر محمد بن إسحاق: أن يوسف كان عند عمته ابنة إسحاق، بعد موت أمه راحيل، فحضنته عمته وأحبته حبًا شديدًا، فلما ترعرع وقعت محبة يعقوب عليه، فأتاها وقال: يا أختاه سلمي إليَّ يوسف، فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة، قالت: لا والله، فقال: والله ما أنا بتاركه، فقالت: دعه عندي أيامًا أنظر إليه لعلَّ ذلك يسليني عنه، ففعل ذلك، فعمدت إلى منطقة لإسحاق كانوا يتوارثونها بالكبر، فكانت عندها لأنها كانت أكبر ولد إسحاق، فحزمت المنطقة على يوسف تحت ثيابه وهو صغير، ثم قالت: لقد فقدت منطقة إسحاق اكشفوا أهل البيت فكشفوا فوجدوها مع يوسف، فقالت: والله، إنه لَسَلَمٌ لي، فقال يعقوب: إن كان فعل ذلك فهو سَلَمٌ لك[3]، فأمسكتهُ حتى ماتت، فذلك الذي قال إخوة يوسف: «إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ»[4].

﴿فَأَسَرَّهَا﴾ أضمرها ﴿يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ﴾ وإنما أنث الكناية لأنه عنى بها الكلمة، وهي قوله: ﴿قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ﴾ (ذكرها سرًا في نفسه ولم يصرح بها، يريد: أنتم شر مكانًا)[5]، أي: منزلة عند الله ممن رميتموه بالسرقة في صنيعكم بيوسف؛ لأنه لم يكن من يوسف سرقة حقيقية وخيانتكم حقيقية[6] ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ تقولون.

---

(١) أخرجها عنهما ابن جرير في «التفسير»: (١٦/ ١٩٥)، وانظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٥٦٤).

(٢) انظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٥٦٤).

(٣) السَّلَم - بفتحتين -: انقياد المذعن المستخذي، كالأسير الذي لا يمتنع ممن أسره، يقال: «أخذه سلمًا» إذا أسره من غير حرب، فجاء به مقادًا لا يمتنع. انظر: «تعليق محمود شاكر على الطبري»: (١٦/ ١٩٦).

(٤) أخرجه الطبري: (١٦/ ١٩٦ - ١٩٧)، وعزاه السيوطي لابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم. «الدر المنثور»: (٤/ ٥٦٣). هذا، ولم يرد نص ثابت عن النبي ﷺ في تعيين المراد بالسرقة التي وصفوه بها، والله أعلم بالذي كان.

(٥) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٦) في «ب»: (جنايتكم).

قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا﴾ وفي القصة أنهم غضبوا غضبًا شديدًا لهذه الحالة، وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يطاقوا، وكان روبيل إذا غضب لم يقم لغضبه شيء، وإذا صاح ألقت كل امرأة حامل سمعت صوته ولدها، وكان مع هذا إذا مسّه أحد من ولد يعقوب سكن غضبه.

وقيل: كان هذا صفة شمعون من ولد يعقوب.

ورُوي أنه قال لإخوته: كم عدد الأسواق بمصر؟ فقالوا: عشرة، فقال: اكفوني أنتم الأسواق وأنا أكفيكم الملك، أو اكفوني أنتم الملك وأنا أكفيكم الأسواق، فدخلوا على يوسف فقال روبيل: لتردن علينا أخانا أو لأصيحنَّ صيحة لا تبقي بمصر امرأة حامل إلاَّ ألقت ولدها وقامت كل شعرة في جسد روبيل فخرجت من ثيابه، فقال يوسف لابن له صغير: قم إلى جنب روبيل فمسه، ورُوي: خذ بيده فأْتني به، فذهب الغلام فمسّه فسكن غضبه، فقال روبيل: إن هاهنا لَبَزْرًا من بَزْر[1] يعقوب، فقال يوسف: مَنْ يعقوب؟

ورُوي أنه غضب ثانيًا فقام إليه يوسف فركضه برجله وأخذ بتلابيبه، فوقع على الأرض وقال: أنتم معشر العبرانيين تظنون أنْ لا أحدَ أشدُّ منكم؟

فلما صار أمرهم إلى هذا ورأوا أن لا سبيل لهم إلى تخليصه خضعوا وذلوا، وقالوا: يا أيها العزيز، إنَّ له أبًا شيخًا كبيرًا يحبه ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ﴾ بدلاً منه ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ في أفعالك[2].

وقيل: من المحسنين إلينا في توفية الكيل وحسن الضيافة ورد البضاعة.

وقيل: يعنون إن فعلت ذلك كنت من المحسنين.

﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أعوذ بالله ﴿ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ ولم يقل إلا من سرق تحرزًا من الكذب ﴿ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ إن أخذنا بريئًا بمجرم.

(١) البزر ـ بفتح فسكون ـ: الولد، يقال: ما أكثر بزره! أي: ولده.
(٢) أخرجه الطبري مطولاً في «تاريخه»: (١/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦)، ومختصرًا في «التفسير»: (١٦/ ٢٠٠ ـ ٢٠١).

فَلَمَّا اسْتَيْـَٔسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْـَٔسُوا مِنْهُ ﴾ أي: أيسوا من يوسف أن يجيبهم إلى ما سألوه، وقال أبو عبيدة: استيأسوا: استيقنوا أن الأخ لا يُرد إليهم ﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ أي: خلا بعضهم ببعض يتناجون ويتشاورون لا يخالطهم غيرهم.

والنجيُّ يصلح للجماعة كما قال هاهنا، ويصلح للواحد كقوله: ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾[مريم: ٥٢]، / وإنما جاز ١٨٥/ب
للواحد والجمع؛ لأنه مصدر جعل نعتًا كالعدل والزور، ومثله: النجوى يكون اسمًا ومصدرًا، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ ﴾[الإسراء: ٤٧]، أي: متناجون، وقال: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ ﴾[المجادلة: ٧]، وقال في المصدر: ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾[المجادلة: ١٠].

﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ يعني: في العقل والعلم، لا في السن.

قال ابن عباس والكلبي: هو يهوذا، وهو أعقلهم، وقال مجاهد: هو شمعون، وكانت له الرئاسة على إخوته، وقال قتادة والسدي والضحاك: هو روبيل، وكان أكبرهم في السن، وهو الذي نهى الإخوة عن قتل يوسف(١).

﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا ﴾ عهدًا ﴿ مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ ﴾ قصَّرتم ﴿ فِي يُوسُفَ ﴾.

واختلفوا في محل «ما»، قيل: هو نصب بإيقاع العلم عليه، يعني: ألم تعلموا من قبل تفريطكم في يوسف.

(وقيل: هو في محل الرفع على الابتداء، وتم الكلام عند قوله: ﴿ مِّنَ اللَّهِ ﴾، ثم قال: ﴿ وَمِن قَبْلُ ﴾ هذا تفريطكم في يوسف)(٢).

وقيل: «ما» صلة، أي: ومن قبل هذا فرطتم في يوسف.

---

(١) ذكر هذه الروايات: السيوطي في «الدر المنثور»: (٤/ ٥٦٥)، والطبري في «التفسير»: (١٦/ ٢٠٦ـ٢٠٨)، وقال مرجحًا أنه «روبيل»: (وأولى الأقوال في ذلك بالصحة، قول من قال: عنى بقوله: ﴿قال كبيرهم﴾ روبيل؛ لإجماع جميعهم على أنه كان أكبرهم سنًّا، ولا تفهم العرب في المخاطبة إذا قيل لهم: «فلان كبير القوم» مطلقًا بغير وصل، إلا أحد معنيين: إما في الرياسة عليهم والسؤدد، وإما في السن، فأما في العقل: فإنهم إذا أرادوا ذلك وصلوه فقالوا: «هو كبيرهم في العقل»، فأما إذا أطلق بغير صلته بذلك، فلا يفهم إلا ما ذكرت.
وقد قال أهل التأويل: لم يكن لشمعون، وإن كان من العلم والعقل بالمكان الذي جعله الله به، على إخوته رياسة وسؤددًا، فيعلم بذلك أنه عنى بقوله: ﴿قال كبيرهم﴾، فإذا كان ذلك كذلك، فلم يبق إلا الوجه الآخر، وهو الكبر في السن، وقد قال الذين ذكرنا جميعًا: «روبيل كان أكبرهم سنًّا» فصحَّ بذلك القولُ الذي اخترناه).

(٢) ما بين القوسين ساقط من «ب».

ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ التي أنا بها، وهي أرض مصر ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ بالخروج منها ويدعوني ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ بردِّ أخي إليَّ، أو بخروجي وترك أخي، وقيل: أو يحكم الله لي بالسيف فأقاتلهم وأسترد أخي.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ أعدل مَنْ فَصَلَ بين الناس.

﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ﴾ يقوله الأخ المحتبس بمصر[1] لإخوته: ارجعوا إلى أبيكم ﴿فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ﴾ بنيامين ﴿سَرَقَ﴾.

قرأ ابن عباس والضحاك «سُرِّق» بضم السين وكسر الراء وتشديدها، يعني: نُسب إلى السرقة، كما يقال: خوَّنته، أي: نسبته إلى الخيانة.

﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ (يعني: ما قلنا هذا إلا بما علمنا)[2]، فإنَّا رأينا إخراج الصاع من متاعه.

وقيل: معناه: وما شهدنا، أي: ما كانت منا شهادة في عمرنا على شيء إلا بما علمنا، وليست هذه شهادة منَّا، إنَّما هو خبر عن صنيع ابنك بزعمهم.

وقيل: قال لهم يعقوب عليه السلام: ما يدري هذا الرجل أن السارق يُؤخذ بسرقته إلا بقولكم، فقالوا: وما شهدنا عند يوسف بأن السارق يسترقُّ إلا بما علمنا، وكان الحكم ذلك عند الأنبياء: يعقوب وبنيه.

﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾ قال مجاهد وقتادة: ما كنا نعلم أن ابنك سيسرق ويصير أمرنا إلى هذا، ولو علمنا ذلك ما ذهبنا إليه، وإنما قلنا: ونحفظ أخانا مما لنا إلى حفظه منه سبيل، وعن ابن عباس: ما كنَّا لليله ونهاره ومجيئه وذهابه حافظين، وقال عكرمة: وما كنَّا للغيب حافظين فلعلها دُسَّتْ بالليل في رحله.

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ أي: أهلَ القرية، وهي مصر، قال ابن عباس: هي قرية من قرى مصر كانوا ارتحلوا منها إلى مصر ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي: القافلة التي كنَّا فيها، وكان صَحِبَهم قوم من كنعان من جيران يعقوب.

قال ابن إسحاق: عرف الأخ المحتبس بمصر أن إخوته أهل تهمة عند أبيهم لِما كانوا صنعوا في أمر يوسف، فأمرهم أن يقولوا هذا لأبيهم.

﴿وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

---

(١) ساقط من «أ». (٢) ساقط من «ب».

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾

فإن قيل: كيف استجاز يوسف أن يعمل مثل هذا بأبيه ولم يخبره بمكانه، وحبس أخاه مع علمه بشدة وجد أبيه عليه، وفيه معنى العقوق وقطيعة الرحم وقلة الشفقة؟

قيل: قد أكثر الناس فيه، والصحيح أنه عمل ذلك بأمر الله سبحانه وتعالى، أمره بذلك؛ ليزيد في بلاء يعقوب فيضاعف له الأجر ويلحقه في الدرجة بآبائه الماضين.

وقيل: إنه لم يظهر نفسه لإخوته؛ لأنه لم يأمن أن يدبروا في أمره تدبيرًا فيكتموه عن أبيه، والأول أصح.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ﴾ زيّنت ﴿أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ وفيه اختصار معناه: فرجعوا إلى أبيهم وذكروا لأبيهم ما قال كبيرهم، فقال يعقوب: «بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا»، أي: حمل أخيكم إلى مصر لطلب نفع عاجل.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ يعني: يوسف، وبنيامين، وأخاهم المقيم بمصر.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بحزني ووجدي على فقدهم ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ في تدبير خلقه.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ وذلك أن يعقوب عليه السلام لمّا بلغه خبر بنيامين تمّ حزنه وبلغ جهده، وتهيج حزنه على يوسف فأعرض عنهم ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ﴾ يا حزناه ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ والأسفُ أشدُّ الحزن ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ عُمي بصره، قال مقاتل: لم يبصر بهما ست سنين ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ أي: مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يبثه، وقال قتادة: يردد حزنه في جوفه ولم يقل إلاّ خيرًا، قال الحسن: كان بين خروج يوسف من حجر أبيه إلى يوم التقى معه ثمانون عامًا لا تجف عينا يعقوب وما على وجه الأرض يومئذ أكرم على الله من يعقوب.

﴿قَالُوا۟﴾ يعني: أولاد يعقوب ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: لا تزال تذكر يوسف، لا تفتر من حبه، و«لا» محذوفة من قوله «تفتؤ»، يقال: ما فتىء يفعل كذا، أي: مازال، كقول امرىء القيس:

فَقُلْتُ يَمِينُ اللهِ أَبْرَحُ قَائِمًا ... وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي[1]

أي: لا أبرح.

---

(١) البيت في «ديوان امرىء القيس»: ص٣٢، واستشهد به الطبري في: (٤/٤٢٥)، (١٦/٢٢١)، وابن قتيبة في «المشكل»: ص١٧٤، وفيها: (قاعدًا) بدل (قائمًا).

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨٦﴾

﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ قال ابن عباس: دفنًا[1].

وقال مجاهد: الحرض ما دون الموت، يعني: قريبًا من الموت.

وقال ابن إسحاق: فاسدًا لا عقل لك.

والحرض: الذي فسد جسمه وعقله، وقيل: ذائبًا من الهم.

ومعنى الآية: حتى تكون دَنِفَ الجسم مخبول العقل.

وأصل الحرض: الفساد في الجسم والعقل من الحزن أو الهرم أو العشق[2]، يقال: رجل حَرَضٌ وامرأة حَرَضٌ، ورجلان وامرأتان حَرَضٌ، ورجال ونساء كذلك، يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث؛ لأنه مصدر وُضع موضع الاسم[3] ﴿أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ۝٨٥﴾ أي: من الميتين.

﴿قَالَ﴾ يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ عند ذلك لما رأى غِلظتَهم ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ والبَثُّ: أَشَدُّ الحزن، سمي بذلك؛ لأن صاحبه لا يصبر عليه حتى يبثه، أي: يظهره، قال الحسن: بَثِّي، أي: حاجتي.

ويُروى أنه دخل على يعقوب جارٌ له وقال: يا يعقوب، ما لي أراك قد تهشمت وفنيت ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك؟ قال هشمني وأفناني ما ابتلاني الله به من همِّ يوسف، فأوحى الله إليه: يا يعقوب، أتشكوني إلى خلقي؟ فقال: يا رب، خطيئة أخطأتها فاغفرها لي، فقال: قد غفرتها لك، فكان بعد ذلك إذا سئل قال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله[4].

ورُوي أنه قيل له: يا يعقوب، ما الذي أذهب بصرك وقوَّس ظهرك؟

قال: أذهب بصري بكائي على يوسف، وقوَّس ظهري حزني على أخيه؟

فأوحى الله إليه: أتشكوني؟ فَوَعِزَّتِي وجلالي لا أكشف ما بك حتى تدعوني.

---

(١) في «ب»: (دنقًا).

(٢) ومنه قول العَرْجِيّ:

إنِّي امْرُؤٌ لجَّ بي حُبٌّ فَأَحْرَضَنِي   حتى بَلِيتُ وحتى شَفَّنِي السَّقَمُ

يعني: بقوله (فأحرضني): أذابني فتركني مُحْرَضًا.

(٣) فإذا وصف بهذا اللفظ ثُنِّي وجُمِع، وذُكِّر وأُنِّث.

ووُحِّد «حَرَض» بكل حال ولم يدخله التأنيث؛ لأنه مصدر، فإذا أخرج على «فاعل» على تقدير الأسماء لزمه ما يلزم الأسماء من التثنية والجمع والتذكير والتأنيث.

انظر: الطبري: (١٦/ ٢٢٢).

(٤) أخرجه الطبري في «التفسير»: (١٦/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨) عن طلحة بن مصرِّف اليامي موقوفًا عليه، وفي «الأصل»: (الإيامي)، والمثبت من «تهذيب التهذيب»، فقد ترجم له وقال: كوفيٌّ، فاضل قارىء، من الخامسة.

فعند ذلك قال: إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله، فأوحى الله إليه: وعزتي وجلالي لو كانا ميتين لأخرجتهما لك، وإنَّما وجدت عليكم؛ لأنكم ذبحتم شاة / فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه منها شيئًا، ١٨٦/أ وإن أحب خلقي إليَّ الأنبياء ثم المساكين، فاصنع طعامًا وادع إليه المساكين.

فصنع طعامًا ثم قال: من كان صائمًا فليفطر الليلة عند آل يعقوب(١).

ورُوي أنه كان بعد ذلك إذا تغدى أمر من ينادي: من أراد الغداء فليأت يعقوب، وإذا أفطر أمر من ينادي: من أراد أن يفطر فليأت يعقوب، فكان يتغدى ويتعشى مع المساكين(٢).

وعن وهب بن منبه قال: أوحى الله تعالى إلى يعقوب: أتدري لِمَ عاقبتك وحبست عنك يوسف ثمانين سنة؟ قال: لا، يا إلهي، قال: لأنك قد شويت عناقًا وقترت على جارك، وأكلت ولم تطعمه.

ورُوي: أن سبب ابتلاء يعقوب أنه ذبح عجلًا بين يدي أُمِّه وهي تخور(٣).

وقال وهب والسدي وغيرهما: أتى جبريل يوسف عليه السلام في السجن فقال: هل تعرفني أيها الصِّدِّيق؟

قال: أرى صورة طاهرة وريحًا طيبة.

قال: إني رسول رب العالمين وأنا الروح الأمين.

قال: فما أدخلك مدخل المذنبين وأنت أطيب الطيبين ورأس المقربين (وأمين رب العالمين)(٤)؟

قال: ألم تعلم يا يوسف أن الله تعالى يطهر البيوت بطهر النبيين، وأن الأرض التي يدخلونها هي أطهر الأراضين، وأن الله تعالى قد طهر بك السجن وما حوله يا طُهر الطاهرين وابن الصالحين المخلصين.

قال: وكيف لي باسم الصديقين وتعدّني من المخلصين الطاهرين، وقد أدخلت مدخل المذنبين وسميت باسم الفاسقين؟

قال جبريل: لأنه لم يفتن قلبك ولم تطع سيدتك في معصية ربِّك لذلك سماك الله في الصديقين، وعدَّك من المخلصين، وألحقك بآبائك الصالحين.

قال يوسف: هل لك علم بيعقوب أيها الروح الأمين؟

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» عن أنس بن مالك: (٢/ ٣٤٨)، وقال: (هكذا في سماعي بخط يد حفص بن عمر بن الزبير، وأظن «الزبير» وهمًا من الراوي، فإنه حفص بن عمر بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري، ابن أخي أنس بن مالك، فإن كان كذلك فالحديث صحيح.
ثم قال: وقد أخرج الإمام أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم هذا الحديث في «التفسير» مرسلًا.
وساقه الهيثمي من رواية أنس ثم قال: (رواه الطبراني في «الصغير» و«الأوسط» عن شيخه محمد بن أحمد الباهلي البصري وهو ضعيف جدًّا).
انظر: «مجمع الزوائد»: (٧/ ٤٠).
وذكره ابن كثير في «التفسير»: (٢/ ٤٨٨ ـ ٤٨٩) من رواية ابن أبي حاتم: وقال: (هذا حديث غريب فيه نكارة). وزاد السيوطي نسبته لابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة»، وأبي الشيخ وابن مردويه، والبيهقي في «شعب الإيمان». انظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٥٧٤).

(٢) انظر: التعليق السابق.

(٣) انظر: «زاد المسير لابن الجوزي»: (٤/ ٢٧٥).

(٤) ساقط من «ب».

قال: نعم، وهبه الله الصبر الجميل، وابتلاه بالحزن عليك فهو كظيم.

قال: فكم قدر حزنه؟

قال: حزن سبعين ثكلى.

قال: فما زاد له من الأجر يا جبريل؟

قال: أجر مائة شهيد.

قال: أفتراني لاقيه؟

قال: نعم، فطابت نفس يوسف، وقال: ما أبالي بما لقيت إن رأيته[١].

قوله تعالى: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ يعني: أعلم من حياة يوسف ما لا تعلمون.

رُوي أن ملك الموت زار يعقوب فقال له: أيها الملك الطيب ريحه، الحسن صورته، هل قبضت روح ولدي في الأرواح؟ قال: لا، فسكن يعقوب وطمع في رؤيته، وقال: أعلم أن رؤيا يوسف صادقة وإني وأنتم سنسجد له.

وقال السدي: لما أخبره ولده بسيرة الملك أحسَّت نفس يعقوب وطمع وقال لعله يوسف، فقال: يا بَنِيَّ اذهبُوا فتحسَّسُوا من يوسف وأخيه[٢].

ورُوي عن عبد الله بن يزيد بن أبي فروة: أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ كتب كتابًا إلى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حين حبس بنيامين: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله[٣] بن إبراهيم خليل الله (إلى ملك مصر)[٤]، أما بعد: فإنا أهل بيت وُكِّلَ بِنَا البلاءُ؛ أمَّا جدي إبراهيم فشدَّتْ يداه ورجلاه وألقي في النار، فجعلها الله عليه بردًا وسلامًا، وأما أبي فشدَّتْ يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه، ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إليَّ فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخًا بالدم، فقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عيناي (من البكاء عليه)[٤]، ثم كان لي ابن وكان أخاه لأمه، وكنت أتسلَّى به، وإنك حبسته وزعمت أنه سرق، وإنَّا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقًا، فإن رددته عليَّ وإلاَّ دعوتُ عليك دعوةً تدرك السابع من ولدك، فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك البكاء وعيل صبره، فأظهر نفسه على ما نذكره إن شاء الله تعالى[٥].

---

(١) أخرجه عنهما الطبري في «التفسير»: (١٦/ ٢٢٩ ـ ٢٣١). ووهب يكثر من الروايات الإسرائيلية، ورواية السدي ضعيفة.

(٢) انظر: «تفسير القرطبي»: (٩/ ٢٥٣)، ورواه الطبراني في «الصغير» و«الأوسط» عن شيخه محمد بن أحمد الباهلي وهو ضعيف جدًّا. انظر: «مجمع الزوائد»: (٧/ ٤٠).

(٣) انظر: التعليق رقم (٢)، ص٤٣٦.

(٤) ساقط من «ب».

(٥) أخرجه الحكيم الترمذي وأبو الشيخ عن وهب بن منبه، وهو ضعيف. انظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٥٧٩).

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ﴾ تخبَّروا واطلبوا الخبر ﴿مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ والتحسُّس بالحاء والجيم لا يبعد أحدهما من الآخر، إلا أن التحسس بالحاء في الخير وبالجيم في الشر، والتحسس هو طلب الشيء بالحاسة، قال ابن عباس: التمسوا ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ﴾ ولا تقنطوا ﴿مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ أي: من رحمة الله، وقيل: من فرج الله ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ وفيه إضمار تقديره: فخرجوا راجعين إلى مصر حتى وصلوا إليها فدخلوا على يوسف عليه السلام ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ أي: الشدة والجوع ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ أي: قليلة رديئة كاسدة، لا تنفق في ثمن الطعام إلا بتجوز من البائع فيها، وأصل الإزجاء: السوق والدفع، وقيل للبضاعة مزجاة: لأنها غير نافقة، وإنما تجوز على دَفْعٍ من آخِذِها.

واختلفوا فيها:

فقال ابن عباس: كانت دراهم رديئة زيوفًا[(١)].

وقيل: كانت خَلَق الغرائر والحبال[(٢)].

وقيل: كانت من متاع الأعراب من الصوف والأقط.

وقال الكلبي ومقاتل: كانت الحبة الخضراء.

وقيل: كانت من سويق المُقل[(٣)].

وقيل: كانت الأدم والنعال[(٤)].

﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ أي: أعطنا ما كنت تعطينا قَبْلُ بالثمن الجيد الوافي.

---

(١) الدراهم التي ظهر فيها غش ورداءة.

(٢) (الخَلَق): البالي، و(الغرائر): جمع غِرارة، وهي وعاء من خيش ونحوه يوضع فيه القمح ونحوه، وهو أكبر من الجوالق.
انظر: «المعجم الوسيط»: (٢/٦٤٨).

(٣) المُقْل: حَمْل الدوم، والدوم يشبه النخل.

(٤) قال الطبري في معنى ﴿وجئنا ببضاعة مزجاة﴾: بدراهم، أو ثمن لا يجوز في ثمن الطعام إلا لمن يتجاوز فيها . . . واختلف أهل التأويل في البيان عن تأويل ذلك، وإن كانت معاني بيانهم متقاربة.
«التفسير»: (١٦/ ٢٣٤، ٢٣٥).

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ أي: تفضل علينا بما بين الثمنين الجيد والرديء ولا تنقصنا، هذا قول أكثر المفسرين.

وقال ابن جريج والضحاك: وتصدق علينا بردِّ أخينا إلينا[(١)].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى﴾ يثيب ﴿ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

وقال الضحاك: لم يقولوا: إن الله يجزيك؛ لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن.

وسئل سفيان بن عيينة: هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء سوى نبينا عليه الصلاة والسلام؟ فقال سفيان: ألم تسمع قوله تعالى: «وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ»[(٢)]، يريد: أن الصدقات كانت حلالاً لهم.

ورُوي أن الحسن سمع رجلًا يقول: اللهم تصدق عليَّ، فقال: إن الله لا يتصدق، وإنما يتصدق مَنْ يبغي الثواب، قل: اللهم أعطني أو تفضل عليَّ[(٣)].

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ اختلفوا في السبب الذي حمل يوسف على هذا القول، قال ابن إسحاق: ذكر لي أنهم لما كلموه بهذا الكلام أدركته الرقة فارفضَّ دمعُهُ[(٤)]، فباح بالذي كان يكتم منهم[(٥)].

وقال الكلبي: إنما قال ذلك حين حكى لإخوته أن مالك بن ذعر قال: إني وجدت غلامًا في بئر من حاله كيت وكيت، فابتعته بكذا درهمًا فقالوا: أيها الملك، نحن بعنا ذلك الغلام، فغاظ يوسف ذلك وأمر بقتلهم فذهبوا بهم ليقتلوهم، فولى يهوذا وهو يقول: كان يعقوب يحزن ويبكي لفقد واحد منّا حتى كفَّ بصره، فكيف إذا أتاه قتل بنيه كلهم؟ ثم قالوا له: إن فعلت ذلك فابعث بأمتعتنا إلى أبينا فإنه بمكان كذا وكذا، فذلك حين رحمهم وبكى، وقال ذلك القول[(٦)].

---

(١) قال الطبري تعقيبًا على ما ذكره ابن جريج: وهذا القول وإن كان قولاً له وجه، فليس بالقول المختار... لأن «الصدقة» في متعارف العرب إنما هي: إعطاء الرجل ذا حاجة بعض أملاكه ابتغاء ثواب الله عليه، وإن كان كل معروف صدقةً، فتوجيه تأويل كلام الله إلى الأغلب من معناه في كلام من نزل القرآن بلسانه أولى وأحرى.

(٢) أخرجه الطبري: (١٦/ ٢٤٢)، وردَّه ابن عطية بحديث: «نحن معاشر الأنبياء لا تحل لنا الصدقة». انظر: «المحرر الوجيز»: (٨/ ٦٣).

(٣) وبمثله قاله مجاهد، فقد سئل: هل يكره أن يقول الرجل في دعائه اللهم تصدَّق عليَّ؟ فقال: نعم، إنما الصدقة لمن يبغي الثوابَ. انظر: الطبري: (١٦/ ٢٤٣)، «الدر المنثور»: (٤/ ٥٧٧).

(٤) ارفضَّ الدمع وترفَّض: نزل وسال.

(٥) أخرجه الطبري في «التفسير»: (١٦/ ٢٤٣).

(٦) رواه أبو صالح عن ابن عباس. انظر: «زاد المسير» لابن الجوزي: (٤/ ٢٧٩).

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١﴾

وقيل: قاله حين قرأ كتاب أبيه إليه فلم يتمالك البكاء، / فقال: هل علمتُم ما فعلتُم بيوسف وأخيه ١٨٦/ب
إذ فرقتُم بينهما، وصنعتُم ما صنعتُم إذ أنتُم جاهلون بما يؤول إليه أمر يوسف؟ وقيل: مذنبون وعاصون، وقال الحسن: إذ أنتم شباب ومعكم جهل الشباب.

فإن قيل: كيف قال: ما فعلتم بيوسف وأخيه، وما كان منهم إلى أخيه، وهم لم يسعوا في حبسه؟ قيل: قد قالوا له في الصاع: ما يزال لنا بلاء، وقيل: ما رأينا منكم يا بني راحيل خيرًا، وقيل: لما كانا من أم واحدة كانوا يؤذونه من بعد فقد يوسف.

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾ قرأ ابن كثير وأبو جعفر «إنك» على الخبر، وقرأ الآخرون على الاستفهام.

قال ابن إسحاق: كان يوسف يتكلم من وراء ستر، فلما قال يوسف: هل علمتم ما فعلتم، كشف عنهم الغطاء ورفع الحجاب، فعرفوه.

وقال الضحاك عن ابن عباس: لما قال هذا القول تبسم يوسف فرأوا ثناياه كاللؤلؤ المنظوم فشبهوه بيوسف، فقالوا استفهامًا: أئنك لأنت يوسف؟

وقال عطاء عن ابن عباس: إن إخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه، وكان له في قرنه علامة وكان ليعقوب مثلها ولإسحاق مثلها ولسارة مثلها شبه الشامة، فعرفوه فقالوا: أئنك لأنت يوسف.

﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ﴾[1] بنيامين ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾ أنعم الله علينا بأن جمع بيننا.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ بأداء الفرائض واجتناب المعاصي ﴿وَيَصۡبِرۡ﴾ عمَّا حرَّم الله عزَّ وجلَّ عليه، قال ابن عباس: يتقي الزنا ويصبر عن العزوبة، وقال مجاهد: يتقي المعصية ويصبر على السجن ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾.

﴿قَالُواْ﴾ معتذرين ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ أي: اختارك الله وفضَّلك علينا ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١﴾ أي: وما كنَّا في صنيعنا بك إلا مخطئين مذنبين، يقال: خَطِئ خِطْأً إذا تعمد، وأخطأ إذا كان غير متعمد[2].

---

(١) راجع في هذه الأقوال: «زاد المسير»: (٤/ ٢٨١).

(٢) قال الراغب الأصفهاني في كتابه «المفردات في غريب القرآن» ص١٥١: (الخَطَأ: العدول عن الجهة، وذلك أضْرُبٌ: =

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿قَالَ﴾ يوسف وكان حليمًا: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ لا تعيير عليكم اليوم، ولا أذكر لكم ذنبكم بعد اليوم ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

فلما عرَّفهم يوسف نفسه سألهم عن أبيه، فقال: ما فعل أبي بعدي؟ قالوا: ذهبت عيناه فأعطاهم قميصه، وقال: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أي: يعد مبصرًا، وقيل: يأتيني بصيرًا؛ لأنه كان قد دعاه.

قال الحسن: لم يعلم أنه يعود بصيرًا إلا بعد أن أعلمه الله عزَّ وجلَّ.

وقال الضحاك: كان ذلك القميص من نسج الجنة.

وعن مجاهد قال: أمره جبريل أن يرسل إليه قميصه، وكان ذلك القميص قميص إبراهيم عليه السلام، وذلك أنه جرد من ثيابه وألقي في النار عريانًا، فأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إيَّاه، فكان ذلك القميص عند إبراهيم عليه السلام، فلما مات ورثه إسحاق، فلما مات ورثه يعقوب، فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك القميص في قصبة، وسدَّ رأسها، وعلقها في عنقه، لما كان يخاف عليه من العين، فكان لا يفارقه، فلما ألقي في البئر عريانًا جاءه جبريل عليه السلام وعلى يوسف ذلك التعويذ، فأخرج القميص منه وألبسه إيَّاه، ففي هذا الوقت جاء جبريل عليه السلام إلى يوسف عليه السلام وقال: أرسل ذلك القميص، فإنه فيه ريح الجنة لا يقع على سقيم ولا مبتلى إلاَّ عُوفي، فدفع يوسف ذلك القميص إلى إخوته وقال: ألقوه على وجه أبي يأتِ بصيرًا ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾[(١)].

= أحدها: أن يريد غير ما تَحْسُن إرادته، فيفعله، وهذا هو الخطأ التام المأخوذ به الإنسان، يقال: خَطِئ يَخْطَأ خِطْأَةً وخطأة، قال تعالى: ﴿وإن كنا لخاطئين﴾.

والثاني: أن يريد ما يَحْسُن فعله، لكن يقع منه خلاف ما يريد، فيقال: أخطأ إخطاءً فهو مُخْطِئٌ، وهذا قد أصاب في الإرادة وأخطأ في الفعل، وهو المعنيُّ بقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان . . .».

والثالث: أن يريد ما لا يحسن فعله ويتفق منه خلافه، فهذا مخطئ في الإرادة ومصيب في الفعل، فهو مذموم بقصده، وغير محمود على فعله . .).

وانظر: «تفسير الطبري»: (٢/ ١١٠)، (٦/ ١٣٤)، (١٦/ ٢٤٥).

(١) عقَّب ابن عطية على هذه الروايات، فقال: (وهذا كله يحتاج إلى سند، والظاهر: أنه قميص يوسف الذي هو منه بمنزلة قميص كل أحد، وهكذا تبين الغرابة في أن وجد ريحه من بُعْدٍ، ولو كان من قُمُص الجنة لما كان في ذلك غرابة، ولوجده كلُّ أحدٍ).

انظر: «المحرر الوجيز»: (٨/ ٧١ـ٧٢).

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ أي: خرجت من عريش مصر متوجهة إلى كنعان ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ أي: قال يعقوب لولد ولده: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾.

رُوي أن ريح الصبا استأذنت ربها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير.

قال مجاهد: أصاب يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثلاثة أيام، وحكي عن ابن عباس: من مسيرة ثمان[١] ليال.

وقال الحسن: كان بينهما ثمانون فرسخًا[٢].

وقيل: هبت ريح فصفقت القميص فاحتملت ريح القميص إلى يعقوب فوجد ريح الجنة فعلم أن ليس في الأرض من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص، فلذلك قال: إني لأجد ريح يوسف.

﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ تسفِّهوني، وعن ابن عباس: تُجَهِّلُوني، وقال الضحاك: تهرِّمون فتقولون شيخ كبير قد خرف وذهب عقله، وقيل: تضعِّفوني، وقال أبو عبيدة: تضلِّلوني، وأصل الفَنَدِ: الفساد.

﴿قَالُوا۟﴾ يعني: أولاد أولاده ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ أي: خطئك القديم من ذكر يوسف لا تنساه، والضلال هو الذهاب عن طريق الصواب، فإن عندهم أن يوسف قد مات ويرون يعقوب قد لهج بذكره.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ وهو المبشر عن يوسف، قال ابن مسعود: جاء البشير بين يدي العير.

قال ابن عباس: هو يهوذا.

قال (السدي: قال يهوذا)[٣]: أنا ذهبت بالقميص ملطخًا بالدم إلى يعقوب فأخبرته أن يوسف أكله الذئب، فأنا أذهب إليه اليوم بالقميص فأخبره أن ولده حي فأفرحه كما أحزنته[٤].

قال ابن عباس: حمله يهوذا وخرج حافيًا حاسرًا يعدو ومعه سبعة أرغفة لم يستوف أكلها حتى أتى أباه، وكانت المسافة ثمانين فرسخًا.

وقيل: البشير مالك بن ذعر.

---

(١) في «ب»: (ثلاث).

(٢) انظر: «البداية والنهاية»: (١/ ٢١٦).

(٣) ساقط من «أ».

(٤) انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٢٥٩).

﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ۝٩٧ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩٨﴾

﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ يعني: ألقى البشيرُ قميصَ يوسف على وجه يعقوب ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ﴾ فعاد بصيرًا بعدما كان عمي، وعادت إليه قوته بعد الضعف، وشبابه بعد الهرم، وسروره بعد الحزن.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٩٦﴾ من حياة يوسف وأن الله يجمع بيننا.

ورُوي أنه قال للبشير: كيف تركت يوسف؟ قال: إنه ملك مصر، فقال يعقوب: ما أصنع بالملك على أي دين تركتَه؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمت النعمة(١).

﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ۝٩٧﴾ مذنبين.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ﴾ قال أكثر المفسرين: أخَّر الدعاء إلى السَّحَر، وهو الوقت الذي يقول الله تعالى: «هل من داع فأستجيب له»(٢)، فلما انتهى يعقوب إلى الموعد قام إلى الصلاة بالسحر، فلما فرغ منها رفع يديه إلى الله عزَّ وجلَّ وقال: اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه واغفرْ لأولادي ما أتوا إلى أخيهم يوسف، فأوحى الله تعالى إليه أني قد غفرتُ لك ولهم أجمعين.

وعن عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: سوف أستغفرُ لكم (ربي، يعني: ليلة الجمعة(٣).

قال وهب: كان يستغفر لهم كل)(٤) ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة.

وقال طاووس: أخر الدعاء إلى السَّحر من ليلة الجمعة فوافق ليلة عاشوراء(٥).

وعن الشعبي قال: سوف أستغفرُ لكم ربي، قال: أسأل يوسف إن عفا عنكم أستغفرْ لكم ربي(٥) ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩٨﴾.

---

(١) قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٢٨٦): رواه يحيى بن يمان عن سفيان، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٤/ ٥٨٣) لابن أبي حاتم عن الحسن موقوفًا عليه.

(٢) إشارة إلى حديث أبي هريرة الصحيح: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له».
أخرجه البخاري في التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل: (٣/ ٢٩)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل برقم٧٥٨: (١/ ٥٢١).

(٣) أخرج ابن جرير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا يقول: حتى تأتي ليلة الجمعة. وهو قول أخي يعقوب لبنيه". «التفسير»: (١٦/ ٢٦٢)، وانظر: تخريجه في «تعليق محمود شاكر عليه».
قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (١/ ٢١٧): (وهذا غريب من هذا الوجه، وفي رفعه نظر، والأشبه أن يكون موقوفًا على ابن عباس ـ رضي الله عنهما).

(٤) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٥) انظر: «تفسير القرطبي»: (٩/ ٢٦٣).

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩﴾

روي أن يوسف كان / قد بعث مع البشير إلى يعقوب مائتي راحلة وجهازًا كثيرًا ليأتوا بيعقوب وأهله ١٨٧/أ
وأولاده، فتهيأ يعقوب للخروج إلى مصر، فخرجوا وهم اثنان وسبعون من بين رجل وامرأة، وقال مسروق: كانوا ثلاثة وتسعين[(١)]، فلما دنا من مصر كلم يوسف الملك الذي فوقه فخرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجنود وركب أهل مصر معهما يتلقون يعقوب، وكان يعقوب يمشي وهو يتوكأ على يهوذا فنظر إلى الخيل والناس فقال: يا يهوذا هذا فرعون مصر، قال: لا هذا ابنك، فلما دنا كل واحد من صاحبه ذهب يوسف يبدأ بالسلام، فقال جبريل: لا حتى يبدأ يعقوب بالسلام، فقال يعقوب: السلام عليك يا مذهب الأحزان[(٢)].

ورُوِي أنهما نزلا وتعانقا.

وقال الثوري: لما التقى يعقوب ويوسف عليهما السلام عانق كل واحد منهما صاحبه وبكيا، فقال يوسف: يا أبت بكيتَ حتى ذهب بصرك، ألم تعلم أن القيامة تجمعنا؟ قال: بلى يا بني، ولكن خشيتُ أن تسلب دينك فيحال بيني وبينك[(٣)].

فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ﴾ أي: ضم إليه ﴿أَبَوَيۡهِ﴾ قال أكثر المفسرين: هو أبوه وخالته ليّا، وكانت أمه راحيل قد ماتت في نفاس بنيامين[(٤)].

وقال الحسن: هو أبوه وأمه، وكانت حيّة[(٥)].

وفي بعض التفاسير: أن الله عزَّ وجلَّ أحيا أمه حتى جاءت مع يعقوب إلى مصر[(٦)].

﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩﴾ فإن قيل: فقد قال: فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه، فكيف قال: ادخلوا مصر (إن شاء الله آمنين)[(٧)] بعدما أخبر أنهم دخلوها؟ وما وجه هذا الاستثناء وقد حصل الدخول؟

---

(١) في «ب»: (ثلاثة وسبعين).

(٢) غالب هذه الأخبار متلقاة عن أهل الكتاب. انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير: (١/ ٢١٧ـ٢١٨).

(٣) انظر: «البحر المحيط»: (٥/ ٣٤٧).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن وهب بن منبه، والطبري عن السدي.
انظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٥٨٧ـ٥٨٨)، الطبري: (١٦/ ٢٦٧).

(٥) أخرجه الطبري عن ابن إسحاق، وقال: (هو أولى بالصواب؛ لأن ذلك هو الأغلب في استعمال الناس والمتعارف بينهم في «أبوين» إلا أن يصح ما يقال من أن أم يوسف كانت قد ماتت قبل ذلك بحجة يجب التسليم لها، فيسلَّم لها حينئذ).
انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٢٦٧)، «المحرر الوجيز» لابن عطية: (٨/ ٧٩).

(٦) انظر: «البحر المحيط»: (٥/ ٣٤٧). وقال الآلوسي (١٣/ ٥٧): (والظاهر أنه لم يثبت، ولو ثبت مثله لاشتهر).

(٧) ما بين القوسين ساقط من «ب».

قيل: إن يوسف إنما قال لهم هذا القول حين تلقاهم قبل دخولهم مصر، وفي الآية تقديم وتأخير، والاستثناء يرجع إلى الاستغفار وهو من قول يعقوب لبنيه سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله(١).

وقيل: الاستثناء يرجع إلى الأمن من الجواز؛ لأنهم كانوا لا يدخلون مصر قبله إلاَّ بجواز(٢) من ملوكهم، يقول: آمنين (من الجواز إن شاء الله تعالى(٣)، كما قال: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[الفتح: ٢٧])(٤).

وقيل: «إنْ» هاهنا بمعنى «إذْ»، يريد: إذْ شاء الله، كقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٩]، أي: إذْ كنتم مؤمنين(٥).

---

(١) فصَّل الطبري ذلك فقال: (اختلف أهل التأويل في ذلك، فقال بعضهم: إن يعقوب إنما دخل على يوسف هو وولده، وآوى يوسف أبويه إليه قبل دخول مصر، قالوا: وذلك أن يوسف تلقَّى أباه تكرمةً له قبل أن يدخل مصر، فآواه إليه، ثم قال له ولمن معه: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ بها قبل الدخول . . . وهو قول السدي.

وقال آخرون: بل قوله ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء من قول يعقوب لبنيه: ﴿أستغفر لكم ربي﴾، قال: وهو من المؤخر الذي معناه التقديم.

قالوا: وإنما معنى الكلام: قال: أستغفر لكم ربي إن شاء الله، إنه هو الغفور الرحيم، فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه، وقال: ادخلوا مصر، ورفع أبويه . . . وهو قول ابن جريج.

ثم رجع القول الأول فقال: (والصواب من القول في ذلك عندنا ما قاله السدي، وهو أن يوسف قال ذلك لأبويه ومن معهما من أولادهما وأهاليهم قبل دخولهم مصر حين تلقَّاهم؛ لأن ذلك في ظاهر التنزيل كذلك، فلا دلالة تدل على صحة ما قال ابن جريج، ولا وجه لتقديم شيء من كتاب الله عن موضعه أو تأخيره عن مكانه إلا بحجة واضحة.

انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٢٦٤ـ٢٦٦).

وقد جوَّد الحافظ ابن كثير ردَّ الطبري على ابن جريج واختياره لقول السدي، ثم قال (٢/ ٤٩١): (وما المانع أن يكون قال لهم بعد ما دخلوا عليه وآواهم إليه: ادخلوا مصر، وضمَّنه اسكنوا مصر إن شاء الله آمنين، أي: مما كنتم فيه من الجهد والقحط . . .).

وهذا التفسير ذكره ابن عطية: (٨/ ٧٩): فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ﴾: (معناه: تمكَّنوا واسكُنوا واستقرُّوا؛ لأنهم قد كانوا دخلوا عليه) ثم ذكر قول السدي، وقال (٨/ ٨٠): (وهذا الاستثناء هو الذي ندب إليه القرآن، أن يقوله الإنسان في جميع ما ينفذه في المستقبل . . .) وذكر قول ابن جريج وقال: (وفي هذا التأويل ضعف).

وانظر: «تفسير القرطبي»: (٩/ ٢٦٣).

(٢) في «زاد المسير»: بالراء المهملة، ولعله أنسب.

(٣) قال في «الكشاف»: (إن المشيئة تعلقت بالدخول المكيَّف بالأمن؛ لأن القصد إلى اتصافهم بالأمن في دخولهم، فكأنه قيل: اسلموا وأْمَنُوا في دخولكم إن شاء الله . . . والتقدير: ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله دخلتم آمنين، فحذف الجزاء لدلالة الكلام، ثم اعترض بالجملة الجزائية بين الحال وذي الحال.

وقال الطيبي: فكأنه أشار بقوله: فكأنه قيل . . . إلخ إلى أن في التركيب معنى الدعاء.

انظر: «الكشاف» للزمخشري: (٢/ ٢٧٧)، «روح المعاني» للآلوسي: (١٣/ ٥٧).

(٤) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٥) فتحصَّل من ذلك أربعة أقوال لخَّصها ابن الجوزي في «زاد المسير»: (٤/ ٢٨٩):

أحدها: أن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا.

والثاني: أن الاستثناء يعود إلى الأمن، ثم فيه قولان، أحدهما: أنه لم يثق بانصراف الحوادث عنهم، والثاني: أن الناس كانوا يخافون فيما خلا من ملوك مصر، فلا يدخلون إلا بجوارهم. =

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ
جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن
نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: على السرير أجلسهما، والرفع: هو النقل إلى العلو ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ يعني: يعقوب وخالته وإخوته.

وكانت تحية الناس يومئذ السجود، ولم يُرِدْ بالسجود وضعَ الجباه على الأرض، وإنما هو الانحناء والتواضع[1].

وقيل: وضعوا الجباه على الأرض، وكان ذلك على طريق التحية والتعظيم، لا على طريق العبادة، وكان ذلك جائزًا في الأمم السالفة فنسخ في هذه الشريعة[2].

ورُوِي عن ابن عباس أنه قال: معناه: خرُّوا لله عزَّ وجلَّ سُجَّدًا بين يدي يوسف[3]، والأول أصح[4].

= والثالث: أنه يعود إلى دخول مصر؛ لأنه قال هذا حين تلقَّاهم.
والرابع: أنَّ «إنْ» بمعنى «إذْ».

(١) قاله سعيد بن جبير عن قتادة عن الحسن. انظر: «تفسير القرطبي»: (٩/ ٢٦٥)، «زاد المسير»: (٤/ ٢٩٠).

(٢) قاله الثوري والضحاك وغيرهما، كما نقله القرطبي: (٩/ ٢٦٥)، ونقله الطبري أيضًا عن الضحاك وسفيان الثوري، قالوا: كان السجود تحية بينهم، وقال ابن زيد: ذلك السجود لشرفه، كما سجدت الملائكة لآدم لشرفه، ليس بسجود عبادة.
قال الطبري: وإنما عنى بذلك: أن ذلك كان منهم على الخُلُق، لا على وجه العبادة، ومما يدل على أن ذلك لم يزل من أخلاق الناس قديمًا قبل الإسلام على غير وجه العبادة من بعضهم لبعض قول أعشى بني ثعلبة:

فلمَّا أتانا بُعَيْدَ الكَرَىٰ ... سَجَدْنَا لهُ ورفَعْنَا عَمَارا

انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٢٧٠).

(٣) أخرج الطبري عن ابن عباس، قال: رفع أبويه على السرير، وسجدا له، وسجد له إخوته، وهذا يخالف ما ذكره البغوي.
قال النَّقَّاش: وهذا خطأ؛ والهاء راجعة إلى يوسف ﷺ لقوله تعالى في أول السورة: ﴿رأيتهم لي ساجدين﴾، وكان تحيتهم أن يسجد الوضيع للشريف، والصغير للكبير.
انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٢٦٩)، «تفسير القرطبي»: (٩/ ٢٦٤).

(٤) أجمع المفسرون أن ذلك السجود ـ على أيِّ وجه كان ـ إنما كان تحية لا عبادة؛ قال قتادة: هذه كانت تحية الملوك عندهم، وأعطى الله هذه الأمَّة السلامَ تحية أهل الجنة.
وقد لاحظ القرطبي أن هذا المنسوخ صار عادة في زمنه عند بعض الناس، فشنَّع عليهم قائلًا: هذا الانحناء والتكفي الذي نُسخ عنَّا قد صار عادة بالديار المصرية، وعند العجم، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض، حتى إن أحدهم إذا لم يقم له وجد في نفسه كأنه لا يُؤْبه به، وأنه لا قدر له، وكذلك إذا التقوا انحنى بعضهم لبعض، عادة مستمرة، ووراثة مستقرة، لاسيما عند التقاء الأُمراء والرؤساء. نكبوا عن السُّنن، وأعرضوا عن السُّنَن.
وروى أنس بن مالك قال: قلنا: يا رسول الله! أينحني بعضنا إلى بعض إذا التقينا؟ قال: «لا»، قلنا: أفيعتنق بعضنا بعضًا؟ قال: «لا»، =

﴿وَقَالَ﴾ يوسف عند ذلك: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ وهو قوله: «إني رأيت أحد عشر كوكبًا والشمس والقمرَ رأيتهم لي ساجدين».

﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ (ربي، أي)[1]: أنعم عليَّ ﴿إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ ولم يقل من الجُبِّ مع كونه أشد بلاء من السجن، استعمالاً للكرم، لكيلا يخجل إخوته بعدما قال لهم: «لا تثريب عليكم اليوم»؛ ولأن نعمة الله عليه في إخراجه من السجن أعظم؛ لأنه بعد الخروج من الجب صار إلى العبودية والرق، وبعد الخروج من السجن صار إلى الملك؛ ولأن وقوعه في البئر كان لحسد إخوته، وفي السجن مكافأة من الله تعالى لزلة كانت منه.

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ والبدو بسيط من الأرض يسكنه أهل المواشي بماشيتهم، وكانوا أهل بادية ومواشي، يقال: بَدَا يبدُو إذا صار إلى البادية ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ﴾ أفسد ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ بالحسد.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ﴾ أي: ذُو لُطف ﴿لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ وقيل: معناه بمن[2] يشاء.

وحقيقة اللطيف: الذي[3] يوصل الإحسان إلى غيره بالرفق ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٠٠﴾.

قال أهل التاريخ: أقام يعقوب بمصر عند يوسف أربعًا وعشرين سنة في أغبط حال وأهنأ عيش، ثم مات بمصر، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ابنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند أبيه إسحاق، ففعل يوسف ذلك، ومضى به حتى دفنه بالشام، ثم انصرف إلى مصر.

قال سعيد بن جبير: نُقل يعقوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ في تابوت من ساج إلى بيت المقدس، فوافق ذلك اليوم الذي مات فيه العيص فَدُفِنَا في قبر واحد، وكانا وُلِدَا في بطن واحدة، وكان عمرهما مائة وسبعًا وأربعين سنة[4].

فلما جمع الله تعالى ليوسف شمله علم أنَّ نعيم الدنيا لا يدوم سأل الله تعالى حُسنَ العاقبة فقال:

= قلنا: أفيصافح بعضنا بعضًا؟ قال: «نعم». خرَّجه أبو عمر بن عبد البر في «التمهيد».
انظر: «تفسير القرطبي»: (٩/ ٢٦٥ـ٢٦٦)، وراجع: «المحرر الوجيز»: (٨/ ٨٠)، «تفسير ابن كثير»: (٢/ ٤٩١ـ٤٩٢).

(١) ساقط من «أ».

(٢) في «ب»: (لمن).

(٣) في «ب»: (أنه يوصل).

(٤) هذه الأخبار متلقاة عن أهل الكتاب، وقد ذكرها المؤرخون مع أخبار غيرها، والله أعلم بصحتها، وقد أشار إلى ذلك الحافظ ابن كثير، بل إنه قال: وعند أهل الكتاب أن عمر يعقوب . . . إلخ.
انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٢٧٦)، «تاريخ الطبري»: (١/ ٣٦٣ـ٣٦٤)، «البداية والنهاية» لابن كثير: (١/ ٢٢٠)، «تفسير ابن كثير»: (٢/ ٤٩٢)، «الدر المنثور»: (٤/ ٥٨٩ـ٥٩٠).

﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾

﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ يعني: ملك مصر، والمُلْك: اتساع المقدور لمن له السياسة والتدبير ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ يعني: تعبير الرؤيا ﴿فَاطِرَ﴾ أي: يا فاطر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾ أي: مُعيني ومتولي أمري ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ يقول: اقبضني إليك مسلمًا ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ يريد بآبائي النبيين.

قال قتادة: لم يسأل نبيٌّ من الأنبياء الموت إلا يوسف(١).

وفي القصة: لما جمع الله شمله وأوصل إليه أبويه وأهله اشتاق إلى ربّه عزَّ وجلَّ فقال هذه المقالة.

قال الحسن: عاش بعد هذا سنين كثيرة، وقال غيره: لما قال هذا القول لم يمض عليه أسبوع حتى توفي.

واختلفوا في مدة غيبة يوسف عن أبيه، فقال الكلبي: اثنتان وعشرون سنة.

وقيل: أربعون سنة.

وقال الحسن: ألقي يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، وغاب عن أبيه ثمانين سنة، وعاش بعد لقاء يعقوب ثلاثًا وعشرين سنة، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة.

وفي التوراة: مات وهو ابن مائة وعشر سنين، وولد ليوسف من امرأة العزيز ثلاثة أولاد: أفرائيم وميشا ورحمة امرأة أيوب المبتلى عليه السلام.

وقيل: عاش يوسف بعد أبيه ستين سنة، وقيل: أكثر، واختلفتِ الأقاويل فيه.

وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة، فدفنوه في النيل في صندوق من رخام، وذلك أنه لما مات تشاح الناس فيه فطلب أهل كل محلة أن يدفن في محلتهم رجاء بركته، حتى همُّوا بالقتال، فرأوا أن يدفنوه في النيل حيث يتفرق الماء بمصر ليجري الماء عليه وتصل بركته إلى جميعهم.

١٨٧/ب وقال عكرمة: دُفن في الجانب الأيمن / من النيل، فأخصب ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر، (فنقل إلى الجانب الأيسر فأخصب ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر)(٢)، فدفنوه في وسطه وقدَّروا ذلك بسلسلة فأخصب الجانبان جميعًا إلى أن أخرجه موسى فدفنه بقرب آبائه بالشام(٣).

---

(١) وهو مروي عن ابن عباس أيضًا. انظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٥٩١)، وانظر ما كتبه ابن كثير في «التفسير»: (٢/ ٤٩٣).

(٢) ساقط من «ب».

(٣) انظر: المراجع السابقة.

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ
يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم
مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرتُ ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أي: ما كنت يا محمد عند أولاد يعقوب ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ أي: عَزَمُوا على إلقاء يوسف في الجب ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ بيوسف.

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ يا محمد ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ على إيمانهم.

ورُوي أن اليهود وقريشًا سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف، فلما أخبرهم على موافقة التوراة لم يسلموا، فحزن النبي ﷺ، فقيل له: إنهم لا يؤمنون وإن حَرَصْتَ على إيمانهم[1].

﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على تبليغ الرسالة والدعاء إلى الله تعالى ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ جُعْلٍ[2] وجزاءً ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما هو، يعني: القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عِظَةٌ وتذكير ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿وَكَأَيِّن﴾ وكم ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ عِبرَةٍ ودَلالَةٍ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ فكان من إيمانهم إذا سُئِلُوا: مَن خلق السموات والأرض؟ قالوا: الله، وإذا قيل لهم: من ينزِّل القطرَ؟ قالوا: الله، ثم مع ذلك يعبدون الأصنام ويشركون[3].

---

(١) قال ابن الأنباري: إن قريشًا واليهود سألت رسول الله ﷺ عن قصة يوسف وإخوته، فشرحها شرحًا شافيًا وهو يؤمِّل أن يكون ذلك سببًا لإسلامهم، فخالفوا ظنَّه، فحزن رسول الله ﷺ، فعزَّاه الله تعالى بهذه الآية.
انظر: «زاد المسير»: (٤/ ٢٩٣)، «البحر المحيط»: (٥/ ٣٥٠).

(٢) الجُعْل ـ بالضم ـ ومصدره الجَعْل ـ بالفتح ـ وهو الأجرة على الشيء فعلًا أو قولًا.
انظر: «النهاية» لابن الأثير: (١/ ٢٧٦)، «أنيس الفقهاء» للقونوي: ص١٦٩.

(٣) وهو مروي عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد وعطاء والشعبي وقتادة والضحاك وابن زيد.
انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٢٨٦ ـ ٢٨٨)، ابن كثير: (٢/ ٤٩٥)، «الدر المنثور»: (٤/ ٥٩٣).

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾

وعن ابن عباس أنه قال: إنها نزلت في تلبية المشركين من العرب كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك اللهم لبيك؛ لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك(١).

وقال عطاء: هذا في الدعاء، وذلك أن الكفار نسوا ربّهم في الرخاء، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا في الدعاء(٢)، كما قال الله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[يونس: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾[العنكبوت: ٦٥]، وغير ذلك من الآيات.

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي: عقوبة مجللة، قال مجاهد: عذاب يغشاهم، نظيره قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾[العنكبوت: ٥٥]، قال قتادة: وقيعة، وقال الضحاك: يعني: الصواعق والقوارع ﴿أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ﴾ فجأة ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧﴾ بقيامها، قال ابن عباس: تهيج الصيحة بالناس وهم في أسواقهم.

﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿هَٰذِهِۦ﴾ الدعوة التي أدعو إليها والطريقة التي أنا عليها ﴿سَبِيلِيٓ﴾ سُنَّتي ومنهاجي، وقال مقاتل: ديني، نظيره قوله: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾[النحل: ١٢٥]، أي: إلى دينه ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ على يقين، والبصيرة: هي المعرفة التي تُميِّزُ بها بين الحق والباطل ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ أي: ومن آمن بي وصدقني أيضًا يدعو إلى الله، هذا قول الكلبي وابن زيد، قالوا: حقٌّ على من اتبعه أن يدعوَ إلى ما دعا إليه، ويذكِّر بالقرآن(٣).

---

(١) ثبت ذلك في «الصحيحين»، وفي «صحيح مسلم»: (٢/ ٨٤٣) أنهم كانوا إذا قالوا: لبيك لا شريك لك، قال رسول الله ﷺ: «ويلكم قَدِ قَدِ» ـ أي: حسبكم لا تزيدوا على هذا ـ فيقولون: إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك.
هذا، ولم تذكر هذه الأحاديث أن الآيات نزلت في ذلك، فهي حكاية عن حالهم في الجاهلية وتلبيتهم هذه.
وانظر: «تفسير ابن كثير»: (٢/ ٤٩٥).

(٢) انظر: «البحر المحيط»: (٥/ ٣٥١)، وهذه الأقوال التي تقدمت وغيرها من الأقوال الأخرى المروية، داخلة كلها في عموم الآية الكريمة، ولا تنافي بينها، فذلك كله كان واقعًا منهم، فالآية تحكي هذا كله.

(٣) انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٢٩٣).
والدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله، بتصديقهم فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا، وذلك يتضمن الدعوة إلى الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والدعوة إلى الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، =

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾

وقيل: تم الكلام عند قوله: «ٱدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ»، ثم استأنف: «عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ»، يقول: إني على بصيرة من ربي وكل من اتبعني.

قال ابن عباس: يعني أصحاب محمد ﷺ كانوا على أحسن طريقة وأقصد هداية، معدن العلم، وكنز الإيمان، وجند الرحمن.

قال عبد الله بن مسعود: من كان مُستنًّا فليستنّ بمن قد مات (فإن الحيّ لا تؤمن عليه الفتنة)[1]، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير هذه الأمة، وأبرَّها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلُّفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه، (فاعرفُوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم)[1]، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم[2].

قوله تعالى: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: وقلْ سبحانَ الله تنزيهًا له عمَّا أشركوا به ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّا رِجَالٗا﴾ لا ملائكة ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾ قرأ حفص «نُوحي» بالنون وكسر الحاء، وقرأ الآخرون بالياء وفتح الحاء.

﴿أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ يعني: من أهل الأمصار دون البوادي؛ لأن أهل الأمصار أعقل وأفضل وأعلم وأحلم.

(وقال الحسن: لم يبعث الله نبيًّا من بدوٍ، ولا من الجن، ولا من النساء.

= والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشره، والدعوة إلى أن يعبد العبد ربه كأنه يراه.

وهذه الدرجات الثلاث التي هي: «الإسلام» و«الإيمان» و«الإحسان» داخلة في الدين، كما قال في الحديث الصحيح: «هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم» بعد أن أجابه عن هذه الثلاث . . .

فالدعوة إلى الله تكون بدعوة العبد إلى دينه، وأصل ذلك: عبادته وحده لا شريك له، كما بعث الله بذلك رسله وأنزل به كتبه . . . فالرسل متفقون في الدين الجامع للأصول الاعتقادية والعملية.

والرسول ﷺ قام بهذه الدعوة إلى الله، وهي بإذنه سبحانه، لم يشرع دينًا لم يأذن به الله، ومما يبين ذلك: أنه سبحانه يذكر أنه أمره بالدعوة إلى الله تارة، وتارة بالدعوة إلى سبيله، إذْ قد عُلِم أن الداعي الذي يدعو غيره إلى أمر لابد له فيما يدعوه إليه من أمرين: أحدهما: المقصود المراد، والثاني: الوسيلة والطريق الموصل إلى المقصود، فلهذا يذكر الدعوة تارة إلى الله وتارة إلى سبيله، فإنه سبحانه هو المعبود المقصود بالدعوة.

انظر: «دقائق التفسير» لابن تيمية: (٣/ ٢٨٤، وما بعدها).

(١) ما بين القوسين من «المسند» للإمام أحمد، وهو في «المطبوع»، وساقط من النسختين الخطيتين.

(٢) أثر موقوف على ابن مسعود، رواه الإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ٢١١) بتحقيق الشيخ أحمد شاكر.
قال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٧٨): (رواه أحمد والبزار والطبراني في «الكبير»، ورجاله موثقون).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾

وقيل: إنما لم يبعث)[1] من أهل البادية لغلظهم وجفائهم.

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني: هؤلاء المشركين المكذبين ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ آخر أمر ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾ يعني: الأمم المكذبة فيعتبروا.

﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ﴾ يقول جلَّ ذكرُه: هذا فعلنا بأهل ولايتنا وطاعتنا؛ أن ننجيهم عند نزول العذاب، وما في الدار الآخرة خيرٌ لهم، فترك ما ذكرنا اكتفاءً؛ لدلالة الكلام عليه.

قوله تعالى: «وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ»، قيل: معناه: ولدار الحال الآخرة.

وقيل: هو إضافة الشيء إلى نفسه، كقوله: «إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ»[الواقعة: ٩٥]، وكقولهم: يوم الخميس، وربيع الآخر ﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾ فتؤمنون.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ اختلف القُرَّاء في قوله: «كُذِّبُوا»: فقرأ أهل الكوفة وأبو جعفر «كُذِبُوا» بالتخفيف، وكانت عائشة تنكر هذه القراءة[2].

وقرأ الآخرون بالتشديد.

فمن شدَّد قال: معناه: حتى استيأس الرسلُ من إيمان قومهم.

(رُوي عن مجاهد أنه قرأ «وقد كَذبوا» بفتح الكاف والذال مخففة، ولها تأويلان، أحدهما: معناه: أن

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٢) أخرج البخاري في تفسير سورة يوسف: (٨/ ٣٦٧) عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ قال:

قلت: أكُذِبوا أم كُذِّبوا؟

قالت عائشة: كذِّبوا.

قلت: فقد استيقنوا أنَّ قومهم كذبوهم، فما هو بالظن.

قالت: أجلْ لعمري، لقد استيقنوا بذلك.

فقلت لها: وظنوا أنهم قد كُذِبوا؟

قالت: معاذ الله، لم تكن الرسل تظنّ ذلك بربها.

قلت: فما هذه الآية؟

قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدَّقوهم، فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر، حتى استيأس الرسل ممن كذَّبهم من قومهم، وظنت الرسل أنَّ أتباعهم قد كذَّبوهم، جاء نصر الله عند ذلك.

وهذه القراءة هي قراءة الجمهور، وانتصر لها الطبري في «التفسير»: (١٦/ ٣٠٩).

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

القوم المشركين ظنوا أن الرسل قد كُذِبُوا، والثاني: أن الرسل ظنوا ـ أي: علموا ـ أن قومهم قد افتروا على الله بكفرهم من إيمان قومهم)[1].

وظنّوا: أي: أيقنوا ـ يعني: الرسل ـ أن الأمم قد كذّبوهم تكذيبًا لا يُرجى بَعْدُ إيمانهم.

والظنّ بمعنى اليقين، وهذا معنى قول قتادة.

وقال بعضهم: معناه: حتى إذا استيأسَ الرسلُ ممن كذَّبهم من قومهم أن يُصدِّقوهم، وظنوا أن من آمن بهم من قومهم قد كذبوهم، وارتدوا عن دينهم، لشدة المحنة والبلاء عليهم واستبطاء النصر، ومن قرأ بالتخفيف قال: معناه: حتى إذا استيأس الرسلُ من إيمان قومهم وظنّوا، أي: ظنَّ قومُهم أن الرسل قد كذبتهم في وعيد العذاب.

ورُوي عن ابن عباس: معناه: ضعف قلوب الرسل، يعني: وظنت الرسل أنهم كذبوا فيما وعدوا من النصر، وكانوا بشرًا فضعفوا ويئسوا وظنوا أنهم أُخلِفُوا، ثم تلا: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾[البقرة: ٢١٤]، أي: جاء الرسل نصرُنا[2].

﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ﴾ (قرأ العامة بنونين، أي: نحن ننجي من نشاء)[3]، وقرأ ابن عامر وحمزة وعاصم ويعقوب بنون واحدة مضمومة وتشديد الجيم وفتح الياء على ما لم يسم فاعله؛ لأنها مكتوبة في المصحف بنون واحدة، فيكون محل «مَنْ» رفعًا، على هذه القراءة، وعلى القراءة الأولى يكون نصبًا، فَنُجِّيَ مَنْ نشاءُ عند نزول العذاب، وهم المؤمنون المطيعون.

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ عذابُنا ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ يعني: المشركين.

١/١٨٨ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ / أي: في خبر يوسف وإخوته ﴿عِبْرَةٌ﴾ عِظة ﴿لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ﴾ يعني: القرآن ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي: يُختلق ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي﴾ أي: ولكن كان تصديقَ الذي ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من التوراة والإنجيل ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام والأمر والنهي ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ بيانًا ونعمةً ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب»، ومن «المطبوع» أيضًا.

(٢) في توجيه القراءتين والترجيح بينهما، انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٢٩٦ ـ ٣١١)، «البحر المحيط»: (٥/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥)، «تفسير ابن كثير»: (٢/ ٤٩٨ ـ ٤٩٩)، «دقائق التفسير» لابن تيمية: (٣/ ٣٠١، وما بعدها).

(٣) ساقط من «أ».

سورة الرعد

مكية إلا قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ﴾[(١)]، (وهي ثلاث وأربعون آية)[(٢)].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾

﴿ٱلٓمٓرۚ﴾ قال ابن عباس: معناه: أنا الله أعلم وأرى[(٣)] ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ يعني: تلك الأخبار التي قصصتُها عليك[(٤)] آيات التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ يعني: وهذا القرآن الذي أُنزل إليك ﴿مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّۚ﴾ أي: هو الحق فاعتصم به.

فيكون محل «الذي» رفعًا على الابتداء، و«الحقُّ» خبره.

وقيل: محلُّه خفض، يعني: تلك آيات الكتاب وآيات الذي أُنزل إليك، ثم ابتدأ: «الحق»، يعني: ذلك الحق[(٥)].

---

(١) أخرج النحاس في «الناسخ والمنسوخ» عن ابن عباس وسعيد بن منصور وابن المنذر عن سعيد بن جبير أنَّ سورة الرعد مكية، وبه قال الحسن وعطاء وقتادة.

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس وابن مردويه عن ابن الزبير: أن سورة الرعد نزلت بالمدينة، وبه قال جابر بن زيد.

ورُوي عن ابن عباس أنها مدنية إلا آيتين نزلتا بمكة، ورواه ابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة.

ومكيَّةُ السورة شديدة الوضوح: سواء في طبيعة موضوعها، أو طريقة أدائها، أو في جوِّها العام الذي لا يخطىء تنسُّمَه من يعيش فترة في ظلال القرآن.

انظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٥٩٩)، «الإتقان»: (١/ ٤٠ ـ ٤٤)، «زاد المسير»: (٤/ ٢٩٩)، «في ظلال القرآن»: (١٣/ ٢٠٣٩).

(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٣) انظر فيما سبق: (١/ ١١)، وراجع: «تفسير الطبري»: (١/ ٢٠٥ ـ ٢٢٤)، (٦/ ١٤٩)، (١٢/ ٢٩٣، ٢٩٤)، (١٥/ ٩)، (١٦/ ٣١٩ ـ ٣٢٠) طبعة دار المعارف، «زاد المسير»: (٤/ ٣٠٠).

(٤) ساقط من «ب».

(٥) انظر في هذا وشواهده من العربية: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٣٢١ ـ ٣٢٢)، «البحر المحيط»: (٥/ ٣٥٩)، «المحرر الوجيز»: (٨/ ١٠٩ ـ ١١٠).

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِى لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ۝٢﴾

وقال ابن عباس: أراد بالكتاب القرآن، ومعناه: هذه آيات الكتاب، يعني: القرآن، ثم قال: وهذا القرآن الذي أُنزل إليك من ربك هو الحق.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١﴾ قال مقاتل: نزلت في مشركي مكة حين قالوا: إن محمدًا يقوله من تلقاء نفسه[1]، فردَّ قولهم ثم بيَّن دلائل ربوبيته، فقال عزَّ مِن قائل:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ يعني: السَّواري، واحدها: عمود، مثل: أديم وأَدَم، وعُمُد أيضًا جمعه، مثل: رسول ورُسل.

ومعناه: نفي العمد أصلًا، وهو الأصح، يعني: ليس من دونها دعامة تدعمها ولا فوقها علاقة تمسكها.

قال إياس بن معاوية: السماء مقبَّبة على الأرض مثل القبة[2].

وقيل: ﴿تَرَوۡنَهَاۖ﴾ راجعة إلى العمد، معناه[3]: لها عمد ولكن لا ترونها[4].

وزعم: أن عمدها جبل قاف، وهو محيط بالدنيا، والسماء عليه مثل القبة[5].

---

(١) وقيل: المراد اليهود والنصارى، والأولى أنه عامٌّ يندرج تحته هؤلاء وأولئك. انظر: «البحر المحيط»: (٥/ ٣٥٩).

(٢) وهذا مروي أيضًا عن قتادة، ويدل عليه تصريحه تعالى في سورة الحج أنه هو الذي يمسكها أن تقع على الأرض في قوله: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ﴾.

فعلى هذا يكون قوله ﴿تَرَوۡنَهَاۖ﴾ تأكيدًا لنفي ذلك، أي: هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها، وهذا هو الأكمل في القدرة، وعلى هذا يكون الضمير في قوله ﴿تَرَوۡنَهَاۖ﴾ عائدًا على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وجملة ﴿تَرَوۡنَهَاۖ﴾ في موضع الحال.

انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٣٢٥)، «تفسير ابن كثير»: (٢/ ٥٠٠)، «أضواء البيان»: (٣/ ٧٧-٧٨)، «المحرر الوجيز»: (٨/ ١١٠).

(٣) ساقط من «ب».

(٤) وهو مروي عن ابن عباس - رضي الله عنه - وعن مجاهد والحسن وقتادة وغير واحد.

وقال الطبري تعقيبًا على هذين الرأيين (١٦/ ٣٢٥): (وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ فهي مرفوعة بغير عمد نراها، كما قال ربُّنا - جلَّ ثناؤه - ولا خبر بغير ذلك، ولا حجة يجب التسليم لها بقولٍ سواه).

(٥) التعبير بكلمة «زعم» تشير إلى تضعيف هذا الرأي؛ لأن زعم مطية الكذب، كما تقول العرب، ولذلك نثبت هنا كلمة قيِّمة للحافظ ابن كثير ﷺ في تفسيره لسورة «ق»: (٤/ ٢٢٢) قال:

«رُوي عن بعض السلف أنهم قالوا: قٓ جبل محيط بجميع الأرض، يقال له جبل قاف، وكأن هذا - والله أعلم - من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس لما رأى من جواز الرواية عنهم مما لا يصدَّق ولا يكذَّب.

وعندي: أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبِّسون به على الناس أمر دينهم، كما افتري في هذه الأمة - مع جلالة قدر علمائها وحفَّاظها وأئمتها - أحاديث عن النبي ﷺ، وما بالعهد من قِدَم، فكيف بأمة بني إسرائيل، مع طول المدى، وقلَّة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمور، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه وتبديل كتب الله وآياته! وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: «وحدِّثوا=

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)﴾

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ علا عليه[١] ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ ذلَّلها لمنافع خلقه فهما مقهوران ﴿كُلٌّ يَجْرِى﴾ أي: يجريان على ما يريد الله عزَّ وجلَّ ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى وقت معلوم: وهو فناء الدنيا، (وقال ابن عباس)[٢]: أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما ينتهيان إليها لا يجاوزانها ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ يقضيه وحده ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ يبيِّن الدلالات ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢)﴾ لكي توقنوا بوعده وتصدقوه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ بسطها ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثابتة، واحدتها: راسية، قال ابن عباس: كان أبو قبيس أول جبل وضع على الأرض[٣] ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ وجعل فيها أنهارًا ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: (صنفين اثنين)[٤] أحمر وأصفر، وحلوًا وحامضًا ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: يلبس النهار بظلمة الليل، ويلبس الليل بضوء النهار ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣)﴾ فيستدلون، والتفكر[٥]: تصرف القلب في طلب معاني الأشياء.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ متقاربات يقرب بعضها من بعض، وهي مختلفة: هذه طيبة تنبت، وهذه سبخة لا تنبت، وهذه قليلة الريع، وهذه كثيرة الريع ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ بساتين ﴿مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ﴾ رفعها كلها ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب عطفًا على الجنات، وجرها الآخرون نسقًا على الأعناب.

= عن بني إسرائيل ولا حرج» فيما قد يجوِّزه العقل، فأما فيما تحيله العقول ويحكم فيه بالبطلان ويغلب على الظنون كذبه: فليس من هذا القبيل، والله أعلم).

ثم قال: (وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخلف، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم، ولله الحمد المنَّة)، ثمن أورد أثرًا غريبًا لا يصح سنده عن ابن عباس، أخرجه ابن أبي حاتم الرازي عن جبل قاف المحيط بالأرض وقال: (وإسناد الأثر فيه انقطاع).

هذا، وقد جمع الشيخ أحمد شاكر كلمات ابن كثير في الإسرائيليات في «عمدة التفسير»: (١/ ١٤-١٩).

(١) في «ب»: (علمه).

(٢) في «ب»: (وقيل).

(٣) نقله القرطبي عن ابن عباس وعطاء: (٩/ ٢٨٠).

(٤) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٥) في «أ»: (والفكر).

والصنوان: جمع صنو، وهو النخلات يجمعهن أصل واحد.

﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ هي النخلة المنفردة بأصلها.

وقال أهل التفسير[1]: صنوان: مجتمع، وغير صنوان: متفرق، نظيره من الكلام: قنوان جمع قنو، ومنه قول النبي ﷺ في العباس: «عمُّ الرجل صنو أبيه»[2].

ولا فرق في الصنوان والقنوان بين التثنية والجمع إلا في الإعراب، وذلك أن النون في التثنية مكسورة غير منونة، وفي الجمع منونة.

﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب «يُسْقَىٰ» بالياء، أي: يسقى ذلك كله بماء واحد، وقرأ الآخرون بالتاء لقوله تعالى: «وَجَنَّٰتٌ»، ولقوله تعالى من بعد: «بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ»، ولم يقل: بعضه، والماء جسم رقيق مائع، به حياة كل نامٍ.

﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ في الثمر والطعم.

قرأ حمزة والكسائي «ويفضل» بالياء، لقوله تعالى: «يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ».

وقرأ الآخرون بالنون على معنى: ونحن نفضل بعضها على بعض في الأُكُل، وجاء في الحديث (في قوله): «وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ»، قال: «الفارسيُّ، والدَّقَلُ، والحلو، والحامض»[3].

قال مجاهد: كمثل بني آدم، صالحهم وخبيثهم، وأبوهم واحد[4].

قال الحسن: هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بني آدم، يقول: كانت الأرض طينة واحدة في يد الرحمن عزَّ وجلَّ فسطحها، فصارت قطعًا متجاورةً، فينزل عليها المطر[5] من السماء، فتخرج هذه زهرتها وشجرها وثمرها ونباتها، وتخرج هذه سَبَخَها وملحها وخبيثها[6]، وكل يُسقَى بماء واحد، كذلك الناس خلقوا من آدم عليه السلام فينزل من السماء تذكرة فترق قلوب فتخشع، وتقسو قلوب فتلهو.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٣٣٥-٣٤٠).

(٢) قطعة من حديث أبي هريرة، أخرجه مسلم في الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها برقم ٩٨٣: (٢/ ٦٧٦ - ٦٧٧)، وانظر فيما سبق: (١/ ١١٠) التعليق رقم (٢)، «تفسير الطبري»: (١٦/ ٣٣٨-٣٣٩) مع تعليق محمود شاكر.

(٣) أخرجه الترمذي في التفسير: (٨/ ٥٤٤)، وقال: (هذا حديث حسن غريب، وقد رواه زيد بن أبي أنيسة عن الأعمش نحو هذا، وسيف بن محمد هو أخو عمار بن محمد، وعمّار أثبت منه، وهو ابن أخت سفيان الثوري).
وأخرجه الطبري في «التفسير»: (١٦/ ٣٤٤). وعزاه السيوطي في «الدر»: (٤/ ٦٠٥) أيضًا للبزار وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه.
و(الفارسيّ) - من التمر - نوعٌ منه، ولعله عنى به: (البَرْنيّ) وهو ضرب من التمر أصفر مدور، غلب الحلاوة وهو أجوده، وقالوا: إن لفظ (البرني) فارسي معرب.
و(الدَّقَل): أردأ أنواع التمر.
انظر: «تعليق محمود شاكر على الطبري»: (١٦/ ٣٤٣).

(٤) الطبري: (١٦/ ٣٤٢).

(٥) في «ب»: (الماء).

(٦) في «ب»: (خبثها).

﴿۞ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٦﴾

قال الحسن: والله ما جالس القرآن أحد إلا قام من عنده بزيادة أو نقصان، قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾[الإسراء: ٨٢] (١).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرت ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤﴾.

﴿۞ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ﴾ العجب تغير النفس برؤية المُسْتَبْعَد في العادة، والخطاب لرسول الله ﷺ، ومعناه: إنك إن تعجب من إنكارهم النشأة الآخرة مع إقرارهم بابتداء الخلق (من الله عزَّ وجلَّ)(٢) فعجب أمرهم.

وكان المشركون ينكرون البعث، مع إقرارهم بابتداء الخلق من الله تعالى، وقد تقرر في القلوب أن الإعادة أهون من الابتداء، فهذا موضع العجب.

وقيل: معناه: وإن تعجب من تكذيب المشركين واتخاذهم ما لا يضر ولا ينفع آلهةً يعبدونها وهم قد رأوا من قدرة الله تعالى ما ضرب لهم به الأمثال فعجب قولهم، أي: فتعجب أيضًا من قولهم:

﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ بعد الموت ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ أي: نعاد خلقًا جديدًا كما كنَّا قبل الموت.

قرأ نافع والكسائي ويعقوب «أئذا» مستفهمًا «إنَّا» بتركه، على الخبر، ضده: أبو جعفر وابن عامر، وكذلك في «سبحان» في موضعين، و«المؤمنون»، «والٓمٓ السجدة»، وقرأ الباقون بالاستفهام فيهما وفي / «الصافات» في موضعين هكذا إلا أن أبا جعفر يوافق نافعًا في أول الصافات فيقدم الاستفهام ويعقوب لا يستفهم الثانية ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾[الصافات: ٥٣]. ١٨٨/ب

قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ﴾ يوم القيامة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ الاستعجال: طلب تعجيل الأمر قبل مجي وقته، والسيئة هاهنا هي: العقوبة، والحسنة: العافية، وذلك أن مشركي مكة كانوا يطلبون العقوبة بدلاً

---

(١) الطبري: (١٦/ ٣٤٠).
(٢) ساقط من «ب».

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧ ٱللَّهُ
يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨﴾

من العافية استهزاءً منهم يقولون: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الأنفال: ٣٢].

﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ أي: مضت من قبلهم في الأمم التي عصت ربها وكذبت رسلها العقوباتُ، والمثلات جمع المَثُلَة بفتح الميم وضم الثاء، مثل: صَدُقَة وصَدُقَات[1].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي: على محمد ﷺ ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ أي: علامة وحجة على نبوته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ مُخَوِّف ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾ أي: لكل قوم نبي يدعوهم إلى الله تعالى.

وقال الكلبي: داعٍ يدعوهم إلى الحق أو إلى الضلالة.

وقال عكرمة: الهادي محمد ﷺ، يقول: إنما أنت منذر وأنت هادٍ لكل قوم، أي: داعٍ.

وقال سعيد بن جبير: الهادي هو الله تعالى[2].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ من ذكر أو أنثى، سويّ الخلق أو ناقص الخلق، واحدًا أو اثنين أو أكثر ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ أي: ما تنقص ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾.

قال أهل التفسير[3]: غيض الأرحام: الحيض على الحمل؛ فإذا حاضت الحامل كان نقصانًا في الولد؛ لأن دم الحيض غذاء الولد في الرحم، فإذا أهرقت الدم ينقص الغذاء فينتقص الولد، وإذا لم تحض يزداد الولد ويتمّ، فالنقصان نقصان خلقة الولد بخروج الدم، والزيادة تمام خلقته باستمساك الدم.

---

(١) الصَّدُقات: مهور النساء.

(٢) ساق الطبري الأقوال في «التفسير» ثم قال: (وقد بينت معنى «الهداية» وأنه الإمام المتبع الذي يَقْدُم القوم.
فإذا كان ذلك كذلك، فجائز أن يكون هو الله الذي يهدي خلقَه، ويتّبع خلقُه هداه، ويأتمُّون بأمره ونهيه.
وجائز أن يكون نبيّ الله الذي تأتمُّ به أمته.
وجائز أن يكون إمامًا من الأئمة يؤتمّ به، ويتّبع منهاجَه وطريقته أصحابُه.
وجائز أن يكون داعيًا من الدعاة إلى خير أو شر.
وإن كان ذلك كذلك، فلا قول أولى في ذلك بالصواب من أن يقال كما قال جلَّ ثناؤه: إن محمدًا هو المنذر من أُرسل إليه بالإنذار، وأن لكل قوم هاديًا يهديهم فيتبعونه ويأتمون به).
«تفسير الطبري»: (١٦/ ٣٥٨).

(٣) انظر في هذه الأقوال وتخريجها: «الدر المنثور»: (٤/ ٦٠٨ـ ٦١٠)، «تفسير الطبري»: (١٦/ ٣٥٩ـ ٣٦٥)، واقرأ كتاب «خلق الإنسان بين الطب والقرآن» للدكتور محمد علي البار، فصل دورة الأرحام: ص٦٩ ـ ٨٢.

وقيل: إذا حاضت ينتقص[١] الغذاء وتزداد مدة الحمل حتى تستكمل تسعة[٢] أشهر ظاهرًا، فإن رأت[٣] خمسة أيام دمًا وضعت لتسعة أشهر وخمسة أيام، فالنقصان في الغذاء، والزيادة في المدة[٤].

وقال الحسن: غيضها: نقصانها من تسعة أشهر، والزيادة: زيادتها على تسعة أشهر.

وقيل: النقصان: السِّقط، والزيادة: تمام الحمل.

وأقل مدة الحمل: ستة أشهر، فقد يُولد المولود لهذه المدة ويعيش[٥].

واختلفوا في أكثرها: فقال قوم: أكثرها سنتان، وهو قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ، وبه قال أبو حنيفة رحمه الله.

وذهب جماعة إلى أن أكثرها أربع سنين، وإليه ذهب الشافعي رحمه الله، قال حماد بن سلمة: إنما سُمِّي هَرِم بن حيَّان هرمًا؛ لأنه بقي في بطن أمه أربع سنين[٦].

---

(١) في «ب»: (ينقص).

(٢) في «ب»: (بسبعة).

(٣) في «ب»: (زادت).

(٤) هذه الأقوال في تفسير الآية بناء على أن الحامل تحيض، وهو مذهب مالك والشافعي في أحد قوليه، وقال عطاء والشعبي وغيرهما: لا تحيض، وبه قال أبو حنيفة، ودليله الآية.
قال ابن عباس في تأويل الآية: إنه حيض الحبالى، وكذلك رُوي عن عكرمة ومجاهد وهو قول عائشة، وأنها كانت تفتي النساء الحوامل إذا حِضْنَ أن يتركن الصلاة، والصحابة إذ ذاك متوافرون، ولم ينكر منهم أحد عليها، فصار كالإجماع. وقال أبو حنيفة: لو كان الحامل تحيض، وكان ما تراه المرأة من الدم حيضًا لما صحَّ استبراء الأمة بحيض، وهو إجماع. ورُوي عن مالك في كتاب محمد ما يقتضي أنه ليس بحيض.
انظر: «تفسير القرطبي»: (٩/ ٢٨٦)، «أحكام القرآن» للجصاص: (٤/ ٢٩٧ـ٢٩٩)، «تفسير ابن عطية»: (٨/ ١٣٠ـ١٣١)، «أحكام القرآن» لابن العربي: (٣/ ١١١٠).

(٥) وذلك منتزع من قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾[الأحقاف: ١٥] مع قوله تعالى: ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾[البقرة: ٢٣٣] فبقي عن مدة الفصال من الثلاثين شهرًا لمدة الحمل ستة أشهر.
وكلام الأطباء يتفق مع هذا، فالطب يقرر أن أقل الحمل الذي يمكنه العيش بعده ستة أشهر، ولذلك قال ابن القيم رحمه الله: (وأما أقل مدة الحمل: فقد تظاهرت الشريعة والطبيعة على أنها ستة أشهر).
انظر: «تفسير القرطبي»: (٩/ ٢٨٨)، «التبيان في أقسام القرآن» لابن القيم: ص٣٣٩، «خلق الإنسان بين الطب والقرآن» د. محمد علي البار: ص٤٥١ـ٤٥٢.

(٦) وقد أنكر بعض المالكية وابن حزم أن يكون هناك حمل أكثر من تسعة أشهر، فقال ابن حزم: (... ولا يجوز أن يكون حمل أكثر من تسعة أشهر ولا أقلّ من ستة أشهر.. فمن ادعى أن حملًا وفصالًا يكون في أكثر من ثلاثين شهرًا، فقد قال بالباطل والمحال وردَّ كلام الله عزَّ وجلَّ جهارًا).
وبعد أن ذكر جملة أخبار وقصص تشير إلى أنه قد يكون أكثر من ستة أشهر، قال: (وكل هذه أخبار مكذوبة راجعة إلى من لا يُصَدَّق ولا يُعرف من هو، ولا يجوز الحكم في دين الله تعالى بمثل هذا. وممن رُوي عنه مثل قولنا: عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، فهو يقول: أيما رجل طلق امرأته فحاضت حيضة أو حيضتين ثم قعدت فلتجلس تسعة أشهر حتى يستبين حملها، فإن لم يَسْتَبِنْ حملها في تسعة أشهر فلتعتدَّ بعد التسعة الأشهر ثلاثة أشهر عدة التي قعدت عن المحيض. فهذا عمر لا يرى الحمل أكثر من تسعة أشهر، وهو قول محمد بن عبد الله بن عبد الحكم وأبي سليمان وأصحابنا.
=

عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾

﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ أي: بتقديرٍ وَحَدٍّ لا يجاوزه ولا يقصر عنه.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي كل شيء دونه ﴿ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ المستعلي على كل شيء بقدرته.

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ أي: يستوي في علم الله المُسِرُّ بالقول والجاهر به ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾ أي: مستتر بظلمة الليل ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ أي: ذاهب في سربه ظاهر.

والسَّرْب ـ بفتح السين وسكون الراء ـ: الطريق[1].

قال القتيبي: «وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ»، أي: متصرف في حوائجه.

قال ابن عباس (في هذه الآية)[2]: هو صاحب ريبة، مستخفٍ بالليل، فإذا خرج بالنهار أرى الناس أنه بريء من الإثم[3].

وقيل: «مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ»، أي: ظاهر، من قولهم: خفيت الشيء؛ إذا أظهرته، وأخفيته: إذا كتمته، «وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ»، أي: متوارٍ داخل في سرب.

= قال علي ـ ابن حزم ـ: إلا أن الولد قد يموت في بطن أمه فيتمادى بلا غاية حتى تلقيه متقطعًا في سنين، فإن صح هذا فإنه حمل صحيح لا تنقضي عدتها إلا بوضعه كله . . .).

وهذا الذي انتصر له ابن حزم هو الذي عليه الأطباء، فلا يزيد الحمل عندهم عن شهر بعد موعده، وإلا لمات الجنين في بطن أمه، ويعتبرون ما زاد عن ذلك نتيجة خطأً في الحساب، وأما ما يحكى عن مولودين لسنوات بعد الحمل، أو أن الحمل عند امرأة استمر لسنوات، فهي ما يسمّونه (الحمل الكاذب) وهي حالة تصيب النساء اللاتي يحشن عن الإنجاب دون أن ينجبن فينتفخ البطن بالغازات وتتوقف العادة الشهرية، وتعتقد المرأة بأنها حامل رغم تأكيد جميع الفحوصات المخبرية والطبية بأنها غير حامل، والله أعلم.

انظر في هذا كله:

«تفسير القرطبي»: (٩/ ٢٨٨ـ٢٨٩)، «أحكام القرآن» لابن العربي: (٣/ ١١٠٩)، «الدر المنثور»: (٤/ ٦٠٩)، وقارن بـ: «المحلى» لابن حزم: (١٠/ ٣١٦ـ٣١٨)، «خلق الإنسان بين الطب والقرآن» للدكتور محمد علي البار: ص٤٥٢ـ٤٥٤).

(١) اختلف أهل العلم بكلام العرب في «السّرب»، فقال بعضهم: (هو آمن في سَرْبه) بفتح السين، وقال بعضهم: (هو آمن في سِرْبه) بكسر السين.
انظر «الطبري»: (١٦/ ٣٦٧).

(٢) ساقط من «ب».

(٣) الطبري: (١٦/ ٣٦٧).

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ﴾ أي: لله تعالى ملائكة يتعاقبون فيكم بالليل والنهار، فإذا صعدت ملائكة الليل جاء في عقبها ملائكة النهار، وإذا صعدت ملائكة النهار جاء في عقبها ملائكة الليل.

والتعقيب: العود بعد البدء، وإنما ذكر بلفظ التأنيث؛ لأن واحدها معقِّب، وجمعه معقِّبة، ثم جمع الجمع معقِّبات، كما قيل: ابناوات[1] سعد ورجالات بكر.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، عن مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «يَتَعَاقَبُون فيكم، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاةِ الفجرِ وصلاةِ العصر، ثم يَعْرُجُ الذين بَاتُوا فيكم، فيسألُهم ربهم ـ وهو أعلم بهم ـ: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلُّون وأتيناهم وهم يصلُّون»[2].

قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ يعني: من قدام هذا المستخفي بالليل والسارب بالنهار، ومن خلفه: من وراء ظهره ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ يعني: بأمر الله، أي: يحفظونه بإذن الله تعالى ما لم يجي المقدور، فإذا جاء المقدور خلوا عنه.

وقيل: «يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ»، أي: مما أمر الله به من الحفظ عنه.

قال مجاهد: ما من عبد إلا وله ملك موكَّل به، يحفظه في نومه ويقظته من الجنّ والإنس والهوامّ، فما منهم شيء يأتيه يريده إلا قال: وراءك! إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه.

قال كعب الأحبار: لولا أن الله عزَّ وجلَّ وكَّل بكم ملائكة يَذُبُّون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطَّفكم الجن.

---

(١) في «ب»: (ابناوات)، وصححها الشيخ محمود شاكر في الطبري: (سادات سعد)، يقال: (سيد) و(سادة) و(سادات).

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر: (٢/ ٣٣) وفي بدء الخلق، ومسلم في المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما برقم٦٣٢: (١/ ٤٣٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (٢/ ٢٢٦).
قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٢/ ٣٤): (قال القرطبي: الواو في قوله «يتعاقبون» علامة الفاعل المذكَّر المجموع على لغة بلحارث وهم القائلون: أكلوني البراغيث، ومنه قول الشاعر: «بحوران يعصرون السليط أقاربه»، وهي لغة فاشية، وعليها حمل الأخفش قولَه تعالى: ﴿لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى﴾ قال: وقد تعسف بعض النحاة في تأويلها وردِّها للبدل، وهو تكلُّف مستغنى عنه، فإن تلك اللغة مشهورة ولها وجه من القياس واضح . . .).

وقال عكرمة: الآية في الأمراء وحرسهم يحفظونهم من بين أيديهم ومن خلفهم[١].

وقيل: الآية في المَلَكَيْن القاعِدَيْن عن اليمين والشمال يكتبان الحسنات والسيئات، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾[ق: ١٧].

قال ابن جريج: معنى ﴿يَحْفَظُونَهُ﴾، أي: يحفظون عليه أعماله من أمر الله، يعني: الحسنات والسيئات.

وقيل: الهاء في قوله «له» راجعة إلى رسول الله ﷺ:

روى جوْيبر عن الضحاك عن ابن عباس أنه قال: ﴿لَهُ مُعَقِّبَٰتٌ﴾، يعني: لمحمد ﷺ حراس من الرحمن من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله، (يعني: من شر الجن)[٢] وطوارق الليل والنهار[٣].

وقال عبد الرحمن بن زيد: نزلت هذه الآيات في عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة، وكانت قصتهما على ما روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال:

أقبل عامر بن الطفيل وأربد من ربيعة، وهما عامريان، يريدان رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد في ١/١٨٩ نفر من أصحابه، فدخلا المسجد فاستشرف الناس لجمال عامر وكان أعور وكان من أجلِّ[٤] الناس. /

فقال رجل: يا رسول الله، هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك، فقال: دعه فإن يرد الله به خيرًا يهده.

فأقبل حتى قام عليه، فقال: يا محمد، ما لي إن أسلمت؟

قال: «لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين».

قال: تجعل لي الأمر بعدك.

قال: ليس ذلك إليَّ، إنما ذلك إلى الله عزَّ وجلَّ، يجعله حيث يشاء.

قال: فتجعلني على الوبر وأنت على المدر، قال: «لا».

قال: فماذا تجعل لي؟

قال: أجعل لك أعِنة الخيل تغزو عليها.

قال: أوليس ذلك إليَّ اليوم؟ قم معي أكلِّمك، فقام معه رسول الله ﷺ.

---

(١) ورجحه الطبري؛ لأن قوله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ أقرب إلى قوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ﴾ منه إلى ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ فهي لقربها منه أولى بأن تكون من ذكره، وأن يكون المعنيّ بذلك هذا مع دلالة قول الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ على أنهم المعنيون بذلك.
وذلك أنه ـ جلَّ ثناؤه ـ ذكر قومًا أهل معصية له وأهل ريبة، يستخفون بالليل ويظهرون بالنهار، ويمتنعون عند أنفسهم بحرس يحرسهم، ومَنَعَةٍ تمنعهم من أهل طاعته أن يحولوا بينهم وبين ما يأتون من معصية الله، ثم أخبر أن الله ـ تعالى ذكره ـ إذا أراد بهم سوءًا لم ينفعهم حَرَسُهُم، ولا يدفع عنهم حِفْظُهم).
وأما ابن عطية فرجح التأويل الأول، وقال: وعلى كلا التأولين ليست الضمائر لمعيّنين من البشر.
انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٣٧٤)، «المحرر الوجيز» لابن عطية: (٨/ ١٣٧).

(٢) ساقط من «ب».

(٣) هذا التفسير جاء ضمن حديث ابن عباس الآتي في قصة أربد، انظر التعليق التالي.

(٤) في «ب»: (أجمل).

وكان عامر[1] أوصى إلى أربد بن ربيعة إذا رأيتني أكلمه فَدُرْ من خلفه فاضربه بالسيف، فجعل يخاصم رسول الله ﷺ ويراجعه فدار أربد من خلف النبي ﷺ ليضربه، فاخترط من سيفه شبرًا، ثم حبسه الله تعالى عنه، فلم يقدر على سلِّه، وجعل عامر يومىء إليه فالتفت رسول الله ﷺ، فرأى أربد وما صنع بسيفه، فقال: اللهم أكفنيهما بما شئت.

فأرسل الله على أربد صاعقة في يوم صحو قائظ فأحرقته، وولَّى عامر هاربًا وقال: يا محمد، دعوت ربك فقتل أربد، والله لأملأنَّها عليك خيلًا جردًا وفتيانًا مردًا.

فقال النبي ﷺ: «يمنعك الله تعالى من ذلك، وأبناء قيلة» يريد: الأوس والخزرج.

فنزل عامر بيت امرأة سلولية، فلما أصبح ضمَّ عليه سلاحه وقد تغير لونه، فجعل يركض في الصحراء، ويقول: ابرز يا ملك الموت، ويقول الشعر، ويقول: واللات والعزى لئن أبصرت محمدًا وصاحبه يعني: ملك الموت لأنفذنَّهما برمحي، فأرسل الله إليه ملكًا فلطمه بجناحه فأرداه في التراب وخرجت على ركبتيه في الوقت غُدَّة عظيمة، فعاد إلى بيت السلولية وهو يقول: غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية، ثم دعا بفرسه فركبه ثم أجراه حتى مات على ظهره فأجاب الله دعاء رسول الله ﷺ، فقتل عامر بن الطفيل بالطعن وأربد بالصاعقة، وأنزل الله عزَّ وجلَّ في هذه القصة قوله: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۞ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾، يعني: لرسول الله ﷺ معقبات يحفظونه من بين يديه ومن خلفه من أمر الله[2]، (يعني: تلك المعقبات من أمر الله)[1]، وفيه تقديم وتأخير.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٣٧٩ـ٣٨١)، «تفسير القرطبي»: (٩/ ٢٩٦)، «أسباب النزول» للواحدي: ص٣١٤ـ٣١٥، ابن كثير: (٢/ ٥٠٧).

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٢): (رواه الطبراني في «الأوسط» و«الكبير»، وفي إسنادهما عبد العزيز بن عمران: ضعيف).

ورواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ضعيفة.

قال الطبري: وهذا القول الذي قاله ابن زيد في تأويل هذه الآية، قول بعيد من تأويل الآية، مع خلافه أقوال مَنْ ذكرنا قوله من أهل التأويل.

وذلك أنه جعل «الهاء» في قوله: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ من ذكر رسول الله ﷺ، ولم يجرِ له في الآية التي قبلها ولا في التي قبل الأخرى ذِكْرٌ، إلا أن يكون أراد أن يردّها على قوله: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ فإن كان ذلك، فذلك بعيد، لما بينهما من الآيات بغير ذكر الخبر عن رسول الله ﷺ.

وإذا كان ذلك كذلك، فكونها عائدة على «مَنْ» التي في قوله: ﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾ أقربُ؛ لأنه قبلها، والخبر بعدها عنه.

فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: سواء منكم ـ أيها الناس ـ من أسرَّ القول ومن جهر به عند ربكم، ومن هو مستخفٍ بفسقه وريبته في ظلمة الليل، وسارب يذهب ويجيء في ضوء النهار ممتنعًا بجنده وحرسه الذين يتعقبونه من أهل طاعة الله أن يحولوا بينه وبين ما يأتي من ذلك، وأن يقيموا حدَّ الله عليه، وذلك قوله: ﴿ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

وكذلك قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٨/ ١٣٧): (وهذه الآية وإن كانت ألفاظها تنطبق على معنى القصة، فيُضْعِف القولَ أن النبي ﷺ لم يتقدم له ذكر فيعود الضمير في «له» عليه).

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾

وقال لهذين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من العافية والنعمة ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الحال الجميلة فيعصوا ربهم.

﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾ أي عذابًا وهلاكًا ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ أي: لا رادَّ له ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ أي: ملجأ يلجؤون إليه، وقيل: والٍ يلي أمرهم ويمنع العذاب عنهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قيل: خوفًا من الصاعقة، طمعًا في نفع المطر، وقيل: الخوف للمسافر، يخاف منه الأذى والمشقة، والطمع للمقيم يرجو منه البركة والمنفعة، وقيل: الخوف من المطر في غير مكانه وإبَّانه، والطمع إذا كان في مكانه وإبَّانه، ومن البلدان ما إذا أمطروا قحطوا وإذا لم يمطروا أخصبوا.

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ بالمطر، يقال: أنشأ الله السحابة فنشأت، أي: أبداها فبدت، والسحاب جمعٌ، واحدتها: سحابة، قال علي ـ رضي الله عنه ـ: السحاب غربال الماء.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أكثر المفسرين على أن الرعد اسم مَلَكٍ يسوق السحاب، والصوت المسموع منه تسبيحه[1].

قال ابن عباس: من سمع صوت الرعد فقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته، وهو على كل شيء قدير، فإن أصابته صاعقة فعليَّ ديته.

وعن عبد الله بن الزبير: أنه كان إذا سمع صوت الرعد ترك الحديث، وقال: سبحان من يسبح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا الوعيد لأهل الأرض شديد[2].

وفي بعض الأخبار يقول الله تعالى: «لو أن عبادي أطاعوني لسقيتهم المطر بالليل، ولأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولم أُسْمِعْهم صوت الرعد»[3].

---

(١) انظر فيما سبق: (١/ ٢٣).

(٢) انظر: «الأذكار» للنووي: ص١٥٤، «تفسير ابن كثير»: (٢/ ٥٠٦) ففيهما الأذكار التي تقال عند سماع صوت الرعد.

(٣) حديث ضعيف أخرجه أبو داود الطيالسي في «المسند»: ص٣٣٧، رقم٢٥٨٦، والإمام أحمد في «المسند»: (٢/ ٣٥٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

=

وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: الرعد ملك موكل بالسحاب يصرفه إلى حيث يؤمر، وأن بحور الماء في نقرة إبهامه، وأنه يسبح الله تعالى، فإذا سبح لا يبقى مَلَكٌ في السماء إلا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل القَطْر ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ أي: تسبح الملائكة من خيفة الله عزَّ وجلَّ وخشيته.

وقيل: أراد بهؤلاء الملائكة: أعوان الرعد، جعل الله تعالى له أعوانًا، فهم خائفون خاضعون طائعون.

قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ جمع صاعقة، وهي: العذاب المهلك، ينزل من البرق فيحرق من يصيبه ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ كما أصاب أربد بن ربيعة.

وقال محمد بن علي الباقر: الصاعقة تصيب المسلم وغير المسلم ولا تصيب الذاكر.

﴿وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ﴾ يخاصمون ﴿فِى ٱللَّهِ﴾ نزلت في شأن أربد بن ربيعة حيث قال للنبي ﷺ: ممَّ ربك أمن دُرٍّ أم من ياقوت أم من ذهب؟ فنزلت صاعقة من السماء فأحرقته[1].

وسُئل الحسن عن قوله عزَّ وجلَّ: «وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ...» الآية، قال: كان رجل من طواغيت العرب بعث إليه النبي ﷺ نفرًا يدعونه إلى الله وإلى رسوله.

فقال لهم: أخبروني عن رب محمد هذا الذي تدعونني إليه ممَّ هو؟ من ذهب أو فضة أو حديد أو نحاس؟

فاستعظم القوم مقالته فانصرفوا إلى النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، ما رأينا رجلًا أكفر قلبًا ولا أعتى على الله منه!

فقال: ارجعوا إليه، فرجعوا إليه، فجعل لا يزيدهم على مثل مقالته الأولى، وقال: أُجيب محمدًا إلى رب لا أراه ولا أعرفه؟

فانصرفوا وقالوا: يا رسول الله، ما زادنا على مقالته الأولى وأخبث.

فقال: ارجعوا إليه، فرجعوا، فبينما هم عنده ينازعونه ويدعونه، وهو يقول هذه المقالة إذ ارتفعت سحابة، فكانت فوق رؤوسهم، فرعدت وبرقت، ورمت بصاعقة، فاحترق الكافر، وهم جلوس، فجاؤوا يسعون ليخبروا رسول الله ﷺ، فاستقبلهم قوم من أصحاب النبي ﷺ فقالوا لهم: احترق صاحبكم، فقالوا: من أين علمتم؟ فقالوا: أوحى الله إلى النبي ﷺ: «وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ»[2].

= وصححه الحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٣٤٩)، فتعقبه الذهبي وقال: (صدقة واهٍ)، وهو صدقة بن موسى الدقيقي، صدوق له أوهام. «تقريب».
وساقه ابن الجوزي في «العلل المتناهية»: (٢/ ٣٠٦)، وضعفه الألباني في تعليقه على «مشكاة المصابيح»: (٣/ ١٤٦١).

(١) انظر: «تفسير ابن كثير»: (٢/ ٥٠٧).

(٢) انظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٣١٤، «الدر المنثور» للسيوطي: (٤/ ٦٢٥، ٦٢٦)، «البحر المحيط»: (٥/ ٣٧٥)، ابن كثير: (٢/ ٥٠٧)، وبنحوه عن أنس، أخرجه أبو يعلى والبزار، والطبراني في «الأوسط»، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح غير ديلم بن غزوان، وهو ثقة، وفي رجال أبي يعلى والطبراني علي بن أبي سارة وهو ضعيف. انظر: «مجمع الزوائد»: (٧/ ٤٢).

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾

﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ قال علي ـ رضي الله عنه ـ: شديد الأخذ[1]، وقال ابن عباس: شديد الحول[2]،
١٨٩/ب وقال الحسن: شديد الحقد[3]، وقال مجاهد: شديد القوة[4]، وقال / أبو عبيدة: شديد العقوبة، وقيل: شديد المكر.

والمِحال والمُمَاحلة: المماكرة والمغالبة.

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لله دعوة الصدق.

قال علي ـ رضي الله عنه ـ: دعوة الحق التوحيد[5]، وقال ابن عباس: شهادة أن لا إله إلا الله[5].

وقيل: الدعاء بالإخلاص، والدعاء الخالص لا يكون إلا لله عزَّ وجلَّ[6].

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: يعبدون الأصنام من دون الله تعالى ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ أي: لا يجيبونهم بشيء يريدونه من نفع أو دفع ضر ﴿إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ﴾ أي: إلا كباسط كفيه ليقبض على الماء (والقابض على الماء)[7] لا يكون في يده شيء، ولا يبلغ إلى فيه منه شيء، كذلك الذي يدعو الأصنام، وهي لا تضر ولا تنفع، لا يكون بيده شيء.

وقيل: معناه: كالرجل العطشان الذي يرى الماء من بعيد، فهو يشير بكفه إلى الماء، ويدعوه بلسانه، فلا يأتيه أبدًا، هذا معنى قول مجاهد.

ومثله عن علي وعطاء: كالعطشان الجالس على شفير[8] البئر، يمد يده إلى البئر فلا يبلغ قعر البئر إلى الماء، ولا يرتفع إليه الماء، فلا ينفعه بسط الكف إلى الماء ودعاؤه إليه، ولا هو يبلغ فاه كذلك الذين يدعون الأصنام لا ينفعهم دعاؤهم، وهي لا تقدر على شيء.

---

(١) أخرجه الطبري: (١٦/ ٣٩٦)، وقال الشيخ محمود شاكر (١٦/ ٣٩٢): وهذا إسناد منكر.

(٢) الطبري: (١٦/ ٣٩٦).

(٣) نسبه السيوطي لأبي الشيخ عن عكرمة «الدر المنثور»: (٤/ ٦٢٧)، وأخرج الطبري عن عكرمة قال: ما أصاب أربد من الصاعقة.
وأخرج الطبري أيضًا عن الحسن في تفسير الآية: يعني الهلاك، قال: إذا محل فهو شديد.
وما إخال هذا التفسير الذي ذكره المصنف يصح عن الحسن رحمه الله لأننا وجدنا خلافه في الطبري، والله سبحانه وتعالى لا يليق وصفه بهذا، والله أعلم.

(٤) انظر: الطبري: المرجع السابق.

(٥) الطبري: (١٦/ ٣٩٨).

(٦) وهذه المعاني كلها متقاربة وليس بينها اختلاف. (٧) ساقط من «أ». (٨) في «أ»: (شفة).

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾

وعن ابن عباس: كالعطشان إذا بسط كفيه في الماء لا ينفعه ذلك ما لم يغرف بهما الماء، ولا يبلغ الماء فاه ما دام باسطًا كفيه، وهو مثلٌ ضربه لخيبة الكفار[1].

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أصنامهم ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ يضل عنهم إذا احتاجوا إليه، كما قال: «وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ»[الأنعام: ٢٤] وغيرها.

وقال الضحاك عن ابن عباس: وما دعاء الكافرين ربهم إلاَّ في ضلال؛ لأن أصواتهم محجوبة عن الله تعالى.

قوله عزَّ وجل: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا﴾ يعني: الملائكة والمؤمنين ﴿وَكَرْهًا﴾ يعني: المنافقين والكافرين الذين أكرهوا على السجود بالسيف.

﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ يعني: ظلال الساجدين طوعًا وكرهًا تسجد لله عزَّ وجلَّ طوعًا.

قال مجاهد: ظل المؤمن يسجد طوعًا وهو طائع، وظل الكافر يسجد طوعًا وهو كاره.

﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ يعني: إذا سجد بالغدو أو العشي يسجد معه ظله.

«وَٱلْآصَالِ ۩»: جمع الأُصُل، والأُصُل جمع الأصيل، وهو ما بين العصر إلى غروب الشمس.

وقيل: «ظلالهم»، أي: أشخاصُهم، بـ «الغدو والآصال»: بالبُكَرِ والعَشَايا.

وقيل: سجود الظل: تذليله لما أُرِيدَ له.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقُهما ومدبِّرهما (فسيقولون الله)[2] لأنهم يقرُّون بأنَّ الله خالقهم وخالق السموات والأرض، فإذا أجابوك فقُل أنت أيضًا يا محمد: «الله».

ورُوي أنه لما قال هذا للمشركين عطفوا عليه فقالوا: أَجِبْ أنت، فأمرهُ الله عزَّ وجلَّ فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾.

---

(١) قال الطبري (١٦/ ٣٩٩): والعرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلًا، بالقابض على الماء، قال بعضهم:

فإنّي وإيَّاكم وشوقًا إليكُمُ ... كقابضِ ماءٍ لم تَسِقْهُ أنامِلُه

وقوله: «لم تَسِقْه» من وسقت الشيء أسقه وسقًا: إذا حملته.

(٢) ما بين القوسين ساقط من «ب».

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

ثم قال الله لهم إلزامًا للحجة: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ معناه: إنكم مع إقراركم بأن الله خالق السموات والأرض اتخذتم من دونه أولياء فعبدتموها من دون الله، يعني: الأصنام، وهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ فكيف يملكون لكم؟

ثم ضرب لهم مثالاً فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر «يستوي» بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء؛ لأنه لا حائل بين الاسم والفعل المؤنث ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ أي: كما لا يستوي الظلمات والنور لا يستوي الكفر والإيمان.

﴿أَمْ جَعَلُوا﴾ أي: جعلوا ﴿لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: اشتبه ما خلقوه بما خلقه الله تعالى فلا يدرون ما خلق الله وما خلق آلهتهم.

﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾.

ثم ضرب الله تعالى مثلين للحق والباطل، فقال عزَّ وجلَّ:

﴿أَنزَلَ﴾ يعني: الله عزَّ وجلَّ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يعني: المطر ﴿فَسَالَتْ﴾ من ذلك الماء ﴿أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ أي: في الصغر والكبر ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ﴾ الذي حدث من ذلك الماء ﴿زَبَدًا رَّابِيًا﴾ الزَّبَد: الخَبَثُ الذي يظهر على وجهِ الماءِ، وكذلك على وجه القِدْر، «رَّابِيًا»، أي: عاليًا مرتفعًا فوق الماء، فالماء الصَّافي الباقي هو الحق، والذاهب الزائل الذي يتعلق بالأشجار وجوانب الأودية هو الباطل.

وقيل: قوله: «أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً» هذا مَثَلٌ للقرآن، والأودية مَثَلٌ للقلوب، يريد: ينزل القرآن، فتحمل منه القلوب على قدر اليقين والعقل والشكِّ والجهل، فهذا أحدُ المَثَلَيْن.

والمثل الآخرُ: قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾.

قرأ حمزة والكسائي وحفص «يُوقِدُونَ» بالياء لقوله تعالى: «مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ»، ولا مخاطبة هاهنا.

وقرأ الآخرون بالتاء «وَمِمَّا تُوقِدُونَ»، أي: ومن الذي توقدون عليه في النار.

والإيقاد: جعل النار تحت الشيء ليذوب.

﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ أي: لطلب زينة، وأراد الذهبَ والفضةَ؛ لأن الحلية تُطلبُ منهما ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ أي: طلب متاع، وهو ما ينتفع به، وذلك مثل: الحديد والنحاس والرصاص والصُّفْر، تُذاب فيتخذ منها الأواني وغيرها مما ينتفع بها ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾.

لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: إذا أُذيبَ فله أيضًا مثل زبد الماء، فالباقي الصافي من هذه الجواهر مثل الحق، والزبد الذي لا ينتفع به مثل الباطل.

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ الذي علا السيل والفِلِزّ ﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ أي: ضائعًا باطلًا، والجفاء: ما رمى به الوادي من الزَّبَد، والقِذَرُ إلى جنباته. يقال: جفا الوادي وأجْفأ: إذا ألقى غُثاءَهُ، وأَجْفَأَتِ القِدْر وجَفَأت: إذا غَلَتْ وألقَت زَبَدها، فإذا سكنت لم يبق فيها شيء.

معناه: أن الباطل وإن علا في وقتٍ فإنه يضمَحِلُّ.

وقيل: «جُفَآءً»، أي: متفرقًا، يقال: جفأتِ الريحُ الغيمَ إذا فرّقَته وذهبَت به.

﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ يعني: الماء والفلز من الذهب والفضة والصفر والنحاس ﴿فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يبقى ولا يذهبُ.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ جعل الله تعالى هذا مثلًا للحق والباطل، أي: أنَّ الباطل كالزبد يذهبُ ويضيع، والحقّ كالماء والفلز يبقى في القلوب.

وقيل: هذا تسلية للمؤمنين، يعني: أنَّ أمر المشركين كالزبدِ يُرى في الصورةِ شيئًا وليس له حقيقة، وأمرُ المؤمنين كالماءِ المستقرِّ في مكانه له البقاءُ والثبات.

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ أجابوا الربهم، فأطاعوه ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الجنة ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ أي: لبذلوا ذلك يوم القيامة افتداءً من النار ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ قال إبراهيم النخعي: «سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ» أي: يحاسبَ الرجلُ بذنبه كلّه لا يغفر له من شيء / ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾ الفِراش، أي: بئس ما مُهِد لهم. ١٩٠/أ

قوله تعالى: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ فيؤمن به ويعمَلُ بما فيه ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ عنه، لا يعلمُه ولا يعملُ به.

قيل: نزلت في حمزة وأبي جهل، وقيل: في عمَّار وأبي جهل[1].

فالأول حمزة أو عمَّارٌ، والثاني: أبو جهل، وهو الأعمى.

---

(١) ذكر ذلك ابن عية في «المحرر الوجيز»: (٨/ ١٦٠)، ثم قال: (وهي ـ بعد هذا ـ مثال في جميع العالم).

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾

أي: لا يستوي من يُبصر الحق ويتبعُه ومن لا يُبصرُه ولا يتبعُهُ.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ يتعظ ﴿أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ ذوو العقول.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ بما أمرهم الله تعالى به وفَرَضَهُ عليهم فلا يُخالفونه ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾ وقيل: أراد العهدَ الذي أخذه على ذرية آدمَ عليه السلام حين أخرَجهم من صُلبه.

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ قيل: أراد به: الإيمان بجميع الكتب والرسل ولا يفرقون بينهما. والأكثرون على أنه أرادَ به[(١)]: صِلَةَ الرَّحِم[(٢)].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد ابن عبد الجبار الرَّياني، حدثنا حميد بن زنجويه، حدثنا ابن أبي شيبة، حدثنا سُفيان بن عُيينة، عن الزهريِّ، عن أبي سلمة أنَّ عبد الرحمن بن عوف عادَ أبا الدَّرداء فقال ـ يعني: عبد الرحمن ـ: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول فيما يحكي عن ربِّه عزَّ وجلَّ: «أنا اللهُ، وأنا الرحمن، وهي الرَّحِمُ، شققت لها من اسمي اسمًا، فمن وصلها وصَلْتُه، ومن قطعَها بَتَتُّه»[(٣)].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنبأنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الرَّيَّاني، حدثني حميد بن زنجويه، حدثنا بن أبي أويس[(٤)] قال: حدثني سليمان بن بلال، عن معاوية بن أبي مُزَرِّد، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «خلق الله الخلق فلما فرغ منه قامت الرَّحِمُ فأخذت بِحَقْوَيِ الرَّحمنِ، فقال: مَهْ، قالت: هذا مقامُ العائذ بك من القطيعة، قال: ألا ترضين أن أَصِلَ

---

(١) جملة (أراد به) ساقطة من «ب».

(٢) ولم يذكر الطبري غيره، وأما ابن عطية فقال: (ووَصْل ما أمر الله به أن يُوصل، ظاهِرةٌ في القرابات، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات). «المحرر الوجيز»: (٨/ ١٦٠).
وعلى ذلك فيدخل في معنى الآية أيضًا الإيمان بجميع الكتب والرسل وسائر ما يجب الإيمان به.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»: (٨/ ٥٣٦)، وعبد الرزاق في «مصنفه»: (١١/ ١٧٢)، وأخرجه أبو داود في الزكاة، باب صلة الرحم: (٢/ ٢٦٢)، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في قطيعة الرحم: (٦/ ٣٣)، وقال: حديث صحيح، قال المنذري: وفي تصحيحه نظر فإن يحيى بن معين قال: أبو سلمة بن عبد الرحمن لم يسمع من أبيه شيئًا، وذكر غيره أن أبا سلمة وأخاه لهما سماع من أبيهما.
وصححه الحاكم في «المستدرك»: (٤/ ١٥٧ ـ ١٥٨)، وابن حبان: ص٤٩٨ ـ ٤٩٩ من «موارد الظمآن»، وأخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (١/ ١٩٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٢٢). وانظر: «مجمع الزوائد»: (٨/ ١٤٩).

(٤) في «ب»: (أويس).

من وصلك وأقطعَ من قطعكِ؟ قالت: بلى يا ربِّ، قال: فذلك لكِ»، ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[1] [محمد: ٢٢].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنبأنا أبو منصور السَّمعانيُّ، أنبأنا أبو جعفر الريَّاني، حدثنا حميد بن زنجَويه، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا كثير بن عبد الله اليشكري، حدثنا الحسن بن عبد الرحمن بن عوف، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «ثلاثةٌ تحت العَرْشِ يوم القيامة: القرآنُ يُحاجُّ العباد له ظهرٌ وبطنٌ، والأمانةُ، والرَّحِمُ تنادي: ألاَ مَنْ وصَلني وصله الله، ومَنْ قطعني قطعَه الله»[2].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنبأنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الريَّاني، أخبرنا حميد بن زنجويه، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني الليث بن سعد، حدثني عُقيلٌ، عن ابن شهاب، أخبرني أنس ابن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «من أحبَّ أن يُبسَطَ له في رزقه وينسأَ له في أثره فليصلْ رحمه»[3].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا عبد الرحمن بن أبي شرُيح، أخبرنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي، حدثنا علي بن الجعد، حدثنا شعبة، عن عُيينة بن عبد الرحمن قال: سمعت أبي يحدِّث عن أبي بكر عن النبي ﷺ قال: «ما مِنْ ذَنْبٍ أحرى أن يعجِّل الله لصاحبه العقُوبَة في الدنيا مع ما يدَّخِرَ له في الآخرة من البغي وقطيعةِ الرَّحِمِ»[4].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب من وصل وصله الله: (١٠/ ٤١٧)، وفي التفسير أيضًا، وأخرجه مسلم في البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها برقم٢٥٥٤: (٤/ ١٩٨٠ ـ ١٩٨١)، وليس فيه: «فأخذت بحقوي الرحمن»، وفي بعض الروايات «بحقو الرحمن»، وفي بعضها «بحجزة الرحمن». انظر: «فتح الباري»: (١٠/ ٤١٧ـ٤١٨).
وأخرجه المصنف بهذا اللفظ في «شرح السنة»: (١٣/ ٢١)، ثم قال: (قيل في معنى التعلُّق بحقْو الرحمن: إنه الاستجارة والاعتصام بالله سبحانه وتعالى، يقال: عُذْت بحقْو فلان: إذا استجرت به.
وقيل: الحقو: الإزار، وإزاره: عزُّه، ولاذت الرحم بعزِّه من القطيعة، كما جاء في الحديث في دعاء المشتكي: «أعوذ بعز الله من شرِّ ما أجد» أخرجه مالك وأبو داود والترمذي وابن ماجه).

(٢) أخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٢٢ـ٢٣)، ونسبه السيوطي في «الجامع الصغير» للحكيم الترمذي في «نوادره»، ومحمد بن نصر في «فوائده».
قال المناوي في «فيض القدير» (٣/ ٣١٧): (وفيه كثير بن عبد الله اليشكري، متكلَّم فيه)، وقال الذهبي في «الميزان» (٣/ ٤٠٩): (كثير بن عبد الله عن الحسن بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه وعنه عن مسلم بن إبراهيم، قال العقيلي: لا يصح إسناده) وذكر له هذا الحديث.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب من بسط له في الرزق لصلة الرحم: (١٠/ ٤١٥)، ومسلم في البر والصلة، باب صلة الرحم برقم٢٥٥٧: (٤/ ١٩٨٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ١٨ ـ ١٩). وقوله: «يُنسأ في أثره» معناه: يؤخر في أجله، يقال: نسأ الله في عمرك، وأنسأ عمرك، والأثر هاهنا: آخر العمر، وسمي الأجل أثرًا؛ لأنه يتبع العمر.

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في النهي عن البغي: (٧/ ٢٢٥)، والترمذي في صفة القيامة، باب انظروا إلى من أسفل منكم: (٧/ ٢١٣ـ ٢١٤، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، وابن ماجه في الزهد، باب البغي برقم٤٢١١: (٢/ ١٤٠٨)، وصححه الحاكم في «المستدرك»: (٤/ ١٦٣)، وأخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ٣٨)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٢٦).

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو الحسين بن بشْران، أخبرنا إسماعيل بن محمد الصَّفار، أخبرنا أحمد بن منصور الزيادي، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنَّةَ قاطعٌ»[(١)].

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي، حدثنا أحمد بن إسحاق الصيدلاني، أخبرنا أبو نصر أحمد بن محمد بن نصر، حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين، حدثنا عمرو بن عثمان قال: سمعت موسى بن طلحة يذكر عن أبي أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ أن أعرابيًا عرض لرسول الله ﷺ في مسير له فقال: أخبرني بما يقربني من الجنَّة ويباعدني من النار، قال ﷺ: «تعبدُ الله، لا تشركُ به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم»[(٢)].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو منصور السمعاني، حدثنا أبو جعفر الرياني، حدثنا حميد بن زنجويه، حدثنا أبو يعلى وأبو نُعيم قالا: حدثنا فطر، عن مُجاهد، عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الواصلُ بالمكافىء، ولكنَّ الواصلَ الذي إذا قُطِعَتْ رَحِمُه وَصَلَها»[(٣)]، (رواه محمد بن إسماعيل، عن محمد بن كثير، عن سُفيان، عن فطر، وقال: إذا قطعت رحمه وصلها)[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على طاعة الله، وقال ابن عباس: على أمر الله عزَّ وجلَّ، وقال عطاء: على المصائب والنوائب، وقيل: عن الشهوات، وقيل: عن المعاصي.

﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ طلب تعظيمه أن يخالفوه.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعني: يؤدُّون الزكاة.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ رُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: يدفعون بالصالح من العمل السيءَ من العمل، وهو معنى قوله: «﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾»[هود: ١١٤].

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب إثم القاطع: (١٠/ ٤١٥)، ومسلم في البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها برقم٢٥٥٦: (٤/ ١٩٨١)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٢٦).

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب وجوب الزكاة: (١٣/ ٢٦١)، ومسلم في الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يُدْخِل الجنة برقم١٣: (١/ ٤٢ ـ ٤٣)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ٢١).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب ليس الواصل بالمكافىء: (١٠/ ٤٢٣)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٣٠).

(٤) ما بين القوسين ساقط من «ب».

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾

وجاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إذا عملتَ سيئةً فاعملْ بجنبها حسنةً تمحها، السّرُّ بالسّرِّ والعلانيةُ بالعلانية»(١).

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أنبأنا محمد بن أحمد بن الحارث، أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنبأنا عبد الله بن محمد، أنبأنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن ابن لهيعة، حدثني يزيد بن أبي حبيب، حدثنا أبو الخير أنه سمع عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجلٍ كانت عليه درعٌ ضيّقةٌ قد خنقته، ثم عَمِل حسنة، فانفكّت عنه حلقة، ثم عمل أخرى فانفكت أخرى، حتى يخرج إلى الأرض»(٢).

وقال ابن كيسان: معنى الآية: يدفعون الذنب بالتوبة.

وقيل: لا يكافئون الشّرَّ بالشّرِّ، ولكن يدفعون الشّرَّ بالخير.

وقال القتيبي: معناه: إذا سُفِهَ عليهم حَلِمُوا، فالسفهُ: السَّيئةُ، والحلمُ: الحسنة.

وقال قتادة: ردوا عليهم معروفًا، نظيره قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾[الفرقان: ٦٣].

وقال الحسن: إذا حُرِمُوا أعطوا، وإذا ظُلِمُوا عفَوْا، وإذا قُطِعُوا وصلوا.

قال عبد الله بن المبارك: هذه ثمان خلال مشيرةٌ إلى ثمانية أبواب الجنة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝٢٢﴾ يعني: الجنة، أي: عاقبتهم دار الثواب، ثم بيَّن ذلك فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ بساتين إقامة / ﴿يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝٢٣﴾ قيل: ١٩٠/ب من أبواب الجنة، وقيل: من أبواب القصور.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ أي: يقولون: سلام عليكم.

وقيل: يقولون: سلمكم الله من الآفات التي كنتم تخافونَ منها.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد: (٥/١٦٩)، قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٨١): (رواه أحمد ورجاله ثقات إلا أن شهر بن عطية حدّث به عن أشياخه عن أبي ذر، ولم يسمِّ أحدًا).
وروى الإمام أحمد عن عطاء مرسلًا في «الزهد»: «إذا عملت سيئة فأحدث عندها توبة: السرّ بالسر، والعلانية بالعلانية».
قال العراقي: وفيه انقطاع. انظر: «فيض القدير»: (١/ ٤٠٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٤/ ١٤٥)، وعزاه الهيثمي للطبراني، وقال: (وأحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٣٣٩)، وفيه ابن لهيعة.
وانظر: «مجمع الزوائد»: (١٠/ ٢٠١ـ٢٠٢)، «فيض القدير» للمناوي: (٢/ ٥٢٠).

﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِى الْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾

قال مقاتل: يدخلون عليهم في مقدار يوم وليلة من أيام الدنيا ثلاث كرَّات، معهم الهدايا والتحف من الله عزَّ وجلَّ، يقولون: سلام عليكم ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أخبرنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث، أخبرنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي، أخبرنا عبد الله بن محمود، أخبرنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، حدثنا عبد الله ابن المبارك، عن بقية بن الوليد، حدثني أرطاة بن المنذر قال: سمعت رجلًا من مشيخة الجند يقال له: أبو الحجاج يقول: جلستُ إلى أبي أُمامة فقال: إن المؤمن ليكون مُتكئًا على أريكته إذا دخل الجنة، وعنده سِمَاطَان من خَدَم، وعند طرف السِّماطين باب مبوَّبٌ[1].

فيُقْبِلُ مَلَك من ملائكة الله يستأذن، فيقوم أقصى الخدم[2] إلى الباب، فإذا هو بالمَلَك يستأذن، فيقول للذي يليه: ملك يستأذن ويقول الذي يليه للذي يليه ملك يستأذن كذلك حتى يبلغ المؤمن، فيقول: ائذنوا له، (فيقول أقربهم إلى المؤمن)[3]: ائذنوا له، (ويقول الذي يليه للذي يليه: ائذنوا له)[3]، كذلك حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب، فيُفتح له فيدخل، فيسلم ثم ينصرف[4].

﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ هذا في الكفار ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ أي: يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض، وقيل: يقطعون الرَّحم[5] ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ﴾ أي: يعملون بالمعاصي ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ يعني: النار، وقيل: سوء المنقلب؛ لأن منقلب الناس دُورُهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يُوَسِّع على من يشاء ويُضيِّقُ على من يشاء.

---

(١) باب مُبَوَّب: مصنوع معقود، وإن شئت قلت: قد اتخذ له بوابًا يحرسه.

(٢) في «الأصل»: (أدنى الخدم)، والمثبت من «الدر المنثور» والطبري، فهو أليق بالسياق.

(٣) ما بين القوسين من «ب».

(٤) أخرجه ابن جرير: (١٦/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦)، وفيه بقية بن الوليد: صدوق كثير التدليس عن الضعفاء، وقد صرَّح هنا بالتحديث.
ورواه ابن أبي حاتم من حديث إسماعيل بن عياش عن أرطاة بن المنذر عن أبي الحجاج يوسف الألهاني، قال: سمعت أبا أمامة، فذكر نحوه.
انظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٦٤٠)، «تفسير ابن كثير»: (٢/ ٥١٢)، «حاشية الشيخ محمود شاكر على الطبري»: في الموضع السابق.

(٥) انظر فيما سبق تفسير الآية (٢١) من السورة: ص٥٢٤ مع التعليق.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾

﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني: مشركي مكة أَشِروا وَبَطروا، والفرح: لذة في القلب بِنَيْلِ المشتهى، وفيه دليل على أن الفرح بالدنيا حرام.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ أي: قليل ذاهب، قال الكلبي: كمثل السُّكرجةِ والقَصعة والقَدَحِ والقِدرِ ينتفع بها (ثم تذهب)[1].

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أهل مكة ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ (أي: يهدي إليه من يشاء بالإنابة، وقيلَ: يرشدُ إلى دينه من يرجع إليه بقلبه)[2].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في محل النصب، بدلٌ من قوله: «من أَنَابَ» ﴿وَتَطْمَئِنُّ﴾ تسكن ﴿قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ قال مقاتل: بالقرآن، والسُّكون يكون باليقين، والاضطراب يكونُ بالشك ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ تسكن قلوب المؤمنين، ويستقر فيها اليقين.

قال ابن عباس: هذا في الحَلِفِ، يقول: إذا حلف المسلم[3] بالله على شيءٍ تسكن قلوبُ المؤمنينَ إليه[1].

فإن قيل: أليس قد قال الله تعالى: «إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ»[الأنفال: ٢]، فكيف تكونُ الطمأنينةُ والوَجَل في حالةٍ واحدةٍ؟

قيل: الوَجَل عند ذكر الوعيد والعقاب، والطمأنينة عند ذكر الوعد والثواب، فالقلوب توجل إذا ذكر عدل الله وشدة حسابه، وتطمئنُّ إذا ذكرت فضل الله وثوابه[1] وكرمه.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ابتداءٌ ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ خبرُه.

واختلفوا في تفسير «طُوبَىٰ»[4].

رُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: فَرَحٌ لهم وقُرَّةُ عين.

وقال عكرمة: نِعْمَ مالهم، وقال قتادة: حسنى لهم.

---

(١) ساقط من «أ».
(٢) ساقط من «ب».
(٣) في «ب»: (المؤمن).
(٤) انظر في تفسير طوبى، والروايات في: الطبري: (١٦/ ٤٣٤ ـ ٤٤٤)، «الدر المنثور»: (٤/ ٦٤٢ ـ ٦٤٣).

وقال معمرٌ عن قتادة: هذه كلمة عربية، يقول الرجل للرجل: طوبى لك، أي: أصبت خيرًا.

وقال إبراهيم: خير لهم وكرامة.

وقال الفراء: (أصله من الطيب، والواو فيه لضمة الطاءِ، وفيه لغتان، تقول العربُ: طوباك وطوبى لك، أي: لهم الطيب)(١).

﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ۝٢٩﴾ أي: حسن المنقلب.

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: طوبى اسم الجنة بالحبشية.

قال الربيع: هو البستان بلغة الهند.

ورُوي عن أبي أمامة وأبي هريرة وأبي الدرداء قالوا: (طوبى شجرة في الجنة تُظِلُّ الجنانَ كلها.

وقال عبيد بن عمير)(١): هي شجرة في جنة عدن، أصلها في دار النبي ﷺ، وفي كل دار وغرفةٍ غصن منها لم يخلق الله لونًا ولا زهرةً إلا وفيها منها إلا السواد، ولم يخلق الله تعالى فاكهةً ولا ثمرة إلا وفيها منها، تنبع من أصلها عينان: الكافور والسلسبيل.

قال مقاتل: كل ورقة منها تُظِلُّ أمة عليها مَلَكٌ يُسَبِّح الله عزَّ وجلَّ بأنواع التسبيح(٢).

ورُوي عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ ما طوبى؟ قال: «شجرةٌ في الجنة مسيرة مائة سنة، ثيابُ أهل الجنة تخرجُ من أكمامِهَا»(٣).

وعن معاوية بن قُرَّة عن أبيه يرفعُه: «طوبى شجرةٌ غرسها الله تعالى بيده، ونفخَ فيها من رُوحه، تنبت الحُلِيَ والحُلَلَ، وإن أغصانها لتُرى من وراء سُور الجنة»(٤).

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٢) هذه الروايات، وغيرها من الروايات، التي تتضمن زيادات كثيرة عن الحديث الصحيح الذي سيأتي في تفسير «طوبى»، وفيها مبالغات كثيرة، وقد ساقها الطبري، وتعقب بعضها الحافظ ابن كثير رحمه الله هذه الروايات من الإسرائيليات، وحسبنا في تفسير «طوبى» الحديث الصحيح المتفق عليه الذي ساقه المصنف من رواية أبي هريرة رضي الله عنه.
وانظر: «الإسرائيليات والموضوعات» لأبي شهبة: ص٣٢٣ـ٣٢٦.
وأشار ابن عطية في «المحرر الوجيز»: (٨/ ١٦٨) إلى تلك الروايات والمبالغات التي مقتضاها أن هذه الشجرة ليست في الجنة دار إلا وفيها من أغصانها، وأنها تثمر ثياب أهل الجنة، وأن منها الخيل بسُرُجها ولُجُمُها . . . ونحو هذا مما لا يثبت سنده.

(٣) أخرجه الطبري: (١٦/ ٤٤٣ ـ ٤٤٤)، والإمام أحمد في «المسند»: (٣/ ٧١)، وابن حبان برقم٢٦٢٥: ص٦٥٢ من «موارد الظمآن»، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد»: (٤/ ٩١) مطولاً. وانظر: «كنز العمال»: (١٤/ ٤٥٧)، «الدر المنثور»: (٤/ ٦٤٤).
والحديث من رواية درّاج (أبو السَّمح) عن أبي الهيثم عن أبي سعيد، وهو إسناد ضعيف، ونقل الإمام عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه أن درّاجًا روايته منكرة.

(٤) أخرجه الطبري في «التفسير»: (١٦/ ٤٤٣)، وفيه محمد بن زياد الجزري: وهو كذّاب خبيث يضع الحديث، وفرات بن أبي الفرات: قال ابن معين عنه: ليس بشيء. انظر: تعليق الشيخ محمود شاكر في الموضع السابق. =

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾

أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أخبرنا محمد بن أحمد بن الحارث، أخبرنا محمد بن يعقوب الكسائي، أخبرنا عبد الله بن محمود، أنبأنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن زيادٍ مولى بني مخزوم أنه سمع أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ يقول: إنَّ في الجنة لشجرةً يسير الراكبُ في ظلِّها مائة سنةٍ (لا يقطعها)[1]، اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾[الواقعة: ٣٠] فبلغ ذلك[1] كعبًا فقال: صدق والذي أنزل التوراة على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والقرآن على محمد ﷺ، لو أنَّ رجلًا ركب حقة أو جذعة ثم دار بأصل تلك الشجرة ما بلغها حتى يسقط هَرِمًا، إن الله تعالى غرسَها بيده ونفخ فيها من رُوحه، وإنَّ أفنانها لمن وراء سور الجنة، ما في الجنة نهر إلا وهو يخرج من أصل تلك الشجرة[2].

وبهذا الإسناد عن عبد الله بن المبارك، عن معمر عن الأشعث بن عبد الله، عن شهر بن حوشب، عن أبي هريرة قال: في الجنة شجرة يقال لها: طوبى، يقول الله عزَّ وجلَّ لها: تفتَّقِي لعبدي عما شاء فتنفتق له عن فرس بسرجه ولجامِه وهيئتِه كما شاء، يفتق له عن الرَّاحلة برَحلِها وزمامِها وهيئتها[1] كما شاء وعن الثياب[3].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ﴾ كما أرسلنا الأنبياءَ إلى الأمم أرسلناك إلى هذه الأمة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟﴾ لتقرأ ﴿عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

قال قتادة ومقاتل وابن جريج: الآية مدنية نزلت في صُلح الحديبية، وذلك أن سهيل بن عَمرو لمَّا جاء إلى النبي ﷺ واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح فقال رسول الله ﷺ / لعلي ـ رضي الله عنه ـ: اكتبْ ١٩١/أ
«بسم الله الرحمن الرحيم»، قالوا: لا نعرف الرَّحمنَ إلا صاحب اليمامة ـ يعنون: مسيلمةَ الكذَّابَ ـ اكتب كما كنتَ تكتب: «باسمَك اللهم» فهذا معنى قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾[4].

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) عزاه السيوطي بطوله في «الدر المنثور» لعبد بن حميد: (٤/ ٦٤٩)، وقد أخرج عبد بن حميد في «المنتخب»: ص٤٢٤ القطعة الأولى منه، وأخرجه عن أنس: ص٣٥٦.
وأخرج القطعة الأولى منه إلى قوله: «اقرؤوا إن شئتم...»: البخاريُّ في بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة: (٦/ ٣١٩)، ومسلم في الجنة، باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها... برقم٢٨٢٦: (٤/ ٢١٧٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ٢٠٧).

(٣) وأخرجه الطبري: (١٦/ ٤٣٨)، وفيه شهر بن حوشب، وهو ضعيف. وعزاه السيوطي أيضًا: لعبد الرزاق وابن أبي الدنيا وابن المنذر وابن أبي حاتم. انظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٦٤٣).

(٤) أخرجه الطبري: (١٦/ ٤٤٥ـ٤٤٦)، وزاد السيوطي نسبته لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن قتادة، ولابن المنذر عن ابن جريج.
انظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٦٥٠)، «أسباب النزول» للواحدي: ص٣١٥، القرطبي: (٩/ ٣١٧ـ٣١٨)، «البحر المحيط»: (٥/ ٣٩٠).

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾

والمعروف أن الآية مكية، وسبب نزولها: أن أبا جهل سمع النبي ﷺ وهو في الحِجْر يدعُو يا الله يا رحمنُ، فرجع إلى المشركين فقال: إن محمدًا يدعو إلهين، يدعو الله، ويدعو إلهًا آخر يسمى الرحمن، ولا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، فنزلت هذه الآية، ونزل قوله تعالى: «﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾»(1) [الإسراء: ١١٠].

وروى الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنها نزلت في كفَّار قريش حين قال لهم النبي ﷺ: «اسجدوا للرحمن»، قالوا: وما الرحمن(2)؟ قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد، إنَّ الرحمن الذي أنكرتم معرفته ﴿هُوَ رَبِّى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدتُ ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ أي: توبتي ومرجعي.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ...﴾ الآية، نزلت في نفر من مشركي مكة، منهم: أبو جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية، جلسوا خلف الكعبة وأرسلوا إلى النبي ﷺ فأتاهم، فقال له عبد الله ابن أبي أمية: إن سَرَّك أن نتبعك فسيِّرْ جبال مكة بالقرآن فأذهِبْها عنا حتى تنفسح، فإنها أرض ضيقة لمزارعنا، واجعل لنا فيها عيونًا وأنهارًا، لنغرس فيها الأشجار ونزرعَ ونتخذ البساتين، فلستَ كما زعمت بأهون على ربك من داود عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث سخر له الجبال تُسبح معه، أو سخِّرْ لنا الريحَ فنركبَها إلى الشام لميرتنا وحوائجنا ونرجعَ في يومنا، فقد سُخرت الريحُ لسليمانَ كما زعمتَ، ولستَ بأهون على ربك من سُليمان، وأحيي لنا جدَّك قُصَيًّا أو مَنْ شئت من آبائنا وموتانا لنسأله عن أمرك أحقٌّ ما تقول أم باطل؟ فإن عيسى كان يحيي الموتى، ولستَ بأهون على الله منه، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾(3) فأذهبت عن وجه الأرض ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: شققت فجعلت أنهارًا وعُيونًا ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ واختلفوا في جواب «لو»:

---

(1) انظر: «تفسير القرطبي»: (٩/ ٣١٨)، (١٣/ ٦٤)، «البحر المحيط»: (٥/ ٣٩٠).

(2) انظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٣١٥، القرطبي: (٩/ ٣١٨)، «البحر المحيط»: (٥/ ٣٩٠).

(3) انظر: الطبري: (١٦/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠)، «أسباب النزول» للواحدي: ص٣١٦، «تفسير القرطبي»: (٩/ ٣١٨)، «البحر المحيط»: (٥/ ٣٩١)، «الدر المنثور»: (٤/ ٦٥١ ـ ٦٥٣)، «تفسير ابن كثير»: (٢/ ٤١٦).

فقال قوم: جوابه محذوف، اكتفى بمعرفةِ السامعين مرادَه[١]، وتقديره: لكان هذا القرآن، كقول الشاعر[٢]:

فَأُقْسِمُ لَوْ شَيءٌ أَتَانَا رَسُولُه ... سِوَاكَ ولَكِنْ لم نَجِدْ لَكَ مَدْفَعَا

أراد: لرددناه، وهذا معنى قول قتادة قال: لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم.

وقال آخرون: جواب «لو» مقدَّم، وتقدير الكلام: وهم يكفرون بالرحمن «وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ»[٣]، كأنه قال: لو سيرت به الجبال «أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ» لكفروا بالرحمن ولم يؤمنوا، لِما سبقَ من علمنا فيهم، كما قال: «۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟»[الأنعام: ١١١]، ثم قال:

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي: في هذه الأشياء، إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل.

﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ قال أكثر المفسرين: معناه: أفلم يعلم، قال الكلبي: هي لغة النَّخَع[٤].

وقيل: لغة هوازن، يدل عليه قراءة ابن عباس: «أفلم يتبين الذين آمنوا»[٥].

وأنكر الفرّاء أن يكون ذلك بمعنى العلم، وزعم أنه لم يسمع أحدًا من العرب يقول: يئستُ بمعنى: علمتُ، ولكن معنى العلم فيه مضمر[٦].

وذلك أن أصحابَ رسول الله ﷺ لما سمعوا هذا من المشركين طمعوا في أن يفعلَ الله ما سألوا فيؤمنوا فنزل: «أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟»، يعني: الصحابة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ من إيمان هؤلاء، أي: لم ييأسوا علمًا، وكلُّ مَن علم شيئًا يئس من خلافه، يقول: ألم ييئسهم العلمُ: ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٤٤٨ـ٤٤٩)، «البحر المحيط»: (٥/ ٣٩١).

(٢) هو امرؤ القيس، والبيت في «ديوانه»: ص١١٣. وانظر: الطبري: (١٥/ ٢٧٧)، (١٦/ ٤٤٨).

(٣) انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٤٤٦ـ٤٤٧)، «البحر المحيط»: (٥/ ٣٩١).

(٤) انظر: «تفسير الطبري»: (٦/ ٤٥٠، ٤٥٢ـ٤٥٣) مع تعليق الشيخ محمود شاكر.

(٥) الطبري: (١٦/ ٤٥١).

(٦) انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٤٥١ـ٤٥٢).

هذا وقد رجَّح الطبري القول الأول الذي قال عنه البغوي: إنه قول أكثر المفسرين، فقال (١٦/ ٤٥٥): (والصواب من القول في ذلك ما قاله أهل التأويل، أن تأويل ذلك: «أفلم يتبين ويعلم»؛ لإجماع أهل التأويل على ذلك).

فتأويل الكلام إذًا: ولو أن قرآنًا سوى هذا القرآن كان سُيِّرت به الجبال، لسُيِّر بهذا القرآن، أو قطعت به الأرض، لقطعت بهذا، أو كُلِّم به الموتى، لكلِّم بهذا، ولكن لم يُفعل ذلك بقرآن قبل هذا القرآن فيُفعل بهذا «بل لله الأمر جميعًا» يقول: ذلك كله إليه وبيده، يهدي من يشاء إلى الإيمان فيوفِّقه له، ويضل من يشاء فيخذله، أفلم يتبيَّن الذين آمنوا بالله ورسوله إذْ طمعوا في إجابتي من سأل نبيهم ما سأله من تسيير الجبال عنهم، وتقريب أرض الشام عليهم، وإحياء الموتى أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا إلى الإيمان به من غير إيجاد آية ولا إحداث شيء مما سألوا إحداثه؟ يقول تعالى ذكره: فما معنى محبتهم ذلك، مع علمهم بأن الهداية والإهلاك إليَّ وبيدي، أنزلتُ آيةً أو لم أُنزلها، أهدي من أشاء بغير إنزال آية، وأضلّ من أردتُ مع إنزالها).

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾
أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا
يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟﴾ من كفرهم وأعمالهم الخبيثة ﴿قَارِعَةٌ﴾ أي: نازلة وداهية تقرعهم من أنواع البلاء، أحيانًا بالجدب، وأحيانًا بالسلب، وأحيانًا بالقتل والأسر.

وقال ابن عباس: أراد بالقارعة: السرايا التي كان رسول الله ﷺ يبعثهم إليهم.

﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ يعني: السرية والقارعة ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ وقيل: أو تحلُّ، أي: تنزل أنت يا محمد بنفسك قريبًا من ديارهم ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ قيل: يوم القيامة، وقيل: الفتح والنصر وظهور رسول الله ﷺ ودينه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ وكان الكفار يسألون هذه الأشياء على سبيل الاستهزاء، فأنزل الله تسليةً لنبيه ﷺ:

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ كما استهزؤوا بك ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أمهلتهم وأطلت لهم المدة، ومنه «المَلَوانِ» وهما: الليل والنهار ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ عاقبتهم في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالنار ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ أي: عقابي لهم.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: حافظها، ورازقها، وعالم بها، ومجازيها بما عملت، وجوابه محذوف، تقديره: كمن ليس بقائم بل عاجز عن نفسه.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ بيِّنوا أسماءهم، وقيل: صفوهم ثم انظروا هَلْ هي أهل لأن تُعبد؟

﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ أي: تخبرون الله تعالى ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فإنه لا يعلم لنفسه شريكًا ولا في الأرض إلهًا غيره ﴿أَم بِظَـٰهِرٍ﴾ يعني: أم تتعلقون بظاهر ﴿مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ مسموعٍ، وهو في الحقيقة باطل لا أصل له.

وقيل: بباطلٍ من القول، قال الشاعر:

وعَيَّرَنِي الوَاشُونَ أَنِّي أُحِبُّهَا ... وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا

أي: زائل[1].

---

(١) قال أبو منصور في «تهذيب اللغة»: (الشَّكاةُ: توضع موضع العيب والذمّ، وعيَّر رجلٌ عبد الله بن الزبير بأمه، فقال: يا ابن ذات النطاقين، فتمثَّل عبد الله بقول الهُذَليّ: وتلك شكاة . . .
أراد: أن تعيير إياه بأن أُمه كانت ذات النطاقين ليس بعارٍ، ومعنى قوله: «ظاهرٌ عنك عارُها»، أي: نابٍ، أراد: أن هذا ليس عارًا يلزق به =

لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ كيدهم، وقال مجاهد: شركهم وكذبهم على الله.

﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: صرفوا عن الدين.

قرأ أهلُ الكوفة ويعقوب «وصدّوا» وفي حم المؤمن «وصُدّ» بضم الصاد فيهما، وقرأ الآخرون بالفتح لقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ»[الحج: ٢٥]، وقوله: «الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ»[النحل: ٨٨] وغيرها.

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ بخذلانه إيَّاهُ ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أشد ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ مانع يمنعهم من العذاب.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿۞ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: صفة الجنة، كقوله تعالى: «وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ»[النحل: ٦٠]، أي: الصفة العليا ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: صفة الجنة التي وعد المتقون أن الأنهار تجري من تحتها.

وقيل: «مَثَلُ» صلةٌ مجازُها «الجنة التي وُعد المتقون تجري من تحتها الأنهار».

﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ أي: لا ينقطع ثمرها ونعيمها ﴿وَظِلُّهَا﴾ أي: ظلها ظليل، لا يزول، وهو ردّ على الجهمية حيث قالوا: إن نعيم الجنة يفنى[(١)].

﴿تِلْكَ عُقْبَى﴾ أي: عاقبة ﴿الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ يعني: الجنة ﴿وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾﴾.

= وأنه يفتخر بالملك . . .).

انظر: «لسان العرب» لابن منظور: (١٤/ ٤٤٠ ـ ٤٤١).

(١) قال شارح «الطحاوية» عند قول الطحاوي: (والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان . . .) قال ص٤٩١ ـ ٤٩٣: (فأما أبدية الجنة، وأنها لا تفنى ولا تبيد، فهذا مما يعلم بالضرورة أن الرسول ﷺ أخبر به، قال تعالى: ﴿۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي: غير مقطوع.

وقد أكّد الله خلود أهل الجنة بالتأييد في عدة مواضع من القرآن، وأخبر أنهم: ﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾[الدخان: ٥٦].

والأدلة من السنة على أبدية الجنة ودوامها كثيرة، كقوله: «من يدخل الجنة يَنْعم ولا ييأس، ويخلُدُ ولا يموت» رواه مسلم، وقوله: «ينادي منادٍ: يا أهل الجنة، إن لكم أن تصحُّوا فلا تسقموا أبدًا، وأن تشبُّوا فلا تهرموا أبدًا، وأن تحيَوْا فلا تموتوا أبدًا» رواه مسلم.

﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني: القرآن، وهم أصحاب محمد ﷺ ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ﴾ يعني: الكفار الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ، وهم: اليهود والنصارى ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ هذا قول مجاهد وقتادة(١).

١٩١/ب وقال الآخرون: كان ذكر الرحمن قليلًا في القرآن في الابتداء، فلما أسلم / عبد الله بن سلام وأصحابه ساءهم قلة ذكره في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة، فلما كرر الله ذكره في القرآن فرحوا به، فأنزل الله سبحانه وتعالى: «وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ»(٢)، يعني: مشركي مكة حين كتب رسول الله ﷺ في كتاب الصلح: بسم الله الرحمن الرحيم، قالوا: ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون: مسيلمة الكذاب، فأنزل الله عزَّ وجلَّ(٣): «وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ»[الأنبياء: ٣٦]، «وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ»[الرعد: ٣٠].

وإنما قال: «بَعْضَهُ»؛ لأنهم كانوا لا ينكرون ذكر الله وينكرون ذكر الرحمن.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾﴾ أي: مرجعي.

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ يقول: كما أنزلنا إليك الكتابَ يا محمد، فأنكره الأحزاب، كذلك أنزلنا الحكم والدين عربيًا، نُسِبَ إلى العرب؛ لأنه نزل بلغتهم فكذب به الأحزاب.

وقيل: نظم الآية: كما أنزلت الكتبُ على الرسل بلغاتهم، فكذلك أنزلنا عليك الكتاب حكمًا عربيًا.

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ في الملة، وقيل: في القبلة ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ يعني: من ناصر ولا حافظ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ رُوي أن اليهود ـ وقيل: إن المشركين ـ قالوا: إنَّ هذا

---

(١) انظر: الطبري: (١٦/ ٤٧٣)، «الدر المنثور»: (٤/ ٦٥٨).

(٢) ذكره الماوردي واختاره الزمخشري. انظر: «البحر المحيط»: (٥/ ٣٩٦)، «المحرر الوجيز»: (٨/ ١٧٩).

(٣) انظر فيما سبق تفسير الآية (٣٠) من السورة: ص٣١٨.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾

الرجل ليست له همة إلا في النساء، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾[(١)]، وما جعلناهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ هذا جواب عبد الله بن أبي أمية، ثم قال:

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ يقول: لكل أمر قضاهُ الله كتابٌ قد كتبهُ فيه ووقت يقع فيه.

وقيل: لكل آجل أجَّلهُ الله كتابٌ أثبت فيه.

وقيل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، تقديره: أي: لكل كتاب أجلٌ ومدة، أي: الكتب المنزلةُ لكل واحدٍ منها وقت ينزل فيه.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ويعقوب «ويثبتُ» بالتخفيف، وقرأ الآخرون بالتشديد.

واختلفوا في معنى الآية:

فقال سعيد بن جبير وقتادة: يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله، ويثبت ما يشاء منها فلا ينسخه[(٢)].

وقال ابن عباس: يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا الرزق والأجل والسعادة والشقاوة[(٣)].

ورُوينا عن حذيفة بن أَسِيْدٍ عن النبي ﷺ: «يدخُلُ المَلَكُ على النُّطْفَةِ بعدما تستقرُّ في الرَّحِم بأربعين أو خمس وأربعين ليلةً، فيقول: يا ربِّ، أَشَقِيٌّ أم سَعيدٌ؟ فَيُكْتَبَانِ، فيقولُ: أيْ ربِّ، أذكرٌ أم أُنثى؟ فَيُكْتَبَانِ، ويُكْتَبُ عملُه وأثرُه وأجلُه ورزقُه، ثم تُطوى الصحف فلا يُزاد فيها ولا يُنْقَصُ»[(٤)].

وعن عمر وابن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ أنهما قالا: يمحو السعادةَ والشقاوةَ أيضًا، ويمحو الرِّزق والأجلَ ويثبتُ ما يشاء.

ورُوي عن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول: اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها، وإن كنت كتبت عليَّ الشقاوة فامحني وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب. ومثله عن ابن مسعود.

---

(١) رواه الواحدي في «أسباب النزول»: ص٣١٧ عن الكلبي بدون إسناد، وانظر: «تفسير القرطبي»: (٩/ ٣٢٧)، «البحر المحيط»: (٥/ ٣٩٧).

(٢) أخرجه الطبري: (١٦/ ٣٩ـ٤٠).

(٣) انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٤٨٥ ـ٤٨٦)، وسائر الأقوال في تفسير الآية في الصفحات التالية منه، وانظر: «الدر المنثور»: (٤/ ٦٥٩ـ٦٦٥).

(٤) أخرجه مسلم في القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه برقم ٢٦٤٤: (٤/ ٢٠٣٧).

وفي بعض الآثار: أن الرجل يكون قد بقي من عُمُره ثلاثون سنة فيقطع رحمه فترد إلى ثلاثة أيام، والرجل يكون قد بقي من عمره ثلاثة أيام فيصل رحمه فيمدُّ إلى ثلاثين سنةً.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو منصور السمعاني، حدثنا أبو جعفر الرياني، حدثنا حميد بن زنجويه، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني الليث بن سعد، حدثني زيادة بن محمد الأنصاري، عن محمد ابن كعب القرظي، عن فضالة بن عبيد، عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ينزل الله عزَّ وجلَّ في آخر ثلاث ساعات يَبْقَيْنَ من الليل، فينظر في الساعة الأُولى منهنَّ في أُم الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت»[١].

وقيل: معنى الآية: إن الحفظة يكتبون جميع أعمال بني آدم وأقوالهم، فيمحو الله من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثوابٌ ولا عقاب، مثل قوله: أكلت، شربت، دخلت، خرجت، ونحوها من كلام هو صادق فيه، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب، هذا قول الضحاك والكلبي.

وقال الكلبي: يكتب القولَ كله، حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب.

وقال عطية عن ابن عباس: هو الرجل يعمل بطاعة الله عزَّ وجلَّ ثم يعود لمعصيةِ الله فيموت على ضلالة فهو الذي يمحو، والذي يثبت: الرجل يعمل بطاعة الله، فيموت وهو في طاعةِ الله عزَّ وجلَّ فهو الذي يثبت.

وقال الحسن: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾، أي: من جاء أجلُه يذهب به، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ من لم يجيء أجلُهُ إلى أجله.

وعن سعيد بن جبير قال: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من ذنوب العباد فيغفرها، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما يشاء فلا يغفرها.

وقال عكرمة: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من الذنوب بالتوبة، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ بدل الذنوب حسنات، كما قال الله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾[الفرقان: ٧٠]، وقال السدي: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾، يعني: القمر، ﴿وَيُثْبِتُ﴾، يعني: الشمس، بيانه قوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[الإسراء: ١٢].

وقال الربيع: هذا في الأرواح يقبضها الله تعالى عند النوم، فمن أراد موتَه مَحاه[٢] فأمسكه، ومن أراد بقاءه أثبته وردَّه إلى صاحبه، بيانه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا...﴾ الآية[الزمر: ٤٢]

﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ﴿٣٩﴾ أي: أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ الذي لا يبدل ولا يغير.

(١) أخرجه الطبري في «التفسير»: (١٦/ ٤٨٩)، وفيه زيادة بن محمد الأنصاري: منكر الحديث.
قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٥٤ ـ ١٥٥): (رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» والبزار بنحوه، وفيه زيادة بن محمد الأنصاري، وهو منكر الحديث).

(٢) في «ب»: (فجاه).

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾

وقال عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هما كتابان: كتابٌ سوى أم الكتاب، يمحو منه ما يشاء ويثبتُ، وأم الكتاب الذي لا يُغيّر منه شيء.

وعن عطاء، عن ابن عباس قال: إن لله تعالى لوحًا محفوظًا مسيرة خمسمائة عام، من درة بيضاء لها دفتان من ياقوت، لله فيه كل يوم ثلثمائة وستون لحظة «يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ».

وسأل ابن عباس كعبًا عن أم الكتاب؟ فقال: علم الله ما هو خالق، وما خَلْقُه عاملون[1].

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب قبل وفاتك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ ليس عليك إلا ذلك ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ الجزاء يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ يعني: أهل مكة، الذين يسألون محمدًا ﷺ الآيات ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أكثر المفسرين على أن المراد منه فتح ديار[2] الشرك، فإن ما زاد في ديار الإسلام فقد نقص من ديار الشرك، يقول: «أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا» فنفتحها لمحمد أرضًا بعد أرض حوالي أرضهم، أفلا يعتبرون؟ هذا قولُ ابن عباس وقتادة وجماعةٍ[3].

١٩٢/أ وقال قوم: هو خراب / الأرض، معناه: أوَلَمْ يروا أنَّا نأتي الأرض فنخربها، ونُهلك أهلَها، أفلا يخافون أن نفعل بهم ذلك[4]؟.

قال مجاهد: هو خراب الأرض وقبض أهلها[5].

---

(١) ورجح الطبري من هذه الأقوال قول الحسن ومجاهد؛ لأن الله ـ تعالى ذِكره ـ توعّد المشركين الذين سألوا رسول الله ﷺ الآيات بالعقوبة، وتهددهم بها، وقال لهم: ﴿وما كان لرسولٍ أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب﴾ يعلمهم بذلك أن لقضائه فيهم أجلًا مثبتًا في كتاب، هم مؤخَّرون إلى وقت مجيء ذلك الأجل، ثم قال لهم: فإذا جاء ذلك الأجل، يجيء الله بما شاء ممن قد دنا أجله وانقطع رزقه، أو حان هلاكه أو اتضاعه من رفعة أو هلاك مالٍ، فيقضي ذلك في خَلْقه، فذلك مَحْوُه، ويثبت ما شاء ممن بقي أجله ورزقه وأُكُلُه، فيتركه على ما هو عليه فلا يمحوه.

وبهذا المعنى جاء الأثر عن رسول الله ﷺ، ثم ساق حديث أبي الدرداء الذي سبق تخريجه آنفًا. انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٤٨٨ ـ ٤٨٩).

(٢) في «ب»: (بلاد).

(٣) انظر: «الطبري»: (١٦/ ٤٩٣ ـ ٤٩٤).

(٤) الطبري: (١٦/ ٤٩٤).

(٥) انظر: الطبري: (١٦/ ٤٩٥).

وعن عكرمة قال: قبض الناس، وعن الشعبي مثله.

وقال عطاء وجماعة: نقصانها موت العلماء، وذهاب الفقهاء[1].

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا إسماعيل بن أبي أويس، حدثني مالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالمًا اتَّخذ الناس رُؤساءَ جُهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضَلُّوا وأَضَلُّوا»[2].

وقال الحسن: قال عبد الله بن مسعود: موتُ العالم ثلمةٌ في الإسلام لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار[3].

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: عليكم بالعلم قبل أن يُقبض وقَبْضُه ذهابُ أهله[4].

وقال علي ـ رضي الله عنه ـ: إنما مثل الفقهاء كمثل الأكف إذا قطعت كفٌ لم تَعُدْ.

وقال سليمان: لا يزال الناس بخير ما بقي الأول حتى يتعلم الآخِرُ، فإذا هلك الأولُ قبل أن يتعلَّم الآخر هَلَكَ الناس.

وقيل لسعيد بن جبير: ما علامة هلاك النَّاسِ؟ قال: هلاك عُلمائهم[5].

﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ لا رادَّ لقضائه، ولا ناقض لحكمه ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾.

---

(١) «تفسير الطبري»: (١٦/ ٤٩٧)، «الدر المنثور»: (٤/ ٦٦٥ ـ ٦٦٦)، وأخرج الحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٣٥٠) عن ابن عباس في معنى الآية قال: ذهاب علمائها وفقهائها وخيار أهلها.

(٢) أخرجه البخاري في العلم، باب كيف يقبض العلم: (١/ ١٩٤)، ومسلم في العلم، باب رفع العلم وقبضه برقم ٢٦٧٣: (٤/ ٢٠٥٨)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ٤).

(٣) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم»: ص ٢٤٠ عن الحسن.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف»: (١٠/ ٢٥٢)، والطبراني في «الكبير»: (٩/ ١٨٩)، والدارمي في مقدمة «السنن»: (١/ ٥٤)، والخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه»: (١/ ٤٣)، والبيهقي في «المدخل إلى السنن»: ص ٢٧٢، وقال: هذا مرسل، وروي موصولاً من طريق الشاميين. وانظر: تعليق الدكتور محمد الأعظمي في الموضع السابق.

(٥) قال الطبري في «التفسير»: (١٦/ ٤٩٧ ـ ٤٩٨): (وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب قولُ من قال: ﴿أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ بظهور المسلمين من أصحاب محمد ﷺ عليها وقهرهم أهلها، أفلا يعتبرون بذلك، فيخافون ظهورهم على أرضهم وقهرهم إياهم؟ وذلك أن الله توعَّد الذين سألوا رسوله الآيات من مشركي قومه بقوله: ﴿وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾ ثم وبَّخهم ـ تعالى ذكره ـ بسوء اعتبارهم بما يعاينون من فعل الله بضُربائهم من الكفار، وهم مع ذلك يسألون الآيات فقال: ﴿أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ بقهر أهلها، والغلبة عليها من أطرافها وجوانبها، وهم لا يعتبرون بما يرون من ذلك).

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: من قبل مشركي مكة، والمكر: إيصالُ المكروه إلى الإنسان من حيث لا يشعر.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي: عند الله جزاء مكرهم، وقيل: إن الله خالق مكرهم جميعًا، بيده الخيرُ والشرُّ، وإليه النفع والضر، فلا يضر مَكْرُ أحدٍ أحدًا إلا بإذنه.

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ﴾ قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو «الكافر» على التوحيد، وقرأ الآخرون «الكفَّار» على الجمع ﴿لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ أي: عاقبة الدار الآخرة حين يدخلون النار، ويدخل المؤمنون الجنة.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ إني رسوله إليكم ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ يريد: مؤمني أهل الكتاب يشهدون أيضًا على ذلك.

قال قتادة: هو عبدُ الله بن سلام[1].

وأنكر الشعبي هذا وقال: السورة مكية، وعبدُ الله بن سلام أسلم بالمدينة.

وقال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: «وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ» أهو عبد الله بن سلام؟ فقال: وكيف يكون عبد الله بن سلام وهذه السورة مكية[2]؟

وقال الحسن ومجاهد: «وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ» هو الله عزَّ وجلَّ[3]، يدلُّ عليه قراءة عبد الله بن عباس «ومِنْ عِنْدِه» بكسر الميم والدال، أي: من عند الله عزَّ وجلَّ، وقرأ الحسن وسعيد بن جبير «ومِنْ عندِه» بكسر الميم والدال «عُلِمَ الكتاب» على الفعل المجهول[4]، دليل هذه القراءة قوله تعالى: «وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا»[الكهف: ٦٥]، وقوله: «ٱلرَّحْمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ»[الرحمن: ١-٢].

---

(١) أخرجه الطبري عن قتادة: (١٦/ ٥٠٣)، وحكاه أيضًا عن عبد الله بن سلام نفسه، ومجاهد.

(٢) أخرجه الطبري: (١٦/ ٥٠٥، ٥٠٦).

(٣) انظر: الطبري: (١٦/ ٥٠٥، ٥٠٦).

(٤) قال الطبري: (وقد رُوي عن رسول الله ﷺ خبر بتصحيح هذه القراءة وهذا التأويل، غير أنَّ في إسناده نظرًا). ثم ساق حديثًا منقطع الإسناد. انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٥٠٦).

وقال الهيثمي فيه: (رواه أبو يعلى، وفيه سليمان بن أرقم وهو متروك). انظر: «مجمع الزوائد»: (٧/ ١٥٥).

سورة إبراهيم

مكية (وهي إحدى وخمسون)[(١)] آية إلا آيتين من قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[(٢)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾

﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ﴾ أي: هذا كتاب ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ يا محمد، يعني: القرآن ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: لتدعوهم من ظلمات الضلالة إلى نور الإيمان[(٣)] ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ (بأمر ربهم)[(٤)].

وقيل: بعلم ربهم[(٥)].

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ أي: إلى دينه، و«العزيز» هو الغالب، و«الحميد»: هو المستحق للحمد.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٢) أخرج النحاس في «الناسخ والمنسوخ» عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، قال: سورة إبراهيم عليه السلام نزلت بمكة سوى آيتين، وهما ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ...﴾ نزلتا في قتلى بدر من المشركين.
وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وعن الزبير: نزلت سورة إبراهيم عليه السلام بمكة.
قال ابن الجوزي: وهي مكية من غير خلاف علمناه بينهم إلا ما رُوي عن ابن عباس وقتادة. انظر: «الناسخ والمنسوخ» للنحاس: ص٢١٢، «الدر المنثور»: (٥/٣)، «المحرر الوجيز»: (٨/ ١٩٢)، «البحر المحيط»: (٥/ ٤٠٣)، «زاد المسير»: (٤/ ٣٤٣).

(٣) انظر: الطبري: (١٦/ ٥١١ ـ ٥١٢).

(٤) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٥) قال أبو جعفر الطبري في «التفسير» (١٦/ ٥١٢): (وأضاف ـ تعالى ذكره ـ إخراجَ الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم لهم بذلك إلى نبيه ﷺ، وهو الهادي خَلْقَه، والموفق من أحبَّ منهم للإيمان، إذ كان منه دعاؤهم إليه، وتعريفُهم ما لهم فيه وعليهم، فَبَيِّنٌ بذلك صحةُ قولِ أهل الإثبات الذين أضافوا أفعال العباد إليهم كسبًا، وإلى الله جل ثناؤه إنشاءً وتدبيرًا، وفسادُ قولِ أهل القدر الذين أنكروا أن يكون لله في ذلك صُنْعٌ).

ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر «الله» بالرفع على الاستئناف، وخبره فيما بعده.

وقرأ الآخرون بالخفض نعتًا للعزيز الحميد(١).

وكان يعقوب إذا وصل خفض.

وقال أبو عمرو: الخفض على التقديم والتأخير، مجازه: إلى صراط الله العزيز الحميد(٢) ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾(٣).

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ يختارون ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يمنعون الناس عن قبول دين الله ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يطلبونها زيغًا وميلًا، يريد: يطلبون سبيل الله جائرين عن القصد.

وقيل: الهاء راجعة إلى الدنيا، معناه: يطلبون الدنيا على طريق الميل عن الحق، أي: لجهة الحرام ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾(٤).

---

(١) انظر: الطبري: (١٦/ ٥١٢ـ٥١٣).

(٢) قال الطبري (١٦/ ٥١٣ـ٥١٤): (وقد اختلف أهل العربية في تأويله إذا قرىء كذلك:

فذكر عن أبي عمرو بن العلاء أنه كان يقرؤه بالخفض، ويقول: معناه: بإذن ربهم إلى صراط الله العزيز الحميد الذي له ما في السموات.

ويقول: هو من المؤخَّر الذي معناه التقديم، ويمثّله بقول القائل: «مررت بالظريف عبد الله»، والكلام الذي يوضع مكان الاسم النَّعتُ، ثم يُجعل الاسم مكان النعت، فيتبع إعرابُه إعراب النعت الذي وضع موضع الاسم، كما قال بعض الشعراء:

لو كنتُ ذا نَبْلٍ وذا شَزِيبِ ... ما خِفتُ شدّات الخبيثِ الذِّيبِ

وأما الكسائي، فإنه كان يقول فيما ذكر عنه: (من خفض أراد أن يجعله كلامًا واحدًا، وأتبع الخفضَ الخفضَ، وبالخفض كان يقرأ) ثم قال: (والصواب من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان مشهورتان، قد قرأ بكل واحدة منهما أئمة من القراء، معناهما واحد، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب.

وقد يجوز أن يكون الذي قرأ بالرفع أراد معنى مَنْ خفضَ في إتباع الكلام بعضه بعضًا، ولكنه رفع لانفصاله من الآية التي قبله، كما قال جل ثناؤه: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ إلى آخر الآية، ثم قال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ [سورة التوبة: ١١١ـ١١٢].

(٣) قال الطبري (١٦/ ٥١٤): (ومعنى قوله: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الله الذي يملك جميع ما في السموات وما في الأرض. يقول لنبيه محمد ﷺ: أنزلنا إليك هذا الكتاب؛ لتدعو عبادي إلى عبادة مَنْ هذه صفته، ويَدَعُوا عبادةَ من لا يملك لهم ولا لنفسه ضرًّا ولا نفعًا من الآلهة والأوثان، ثم توعَّد جل ثناؤه من كفر به، ولم يستجب لدعاء رسوله إلى ما دعاه إليه من إخلاص التوحيد له، فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ يقول: الوادي الذي يسيل من صديد أهل جهنم، لمن جحد وحدانيته، وعبد معه غيره، من عذاب الله الشديد).

(٤) يعني: هؤلاء الكافرين الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، هم في ذهابٍ عَن الحق بعيدٍ، وأخذٍ على غير هدًى، وجَوْرٍ عن قصد السبيل.

انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٥١٥).

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ﴾ بلغتهم؛ ليفهموا عنه.

فإن قيل: كيف هذا وقد بعث النبي ﷺ إلى كافة الخلق؟

قيل: بُعِث من العرب بلسانهم، والناس تَبَعٌ لهم، ثم بثَّ الرسل إلى الأطراف يدعونهم إلى الله عزَّ وجلَّ ويترجمون لهم بألسنتهم[1].

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: من الكفر إلى الإيمان بالدعوة ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ قال ابن عباس وأبي بن كعب ومجاهد وقتادة: بنعم الله[2].

وقال مقاتل: بوقائع الله في الأمم السالفة، يقال: فلان عالم بأيام العرب، أي: بوقائعهم، وإنما أراد بما كان في أيام الله من النعمة والمحنة، فاجتزأ بذكر الأيام عنها؛ لأنها كانت معلومة عندهم[3].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ و«الصبَّار»: الكثير الصبر، و«الشكور»: الكثير الشكر، وأراد: لكل مؤمن؛ لأن الصبر والشكر من خصال المؤمنين.

---

(١) أورد محمد بن أبي بكر الرازي هذا السؤال مطولاً، وأجاب عنه من وجوه:
الأول: إن نزول القرآن على النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بلسانٍ واحد كافٍ؛ لأن الترجمة لأهل بقية الألسن تغني عن نزوله لجميع الألسن، ويكفي التطويلَ، كما جرى في القرآن العزيز.
الثاني: أن نزوله بلسان واحدٍ أبعد عن التحريف والتبديل، وأسلم من التنازع والخلاف.
الثالث: أنه لو نزل بألسنة الناس وكان معجزًا في كل واحد منهما، وكلَّم الرسولُ العربيُّ كل أمة بلسانها كما كلَّم أمته التي هو منها لكان ذلك أمرًا قريبًا من القسر والإلجاء، وبعثة الرسل لم تُبْنَ على القسر والإلجاء، بل على التمكين من الاختيار، فلما كان نزوله بلسان واحد كافيًا كان أولى الألسنة قوم الرسول؛ لأنهم أقرب إليه وأفهم عنه.
انظر: «مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل» لمحمد بن عبد القادر الرازي الحنفي: ص١٥٧ـ١٥٨.

(٢) انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٥٢٠ـ٥٢٣)، «الدر المنثور»: (٥/ ٦).

(٣) وردَّ الطبري هذا القول والشاهد الذي استشهدوا به على ذلك، وقال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٨/ ٢٠٣): (ولفظة «الأيام» تعم المعنيين؛ لأن التذكير يقع بالوجهين جميعًا).

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾[(١)] ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ قال الفرّاء: العلّة الجالبة لهذه الواو أن الله تعالى أخبرهم أن آل فرعون كانوا يعذبونهم بأنواع من العذاب غير التذبيح، وبالتذبيح، وحيث طرح الواو في «يذّبحون» و«يقتّلون» أراد تفسير العذاب الذي كانوا يسومونهم[(٢)] ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ يتركوهنَّ أحياءً ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾[(٣)].

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي: أعلم، يقال: أذّن وتأذّن بمعنى واحد، مثل: أوْعَدَ وتَوَعّدَ ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ نعمتي فآمنتم وأطعتم ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ في النعمة.

وقيل: الشكر: قيد الموجود، وصيد المفقود.

وقيل: لئن شكرتم بالطاعة لأزيدنكم في الثواب.

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ نعمتي فجحدتموها ولم تشكروها ﴿إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾[(٤)].

---

(١) أخرج الطبري عن ابن عيينة في تفسيرها، قال: أيادي الله عندكم وأيامه.

(٢) وزاد الطبري ذلك بيانًا فقال في «التفسير» (١٦/ ٥٢٤): (وأدخلت الواو في هذا الموضع؛ لأنه أريد بقوله: ﴿ويذبّحون أبناءكم﴾ الخبرُ عن أن آل فرعون كانوا يعذبون بني إسرائيل بأنواع من العذاب غير التذبيح وبالتذبيح. وأما في موضع آخر من القرآن، فإنه جاء بغير الواو: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾[البقرة: ٤٩] في موضع، وفي موضع ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾[الأعراف: ١٤١]، ولم تدخل الواو في المواضع التي لم تدخل فيها؛ لأنه أريد بقوله: ﴿أَبْنَآءَكُمْ﴾ وبقوله: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾: تبيـنه صفات العذاب الذي كانوا يسومونهم، وكذلك العمل في كل جملة أريد تفصيلها، فبغير الواو تفصيلها، وإذا أريد العطف عليها بغيرها وغير تفصيلها فبالواو).

وراجع ما كتبه ـ بتفصيل أوسع ـ أبو جعفر بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي في كتابه «ملاك التأويل» تحقيق د. محمود كامل أحمد: (١/ ٥٣ـ٥٧).

(٣) يقول تعالى: فيما يصنع بكم آل فرعون من أنواع العذاب، بلاءٌ لكم من ربكم عظيمٌ، أي: ابتلاء واختبار لكم من ربكم عظيم، وقد يكون البلاء في هذا الموضع نَعْماء، وقد يكون من البلاء الذي يصيب الناس من الشدائد).

انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٥٢٥).

(٤) قال الطبري (١٦/ ٥٢٨): وقوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ...﴾ يقول: ولئن كفرتم أيها القوم نعمةَ الله، فجحدتموها بترك شكره عليها وخلافه في أمره ونهيه، وركوبكم معاصيه، ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ أعذبكم كما أعذب من كفر بي من خلقي.

وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ أي: غنيٌّ عن خلقه، حميدٌ محمود في أفعاله؛ لأنه فيها متفضِّل وعادل.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ﴾ خبر الذين ﴿مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يعني: من كان بعد قوم نوحٍ وعادٍ/ وثمودَ. ١٩٢/ب

ورُوي عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قرأ هذه الآية ثم قال: كذب النسَّابون[(١)].

وعن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: بين إبراهيم وبين عدنان ثلاثون قرنًا لا يعلمهم إلا الله تعالى[(٢)].

وكان مالك بن أنس يكره أن ينسِبَ الإنسان نفسه أبًا إلى آدم، وكذلك في حق النبي ﷺ؛ لأنه لا يعلم أولئك الآباءَ أحدٌ إلا الله عزَّ وجلَّ.

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالدلالات الواضحات ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ قال ابن مسعود: عضُّوا على أيديهم غيظًا[(٣)] كما قالوا: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾[آل عمران: ١١٩].

---

(١) أخرجه الطبري: (١٦/ ٥٢٩، ٥٣٠)، وزاد السيوطي نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأورده السيوطي في «الجامع الصغير» من رواية ابن سعد وابن عساكر عن ابن عباس، وقال عنه الألباني: «موضوع». انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٩)، «سلسلة الأحاديث الضعيفة»: (١/ ١٤٤).

(٢) ورُوي عن ابن عباس أنه قال: «كان بين زمن موسى وبين زمن نوح قرون ثلاثون لا يعلمهم إلا الله».
وحكى عنه المهدي أنه قال: «كان بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبًا لا يعرفون»، وقال ابن عطية بعد أن ساق هاتين الروايتين في «المحرر الوجيز» (٨/ ٢٠٦): (وهذا الوقوف على عدتهم بعيد، ونَفْيُ العلم بها جملةً أصحُّ، وهو لفظ القرآن).
ونقل ابن الجوزي في «زاد المسير»: (٢/ ٣٤٨) عن ابن الأنباري، في تفسير الآية، قال: أي: لا يحصي عددهم إلا هو، على أن الله تعالى أهلك أممًا من العرب وغيرها، فانقطعت أخبارهم، وعفَتْ آثارهم، فليس يعلمهم أحد إلا الله.
وانظر: «تفسير القرطبي»: (٩/ ٣٤٤ـ٣٤٥)، التعليق السابق.

(٣) أخرجه عبد الرزاق والفريابي وأبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني، وصححه الحاكم في «المستدرك»، قال الهيثمي: (رواه الطبراني عن شيخه عبد الله بن محمد وهو ضعيف). انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ١٠)، «زاد المسير»: (٤/ ٣٤٨)، «مجمع الزوائد»: (٧/ ٤٣).

۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

قال ابن عباس: لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم[(١)].

قال مجاهد وقتادة: كذبوا الرسل وردوا ما جاؤوا به[(٢)]، يقال: رددت قول فلان في فيه، أي: كذبته.

وقال الكلبي: يعني: أن الأمم ردوا أيديهم في أفواه أنفسهم، أي: وضعوا الأيدي على الأفواه إشارةً إلى الرسل أنِ اسكتوا.

وقال مقاتل: فردوا أيديهم على أفواه الرسل يسكتونهم بذلك[(٣)]. وقيل: الأيدي بمعنى النِّعم، معناه: ردوا ما لو قبلوا كانت أيادي ونعمًا في أفواههم، أي: بأفواههم، يعني: بألسنتهم.

﴿وَقَالُوا﴾ يعني: الأمم للرسل: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ موجب للريبة موقع للتهمة.

﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ هذا استفهام بمعنى نفي ما اعتقدوه ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقهما[(٤)] ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: ذنوبكم، و«من» صلة ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى حين استيفاء آجالكم فلا يعاجلكم بالعذاب.

﴿قَالُوا﴾ للرسل: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ في الصورة، ولستم ملائكة، وإنما ﴿تُرِيدُونَ﴾ بقولكم ﴿أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ حجة بينة على صحة دعواكم.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ بالنبوة والحكمة

---

(١) انظر: «زاد المسير»: (٤/ ٣٤٩)، «البحر المحيط»: (٥/ ٤٠٨).

(٢) انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ١٠)، وقد عزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة، لأبي عبيد وابن المنذر عن مجاهد.

(٣) انظر: «البحر المحيط»: (٥/ ٤٠٨).

وقال الطبري في «التفسير» (١٦/ ٥٣٥): (وأشبه هذه الأقوال عندي بالصواب في تأويل هذه الآية: القول الذي ذكرناه عن عبد الله بن مسعود: أنهم ردُّوا أيديهم في أفواههم، فعضُّوا عليها، غيظًا على الرسل، كما وصف الله جلّ وعزَّ به إخوانهم من المنافقين، فقال: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾[سورة آل عمران: ١١٩]، فهذا هو الكلام المعروف، والمعنى المفهوم من ردِّ اليد إلى الفم).

(٤) في «ب»: (خالق السموات والأرض).

وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى
ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ
أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ
ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ
كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾

﴿ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾[1].

﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ وقد عرفنا أن لا نَنَالَ شيئًا إلا بقضائه وقدره ﴿ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ ﴾ بيَّن لنا الرشد، وبصَّرَنا طريق النجاة ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ ﴾ «اللام» لام القسم، مجازُه: والله لَنَصْبِرَنَّ ﴿ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۖ ﴾ يَعْنُون: إلا أن ترجعوا، أو حتى ترجعوا إلى ديننا[2].

﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ﴾ أي: من بعد هلاكهم ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى ﴾ أي: قيامه بين يدي، كما قال: « وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ»[الرحمن: ٤٦]، فأضاف قيام العَبْدِ إلى نفسه، كما تقول: نَدِمتُ على ضربك، أي: على ضربي إياك ﴿ وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ أي: عقابي.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ ﴾ أي: استنصروا، قال ابن عباس ومقاتل: يعني: الأمم، وذلك أنهم قالوا: اللهم إن كان هؤلاء الرسل صادقين فعذِّبنا، نظيره قوله تعالى: « وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ»[الأنفال: ٣٢].

---

(١) أي: وما كان لنا أن نتأتيكم بحجة وبرهان على ما ندعوكم إليه «إلا بإذن الله»، يقول: إلا بأمر الله لنا بذلك «وعلى الله فليتوكل المؤمنون»، يقول: وبالله ليثق به مَنْ آمن به وأطاعه، فإنَّا به نثق، وعليه نتوكل.
انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٥٣٨).

(٢) قال الرازي: فإن قيل: كيف قالوا لرسلهم «أو لتعودُنَّ . . .» والرسل لم يكونوا على ملة الكفار قط . . . فالجواب من وجوه:
الأول: أن العَوْد في كلام العرب يستعمل كثيرًا بمعنى الصيرورة، يقولون: عاد فلان يكلمني، وعاد لفلان مالٌ، وأشباه ذلك، ومنه قوله تعالى: «حتى عاد كالعرجون القديم».
الثاني: أنهم خاطبوا الرسل بذلك بناء على زعمهم الفاسد واعتقادهم أن الرسل كانوا أولاً على ملل قومهم ثم انتقلوا عنها.
الثالث: أنهم خاطبوا كل رسول ومن آمن به، فغلبوا في الخطابِ الجماعةَ على الواحد.
انظر: «مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل»: ص١٥٩.

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾

وقال مجاهد وقتادة: «وَٱسْتَفْتَحُواْ»، يعني: الرسل، وذلك أنهم لما يئسوا من إيمان قومهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب، كما قال نوح عليه السلام: «رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا»[نوح: ٢٦]، وقال موسى عليه السلام: «رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ...» الآية[يونس: ٨٨].

﴿وَخَابَ﴾ خسر، وقيل: هلك ﴿كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ والجبَّار: الذي لا يرى فوقه أحدًا، والجبرية: طلب العلو بما لا غاية وراءه[(١)]، وهذا الوصف لا يكون إلا لله عزَّ وجلَّ.

وقيل: الجبَّار: الذي يجبر الخلق على مرادِه، والعنيد: المعاند للحق ومجانبه، قاله مجاهد.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو المعرض عن الحق.

قال مقاتل: هو المتكبر، وقال قتادة: «العنيدُ»: الذي أبى أن يقول لا إله إلا الله[(٢)].

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي: أمامه، كقوله تعالى: «وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ»[الكهف: ٧٩]، أي: أمامهم[(٣)].

قال أبو عبيدة: هو من الأضداد[(٤)].

وقال الأخفش: هو كما يقال: هذا الأمر من ورائكَ، يريد: أنه سيأتيك، وأنا من وراء فلان، يعني: أصل إليه[(٥)].

وقال مقاتل: «مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ»، أي: بعده[(٦)].

﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ أي: من ماءٍ هو صديدٌ، وهو ما يسيل من أبدان الكفار من القَيْح والدم[(٧)].

---

(١) ومن «الجبار»، تقول: هو جبَّار بيِّنُ الجَبْرِيَّة، والجَبْرِيَّة، والجَبْرُوَّة، والجَبَرُوَّة، والجَبَرُوت.
انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٥٤٣).

(٢) انظر في هذه الأقوال: «الدر المنثور»: (٥/ ١٤ ـ ١٥)، والطبري: (١٦/ ٥٤٣ ـ ٥٤٥).

(٣) وكان بعض نحويي أهل البصرة يقول: إنما يعني بقوله: «من ورائه» أي: من أمامه؛ لأنه وراءَ ما هو فيه، كما يقول لك: «وكل هذا من ورائك»، أي: سيأتي عليك، وهو من وراء ما أنت فيه؛ لأن ما أنت فيه قد كان قبل ذلك وهو من ورائه.
وكان بعض نحويي أهل الكوفة يقول: أكثر ما يجوز هذا في الأوقات؛ لأن الوقت يمرُّ عليك، فيصير خلفك إذا جُزْتَه...
انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٥٤٧).

(٤) انظر: الطبري: (١٦/ ٥٤٧)، وقال الزَّجَّاج: الوراء يكون بمعنى الخلف والقدام... وليس من الأضداد. انظر: «زاد المسير»: (٤/ ٣٥٢).

(٥) انظر: التعليق قبل السابق.

(٦) قال ابن الأنباري: «من ورائه»، أي: من بعد يأسه، فدلَّ «خاب» على اليأس، فكنى عنه، وحملت «وراء» على معنى «بعد» كما قال النابغة:
حَلَفْتُ فلم أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ... وليس وراءَ الله لِلمرءِ مَذْهَبُ
أراد: ليس بعد الله مذهب. انظر: «زاد المسير»: (٤/ ٣٥٢).

(٧) انظر: الطبري: (١٦/ ٥٤٨)، «الدر المنثور»: (٥/ ١٥)، وعزاه فيه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة، ولابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في «البعث والنشور» عن مجاهد. وانظر: «زاد المسير»: (٤/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣).

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

وقال محمد بن كعب: ما يسيل من فُروج الزُّناةِ، يُسْقَاه الكافر(١).

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ أي: يتحسَّاهُ ويشربه، لا بمرةٍ واحدة، بل جرعةً جرعةً، لمرارته وحرارته ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ و«يكاد»: صلة، أي: لا يسيغه، كقوله تعالى: «لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا»[النور: ٤٠]، أي: لم يرَهَا.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لا يجيزه.

وقيل: معناه: يكاد لا يسيغه، ويسيغه فيغلي في جوفه.

أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أخبرنا محمد بن أحمد بن الحارث، أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي، أخبرنا عبد الله بن محمود، أخبرنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن صفوان بن عمرو، عن عبيد الله بن بُسْر، عن أبي أُمامة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ في قوله: «جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُۥ»، قال: يقرب إلى فيه فيتكرهه، فإذا أُدني منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطّع أمعاءه، حتى يخرج من دُبُره، يقول الله عزَّ وجلَّ: «وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ»[محمد: ١٥]، ويقول: «وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ»(٢)[الكهف: ٢٩].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ يعني: يجدُ همَّ الموت وألمهُ من كل مكان من أعضائه.

قال إبراهيم التيمي: حتى من تحت كل شعرة من جسَده.

وقيل: يأتيه الموت من قدامه ومن خلفه، ومن فوقه ومن تحته، وعن يمينه وعن شماله.

﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ فيستريح، قال ابن جريج: تعلق نفسه عند حنجرته، فلا تخرج من فيه فيموت، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة، نظيرها: «ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ»[الأعلى: ١٣].

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ أمامه ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ شديدٌ، وقيل: العذاب الغليظ الخلود في النار.

---

(١) في «زاد المسير»: (٤/ ٣٥٣) عن محمد بن كعب: هو غُسالة أهل النار، وذلك ما يسيل من فروج الزناة.
وقال ابن قتيبة: المعنى: يسقى الصديد مكان الماء، كأنه قال: يُجعل ماؤه صديدًا، ويجوز أن يكون على التشبيه، أي: يُسْقَىٰ ماءً كأنه صديد. انظر: «القرطين» أو كتابي «مشكل القرآن وغريبه» لابن قتيبة، جمع بينهما: ابن مطرف الكناني: (١/ ٢٣٦).

(٢) أخرجه الطبري في «التفسير»: (١٦/ ٥٤٩ ـ ٥٥٠)، والترمذي في أبواب صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار: (٧/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤)، وقال: (هذا حديث غريب، هكذا قال محمد بن إسماعيل عن عبيد الله بن بسر، ولا يعرف عبيد الله بن بسر إلا في هذا الحديث).
وأخرجه الحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٣٥١)، وقال: (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين) ووافقه الذهبي، وأخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ٢٦٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤).
وضعفه الألباني في تعليقه على «مشكاة المصابيح»: (٣/ ١٥٨١).

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴿٢١﴾﴾

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ يعني: أعمال الذين كفروا بربهم، كقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾[الزمر: ٦٠]، أي: ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودة ﴿كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾ وصف اليومَ بالعصوف، والعصُوف من صفة الريح؛ لأن الريحَ تكون فيها، كما يقال: يومٌ حارٌ ويومٌ باردٌ؛ لأن الحر والبرد فيه.

وقيل: معناه: في يوم عاصف الريح، فحذف الريح؛ لأنها قد ذكرت من قبل، وهذا مَثَلٌ ضربه الله لأعمال الكفار، يريد: أنهم لا ينتفعون بأعمالهم التي عملوها في الدنيا؛ لأنهم أشركوا فيها غير الله، كالرماد الذي ذَرَتْهُ الريح لا ينتفع به، فذلك قوله تعالى:

١/١٩٣ ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ﴾ يعني: الكفار ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ في الدنيا ﴿عَلَىٰ شَيۡءٖۚ﴾ في الآخرة / ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ قرأ حمزة والكسائي «خالقُ السمواتِ والأرضِ» وفي سورة النور «خالق كل دابة» مضافًا، وقرأ الآخرون «خَلَقَ» على الماضي، «والأرضَ»، وكلٌّ بالنصب.

﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾ أي: لم يخلقهما باطلًا، وإنما خلقهما لأمرٍ عظيم ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٩﴾﴾ سواكم أَطْوَعَ لله منكم.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴿٢٠﴾﴾ منيع شديد، يعني: أن الأشياء تسهل في القدرة، لا يصعب على الله تعالى شيء وإن جلَّ وعَظُم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ (أي: خرجوا من قبورهم إلى الله وظهروا جميعًا)(١) ﴿فَقَالَ

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ يعني: الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ أي: تكبروا على الناس، وهم القادة والرؤساء: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ جمع تابع، مثل: حَرَس وحارس ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ﴾ دافعون ﴿عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾.

﴿قَالُواْ﴾ يعني: القادة المتبوعين: ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾ أي: لو هدانا الله لدعوناكم إلى الهُدَى، فلما أضلَّنا دعوناكم إلى الضلالة[1] ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ۝٢١﴾ مهربٍ ولا منجاة.

قال مقاتل: يقولون في النار: تعالوا نجزع، فيجزعون خمسمائة عام، فلا ينفعهم الجزع، ثم يقولون: تعالوا نصبر، فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم، فحينئذ يقولون: «سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ»[2].

قال محمد بن كعب القرظي[3]: بلغني أن أهل النار استغاثوا بالخزنة، فقال الله تعالى: «وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ»[غافر: ٤٩]، فردت الخزنة عليهم: «قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ»، فردت الخزنة عليهم: «فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ»[غافر: ٥٠]، فلما يئسوا مما عند الخزنة نادوا: «يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ»[الزخرف: ٧٧] سألوا الموت، فلا يجيبهم ثمانين سنة والسنة ستون وثلاثمائة يومًا، واليوم كألف سنة مما تعدون، ثم لحظ إليهم بعد الثمانين إنكم ماكثون، فلما يئسوا مما قبله قال بعضهم لبعض: إنه قد نزل بكم من البلاء ما ترون فهلموا فلنصبر، فلعل الصبر ينفعنا كما صبرَ أهل الدنيا على طاعة الله فنفعهم، فأجمعوا على الصبر، فطال صبرهم ثم جزعوا فنادوا: «سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ»، أي: من منجا.

قال: فقام إبليس عند ذلك فخطبهم، فقال: «إن الله وعدكم وعد الحق» الآية، فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم فنُودوا: «لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ»[غافر: ١٠]، قال: فنادوا الثانية: «فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ» فرد عليهم: «وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا»[السجدة: ١٢، ١٣]، فنادوا الثالثة: «رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ»[إبراهيم: ٤٤]، فرد عليهم: «أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ»[إبراهيم: ٤٤]، ثم نادوا الرابعة: «رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ» فرد عليهم: «أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ...» الآية[فاطر: ٣٧]، قال: فمكث عليهم ما شاء الله، ثم ناداهم: «أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ»،

---

(١) في «أ»: (الضلال).

(٢) رواه الطبراني عن كعب بن مالك مرفوعًا، وأخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه وفيه أنس بن القاسم، قال ابن أبي حاتم: هو مجهول. انظر: «مجمع الزوائد»: (٧/ ٤٣)، «الدر المنثور»: (٥/ ١٧)، «الجرح والتعديل»: (٢/ ٢٨٨).

(٣) انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ١٨)، «تفسير الطبري»: (١٦/ ٥٦٤).

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

فلما سمعُوا ذلك قالوا: الآن يرحمنا، فقالوا عند ذلك: «رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ»، قال عند ذلك: «ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ»[المؤمنون: ١٠٥ - ١٠٨]، فانقطع عن ذلك الرجاء والدعاء عنهم، فأقبل بعضهم على بعض ينبح بعضهم في وجوه بعض، وأطبقت عليهم النار.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ يعني: إبليس ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: فرغ منه فأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

قال مقاتل: يوضع له منبر في النار، فيرقاه فيجتمع عليه الكفار باللائمة فيقول لهم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ فوفى لكم به ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ وقيل: يقول لهم: قلتُ لكم لا بعثَ ولا جنة ولا نار ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ وِلاية، وقيل: لم آتكم بحجة فيما دعوتكم إليه ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ هذا استثناء منقطعٌ، معناه: لكن ﴿دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ بإجابتي ومتابعتي من غير سلطان ولا برهان ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ بمُغيثِكم ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ بمغيثيَّ. قرأ الأعمش وحمزة «بمصرخي» بكسر الياء، والآخرون بالنصب لأجل التضعيف، ومن كسر فلالتقاءِ الساكنين، حرّكت إلى الكسر؛ لأن الياء أُخت الكسرة، وأهل النحو لم يرضوه، وقيل: إنه لغة بني يربوع، والأصل «بمصرخيني» فذهبت النون لأجل الإضافة، وأُدغمت ياء الجماعة في ياء الإضافة[١].

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ أي: كفرت بجعلكُم إياي شريكًا في عبادته، وتبرأت من ذلك.

﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أنبأنا محمد بن أحمد الحارث، أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنبأنا عبد الله بن محمود، حدثنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن رشدين بن سعد، أخبرني عبد الرحمن بن زياد، عن دخين الحجري، عن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ، عن رسول الله ﷺ

---

(١) انظر: «البحر المحيط»: (٥/ ٤١٩)، «زاد المسير»: (٤/ ٣٥٧).

وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾

في حديث الشفاعة ذكر الحديث ثم قال: «يقول عيسى عليه السلام: ذلكم النبي الأمي، فيأتي فيأذن الله لي أن أقوم فيثور من مجلسي من أطيب ريح شمَّها أحدٌ، حتى آتي ربي عزَّ وجلَّ فيشفِّعني ويجعل لي نورًا من شعر رأسي إلى ظفر قدمي، ثم يقول الكفار: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فمن يشفع لنا؟ فيقولون: ما هو غير إبليس، هو الذي أضلَّنا، فيأتونه فيقولون له: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا، فإنك أنت أضللتنا، فيقوم فيثور من مجلسه أنتن ريح شمَّها أحدٌ، ثم تعظم جهنم[1]، ويقول عند ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ ... الآية»[2].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾ يسلِّم بعضهم على بعض، وتسلِّم الملائكة عليهم.

وقيل: المحيِّي بالسلام هو الله عزَّ وجلَّ.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ ألم تعلم، والمَثَلُ: قولٌ سائر لتشبيه شيء بشيء ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ هي قول: لا إله إلا الله ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهي النخلة، يريد: كشجرة طيبة الثمر[3].

---

(١) في «ب»: «يعظم لجهنم» وكذلك في الطبري، وفي الطبعة البولاقية منه «يعظم نحيبهم»، قال الشيخ شاكر: وهو غير ما اتفقت عليه المخطوطة و«الدر المنثور» وابن كثير، ... وأنا في شك من الكلمة، وظني أنها: «يَقْطِّم لجهنَّم» من قولهم: «قطِّم الشاربُ»: إذا ذاق الشراب فكرهه، وزوى وجهه وقطَّب.

(٢) أخرجه الدارمي في الرقائق، باب في الشفاعة: (٢/ ٣٢٧)، وابن جرير الطبري في «التفسير»: (١٦/ ٥٦٢ ـ ٥٦٣).
وعزاه السيوطي لابن المبارك في «الزهد»، وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه وابن عساكر، وقال: (أخرجوه بسند ضعيف).
وقال الهيثمي: رواه الطبراني، وفيه عبد الرحمن بن زياد، وهو ضعيف، وقال الشيخ محمود شاكر: وهذا خبر ضعيف، لا يقوم. ورشدين بن سعد المصري: ضعيف متروك، عنده معاضيل ومناكير.
انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ١٨)، «مجمع الزوائد»: (١٠/ ٣٧٦)، «تفسير ابن كثير»: (٢/ ٥٣٠).

(٣) وهذا ما رجحه الطبري في «التفسير»: (١٦/ ٥٧٣)، لصحة الخبر في ذلك عن رسول الله ﷺ فيما رواه عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدِّثوني ما هي»؟ فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدِّثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: فقال: «هي النخلة».
أخرجه البخاري في العلم، باب قول المحدث حدثنا وأخبرنا: (١/ ١٤٥)، وفي البيوع وفي التفسير وفي مواضع أخرى، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب مثل المؤمن مثل النخلة برقم ٢٨١١: (٤/ ٢١٦٤ ـ ٢١٦٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ٣٠٧).

﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

وقال ظبيان عن ابن عباس[١] : هي شجرة في الجنة[٢] .

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ في الأرض ﴿وَفَرْعُهَا﴾ أعلاها ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ كذلك أصل هذه الكلمة: راسخٌ في قلب المؤمن بالمعرفة والتصديق، فإذا تكلم بها عرجت، فلا تحجب حتى تنتهي إلى الله عزَّ وجلَّ. قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[فاطر: ١٠] .

١٩٣/ب ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا﴾ تعطي ثمرها ﴿كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾ / والحين في اللغة: هو الوقت.

وقد اختلفوا في معناه هاهنا:

فقال مجاهد وعكرمة: الحين هاهنا: سنة كاملةٌ؛ لأن النخلة تثمر كل سنة.

وقال سعيد بن جبير وقتادة والحسن: ستة أشهر من وقت إطلاعها إلى صرامها، ورُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: أربعة أشهر من حين ظهورها إلى إدراكها.

وقال سعيد بن المسيب: شهران من حين تؤكل إلى حين الصرام.

وقال الربيع بن أنس: «كُلَّ حِينٍ»، أي: كل غدوة وعشية؛ لأن ثمر النخل يؤكل أبدًا ليلًا ونهارًا، صيفًا وشتاءً، إما تمرًا أو رُطَبًا أو بُسْرًا، كذلك عملُ المؤمن يصعدُ أول النهار وآخره، وبركةُ إيمانِه لا تنقطع أبدًا، بل تصل إليه في كل وقت[٣] .

والحكمةُ في تمثيل الإيمان بالشجرة: هي أن الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء: عِرق راسخ، وأصل قائم، وفرع عال، كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء: تصديق بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالأبدان.

---

(١) نقله عنه الطبري: (١٦/ ٥٧٣)، وابن الجوزي في «زاد المسير»: (٤/ ٣٥٨)، وزاد قولاً ثالثًا فيها، وهو: أنها المؤمن، وأصله الثابت: أنه يعمل في الأرض، ويبلغ عمله السماء، وهذا رواه عطية عن ابن عباس أيضًا.

(٢) في «ب»: (الشام).

(٣) انظر هذه الأقوال الخمسة في معنى «الحين»، وقولاً سادسًا عن علي: أنه ثمانية أشهر، في: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٥٧٥ ـ ٥٧٩)، «الدر المنثور»: (٥/ ٢٤ ـ ٢٥)، و«زاد المسير»: (٤/ ٣٥٩)، «البحر المحيط»: (٥/ ٤٢٢).

قال الطبري: (وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قولُ مَن قال: عنى بالحين، في هذا الموضع: غدوةً وعشيةً وكلَّ ساعة؛ لأن الله تعالى ذكره ضرب ما تؤتي هذه الشجرة كلَّ حين من الأكل لعمل المؤمن وكلامه مثلًا، ولا شك أن المؤمن يُرفع له إلى الله في كل يوم صالحٌ من العمل والقول، لا في كل سنة، أو في كل ستة أشهر، أو كل شهرين، فإذا كان ذلك كذلك، فلا شك أن المَثَل لا يكون خلافًا للممثَّل به في المعنى، وإذا كان ذلك كذلك كان بيِّنًا صحة ما قلنا. فإن قال قائل: فأيّ نخلة تؤتي أكلها في كل وقت أكلًا صيفًا وشتاءً؟ قيل: أما في الشتاء: فإن الطَّلْع من أُكُلها، وأما في الصيف: فالبَلَح والبُسْر والرُّطَب والتَّمْر، وذلك كله من أُكُلها).

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ۝٢٦﴾

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخَرقي، أنبأنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني، أنبأنا عبد الله ابن عمر الجوهري، أخبرنا أحمد بن علي الكشميهني، حدثنا علي بن حجر، حدثنا إسماعيل بن جعفر، حدثنا عبد الله ابن دينار أنه سمع ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من الشجر شجرةً لا يسقط ورقُها، وإنها مثل المسلم فحدِّثوني ما هي»؟ قال عبد الله: فوقع الناس في شجر البوادي، ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت، ثم قالوا: حدِّثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: «هي النخلة»، قال عبد الله: فذكرتُ ذلك لعمر، فقال: لأنْ تكون قلتَ هي النخلة كان أحبَّ إليَّ من كذا وكذا[(١)].

وقيل: الحكمة في تشبيهها بالنخلة من بين سائر الأشجار: أن النخلة أشبه[(٢)] الأشجار بالإنسان من حيثُ إنها إذا قطع رأسها يبست، وسائر الأشجار تتشعب من جوانبها بعد قطع رؤوسها[(٣)]؛ ولأنها تشبه الإنسان في أنها لا تحمل إلا بالتلقيح؛ ولأنها خلقت من فضل طينة آدم عليه السلام؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «أكرموا عمتكم» قيل: ومن عمتنا؟ قال: «النخلة»[(٤)] ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٥﴾[(٥)].

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي الشرك ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي الحنظل[(٦)].

وقيل: هي الثوم.

---

(١) متفق عليه، وسبق تخريجه قبل قليل: ص٥٥٥، تعليق (٣).

(٢) في «أ»: (شبه).

(٣) في «ب»: (رأسها).

(٤) حديث ضعيف أخرجه أبو نعيم في «الحلية»: (٦/ ١٢٣)، وأبو يعلى في «مسنده»: (١/ ٢٤١)، وابن أبي حاتم، وابن عدي في «الكامل»: (٦/ ٢٤٢٤)، والعقيلي في «الضعفاء»، وابن السني وابن مردويه معًا في الطب، وابن حبان في «المجروحين»: (٣/ ٤٤)، والرامهرمزي في «الأمثال»: ص٧٣، قال الهيثمي: فيه مسرور بن سعيد، وهو ضعيف، وقال العقيلي: حديثه غير محفوظ.
انظر: «مجمع الزوائد»: (٥/ ٣٩)، «فيض القدير»: (٢/ ٩٥)، «كشف الخفاء»: (١/ ١٩٥)، «تمييز الطيب من الخبيث»: ص٣٦، «تنزيه الشريعة المرفوعة» لابن عرّاق: (١/ ٢٠٩)، «سلسلة الأحاديث الضعيفة»: رقم٢٦٣.
وانظر في الحكمة من تشبيه الإيمان بالنخلة أيضًا: «زاد المسير»: (٤/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠).

(٥) أي: ويمثّل الله الأمثال للناس، ويشبّه لهم الأشباه ليتذكروا حجة الله عليهم، فيعتبروا بها ويتعظوا، فينزجروا عما هم عليه من الكفر به إلى الإيمان.
انظر: «تفسير الطبري»: (١٦/ ٥٦٧).

(٦) قال الطبري (١٦/ ٥٨٥): (وقد رُوي عن رسول الله ﷺ ـ بتصحيح قول من قال: هي الحنظلة ـ خبرٌ، فإن صحَّ فلا قول يجوز أن يقال غيره، وإلا فإنها شجرة بالصفة التي وصفها الله بها). ثم ساق حديثًا للترمذي والحاكم عن أنس ضعفه الشيخ أحمد شاكر.
انظر: الطبري: (١٦/ ٥٧٠ ـ ٥٧١، ٥٨٥).

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

وقيل: هي الكشوث[1]، وهي العَشَقَة[2] ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ يعني: انقلعت ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ ثبات.

معناه: ليس لها أصل ثابت في الأرض، ولا فرع صاعد إلى السماء، كذلك الكافر لا خير فيه، ولا يصعدُ له قول طيب ولا عمل صالح.

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ كلمة التوحيد، وهي قول: لا إله إلا الله ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني: قبل الموت ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعني: في القبر، هذا قول أكثر أهل التفسير.

وقيل: «فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا»: عند السؤال في القبر، «وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ»: عند البعث.

والأول أصح[3].

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، أخبرني علقمة بن مرثد قال: سمعت سعد بن عبيدة، عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله»، فذلك قوله تعالى: «يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ»[4].

وأخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أنبأنا عبد الغافر بن محمد، أنبأنا محمد بن عيسى الجلودي، أنبأنا إبراهيم ابن محمد بن سفيان، أنبأنا مسلم بن الحجاج، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا

---

(١) في «ب»: (الكشوب).
وفي «لسان العرب»: (٢/ ١٨١): (الكَشُوثُ، والأُكشوث، والكَشُوثي: كل ذلك نبات مجتث مقطوع الأصل، وقيل: لا أصل له، وهو أصفر يتعلق بأطراف الشوك وغيره).
وقال الجوهري: هو نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعِرْق في الأرض . . .).

(٢) العَشَقَةُ: شجرة تخضرُّ ثم تَدِقُّ وتصفرُّ، وهي عند المولَّدين: اللَّبْلاب، وجمعها العَشَقُ. انظر: «لسان العرب»: (١٠/ ٢٥٢).

(٣) وهو ما رجحه الطبري، حيث قال (١٦/ ٦٠٢): (والصواب من القول في ذلك ما ثبت به الخبر عن رسول الله ﷺ في ذلك، وهو أن معناه: «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا»، وذلك تثبيته إياهم في الحياة الدنيا بالإيمان بالله وبرسوله محمد ﷺ «وفي الآخرة» بمثل الذي ثبَّتهم به في الحياة الدنيا، وذلك في قبورهم حين يسألون عن الذي هم عليه من التوحيد والإيمان برسوله ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري في التفسير، سورة إبراهيم، باب ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾: (٨/ ٣٧٨)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٤١٢).

شعبة بهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ قال: «نزلت في عذاب القبر يقال له: من ربُّك؟ فيقول: ربي الله، ونبيي محمد»، فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ... الآية﴾[(١)].

وأخبرنا عبد الواحد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا عياش بن الوليد، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنه حدثهم أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ العبدَ إذا وُضِع في قبره، وتولّى عنه أصحابُه إنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه مَلَكان فيُقْعِدانه، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل، لمحمد ﷺ؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة، فيراهما جميعًا» قال قتادة: وذكر لنا أنه يُفْسَحُ له في قبره، ثم رجع إلى حديث أنس قال:

«وأما المنافقُ والكافر فيقال له: ما كنتَ تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال له: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ، ويُضْرَبُ بمطارقَ من حديدٍ ضربةً، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غيرَ الثَّقَلَيْن»[(٢)].

أخبرنا أبو الفرج المظفر بن إسماعيل التميمي، حدثنا أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي، أنبأنا أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ، حدثنا عبد الله بن سعيد، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا عنبسة بن سعيد ابن كثير، حدثني جدي، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «إن الميت يسمع حِسَّ النِّعال إذا ولّى عنه الناس مُدْبِرين، ثم يُجْلَسُ ويُوضَعُ كفنُهُ في عُنُقِهِ ثم يُسأل»[(٣)].

ورُوي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «إذا قُبِرَ الميتُ أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما: المنكر، وللآخر: النَّكير، فيقولان: ما كنتَ تقول في هذا الرجل؟ فيقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبد الله ورسوله، فيقولان له: قد كنَّا نعلم أنك تقولُ هذا، ثم يُفْسح له في قبره سبعون ذراعًا في سبعين، ثم ينوَّر له فيه، ثم يقال: نمْ كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحبُّ أهله إليه، حتى يبعثه الله تعالى، وإن كان منافقًا أو كافرًا قال: سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله، لا أدري، فيقولان: قد كنَّا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض التئمي عليه فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه،

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار برقم ٢٨٧١: (٤/ ٢٢٠١).

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر: (٣/ ٢٣٢)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار برقم ٢٨٧٠: (٤/ ٢٢٠٠ ـ ٢٢٠١)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٤١٥).

(٣) أخرجه ابن حبان في الجنائز، باب في الميت يسمع ويسأل: ص١٩٦ من «موارد الظمآن»، والإمام أحمد في «المسند»: (٢/ ٣٤٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٤١٣).

فلا يزال فيها معذَّبًا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»[1].

وروي عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح المؤمن وقال: «فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه في قبره فيقولان له: من ربك وما دينك ومن نبيك؟ (فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد، فينتهرانه ويقولان له الثانيةَ: من ربك وما دينك ومن نبيك)[2]، وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن فيثبته الله عزَّ وجلَّ، فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد ﷺ، فينادي منادٍ من السماء: أنْ صَدَق عبدي، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ
١/١٩٤ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾»[3]. /

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنبأنا أبو العباس عبد الله بن محمد بن هارون الطيسفوني، أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد الترابي، أنبأنا أبو بكر أحمد بن محمد بن عمر بن بسطام، أنبأنا أبو الحسن أحمد بن سيار القرشي، حدثنا إبراهيم بن موسى[4] الفراء أبو إسحاق، حدثنا هشام بن يوسف، حدثنا عبد الله بن يحيى، عن هانىء مولى عثمان قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا الله له التثبيت، فإنه الآن يسأل»[5].

وقال عمرو بن العاص في سياق الموت وهو يبكي: فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار، فإذا دفنتموني فسُنُّوا عليَّ التراب سنًّا، ثم أقيموا حول قبري قدر ما ينحر جزور ويقسم لحمها؛ حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي.

قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾ أي: لا يهدي الله المشركين إلى الجواب بالصواب في القبر ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾ من التوفيق والخذلان، والتثبيت وترك التثبيت.

---

(١) أخرجه الترمذي في الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر: (٤/ ١٨١ ـ ١٨٤)، وقال: وهو حديث حسن غريب، وفي الباب عن علي وزيد ابن ثابت وابن عباس والبراء بن عازب وأبي أيوب وأنس وجابر وعائشة وأبي سعيد، كلهم رووا عن النبي ﷺ في عذاب القبر.
وأخرجه ابن حبان في الجنائز، باب الميت يسأل ويسمع: ص١٩٧ من «موارد الظمآن».
وحسنه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، وقال: هو على شرط مسلم: (١/ ٤٧).

(٢) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٣) قطعة من حديث طويل أخرجه أبو داود في السنة، باب المسألة في القبر: (٧/ ١٣٩ ـ ١٤١)، والحاكم في «المستدرك»: (١/ ٣٧، ٣٩)، والإمام أحمد في «المسند»: (٤/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦)، وصححه الألباني في «تعليقه على المشكاة»: (١/ ٤٨).
وأخرجه الطبري في «التفسير» من عدة طرق، انظر: (١٦/ ٥٨٩ ـ ٥٩٥).

(٤) في «ب»: (ابن محمد).

(٥) أخرجه أبو داود في الجنائز، باب الاستغفار عند القبر للميت: (٤/ ٣٣٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى»: (٤/ ٥٦)، وحسنه النووي في «الأذكار»: ص١٣٧، وصححه الألباني في «تعليقه على مشكاة المصابيح»: (١/ ٤٨).

﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا...﴾ الآية.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، عن عطاء، عن ابن عباس (في قوله تعالى)[١]: «ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا»، قال: هم والله كفار قريش[٢].

وقال عمرو: هم قريش، ومحمد ﷺ نعمة الله[٣].

﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ قال: البوار: يوم بدر، قوله: «بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ»، أي: غيّروا نعمة الله عليهم في محمد ﷺ حيث ابتعثه الله تعالى منهم «كُفْرًا» كفروا به فـ«وَأَحَلُّوا۟»، أي: أنزلوا، «قَوْمَهُمْ» ممن تابعهم على كفرهم «دَارَ ٱلْبَوَارِ» الهلاك، ثم بيّن البوار فقال:

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ المستقر.

وعن علي ـ كرم الله وجهه ـ: الذين بدلوا نعمة الله كفرًا: هم كفار قريش نحروا يوم بدر[٤].

وقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: هم الأفجران من قريش: بنو المغيرة وبنو أمية، أما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين[٥].

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أمثالاً، (وليس لله تعالى ند)[٦] ﴿لِّيُضِلُّوا۟﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء، وكذلك في الحج وسورة لقمان والزمر «لِيَضل»، وقرأ الآخرون بضم الياء على معنى: ليضلوا الناس ﴿عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟﴾ عيشوا في الدنيا ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة إبراهيم، باب ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾: (٨/ ٣٧٨)، بلفظ: «هم كفار أهل مكة».
وانظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٤١)، الطبري: (١٣/ ٢٢٢) طبع الحلبي.
وسائر الإحالات الآتية إلى «تفسير الطبري» ستكون ـ إن شاء الله تعالى ـ إلى هذه الطبعة، حيث كنّا فيما سبق ـ غالبًا ـ نعزو إلى طبعة دار المعارف بتحقيق الشيخ محمود شاكر.

(٣) عزاه السيوطي لابن جرير عن عطاء بن يسار: (٥/ ٤٢).

(٤) عزاه السيوطي لابن جرير وابن المنذر والحاكم في «الكنى». «الدر المنثور»: (٥/ ٤٢).

(٥) أخرجه البخاري في «التاريخ» وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه. انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٤١).

(٦) ساقط من «ب».

قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال الفراء: هو جزم على الجزاء ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾ مخاللة وصداقة، (قرأ ابن كثير وابن عمرو ويعقوب: «لا بيعَ فيه ولا خلالَ» بالنصب فيهما على النفي العام، وقرأ الباقون «لا بيعٌ ولا خلالٌ» بالرفع والتنوين)[١].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ ذللها لكم، تجرونها[٢] حيث شئتم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ يجريان فيما يعود إلى مصالح العباد ولا يفترَّان، قال ابن عباس: دؤوبُهما في طاعة الله عزَّ وجلَّ[٣].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ يتعاقبان في الضياء والظلمة، والنقصان والزيادة.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ (يعني: وآتاكم من كل شيء سألتموه)[١] شيئًا، فحذف الشيء الثاني؛ اكتفاءً بدلالة الكلام، على التبعيض.

وقيل: هو على التكثير نحو قولك: فلان يعلم كلَّ شيء، وآتاه كلَّ الناسُ، وأنت تعني بعضهم، نظيره: قوله تعالى: «فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ»[الأنعام: ٤٤].

وقرأ الحسن «من كلٍّ» بالتنوين، «ما» على النفي، يعني: من كل ما لم تسألوه، يعني: أعطاكم أشياء ما طلبتموها ولا سألتموها[٤].

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٢) في «ب»: (تجروها).

(٣) الطبري: (١٣/ ٢٢٥) طبع الحلبي.

(٤) انظر: «تفسير الطبري»: (١٣/ ٢٢٦).

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أي: نعم الله ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾ أي: لا تطيقوا عدَّها ولا القيام بشُكرِها.

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ أي: ظالم لنفسه بالمعصية، كافرٌ بربِّه عزَّ وجلَّ في نعمته.

وقيل: الظلوم: الذي يشكر غير من أنعم عليه، والكافر: من يجحد مُنْعِمَه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ﴾ يعني: الحرم ﴿ءَامِنًا﴾ ذَا أمن يؤمن فيه ﴿وَاجْنُبْنِي﴾ أبعِدْني ﴿وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ يقال: جَنَبْتُه الشيءَ، وأجْنَبْتُه جنبًا، وجَنَّبْتُهُ تَجْنِيبًا، واجتنبتُه اجتنابًا بمعنى واحد.

فإن قيل: قد كان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ معصومًا من عبادة الأصنام، فكيف يستقيم السؤال؟ وقد عبد كثير من بنيه الأصنام، فأين الإجابة؟

قيل: الدعاء في حق إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لزيادة العصمة والتثبيت، وأما دعاؤه لبنيه: فأراد بنيه من صُلْبه، ولم يعبد منهم أحدٌ الصنم.

وقيل: إن دعاءه لمن كان مؤمنًا من بنيه[(١)].

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ يعني: ضل بهنَّ كثيرٌ (من الناس)[(٢)] عن طريق الهدى حتى عبدوهنَّ، وهذا من المقلوب، نظيره قوله تعالى: «إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ»[آل عمران: ١٧٥]، أي: يخوفهم[(٣)] بأوليائه.

وقيل: نسبَ الإضلال إلى الأصنام لأنهنَّ سبب فيه، كما يقول القائل: فتنتي الدنيا، نسب الفتنة إلى الدنيا لأنها سبب الفتنة[(٤)].

﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي: مِنْ أهل ديني ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ قال السدي: معناه: ومن عصاني ثم تاب.

---

(١) وقال محمد بن أبي بكر الرازي: (قيل: إنما سأل هذا السؤال في حالة خوف أذهله عن ذلك العلم ـ بالعصمة عن الكفر وعبادة الأصنام ـ لأن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أعلم الناس بالله، فيكونون أخوفهم منه، فيكون معذورًا بسبب ذلك، وقيل: إن في حكمة الله تعالى وعلمه أن لا يبتلي نبيًا من الأنبياء بالكفر، بشرط أن يكون متضرعًا إلى ربه طالبًا منه ذلك، فأجرى على لسانه هذا السؤال لتحقيق شرط العصمة).
انظر: «مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل»: ص١٦٤.

(٢) ساقط من «ب».

(٣) في «ب»: (يخوفكم).

(٤) وانظر: «مسائل الرازي وأجوبتها»: ص١٦٤.

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

وقال مقاتل بن حيان: ومن عصاني فيما دون الشرك.

وقيل: قال ذلك قبل أن يعلمه الله أنه لا يغفر الشرك[1].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ أدخل «من» للتبعيض، ومجاز الآية: أسكنت من ذريتي ولدًا ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ وهو مكة؛ لأن مكة وادٍ بين جبلين ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ سماه محرَّمًا؛ لأنه يحرم عنده ما لا يحرم عند غيره.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن أيوب السختياني وكثير بن (أبي كثير بن)[2] المطلب بن أبي وداعة - يزيد أحدهما على الآخر - عن سعيد بن جبير قال[3]: قال ابن عباس: أول ما اتَّخذ النساءُ المِنْطَقَ من قِبَلِ أُمِّ إسماعيلَ، اتخذت مِنْطَقًا لتُعَفِّي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم عليه السلام وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحدٌ وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاءً فيه ماء، ثم قَفَل إبراهيم منطلقًا، فتبعته أُم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنْس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم،
١٩٤/ب قالت: إذن لا يضيّعنا / ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثَّنِيَّةِ حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات فرفع يديه فقال: «رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ»، حتى بلغ: «يَشْكُرُونَ».

وجعلتْ أُم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نَفِدَ ما في السِّقاء عطشتْ وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلبَّط أو قال يتلوَّى، وانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف دِرْعِها، ثم سَعَتْ سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدًا، فلم ترَ أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات.

---

(١) في «ب»: (أن يشرك به).
(٢) ليس في «ب».
(٣) ساقط من «ب».

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما».

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا فقالت: صه ـ تريد نفسها ـ ثم تسمعت فسمعت أيضًا فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندك غِوَاث، فإذا هي بالمَلَكِ عند موضع زمزم، فبحث بعقبه ـ أو قال: بجناحه ـ حتى ظهر الماء فجعلت تَحُوضُه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم» أو قال: «لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينًا مَعينًا».

قال: فشربتْ وأرضعت ولدها، فقال لها المَلَكُ: لا تخافوا الضيعة فإن هاهنا بيت الله، يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله.

وكان موضع البيت مرتفعًا من الأرض كالرَّابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك، حتى مرَّت بهم رُفْقة من جُرْهُم ـ أو أهل بيت من جرهم ـ مقبلين من طريق كَداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائرًا عائفًا، فقالوا: إنَّ هذا الطائر ليدور على ماء، ولَعَهْدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جَرِيًّا أو جَرِيَّيْن فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا وأُم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء، قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: فألفىٰ ذلك أُمَّ إسماعيل وهي تحب الأُنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشبَّ الغلام وتعلم العربية منهم، وأنْفَسَهُم وأعجبهم حين شبَّ، فلما أدرك زوَّجوه امرأةً منهم، وماتت أُم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته[1] . . . ذكرنا تلك القصة في سورة البقرة[2].

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ الأفئدة: جمع الفؤاد ﴿تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ تشتاق وتحنُّ إليهم.

قال السدي: معناه: أَمِلْ قلوبهم إلى هذا الموضع.

قال مجاهد: لو قال أفئدة الناس لزاحمتكم فارس والروم والترك والهند.

وقال سعيد بن جبير: لحجَّت اليهود والنصارى والمجوس، ولكنه قال: «أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ»، وهم المسلمون.

﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ما رزقت سكان القرى ذوات الماء ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب يزفّون النَّسَلان في المشي: (٦/ ٣٩٦ـ٣٩٨).

(٢) انظر فيما سبق: (١/ ١٠٣ـ١٠٤).

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٣٨ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٩ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ۝٤٠﴾

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ من أُمورنا، وقال ابن عباس ومقاتل: من الوجد بإسماعيل وأمه حيث أسكنتهما بوادٍ غير ذي زرع ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٣٨﴾ قيل: هذا صلة قول إبراهيم.

وقال الأكثرون: يقول الله عزَّ وجلَّ: «وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ»[١].

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ﴾ أعطاني ﴿إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٩﴾ قال ابن عباس: وُلد إسماعيل لإبراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة، ووُلد إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة.

وقال سعيد بن جبير: بُشِّرَ إبراهيم بإسحاق وهو ابن مائة وسبع عشرة سنة[٢].

﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ يعني: ممن يقيم الصلاة بأركانها ويحافظ عليها ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ يعني: اجعل من ذريتي من يقيمون الصلاة.

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ۝٤٠﴾ أي: عملي وعبادتي، سمَّى العبادة دعاءً، وجاء في الحديث: «الدعاء مخ العبادة»[٣].

وقيل: معناه: استجبْ دعائي.

---

(١) في «البحر المحيط»: (٥/ ٤٣٣) جاءت العبارة أوضح فقال: وقيل: ﴿وما يخفى . . .﴾ الآية، من كلام الله عزَّ وجلَّ تصديقًا لإبراهيم عليه السلام كقوله تعالى: ﴿كذلك يفعلون﴾.

(٢) انظر: «المحرر الوجيز»: (٨/ ٢٥٦).

(٣) حديث ضعيف، أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك في الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء: (٨/ ٣١١)، وقال: (هذا حديث غريب من هذا الوجه، لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة).

وعن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر: ٦٠].

أخرجه أبو داود في الصلاة، باب الدعاء: (٢/ ١٤١)، والترمذي في الدعوات نفسه: (٩/ ٣١١ ـ ٣١٢)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح) وفي التفسير أيضًا، وابن ماجه في «السنن»، كتاب الدعاء برقم٣٨٢٨: (٢/ ١٢٥٨)، وصححه ابن حبان: ص٥٩٥ من «موارد الظمآن» للهيثمي، والحاكم في «المستدرك»: (١/ ٤٩١)، وأخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٤/ ٢٧٦)، وذكره المصنف البغوي في «مصابيح السنة»: (٢/ ١٣٨)، كتاب الدعوات في الحسان.

﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ۝٤١ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٤٢ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ۝٤٣﴾

﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ فإن قيل: كيف استغفر لوالديه وهما غيرُ مؤمنين؟ قيل: قد قيل إن أمه أسلمت. وقيل: أراد: إن أسلما وتابا[1]، وقيل: قال ذلك قبل أن يتبين له أمر أبيه، وقد بيَّن الله تعالى عذر خليله ﷺ في استغفاره لأبيه في سورة التوبة[2].

﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: اغفر للمؤمنين كلهم ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ۝٤١﴾ أي: يبدو ويظهر، وقيل: أراد: يوم يقوم الناس للحساب، فاكتفى بذكر الحساب لكونه مفهومًا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ الغفلة: معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقيقة الأمور، والآية لتسلية المظلوم وتهديد للظالم.

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٤٢﴾ أي: لا تغمض من هول ما ترى في ذلك اليوم، وقيل: ترتفع وتزول عن أماكنها.

﴿مُهۡطِعِينَ﴾ قال قتادة: مسرعين.

قال سعيد بن جبير: الإهطاع: النَّسَلان، كعَدْوِ الذئب، وقال مجاهد: مديمي النظر.

ومعنى «الإهطاع»: أنهم لا يلتفون يمينًا ولا شمالاً، ولا يعرفون مواطن أقدامهم.

﴿مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ﴾ أي: رافعي رؤوسهم.

قال القتيبي: المُقْنِعُ: الذي يرفع رأسه ويقبل ببصره على ما بين يديه[3].

وقال الحسن: وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء، لا ينظر أحدٌ إلى أحد.

﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ﴾ أي: لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر، وهي شاخصة قد شغلهم ما بين أيديهم.

﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ۝٤٣﴾ أي: خالية، قال قتادة: خرجت قلوبهم عن صدورهم، فصارت في حناجرهم،

---

(١) انظر: «مسائل الرازي وأجوبتها»: ص١٦٦.

(٢) انظر فيما سبق: ص١٠١ من سورة التوبة.

(٣) قال في «غريب القرآن»: (١/ ٢٣٧) من «القرطين» لابن مطرف الكناني: (والمقنع رأسه: الذي رفعه، وأقبل بطَرْفه على ما بين يديه، والإقناع في الصلاة هو إتمامها).

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾

لا تخرج من أفواههم ولا تعود إلى أماكنها، فالأفئدة هواء لا شيء فيها، ومنه سُمِّي ما بين السماء والأرض هواء لِخُلُوِّه.

وقيل: خالية لا تعي شيئًا ولا تعقل من[1] الخوف.

وقال الأخفش: جوفاء لا عقول لها، والعرب تسمى كل أجوف خاوٍ هواء.

وقال سعيد بن جبير: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾، أي: مترددة، تمور في أجوافهم، ليس لها مكان تستقرُّ فيه.

وحقيقة المعنى: أن القلوب زائلة عن أماكنها، والأبصار شاخصة من هول ذلك اليوم.

١/١٩٥ ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ خوِّفهم ﴿يَوْمَ﴾ أي: بيوم ﴿يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وهو يوم القيامة/ ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أشركوا ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ﴾ أمهلنا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ هذا سؤالهم الردّ إلى الدنيا، أي: ارجِعْنا إليها ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ فيجابون:

﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾ حلفتم في دار الدنيا ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ عنها، أي: لا تبعثون، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[النحل: ٣٨].

﴿وَسَكَنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والعصيان، قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ أي: عرفتم عقوبتنا إيَّاهم ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: بيَّنَّا أن مثلكم كمثلهم.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: جزاء مكرهم ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ قرأ علي وابن مسعود: «وإن كاد مكرهم» بالدال، وقرأ العامة بالنون.

﴿لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ قرأ العامة «لِتزولَ» بكسر اللام الأولى ونصب الثانية.

معناه: وما كان مكرهم.

---

(١) «من» للتعليل.

قال الحسن: إن كان مكرهم لأضعف من أن تزول منه الجبال.

وقيل: معناه: إن مكرهم لا يزيل أمر محمد ﷺ الذي هو ثابت كثبوت الجبال.

وقرأ ابن جريج والكسائي: «لَتزولُ» بفتح اللام الأولى ورفع الثانية، معناه: إن مكرهم وإن عظم حتى بلغ محلًّا يزيل الجبال لم يقدروا على إزالة أمر محمد ﷺ.

وقال قتادة: معناه: وإن كان شركهم لتزول منه الجبال، وهو قوله تعالى: ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾[مريم: ٩٠-٩١].

ويُحكى عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في معنى الآية: أنها نزلت في نمرود الجبّار الذي حاج إبراهيم في ربّه، وذلك أنه قال: إن كان ما يقول إبراهيم حقًّا فلا أنتهي حتى أصعد السماء فأعلم ما فيها، فعمد إلى أربعة أفرخ من النسور فربّاها حتى شبت واتخذ تابوتًا، وجعل له بابًا من أعلى وبابًا من أسفل، وقعد نمرود مع رجل في التابوت، ونصب خشباتٍ في أطراف التابوت، وجعل على رؤوسها اللحم، وربط التابوت بأرجل النسور، فَطِرْنَ وصعدن طمعًا في اللحم، حتى مضى يوم وأبْعَدْن في الهواء، فقال نمرود لصاحبه: افتح الباب الأعلى وانظر إلى السماء هل قربناها، ففتح (الباب ونظر)[1] فقال: إن السماء كهيئتها، ثم قال: افتح الباب الأسفل وانظر إلى الأرض كيف تراها؟ ففعل فقال: أرى الأرض مثل اللجّة والجبال مثل الدخان، فطارت النسور يومًا آخر، وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران، فقال لصاحبه: افتح الباب ففتح الأعلى فإذا السماء كهيئتها، وفتح الأسفل فإذا الأرض سوداء مظلمة، فنودي: أيها الطاغية أين تريد؟

قال عكرمة: كان معه في التابوت غلام قد حمل معه القوس والنشّاب فرمى بسهم فعاد إليه السهم متلطخًا بدم سمكة قذفت نفسها من بحر في الهواء ـ وقيل: طائر أصابه السهم ـ فقال: كفيت شغل إله السماء.

قال: ثم أمر نمرود صاحبه أن يصوِّب الخشبات وينكص اللحم، ففعل، فهبطت النسور بالتابوت، فسمعت الجبال حفيف التابوت والنسور، ففزعت وظنت أنه قد حَدَثَ حدثٌ من السماء، وأن الساعة قد قامت، فكادت تزول عن أمكانها، فذلك قوله تعالى:
﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾[2].

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) روى الطبري هذه القصة عن علي وسعيد بن جبير: (١٣/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥)، وضعّف هذه القصة ابن عطية في «المحرر الوجيز»: (٨/ ٢٦٥) فقال: (وفي هذه القصة كلها ضعف من طريق المعنى، وذلك أنه غير ممكن أن تصمد الأنسر كما وصف، وبعيدٌ أن يغرِّر أحد بنفسه في مثل هذا).

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ بالنصر لأوليائه وهلاك أعدائه، وفيه تقديم وتأخير، تقديره: ولا تحسبن الله مخلف رسله وعده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾.

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أخبرنا عبد الغفار بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، أخبرنا إبراهيم بن محمد بن يوسف، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا خالد بن مخلد، عن محمد بن جعفر بن أبي كثير، حدثني أبو جعفر بن أبي كثير، حدثني أبو حازم بن دينار، عن سهل بن سعد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحشر الناسُ يوم القيامة على أرض بيضاء عفراءَ كقُرْصة النَّقِيِّ ليس فيها عَلَمٌ لأحد»[١].

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن خالدٍ ـ هو ابن زيد ـ، عن سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: «تكون الأرض يوم القيامة خبزةً واحدة يتكفؤها الجبَّار بيده كما يتكفؤ أحدكم خبزته في السفر، نُزُلاً لأهل الجنة»[٢].

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ في هذه الآية قال: تبدل الأرض بأرض كفضة بيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم تعمل عليها خطيئة[٣].

وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: تبدل الأرض من فضة والسماء من ذهب[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة: (١١/ ٣٧٢)، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب في البعث والنشور برقم ٢٧٩٠: (٤/ ٢١٥٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ١١٢).

(٢) أخرجه البخاري في الموضع السابق: (١١/ ٣٧٢)، ومسلم في الموضع نفسه برقم ٢٧٩٢: (٤/ ٢١٥١)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ١١٣).

(٣) أخرجه البزار وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في «البعث» مرفوعًا، وأخرجه موقوفًا: عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ في «العظمة» والحاكم في «المستدرك» والبيهقي في «البعث».
قال البيهقي: (والموقوف أصح). انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٥٦ ـ ٥٧).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «صفة الجنة»، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.
انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٥٧).

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩﴾

وقال محمد بن كعب وسعيد بن جبير: تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه[١].

وقيل: معنى التبديل: جعل السموات جنانًا وجعل الأرض نيرانًا.

وقيل: تبديل الأرض تغييرها من هيئة إلى هيئة، وهي تسيير جبالها، وطمّ أنهارها، وتسوية أوديتها، وقطع أشجارها، وجعلها قاعًا صفصفًا، وتبديل السموات: تغيير حالها بتكوير شمسها، وخسوف قمرها، وانتثار نجومها، وكونها مرة كالدهان، ومرة كالمهل.

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أخبرنا عبد الغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا علي بن مسهر، عن داود ـ وهو ابن أبي هند ـ، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله عزَّ وجلَّ: «يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ»، فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله؟ فقال: «على الصراط»[٢].

وروى ثوبان أن حبرًا من اليهود سأل رسول الله ﷺ فقال: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض؟ قال: «هم في الظلمة دون الجسر»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟﴾ خرجوا من قبورهم ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨﴾ الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ﴾ مشدودين بعضهم ببعض ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩﴾ في القيود والأغلال، واحدها: صَفَد، وكل من شددته شدًّا وثيقًا فقد صفدته.

قال أبو عبيدة: صَفَدْتُ الرجل فهو مصفود، وصفَّدته بالتشديد فهو مصفَّد.

وقيل: يقرن كل كافر مع شيطانه في سلسلة، بيانه قوله تعالى: «۞ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ» [الصافات: ٢٢]، يعني: قرناءهم من الشياطين.

وقيل: معناه: مقرنة أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد والقيود، ومنه قيل للحبل: قَرَن.

---

(١) أخرجه ابن جرير عنهما. انظر: «التفسير»: (١٣/ ٢٥٢) طبع الحلبي.

(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة برقم ٢٧٩١: (٤/ ٢١٥٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ١٠٧ـ١٠٨).

(٣) قطعة من حديث طويل، أخرجه مسلم في الحيض، باب بيان صفة مني الرجل والمرأة، وأن الولد مخلوق من مائهما برقم ٣١٥: (١/ ٢٥٢).

سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ
إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ
وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

﴿ سَرَابِيلُهُم ﴾ أي: قُمُصُهم، واحدها: سربال ﴿ مِّن قَطِرَانٍ ﴾ هو الذي تهنأ به الإبل.

١٩٥/ب وقرأ عكرمة ويعقوب «من قطرٍ آنٍ» على كلمتين منونتين، / والقطر: النحاس، والصفر: المذاب، والآن: الذي انتهى حرُّه، قال الله تعالى: « يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ»[الرحمن: ٤٤].

﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾ أي: تعلو.

﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ من خير وشر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا ﴾ أي: هذا القرآن ﴿ بَلَٰغٌ ﴾ أي: تبليغ وعظة ﴿ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ ﴾ وليخوفوا ﴿ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ أي: ليستدلوا بهذه الآيات على وحدانية الله تعالى: ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ أي: ليتعظ أولو العقول.

* * *

سورة الحِجْر

مكية[(١)].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾

﴿الٓرۚ﴾ قيل: معناه: أنا الله أرى[(٢)] ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: هذه آيات الكتاب ﴿وَقُرْءَانٍ﴾ أي: وآيات قرآن ﴿مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾ أي: بيِّن[(٣)] الحلال من الحرام والحق من الباطل.

فإن قيل: لِمَ ذكر الكتاب ثم قال: «وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ»، وكلاهما واحد؟

قلنا: قد قيل كل واحد يفيد فائدة أخرى، فإن الكتاب: ما يكتب، والقرآن: ما يجمع بعضه إلى بعض.

وقيل: المراد بالكتاب: التوراة والإنجيل، وبالقرآن هذا الكتاب.

﴿رُّبَمَا﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وعاصم بتخفيف الباء والباقون بتشديدها، وهما لغتان، و«رُبَّ» للتقليل و«كم» للتكثير و«رُبَّ» تدخل على الاسم، و«رُبَمَا» على الفعل، يقال: رُبَّ رجل جاءني، ورُبَمَا جاءني رجل، وأدخل ما هاهنا للفعل بعدها ﴿يَوَدُّ﴾ يتمنى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾.

واختلفوا في الحال التي يتمنى الكافر فيها الإسلام:

قال الضحاك: حالة المعاينة[(٤)]. وقيل: يوم القيامة.

والمشهور: أنه[(٥)] حين يخرج الله المؤمنين من النار.

---

(١) مكية بالاتفاق، وهو مروي عن ابن عباس وابن الزبير. انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٦١).

(٢) انظر فيما سبق: (١/ ٥٨ـ٥٩).

(٣) في «ب»: (بين).

(٤) وفيه نظر؛ إذ لا يقين للكافر حينئذ بحال المسلمين. انظر: «المحرر الوجيز»: (٨/ ٢٧٩).

(٥) في «ب»: (وهو المشهور، أنه).

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾

ورُوي عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «إذا اجتمع أهل النار في النار، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار لمن في النار من أهل القبلة: ألستم مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وأنتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأُخذنا بها، فيغضب الله تعالى لهم (بفضل رحمته)[1]، فيأمر بكل مَن كان من أهل القبلة في النار فيخرجون منها، فحينئذ يودُّ الذين كفروا لَوْ كانوا مسلمين»[2].

فإن قيل: كيف قال «ربما» وهي للتقليل، وهذا التمني يكثر من الكفار؟

قلنا: قد تذكر «ربما» للتكثير، أو أراد: أن شغلهم بالعذاب لا يفرغهم للندامة إنما يخطر ذلك ببالهم أحيانًا.

﴿ذَرْهُمْ﴾ يا محمد، يعني: الذين كفروا ﴿يَأْكُلُوا﴾ في الدنيا ﴿وَيَتَمَتَّعُوا﴾ من لذاتهم[3] ﴿وَيُلْهِهِمُ﴾ يشغلهم ﴿الْأَمَلُ﴾ عن الأخذ بحظهم من الإيمان والطاعة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ إذا وردوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا، وهذا تهديد ووعيد.

وقال بعضُ أهل العلم: «ذَرْهُمْ» تهديد، وقوله: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» تهديد آخر، فمتى[4] يهنأ العيش بين تهديدين.

والآية نسختها آية القتال[5].

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «التفسير»: (١٤/ ٢) طبع الحلبي، وابن أبي عاصم في «السُّنَّة»: (١/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦)، والحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٤٤٢)، وقال: صحيح ولم يخرجاه.

قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٤٥): (رواه الطبراني، وفيه خالد بن نافع الأشعري، قال أبو داود: متروك، قال الذهبي: هذا تجاوز في الحدّ، فقد حدث عنه أحمد بن حنبل وغيره ـ وبقية رجاله ثقات).

وعزاه في «كنز العمال» (١٤/ ٥٤١) أيضًا لابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث والنشور». وانظر: «تفسير ابن كثير»: (٢/ ٥٤٧).

وصححه الألباني في «ظلال الجنة في تخريج السنة»: (١/ ٤٠٦).

(٣) في «ب»: (في لذاتها).

(٤) في «أ»: (فكيف).

(٥) ذكر هذا كثير من المفسرين. انظر: «الناسخ والمنسوخ» لأبي القاسم هبة الله بن سلامة: ص٥٨، «المحرر الوجيز»: (٨/ ٢٨١)، «زاد المسير»: (٤/ ٣٨٢).

هذا، وقد ألمحنا في موضع سابق من هذا التفسير إلى أن بعض العلماء توسعوا كثيرًا في الحكم على كثير من آيات الصبر والمسالمة والإعراض عن المشركين وتهديدهم بالعذاب بالنسخ، وجعلوا آية القتال أو آية السيف ناسخة لأكثر من مائة آية في القرآن الكريم، وفي هذا غلو في القول بالنسخ، وخروج به عن مفهومه الصحيح.

انظر: «علوم القرآن» لأستاذنا الدكتور عدنان محمد زرزور: ص٢١٠ ـ ٢١٢، واقرأ الفصل بكامله عن «الناسخ والمنسوخ».

وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾
وَقَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا
ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ أي: من أهل قرية ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾﴾ أي: أجل مضروب لا يتقدم عليه، ولا يأتيهم العذاب حتى يبلغوه، ولا يتأخر عنهم.

﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ «من» صلة ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾ أي: الموت لا يتقدم ولا يتأخر، وقيل: العذاب المضروب.

﴿وَقَالُوا﴾ يعني: مشركي مكة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ أي: القرآن، وأرادوا به محمدًا ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾ وذكروا تنزيل الذكر على سبيل[1] الاستهزاء.

﴿لَّوْ مَا﴾ هلا ﴿تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ شاهدين لك بالصدق على ما تقول ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾﴾ إنك نبي[2].

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر بنونين «الملائكة» نصب، وقرأ أبو بكر بالتاء وضمها وفتح الزاي «الملائكة» رفع، وقرأ الباقون بالتاء وفتحها[3] وفتح الزاي «الملائكة» رفع ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعذاب، ولو نزلت، يعني: الملائكة لعجلوا بالعذاب ﴿وَمَا كَانُوٓا إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾ أي: مؤخَّرين، وقد كان الكفار يطلبون إنزال الملائكة عيانًا فأجابهم الله تعالى بهذا، ومعناه: إنهم لو نزلوا عيانًا لزال عن الكفار الإمهال وعُذِّبوا في الحال.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ يعني: القرآن ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ أي: نحفظ القرآن من الشياطين أن يزيدوا فيه، أو ينقصوا منه، أو يبدِّلوا، قال الله تعالى: «لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ»[فصلت: ٤٢]، والباطل: هو إبليس، لا يقدر أن يزيد فيه ما ليس منه، ولا أن ينقص منه ما هو منه.

وقيل: الهاء في «له» راجعة إلى محمد ﷺ، أي: إنا لمحمد لحافظون ممن أراده بسوء كما قال جلَّ ذِكره: «وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ»[المائدة: ٦٧].

---

(١) في «ب»: (طريق).
(٢) ساقط من «ب».
(٣) في «ب»: (وضمها).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾
كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾
وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ
نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ أي: رسلًا ﴿فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾﴾ أي: في (الأمم والقرون الماضية)[1].

والشيعة: هم القوم المجتمعون[2] المتفقة كلمتهم.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾ كما فعلوا بك، ذكره[3] تسلية للنبي ﷺ.

﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾ أي: كما سلكنا الكفر والتكذيب والاستهزاء بالرسل[3] في قلوب شيع الأولين، كذلك (نسلكه: ندخله)[3] ﴿فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ يعني: مشركي مكة قومك، وفيه ردٌّ على القدرية[4].

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ يعني: لا يؤمنون بمحمد ﷺ وبالقرآن ﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي: وقائع الله تعالى بالإهلاك فيمن كذب الرسل من الأمم الخالية، يخوِّف أهل مكة.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ يعني: على الذين يقولون: لو ما تأتينا بالملائكة ﴿بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: فظلت الملائكة يعرجون فيها، وهم يرونها عيانًا، هذا قول الأكثرين.

وقال الحسن: معناه: فظل هؤلاء الكفار يعرجون فيها، أي: يصعدون.

والأول أصح[5].

﴿لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ﴾ سُدَّت ﴿أَبْصَٰرُنَا﴾ قاله ابن عباس[6].

---

(١) في «ب»: (أمم الأولين الماضية).

(٢) في «أ»: (المجتمعة).

(٣) ساقط من «ب».

(٤) القدرية: هم الذين ينكرون القدر، فيقولون: لا قدر والأمر أُنُف، ويزعمون أن كل عبد خالق لفعله، فالأمور يستأنف العلم بها، وتستأنف ـ بالتالي ـ إرادتها، وكأنهم بهذا ينفون الإرادة الأزلية والعلم الأزلي ليخرجوا فعل الإنسان عن نطاق قدرة الخلاق العليم.
انظر: «الوصية الكبرى» لشيخ الإسلام ابن تيمية بتحقيقنا: ص٥٧، تعليق (٥).

(٥) وهو مروي عن ابن عباس وابن جريج وقتادة والضحاك، وإليه ذهب الطبري، واعتمد ابن كثير قول الحسن، وهو ما قاله ابن عطية كذلك.
انظر: «تفسير الطبري»: (١٤/ ١٠ ـ ١١) طبع الحلبي، «تفسير ابن كثير»: (٢/ ٥٤٨)، «المحرر الوجيز»: (٨/ ٢٨٨)، «زاد المسير»: (٤/ ٣٨٦).

(٦) وهو قول مجاهد والضحاك. انظر: «تفسير الطبري»: (١٤/ ١٢).

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧﴾

وقال الحسن: سحرت، وقال قتادة: أخذت[١]، وقال الكلبي: عميت[٢].

وقال ابن كثير «سُكِرَت» بالتخفيف، أي: حُبست ومُنعت النظر كما يسكر النهر لحبس الماء.

﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥﴾ أي: عمل فينا السحر فسحرنا محمد ﷺ.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ والبروج: هي النجوم الكبار، مأخوذة من الظهور، يقال: تبرجت المرأة، أي: ظهرت.

وأراد بها: المنازل التي تنزلها الشمس والقمر والكواكب السيارة، وهي اثنا عشر برجًا: الحَمَل، والثَّوْر، والجَوْزاء، والسَّرَطان والأسد، والسُّنْبُلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجَدْي، والدلو، والحوت[٣].

وقال عطية: هي قصور في السماء عليها الحرس[٤].

﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ أي: السماء بالشمس والقمر والنجوم ﴿لِلنَّـٰظِرِينَ ۝١٦﴾.

﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧﴾ مرجوم، وقيل: ملعون.

قال ابن عباس: كانت الشياطين لا يحجبون عن السموات، وكانوا يدخلونها، ويأتون بأخبارها فيلقون على الكهنة، فلما وُلد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ / منعوا من ثلاث سموات، فلما وُلد محمد ﷺ منعوا من السموات أجمع، فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رُمي بشهاب، فلما منعوا من تلك المقاعد ذكروا ذلك لإبليس، فقال[٥]: لقد حدث في الأرض حدث، قال: فبعثهم فوجدوا رسول الله ﷺ يتلو القرآن، فقالوا: هذا والله ما حدث[٦]. ١/١٩٦

---

(١) وهما قولان متقاربان، وأخرجهما الطبري عن ابن عباس وقتادة أيضًا.

(٢) أخرجه الطبري: (١٤/ ١٣).
وقد رجح الطبري قول من قال: إن معنى ذلك: أخذت أبصارنا وسُحرت، فلا تبصر الشيء على ما هو به، وذهب حدُّ إبصارها، وانطفأ نوره، كما يقال للشيء الحار إذا ذهبت فورته وسكن حدّ حرّه: قد سكر يسكر.

(٣) وهو قول ابن عباس وأبي عبيدة وآخرين.
انظر: «زاد المسير»: (٤/ ٣٨٧)، «الدر المنثور»: (٤/ ٦٩).

(٤) كان في «المطبوع»: (ابن عطية)، وكذلك في «البحر المحيط»، وليس هذا الكلام لابن عطية، وإنما هو: (عطية) كما في «زاد المسير»، وهو مروي أيضًا عن ابن عباس، وقال ابن قتيبة: يقال: هي اثنا عشر برجًا، وأصل البرج: القصر والحسن.
انظر: «زاد المسير»: (٤/ ٣٨٧)، «مشكل القرآن» لابن قتيبة: (١/ ٢٣٨) من «القرطين» لابن مطرف، «الدر المنثور»: (٤/ ٦٩).

(٥) في «ب»: (فقالوا).

(٦) نقله عنه أبو حيان في «البحر المحيط»: (٥/ ٤٤٩)، وابن الجوزي في «زاد المسير»: (٤/ ٣٨٩)، كلاهما دون قوله: فما منهم من أحد . . . إلخ.
وانظر: «تفسير القرطبي»: (١٠/ ١٢)، «الدر المنثور»: (٨/ ٣٠٣).

﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾

﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ﴾ لكن من استرق السمع ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾ والشهاب: الشُّعلة من النار.

وذلك أن الشياطين يركب بعضهم بعضًا إلى السماء الدنيا، ويستَرِقُون السمع من الملائكة، فيرُمون بالكواكب فلا تخطىء أبدًا، فمنهم من تقتله ومنهم من تحرق وجهه أو جنبه أو يده أو حيث يشاء الله، ومنهم من تخبله فيصير غولاً يضلّ الناس في البوادي[1].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمروٌ قال: سمعت عكرمة يقول: سمعت أبا هريرة يقول: إن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربتِ الملائكةُ بأجنحتها خُضْعَانًا[2] لقوله، كأنه سلسلةٌ على صَفْوان، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العليُّ الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض ـ ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدَّد بين أصابعه ـ فيسمعُ أحدهم الكلمةَ فيُلْقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى مَنْ تحته، حتى يلقيَها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشِّهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذبُ معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فيصدَّقُ بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»[3].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا محمد بن أبي مريم، حدثنا الليث، حدثنا ابن جعفر، عن محمد بن عبد الرحمن، عن

---

(١) اختلف في الشهاب، هل يقتل أم لا؟
فقال ابن عباس: الشهاب يجرح ويُحرِق ويخبل ولا يقتل.
وقال الحسن وطائفة: يَقْتُل. فعلى هذا القول في قتلهم بالشهب قبل إلقاء السمع إلى الجنّ قولان:
أحدهما: أنهم يُقتلون قبل إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم، فعلى هذا لا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء، ولذلك انقطعت الكهانة.
والثاني: أنهم يقتلون بعد إلقائهم ما استرقوه إلى غيرهم من الجن، ولذلك ما يعودون إلى استراقه، ولو لم يصل لانقطع الاستراق وانقطع الإحراق. ذكره الماورديّ.
قال القرطبي: والقول الأول أصح.
انظر: «تفسير القرطبي»: (١٠/ ١١).

(٢) «خضعانًا» بفتحتين، من الخضوع، وفي رواية بضم أوله وسكون ثانيه، وهو مصدر بمعنى: خاضعين.
انظر: «فتح الباري»: (٨/ ٥٣٨).

(٣) أخرجه البخاري في التفسير، باب: ﴿حتى إذا فُزِّعَ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قال: الحق، وهو العلي الكبير﴾: (٨/ ٥٣٧)، وفي باب ﴿إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾: (٨/ ٣٨٠).

عروة بن الزبير، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ زوج النبي ﷺ أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «إنَّ الملائكة تنزل في العَنَان، وهو السحاب، فتذكر الأمر الذي قُضِيَ في السماء فتسترقُ الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكُهَّان، فيكذبون معها مائة كذبةٍ من عند أنفسهم»[1].

واعلم أن هذا لم يكن ظاهرًا قبل مبعث النبي ﷺ، ولم يذكره شاعر من العرب قبل زمان النبي ﷺ، وإنما ظهر في بدء أمره وكان ذلك أساسًا لنبوته عليه السلام[2].

وقال يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس بن شريق: إن أول من فزع للرمي بالنجوم هذا الحي من ثقيف وإنهم جاؤوا إلى رجل منهم يقال له: عمرو بن أُمية أحد بني علاج، وكان أهدى[3] العرب، فقالوا له: ألم تَرَ ما حدث في السماء من القذف بالنجوم؟ قال: بلى، فانظروا فإن كانت معالم النجوم التي يُهتدى بها في البر والبحر وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء لما يصلح الناس من معايشهم هي التي يرمى بها فهي ـ والله ـ طي الدنيا وهلاك الخلق الذي فيها، وإن كانت نجومًا غيرها وهي والله ثابتة على حالها فهذا الأمر أراده الله تعالى بهذا الخلق[4].

قال معمر: قلت للزهري: أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال: نعم، قلت: أفرأيت قوله تعالى: «وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ»[الجن: ٩]، قال: غُلِّظت وشُدِّد أمرُها حين بعث النبي ﷺ[5].

وقال ابن قتيبة: إن الرجم كان قبل مبعثه ﷺ، ولكن لم يكن مثله[6] في شدة الحراسة بعد مبعثه[7].

وقيل: إن النجم يَنْقَضُّ فيرمي الشياطين ثم يعود إلى مكانه، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب ذكر الملائكة: (٦/ ٣٠٤)، وفي مواضع أُخرى.

(٢) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٨/ ٢٩٢): (وفي الأحاديث ما يدل على أن الرجم كان في الجاهلية، ولكنه اشتدَّ في وقت الإسلام، وحفظ السماء حفظًا تامًا).
وقال الزَّجَّاج: (لم يكن إلا بعد النبي ﷺ، بدليل أن الشعراء لم يشبهوا به في السرعة إلا بعد الإسلام. وذكر الزهري عن أبي رجاء العطاردي: كنَّا لا نرى الرجم بالنجوم قبل الإسلام).
وانظر تفصيلًا أوسع في القرطبي: (١٠/ ١٢)، (١٩/ ١٢ ـ ١٣)، (١٥/ ٦٦ ـ ٦٧).

(٣) في «ب»: (أدهى).

(٤) انظر: «تفسير القرطبي»: (١٠/ ١٢).

(٥) رواه عبد الرزاق عن معمر.
انظر: «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة: ص٤٢٩، تحقيق السيد صقر.

(٦) استدركناها من «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة، واضطربت العبارة في «المطبوع» اضطرابًا كثيرًا، وفيها زيادات، ليست في «تأويل المشكل»، ولا في النسخ الخطية.

(٧) انظر: «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة: ص٤٣٠.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ١٩ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢١﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾ بسطناها على وجه الماء، يقال: إنها مسيرة خمسمائة سنة في مثلها دحيت من تحت الكعبة[1] ﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ جبالاً ثوابت، وقد كانت الأرض تميد إلى أن أرساها الله بالجبال ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ١٩﴾ مقدَّر معلوم.

وقيل: يعني: في الجبال، وهي جواهر من الذهب والفضة والحديد والنحاس وغيرها، حتى الزرنيخ والكحل كل ذلك يوزن وزنًا، وقال ابن زيد: هي الأشياء التي توزن وزنًا[2].

﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ جمع معيشة، قيل: أراد بها المطاعم والمشارب والملابس، (وهي ما)[3] يعيش به الآدمي[4] في الدنيا ﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠﴾ أي: جعلنا فيها من لستم له برازقين من الدوابِّ والأنعام، أي: جعلناها لكم وكفيناكم رزقها، و«من» في الآية بمعنى «ما» كقوله تعالى: «فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ»[النور: ٤٥].

وقيل: «من» في موضعها؛ لأنه أراد المماليك مع الدواب.

وقيل: «من» في محل الخفض عطفًا على الكاف والميم في «الكم».

﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾ (أي: وما من شيء)[5] ﴿إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ أي: مفاتيح خزائنه.

وقيل: أراد به: المطر.

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢١﴾ لكل أرضٍ حدٌّ مقدر، ويقال: لا تنزل من السماء قطرة إلا ومعها ملك يسوقها حيث يريد الله عزَّ وجلَّ ويشاء.

وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال: في العرش مثال جميع ما خلق الله في البرِّ والبحر، وهو تأويل قوله تعالى: «وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ»[6].

---

(١) انظر: «البحر المحيط»: (٥/ ٤٥٠)، وذكر المصنف ذلك بصيغة التمريض، ولا دليل ثابت عن المعصوم ﷺ في ذلك.

(٢) والمعنى الأول أعمّ وأحسن. انظر: «المحرر الوجيز»: (٨/ ٢٩٣).

(٣) في «أ»: (وقيل).

(٤) في «ب»: (المرء).

(٥) ساقط من «أ».

(٦) نقله القرطبي في «التفسير»: (١٠/ ١٥).

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ أي: حوامل؛ لأنها تحمل الماء إلى السحاب، وهو جمع لاقحة، يقال: ناقة لاقحة إذا حملت الولد.

قال ابن مسعود: يرسل الله الريح فتحمل الماء فيمر به السحاب، فيدرُّ كما تدر اللقحة ثم تمطر[(١)].

وقال أبو عبيدة: أراد باللواقح: الملاقح، واحدتها ملقحة؛ لأنها تلقح الأشجار.

قال عبيد بن عمير: يبعث الله الريح المبشرة فتقمُّ الأرض قمًّا، ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب، ثم يبعث الله المؤلِّفة السحاب بعضه إلى بعض فتجعله ركامًا، ثم يبعث اللواقح فتلقح الشجر[(٢)].

وقال أبو بكر بن عياش: لا تقطر قطرة من السحاب إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيه، فالصَّبَا تهيجه، والشَّمال تجمعه، والجَنوب تدره، والدَّبُور تفرقه.

وفي الخبر أن: اللقح رياح الجنوب.

وفي بعض الآثار: ما هبت ريح الجنوب إلا وبعث عينًا غدقة[(٣)].

وأما الريح العقيم: فإنها تأتي بالعذاب ولا تلقح.

أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبد العزيز بن أحمد الخلال، حدثنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي، أخبرنا من لا أتهم بحديثه، حدثنا العلاء بن راشد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ما هبَّت ريح قط إلا جثا النبي ﷺ على ركبتيه، وقال: «اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابًا، اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا»، قال ابن عباس: في كتاب الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾[القمر: ١٩]، ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾[الذاريات: ٤١]، وقال: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾[الحجر: ٢٢]، وقال: ﴿أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾[(٤)][الروم: ٤٦].

---

(١) أخرجه ابن جرير: (١٤/ ٢٠)، والبيهقي في «السنن»: (٣/ ٣٦٤)، وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني، والخرائطي في «مكارم الأخلاق». انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٧٢).
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٥): (رواه الطبراني، وفيه يحيى الحمّاني وهو ضعيف).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري: (١٤/ ٢١)، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في «العظمة». انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٧٣).

(٣) أخرجه البيهقي في «السنن»: (٣/ ٣٦٣) عن عبد الله مرفوعًا: «ما عام بأمطر من عام، ولا هبَّتْ جَنوب إلا سال وادي»، وقال كذا رُوي مرفوعًا، والصحيح أنه موقوف.

(٤) أخرجه الشافعي في «المسند»: (١/ ٧٥)، وفيه العلاء بن راشد وهو مجهول، ورواه الطبراني ومسدّد وأبو يعلى، والبيهقي في «الدعوات الكبير».
قال الهيثمي: وفيه حسين بن قيس الملقب بحنش، وهو متروك، وقال البوصيري: رواه مسدد وأبو يعلى بسند ضعيف لضعف حسين ابن قيس.
انظر: «مجمع الزوائد»: (١٠/ ١٣٦)، «المطالب العالية»: (٣/ ٢٣٨)، «مشكاة المصابيح»: (١/ ٤٨١).

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ أي: جعلنا المطر لكم سقيًا، يقال: أسقى فلانٌ فلانًا: إذا جعل له سقيًا، وسقاه: إذا أعطاه ما يشرب، وتقول العرب: سقيت الرجل ماءً ولبنًا إذا كان لسقيه[1]، / ١٩٦/ب فإذا جعلوا له ماء لشرب أرضه ودوابه تقول: أسقيته.

﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ يعني: المطر في خزائننا لا في خزائنكم، وقال سفيان: بمانعين.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾ بأن نميت جميعَ الخلائق، فلا يبقى حي سوانا.

والوارث من صفات الله عزَّ وجلَّ، قيل: الباقي بعد فناء الخلق.

وقيل: معناه: إن مصير الخلق إليه[2].

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ قال ابن عباس: أراد بالمستقدمين: الأموات، وبالمستأخرين: الأحياء، قال الشعبي: الأولين والآخرين.

وقال عكرمة: المستقدمون[3] من خلق الله، والمستأخرين[3]: من لم يخلق الله.

وقال مجاهد: المستقدمون: القرون الأولى، والمستأخرون: أُمة محمد ﷺ.

وقال الحسن: المستقدمون في الطاعة والخير، والمستأخرون: المبطئون عنها[4].

وقيل: المستقدمون في الصفوف في الصلاة والمستأخرون فيها، وذلك أن النساء كنَّ يخرجن إلى صلاة الجماعة فيقفن خلف الرجال، فربما كان من الرجال مَن في قلبه ريبة فيتأخر إلى آخر صفوف الرجال، ومن النساء من كانت في قلبها ريبة فتتقدم إلى أول صفوف النساء لتقرب من الرجال، فنزلت هذه الآية[5].

---

(١) في «ب»: (لشفته).

(٢) قال البيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ٤١): (الوارث: ومعناه: الباقي بعد ذهاب غيره، وربنا ـ جلَّ ثناؤه ـ بهذه الصفة؛ لأنه يبقى بعد ذهاب المُلاك الذين أمتعهم في هذه الدنيا بما آتاهم؛ لأن وجودهم ووجود الأملاك كان به، ووجوده ليس بغيره، وهذا الاسم مما يؤثر عن رسول الله ﷺ في خبر الأسامي). وانظر: «المنهاج في شعب الإيمان» للحليمي: (١/ ١٨٩).

(٣) في «ب»: (المستقدمين، المستأخرين) في سائر المواضع في تفسير الآية.

(٤) انظر في هذه الأقوال ونسبتها لأصحابها: «تفسير الطبري»: (١٤/ ٢٣ ـ ٢٦)، «البحر المحيط»: (٥/ ٤٥١)، «زاد المسير»: (٤/ ٣٩٦ ـ ٣٩٧)، «الدر المنثور»: (٥/ ٧٣ ـ ٧٦).

(٥) أورد السيوطي جملة آثار في ذلك: منها ما أخرجه الطيالسي وسعيد بن منصور وأحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وابن مردويه، والبيهقي في «السنن» من طريق أبي الجوزاء عن ابن عباس، قال: كانت امرأة تصلي خلف رسول الله . . . فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها، ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر، فإذا ركع نظر من تحت إبطيه، فأنزلت الله ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾. =

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

وقال النبي ﷺ: «خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها»[(١)].

وقال الأوزاعي: أراد المصلين في أول الوقت والمؤخرين إلى آخره.

وقال مقاتل: أراد بالمستقدمين والمستأخرين في صف القتال.

وقال ابن عيينة: أراد: من يسلم ومن لا يسلم[(٢)].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ على ما علم منهم.

وقيل: يميت الكلَّ، ثم يحشرهم، الأولين والآخرين.

أخبرنا أبو صالح أحمد بن عبد الملك المؤذن، أخبرنا أبو سعيد الصيرفي، حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: «من مات على شيء بعثه الله عليه»[(٣)].

= قال الحافظ ابن كثير كَلَّلَهُ عن هذا الأثر: (حديث غريب جدًا . . .)، وقال أيضًا: (وهذا الحديث فيه نكارة شديدة . . . والظاهر أنه من كلام أبي الجوزاء فقط، ليس فيه لابن عباس ذكر، وقد قال الترمذي: هذا أشبه أن يكون أصح).

وقال ابن عطية: ما تقدم وما تأخر من الآية يضعف هذه التأويلات؛ لأنها تذهب إيصال المعنى.

انظر: «تفسير ابن كثير»: (٢/ ٥٥٠ ـ ٥٥١)، «الدر المنثور»: (٥/ ٧٣)، «المحرر الوجيز»: (٨/ ٣٠٣)، «الكافي الشاف» لابن حجر: ص٩٣.

(١) أخرجه مسلم في الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها، برقم ٤٤٠: (١/ ٣٢٦)، والمصنف في «شرح السنة»: (٣/ ٣٧١).

(٢) قال الطبري (١٤/ ٢٦): (وأولى الأقوال عندي في ذلك بالصحة، قول من قال: معنى ذلك: ولقد علمنا الأموات منكم يا بني آدم فتقدَّم موته، ولقد علمنا المستأخرين الذين استأخر موتهم، ممن هو حي، ومن هو حادث منكم ممن لم يحدث بَعْدُ، لدلالة ما قبله من الكلام وما بعده على أن ذلك كذلك.

وجائز أن تكون الآية نزلت في شأن المستقدمين في الصف لشأن النساء والمستأخرين فيه لذلك، ثم يكون الله عزَّ وجلَّ عمَّ بالمعنى المراد منه جميع الخلق، فقال ـ جلَّ ثناؤه ـ لهم: قد علمنا ما مضى من الخلق وأحصيناهم، وما كانوا يعملون ومن هو حيٌّ منكم، ومن هو حادث بعدكم أيها الناس، وأعمال جميعكم خيرها وشرّها، وأحصينا جميع ذلك، ونحن نحشر جميعهم، فنجازي كُلًّا بأعماله، إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًّا فشرًّا، فيكون ذلك تهديدًا ووعيدًا للمستأخرين في الصفوف لشأن النساء، ولكل من تعدَّى حدَّ الله، وعمل بغير ما أذن له به، ووعدًا لمن تقدم في الصفوف لسبب النساء، وسارع إلى محبة الله ورضوانه في أفعاله كلها).

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك»: (٤/ ٣١٣) عن جابر ـ رضي الله عنه ـ، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

وأخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٣/ ٣١٣) عن جابر، والخطيب البغدادي في «الفقيه والمتفقه»: (١/ ٢٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٤٠١).

وصححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم ٢٨٣: (١/ ٥١٠)، وانظر: «كنز العمال»: (١٥/ ٦٨١).

وأخرج مسلم من طريق جرير عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يُبعث كل عبد على ما مات عليه»، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت برقم ٢٨٧٨: (٤/ ٢٢٠٦).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ يعني: آدم عليه السلام، سُمي إنسانًا لظهوره وإدراك البصر إياه، وقيل: من النسيان؛ لأنه عهد إليه فنسي ﴿مِن صَلْصَالٍ﴾ وهو الطين اليابس الذي إذا نقرته سمعت له صلصلة، أي: صوتًا.

قال ابن عباس: هو الطين الحر، الذي إذا نضب عنه الماء تشقّق، فإذا حرك تقعقع.

وقال مجاهد: هو الطين المنتن، واختاره الكسائي، وقال: هو من صَلَّ اللحم وأَصَلَّ: إذا أنتن[1].

﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ والحمأ: الطين الأسود ﴿مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي: متغيِّر، قال مجاهد وقتادة: هو المنتن المتغير

وقال أبو عبيدة: هو المصبوب، تقول العرب: سننت الماء، أي: صببته.

قال ابن عباس: هو التراب المبتلُّ المنتن، جعل صلصالاً كالفخار[2].

وفي بعض الآثار: إن الله عزَّ وجلَّ خمر طينة آدم وتركه حتى صار متغيِّرًا أسود، ثم خلق منه آدم عليه السلام[3].

﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ﴾ قال ابن عباس: هو أبو الجن كما أن آدم أبو البشر.

وقال قتادة: هو إبليس خلق بل آدم.

ويقال: الجانّ: أبو الجن، وإبليس أبو الشياطين.

وفي الجن مسلمون وكافرون، ويحيون ويموتون، وأما الشياطين فليس منهم مسلمون، ويموتون إذا مات إبليس.

وذكر وهب: إن من الجن من يولد لهم ويأكلون ويشربون (بمنزلة الآدمين)[4]، ومن الجن مَنْ هم بمنزلة الريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يتوالدون.

﴿مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ والسموم: ريح حارة تدخل مسامَّ الإنسان فتقتله، ويقال: السَّموم بالنهار والحَرور بالليل.

وعن الكلبي، عن أبي صالح: السموم نار لا دخان لها، والصواعق تكون منها، وهي نار بين السماء وبين الحجاب، فإذا أحدث الله أمرًا خرقت الحجاب فهوت إلى ما أمرت، فالهدَّةُ التي تسمعون في خرق ذلك الحجاب.

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز»: (٨/ ٣٠٣ـ٣٠٥)، «البحر المحيط»: (٥/ ٤٥٣).

(٢) انظر: «المحرر الوجيز»: (٨/ ٣٠٥ـ٣٠٦)، «زاد المسير»: (٤/ ٣٩٧ـ٣٩٨).

(٣) أخرج نحوًا من هذا مطولاً: ابن عساكر عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ موقوفًا عليه، وما انفرد به ابن عساكر فهو ضعيف غالبًا.
انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٧٧).

(٤) ساقط من «أ».

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾

وقيل: نار السَّموم: لهب النار، وقيل: من نار السموم، أي: من نار جهنم.

وعن الضحاك، عن ابن عباس قال: كان إبليس من حي من الملائكة يقال لهم: الجن، خلقوا من نار السَّموم[١]، وخلق الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، فأما الملائكة فإنهم خلقوا من النور[٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾ أي: سأخلق بشرًا ﴿مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ عدَّلْتُ صورته، وأتممت خلقه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ فصار بشرًا حيًّا، والروح: جسم لطيف يحيا به الإنسان، وأضافه إلى نفسه تشريفًا ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ سجود تحية لا سجود عبادة.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الذين أمروا بالسجود ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

فإن قيل: لِمَ قال «كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ»، وقد حصل المقصود بقوله فسجد الملائكة؟

قلنا: زعم الخليل وسيبويه أنه ذكر ذلك تأكيدًا.

وذكر المبرِّد: أن قوله: «فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ» كان من المحتمل أنه سجد بعضهم، فذكر «كُلُّهُمْ»؛ ليزول هذا الإشكال، ثم كان (يحتمل أنهم سجدوا)[٣] في أوقات مختلفة فزال ذلك الإشكال بقوله «أَجْمَعُونَ»[٤].

وروى عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: إنَّ الله عزَّ وجلَّ قال لجماعة من الملائكة: اسجدوا لآدم فلم يفعلوا فأرسل الله عليهم نارًا فأحرقتهم، ثم قال لجماعة أخرى: اسجدوا لآدم فسجدوا[٥].

---

(١) انظر فيما سبق: تفسير سورة البقرة: (١/ ٣٥ـ٣٦).

(٢) أخرجه الإمام مسلم في «صحيحه»: (٤/ ٢٢٩٤) عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قلت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم».

(٣) في «ب»: (من المحتمل أن يسجدوا).

(٤) جاء هذا الجواب أوضح في «مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل»: ص١٦٧ ـ ١٦٨، قال: (قال سيبويه والخليل: هو توكيد بعد توكيد، فيفيد زيادة تمكين المعنى وتقريره في الذهن، فلا يكون تحصيل الحاصل، بل تكون نسبة «أجمعون» كنسبة «كلهم» إلى أصل الجملة.

وقال المبرِّد: قوله تعالى: «أجمعون» يدل على اجتماعهم في زمان السجود، و«كلهم» يدل على وجود السجود من الكل، فكأنه قال: فسجد الملائكة كلهم معًا في زمانٍ واحد. واختار ابن الأنباري هذا القول. واختار الزَّجَّاج وأكثر الأئمة قولَ سيبويه، وقالوا: لو كان الأمر كما زعم المبرِّد لكان «أجمعون» حالاً، لوجود حدّ الحال فيه، وليس بحال؛ لأنه مرفوع؛ ولأنه معرفة كسائر ألفاظ التوكيد).

(٥) أخرجه الطبري في «التفسير»: (١٤/ ٣١)، وقال ابن كثير (٢/ ٥٥١): (وفي ثبوت هذا عنه نظر، والظاهر أنه إسرائيلي) ووصفه بأنه أثر غريب عجيب.

إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾
قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ
رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾
قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ
لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا
صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾

﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾﴾ أراد: أنا أفضل[1] منه؛ لأنه طينيّ، وأنا ناريّ، والنار تأكل الطين.

﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ أي: من الجنة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾﴾ طريد.

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ قيل: إن أهل السموات يلعنون إبليس كما يلعنه أهل الأرض، فهو ملعون في السماء والأرض.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ أراد الخبيث: أن لا يموت.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ أي: الوقت الذي يموت فيه الخلائق، وهو النفخة الأولى.

ويقال: إن مدة موت إبليس أربعون سنة، وهي ما بين النفختين.

ويقال: لم تكن إجابة الله تعالى إياه في الإمهال إكرامًا له، بل كانت زيادة في بلائه وشقائه.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ أضللتني، وقيل: خيّبْتني من رحمتك ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ حُبَّ الدنيا ومعاصيك ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ﴾ أي: لأضلنّهم ﴿أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ المؤمنين الذين أخلصوا لك الطاعة والتوحيد، ومن فتح اللام، أي: مَنْ أخلصته بتوحيدك واصطفيته.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ قال الحسن: معناه: صراط إليَّ مستقيم.

---

(١) في «ب»: (خير).

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله تعالى، وعليه طريقه، ولا يعوج عليه شيء.

وقال الأخفش: يعني: عليَّ الدلالة على الصراط المستقيم.

قال الكسائي: هذا على التهديد والوعيد كما يقول الرجل لمن يخاصمه: طريقك عليَّ، أي: لا تفلت مني، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[الفجر: ١٤].

وقيل: معناه: عليَّ استقامته بالبيان والبرهان والتوفيق والهداية.

وقرأ ابن سيرين وقتادة ويعقوب: «عَلِيٌّ»، من العُلُوِّ، أي: رفيع، وعبَّر بعضهم عنه: رفيع أن يُنال، مستقيم أن يُمال.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ / أي: قوة. ١/١٩٧

قال أهل المعاني: يعني: على قلوبهم.

وسُئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية فقال: معناه ليس لك عليهم سلطان تلقيهم في ذنب يضيق عنه عفوي، وهؤلاء ثنية الله الذين هداهم واجتباهم ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ يعني: موعد إبليس ومن تبعه.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ أطباق.

قال علي - رضي الله عنه -: تدرون كيف أبواب النار؟ هكذا، ووضع شعبة إحدى يديه على الأخرى[1]، أي: سبعة أبواب بعضها فوق بعض، وإن الله وضع الجنان على العرض ووضع النيران بعضها فوق بعض.

قال ابن جريج: النار سبع دركات، أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية.

﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ أي: لكل دركةٍ قومٌ يسكنونها.

وقال الضحاك: في الدركة الأولى أهل التوحيد الذين أُدخلوا النار، يعذَّبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون، وفي الثانية النصارى، وفي الثالثة اليهود، وفي الرابعة الصابئون، وفي الخامسة المجوس، وفي السادسة أهل الشرك، وفي السابعة المنافقون، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[النساء: ١٤٥].

---

(١) أخرجه الطبري: (١٤/ ٣٥)، ومنه زدنا كلمة «شعبة» وهو الراوي الذي حكى الإشارة بيديه.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

ورُوي عن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «لجهنّم سبعة أبواب، باب منها لمن سلَّ السيف على أمتي أو قال على أمة محمد»[١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ أي: في بساتين وأنهار.

﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ أي: يقال لهم: ادخلوا الجنة ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ أي: بسلامة ﴿ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ من الموت والخروج والآفات.

﴿وَنَزَعْنَا﴾ أخرجنا ﴿مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ هو الشحناء والعداوة والحقد والحسد ﴿إِخْوَٰنًا﴾ نصب على الحال ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ جمع سرير ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ يقابل بعضهم بعضًا، لا ينظر أحد منهم إلى قفا صاحبه.

وفي بعض الأخبار: إن المؤمن في الجنة إذا وَدَّ أن يلقى أخاه المؤمن سار سرير كل واحد منهما إلى صاحبه فيلتقيان ويتحدثان.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾ لا يصيبهم ﴿فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: تعب ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ هذه أنصُّ آية في القرآن على الخلود.

قوله تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ قال ابن عباس: يعني: لمن تاب منهم.

ورُوي أن النبي ﷺ خرج يومًا على نفر من أصحابه وهم يضحكون، فقال: «أتضحكون وبين أيديكم النار»، فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآية، وقال: «يقول لك ربُّك: يا محمد، لِمَ تقنط عبادي من رحمتي»[٢].

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ قال قتادة: بلغنا أن نبي الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام، ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه»[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الحجر: (٨/ ٥٥١ ـ ٥٥٢)، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول، والإمام أحمد في «المسند»: (٢/ ٩٤)، والبخاري في «التاريخ»: (٢/ ٢٣٥) باختصار.
وعزاه السيوطي أيضًا لابن مردويه. انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٨١).

(٢) أخرجه الطبري عن رجل من أصحاب النبي ﷺ: (١٤/ ٣٩)، وعزاه السيوطي لابن مردويه. «الدر المنثور»: (٥/ ٨٦).
وذكره الواحدي في «أسباب النزول»: ص٣٢٠، والقرطبي في «التفسير»: (١٠/ ٣٤)، وأبو حيان في «البحر المحيط»: (٥/ ٤٥٧).
وروى نحوه دون ذكر نزول جبريل: الطبراني عن عبد الله بن الزبير، وفيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف. انظر: «مجمع الزوائد»: (٧/ ٤٦).

(٣) رواه الطبري عن قتادة بلاغًا: (١٤/ ٣٩)، وزاد السيوطي نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم. انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٨٦).

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ۝٥٦﴾

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن عمرو بن أبي عمرو، عن سعيد ابن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إنَّ الله خلق الرحمة يوم خلقها مائةَ رحمةٍ، فأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمة، وأرسل في خَلْقِهِ كلِّهم رحمةً واحدة، فلو يعلمُ الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلمُ المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار»[1].

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝٥١﴾ أي: عن أضيافه، والضيف: اسم يقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى ليبشروا إبراهيم عليه السلام بالولد، ويهلكوا قوم لوط.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢﴾ خائفون؛ لأنهم لم يأكلوا طعامه.

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ لا تخف ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝٥٣﴾ أي: غلام في صِغَرِه، عليم في كبره، يعني: إسحاق، فتعجب إبراهيم عليه السلام من كبره وكبر امرأته.

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ أي: بالولد ﴿عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ أي: على حال الكبر، قاله على طريق التعجب ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤﴾ فبأي شيء تبشرون؟ قرأ نافع بكسر النون وتخفيفها، أي: تبشرون، وقرأ ابن كثير بتشديد النون، أي: تبشرونني، أدغمت نون الجمع في نون الإضافة، وقرأ الآخرون بفتح النون وتخفيفها.

﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ۝٥٥﴾.

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب بكسر النون، والآخرون بفتحها، وهما لغتان: قَنَطَ يَقْنِط، وقَنِطَ يَقْنَطُ[2]، أي: من ييأس ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ۝٥٦﴾ أي: الخاسرون، والقنوط

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب الرجاء مع الخوف: (١١/ ٣٠١)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٣٧٨).

(٢) ردَّ أبو عبيدة القراءة بكسر النون، فقال ابن عطية في «المحرر الوجيز»: (٨/ ٣٢٧)، وليس كما قال؛ لأنهم لا يُجمعون إلا على قويٍّ في اللغة مرويٍّ عندهم، وهي قراءة فصيحة.

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ
إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ
لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ
يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾

من رحمة الله كبيرة كالأمن من مكره(١).

﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم لهم: ﴿ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ ما شأنكم ﴿ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾؟

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ مشركين.

﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ﴾ أتباعه وأهل دينه ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ خفف الجيم حمزة والكسائي، وشدَّده الباقون.

﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾ أي: امرأة لوط ﴿ قَدَّرْنَآ ﴾ قضينا ﴿ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ الباقين في العذاب، والاستثناء من النفي إثبات، ومن الإثبات نفي، فاستثنى امرأة لوط من الناجين فكانت ملحقة بالهالكين.

قرأ أبو بكر «قدرنا» هاهنا وفي سورة النمل بتخفيف الدال، والباقون بتشديدها.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ لوط لهم ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ أي: أنا لا أعرفكم.

﴿ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ أي: يشكُّون أنه نازلٌ بهم، وهو العذاب؛ لأنه كان يوعدهم بالعذاب ولا يصدقونه.

---

(١) روى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر؟ فقال: «الشرك بالله، واليأس من رَوْح الله، والأمنُ مِنْ مكر الله».
أخرج عبد الرزاق في «المصنف»: (١٠/ ٤٦٠) عن ابن مسعود قال: «أكبر الكبائر الشرك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رَوْح الله»، وعزاه الهيثمي للطبراني وقال: «إسناده صحيح». «مجمع الزوائد»: (١/ ١٠٤).
وقال الطحاوي: (الأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام، وسبيل الحق بينهما لأهل الإسلام)، فيجب أن يكون العبد خائفًا راجيًا، فإن الخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خِيفَ منه اليأس والقنوط. والرجاء المحمود: رجاء رجلٍ عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راجٍ لثوابه، أو رجل أذنب ذنبًا، ثم تاب منه إلى الله، فهو راجٍ لمغفرته.
أما إذا كان الرجل متماديًا في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب.
وقد مدح الله تعالى أهل الخوف والرجاء بقوله: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾[الزمر: ٩]، وقال: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[السجدة: ١٦]، فالرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمْنًا، والخوف يستلزم الرجاء، ولولا ذلك لكان قنوطًا ويأسًا، وكل أحد إذا خفته، هربت منه، إلا الله تعالى، فإنك إذا خِفْتَه هربت إليه، فالخائف هارب من ربه إلى ربه . . .». انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي: ص٣٥٧ـ٣٥٨.

وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾

﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ باليقين، وقيل: بالعذاب ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ أي: سِرْ خلفهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ حتى لا يرتاعوا من العذاب إذا نزل بقومهم.

وقيل: جعل الله ذلك علامة لمن ينجو من آل لوط.

﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ قال ابن عباس: يعني: الشام، وقال مقاتل: يعني: زُغَر[1]، وقيل: الأردن.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ﴾ أي: فرغنا إلى آل لوط من ذلك الأمر، أي: أحكمنا الأمر الذي أمرنا في قوم لوط، وأخبرناه: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ﴾ يدل عليه قراءة عبد الله «وقلنا له إن دابر هؤلاء» يعني: أصلهم ﴿مَقْطُوعٌ﴾ مستأصل ﴿مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ إذا دخلوا في الصبح.

﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾ يعني: سدوم ﴿يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ بأضياف لوط، أي: يبشر بعضهم بعضًا، طمعًا في ركوب الفاحشة منهم.

﴿قَالَ﴾ لوط لقومه: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي﴾ وحقٌّ على الرجل إكرام ضيفه ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾﴾ فيهم.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾ ولا تُخجِلُون.

﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾ أي: ألم ننهك عن أن تضيف أحدًا من العالمين.

وقيل: ألم ننهك أن تُدخل الغرباء المدينة، فإنا نركب منهم الفاحشة.

---

(١) في «ب»: (زَعْر) ـ بالعين المهملة الساكنة، أوله مفتوح ـ موضع بالحجاز، قال ياقوت الحموي في «معجم البلدان» (٣/ ١٤٢ ـ ١٤٣):
«زُغَر»: بالغين المعجمة، بوزن زُفَر ـ قرية بمشارف الشام وإياها عنى أبو داؤد الإيادي حيث قال:

كَكِتابةِ الزُّغَرِيِّ غَشَّاها من الذَّهَبِ الدُّلامِصُ

وقيل: «زُغَر» اسم بنت لوط عليه السلام نزلت بهذه القرية فسميت باسمها، وقال حاتم الطائي:

سقى اللهُ ربُّ النّاسِ سحًّا وديمَةً جنوبَ السَّراةِ من مآبٍ إلى زُغَر

وجاء ذكر «زُغَر» في حديث الجساسة، الذي أخرجه مسلم في الفتن برقم ٢٩٤٢: (٤/ ٢٢٦١ ـ ٢٢٦٢).

قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ﴾ أزوجهنَّ أياكم إن أسلمتم[1]، فأتوا الحلال ودعُوا الحرام ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾ ما آمركم به.

وقيل: أراد بالبنات: نساء قومه؛ لأن النبي كالوالد لأمته.

قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ يا محمد، أي: وحياتك ﴿إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ﴾ حيرتهم وضلالتهم ﴿يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ يترددون.

قال قتادة: يلعبون.

رُوي عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: ما خلق الله نفسًا أكرم عليه من محمد ﷺ، وما أقسم الله تعالى بحياة أحد إلا بحياته[2].

١٩٧/ب / ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: حين أضاءت الشمس، فكان ابتداء العذاب حين أصبحوا، وتمامه حين أشرقوا.

﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ قال ابن عباس: للناظرين.

وقال مجاهد: للمتفرسين، وقال قتادة: للمعتبرين، وقال مقاتل: للمتفكرين[3].

---

(١) قال ابن عطية بعد أن ذكر الخلاف في تأويل قوله «بناتي»: (... ويلزم من هذا التأويل أن يكون في شرعه جواز زواج الكافر للمؤمنة، وقد ورد أن المؤمنات به قليل جدًا.

وقال: ويحتمل أن يريد عليه السلام بقوله: ﴿هؤلاء بناتي﴾ بنات صلبه، ويكون ذلك على طريق المجاز، وهو لا يحقق في إباحة بناته، وهذا كما تقول لإنسان تراه يريد قَتْل آخر: اقتلني ولا تقتله، فإنما ذلك على جهة التشنيع عليه، والاستنزال من جهةٍ ما، واستدعاء الحياء منه، وهذا كله من مبالغة القول الذي لا يدخله معنى الكذب، بل الغرض منه مفهوم، وعليه قول النبي ﷺ: «ولو كَمَفْحَصِ قَطَاةٍ»... إلى غير هذا من الأمثلة). انظر: «المحرر الوجيز»: (٨/ ٣٣٧ـ٣٣٨).

(٢) أخرجه الطبري في «التفسير»: (١٤/ ٤٤)، والحارث بن أبي أسامة في «مسنده»، وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم، والبيهقي في «الدلائل»، وسكت عليه البوصيري. انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٨٩)، «المطالب العالية» لابن حجر: (٣/ ٣٤٧).

(٣) وهذه المعاني كلها متقاربة، فالله تعالى يقول: إن في الذي فعلنا بقوم لوط من إهلاكهم، وأحللنا بهم من العذاب لَعَلاماتٍ ودلالات للمتفرسين المعتبرين بعلامات الله وعِبَره على عواقب أمور أهل معاصيه والكفر به، وإنما يعني ـ تعالى ذكره ـ بذلك: قوم نبيّ الله ﷺ من قريشٍ، يقول: فَلِقَوْمِك يا محمد في قوم لوط، وما حلَّ بهم من عذاب الله حين كذَّبوا رسولَهم، وتمادوا في غيِّهم وضلالهم، معتبرٌ).
انظر: «تفسير الطبري»: (١٤/ ٤٥).

وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾
فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾
وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾

﴿وَإِنَّهَا﴾ يعني: قرى لوط ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ أي: بطريق واضح.

وقال مجاهد: بطريق معلم[1]، ليس يخفى ولا زائل.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾[2].

﴿وَإِن كَانَ﴾ وقد كان ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ الغيضة ﴿لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ لكافرين، واللام للتأكيد، وهم قوم شعيب عليه السلام، كانوا أصحاب غياض وشجر ملتفٍّ، وكان عامة شجرهم الدَّوْم، وهو المُقْل[3].

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالعذاب، وذلك[4] أن الله سلط عليهم الحرَّ سبعة أيام فبعث الله سحابة فالتجؤوا إليها يلتمسون الروح، فبعث الله عليهم منها نارًا فأحرقتهم، فذلك قوله تعالى: «فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ» [الشعراء: ١٨٩].

﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يعني: مدينتي قوم لوط وأصحاب الأيكة ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾ بطريق واضح مستبين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾ وهي مدينة ثمود قوم صالح، وهي بين المدينة والشام ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ أراد: صالحًا وحده[5].

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ يعني: الناقة وولدها والبئر، فالآيات في الناقة: خروجها من الصخرة، وكبرها، وقرب ولادتها، وغزارة لبنها ﴿فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾.

---

(١) في «ب»: (معلوم).

(٢) (يقول تعالى ذكره: إن في صنيعنا بقوم لوط ما صنعنا بهم، لَعَلامة ودلالة بيِّنة لمن آمن بالله، على انتقامه من أهل الكفر به، وإنقاذه من عذابه، إذا نزل بقوم، أهلَ الإيمان به).
انظر: «تفسير الطبري»: (١٤/ ٤٧).

(٣) في «المعجم الوسيط»: (١/ ٣٠٥): «الدَّوْم»: شجرٌ عظام، من الفصيلة النخيلية، يكثر في صعيد مصر، وفي بلاد العرب، وثمرته في غلظ التفاحة ذات قشر صلب أحمر، وله نواة ضخمة ذات لبٍّ اسفنجي).
وفيه أيضًا: (٢/ ٨٨١): «المُقْلُ»: حَمْلُ الدَّوم، وهو يشبه النخل.

(٤) في «أ»: (وروي).

(٥) وإنما ذكر بلفظ الجمع لأن من كذب بنبي واحد أو كفر فقد كفر بسائر الأنبياء فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض، فمن ردَّ نبوته لحسدٍ أو عصبية أو هوًى . . . يتبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء، وتصديقه له، ليس إيمانًا شرعيًا.
وانظر تفصيلًا أوسع لهذا في «مجلة البحوث الإسلامية» العدد (١٦) بعنوان: «إن الدين عند الله الإسلام» كتبه: عثمان جمعة ضميرية.

﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ من الخراب ووقوع الجبل عليهم.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ يعني: صيحة العذاب ﴿مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: داخلين في وقت الصبح.

﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ من الشرك والأعمال الخبيثة.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أنبأنا محمد بن أحمد بن الحارث، أخبرنا محمد بن يعقوب الكسائي، حدثنا عبد الله بن محمود، أنبأنا إبراهيم بن عبد الله الخلال، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن معمر عن الزهري، أخبرنا سالم بن عبد الله، عن أبيه، عن النبي ﷺ أنه لما مر بالحِجْرِ قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم»، قال: وتقنَّع بردائه وهو على الرَّحْل[(١)].

وقال عبد الرزاق عن معمر: «ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى اجتاز الوادي»[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ السَّاعَةَ﴾ يعني: القيامة ﴿لَآتِيَةٌ﴾ يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ فأعرضْ عنهم واعفُ عفوًا حسنًا، نسختها آية القتال[(٣)].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾ بخلقه[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ قال عمر وعلي: هي فاتحة الكتاب، وهو قول قتادة وعطاء والحسن وسعيد بن جبير.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا آدم، حدثنا ابن أبي ذئب، حدثنا سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم»[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قوله الله تعالى: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحًا﴾: (٦/ ٣٧٨ - ٣٧٩)، ومسلم في الزهد، باب «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم» برقم ٢٩٨٠: (٤/ ٢٢٨٦)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٣٦١).

(٢) «المصنف» لعبد الرزاق: (١/ ٤١٥)، والبيهقي في «السنن»: (٢/ ٤٥١).

(٣) انظر فيما سبق: تفسير الآية (٣) من السورة: ص٧٨ تعليق (٦). (٤) ساقط من «أ».

(٥) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحجر، باب ﴿ولقد آتيناك سبعًا من المثاني والقرآن العظيم﴾: (٨/ ٣٨١). وانظر: «فتح الباري»: الموضع نفسه.

وعن ابن مسعود قال في السبع المثاني: هي فاتحة الكتاب، والقرآن العظيم: هو سائر القرآن[١].

واختلفوا في أن الفاتحة لِمَ سمِّيت مثاني؟

قال ابن عباس والحسن وقتادة: لأنها تُثَنَّى في الصلاة، فتقرأ في كل ركعة[٢].

وقيل: لأنها مقسومة بين الله وبين العبد نصفين، نصفها ثناء ونصفها دعاء، كما رُوي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: يقول الله عزَّ وجلَّ: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين»[٣].

قال الحسين[٤] بن الفضل: سميت مثاني؛ لأنها نزلت مرتين: مرة بمكة، ومرة بالمدينة، كل مرة معها سبعون ألف ملك.

وقال مجاهد: سميت مثاني؛ لأن الله تعالى استثناها وادخرها لهذه الأمة فما أعطاها غيرهم.

وقال أبو زيد البلخي: (سميت مثاني)[٥] لأنها تُثْنِي أهل الشر عن الفسق، من قول العرب: ثنيت عناني.

وقيل: لأن أولها ثناء.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: إن السبع المثاني هي السبع الطوال، أولها سورة البقرة وآخرها الأنفال مع التوبة، وقال بعضهم: سورة يونس بدل الأنفال.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي، (أنا أبو إسحاق الثعلبي، حدثنا أبو محمد الحسن بن أحمد المخلدي)[٥]، أخبرنا أبو بكر محمد بن حمدون بن خالد وعبد الله بن محمد بن مسلم قالا: أنبأنا هلال بن العلاء، حدثنا حجاج بن محمد، عن أيوب بن عتبة، عن يحيى بن كثير، عن شداد بن عبد الله، عن أبي أسماء الرحبي، عن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى أعطاني السبع الطوال مكان التوراة، وأعطاني المِئِين مكان الإنجيل، وأعطاني مكان الزبور المثاني، وفضلني ربي بالمفصل»[٦].

---

(١) أخرجه الطبري في «التفسير»: (١٤/ ٥٥)، وزاد السيوطي نسبته لابن الضريس وابن المنذر وابن مردويه.
انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٩٤)، «زاد المسير»: (٤/ ٤١٣).

(٢) انظر: «الطبري»: (١٤/ ٥٤ ـ ٥٥)، «الدر المنثور»: (٥/ ٩٥ ـ ٩٦)، «زاد المسير»: (٤/ ٤١٣ ـ ٤١٤)، ففيها تفصيل هذه الأقوال ونسبتها لأصحابها. وراجع فيما سبق: (١/ ٤٩).

(٣) وتمامه: «. . . ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرحمن الرحيم﴾ قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: ﴿مالك يوم الدين﴾ قال: مجَّدني عبدي، فإذا قال: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».
أخرجه مسلم في الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة . . . رقم ٣٩٥: (١/ ٢٩٦)، والمصنف في «شرح السنة»: (٣/ ٤٧)، وانظر فيما سبق: (١/ ٥٧).

(٤) في «ب»: (الحسن).

(٥) ساقط من «ب».

(٦) تقدم تخريجه فيما سبق: (١/ المقدمة).

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾

وعن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قال: أوتي النبي ﷺ السبع الطوال، وأعطي موسى ستًا، فلما ألقى الألواح رفع ثنتان وبقي أربع[١].

قال ابن عباس: وإنما سميت السبع الطوال مثاني؛ لأن الفرائض والحدود والأمثال والخَبرَ والعبر ثنيت فيها.

وقال طاووس: القرآن كله مثاني، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾[الزمر: ٢٣]، وسمي القرآن مثاني لأنَّ الأنباء والقصص ثنيت فيه.

وعلى هذا القول: المراد بالسبع: سبعة أسباع القرآن، فيكون تقديره على هذا: وهي القرآن العظيم، وقيل: الواو مقحمة، مجازه: ولقد آتيناك سبعًا من المثاني والقرآن العظيم[٢].

قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ يا محمد ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾ أصنافًا ﴿مِّنْهُمْ﴾ أي: من الكفار متمنيًا لها. نهى الله تعالى رسوله ﷺ عن الرغبة في الدنيا ومزاحمة أهلها عليها[٣].

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لا تغتمَّ على ما فاتك من مشاركتهم في الدنيا.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا أبو جعفر أحمد بن محمد بن العَنَزِيّ، حدثنا عيسى بن نصر أنبأنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا جهم بن أوس قال: سمعت عبد الله بن أبي مريم ـ ومرَّ به عبد الله بن رستم في موكبه ـ فقال لابن أبي مريم: إني لأشتهي مجالستك وحديثك، فلما مضى قال ابن أبي مريم: سمعت أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا تغبطنَّ فاجرًا بنعمته، فإنك لا تدري ما هو لاقٍ بعد موته، إن له عند الله قاتلًا لا يموت» فبلغ ذلك وهب بن منبه فأرسل إليه وهبٌ أبا داود الأعور، قال: يا أبا فلان، ما قاتلًا لا يموت؟ قال ابن أبي مريم: النار[٤].

---

(١) انظر فيما سبق تعليقًا على الروايات عن إلقاء موسى للألواح: ص١٥١، تعليق(١).

(٢) تقدم فيما سبق أنه ليس في القرآن شيء من الحروف مقحم.

(٣) ساقط من «ب».

(٤) رواه البخاري في «التاريخ»، والطبراني في «الأوسط»، والبيهقي، قال الهيثمي: (رواه الطبراني في «الأوسط»، ورجاله ثقات)، ورواه المصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٢٩٤_٢٩٥).
وضعفه الألباني في تعليقه على «المشكاة».
انظر: «فيض القدير» للمناوي: (٦/ ٤١٣)، «مجمع الزوائد»: (١٠/ ٣٥٥)، «مشكاة المصابيح»: (٣/ ١٤٤٥).

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك المظفري السَّرخسي، أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن الفضل الفقيه، حدثنا أبو الحسن بن إسحاق، حدثنا إبراهيم بن عبد الله العبسي، أخبرنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى من هو أسفلَ منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجْدَرُ أن لا تَزْدَرُوا نعمةَ الله عليكم»[1].

وقيل: هذه الآية متصلة بما قبلها لَمَّا مَنَّ الله تعالى عليه بالقرآن نهاه عن الرغبة في الدنيا.

١٩٨/أ رُوي أن سفيان بن عُيَيْنة / رَحِمَهُ اللَّهُ تأوّل قول النبي ﷺ: «ليس منَّا من لم يتغن بالقرآن»[2]، أي: يستغن بالقرآن، فتأوّل هذه الآية[3].

قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ لِنْ جناحك ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ وارفق بهم، والجناحان لابن آدم جانباه.

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ قال الفرَّاء: مجازه: أنذركم عذابًا كعذاب المقتسمين، حكي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: هم اليهود والنصارى.

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق برقم ٢٩٦٣: (٤/ ٢٢٧٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٢٩٣).

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به﴾: (٣/ ٥٠١) وفي مواضع أخرى.

(٣) أخرج البخاري في فضائل القرآن، باب «من لم يتغن بالقرآن»: (٩/ ٦٨) عن أبي هريرة مرفوعًا: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي أن يتغنّى بالقرآن» قال سفيان تفسيره: يستغني به.

قال في «فتح الباري» (٩/ ٦٩): ويمكن أن يستأنس بما أخرجه أبو داود وابن الضريس وصححه أبو عوانة عن ابن أبي مليكة عن عبيد الله ابن نهيك قال: لقيني سعد بن أبي وقاص وأنا في السوق فقال: تُجّار كَسَبَةٌ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس منَّا من لم يتغنَّ بالقرآن».

وقد ارتضى أبو عبيد تفسير يتغنى يستغني ـ وقال: إنه جائز في كلام العرب، وأنشد الأعشى:

وكنت امرءًا زمنًا بالعـــراق ... خفيف المناخ طويل التغـــني

أي: كثير الاستغناء.

وقال المغيرة بن حبناء:

كلانا غني عن أخيه حياتَـــه ... ونحـــن إذا متـنا أشـــدُّ تغانيـــا

قال: فعلى هذا يكون المعنى: من لم يستغن بالقرآن عن الإكثار من الدنيا، فليس منَّا، أي: على طريقتنا، وأيّد ابن كثير تفسير سفيان بن عيينة للحديث فقال: وهو تفسير صحيح، ولكن ليس هو المقصود من الحديث. انظر: ابن كثير: (٢/ ٥٥٨).

وردَّ الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ تفسير ابن عيينة بأنه لو كان معناه على الاستغناء، لكان «يتغانى»، وتحسين الصوت: هو يتغنى.

انظر: «شرح السنة» للبغوي: (٤/ ٤٨٧)، وراجع حكم التغني بالقرآن واختلاف العلماء فيه وفي معناه في: «فتح الباري»: (٩/ ٦٩ ـ ٧٢)، «تفسير القرطبي»: (١/ ١١، وما بعدها) «التبيان في آداب حملة القرآن» للنووي: ص٨٧ ـ ٩٠، «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٢١٤ـ٢١٧).

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ جزّؤوه فجعلوه أعضاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، وقال مجاهد: هم اليهود والنصارى قسموا كتابهم ففرقوه وبدّلوه[1].

وقيل: «المقتسمون» قوم اقتسموا القرآن، فقال بعضهم: سحر، وقال بعضهم: شعر، وقال بعضهم: كذب، وقال بعضهم: أساطير الأولين.

وقيل: الاقتسام هو أنهم فرقوا القول في رسول الله ﷺ فقالوا: ساحر كاهن شاعر.

وقال مقاتل: كانوا ستة عشر رجلًا بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم، فاقتسموا عِقَاب[2] مكة وطرقها، وقعدوا على أنقابها يقولون لمن جاء من الحجاج: لا تغترُّوا بهذا الرجل الخارج الذي يدعي النبوة منَّا، وتقول طائفة منهم: إنه مجنون، وطائفة: إنه كاهن، وطائفة: إنه شاعر، والوليد قاعد على باب المسجد نصبوه حكمًا فإذا سئل عنه قال: صدق[3] أولئك، يعني[4]: المقتسمين[5].

وقوله: «عِضِينَ»، قيل: هو جمع عضو، مأخوذ من قولهم: عضَّيت الشيء تعضيةً، إذا فرَّقته، ومعناه: أنهم جعلوا القرآن أعضاء، فقال بعضهم: سحر، وقال بعضهم: كهانة، وقال بعضهم: أساطير الأولين.

وقيل: هو جمع عضة، يقال: عضة وعضين مثل: برة وبرين وعزة وعزين، وأصلها: عضهة ذهبت هاؤها الأصلية، كما نقصوا من الشفة وأصلها شفهة، بدليل: أنك تقول في التصغير شفيهة، والمراد بالعضة: الكذب والبهتان.

وقيل: المراد بالعضين: العَضْهُ، وهو السحر، يريد: أنهم سمّوا القرآن سحرًا[6].

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ يوم القيامة.

﴿عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ في الدنيا، قال محمد بن إسماعيل: قال عدَّة من أهل العلم: عن «لا إله إلا الله»[7].

فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: «فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ» [الرحمن: ٣٩].

---

(١) في «أ»: (بدّوه).

(٢) عِقَاب: جمع عقبة، والعقبة هي المرقى الصّعب من الجبال.

(٣) في «ب»: (سَلْ).

(٤) ساقط من «ب».

(٥) انظر هذه الأقوال وتخريجها في الطبري: (١٤/ ٦١ ـ ٦٤)، «الدر المنثور»: (٥/ ٩٨)، «زاد المسير»: (٤/ ٤١٧ ـ ٤١٨)، «فتح الباري»: (٨/ ٣٨٢).

(٦) انظر: «زاد المسير»: (٤/ ٤١٨ ـ ٤١٩)، الطبري: (٤/ ٦٤ ـ ٦٦).

(٧) انظر: «تفسير الطبري»: (١٤/ ٦٧).

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾

وقال ابن عباس: لا يسألهم هل علمتم؟ لأنه أعلم بهم منهم، ولكن يقول: لِم عملتم كذا وكذا؟ واعتمده قطرب فقال: السؤال ضربان: سؤال استعلام، وسؤال توبيخ، فقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾[الرحمن: ٣٩]، يعني: استعلامًا، وقوله: ﴿لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، يعني: توبيخًا وتقريعًا.

وقال عكرمة عن ابن عباس في الآيتين: إن يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف يسألون في بعض المواقف، ولا يسألون في بعضها، نظيره: قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾[المرسلات: ٣٥]، وقال في آية أخرى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾(١) [الزمر: ٣١].

قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ قال ابن عباس: أَظْهِرْه، ويُروى عنه: أمضه.

وقال الضحاك: أَعْلِم.

وقال الأخفش: افْرُقْ، أي: افرق بالقرآن بين الحق والباطل.

وقال سيبويه: اقض بما تؤمر، وأصل الصَّدْع: الفصل والفرق، أمر النبي ﷺ في هذه الآية بإظهار الدعوة.

ورُوي عن عبد الله بن عبيدة قال: كان مستخفيًا حتى نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه(٢).

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ نسختها آية القتال(٣).

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾ يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: فاصدع بأمر الله، ولا تخف أحدًا غير الله عزَّ وجلَّ، فإن الله كافيك مَن عاداك كما كفاك المستهزئين، وهم خمسة نفر من رؤساء قريش: الوليد بن المغيرة المخزومي ـ وكان رأسهم ـ، والعاص بن وائل السهمي، والأسود بن عبد المطلب بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن زمعة ـ وكان رسول الله ﷺ قد دعا عليه فقال: «اللهم أَعْمِ بصره واثكله بولده» ـ، والأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة، والحارث بن قيس بن الطُّلاطلة، فأتى جبريل محمدًا ﷺ، والمستهزئون يطوفون بالبيت، فقام جبريل وقام النبي ﷺ إلى جنبه، فمرَّ به الوليد بن المغيرة، فقال جبريل: يا محمد، كيف تجد هذا؟ فقال: بئس عَبْدُ الله، فقال: قد كُفِيْتَه، وأومأ إلى ساق الوليد، فمرَّ برجل من خزاعة نبَّالٌ يريش نبلًا له، وعليه بُرْد يمان، وهو يجرُّ إزاره فتعلقت شظية من نَبْلٍ بإزاره فمنعه الكبر أن (يطاطىء رأسه)(٤) فينزعها، وجعلت تضرب ساقه، فخدشته، فمرض منها فمات.

---

(١) انظر: «مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل»: ص١٤٠ـ١٤١، ١٦٩، «زاد المسير»: (٤/٤١٩ـ٤٢٠).

(٢) انظر: «زاد المسير»: (٤/٤٢٠).

(٣) انظر فيما سبق التعليق (٥) في تفسير سورة الحجر، الآية (٣): ص٥٧٤.

(٤) في «ب»: (يطامن).

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٩٦﴾

ومرَّ به العاص بن وائل فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ قال: بئس عبد الله، فأشار جبريل إلى أخمص رجليه، وقال: قد كفيته، فخرج على راحلته ومعه ابنان له يتنزه فنزل شعبًا من تلك الشعاب فوطىء على شبرقةٍ فدخلت منها شوكة في أخمص رجله، فقال: لدغت لدغت، فطلبوا فلم يجدوا شيئًا، وانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق البعير، فمات مكانه.

ومرَّ به الأسود بن المطلب، فقال جبريل: كيف تجد هذا؟ قال: عبد سوء، فأشار بيده إلى عينيه، وقال: قد كفيته، فعمي.

قال ابن عباس: رماه جبريل بورقة خضراء فذهب بصره ووجعت عيناه، فجعل يضرب برأسه الجدار حتى هلك.

وفي رواية الكلبي: أتاه جبريل وهو قاعد في أصل شجرة ومعه غلام له فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك، فاستغاث بغلامه، فقال غلامه: لا أرى أحدًا يصنع بك شيئًا غير نفسك، حتى مات، وهو يقول: قتلني ربُّ محمد.

ومرَّ به الأسود بن عبد يغوث، فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ قال: بئس عبد الله على أنه ابن خالي، فقال: قد كفيته، وأشار إلى بطنه فاستسقى بطنه[1] فمات حبنًا.

وفي رواية الكلبي أنه خرج من أهله فأصابه السَّمُوم فاسودَّ حتى عاد حبشيًا، فأتى أهله فلم يعرفوه، وأغلقوا دونه الباب حتى مات، وهو يقول: قتلني ربُّ محمد.

ومرَّ به الحارث بن قيس فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ فقال: عبد سوء، فأومأ إلى رأسه وقال: قد كفيته، فامتخط قيحًا فقتله.

وقال ابن عباس: إنه أكل حوتًا مالحًا فأصابه العطش فلم يزل يشرب عليه من الماء حتى أنقد بطنه فمات[2]، فذلك قوله تعالى: «إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ» بك وبالقرآن ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٩٦﴾.

وقيل: استهزاؤهم[3] واقتسامهم: هو أن الله عزَّ وجلَّ لما أنزل في القرآن سورة البقرة وسورة النحل

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) انظر: «تفسير الطبري»: (١٤/ ٦٩ ـ ٧٢)، «زاد المسير»: (٤/ ٤٢١ ـ ٤٢٣)، «الدر المنثور»: (٥/ ١٠٠ ـ ١٠٢)، «المحرر الوجيز»: ص٣٥٩ـ٣٦١، «البحر المحيط»: (٥/ ٤٦٩ـ ٤٧٠)، «سيرة ابن هشام»: (١/ ٤٠٨ـ٤٠٩).

(٣) ساقط من «ب».

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

وسورة النمل وسورة العنكبوت، كانوا يجتمعون ويقولون استهزاء: هذا في[1] سورة البقرة، ويقول هذا في[1] سورة النحل، ويقول هذا في[1] سورة العنكبوت[2]، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ قال ابن عباس: فصلِّ بأمر ربك ﴿وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ / من ١٩٨/ب
المصلين[3] المتواضعين.

وقال الضحاك: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: قل سبحان الله وبحمده، ﴿وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ المصلين.

ورُوي أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[4].

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ أي: الموت الموقن به، وهذا معنى ما ذكر في سورة مريم: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

أخبرنا المطهر بن علي الفارسي، أخبرنا محمد بن إبراهيم الصالحي، أخبرنا عبد الله بن محمد بن جعفر أبو الشيخ الحافظ، حدثنا أمية بن محمد الصواف البصري، حدثنا محمد بن يحيى الأزدي، حدثنا أبي والهيثم ابن خارجة، قالا: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن شرحبيل بن مسلم، عن أبي مسلم الخولاني، عن جبير ابن نفير ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أوحي إليَّ أن أجمع المال وأكون من التاجرين، ولكن أوحي إليَّ أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين»[5].

---

(١) في «ب»: (إلى)، وفي «البحر المحيط»: (فمن قائل: البعوض لي، ومن قائل: النمل لي، وقائل: العنكبوت لي، استهزاء).

(٢) انظر: «البحر المحيط»: (٥/ ٤٦٨).

(٣) ساقط من «ب».

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل: (٢/ ٩٤) عن حذيفة، بلفظ: «كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى» قال المنذري: وذكر بعضهم أنه رُوي مرسلاً.
وأخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ٣٨٨)، والبيهقي في «الدلائل» في قصة الخندق مطولاً. انظر: «الكافي الشاف»: ص٧، وأخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد»: (٦/ ٢٧٤).
وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (٤/ ١٥٥)، وضعفه الألباني في «تعليقه على المشكاة»: (١/ ٤١٦) نعم ولكن الألباني حسنه أخيرًا في «صحيح سنن أبي داود»: برقم ١١٧١.

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية»: (٢/ ١٣١) مرسلًا، ورواه السهمي موصولاً في «تاريخ جرجان»: ص٣٤٢ عن ابن مسعود، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٥/ ١٠٥) لسعيد بن منصور وابن المنذر، والحاكم في «التاريخ»، وابن مردويه، والديلمي في «الفردوس»، وابن عدي في «الكامل»: (٥/ ١٨٩٧).
وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٢٣٧)، وفيه شرحبيل بن مسلم، ضعفه ابن معين. انظر: «الجرح والتعديل»: (٤/ ٣٤٠).

ورُوي عن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: نظر النبي ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلًا وعليه إهاب كبش قد تنطق به، فقال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى هذا الذي قد نوَّر الله قلبه! لقد رأيته بين أبويه يغذيانه[1] بأطيب الطعام والشراب، ولقد رأيت عليه حلَّة شراها أو شريت له بمائتي درهم، فدعاه حبُّ الله ورسوله إلى ما ترونه»[2]، والله أعلم.

* * *

(١) في «ب»: (يغذوانه).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية»: (١/١٠٨) بإسناد حسن. وانظر: «المغني عن حمل الأسفار» للعراقي: (٤/٢٨٧)، و«تخريج أحاديث الإحياء» للعراقي وابن السبكي والزبيدي: (٥/٢٣٤٦).

سورة النحل

مكية (مائة وثمان وعشرون آية)[١] إلا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ إلى آخر السورة[٢].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾

﴿أَتَىٰٓ﴾ أي: جاء ودَنَا وقَرُبَ ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عرفة: تقول العرب أتاك الأمر وهو متوقع بعد، أي: أتى أمر الله وعدًا فلا تستعجلوه وقوعًا.

﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ قال الكلبي وغيره: المراد منه القيامة.

قال ابن عباس: لما نزل قوله تعالى: «ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ»[القمر: ١]، قال الكفار بعضهم لبعض: إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت فأمسِكُوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى تنظروا ما هو كائن، فلما لم ينزل شيء (قالوا: ما نرى شيئًا، فنزل قوله: «ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ»[الأنبياء: ١]، فأشفقوا، فلما امتدَّتِ الأيام قالوا: يا محمد، ما نرى شيئًا مما تخوفنا به)[١]، فأنزل الله تعالى: «أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ» فوثب النبي ﷺ، ورفع الناس رؤوسهم وظنوا أنها قد أتت حقيقة فنزلت: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فاطمأنوا[٣].

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٢) روى مجاهد وعطية وابن أبي طلحة عن ابن عباس: أنها مكية كلها، وهو مروي عن الحسن وعكرمة وعطاء.

وقال ابن عباس في روايةٍ: مكية إلا ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ...﴾[الآية: ١٢٦]، فنزلت بعد قتل حمزة، وقال في رواية أخرى: هي مكية إلا ثلاث آيات نزلن بالمدينة، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾[الآيات: ٩٥ ـ ٩٧].

وقال الشعبي: مكية إلا: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ إلى آخر الآيات: ١٢٦ ـ ١٢٨، وقال قتادة: مكية إلا خمس آيات، وقال مقاتل: مكية إلا سبع آيات، وقال جابر بن زيد: أنزل من أول النحل أربعون آية بمكة، وبقيتها بالمدينة.

وعن علي بن زيد قال: كان يقال لسورة النحل: سورة النِّعم، لكثرة تعداد النعم فيها.

انظر: «زاد المسير»: (٤/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦)، «الدر المنثور»: (٥/ ١٠٧).

(٣) أخرجه الواحدي في «أسباب النزول»: ص٣٢١ بدون إسناد، وبمعناه أخرجه الطبري: (١٤/ ٧٥)، وانظر: «الدر المنثور»: (٥/ ١٠٨)، القرطبي: (١٠/ ٦٦).

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾

والاستعجال: طلب الشيء قبل حينه.

ولما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «بعثتُ أنا والساعة كهاتين، وأشار بأصبعيه، وإن كادت لتسبقني»(١).

قال ابن عباس: كان بعث النبي ﷺ من أشراط الساعة، ولمَّا مرَّ جبريل عليه السلام بأهل السموات مبعوثًا إلى محمد ﷺ، قالوا: الله أكبر قامت الساعة.

وقال قوم: المراد بالأمر هاهنا: عقوبة المكذبين والعذاب بالسيف، وذلك أن النضر بن الحارث قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، فاستعجل العذاب، فنزلت هذه الآية(٢)، وقتل النضر يوم بدر صبرًا.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١﴾ معناه: تعاظم بالأوصاف الحميدة عمَّا يصفه به المشركون.

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ قرأ العامة بضم الياء وكسر الزاي، و«الملائكةَ» نصب، وقرأ يعقوب بالتاء وفتحها وفتح الزاي، و«الملائكة» رفع ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ بالوحي، سماه روحًا؛ لأنه يُحيي به القلوب والحق.

قال عطاء: بالنبوة، وقال قتادة: بالرحمة.

قال أبو عبيدة: «بِٱلرُّوحِ»، يعني: مع الروح، وهو جبريل ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾ أعلِمُوا: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾.

وقيل: معناه: مروهم بقول «لا إله إلا الله» منذرين مخوِّفين بالقرآن إن لم يقولوا.

وقوله: «فَٱتَّقُونِ»، أي: فخافون.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣﴾ أي: ارتفع عما يشركون.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ جَدِلٌ بالباطل ﴿مُّبِينٌ ۝٤﴾

نزلت في أُبي بن خلف الجمحي، وكان ينكر البعث، جاء بعظم رميم فقال: أتقول إن الله تعالى يحيي

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٢/ ٥٠)، قال ابن حجر في «الفتح» (١١/ ٣٤٨): (أخرجه أحمد والطبري وسنده حسن)، وأصل الحديث في البخاري، كتاب الرقاق: (١١/ ٣٤٧)، وفي مسلم في كتاب الفتن: (٤/ ٢٢٦٨)، وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٥/ ٩٨).

(٢) «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٢١.

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾

هذا بعد ما قد رمَّ؟ كما قال جل ذكره: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾[يس: ٧٨]، نزلت فيه أيضًا[1].

والصحيح أن الآية عامة، وفيها بيان القدرة وكشف قبيح ما فعلوه، من جحد نعم الله مع ظهورها عليهم[2].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا﴾ يعني: الإبل والبقر والغنم ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ يعني: من أوبارها وأشعارها وأصوافها ملابس ولحُفًا تستدفئون بها ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ بالنسل والدر والركوب والحمل وغيرها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾ يعني: لحومها.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ زينة ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ أي: تردونها بالعشيِّ من مراعيها إلى مباركها التي تأوي إليها ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾ أي: تخرجونها بالغداة من مراحها إلى مسارحها، وقدم الرواح؛ لأن المنافع تؤخذ منها بعد الرواح، ومالكها يكون أعجب بها إذا راحت.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ أحمالكم ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ آخر غير بلدكم، قال عكرمة: البلد مكة ﴿لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ أي: بالمشقة والجهد، والشق: النصف أيضًا، أي: لم تكونوا بالغيه إلا بنقصان قوة النفس وذهاب نصفها.

وقرأ أبو جعفر «بشَقِّ»، بفتح الشين، وهما لغتان، مثل: رَطل ورِطل.

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ بخلقه حيث جعل لهم هذه المنافع.

﴿وَٱلْخَيْلَ﴾ يعني: وخلق الخيل، وهي اسم جنس لا واحد له من لفظه كالإبل والنساء ﴿وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ يعني: وجعلها زينة لكم مع المنافع التي فيها.

---

(١) رواه البيهقي في «البعث والنشور»، وروى الحاكم عن العباس أنها نزلت في العاص بن وائل. انظر: «تخريج أحاديث الكشاف»: (٣/ ١٦٧-١٦٨)، «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٢٢، القرطبي: (١٠/ ٦٧)، «زاد المسير»: (٤/ ٤٢٨).

(٢) وهذا ما رجحه الطبري حيث قال: (عنى بالإنسان: جميع الناس، أخرج بلفظ الواحد، وهو في معنى الجمع)، وإليه مال ابن عطية في «تفسيره»، ويدخل سبب النزول المذكور في معنى الآية وتبقى هي أعمّ.

انظر: الطبري: (١٤/ ٧٨)، «المحرر الوجيز»: (٨/ ٣٧٠).

واحتج بهذه الآية من حرَّم لحوم الخيل، وهو قول ابن عباس، وتلا هذه الآية، فقال: هذه للركوب (وإليه ذهب)[١] الحَكَمُ ومالك وأبو حنيفة.

وذهب جماعة إلى إباحة لحوم الخيل، وهو قول الحسن وشريح وعطاء وسعيد بن جبير، وبه قال الشافعي وأحمد وإسحاق[٢].

ومن أباحها قال: ليس المراد من الآية بيان التحليل والتحريم، بل المراد منه تعريف الله عباده نعمه وتنبيههم على كمال قدرته وحكمته، واحتجوا بما:

أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا، أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن عمرو ـ وهو ابن دينار ـ، عن محمد بن علي، عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: «نهى النبي ﷺ يوم خيبر عن لحوم الحمر ورخَّص في لحوم الخيل»[٣].

أخبرنا أبو الفرج المظفر بن إسماعيل التميمي، أخبرنا أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي، أخبرنا أبو أحمد عبد الله بن عدي الحافظ، حدثنا الحسن بن الفرج، حدثنا عمرو بن خالد، حدثنا عبد الله بن عبد الكريم، عن عطاء بن أبي رباح، عن جابر: أنهم كانوا يأكلون لحوم الخيل على عهد رسول الله ﷺ[٤].

ونهى عن لحوم البغال والحمير، رُوي عن المقدام بن معدي كرب عن خالد بن الوليد أن رسول الله ﷺ نهى عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير[٥]، وإسناده ضعيف.

---

(١) في «ب»: (وهو قول).

(٢) انظر بالتفصيل: «أحكام القرآن» للجصاص: (٥/ ٢ ـ ٤)، «أحكام القرآن» لابن العربي: (٣/ ١١٤٤ ـ ١١٤٧)، «أحكام القرآن» للهراس الطبري: (٤/ ١٧٠)، «تفسير القرطبي»: (١٠/ ٧٦ ـ ٧٩).

(٣) أخرجه البخاري في الصيد والذبائح، باب لحوم الخيل: (٩/ ٦٤٨)، ومسلم في الصيد والذبائح، باب في أكل لحوم الخيل برقم ١٩٤١: (٣/ ١٥٤١)، والمصنف في «شرح السنة»: (١١/ ٢٥٤).

(٤) أخرجه أبو داود في الأطعمة، باب في أكل لحوم الخيل: (٥/ ٣٠٨)، والترمذي في الأطعمة، باب ما جاء في لحوم الخيل: (٥/ ٥٠٥)، والنسائي في الصيد والذبائح، باب الإذن في أكل لحوم الخيل: (٧/ ٢٠٢)، وابن ماجه في الذبائح، باب لحوم البغال برقم ٣١٩١: (٢/ ١٠٦٤)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار»: (٢/ ٣٢٢)، والحاكم في «المستدرك»: (٤/ ٢٣٥)، والإمام أحمد في «المسند»: (٣/ ٣٥٦)، والمصنف في «شرح السنة»: (١١/ ٢٥٦).
وأصل الحديث في «الصحيحين». وانظر: «نصب الراية»: (٤/ ١٩٧)، «تلخيص الحبير»: (٤/ ١٥٠).

(٥) أخرجه أبو داود في الأطعمة، باب في أكل لحوم الخيل: (٥/ ٣٠٨)، وقال: (وهذا منسوخ، وقد أكل الخيل جماعة من أصحاب النبي ﷺ: ابن الزبير وفضالة بن عُبيد وأنس بن مالك وأسماء بنت أبي بكر وسويد بن غَفَلَة ـ رضي الله عنهم ـ، وكانت قريش في عهد النبي ﷺ تذبحها). قال المنذري: والحديث ضعيف. وانظر أيضًا: (٥/ ٣١٦ ـ ٣١٧)، كما ضعفه المصنف كما تراه.
وأخرجه أيضًا: النسائي في الصيد والذبائح، باب تحريم أكل لحوم الخيل: (٧/ ٢٠٢)، وابن ماجه في الموضع السابق: (٢/ ١٠٦٦)، والدارقطني في الصيد والذبائح: (٤/ ٢٨٧)، والإمام أحمد في «المسند».
ونقل السندي في تعليقه على النسائي اتفاق العلماء على تضعيف الحديث، وقال بعضهم: إنه منسوخ.
وانظر: «تلخيص الحبير»: (٤/ ١٥٠ ـ ١٥١)، «نصب الراية»: (٤/ ١٩٦).

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢﴾

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ قيل: يعني: ما أعدَّ الله في الجنة لأهلها، وفي النار لأهلها، مما لم تره عين، ولم تسمعه أذن، ولا خطر على قلب بشر.

وقال قتادة: يعني: السوس في النبات، والدود في الفواكه.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ يعني: بيان طريق الهدى من الضلالة، وقيل: بيان الحق بالآيات والبراهين، / والقصد: الصراط المستقيم. ١/١٩٩

﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ يعني: ومن السبيل جائر عن الاستقامة معوجٌ، فالقصد من السبيل: دين الإسلام، والجائر منها: اليهودية، والنصرانية، وسائر مِلَلِ الكفر.

قال جابر بن عبد الله: «قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ»: بيان الشرائع والفرائض.

وقال عبد الله بن المبارك وسهل بن عبد الله: «قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ»: السنة، «وَمِنْهَا جَآئِرٌ»: الأهواء والبدع، دليله قوله تعالى: «وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ»[الأنعام: ١٥٣].

﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾ نظيره: قوله تعالى: «وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا»[السجدة: ١٣].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ تشربونه ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ أي: من ذلك الماء شرب أشجاركم، وحياة نباتكم ﴿فِيهِ﴾ يعني: في الشجر ﴿تُسِيمُونَ ۝١٠﴾ ترعون مواشيكم.

﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ﴾ أي: يُنْبِتُ الله لكم به، يعني: بالماء الذي أنزل، وقرأ أبو بكر عن عاصم «نُنبت» بالنون ﴿ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ﴾ (ذلّل لكم)[1] ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ﴾ مذلالات ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي: بإذنه، وقرأ حفص[2] «والنجوم مسخراتٌ» بالرفع على الابتداء ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢﴾.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) في «ب»: (جعفر)، والمصنف رحمه الله اختار قراءة أخرى، ولهذا أشار إلى قراءة حفص هنا.

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾
وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا
وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾
وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾

﴿وَمَا ذَرَأَ﴾ خلق ﴿لَكُمْ﴾ لأجلكم، أي: وسخر ما خلق لأجلكم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ من الدواب والأشجار والثمار وغيرها ﴿مُخْتَلِفًا﴾ نصب على الحال ﴿أَلْوَانُهُ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ يعتبرون.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يعني: السمك ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ يعني: اللؤلؤ والمرجان ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ جواري.

قال قتادة: مقبلة ومدبرة، وهو أنك ترى سفينتين إحداهما تقبل والآخرى تدبر، تجريان بريح واحدة.

وقال الحسن: «مَوَاخِرَ»، أي: مملوءة، وقال الفراء والأخفش: شواقّ تشق الماء بجناحيها.

قال مجاهد: تمخر السفنُ الرياحَ.

وأصل المخر: الرفع والشق، وفي الحديث: «إذا أراد أحدكم البول فليستمخر الريح»[1]، أي: لينظر من أين مجراها وهبوبها، فليستدبرها حتى لا يردّ عليه البول.

وقال أبو عبيدة: صوائخ، والمَخْر: صوتُ هبوب الريح عند شدتها.

﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعني: التجارة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ إذا رأيتم صنع الله فيما سخر لكم.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: (لئلا تميد بكم)[2]، أي: تتحرك وتميل، والمَيْد: هو الاضطراب والتكفؤ، ومنه قيل للدوار الذي يعتري راكب البحر: مَيْدٌ.

---

(١) أخرجه ابن حبان في «المجروحين»: (٣/ ١٠٨) بلفظ: «إذا أراد أحدكم الخلاء فلا يستدبر الريح»، وذكره الزمخشري في «الفائق»: (٣/ ٣٥٠) عن سراقة بن مالك قال لقومه: «إذا أتى أحدكم الغائط فليكرم قبلة الله ... واستمخروا الريح»، وذكره ابن الأثير في «النهاية»: (٤/ ٣٠٥) بنحوه، وأشار الزيلعي إليه في «نصب الراية»: (٢/ ١٠٣)، وعزاه للطبري في «تهذيب الآثار»، وروى الدارقطني في «السنن»: (١/ ٥٧) بلفظ: «... ولا يستقبل الريح»، وقال: لم يروه غير مبشر بن عبيد، وهو متروك الحديث.
قال ابن الأثير: والمَخْر في الأصل: الشَّقُّ، يقال: مخرت السفينة الماء، إذا شقَّتْهُ بصدرها وجرت.
واستمخروا الريح، أي: اجعلوا ظهوركم إلى الريح عند البول؛ لأنه إذا ولاها ظهره أخذت عن يمينه ويساره، فكأنه قد شقَّها.

(٢) زيادة من «ب».

﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠﴾

قال وهب: لما خلق الله الأرض جعلت تمور، فقالت الملائكة: إن هذه غير مقرّة أحدًا على ظهرها فأصبحت وقد أُرسيت بالجبال، فلم تَدْرِ الملائكة ممَّ خلقت الجبال.

﴿وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا﴾ أي: وجعل فيها أنهارًا وطرقًا مختلفة ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥﴾ إلى ما تريدون فلا تضلون.

﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ﴾ يعني: معالم الطرق، قال بعضهم: هاهنا تم الكلام ثم ابتدأ ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾.

قال محمد بن كعب والكلبي: أراد بالعلامات: الجبال، فالجبال علامات النهار، والنجوم علامات الليل.

وقال مجاهد: أراد بالكلِّ النجومَ، منها ما يكون علامات، ومنها ما يهتدون به.

قال السدي: أراد بالنجم: الثريا، وبنات نعش، والفرقدين، والجَدْي، يهتدى بها إلى الطرق والقبلة.

وقال قتادة: إنما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء: لتكون زينة للسماء، ومعالم للطرق، ورجومًا للشياطين، فمن قال غير هذا فقد تكلَّف ما لا علم له به[1].

﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ﴾ يعني: الله تعالى ﴿كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ يعني: الأصنام ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ﴾ لتقصيركم في شكر نعمه ﴿رَّحِيمٞ ١٨﴾ بكم حيث وسَّع عليكم النِّعم، ولم يقطعها عنكم بالتقصير والمعاصي.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني: الأصنام، وقرأ عاصم ويعقوب «يدعون» بالياء ﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠﴾.

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا في بدء الخلق، باب في النجوم: (٦/ ٢٩٥)، ووصله الطبري في «التفسير»: (١٤/ ٩١ ـ ٩٢)، وأخرجه عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وعبد بن حميد، وزاد في آخره: «وإن ناسًا جهلة بأمر الله، قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة: مَنْ غرس بنجم كذا كان كذا، ومن سافر بنجم كذا كان كذا، ولعمري ما من النجوم نجم إلا ويولد به الطويل والقصير، والأحمر والأبيض، والحسن والدميم، وما علم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر شيء من الغيب».

انظر: «فتح الباري»: (٦/ ٢٩٥)، «تفسير ابن كثير»: (٤/ ٣٩٧).

وراجع حكم التنجيم وتفصيل القول فيه: «تفسير القرطبي»: (١١/ ١)، (١٩/ ٢٨ ـ ٢٩)، «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد»: ص٣٦٥ ـ ٣٧٠، «عالم الغيب والشهادة» تأليف عثمان جمعة ضميرية: ص١٢٨ ـ ١٣١.

أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾

﴿أَمْوَٰتٌ﴾ أي: الأصنام ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني: الأصنام ﴿أَيَّانَ﴾ متى[1] ﴿يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ والقرآن يدل على أن الأصنام تُبعث وتُجعل فيها الحياة فتتبرأ من عابديها. وقيل: ما يدري الكفار عبدة الأصنام متى يبعثون.

قوله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ جاحدة ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ متعظّمون.

﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًّا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

أخبرنا أبو سعيد بكر بن محمد بن محمد بن محمي البسطامي، أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن إبراهيم بن سختويه، أخبرنا أبو الفضل سفيان بن محمد الجوهري، حدثنا علي بن الحسن بن أبي عيسى الهلالي، حدثنا يحيى بن حماد، حدثنا شعبة، عن أبان بن تغلب، عن فضيل الفقيمي، عن إبراهيم النخعي، عن علقمة بن قيس، عن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخلُ الجنةَ مَن في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كِبْرٍ، ولا يدخلُ النار مَن في قلبه مثقالُ ذرةٍ من إيمان»، فقال رجل: يا رسول الله، إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا؟ قال: «إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجَمال، الكِبْرُ: بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ النَّاس»[2].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾ يعني: لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة، وهم مشركو مكة الذين اقتسموا عِقَابها[3]، إذا سأل الحاج: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أحاديثهم وأباطيلهم.

﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ﴾ ذنوب أنفسهم ﴿كَامِلَةً﴾ وإنما ذكر الكمال؛ لأن البلايا التي تلحقهم في الدنيا وما يفعلون من الحسنات لا تكفّر عنهم شيئًا ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بغير حجة فيصدُّونهم عن الإيمان ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ يحملون.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب تحريم الكِبْر وبيانه برقم ٩١: (١/ ٩٣)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ١٦٥).

(٣) جمع عقبة.

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾

أنبأنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي، أخبرنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني، أخبرنا عبد الله ابن عمر الجوهري، أخبرنا أحمد بن علي الكشميهني، حدثنا علي بن حجر، حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هُدًى كان له من الأجر مثلُ أجورِ من تَبِعَه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»[(١)].

قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وهو نمرود بن كنعان، بنى الصرح ببابل ليصعد إلى السماء.

قال ابن عباس ووهب: كان طول الصرح في السماء خمسة آلاف ذراع.

وقال كعب ومقاتل: كان طوله فرسخين، فهبَّتْ ريح[(٢)] وألقت رأسه في البحر، وخرَّ عليهم الباقي وهم تحته، ولما سقط الصرح تبلبلت ألسن الناس من الفزع يومئذ فتكلموا بثلاثة وسبعين لسانًا فلذلك سميت بابل، وكان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية[(٣)]، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ أي: قصد تخريب بنيانهم / من أصولها ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ﴾ يعني: أعلى البيوت ﴿مِن ١٩٩/ب
فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ من مأمنهم.

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ يهينهم بالعذاب ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ تخالفون المؤمنين فيهم، ما لهم لا يحضرونكم فيدفعون عنكم العذاب؟

وكسر نافع النون من «تشاقون» على الإضافة، والآخرون بفتحها.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ (وهم المؤمنون)[(٢)]: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ﴾ الهوان ﴿ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ﴾ أي: العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في العلم، باب من سنَّ سنة حسنة أو سيئة برقم ٢٦٧٤: (٤/ ٢٠٦٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ٢٣٢).

(٢) ساقط من «أ».

(٣) ليس في هذه التفصيلات عن الصرح وطوله . . . وتبلبل الألسنة . . . إلخ نصٌّ ثابت عن المعصوم ﷺ يصار إليه، وهذا وأمثاله متلقى من الإسرائيليات، والله أعلم.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يقبض أرواحهم ملك الموت وأعوانه، قرأ حمزة «يتوفاهم» بالياء وكذا ما بعده ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالكفر، ونصب على الحال، أي: في حال كفرهم ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: استسلموا وانقادوا، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ شرك، فقال لهم الملائكة: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ قال عكرمة: عنى بذلك من قتل من الكفار ببدر.

﴿فَٱدْخُلُوٓا۟﴾ أي: قال لهم: ادخلوا ﴿أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ عن الإيمان.

﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ وذلك أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم مَن يأتيهم بخبر النبي ﷺ، فإذا جاء سأل الذين قعدوا على الطرق عنه، فيقولون: ساحر، كاهن، شاعر، كذاب، مجنون، ولو لم تلقه خيرٌ لك، فيقول السائل: أنا شر وافدٍ إن رجعت إلى قومي دون أن أدخل مكة فألقاه، فيدخل مكة فيرى أصحاب النبي ﷺ فيخبرونه بصدقه وأنه نبي مبعوث، فذلك قوله: ﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ﴾ يعني: أنزل خيرًا[1].

ثم ابتدأ فقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ﴾ كرامة من الله.

قال ابن عباس: هي تضعيف الأجر إلى العشر.

وقال الضحاك: هي النصر والفتح.

وقال مجاهد: هي الرزق الحسن.

﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: ولَدارُ الحال الآخرة ﴿خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ قال الحسن: هي الدنيا؛ لأن أهل التقوى يتزودون فيها للآخرة، وقال أكثر المفسرين: هي الجنة، ثم فسرها فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾﴾.

---

(١) انظر: «زاد المسير»: (٤/ ٤٤٢ـ ٤٤٣).

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾
هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ
وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ
وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن
دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ
ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ
ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ مؤمنين طاهرين من الشرك. قال مجاهد: زاكية أفعالهم وأقوالهم. وقيل: معناه: إن وفاتهم تقع طيبة سهلة ﴿يَقُولُونَ﴾ يعني: الملائكة لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ وقيل: يبلغونهم سلام الله ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ﴾ يعني: يوم القيامة، وقيل: العذاب ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ أي: كفروا ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بتعذيبه إيَّاهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ عقوبات كفرهم وأعمالهم الخبيثة ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ (نزل بهم)[1] ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾ يعني: البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، فلولا أن الله رضيها لغيَّر ذلك وهدانا إلى غيرها ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ أي: ليس إليهم الهداية إنما إليهم التبليغ.

﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾ أي: كما بعثنا فيكم ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ وهو كلُّ معبود من دون الله ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي: هداه الله إلى دينه ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ أي: وجبت بالقضاء السابق حتى مات على كفره ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: مآل أمرهم، وهو خراب منازلهم بالعذاب والهلاك.

---

(١) ساقط من «ب».

إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾
وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾
وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ
لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾ يا محمد ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ قرأ أهل الكوفة «يَهْدِي» بفتح الياء وكسر الدال، أي: لا يهدي الله من أضلَّه، وقيل: معناه لا يهتدي من أضله الله، وقرأ الآخرون بضم الياء وفتح الدال، يعني: من أضله الله فلا هادي له، كما قال: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾[الأعراف: ١٨٦].

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: مانعين من العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ وهم منكرُو البعث، قال الله تعالى رَدًّا عليهم: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي: ليظهر لهم الحق فيما يختلفون فيه ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ يقول الله تعالى: إذا أردنا أن نبعث الموتى فلا تَعَبَ علينا في إحيائهم، ولا في شيء مما يحدث، إنما نقول له: كن، فيكون.

أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي، أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي، أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان، حدثنا أحمد بن يوسف السلمي، حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن همام بن منبه، حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: كذَّبني عَبْدِي، ولم يكن ذلك له، وشتَمَني عبدي ولم يكن ذلك له، فأمَّا تكذيبُه إيَّايَ، أن يقول: لن يعيدَنا كما بدأنا، وأما شتمُه إيَّايَ، أن يقول: اتخذ الله ولدًا، وأنا الصَّمَدُ، لم ألِدْ، ولم يكن لي كفوًا أحد»(١).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ عذبوا وأوذوا في الله.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ من طريق عبد الرزاق: (٨/ ٧٣٩)، وعبد الرزاق ضمن روايته لصحيفة همام ابن منبه: ص٤٩٨، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ٨١).

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٤٢ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾

نزلت في بلال وصُهيب وخبَّاب وعمَّار وعابس وجبر وأبي جندل بن سهيل، أخذهم المشركون بمكة فعذَّبوهم(١).

وقال قتادة: هم أصحاب النبي ﷺ، ظلمهم أهل مكة، وأخرجوهم من ديارهم، حتى لحق طائفة منهم بالحبشة، ثم بوأهم الله المدينةَ بعد ذلك فجعلها لهم دارَ هجرة، وجعل لهم أنصارًا من المؤمنين(٢).

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ وهو أنه أنزلهم بالمدينة.

رُوي عن عمر بن الخطاب: كان إذا أعطى الرجل (من المهاجرين)(٣) عطاء يقول: خُذْ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ادَّخَرَ لك في الآخرة أفضل، ثم تلا هذه الآية(٤).

وقيل: معناه لنُحْسِنَنَّ إليهم في الدنيا، وقيل: الحسنة في الدنيا: التوفيق والهداية.

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٤١﴾، وقوله «لو كانوا يعلمون» ينصرف إلى المشركين؛ لأن المؤمنين كانوا يعلمونه.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ في الله، على ما نابهم(٥) ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٤٢﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ نزلت في مشركي مكة حيث أنكروا نبوة محمد ﷺ، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرًا، فهلَّا بعث إلينا مَلَكًا(٦)؟

﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ يعني: مؤمني أهل الكتاب ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾.

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ واختلفوا في الجالب للباء في قوله: «بِٱلْبَيِّنَٰتِ»، قيل: هي راجعة إلى قوله: «وَمَآ أَرْسَلْنَا» وإلا بمعنى: «غير»، مجازه: وما أرسلنا من قبلك بالبينات / والزبر غير رجال يُوحى إليهم ولم نبعث ملائكة. ١/٢٠٠

---

(١) انظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٢٢، «زاد المسير»: (٤/ ٤٤٨)، وفيه «عايش» بدلاً من «عابس»، ولم أجد لـ «عايش» ترجمة. وقارن بـ «المحرر الوجيز»: (٨/ ٤٢١).

(٢) انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ١٣١)، الطبري: (١٤/ ١٠٧).

(٣) ساقط من «ب».

(٤) انظر: «البحر المحيط»: (٥/ ٤٩٣)، «المحرر الوجيز»: (٨/ ٤٢٢).

(٥) في «ب»: (فاتهم).

(٦) انظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٢٣، الطبري: (١٤/ ١٠٩)، «الدر المنثور»: (٥/ ١٣٢ ـ ١٣٣).

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

وقيل: تأويله: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً يوحى إليهم أرسلناهم[1] بالبينات والزبر.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أراد بالذكر: الوحيَ، وكان النبي ﷺ مبيِّنًا للوحي، وبيان الكتاب يطلب من السنة ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ﴾ عملوا ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ من قبل، يعني: نمرودَ بن كنعان وغيره من الكفار ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ بالعذاب ﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ تصرُّفهم في الأسفار، وقال ابن عباس: في اختلافهم، وقال ابن جريج: في إقبالهم وإدبارهم ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾﴾ بسابقين الله.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ والتخوُّف: التنقُّص، أي: ينقص من أطرافهم ونواحيهم الشيء بعد الشيء حتى يهلك جميعهم، يقال: تخوَّفه الدهر وتخوَّنه: إذا نقصه وأخذ ماله وحشمه.

ويقال: هذه لغة بني هذيل.

وقال الضحاك والكلبي: من الخوف، أي: يعذب طائفة فيتخوف الآخرون أن يصيبهم مثل ما أصابهم.

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ حين لم يعجل بالعقوبة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب، وكذلك في سورة العنكبوت، والآخرون بالياء، خبرًا عن الذين مكروا السيئات ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ من جسم قائم، له ظلٌّ ﴿يَتَفَيَّؤُاْ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بالتاء، والآخرون بالياء ﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾ أي: تميل وتدور من جانب إلى جانب، فهي في أول النهار على حال، ثم تتقلص، ثم تعود في آخر النهار إلى حال أخرى «سُجَّدًا لِّلَّهِ»، فميلانُها ودورانُها: سجودها لله عزَّ وجلَّ.

ويقال للظل بالعشي: فيءٌ؛ لأنه فاء، أي: رجع من المغرب إلى المشرق، فالفيء: الرجوع، والسجود: الميل، يقال: سجدت النخلة إذا مالت.

---

(١) ساقط من «ب».

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ قال قتادة والضحاك: أما اليمين: فأول النهار، والشمال: آخر النهار، تسجد الظلال لله.

وقال الكلبي: الظل قبل طلوع الشمس عن يمينك وعن شمالك وقدامك وخلفك، وكذلك إذا غابت، فإذا طلعت كان من قدامك، وإذا ارتفعت كان عن يمينك، ثم بعده كان خلفك، فإذا كان قبل أن تغرب الشمس كان عن يسارك، فهذا تفيؤه وتقلُّبه، وهو سجوده.

وقال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله، وقيل: المراد من الظلال: سجود الأشخاص.

فإن قيل: لِمَ وحَّد اليمين وجمع الشمائل؟

قيل: من شأن العرب في اجتماع العلامتين الاكتفاء بواحدة، كقوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾[البقرة: ٧]، وقوله: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[البقرة: ٢٥٧].

وقيل: اليمين يرجع إلى قوله: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾، ولفظ: «ما» واحد، والشمائل: يرجع إلى المعنى.

﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ صاغرون.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إنما أخبر بما لغلبة ما لا يعقل على من يعقل في العدد، والحكم للأغلب كتغليب المذكر على المؤنث ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ أراد: من كل حيوان يدب، ويقال: السجود: الطاعة، والأشياء كلها مطيعة لله عزَّ وجلَّ من حيوانٍ وجماد، قال الله تعالى: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[فصلت: ١١].

وقيل: سجود الأشياء تذلُّلها وتسخرها لما أُريدت له وسُخِّرت له.

وقيل: سجود الجمادات وما لا يعقل: ظهور أثر الصنع فيه، على معنى: أنه يدعو الغافلين إلى السجود عند التأمل والتدبر فيه، قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾[فصلت: ٥٣].

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ خصَّ الملائكة بالذكر مع كونهم من جملة ما في السموات والأرض تشريفًا ورفعًا لشأنهم.

وقيل: لخروجهم من الموصوفين بالدبيب؛ إذ لهم أجنحة يطيرون بها.

وقيل: أراد: ولله يسجد ما في السموات من الملائكة، وما في الأرض من دابة، وتسجد الملائكة.

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ كقوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾[الأنعام: ١٨] ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا محمد بن سمعان، حدثنا أبو بكر محمد بن إبراهيم الشعراني، حدثنا محمد بن يحيى الذهلي، حدثنا عبيد الله بن موسى العبسي، حدثنا إسرائيل، عن إبراهيم بن مهاجر،

﴿۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ٥٢ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٥٥﴾

عن مجاهد، عن مورِّق، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنِّي أرى ما لا ترونَ، وأسمعُ ما لا تسمعونَ، أطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أن تئِطَّ، والذي نفسي بيده ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ إلا وفيه مَلَكٌ يُمَجِّد الله، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولَبَكَيْتُم كثيرًا وما تلذَّذْتُم بالنساءِ على الفُرُشَات، ولَصَعَدْتُمْ إلى الصُّعُداتِ تجأرون»، قال أبو ذر: يا ليتني كنتُ شجرةً تُعْضَدُ. رواه أبو عيسى عن أحمد بن منيع عن أبي أحمد الزبيري عن إسرائيل وقال: «إلا وَمَلَكٌ واضعٌ جبهتَه ساجدًا لله»[1].

قوله تعالى: ﴿۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١﴾.

﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ﴾ الطاعة والإخلاص ﴿وَاصِبًاۚ﴾ دائمًا ثابتًا.

معناه: ليس من أحد يدان له ويطاع إلا انقطع ذلك عنه بزوال أو هلاك، غير الله عزَّ وجلَّ، فإن الطاعة تدوم له ولا تنقطع.

﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ٥٢﴾ أي: تخافون، استفهام على طريق الإنكار.

قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ أي: وما يكن بكم من نعمة فمن الله ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ القحط والمرض ﴿فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣﴾ تضجُّون وتصيحون بالدعاء والاستغاثة.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤﴾.

﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ ليجحدوا، (وهذه اللام تُسمى لام العاقبة، أي: حاصل أمرهم هو كفرهم)[2] ﴿بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ أعطيناهم من النعماء وكشف الضراء والبلاء ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ أي: عيشوا في الدنيا المدة التي ضربتها لكم ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٥٥﴾ عاقبة أمركم، هذا وعيدٌ لهم.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد، باب ما جاء في فضل البكاء من خشية الله: (٦/ ٦٠١)، وقال: (هذا حديث حسن غريب)، وابن ماجه في الزهد، باب الحزن والبكاء: (٢/ ١٤٠٢)، وصححه الحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٥١٠)، وأخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ١٧٣)، وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٣٦٩-٣٧٠)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع»: برقم ٢٤٤٩، وانظر: «السلسلة الصحيحة»: (رقم ١٠٥٩، ١٠٦٠، ١٧٢٢).

(٢) ما بين القوسين ساقط من «ب».

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩)﴾

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ له حقًا، أي: الأصنام ﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الأموال، وهو ما جعلوا للأوثان من حروثهم وأنعامهم، فقالوا: هذا لله بزعمهم، وهذا لشركائنا.

ثم رجع من الخبر إلى الخطاب فقال: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ﴾ يوم القيامة ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦)﴾ في الدنيا.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ وهم: خزاعة وكنانة، قالوا: الملائكة بنات الله تعالى ﴿سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧)﴾ أي: ويجعلون لأنفسهم البنين الذين يشتهونهم، فتكون «ما» في محل النصب، ويجوز أن تكون على الابتداء، فتكون «ما» في محل الرفع.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ متغيرًا من الغمِّ والكراهية ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨)﴾ وهو ممتلىء حزنًا وغيظًا، فهو يكظمه، أي: يمسكه ولا يظهره.

﴿يَتَوَارَىٰ﴾ أي: يختفي ﴿مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ من الحزن والعار، ثم يتفكر: ﴿أَيُمْسِكُهُ﴾ ذكر الكناية ردًّا على «ما» ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي: هوانٍ ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ / أي: يخفيه منه، فيئده. ٢٠٠/ب

وذلك: أن مضر وخزاعة وتميمًا كانوا يدفنون البنات أحياء، خوفًا من الفقر عليهم، وطمع غير الأكفاء فيهن، وكان الرجل من العرب إذا وُلدت له بنت وأراد أن يستحييها: ألبسها جُبَّةً من صوف أو شعر، وتركها ترعى له الإبل والغنم في البادية، وإذا أراد أن يقتلها: تركها حتى إذا صارت سداسية، قال لأمها: زيِّنيها حتى أذهب بها إلى أحمائها، وقد حفر لها بئرًا في الصحراء، فإذا بلغ بها البئر قال لها: انظري إلى هذه البئر، فيدفعها من خلفها في البئر، ثم يهيل على رأسها التراب حتى يستوي البئر بالأرض، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: «أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ».

وكان صعصعة عمُّ الفرزدق إذا أحسَّ بشيء من ذلك وجَّه إلى والد البنت إبلًا يحييها بذلك، فقال الفرزدق يفتخر به(١):

وَعَمِّي الذي مَنَعَ الوَائِدَاتِ ... فأحياء الوئيدَ فلم تُوأَدِ

(١) انظر: «تفسير القرطبي»: (١٠/١١٧).

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ بئس ما يقضون لله البنات ولأنفسهم البنين، نظيره: «أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى»[النجم: ٢١-٢٢]، وقيل: بئس حكمهم وأد البنات.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يعني: لهؤلاء الذين يصفون لله البنات ولأنفسهم البنينَ ﴿مَثَلُ السَّوْءِ﴾ صفة السوء من الاحتياج إلى الولد، وكراهية الإناث، وقتلهن خوف الفقر ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ الصفة العليا، وهي التوحيد، وأنه لا إله إلا هو.

وقيل: جميع صفات الجلال والكمال، من العلم، والقدرة، والبقاء، وغيرها من الصفات.

قال ابن عباس: «مثل السوء»: النار، «والمَثَل الأعلى»: شهادة أن لا إله إلا الله.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ فيعاجلهم بالعقوبة على كفرهم وعصيانهم ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أي: على الأرض، كناية عن غير مذكور ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾.

قال قتادة في الآية: قد فعل الله ذلك في زمن نوح، فأهلك مَنْ على الأرض، إلا مَنْ كان في سفينة نوح عليه السلام[(١)].

رُوي أنَّ أبا هريرة سمع رجلاً يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه، فقال: بئس ما قلت، إن الحبارى تموت في وكرها بظلم الظالم[(٢)].

وقال ابن مسعود: إن الجُعَل لتعذب في جحرها بذنب ابن آدم[(٣)].

وقيل: معنى الآية: لو يؤاخذ الله آباء الظالمين بظلمهم انقطع النسل، ولم توجد الأبناء، فلم يبق في الأرض أحد.

﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ﴾ يمهلهم بحلمه إلى أجل ﴿مُسَمًّى﴾ إلى منتهى آجالهم وانقطاع أعمارهم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر. انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ١٤٠).

(٢) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي الدنيا وابن جرير والبيهقي في «الشُّعب». انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ١٤٠)، «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٢٢٦).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في «الشعب»، وصححه الحاكم في «المستدرك». انظر: المراجع السابقة.

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ
لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ
أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ
لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ لأنفسهم، يعني: البنات ﴿وَتَصِفُ﴾ أي: تقول ﴿أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ يعني: البنين، محل «إن» نصب بدل عن الكذب.

قال يمان: يعني بـ «الحسنى»: الجنة في المعاد، إن كان محمد صادقًا في البعث.

﴿لَا جَرَمَ﴾ حقًّا، قال ابن عباس: بلى ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ في الآخرة ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ قرأ نافع بكسر الراء، أي: مسرفون.

وقرأ أبو جعفر بتشديد الراء وكسرها، أي: مضيعون أمر الله.

وقرأ الآخرون بفتح الراء وتخفيفها، أي: منسيون في النار، قاله ابن عباس.

وقال سعيد بن جبير: مبعدون، وقال مقاتل: متروكون. قال قتادة: معجلون إلى النار.

قال الفراء: مقدّمون إلى النار، ومنه قوله ﷺ: «أنا فَرَطكُم على الحوض»[1]، أي: متقدمكم.

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ كما أرسلنا إلى هذه الأمة ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ الخبيثة ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ ناصرهم ﴿الْيَوْمَ﴾ وقرينهم، سمَّاه وليًّا لهم؛ لطاعتهم إيَّاه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ في الآخرة.

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من الدين والأحكام ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: ما أنزلنا عليك الكتاب إلا بيانًا وهدًى ورحمة، فالهدى والرحمة عطف على قوله: «التبين».

﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: المطر ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبوستها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ سمع القلوب لا سمع الآذان.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري في الرقاق، باب الحوض وقول الله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾: (١١/ ٤٦٣)، ومسلم في الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء برقم ٢٤٩: (١/ ٢١٨).

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ لعظة ﴿نُّسْقِيكُم﴾ بفتح النون هاهنا وفي المؤمنين، قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر ويعقوب والباقون بضمها، وهما لغتان ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ قال الفراء: رد الكناية إلى النَّعَم، والنَّعَمُ والأنعامُ واحد. ولفظ النَّعم مذكر، قال أبو عبيدة والأخفش: النَّعم يذكر ويؤنث، فمن أنَّث فلمعنى الجمع، ومن ذكَّر فلحكم اللفظ.

قال الكسائي: ردَّه إلى ما يعني في بطون ما ذكرنا، وقال المؤرّج: الكناية مردودة إلى البعض والجزء، كأنه قال: نسقيكم مما في بطونه اللبن، إذ ليس لكلها لَبَن، واللَّبن فيه مضمرٌ.

﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ﴾ وهو ما في الكرش من الثقل، فإذا خرج منه لا يُسمى فرثًا ﴿وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ من الدم والفرث ليس عليه لون دم ولا رائحة فرث ﴿سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ هنيئًا يجري على السهولة في الحلق.

وقيل: إنه لم يغصَّ أحدٌ باللبن قَط.

قال ابن عباس: إذا أكلتِ الدابّةُ العلفَ واستقرَّ في كرشها وطحنته فكان أسفله فرثًا، وأوسطه اللبن، وأعلاه الدم، والكَبِدُ مسلَّطة عليها، تقسمها بتقدير الله تعالى، فيجري الدم في العروق، واللبن في الضرع، ويبقى الفرث كما هو[(١)].

﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ يعني: ولكم أيضًا عبرة فيما نسقيكم ونرزقكم من ثمرات النخيل والأعناب ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ﴾ والكناية في «منه» عائدة إلى «ما» محذوفة، أي: ما تتخذون منه ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾.

قال قوم: «السَّكَر»: الخمر، و«الرزق الحسن»: الخَلُّ والزبيب والتمر والرُّبُ، قالوا: وهذا قبل تحريم الخمر، وإلى هذا ذهب ابن مسعود وابن عمر وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد.

وقال الشعبي: «السَّكَر»: ما شربت، و«الرزق الحسن»: ما أكلت[(٢)].

وروى العوفي عن ابن عباس: أن «السَّكَر» هو الخَلُّ، بلغة الحبشة[(٢)].

وقال بعضهم: «السَّكَر» النبيذ المُسْكِر، وهو نقيع التمر والزبيب إذا اشتدَّ، والمطبوخ من العصير، وهو قول الضحاك والنخعي[(٣)].

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي»: (١٠/ ١٢٤ ـ ١٢٥)، «زاد المسير»: (٤/ ٤٦٤).

(٢) انظر: «تفسير القرطبي»: (١٠/ ١٢٨)، «زاد المسير»: (٤/ ٤٦٤)، «الدر المنثور»: (٥/ ١٤٢)، «أحكام القرآن» للجصاص: (٥/ ٤).

(٣) انظر: القرطبي: (١٠/ ١٢٨)، «أحكام القرآن» للجصاص: (٥/ ٤).

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٦٩﴾

ومن يبيح شرب النبيذ ومن حرمه يقول: المراد من الآية: الإخبار لا الإحلال.

وأولى الأقاويل أن قوله: «تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا» منسوخ، رُوي عن ابن عباس قال: «السَّكَر»: (ما حرم)[1] من ثمرها، و«الرزق الحسن»: ما أحل، وقال أبو عبيدة: «السَّكَر»: الطُّعْم، يقال: هذا سَكَر لك، أي: طُعْم[2].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ أي: ألهمها وقذف في أنفسها، ففهمته، والنَّحل: زنابير العسل، واحدتها نحلة.

﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨﴾ يبنون، وقد جرت العادة: أن أهلها يبنون لها الأماكن، فهي تأوي إليها، قال ابن زيد: هي الكروم.

1/201 ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ / ليس معنى الكل العموم، وهو كقوله تعالى: «وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ»[النمل: ٢٣].

﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ قيل: هي نعت الطرق، يقول: هي مذللة للنحل سهلة المسالك، قال مجاهد: لا يتوعر عليها مكان سلكته، وقال آخرون: الذلل نعت النحل، أي: مطيعة منقادة بالتسخير، يقال: إن أربابها ينقلونها من مكان إلى مكان، ولها يعسوب إذا وقف وقفت، وإذا سار سارت.

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ يعني: العسل ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أبيض وأحمر وأصفر ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: في العسل، وقال مجاهد: أي: في القرآن، والأول أولى.

أنبأنا إسماعيل بن عبد القاهر، حدثنا عبد الغافر بن محمد، حدثنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا محمد بن مثنى، أخبرنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أبي المتوكل، عن أبي سعيد الخدري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن أخي استطلقَ بطنُه، فقال رسول الله ﷺ: «اسقِهِ عسلًا»، فسقاه، ثم جاء فقال: إني سقيتُه فلم يَزِدْهُ إلا استطلاقًا، فقال النبي ﷺ له ثلاث مرات، ثم جاء الرابعة فقال: «اسقه عسلًا»، قال: قد سقيته فلم يزده إلا استطلاقًا، فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله، وكذب بطن أخيك»، فسقاه فبرأ[3].

---

(١) ساقط من «ب». (٢) انظر: «زاد المسير»: (٤/ ٢٦٤).

(٣) أخرجه البخاري في الطب، باب الدواء بالعسل، وقول الله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾: (١٠/ ١٣٩)، ومسلم في السلام، باب التداوي بسقي العسل برقم ٢٢١٧: (٤/ ١٧٣٦ - ١٧٣٧) واللفظ له، وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٢/ ١٤٧).

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾

قال عبد الله بن مسعود: العسلُ شفاء من كل داء، والقرآن شفاء لما في الصدور[1].

ورُوي عنه أنه قال: عليكم بالشفاءين: القرآن والعسل[2].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ فيعتبرون.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ صبيانًا أو شبانًا أو كهولاً ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أردئه، قال مقاتل: يعني الهرم، قال قتادة: أرذل العمر تسعون سنة.

رُوي عن علي قال: أرذل العمر خمس وسبعون سنة، وقيل: ثمانون سنة.

﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ لكي لا يعقل بعد عقله الأول شيئًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾.

أنبأنا عبد الواحد المليحي، حدثنا أحمد بن عبد الله النعيمي، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، (حدثنا موسى بن إسماعيل)[3]، حدثنا هارون بن موسى، حدثنا أبو عبد الله الأعور، عن شعيب، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «أعوذ بك من البخلِ، والكسلِ، وأرذل العُمُرِ، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات»[4].

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ بسط على واحدٍ، وضيَّق على الآخر، وقلَّل وكثَّر.

﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾ من العبيد ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أي: حتى يستووا هم وعبيدهم في ذلك، يقول الله تعالى: لا يرضون أن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقهم سواء، وقد جعلوا عبيدي شركائي في ملكي وسلطاني، يلزم به الحجة على المشركين.

قال قتادة: هذا مَثَل ضربه الله عزَّ وجلَّ، فهل منكم أحد يشركه مملوكه في زوجته وفراشه وماله؟ أفتعدلون بالله خلقه وعباده؟!

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير. انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ١٤٤).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه موقوفًا على ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، وأخرجه ابن ماجه وابن مردويه والحاكم ـ وصححه ـ والبيهقي في «شعب الإيمان» مرفوعًا من رواية ابن مسعود. انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ١٤٤).

(٣) ساقط من «ب».

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة النحل، باب ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾: (٨/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨)، ومسلم في الذكر والدعاء، باب التعوذ من العجز والكسل وغيره برقم ٢٧٠٦: (٤/ ٢٠٨٠).

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾ بالإشراك به، وقرأ أبو بكر بالتاء لقوله: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾، والآخرون بالياء لقوله: ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ يعني: النساء، خلق من آدم زوجته حواء، وقيل: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: من جنسكم أزواجًا ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ قال ابن مسعود والنخعي: الحفدة أختان الرجل على بناته. وعن ابن مسعود أيضًا: أنهم الأصهار، فيكون معنى الآية على هذا القول: وجعل لكم من أزواجكم بنين وبنات، تزوجونهم فيحصل بسببهم الأختان والأصهار.

وقال عكرمة والحسن والضحاك: هم الخدم، وقال مجاهد: هم الأعوان، مَنْ أعانك فقد حفدك.

وقال عطاء: هم ولد ولد الرجل، الذين يعينونه ويخدمونه.

وقال قتادة: مهنة يمتهنونكم ويخدمونكم من أولادكم[1].

قال الكلبي ومقاتل: «البنين» الصغار، و«الحفدة»: كبار الأولاد الذين يعينونه على عمله.

وروى مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس: أنهم ولد الولد.

وروى العوفي عنه: أنهم بنو امرأة الرجل ليسوا منه[2].

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من النِّعم والحلال ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾ يعني: الأصنام ﴿يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ يعني: التوحيد والإسلام.

---

(١) في «ب»: (الأولاد).

(٢) بعد أن ساق الطبري كَلَلَهُ الروايات في تفسير الآية قال (١٤/ ١٤٦ ـ ١٤٧): (والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى أخبر عباده معرّفهم نعمه عليهم، فيما جعل لهم من الأزواج والبنين، فقال تعالى: ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجًا، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾، فأعلمهم أنه جعل لهم من أزواجهم بنين وحفدة، والحفدة في كلام العرب: جمع حافد... والحافد في كلامهم: هو المتخفف في الخدمة والعمل، والحَفْد: خفة العمل.

وإذا كان معنى الحفدة ما ذكرنا من أنهم المسرعون في خدمة الرجل، المتخففون فيها، وكان الله تعالى ذكره أخبرنا أن مما أنعم به علينا أن جعل لنا حفدة تحفد لنا، وكان أولادنا وأزواجنا الذين يصلحون للخدمة منا ومن غيرنا، وأختاننا الذين هم أزواج بناتنا، من أزواجنا وخدمنا من مماليكنا، إذا كانوا يحفدوننا، فيستحقون اسم حفدة، ولم يكن الله تعالى دلَّ بظاهر تنزيله، ولا على لسان رسوله ﷺ، ولا بحجة عقل، على أنه عني بذلك نوعًا من الحفدة، دون نوع منهم، وكان قد أنعم بكل ذلك علينا، لم يكن لنا أن نوجّه ذلك إلى خاصٍّ من الحفدة دون عامٍّ، إلا ما اجتمعت الأمة عليه أنه غير داخل فيهم.

وإذا كان ذلك كذلك؛ فلكل الأقوال ـ التي ذكرنا عمن ذكرنا ـ وجه في الصحة، ومَخْرَج في التأويل، وإن كان أولى بالصواب من القول ما اخترنا، لما بيّنا من الدليل).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾
فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا
لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ
يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

وقيل: «الباطل»: الشيطان، أمرهم بتحريم البَحِيْرَة والسائبة، و«بنعمة الله»، أي: بما أحلَّ الله لهم، «يكفرون»: يجحدون تحليله.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعني: المطر ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني: النبات ﴿شَيْـًٔا﴾ قال الأخفش: هو بدل من الرزق، معناه: أنهم لا يملكون من أمر الرزق شيئًا، قليلًا ولا كثيرًا.

وقال الفرَّاء: نصب «شيئًا» بوقوع الرزق عليه، أي: لا يرزق شيئًا ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ ولا يقدرون على شيء، يذكر عجز الأصنام عن إيصال نفع أو دفع ضر.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ يعني: الأشباه، فتشبِّهونه بخلقه، وتجعلون له شريكًا، فإنه واحد لا مثل له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ خطأ ما تضربُون من الأمثال، ثم ضرب مثلًا (للكافرين والمؤمنين)[1] فقال جل ذِكْره:

﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ هذا مَثَلُ الكافر، رزقه الله مالاً، فلم يقدِّم فيه خيرًا ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ هذا مَثَلُ المؤمن، أعطاه الله مالاً، فعمل فيه بطاعة الله، وأنفقه في رضاء الله، سرًّا وجهرًا، فأثابه الله عليه الجنة[2] ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ ولم يقل يستويان لمكان «من» وهو اسم يصلح للواحد والاثنين والجمع، وكذلك قوله: «لا يستطيعون» بالجمع لأجل «ما».

معناه: هل يستوي هذا الفقير البخيل والغنيُّ السخي؟ كذلك لا يستوي الكافر العاصي والمؤمن المطيع.

وروى ابن جريج عن عطاء في قوله تعالى: «عَبْدًا مَّمْلُوكًا» أي: أبو جهل بن هشام «وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا»: أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه[3] ـ، ثم قال:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ يقول: ليس الأمر كما تقولون، ما للأوثان عندهم من يد ولا معروف فتحمد عليه، إنما الحمد الكامل لله عزَّ وجلَّ؛ لأنه المنعِم والخالق والرازق، ولكن أكثر الكفار لا يعلمون، ثم ضرب مثلًا للأصنام فقال:

---

(١) في «ب»: (للمؤمن والكافر).

(٢) وهذا التأويل رجحه الطبري: (١٤/ ١٤٨ ـ ١٤٩).

(٣) انظر: «زاد المسير»: (٤/ ٤٧٢).

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ﴾ ثقل ووبال ﴿عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ ابن عمه، وأهل ولايته ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ يرسله ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ لأنه لا يفهم ما يقال له، ولا يفهم عنه، هذا مَثَلُ الأصنام، لا تسمع، ولا تنطق، ولا تعقل ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ عابده، يحتاج إلى أن يحمله ويضعه ويخدمه.

﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ يعني: الله تعالى قادر، متكلم، يأمر بالتوحيد ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ (قال الكلبي: يعني: يدلكم على صراط مستقيم.

وقيل: هو رسول الله ﷺ يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم)(١).

وقيل: كلا المثلين للمؤمن والكافر، يرويه عطية عن ابن عباس.

وقال عطاء: الأبكم، أُبي بن خلف، ومن يأمر بالعدل: حمزة وعثمان بن عفان وعثمان بن مظعون. / ٢٠١/ب

وقال مقاتل: نزلت في هاشم بن عمرو بن الحارث بن ربيعة القرشي، وكان قليل الخير يعادي رسول الله ﷺ.

وقيل: نزلت في عثمان بن عفان ومولاه، كان عثمان ينفق عليه، وكان مولاه يكره الإسلام(٢).

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٢) انظر هذه الأقوال في:

«تفسير الطبري»: (١٤/ ١٥٠ ـ ١٥١)، «الدر المنثور»: (٥/ ١٥١ ـ ١٥٢)، «زاد المسير»: (٤/ ٤٧٣)، «البحر المحيط»: (٥/ ٥١٩ ـ ٥٢٠)، «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٢٣.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهذا مثل ضربه الله تعالى لنفسه والآلهة التي تُعبَد من دونه، فقال تعالى ذكره: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ يعني: بذلك الصنم أنه لا يسمع شيئًا ولا ينطق؛ لأنه إما خشب منحوت، وإما نحاسٌ مصنوع لا يقدر على نفع لمن خدمه، ولا دفع ضرّ عنه ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ يقول: وهو عيال على ابن عمه وحلفائه وأهل ولايته، فكذلك الصنم كَلٌّ على من يعبده، يحتاج أن يحمله، ويضعه ويخدمه كالأبكم من الناس الذي لا يقدر على شيء فهو كَلٌّ على بني أعمامه . . . هل يستوي هذا الأبكم الكَلُّ على مولاه الذي لا يأتي بخير حيث توجَّه ومَنْ هو ناطق متكلم يأمر بالحق، ويدعو إليه، وهو الله الواحد القهار، الذي يدعو عباده إلى توحيده وطاعته، يقول: لا يستوي هو ـ تعالى ذكره ـ والصنم الذي صفته ما وصف، وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يقول: وهو مع أمره بالعدل، على طريق من الحق في دعائه إلى العدل، وأمره به مستقيم، لا يَعْوَجُّ عن الحق ولا يزول عنه).

انظر: «تفسير الطبري»: (١٤/ ١٥٠).

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ
اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا
وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ
مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾
وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ
ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ في قرب كونها ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ إذا قال له: «كن» فيكون ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ بل هو أقرب ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾ نزلت في الكفار الذين يستعجلون القيامة استهزاء.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ قرأ الكسائي «بطون إمهاتكم» بكسر الهمزة، وقرأ حمزة بكسر الميم والهمزة، والباقون بضم الهمزة وفتح الميم ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ تم الكلام، ثم ابتدأ فقال جلَّ ذكره: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لأن الله تعالى جعل هذه الأشياء لهم قبل الخروج من بطون الأمهات، وإنما أعطاهم العلم بعد الخروج ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ نعمة الله.

﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ قرأ ابن عامر وحمزة ويعقوب بالتاء، والباقون بالياء لقوله: «ويعبدون»[(١)] ﴿إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ﴾ مذللات ﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ وهو الهواء بين السماء والأرض.

عن كعب الأحبار أن الطير ترتفع اثني عشر ميلًا، ولا يرتفع فوق هذا، وفوق الجو السكاك، وفوق السكاك السماء ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الهواء ﴿إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ﴾ (التي هي من الحجر والمدر)[(٢)] ﴿سَكَنًا﴾ أي: مسكنًا تسكنونه ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ يعني: الخيام، والقباب والأخبية والفساطيط من الأنطاع والأدم[(٣)] ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي: يخف عليكم حملها ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ رحلتكم في سفركم، قرأ ابن عامر وأهل الكوفة ساكنة العين، والآخرون بفتحها، وهو أجزل اللغتين ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ في بلدكم، لا تثقل عليكم في الحالين.

---

(١) في الآية الثانية والسبعين من السورة: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا...﴾ الآية.

(٢) ساقط من «ب».

(٣) في هامش «أ»: (فائدة: لو قال: من الجلود، كان أحسن من قوله من الأنطاع والأدم).

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ (٨٣)﴾

﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ يعني: أصواف الضأن، وأوبار الإبل، وأشعار المعز، والكنايات راجعة إلى الأنعام ﴿أَثَٰثًا﴾ قال ابن عباس: مالاً، قال مجاهد: متاعًا.

قال القتيبي: «الأثاث»: المال أجمع، من الإبل والغنم والعبيد والمتاع.

وقال غيره: هو متاع البيت من الفرش والأكسية.

﴿وَمَتَٰعًا﴾ بلاغًا ينتفعون بها ﴿إِلَىٰ حِينٍ (٨٠)﴾ يعني: الموت، وقيل: إلى حين تبلى.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ تستظلُّون بها من شدة الحرِّ، وهي ظلال الأبنية والأشجار ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ يعني: الأسراب والغيران، واحدها كِنٌّ ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ قمصًا من الكتان والقزِّ والقطن والصوف ﴿تَقِيكُمُ﴾ تمنعكم ﴿ٱلْحَرَّ﴾ قال أهل المعاني: أراد الحرَّ والبَرْدَ، فاكتفى بذكر أحدهما لدلالة الكلام عليه ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ يعني: الدروع، والبأس: الحرب، يعني: تقيكم في بأسكم السلاح أن يصيبكم.

﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١)﴾ تُخلِصون له الطاعة.

قال عطاء الخراساني: إنما أنزل القرآن على قدر معرفتهم، فقال: «وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا»، وما جعل لهم[1] من السهول أكثر وأعظم، ولكنهم كانوا أصحاب جبال كما قال: «وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ»؛ لأنهم كانوا أصحاب وَبَرٍ وشعرٍ، وكما قال: «وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ»[النور: ٤٣]، وما أنزل من الثلج أكثر، ولكنهم كانوا لا يعرفون الثلج، وقال: «تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ»، وما تقي من البرد أكثر، ولكنهم كانوا أصحاب حرٍّ.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ فإن أعرضوا فلا يلحقك في ذلك عَتَبٌ ولا سِمَةُ تقصير ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (٨٢)﴾.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ قال السُّدي: يعني: محمدًا ﷺ ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ يكذبون به.

وقال قوم: هي الإسلام.

---

(١) ساقط من «ب».

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧)﴾

وقال مجاهد وقتادة: يعني: ما عدَّ لهم من النِّعم في هذه السورة، يقرُّون أنها من الله، ثم إذا قيل لهم: تصدَّقوا وامتثِلوا أمر الله فيها، ينكرونها فيقولون: ورثناها من آبائنا.

وقال الكلبي: هو أنه لمّا ذكر لهم هذه النِّعم قالوا: نعم، هذه كلها من الله، ولكنها بشفاعة آلهتنا.

وقال عوف بن عبد الله: هو قول الرجل لولا فلان لكان كذا، ولولا فلان لما كان كذا[1] ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)﴾ الجاحدون.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يعني: رسولاً ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار، وقيل: في الكلام أصلًا ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤)﴾ يسترضون، يعني: لا يكلفون أن يرضوا ربهم؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف، ولا يرجعون إلى الدنيا فيتوبون، وحقيقة المعنى في الاستعتاب: أنه التعرض لطلب الرضا، وهذا الباب مُنسدٌّ في الآخرة على الكفار.

﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا ﴿الْعَذَابَ﴾ يعني: جهنَّم ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥)﴾.

﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ يوم القيامة ﴿شُرَكَاءَهُمْ﴾ أوثانهم ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ﴾ أربابًا ونعبدهم ﴿فَأَلْقَوْا﴾ يعني: الأوثان ﴿إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ أي: قالوا لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦)﴾ في تسميتنا آلهة، ما دعوناكم إلى عبادتنا.

﴿وَأَلْقَوْا﴾ يعني: المشركين ﴿إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ استسلموا وانقادوا لحكمه فيهم، ولم تُغنِ عنهم آلهتهم شيئًا ﴿وَضَلَّ﴾ وزال ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧)﴾ من أنها تشفع لهم.

---

(١) قال الطبري (١٤/ ١٥٨): (وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، وأشبهها بتأويل الآية، قولُ من قال: عنى بالنعمة التي ذكرها في قوله ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ النعمةَ عليهم بإرسال محمد ﷺ إليهم داعيًا إلى ما بعثه بدعائهم إليه، وذلك أن هذه الآية بين آيتين كلتاهما خبرٌ عن رسول الله ﷺ وعما بعث به، فأولى ما بينهما أن يكون في معنى ما قبله وما بعده، إذ لم يكن معنًى يدل على انصرافه عما قبله وعما بعده . . .).

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ منعوا الناس عن طريق الحق ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال عبد الله: عقارب لها أنياب أمثال النخل الطوال.

وقال سعيد بن جبير: حيّات أمثال البُخْت[1]، وعقارب أمثال البغال، تلسع إحداهنَّ اللسعةَ يجد صاحبُها حمَّتها أربعين خريفًا.

وقال ابن عباس ومقاتل: يعني: خمسة أنهار من صُفْرٍ مذاب كالنار تسيل من تحت العرش، يعذبون بها، ثلاثة على مقدار الليل واثنان على مقدار النهار.

وقيل: إنهم يخرجون من حر النار إلى برد الزمهرير، فيبادرون من شدة الزمهرير إلى النار مستغيثين بها.

وقيل: يضاعف لهم العذاب[2] ﴿بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ في الدنيا بالكفر، وصدِّ الناس عن الإيمان.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني: نبيًّا من أنفسهم؛ لأن الأنبياء كانت تبعث إلى الأمم منها.

﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين بُعثِتَ إليهم.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا﴾ بيانًا ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه من الأمر والنهي، والحلال والحرام، والحدود والأحكام ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ﴾ بشارة ﴿لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ بالإنصاف ﴿وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ إلى الناس.

وعن ابن عباس: «العدل»: التوحيد، و«الإحسان»: أداء الفرائض.

---

(١) البُخْتُ: هي الإبل الخراسانية، وهي جمال طوال الأعناق، واحدها: بختيّ.

(٢) انظر هذه الأقوال في: «الدر المنثور»: (٥/ ١٥٧ ـ ١٥٨)، «زاد المسير»: (٤/ ٤٨٢)، وقد اعتمد الطبري: (١٤/ ١٦٠ ـ ١٦١) القول الأول. وانظر: «تفسير ابن كثير»: (٢/ ٥٨٢).

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾

وعنه: «الإحسان»: الإخلاص في التوحيد، وذلك معنى قول النبي ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»[1]، وقال مقاتل: «العدل»: التوحيد، و«الإحسان»: العفو عن الناس.

﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ صلة الرحم.

٢٠٢/أ ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ / ما قَبُح من القول والفعل، وقال ابن عباس: الزنا ﴿وَالْمُنكَرِ﴾ ما لا يُعْرف في شريعةٍ ولا سنةٍ ﴿وَالْبَغْيِ﴾ الكبر والظلم.

وقال ابن عيينة: «العدل»: استواء السر والعلانية، و«الإحسان»: أن تكون سريرته أحسن من علانيته، و«الفحشاء والمنكر»: أن تكون علانيته أحسن من سريرته.

﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ تتعظون.

وقال ابن مسعود: أجمع آية في القرآن هذه الآية[2].

وقال أيوب عن عكرمة: إن النبي ﷺ قرأ على الوليد: «﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾» إلى آخر الآية فقال له: يا ابن أخي أعِدْ، فأعاد عليه، فقال: إن له والله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما هو بقول البشر[3].

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ والعهد هاهنا هو: اليمين.

قال الشعبي: العهد يمين، وكفارته كفارة يمين ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ تشديدها، فتحنثوا فيها ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ شهيدًا بالوفاء.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية، وإن كان حكمها عامًا؟

قيل: نزلت في الذين بايعوا رسول الله ﷺ، أمرهم الله بالوفاء بها[4].

وقال مجاهد وقتادة: نزلت في حلف أهل الجاهلية[5].

---

(١) قطعة من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في سؤال جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان والإحسان، أخرجه البخاري في الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان: (١/ ١١٤)، ومسلم في الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان برقم٨: (١/ ٣٦ـ٣٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (١/ ٨ـ٩).

(٢) انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ١٦٠)، ففيه جملة آثار في ذلك.

(٣) انظر: «سيرة ابن هشام»: (١/ ٢٧٠).

(٤) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن مزيدة بن جابر. انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ١٦١)، «زاد المسير»: (٤/ ٤٨٤).

(٥) المرجع السابق نفسه.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

ثم ضرب الله مثلًا لنقض العهد فقال:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ أي: من بعد غزله وإحكامه.

قال الكلبي ومقاتل: هي امرأة خرقاء حمقاء من قريش، يقال لها: ريطة بنت عمرو بن سعد بن كعب بن زيد مناة بن تميم، وتلقب بجعر، وكانت بها وسوسة، وكانت اتخذت مغزلاً بقدر ذراع، وصنارة مثل الأصبع، وفلكة عظيمة على قدرها، وكانت تغزل الغزل من الصوف والشعر والوبَرِ، وتأمر جواريها بذلك، فكن يغزلن من الغداة إلى نصف النهار، فإذا انتصف النهار أمرتهن بنقض جميع ما غزلنَ، فهذا كان دأبها[1].

ومعناه: أنها لم تكفّ عن العمل، ولا حين عملت كفَّت عن النقض، فكذلك أنتم إذا نقضتم العهد، لا كففتم عن العهد، ولا حين عاهدتم وفيتم به.

﴿أَنكَاثًا﴾ يعني: أنقاضًا، واحدها «نكث»: وهو ما نقض بعد الفتل، غزلاً كان أو حبلًا.

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي: دَخَلًا وخيانة وخديعة، و«الدَّخَل»: ما يدخل في الشيء للفساد، وقيل: «الدَّخَل» و«الدَّغَل»: أن يظهر الوفاء ويبطن النقض.

﴿أَن تَكُونَ﴾ أي: لأن تكون ﴿أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ﴾ أي: أكثر وأعلى ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ قال مجاهد: وذلك أنهم كانوا يحالفون الحلفاء فإذا وجدوا قومًا أكثر منهم وأعز نقضوا حلف هؤلاء وحالفوا الأكثر، فمعناه: طلبتم العز بنقض العهد، بأن كانت أمة أكثر من أمة، فنهاهم الله عن ذلك.

﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ يختبركم الله بأمره إياكم بالوفاء بالعهد ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ في الدنيا.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على ملة واحدة، وهي الإسلام ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ بخذلانه إيَّاهم، عدلاً منه ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ بتوفيقه إيَّاهم، فضلًا منه ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ يوم القيامة.

---

(١) انظر: «البحر المحيط»: (٥/ ٥٣١). وقال قتادة ومجاهد: ذلك ضَرْب مثلٍ لمن نقض عهده بعد توكيده، لا على امرأة معيَّنة وهذا أرجح وأظهر، سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا. انظر: «تفسير ابن كثير»: (٢/ ٥٨٥)، «المحرر الوجيز»: (٨/ ٥٠٠).

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩٥ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا﴾ خديعة وفسادًا ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ فتغرون بها الناس، فيسكنون إلى أيمانكم، ويأمنون، ثم تنقضونها ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ فتهلكوا بعد ما كنتم آمنين، والعرب تقول لكل مبتلى بعد عافية، أو ساقط في ورطة بعد سلامة: زلَّت قدمه ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ قيل: معناه: سهَّلتم طريق نقض العهد على الناس بنقضكم العهد ﴿وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤﴾.

﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ يعني: لا تنقضوا عهودكم، تطلبون بنقضها عَرَضًا قليلًا من الدنيا، ولكن أوفوا بها ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ﴾ من الثواب لكم على الوفاء ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩٥﴾ (فَضَّل ما بين العوضين، ثم بيَّن ذلك)[1]، فقال:

﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ﴾ أي: الدنيا وما فيها يفنى ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾.

﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ﴾ (قرأ أبو جعفر وابن كثير وعاصم بالنون، والباقون بالياء)[2] ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ على الوفاء في السراء والضراء ﴿أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾.

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي، أخبرنا أبو الحسن الطيسفوني، أخبرنا عبد الله بن عمر الجوهري، حدثنا أحمد بن علي الكشميهني، حدثنا علي بن حجر، حدثنا إسماعيل بن جعفر، حدثنا عمرو ابن أبي عمرو مولى المطلب، عن أبي موسى الأشعري: أن رسول الله ﷺ قال: «من أحبَّ دنياه أضرَّ بآخرته، ومن أحبَّ آخرته أضرَّ بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى»[3].

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك»: (٤/ ٣٠٨)، وصححه على شرط الشيخين، فتعقبه الذهبي بأن فيه انقطاعًا.
وأخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٤/ ١٧٥، ٤١٢)، والبيهقي في «السنن»: (٣/ ٣٧٠)، وعزاه صاحب «المشكاة» له في «شعب الإيمان»، قال الهيثمي: (رواه أحمد والبزار والطبراني، ورجاله ثقات).
انظر: «مجمع الزوائد»: (١٠/ ٢٤٩)، «مشكاة المصابيح»: (رقم٥١٧٩)، و«كشف الخفاء ومزيل الإلباس» للعجلوني: (١/ ٤٩١).
وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٢٣٩).

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ قال سعيد بن جبير وعطاء: هي الرزق الحلال، قال الحسن: هي القناعة، وقال مقاتل بن حيان: يعني العيش في الطاعة، وقال أبو بكر الوراق: هي حلاوة الطاعة.

وقال مجاهد وقتادة: هي الجنة، ورواه عوف عن الحسن، وقال: لا تطيب الحياة لأحد إلا في الجنة[١].

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: أردت قراءة القرآن ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟﴾[المائدة: ٦].

والاستعاذة سنة عند قراءة القرآن[٢]. وأكثر العلماء على أن الاستعاذة قبل القراءة[٣].

وقال أبو هريرة: بعدها[٤].

---

(١) بعد أن ساق الطبري الروايات في تفسير الآية قال:
(وأولى الأقوال بالصواب قول من قال: تأويل ذلك: فلنحيينَّه حياة طيبة بالقناعة، وذلك أن من قنعه الله بما قسم له من رزق لم يكثر للدنيا تعبه، ولم يعظُم فيها نَصَبُه، ولم يتكدَّر فيها عيشه باتباعه بغية ما فاته منها وحرصه على ما لعله لا يدركه فيها.
وأما القول الذي روي عن ابن عباس: أنه الرزق الحلال، فهو محتمل أن يكون معناه الذي قلنا في ذلك، من أنه تعالى يقنعه في الدنيا بالذي يرزقه من الحلال، وإن قلَّ، فلا تدعوه نفسه إلى الكثير منه من غير حلِّه، لا أنه يرزقه الكثير من الحلال، وذلك أن أكثر العاملين لله تعالى بما يرضاه من الأعمال لم نرهم رُزقوا الرزق الكثير من الحلال في الدنيا، ووجدنا ضيق العيش عليهم أغلب من السعة).
انظر: «تفسير الطبري»: (١٤/ ١٧٢).

(٢) قال الطبري (١٤/ ١٧٣): (وليس قوله: «فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم» بالأمر اللازم، وإنما هو إعلام وندب، وذلك أنه لا خلاف بين الجميع أنَّ من قرأ القرآن ولم يستعذ بالله من الشيطان الرجيم، قبل قراءته أو بعدها، أنه لم يضيع فرضًا واجبًا).
وقال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٤٩٠): (والاستعاذة عند القراءة سنة في الصلاة وغيرها).
قال ابن عطية (٨/ ٥٠٧): (وحكى النَّقَّاش عن عطاء: أن التعوُّذ واجب).
وانظر: «تفسير ابن كثير»: (١/ ١٥)، (٢/ ٥٨٧)، «المجموع» للنووي: (٣/ ٢٨٤)، و«التبيان في آداب حملة القرآن» للنووي: ص٦٤ ـ ٦٥.

(٣) انظر: «تفسير الطبري»: (١٤/ ١٧٣)، القرطبي: (١٠/ ١٧٤ ـ ١٧٥)، «المحرر الوجيز»: (٨/ ٥٠٧)، «أحكام القرآن» لابن العربي: (٣/ ١١٧٥).

(٤) نقل النووي في «المجموع»: (٣/ ٢٨٤) ذلك عن أبي هريرة وابن سيرين والنخعي، وأن أبا هريرة كان يتعوذ بعد فراغ الفاتحة لظاهر الآية.
والصحيح هو القول الأول ـ قبل القراءة ـ للأحاديث الدالة على تقدمها على التلاوة. وانظر: «تفسير ابن كثير»: (١/ ١٣ ـ ١٥)، (٢/ ٥٨٧)، «أحكام القرآن» لابن العربي: (٣/ ١١٧٥).

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾

ولفظه: أن يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي شريح، أخبرنا أبو القاسم البغوي، حدثنا علي بن الجعد، أخبرنا شعبة، عن عمرو بن مرة، سمعت عاصمًا، عن ابن جبير بن مطعم، عن أبيه: «أنه رأى النبي ﷺ يصلي، قال: فكبَّر، فقال: الله أكبر كبيرًا، ثلاث مرات، (والحمد لله كثيرًا، ثلاث مرات، وسبحان الله بكرة وأصيلًا، ثلاث مرات)[1] اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، من هَمْزِهِ ونَفْخِهِ ونَفْثِهِ».

قال عمروٌ: ونفخُه: الكِبْر، ونَفْثُه: الشِّعر، وهَمْزه: الموتة، والموتة: الجنون، والاستعاذة بالله هي الاعتصام به[2].

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾ حجة وولاية ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ قال سفيان: ليس له سلطان على أن يحملهم على ذنب لا يُغفر.

﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ يطيعونه ويدخلون في ولايته ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ أي: بالله مشركون، وقيل: الكناية راجعة إلى الشيطان، ومجازه: الذين هم من أجله مشركون بالله.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ يعني: وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكمًا آخر ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ أعلم بما هو أصلح لخلقه فيما يغير ويبدل من أحكامه ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ﴾ يا محمد، ﴿مُفْتَرٍۭ﴾ مُخْتَلِق، وذلك أن المشركين قالوا: إن محمدًا يسخر بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر، وينهاهم عنه

٢٠٢/ب غدًا، / ما هو إلاَّ مفترٍ، يتقوَّله من تلقاء نفسه[3].

قال الله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ حقيقة القرآن، وبيان الناسخ من المنسوخ.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب ما يستفتح به في الصلاة من الدعاء: (١/ ٣٧٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب الاستعاذة في الصلاة: (١/ ٢٦٥)، وصححه ابن حبان: ص١٢٣ ـ من «موارد الظمآن»، والحاكم: (١/ ٢٣٥)، وأخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٤/ ٨٠)، والمصنف في «شرح السنة»: (٣/ ٤٣).

(٣) انظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٢٥.

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ﴾ يعني: القرآن ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ جبريل ﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: ليثبت قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانًا ويقينًا ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ آدمي، وما هو من عند الله، واختلفوا في هذا البشر: قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يعلم قينًا بمكة، اسمه «بَلْعَام»، وكان نصرانيًا، أعجميَّ اللسان، فكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج، فكانوا يقولون إنما يعلمه «بَلْعام»(١).

وقال عكرمة: كان النبي ﷺ يُقرِىء غلامًا لبني المغيرة يقال له: «يعيش»(٢)، وكان يقرأ الكتب، فقالت قريش: إنما يعلمه «يعيش»(٣).

وقال الفرَّاء: قال المشركون إنما يتعلم من عايش مملوك كان لحويطب بن عبد العزى، وكان قد أسلم وحسن إسلامه، وكان أعجمَ اللسان(٤).

وقال ابن إسحاق: كان رسول الله ﷺ فيما بلغني كثيرًا ما يجلس عند المروة إلى غلام رومي نصراني، عبدٍ لبعض بني الحضرمي، يقال له: «جبر»، وكان يقرأ الكتب(٥).

وقال عبد الله بن مسلم الحضرمي كان لنا عبدان من أهل عين التمر، يقال لأحدهما: «يسار»، ويكنى «أبا فكيهة»، ويقال للآخر: «جبر»، وكانا يصنعان السيوف بمكة، وكانا يقرآن التوراة والإنجيل، فربما مرَّ بهما النبي ﷺ وهما يقرآن، فيقف ويستمع.

قال الضحاك: وكان النبي ﷺ إذا آذاه الكفار يقعد إليهما ويستروح بكلامهما، فقال المشركون: إنما يتعلم محمد منهما، فنزلت هذه الآية(٦).

---

(١) أخرجه ابن جرير: (١٤/ ١٧٧)، وزاد السيوطي نسبته لابن أبي حاتم وابن مردويه بسند ضعيف. «الدر المنثور»: (٥/ ١٦٧)، «زاد المسير»: (٤/ ٤٩٢).

(٢) في «الدر المنثور»: (مقيس)، ولعله تصحيف.

(٣) أخرجه ابن جرير عن عكرمة: (١٤/ ١٧٨). وانظر: «زاد المسير»: (٤/ ٤٩٢).

(٤) وقاله أيضًا الزجاج. انظر: «زاد المسير»: (٤/ ٤٩٣).

(٥) أخرجه الطبري: (١٤/ ١٧٨).

(٦) أخرجه الطبري: (١٤/ ١٧٨)، والواحدي في «أسباب النزول»: ص٣٢٦. وانظر: «زاد المسير»: (٤/ ٤٩٣).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

قال الله تعالى تكذيبًا لهم: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يميلون ويشيرون إليه ﴿أَعْجَمِىٌّ﴾ الأعجمي: الذي لا يفصح وإن كان ينزل بالبادية، والعجمي منسوب إلى العجم وإن كان فصيحًا، والأعرابي البدوي، والعربي منسوب إلى العرب وإن لم يكن فصيحًا ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ فصيح، وأراد باللسان القرآن، والعرب تقول: اللغة لسان، ورُوي أن الرجل الذي كانوا يشيرون إليه أسلم وحسن إسلامه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ لا يرشدهم الله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ ثم أخبر الله تعالى أن الكفار هم المفترون.

فقال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ لا محمد ﷺ.

فإن قيل: قد قال: «إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ»، فما معنى قوله: «وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ»؟

قيل: «إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ»: إخبار عن فعلهم، و«هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ»: نعت لازم لهم، كقول الرجل لغيره: كذبت وأنت كاذب، أي: كذبت في هذا القول، ومن عادتك الكذب.

أخبرنا أبو أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرنا أبو حفص عمر بن أحمد الجوهري، أخبرنا جدي أبو بكر محمد بن عمر بن حفص، حدثنا أبو بكر محمد بن الفرج الأزرق، حدثنا سعيد بن عبد الحميد بن جعفر، حدثنا يعلى بن الأشدق، عن عبد الله بن جراد قال: قلت: يا رسول الله، المؤمن يزني؟ قال: «قد يكون ذلك»، قال: قلت: المؤمن يسرق؟ قال: «قد يكون ذلك»، قلت: المؤمن يكذب؟ قال: «لا»، قال الله: «إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ»[1].

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ...﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في عمار، وذلك أن المشركين أخذوه وأباه ياسرًا وأمه سُميّة وصهيبًا وبلالاً وخبّابًا وسالمًا فعذبوهم، فأما سُمية:

---

(١) أخرجه الخرائطي في «مساوىء الأخلاق»: ص٦٩، بتحقيق أبي النصر شلبي، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٥/ ١٦٨) لابن عساكر في «تاريخه»، وفيه يعلى بن الأشدق العقيلي، قال أبو حاتم: ليس بشيء، ضعيف الحديث، وقال ابن حبان: لا تحل الرواية عنه بحال، ولا الاحتجاج به. انظر: «الجرح والتعديل»: (٩/ ٣٠٣)، «المجروحين» لابن حبان: (٣/ ١٤٢).

فإنها ربطت بين بعيرين ووُجِيء قُبُلُها بحربة فقتلت، وقتل زوجها ياسر، وهما أول قتيلين قُتِلا في الإسلام، وأما عمار: فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهًا[١].

قال قتادة: أخذ بنو المغيرة عمارًا وغطُّوه في بئر ميمون، وقالوا له: اكفر بمحمد، فتابعهم[٢] على ذلك، وقلبه كاره، فأخبر رسول الله ﷺ بأن عمارًا كفر، فقال: «كلا، إن عمارًا مُلِيء إيمانًا من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان[٣] بلحمه ودمه»، فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فقال رسول الله ﷺ: «ما وراءك»؟ قال: شرٌّ يا رسول الله، نلتُ منك، وذكرت آلهتهم[٣]، قال: «كيف وجدت قلبك»، قال: مطمئنًا بالإيمان، فجعل النبي ﷺ يمسح عينيه، وقال: «إن عادُوا لَكَ فعُدْ لهم بما قلت»، فنزلت هذه الآية[٤].

قال مجاهد: نزلت في ناسٍ من أهل مكة، آمنوا فكتب إليهم بعض أصحاب رسول الله ﷺ: أن هاجروا، فإنا لا نراكم منّا حتى تهاجروا إلينا، فخرجوا يريدون المدينة، فأدركتهم قريش في الطريق فكفروا كارهين[٥].

وقال مقاتل: نزلت في جَبْرٍ، مولى عامر بن الحضرمي، أكرهه سيده على الكفر فكفر مكرهًا[٦] ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ ثم أسلم مولى جبر، وحسن إسلامه، وهاجر جبر مع سيده ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي: فتح صدره للكفر بالقبول واختاره ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

وأجمع العلماء على: أن من أُكره على كلمة الكفر، يجوز له أن يقول بلسانه، وإذا قال بلسانه غيرَ معتقدٍ لا يكون كفرًا، وإن أبى أن يقول حتى يقتل كان أفضل[٧].

واختلف أهل العلم في طلاق المكره، فذهب أكثرهم إلى أنه لا يقع[٨].

---

(١) انظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٢٦، «تفسير الطبري»: (١٤/ ١٨١)، «المستدرك»: (٢/ ٣٥٧)، «الدر المنثور»: (٥/ ١٦٩ - ١٧٠)، «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٢٤٦).

(٢) في «ب»: (فبايعهم).

(٣) ساقط من «ب».

(٤) أخرجه الطبري: (١٤/ ١٨١)، وعبد بن حميد وابن سعد وابن جرير والحاكم. وانظر: «الدر المنثور»: (٥/ ١٧٢)، القرطبي: (١٠/ ١٨١)، «المستدرك»: (٢/ ٣٥٧)، «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٢٤٦).

(٥) أخرجه ابن جرير وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم. انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ١٧١).

(٦) انظر: «زاد المسير»: (٤/ ٤٩٥ - ٤٩٦).

(٧) انظر: «تفسير الطبري»: (١٤/ ١٨٢)، القرطبي: (١٠/ ١٨١، ١٨٨ - ١٩٠)، «أحكام القرآن» للجصاص: (٤/ ١٣ - ١٤)، «أحكام القرآن» لابن العربي: (٣/ ١١٧٧ - ١١٧٩)، «زاد المسير»: (٤/ ٤٩٦)، «تفسير ابن كثير»: (٢/ ٥٨٩).

(٨) قال الشافعي ومالك وأحمد: لا يقع طلاق المكره، وهو مروي عن عمر وعلي وابن عباس، وذكره ابن المنذر عن ابن الزبير وابن عمر وابن عباس وعطاء وطاووس والحسن وشريح والقاسم وسالم والأوزاعي وإسحاق وأبي ثور، وأجازه أبو حنيفة فقال: طلاق المكره يلزم؛ لأنه لم يعدم فيه أكثر من الرضا، وليس وجوده بشرط في الطلاق، وهذا مروي عن الشعبي والنخعي وأبي قلابة والزهري وقتادة.
انظر بالتفصيل: «تفسير القرطبي»: (١٠/ ١٨٤)، «زاد المسير»: (٤/ ٤٩٧)، «أحكام القرآن» للجصاص: (٥/ ١٤ - ١٥)، «أحكام القرآن» لابن العربي: (٣/ ١١٨١).

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلْكَٰفِرِينَ (١٠٧) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (١٠٩)
ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟
إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠)

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٠٧)﴾ لا يرشدهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ (١٠٨)﴾ عمَّا يراد بهم.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (١٠٩)﴾ أي: المغبونون.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟﴾ عذبوا ومنعوا من الإسلام، فتنهم المشركون ﴿ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟﴾ على الإيمان والهجرة والجهاد ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ من بعد تلك الفتنة والغفلة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠)﴾.

نزلت في عياش بن أبي ربيعة، أخي أبي جهل من الرضاعة، وفي أبي جندل بن سهيل بن عمرو، والوليد بن الوليد بن المغيرة، وسلمة بن هشام، وعبد الله بن أسيد الثقفي، فتنهم المشركون فأعطوهم بعض ما أرادوا ليسلموا من شرهم، ثم إنهم هاجروا بعد ذلك وجاهدوا[(١)].

وقال الحسن وعكرمة: نزلتْ في عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وكان يكتب للنبي ﷺ فاستزلَّه الشيطان، فلحق بالكفار، فأمر النبي ﷺ بقتله يوم فتح مكة، فاستجاره له عثمان، وكان أخاه لأمه من الرضاعة، فأجاره رسول الله ﷺ، ثم إنه أسلم وحسن إسلامه، فأنزل الله هذه الآية[(٢)].

وقرأ ابن عامر «فَتَنوا» بفتح الفاء والتاء، وردَّه إلى من أسلم من المشركين فتنوا المسلمين.

---

(١) انظر: «تفسير الخازن»: (٤/ ٩٧).
وهناك أقوال أخرى تجمع على عياش بن ربيعة بين من نزلت الآية فيهم، وذكر بعضهم عمارًا ـ رضي الله عنه ـ، وردَّه ابن عطية.
وانظر: الطبري: (١٤/ ١٨٤)، «الدر المنثور»: (٥/ ١٧٢ ـ ١٧٣)، «المحرر الوجيز»: (٨/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥)، «زاد المسير»: (٤/ ٤٩٧ ـ ٤٩٨)، «أسباب النزول»: ص٢٣٧، «روح المعاني» للآلوسي: (١٤/ ٢٤٠)، «البحر المحيط»: (٥/ ٥٤٠).

(٢) أخرجه الطبري عنهما: (١٤/ ١٨٤ ـ ١٨٥)، وأخرج ابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس مثله، «الدر المنثور»: (٥/ ١٧٢).
وانظر: «البحر المحيط»: (٥/ ٥٤١)، «زاد المسير»: (٤/ ٤٩٨).

﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾

﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ﴾ تخاصم وتحتج ﴿عَن نَّفْسِهَا﴾ بما أسلفت من خير وشر، مشتغلًا بها لا تتفرغ إلى غيرها ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

رُوي أن عمر بن الخطاب قال / لكعب الأحبار: خوِّفنا، قال: يا أمير المؤمنين، والذي نفسي بيده، ١/٢٠٣
لو وافيتَ يوم القيامة بمثل عمل سبعين نبيًّا لأتت عليك ساعات وأنت لا تهمك إلا نفسك، وإن لجهنم زفرةً لا يبقى مَلَك مقرَّب، ولا نبي مرسل منتخب، إلا وقع جاثيًا على ركبتيه، حتى إبراهيم خليل الرحمن، يقول: يا رب، لا أسألك إلا نفسي، وإن تصديق ذلك: الذي أنزل الله عليكم «﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾»[1].

وروى عكرمة عن ابن عباس في هذه الآية، قال: ما تزال الخصومة بين الناس يوم القيامة، حتى تخاصم الروح الجسد، فتقول الروح: يا ربِّ، لم يكن لي يدٌ أبطش بها، ولا رجل أمشي بها، ولا عينٌ أبصر بها، ويقول الجسد: خلقتني كالخشب ليست لي يد أبطش بها، ولا رجل أمشي بها، ولا عين أبصر بها، فجاء هذا كشعاع النور، فبه نطق لساني، وأبصرتْ عيني، ومشت رجلي، فيضربُ الله لهما مثلًا: أعمى ومُقْعَد، دخلا حائطًا فيه ثمار، فالأعمى لا يبصر الثمر، والمقعد لا يناله، فحمل الأعمى المقعد فأصابا من الثمر فعليهما العذاب[2].

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ يعني: مكة، كانت آمنة، لا يهاج أهلها ولا يُغار عليها ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ قارّة بأهلها، لا يحتاجون إلى الانتقال للانتجاع كما يحتاج إليه سائر العرب

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور»: (٥/ ١٧٣) لابن المبارك وابن أبي شيبة وأحمد في «الزهد» وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن كعب الأحبار. وانظر: «زاد المسير»: (٤/ ٤٩٩)، «روح المعاني»: (١٤/ ٢٤٠ـ٢٤١).

(٢) قال الآلوسي (١٤/ ٢٤١): (والظاهر هو عدم صحة هذا الخبر عن الحبر ـ ابن عباس ـ وهو أجلُّ من أن يحمل المجادلة في الآية على ما ذكر، والحق أنه ليس فيه إلا الدلالة على عدم الاهتمام). وقال ابن عطية (٨/ ٥٢٥): (وظاهر الآية: أن كل نفس تجادل، مؤمنة كانت أو كافرة، فإذا جادل الكفار بكذبهم وجحدهم الكفر شهدت عليهم الجوارح والرسل وغير ذلك بحسب الطوائف، فحينئذ لا ينطقون «ولا يؤذن لهم فيعتذرون»[المرسلات: ٣٦] فتجتمع آيات القرآن باختلاف المواطن.
وقالت فرقة: قول كل أحد من الأنبياء وغيرهم: «نفسي، نفسي» وهذا ليس بجدال ولا احتجاج، وإنما هو مجرد رغبة).

وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾
فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ
تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ
بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ
أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ
عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾

﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ يُحمل إليها من البر والبحر، نظيره: «يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ» [القصص: ٥٧] ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ ﴾ جمع النعمة، وقيل: جمع نعماء مثل بأساء وأبؤس ﴿ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ ﴾ ابتلاهم الله بالجوع سبع سنين، وقطعت العرب عنهم الميرة بأمر رسول الله ﷺ حتى جهدوا فأكلوا العظام المحرقة والجِيَفَ والكلاب الميتة والعهن: وهو الوبر يعالج بالدم، حتى كان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع، ثم إن رؤساء مكة كلّموا رسول الله ﷺ وقالوا: هذا عَاديتَ الرجال، فما بال النساء والصبيان؟ فأذِنَ رسول الله ﷺ للناس بحمل الطعام إليهم وهم بعد مشركون. وذكر اللباس؛ لأن ما أصابهم من الهزال والشحوب وتغير ظاهرهم عما كانوا عليه من قبل كاللباس لهم ﴿ وَٱلْخَوْفِ ﴾ يعني: بعوث النبي ﷺ وسراياه التي كانت تطيف بهم ﴿ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ ﴾ محمد ﷺ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾[1].

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ ﴾ أي: لا تقولوا لوصف ألسنتكم، أو لأجل وصفكم الكذب، أي: أنكم تُحلّون وتُحرّمون لأجل الكذب لا لغيره ﴿ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ ﴾ يعني: البحيرة والسائبة ﴿ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ فتقولون: إن الله أمرنا بهذا ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ لا ينجون من عذاب الله.

---

(١) انظر فيما سبق: تفسير الآية (١٧٢) من سورة البقرة: (١/ ١٣٧).

(٢) انظر فيما سبق: تفسير الآية (١٧٣) من سورة البقرة: (١/ ١٣٨ ـ ١٣٩).

﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ
وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٨ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ
تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ١١٩ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ
أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ
صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢﴾

﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ يعني: الذي هم فيه متاع قليل، أو لهم متاع قليلٌ في الدنيا ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾ في الآخرة.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ﴾ يعني: في سورة الأنعام، وهو قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ﴾[الأنعام: ١٤٦] الآية[(١)].

﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ بتحريم ذلك عليهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٨﴾ فحرمنا عليهم ببغيهم.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ﴾ معنى الإصلاح: الاستقامة على التوبة ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ أي: من بعد الجهالة ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ١١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ﴾ قال ابن مسعود: الأمة: معلّم الخير، أي: كان معلمًا للخير، يأتمُّ به أهل الدنيا، وقد اجتمع فيه من الخصال الحميدة ما يجتمع في أمة.

قال مجاهد: كان مؤمنًا[(٢)] وحده والناس كلهم كفار.

قال قتادة: ليس من أهل دين إلا يتولونه ويرضونه.

﴿قَانِتٗا لِّلَّهِ﴾ مطيعًا له، وقيل: قائمًا بأوامر الله تعالى ﴿حَنِيفٗا﴾ مسلمًا مستقيمًا على دين الإسلام، وقيل: مخلصًا ﴿وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠﴾.

﴿شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ﴾ اختاره ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١﴾ أي: إلى دين الحق.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾ يعني: الرسالة والخلة، وقيل: لسان الصدق، والثناء الحسن.

وقال مقاتل بن حيان: يعني: الصلوات في قول هذه الأمة: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم.

وقيل: أولادًا أبرارًا على الكبر، وقيل: القبول العام في جميع الأمم.

---

(١) انظر: تفسير الآية (١٤٦) من سورة الأنعام: ص٧٥.

(٢) في «ب»: (أمة).

ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ مع آبائه الصالحين في الجنة، وفي الآية تقديم وتأخير، مجازه: وآتيناه في الدنيا والآخرة حسنة، وإنه لمن الصالحين.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ حاجًا مسلمًا[(١)] ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾.

وقال أهل الأصول: كان النبي ﷺ مأمورًا بشريعة إبراهيم إلا ما نسخ في شريعته، وما لم ينسخ صار شرعًا له[(٢)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ قيل: معناه: إنما جعل السبت لعنةً على الذين اختلفوا فيه، أي: خالفوا فيه.

وقيل: معناه: ما فرض الله عليهم تعظيم السبت وتحريمه إلا على الذين اختلفوا فيه، أي: خالفوا فيه، فقال قوم: هو أعظم الأيام؛ لأن الله تعالى فرغ من خلق الأشياء يوم الجمعة، ثم سبت يوم السبت.

وقال قوم: بل أعظم الأيام يوم الأحد؛ لأن الله تعالى ابتدأ فيه خلق الأشياء، فاختاروا تعظيم غير ما فرض الله عليهم، وقد افترض الله عليهم تعظيم يوم الجمعة.

قال الكلبي: أمرهم موسى عليه السلام بالجمعة، فقال: تفرَّغوا لله في كل سبعة أيام يومًا، فاعبدوه يوم الجمعة، ولا تعملوا فيه لصنعتكم، وستة أيام لصناعتكم، فأبوا وقالوا: لا نريد إلا اليوم الذي فرغ الله فيه من الخلق يوم السبت، فجعل ذلك اليوم عليهم وشدِّد عليهم فيه، ثم جاءهم عيسى عليه السلام بيوم الجمعة، فقالوا: لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا - يعنون: اليهود - فاتخذوا الأحد، فأعطى الله الجمعة هذه الأمةَ، فقبلوها وبُورك لهم فيها.

أخبرنا أبو علي حسان بن سعيد المنيعي، أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي، حدثنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان، حدثنا أحمد بن يوسف السلمي، أنبأنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن همام
٢٠٣/ب ابن منبه قال: حدثنا أبو هريرة عن محمد رسول الله ﷺ / قال:

---

(١) وقال الطبري: (مُسْلِمًا على الدين الذي كان عليه إبراهيم، بريئًا من الأوثان والأنداد التي يعبدها قومك، كما كان إبراهيم تبرأ منها. «تفسير الطبري»: (١٤/ ١٩٣).

(٢) انظر بالتفصيل: «الإحكام في أصول الأحكام» لابن حزم: (٥/ ٧٢٢، وما بعدها)، «تفسير القرطبي»: (١٠/ ١٩٨).

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

«نحن الآخِرُون السابقون يوم القيامة، بَيْدَ أنهم أُوتوا الكتاب من قبلنا، وأُوتيناه من بعدهم، فهذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فهم لنا فيه تبَع، فاليهود غدًا، والنصارى بعد غد»[(١)].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ (قال قتادة: الذين اختلفوا فيه هم)[(٢)] اليهود، استحلَّه بعضُهم، وحرَّمه بعضهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ بالقرآن ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ﴾ يعني: مواعظ القرآن.

وقيل: الموعظة الحسنة هي الدعاء إلى الله بالترغيب والترهيب.

وقيل: هو القول اللين الرقيق من غير غلظة ولا تعنيف.

﴿وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ وخاصمهم وناظرهم بالخصومة التي هي أحسن، أي: أعرِضْ عن أذاهم، ولا تقصر في تبليغ الرسالة والدعاء إلى الحق، نسختها آية القتال[(٣)].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ﴾ هذه الآيات نزلت بالمدينة في شهداء أُحد[(٤)]، وذلك أن المسلمين لمَّا رأوا ما فعل المشركون بقتلاهم يوم أُحد، من تبقير البطون، والمُثْلة السيئة ـ حتى لم يبق أحد من قتلى المسلمين إلاَّ مُثِّلَ به غير حنظلة بن الراهب، فإن أباه أبا عامر الراهب كان مع أبي سفيان، فتركوا

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة، باب فرض الجمعة: (٢/ ٣٥٤)، ومسلم في باب هداية الأمة ليوم الجمعة برقم٨٥٥: (٢/ ٥٨٦)، والمصنف في «شرح السنة»: (٤/ ٢٠٠).

(٢) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٣) هذه الآية الكريمة نزلت بمكة المكرمة في وقت الأمر بمهادنة المشركين، وأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين، دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمين إلى يوم القيامة، فهي محكمة في جهة العصاة من الموحِّدين، ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين.

وقد قيل: إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ورُجِي إيمانه بها دون قتال فهي محكمة، والله أعلم.

«تفسير القرطبي»: (١٠/ ٢٠٠)، وأصل الكلام لابن عطية في «المحرر الوجيز»: (٨/ ٥٤٦)، وانظر فيما سبق: تفسير الآية (٣) من سورة الحجر: ص٥٧٤ تعليق (٥)، وص٢٣٦ تعليق (٣).

(٤) قال ابن عطية (٤/ ٥٤٦): اطبق أهل التفسير أن هذه الآية مدنية، نزلت في شأن التمثيل بحمزة ـ رضي الله عنه ـ في يوم أُحد، ووقع ذلك في «صحيح البخاري»، وفي كتب السِّير، وذهب النحاس إلى أنها مكية. وانظر: «تفسير القرطبي»: (١٠/ ٢٠١).

حنظلة لذلك ـ فقال المسلمون حين رأوا ذلك: لئن أظْهَرَنا الله عليهم لنزِيْدَنَّ على صنيعهم، ولنُمَثِّلن بهم مُثْلة لم يفعلها أحدٌ من العرب بأحد، فوقف رسول الله ﷺ على عمه حمزة بن عبد المطلب، وقد جدعوا أنفه وأُذنه، وقطعوا مذاكيره، وبقرُوا بطنه، وأخذت هند بنت عتبة قطعة من كبده فمضغتها ثم استرطبتها لتأكلها فلم تلبث في بطنها حتى رمت بها، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: «أما إنها لو أكلته لم تدخل النار أبدًا، حمزة أكرم على الله تعالى من أن يُدْخِل شيئًا من جسده النار»، فلما نظر رسول الله ﷺ إلى عمه حمزة، ونظر إلى شيء لم ينظر إلى شيء قط كان أوجع لقلبه منه، فقال النبي ﷺ: «رحمة الله عليك، فإنك ما علمتُ ما كنتَ إلا فاعلًا للخيرات، وصولاً للرحم، ولولا حزن من بعدك عليك لسرَّني أن أدعك حتى تحشر من أفواج شتى، أما والله لئن أظفرني الله بهم لأُمثِّلنَّ بسبعين منهم مكانك»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ . . .﴾ الآية، ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾، أي: ولئن عفوتم لهو خير للعافين فقال النبي ﷺ: «بل نصبر»، وأمسك عما أراد وكفَّر عن يمينه[(١)].

قال ابن عباس والضحاك: كان هذا قبل نزول براءة حين أمر النبي ﷺ بقتال من قاتله ومنع من الابتداء بالقتال، فلما أعز الله الإسلام وأهله نزلت براءة، وأُمروا بالجهاد ونسخت هذه الآية[(٢)].

وقال النَّخَعيُّ والثوريُّ ومجاهد وابن سيرين: الآية محكمة نزلت في من ظلم بظلامة، فلا يحل له أن ينال من ظالمه أكثر مما نال الظالم منه، أمر بالجزاء والعفو، ومنع من الاعتداء[(٣)]، ثم قال لنبيه ﷺ:

---

(١) هذه الرواية ساقها الواحدي في «أسباب النزول»: ص٣٢٩ ـ٣٣٠ عن المفسرين، ولم يذكر لها إسنادًا، وكذلك فعل الخازن في «تفسيره»: (٤/ ١٣١)، وفي هذا السياق ما هو صحيح ومنه ما هو ضعيف، وإليك بعض الروايات في ذلك:

عن أُبي بن كعب: قال: لما كان يوم أحد أُصيب من الأنصار أربعة وستون رجلًا، ومن المهاجرين ستة منهم حمزة، فمثّلوا بهم، فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يومًا مثل هذا لنُرْبِيَنَّ عليهم، قال: فلما كان يوم فتح مكة فأنزل الله تعالى: «وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين»، فقال رجل: لا قريش بعد اليوم، فقال رسول الله ﷺ: «كُفُّوا عن القوم إلا أربعةً».

أخرجه الترمذي في «التفسير»: (٨/ ٥٥٩ ـ ٥٦٠)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وأخرجه ابن حبان، كما في «موارد الظمآن»: ص٤١١، وصححه الحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٣٥٩، ٤٤٦) ووافقه الذهبي، والطبراني في «الكبير»: (٣/ ١٥٧)، وعبد الله بن الإمام أحمد في «زوائد المسند»: (٥/ ١٣٥)، وعزاه السيوطي للنسائي وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل».

وأشار الحافظ ابن حجر إلى هذه الرواية وقال في «الفتح» (٧/ ٣٧٢): (وهذه طرق يقوي بعضها بعضًا).

وروى البزار والطبراني بإسناد فيه ضعف عن أبي هريرة أن النبي ﷺ لما رأى حمزة قد مُثِّل به قال: رحمة الله عليك ـ كما جاء في سياق المصنف ـ. انظر: «فتح الباري»: (٧/ ٣٧١)، وراجع: «طبقات ابن سعد»: (٣/ ١٢ ـ ١٣)، «سيرة ابن هشام»: (٢/ ٩١، ٩٥ ـ٩٦)، «إمتاع الأسماع» للمقريزي: ص١٥٣، «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٢٩ ـ ٣٣١، وفيه سياق الروايات كلها، وكذلك «الدر المنثور»: (٥/ ١٧٨ ـ١٧٩)، «تفسير ابن كثير»: (٢/ ٥٩٢).

(٢) أخرجه الطبري عن ابن عباس: (١٤/ ١٩٦)، وانظر: «الدر المنثور»: (٥/ ١٨٠)، «زاد المسير»: (٤/ ٥٠٨).

(٣) الطبري: (١٤/ ١٩٧)، القرطبي: (١٠/ ٢٠١)، «المحرر الوجيز»: (٨/ ٥٤٨)، «زاد المسير»: (٤/ ٥٠٨).

قال الطبري تَعْلَلهُ: (والصواب من القول في ذلك: أن الله تعالى ذكره أمر من عوقب من المؤمنين بعقوبة أن يعاقب من عاقبه بمثل الذي عوقب به، إن اختار عقوبته، وأعلمه أن الصبر على ترك عقوبته، على ما كان منه إليه خير وعزم على نبيه ﷺ أن يصبر، وذلك أن ذلك هو=

﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: بمعونة الله وتوفيقه ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ في إعراضهم عنك ﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ أي: فيما فعلوا من الأفاعيل.

قرأ ابن كثير هاهنا وفي النمل «ضِيق» بكسر الضاد، وقرأ الآخرون بفتح الضاد، قال أهل الكوفة: هما لغتان، مثل: رِطْل ورَطل.

وقال أبو عمرو: «الضَّيق» بالفتح: الغم، وبالكسر: الشِّدة.

وقال أبو عبيد: «الضيق» بالكسر في قلة المعاش وفي المساكن، فأما ما كان في القلب والصدر فإنه بالفتح.

وقال ابن قتيبة: الضيق تخفيف ضيّق، مثل: هَيْن وهَيِّن، ولِيْن ولَيِّن، فعلى هذا هو صفة، كأنه قال: ولا تكن في أمر ضيق من مكرهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ المناهي ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ بالعون والنصرة.

* * *

= ظاهر التنزيل، والتأويلات ـ التي ذكرناها عمن ذكروها عنه ـ تَحْتَمِلُها الآية كلها، فإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن في الآية دلالة على أيِّ ذلك عنى بها من خبر ولا عقل كان الواجب علينا الحكم بها . . . وأن يقال: هي آية محكمة، أمر الله ـ تعالى ذكره ـ عباده أن لا يتجاوزوا فيما وجب لهم قِبَل غيرهم من حقّ مال أو نفس، الحق الذي جعله الله لهم إلى غيره، وأنها غير منسوخة، إذ كان لا دلالة على نسخها، وأن للقول بأنها محكمة وجهًا صحيحًا مفهومًا).

سورة الإسراء

مكية وهي مائة وإحدى عشرة آية[١].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ سبحان الله: تنزيه الله تعالى من كل سوء، ووصفه بالبراءة من كل نقص على طريق المبالغة، ويكون «سبحان» بمعنى التعجب، «أسرى بعبده»، أي: سيَّره، وكذلك سرى به، والعبد هو: محمد ﷺ.

﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قيل: كان الإسراء من مسجد مكة، روى قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة أن رسول الله ﷺ قال: «بينا أنا في المسجد الحرام في الحِجْر بين النائم واليقظان، إذ أتاني جبريل بالبراق»[٢]، فذكر حديث المعراج. وقال قوم: عرج به من دار أُم هانىء بنت أبي طالب[٣]، ومعنى قوله: «مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ»، أي: من الحرم[٤].

قال مقاتل: كانت ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة، ويقال: كان في رجب، وقيل: كان في شهر رمضان[٥].

---

(١) هي مكية في قول الجماعة، وهو مروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ فيما أخرجه عنه: النحاس وابن مردويه، قال: (نزلت سورة بني إسرائيل بمكة). وقال بعضهم: فيها مدني، وهو مروي عن ابن عباس أيضًا، حيث قال: هي مكية إلا ثمان آيات.
انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ١٨١)، «زاد المسير»: (٥/ ٣).

(٢) وهو مروي في «الصحيحين» وغيرهما، وسيأتي تخريجه قريبًا.

(٣) أخرجه ابن إسحاق في السيرة قال: حدثني محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح باذان، عن أم هانىء بنت أبي طالب. انظر: «سيرة ابن هشام»: (١/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣)، والطبري في «التفسير»: (١٥/ ٢). قال الحافظ ابن كثير (٣/ ٢٣): (الكلبي متروك بمرة ساقط)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٧٦): (رواه الطبراني في «الكبير»، وفيه عبد الأعلى بن أبي المساور، متروك كذاب).

(٤) انظر: «زاد المسير»: (٥/ ٤ ـ ٥)، «تفسير الطبري»: (١٥/ ٢).

(٥) انظر الروايات في زمن الإسراء، في: «الدر المنثور»: (٥/ ٢٠٩ ـ ٢١١)، «إمتاع الأسماع» للمقريزي: (١/ ٢٩)، «فتح الباري»: (٧/ ٢٠٣)، «تفسير القرطبي»: (١٠/ ٢١٠).

﴿إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ يعني: بيت المقدس، وسُمي أقصى؛ لأنه أبعد المساجد التي تزار، وقيل: لبعده من المسجد الحرام.

﴿ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ بالأنهار والأشجار والثمار، وقال مجاهد: سماه مباركًا؛ لأنه مقر الأنبياء، ومهبط الملائكة والوحي، ومنه يحشر الناس يوم القيامة.

﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ من عجائب قدرتنا، وقد رأى هناك الأنبياء والآيات الكبرى.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ①﴾ ذكر «السميع» لينبّه على أنه المجيب لدعائه، وذكر «البصير» لينبه على أنه الحافظ له في ظلمة الليل.

ورُوي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها كانت تقول: ما فقد جسد النبي ﷺ، ولكن الله أسرى بروحه[1].

والأكثرون على أنه أسرى بجسده في اليقظة، وتواترت الأخبار الصحيحة على ذلك.

أخبرنا أبو عمر عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أبو حامد أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن يوسف، حدثنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا هُدْبَةُ بن خالد، حدثنا همام بن يحيى، حدثنا قتادة (ح)[2] قال البخاري: وقال لي خليفة العصفري: حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة»: (١/ ٣٩٩ ـ ٤٠٠)، والطبري: (١٥/ ١٦) عن عائشة ومعاوية.
وانظر: «إمتاع الأسماع»: (١/ ٣٠)، «الروض الأنف» للسهيلي: (١/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤)، «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٢٤)، «الشفا بتعريف حقوق المصطفى»: (١/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦).
وقد تعقب الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الرأي وردّه ردًا شديدًا فقال (١٥/ ١٦ ـ ١٧): (والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله أسرى بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كما أخبر الله عباده، وكما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، أن الله حمله على البراق حين أتاه به، وصلى هنالك بمن صلى من الأنبياء والرسل، فأراه ما أراه من الآيات.
ولا معنى لقول من قال: أسري بروحه دون جسده؛ لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن في ذلك ما يوجب أن يكون ذلك دليلًا على نبوته، ولا حجة على رسالته، ولا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك، وكانوا يدفعون به عن صدقه فيه، إذ لم يكن منكرًا عندهم، ولا عند أحد من ذوي الفطرة الصحيحة من بني آدم أن يرى الرائي منهم في المنام ما على مسيرة سنة، فكيف ما هو على مسيرة شهر أو أقل!
وبعد، فإن الله إنما أخبر في كتابه أنه أسرى بعبده، ولم يخبرنا أنه أسرى بروح عبده، وليس جائزًا لأحد أن يتعدّى ما قال الله إلى غيره ...).
وانظر: «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض: (١/ ٢٥٢ ـ ٢٥٦).
وجمع الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ روايات أحاديث الإسراء في أول تفسير السورة: (٣/ ٣ ـ ٢٤)، وقال: (وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث، صحيحها وحسنها وضعيفها، يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس؛ وأنه مرة واحدة، وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه، أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه؛ فإن الخطأ جائز على مَنْ عدا الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، ومَنْ جعل من الناس ـ كلَّ رواية خالفت الأخرى مرة على حدة، فأثبت إسراءات متعددة فقد أبعد وأغرب، وهرب إلى غير مهرب ولم يتحصل على مطلب، وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أسري به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط، ومرة من مكة إلى السماء فقط، ومرة إلى بيت المقدس، ومنه إلى السماء، وفرح بهذا المسلك وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات، وهذا بعيد جدًا، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف، ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبي ﷺ به أمته، ولنقله الناس على التعدد والتكرر).

(٢) إذا كان للحديث إسنادان أو أكثر، فإن المحدثين يكتبون عند الانتقال من إسناد إلى إسناد آخر ما صورته (ح)، وهي حاء مفردة مهملة، =

سعيد وهشام قالا: حدثنا قتادة(ح) عن مالك بن صعصعة ـ رضي الله عنه ـ أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أُسري به (ح) قال البخاري: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، عن أنس قال: كان أبو ذر يحدِّث أن رسول الله ﷺ قال: (ح) وأخبرنا أبو سعيد إسماعيل بن عبد القاهر، أخبرنا أبو الحسن عبد الغافر بن محمد / (الفارسي، أنبأنا أبو أحمد محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن 1/204
محمد)[1] بن سفيان، حدثنا أبو الحسين مسلم بن الحجاج، حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت البناني، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال ـ (دخل حديث بعضهم في بعض[2] ـ قال أبو ذر: إن رسول الله ﷺ قال)[3]: «فُرِج عني سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرّج صدري، ثم غسله بماء زمزمَ، ثم جاء بطَسْتٍ من ذهب ممتلىء حكمةً وإيمانًا، فأفرغه في صدري، ثم أطبقه».

وقال مالك بن صعصعة: إن نبي الله ﷺ حدَّثهم عن ليلة أُسري به، قال: «بينما أنا في الحطيم، وربما قال في الحِجْر[4]، بين النائم واليقظان»، وذكر بين رجلين[5]، «فأتيت بطَسْتٍ من ذهب مملوء حكمة وإيمانًا فشقَّ من النَّحْر إلى مَرَاقِّ البطن[6]، واستخرج قلبي فغسل ثم حُشِي، ثم أُعيد»[7].

= إشارة إلى التحويل من سند إلى سند آخر . . . وبعضهم يقول: إذا وصل إليها (الحديث) . . . ومنهم من يقول: إذا انتهى إليها في القراءة: (حا) ويمرّ.

وقال الحافظ عبد القادر الرهاوي: إنها حاء من حائل، أي: تحول بين الإسنادَيْن، قال: ولا يلفظ بشيء عند الانتهاء إليها في القراءة، وأنكر كونها من «الحديث» وغير ذلك.

واختار ابن الصلاح أن يقول القارىء عند الانتهاء إليها: (حا) ويمرّ، فإنه أحوط الوجوه وأعدلها.

انظر: «علوم الحديث» لابن الصلاح: ص٢٠٣ ـ ٢٠٤، بتحقيق الشيخ الدكتور نور الدين عتر.

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٢) إذا روى الراوي الحديث عن شيخين فأكثر، وبين ألفاظهم تباين، فإن ركَّب السياق من الجميع ـ كما فعل المصنف هنا ـ وساق الحديث بتمامه فإن هذا سائغ، فإن الأئمة تلقوه بالقبول، وقد بيَّن المصنف ما في كل رواية من زيادة أو نقص.
انظر: «الباعث الحثيث» لابن كثير: ص١٢٣ ـ ١٢٤)، «فتح الباري» لابن حجر: (٨/ ٤٥٦ ـ ٤٥٧).

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٤) هو شك من قتادة، والمراد بالحطيم هنا: الحِجْر. انظر: «فتح الباري»: (٧/ ٢٠٤).

(٥) قال ابن حجر في الموضع السابق: ووقع في بدء الخلق من «صحيح البخاري» بلفظ: «وذكر بين الرجلين» وهو مختصر، وقد أوضحته رواية مسلم من طريق سعيد عن قتادة بلفظ: «إذ سمعت قائلًا يقول: أحد الثلاثة بين الرجلين، فأتيت، فانطلق بي . . .»، والمراد بالرجلين حمزة وجعفر، وكان النبي ﷺ نائمًا بينهما.

(٦) «مَرَاقّ البطن» بفتح الميم وتخفيف الراء وتشديد القاف، هو: ما أسفل من البطن ورقَّ من جلده، وأصله مراقق، وسميت بذلك؛ لأنها موضع رقة الجلد. انظر: «فتح الباري»: (٦/ ٣٠٨).

(٧) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٧/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥): (وقد استنكر بعضهم وقوع شقِّ الصدر ليلة الإسراء، وقال: إنما كان ذلك وهو صغير في بني سعد.
ولا إنكار في ذلك، فقد تواردت الروايات به، وثبت شقُّ الصدر أيضًا عند البعثة، كما أخرجه أبو نعيم في «الدلائل»، ولكل منهما حكمة، فالأول وقع فيه من الزيادة ـ كما عند مسلم من حديث أنس ـ «فأخرج علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك»، وكان هذا في زمن الطفولية، فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان. =

وقال سعيد وهشام: «ثم غُسِلَ البطنُ بماء زمزم ثم ملىء إيمانًا وحكمةً، ثم أُوتيتُ بالبراق، وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طَرْفِهِ، فركبتُه فانطلقت مع جبريل حتى أتيت بيت المقدس»، قال: «فربطته بالحلقة التي تَرْبِط بها الأنبياء»، قال: «ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثم خرجت، فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترتَ الفطرةَ، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به، فنِعْمَ المجيءُ جاء، ففُتِح، فلما خَلَصْتُ، فإذا فيها آدم، فقال لي: هذا أبوك آدم، فسلِّم عليه، فسلمتُ عليه، فردَّ السلام، ثم قال: مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح».

وفي حديث أبي ذر: عَلَوْنَا السماء الدنيا، فإذا رجلٌ قاعدٌ عن يمينه أَسْوِدَةٌ وعن يساره أَسْوِدة، إذا نظر قِبَلَ يمينه ضحك، وإذا نظر قِبَلَ شماله بكى، فقال: مرحبًا بالنبيِّ الصالح والابن الصالح، قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة التي عن يمينه وشماله نَسَمُ بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قِبَل شماله بكى.

ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به فنعم المجيءُ جاء، ففتح، فلما خَلَصْتُ، إذا بيحيى وعيسى عليهما السلام وهما ابنا خالة، قال: هذا يحيى وعيسى، فسلِّم عليهما، فسلمت فردَّا، ثم قالا: مرحبًا بالأخ الصالح والنبيِّ الصالح.

ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خَلَصْتُ، فإذا يوسف، وإذا هو قد أُعطي شطر الحسن، قال: هذا يوسف فسلِّمْ عليه، فسلمتُ عليه فردَّ عليَّ، ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريل قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خَلَصْتُ فإذا إدريس، قال: هذا إدريس فسلِّم عليه، فسلمت عليه، فردَّ ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

= ثم وقع شق الصدر عند البعث زيادة في إكرامه، ليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوي في أكمل الأحوال من التطهير.

ثم وقع شق الصدر عند إرادة العروج إلى السماء ليتأهب للمناجاة، ويحتمل أن تكون الحكمة في هذا الغسل لتقع المبالغة في الإسباغ بحصول المرة الثالثة كما تقرر في شرعه ﷺ).

قارن بـ «الشفا» للقاضي عياض: (١/ ٢٥٤ـ ٢٥٥).

ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به، فنعم المجيءُ جاء، فلما خَلَصْتُ فإذا هارون، قال: هذا هارون فسلِّم عليه، فسلمت عليه فردَّ ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء، فلما خَلَصْتُ فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلِّم عليه، فسلمتُ عليه فردَّ ثم قال: مرحبًا بالنبي الصالح والأخ الصالح، فلما جاوزتُ بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلامًا بُعِثَ بعدي يدخل الجنةَ من أمته أكثرُ ممن يدخلها من أمتي[1].

ثم صَعِدَ بي إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء، فلما خَلَصْتُ فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك إبراهيم، فسلِّم عليه، فسلمتُ عليه فردَّ السلام، ثم قال: مرحبًا بالنبي الصالح والابن الصالح، فَرُفِعَ لي البيت المعمور، فسألت جبريل؟ فقال: هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم.

وقال ثابت عن أنس: فإذا أنا بإبراهيم مسند ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كلَّ يوم سبعون ألف مَلَكٍ لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى فإذا نَبِقُها مثل قِلَال هَجَرَ، وإذا ورقها مثل آذان الفِيَلَة، قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرَّت، فما أحدٌ من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حُسْنِها، في أصلها أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران، فقلت: ما هذان يا جبريل؟ فقال: أما الباطنان: فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات.

وأوحى إليَّ ما أوحى، فَفَرَض عليَّ خمسين صلاةً في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجعْ إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخَبَرْتُـهُم، قال: فرجعتُ إلى ربي فقلت: يا رب خفِّف على أمتي، فحطَّ عني خمسًا، فرجعت إلى موسى فقلت: حطَّ عني خمسًا، قال: إن أمتك لا تطيق ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف.

---

(١) قال العلماء: لم يكن بكاء موسى حسدًا، ـ معاذ الله ـ فإن الحسد في ذلك العالم منزوع عن آحاد المؤمنين، فكيف بمن اصطفاه الله تعالى، بل كان أسفًا على ما فاته من الأجر الذي يترتب عليه رفع الدرجة بسبب ما وقع من أمته من كثرة المخالفة المقتضية لتنقيص أجورهم المستلزم لتنقيص أجره؛ لأن لكل نبي مثل أجر كل من اتبعه، ولهذا كان من اتبعه من أمته في العدد دون من اتبع نبينا محمدًا ﷺ، مع طول مدتهم بالنسبة لهذه الأمة.

انظر: «فتح الباري»: (٧/ ٢١١)، «شرح السنة»: (١٣/ ٣٤٢).

قال: فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى حتى قال: يا محمَّدُ، إنهنَّ خمسُ صلواتٍ كلَّ يومٍ وليلة، لكل صلاةٍ عَشْرٌ، هي خمسٌ وهي خمسون، لا يُبَدَّلُ القولُ لديَّ، ومَنْ همَّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرًا، ومن همَّ بسيئةٍ فلم يعملها لم تكتب شيئًا، فإن عملها كتبت سيئة واحدة.

قال: فنزلت حتى انتهيتُ إلى موسى فأخبرتُه، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك.

فقلت: سألت ربي حتى استحييت ولكني أرضى وأسلِّمُ، قال: فلما جاوزت نادى منادٍ: أمضيتُ ٢٠٤/ب فريضتي وخففتُ عن عبادي، ثم أُدْخِلْتُ الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ[1]، وإذا ترابها المسك. /

قال ابن شهابٍ: فأخبرني ابن حزم[2] أن ابن عباس وأبا حَبَّة الأنصاري كانا يقولان: قال النبي ﷺ: ثم عُرِج بي حتى ظهرتُ لمستوًى فيه صريف الأقلام[3].

قال ابن حزم وأنس: قال النبي ﷺ: «ففرض الله على أمتي خمسين صلاة»[4].

وروى مَعْمَرٌ عن قتادة عن أنس أن النبي ﷺ: أُتي بالبُراق ليلة أُسرِيَ به مُلْجَمًا مُسْرَجًا، فَاسْتَصْعَبَ عليه، فقال جبريل: أبمحمدٍ تفعلُ هذا؟ فما ركبك أحدٌ أكرمُ على الله منه، فارفضَّ عرقًا[5].

وقال ابن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما انتهينا إلى بيت المقدس قال جبريل بأصبعه، فخرق بها الحجر وشدَّ بها البُراق»[6].

أنبأنا عبد الواحد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبد الله النعيمي، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثني محمود، أنبأنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن الزهري، أخبرني سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليلة أُسري بي لقيتُ موسى، قال: فَنَعَتَهُ، فإذا هو رجل ـ حسبته قال: مُضْطَرِبٌ ـ رَجِلُ الرأس كأنه من رجال شَنُوءَة»، قال: «ولقيتُ عيسى»، فنعته النبي ﷺ فقال: «رَبْعة، أحمر، كأنما خرج من ديماس، يعني: الحمام، ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به، قال: وأُتِيتُ بإناءين،

---

(١) قباب اللؤلؤ. والجنابذ جمع جُنْبُذَة: وهي القُبَّة. «شرح السنة»: (١٣/ ٣٤٧).

(٢) هو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وروايته عن أبي حبَّة الأنصاري منقطعة؛ لأنه استشهد بأحد قبل مولد أبي بكر بدهرٍ. «فتح الباري»: (١/ ٤٦٢).

(٣) أي: ما يكتبه الملائكة من أقضية الله عزَّ وجلَّ، وما ينسخونه من اللوح المحفوظ. «شرح السنة»: (١٣/ ٣٤٨).

(٤) هذا الحديث برواياته وطرقه التي ساقها المصنف: أخرجه البخاري في الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء: (١/ ٤٥٨ـ ٤٥٩)، وفي بدء الخلق، باب ذكر الملائكة: (٦/ ٣٠٢ـ٣٠٣)، وفي مناقب الأنصار، باب المعراج: (٧/ ٢٠١ـ ٢٠٢)، وفي مواضع أخرى.
وأخرجه مسلم في الإيمان، باب الإسراء برقم ١٦٢ ـ ١٦٤: (١/ ١٤٥ ـ ١٥١)، والمصنف في شرح السنة»: (١٣/ ٣٣٦ـ ٣٤١، ٣٤٣ـ ٣٤٤، ٣٤٥ـ٣٤٧).

(٥) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الإسراء: (٨/ ٥٦٤)، وقال: (هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرزاق، وأخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٣/ ١٦٤)، والطبري: (١٥/ ١٥)، وزاد السيوطي نسبته لابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي. انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٢١٠).

(٦) أخرجه الترمذي في التفسير: (٨/ ٥٦٥)، وقال: (هذا حديث غريب)، وأخرجه ابن حبان: ص٣٩ من «موارد الظمآن»، وأخرجه البزار في «مسنده» وقال: (لا نعلم رواه عن الزبير بن جنادة إلا أبو نميلة، ولا نعلم هذا الحديث إلا عن بريدة). انظر: «تفسير ابن كثير»: (٤/ ١١).

أحدهما: لبن، والآخر: فيه خمر، فقيل لي: خذْ أيهما شئت، فأخذت اللَّبَنَ فشربته، فقيل لي: هديت الفطرة (أو أصبت الفطرة)[١]، أمَا إنك لو أخذتَ الخمر غَوَتْ أُمَّتُك»[٢].

أنبأنا عبد الواحد المليحي، حدثنا أحمد بن عبد الله النعيمي، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: «وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس»، قال: هي رؤيا عين أُرِيَهَا النبيُّ ﷺ ليلة أُسْرِيَ به إلى بيت المقدس، قال: «والشجرة الملعونة في القرآن»، قال: «هي شجرة الزقوم»[٣].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثني سليمان، عن شريك بن عبد الله قال: سمعت أنس بن مالك يقول: ليلة أُسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نَفَرٍ، قبل أن يوحى إليه، وهو نائم في المسجد الحرام، فقال أولهم: أيهم هو؟ فقال: أوسطهم هو خيرهم، فقال آخرهم: خذوا خيرهم، فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه، وتنام عينه ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، فلم يكلِّموه حتى احتملوه ووضعوه عند بئر زمزم، فشقَّ جبريل ما بين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه، فغسله من ماء زمزم بيده. وساق حديث المعراج بقصته، فقال: فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يَطَّرِدَان، قال: هذا النيل والفرات، عنصرهما واحد، ثم مضى به في السماء الثانية، فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فضرب يده فإذا هو مسك أَذْفر، قال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي خبأ لك ربُّك. وساق الحديث، وقال: ثم عُرِج بي إلى السماء السابعة، وقال: قال موسى: ربِّ لم أظن أن ترفع عليَّ أحدًا، ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار ربُّ العزة فتدلَّى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إليه فيما يوحي إليه الله خمسين صلاة كل يوم وليلة، وقال: فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات، ثم احتبسه موسى عند الخمس، فقال: يا محمد، والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا عنه وتركوه، فأمَّتُك أضعف قلوبًا وأجسادًا وأبدانًا وأبصارًا وأسماعًا، فارْجِعْ ليخفف عنك ربك، كل ذلك يلتفت النبي ﷺ إلى جبريل ليشير عليه، ولا يكره ذلك جبريل، فرفعه عند الخامسة،

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب مريم . . .﴾: (٦/ ٤٧٦)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في الإيمان، باب الإسراء برقم١٦٨ : (١/ ١٥٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٣٥٢).

(٣) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب المعراج: (٧/ ٢٠٣)، وفي التفسير، وفي القدر، وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٣٤٨).

فقال: يا رب، أُمَّتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم فخفف عنا، فقال الجبار: يا محمد، قال: لبيك وسعديك، قال: إنه لا يبدل القول لديَّ، كما فرضت عليك في أُم الكتاب، فكل حسنة بعشر أمثالها، فهي خمسون في أُم الكتاب، وهي خمس عليك، فقال موسى: ارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضًا، فقال رسول الله ﷺ: «قد والله استحييت من ربي مما اختلفتُ إليه»، قال: فاهبط بسم الله، فاستيقظ وهو في المسجد الحرام.

وروى مسلم هذا الحديث مختصرًا عن هارون بن سعيد الإيلي، عن ابن وهب، عن سليمان بن بلال[(١)].

قال شيخنا الإمام ـ رضي الله عنه ـ: قد قال بعض أهل الحديث ما وجدنا لمحمد بن إسماعيل ولمسلم في كتابيهما شيئًا لا يحتمل مخرجًا إلا هذا، وأحال الأمر فيه إلى شريك بن عبد الله، وذلك أنه ذكر فيه أن ذلك قبل أن يوحى إليه، واتفق أهل العلم على أن المعراج كان بعد الوحي بنحو من اثنتي عشرة سنة قبل الهجرة بسنة.

وفيه أيضًا: «أن الجبار دنا فتدلى»، وذكرت عائشة أن الذي دنا فتدلى جبريل عليه السلام[(٢)].

قال شيخنا الإمام ـ رضي الله عنه ـ: وهذا الاعتراض عندي لا يصح؛ لأن هذا كان رؤيا في النوم، أراه الله عزَّ وجلَّ قبل الوحي، بدليل آخر الحديث، قال: فاستيقظ وهو في المسجد الحرام، ثم عرج به في اليقظة بعد الوحي قبل الهجرة بسنة تحقيقًا لرؤياه من قبل، كما أنه رأى فتح مكة في المنام عام الحديبية سنة ست من الهجرة، ثم كان تحقيقه سنة ثمان ونزل قوله عزَّ وجلَّ[(٣)]: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾[الفتح: ٢٧].

ورُوي أنه لما رجع رسول الله ﷺ ليلة أسري به وكان بذي طوى، قال: يا جبريل، إن قومي لا يصدِّقوني، قال: يصدقك أبو بكر وهو الصِّدِّيق[(٤)].

قال ابن عباس وعائشة ـ رضي الله عنهم ـ عن رسول الله ﷺ: «لما كانت ليلة أسري بي فأصبحت بمكة فضقت بأمري وعرفت أن الناس مكذِّبي»، فرُوي أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قعد معتزلاً حزينًا، فمرَّ به أبو جهل فجلس إليه، فقال له كالمستهزىء: هل استفدت من شيء؟ قال: «نعم، إني أسري بي

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، باب ما جاء في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وكلم الله موسى تكليمًا﴾: (١٣/ ٤٧٧ ـ ٤٧٩)، ومسلم في الإيمان، باب الإسراء برقم١٦٢: (١/ ١٤٨).

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق: (٦/ ٣١٣)، ومسلم في الإيمان، باب معنى قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾: (١/ ١٦٠ ـ ١٦١).

(٣) انظر ما قيل في ذلك كله بالتفصيل: «أعلام الحديث» للخطابي: (٤/ ١٢٥٤ ـ ١٢٥٧)، «فتح الباري»: (١٣/ ٤٧٩ ـ ٤٨٧).

(٤) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى»: (١/ ٢١٥)، والطبراني في «الأوسط» وسعيد بن منصور وابن مردويه عن أبي هريرة. انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٢٢١ ـ ٢٢٢)، قال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٤١): (وفي أحد إسناديه أبو وهب عن أبي هريرة ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات).

الليلة»، قال: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس»، قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا، قال: «نعم»، فلم يرَ أبو جهل أنه ينكر، مخافة أن يجحده الحديث، قال: أتحدث قومك ما حدثتني؟ قال: «نعم»، قال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي هلمُّوا، قال: فانفضت إليه المجالس فجاؤوا حتى جلسوا إليهما، قال: فحدث قومك ما حدثتني، قال: «نعم، إني أسريَ بي الليلة»، قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس»، قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: «نعم»، قال: فمن بين مصفِّق، ومن بين واضع يده على رأسه متعجبًا، وارتدَّ ناس ممن كان آمن به وصدقه، وسعى رجل من المشركين إلى أبي بكر فقال: هل لك في صاحبك يزعم أنه
١/٢٠٥ أسري به الليلة إلى بيت المقدس، قال: أوقد قال ذلك؟ قال: نعم، / قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: وتصدقه أنه ذهب إلى بيت المقدس في ليلة وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إني لأصدقه بما هو أبعد من ذلك، أصدِّقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك سمي أبو بكر «الصديق»، قال: وفي القوم من قد أتى المسجد الأقصى، فقالوا: هل تستطيع أن تنعت لنا المسجد؟ قال: «نعم»، قال: «فذهبت أنعتُ وأنعتُ، فمازلت أنعت حتى التبس عليَّ (بعض النعت)»، قال: «فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل فنعتُّ المسجد، وأنا أنظر إليه»، فقال القوم: أمَّا النعت فوالله لقد أصاب، ثم قالوا: يا محمد، أخبرنا عن عيرنا هي أهمُّ إلينا، فهل لقيت منها شيئًا؟ قال: «نعم، مررت على عير بني فلان، وهي بالرَّوْحاء، وقد أضلوا بعيرًا لهم، وهم في طلبه، وفي رحالهم قدح من ماء فعطشت فأخذته فشربته، ثم وضعته كما كان، فسلوهم هل وجدوا الماء في القدح حين رجعوا إليه»؟ قالوا: هذه آية، قال: «ومررت بعير بني فلان، وفلانٌ وفلان راكبان قعودًا لهما بذي طُوًى فنفر بعيرهما مني فرميْ بفلان، فانكسرت يده، فسلوهما عن ذلك»، قالوا: وهذه آية، قالوا: فأخبِرْنا عن عيرنا نحن؟ قال: «مررت بها بالتنعيم»، قالوا: فما عِدَّتُها وأحمالها وهيئتها ومن فيها؟ فقال: «نعم، هيئتها كذا وكذا، وفيها فلان وفلان، يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان، تطلع عليكم عند طلوع الشمس»، قالوا: وهذه آية، ثم خرجوا يشتدون نحو الثنية وهم يقولون: والله لقد قصَّ محمد شيئًا وبيَّنه حتى أتوا كُدًى، فجلسوا عليه فجعلوا ينتظرون متى تطلع الشمس فيكذبونه، إذْ قال قائل منهم: والله هذه الشمس قد طلعت، وقال آخر: وهذه والله الإبل قد طلعت، يقدمها بعير أورق، فيها فلان وفلان، كما قال لهم، فلم يؤمنوا، وقالوا: إن هذا إلا سحر مبين(١).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (١/ ٣٠٩)، والنسائي في «تفسيره»: (١/ ٦٤٦)، والبزار والطبراني وابن أبي شيبة وابن مردويه وأبو نعيم في «الدلائل» والضياء في «المختارة» وابن عساكر والحاكم وأبو يعلى بسند صحيح.
انظر: «مجمع الزوائد»: (١/ ٦٤ ـ ٦٥)، «الدر المنثور»: (٥/ ٢٢٢)، و«تفسير ابن كثير»: (٣/ ١٦ ـ ١٧)، «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٢٥٦ـ ٢٥٩).

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾

أنبأنا إسماعيل بن عبد القاهر، أنبأنا مسلم بن الحجاج، حدثني زهير بن حرب، حدثنا حجر بن المثنى، أنبأنا عبد العزيز ـ وهو: ابن أبي سلمة ـ، عن عبد الله بن الفضل، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد رأيتُني في الحِجْر، وقريشٌ تسألني عن مسرايَ، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أُثْبِتْهَا، فكُرِبْتُ كَرْبًا ما كربت مثله قط»، قال: «فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به، ولقد رأيتُني في جماعة من الأنبياء، فإذا موسى قائم يصلي، فإذا رجل ضَرْبٌ جَعْدٌ كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى قائم يصلي، أقربُ الناس به شبهًا عروةُ بن مسعودٍ الثقفي، وإذا إبراهيم قائم يصلي، أشبه الناس به صاحبكم ـ يعني: نفسه ـ فجاءت الصلاة فأَمَمْتُهُمْ، فلما فرغتُ من الصلاة قال لي قائل: يا محمد، هذا مالكٌ صاحبُ النار فسلِّم عليه، فالتفتُّ إليه فبدأني بالسلام»[(١)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا﴾ بأن لا ﴿تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾ ربًا وكفيلًا.

قال أبو عمرو: «لا يتخذوا» بالياء؛ لأنه خبر عنهم، والآخرون بالتاء، يعني: قلنا لهم: لا تتخذوا.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا﴾ قال مجاهد: هذا نداء، يعني: يا ذرية من حملنا ﴿مَعَ نُوحٍ﴾ في السفينة فأنجيناهم من الطوفان ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ كان نوح عليه السلام إذا أكل طعامًا أو شرب شرابًا أو لبس ثوبًا قال: الحمد لله؛ فسُمِّي عبدًا شكورًا[(٢)]، أي: كثير الشكر.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجّال برقم١٧٢: (١/١٥٦ ـ ١٥٧). وانظر: «شرح السنة»: (١٣/٣٥٣).

(٢) أخرجه ابن جرير: (١٥/١٩) عن سلمان ومجاهد وقتادة وغيرهما، وصححه الحاكم على شرط الشيخين: (٢/٣٦٤)، وذكر السيوطي جملة أخبار في ذلك.
انظر: «الدر المنثور»: (٥/٢٣٦ ـ ٢٣٧).
وأخرج الإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها».
وفي البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ـ في حديث الشفاعة ـ قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة . . . » وفيه: «فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح، إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سمَّاك الله عبدًا شكورًا، فاشفع لنا إلى ربك» وذكر الحديث بكماله.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآيات.

روى سفيان بن سعيد الثوري، عن منصور بن المعتمر، عن ربعي بن حراش، عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ[1]: «إنَّ بني إسرائيل لَمَّا اعتدوا وقتلوا الأنبياء بعث الله عليهم ملك فارس (بختنصر)، وكان الله ملَّكه سبعمائة سنة، فسار إليهم حتى دخل بيت المقدس، فحاصرها وفتحها، وقتل على دم يحيى بن زكريا عليه السلام سبعين ألفًا، ثم سبى أهلها والأبناء[2]، وسلب حُلِيَّ بيت المقدس، واستخرج منها سبعين ألفًا ومائة ألف عجلة من حلي»، قلت: يا رسول الله، كان بيت المقدس عظيمًا؟ قال: أجل بناه سليمان بن داود من ذهب وفضة وياقوت وزبرجد، وكان عمده ذهبًا، أعطاه الله ذلك، وسخَّر له الشياطين، يأتونه بهذه الأشياء في طرفة عين، فسار بها (بختنصر) حتى نزل بابل فأقام بنو إسرائيل في يده مائة سنة يستعبدهم المجوس وأبناء المجوس، فيهم الأنبياء، ثم إن الله رحمهم فأوحى إلى ملك من ملوك فارس يقال له (كورش)،

---

(١) أخرجه الطبري، انظر: «التفسير»: (١٥/ ٢٢ـ٤٣)، «تاريخ الطبري»: (١/ ٥٣٢ـ٥٥٧)، «الدر المنثور»: (٥/ ٢٤٣ـ٢٤٤).
وهذه الروايات الكثيرة التي ساقها المصنف رحمه الله في هؤلاء المسلَّطين على بني إسرائيل، من الإسرائيليات والموضوعات، وفيها من العجائب والغرائب والمبالغات ما لا يصدق، وفيها ما يحتمل الصدق أيضًا، وقد نقل ابن جرير كثيرًا منها عن ابن إسحاق، وواضح أن ابن إسحاق يذكر صراحة اسم أهل الكتاب، وأنهم يقولون كذا . . . أو عندهم كذا . . . ، ونحن في غنية عن هذه الروايات جميعها.
ونضع هنا كلمة قيمة للحافظ ابن كثير رحمه الله تعقيبًا على هذه الروايات، قال: (وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلطين عليهم: مَنْ هم؟
فعن ابن عباس وقتادة: أنه «جالوت» وجنوده . . . وعن سعيد بن جبير: أنه ملك الموصل «سنجاريب» وجنوده، وعنه أيضًا: أنه «بختنصر» ملك بابل، وقد ذكر ابن أبي حاتم له قصة عجيبة في كيفية ترقيه من حالٍ إلى حال إلى أن ملك البلاد . . .».
ثم قال ابن كثير: (وقد روى ابن جرير في هذا المكان حديثًا أسنده عن حذيفة مرفوعًا مطولاً ـ وهو الحديث الذي ساقه البغوي هنا ـ وهو حديث موضوع لا محالة، لا يستريب في ذلك مَنْ عنده أدنى معرفة بالحديث. والعجب كل العجب كيف راج عليه مع جلالة قدره وإمامته! وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزي رحمه الله بأنه موضوع مكذوب، وكتب ذلك على حاشية الكتاب).
ثم قال مشيرًا إلى سائر الروايات الأخرى: (وقد وردت في هذا آثارٌ كثيرة إسرائيلية، ولم أر تطويل الكتاب بذكرها؛ لأن منها ما هو موضوع، مِنْ وضع بعض زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحًا، ونحن في غنية عنها، ولله الحمد. وفيما قصَّ الله علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم. وقد أخبر الله عنهم: أنهم لما طغوا وبغوا سلَّط الله عليهم عدوهم فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم، وأذلَّهم وقهرهم جزاءً وفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد، فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقًا من الأنبياء والعلماء.
وقد روى ابن جرير بسنده عن سعيد بن المسيب يقول: ظهر بختنصر على الشام فخرب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتى دمشق فوجد بها دمًا يغلي على كبا، فسألهم ما هذا الدم . . . فقتل على ذلك الدم سبعين ألفًا من المسلمين؟؟ وغيرهم فسكن، وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب، وهذا هو المشهور، وأنه قتل أشرافهم وعلماءهم حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ معه منهم خلقًا كثيرًا أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها، ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه لجاز كتابته وروايته، والله أعلم).
وانظر أيضًا: «الإسرائيليات والموضوعات» للشيخ محمد أبو شهبة: ص٣٢٧ـ٣٣٤.
(٢) ساقط من «ب».

وكان مؤمنًا، أن يسير إليهم ليستنقذ بقايا بني إسرائيل، فسار (كورش) لبني إسرائيل وأخذ حلي بيت المقدس حتى ردَّها إليه، فأقام بنو إسرائيل بها مطيعين لله تعالى مائة سنة، ثم إنهم عادوا في المعاصي فسلَّط الله عليهم ملكًا يقال له: (أنطيانوس) فغزا بني إسرائيل حتى أتاهم بيت المقدس، فسبى أهلها وأحرق بيت المقدس، وقال لهم: يا بني إسرائيل إن عدتم في المعاصي عدنا عليكم ثانيًا بالسبي[1]، فعادوا، فسلَّط الله عليهم ملك رومية يقال له: (فاقس بن أستيانوس)، فغزاهم في البر والبحر فسباهم وسبى حلي بيت المقدس وأحرق بيت المقدس»، قال رسول الله ﷺ: «فهذا من صفة حليّ بيت المقدس، ويرده المهدي إلى بيت المقدس، وهو ألف وسبعمائة سفينة يرمي بها على يافا حتى تنقل إلى بيت المقدس، وبها يجمع الله الأولين والآخرين».

قال محمد بن إسحاق: كانت بنو إسرائيل فيهم الأحداث والذنوب، وكان الله في ذلك متجاوزًا عنهم محسنًا إليهم، وكان أول ما نزل بهم بسبب ذنوبهم كما أخبر على لسان موسى عليه السلام: أن ملكًا منهم كان يدعى (صديقة)[2]، وكان الله تعالى إذا ملَّك الملك عليهم بعث معه نبيًا يسدِّده ويرشده، لا ينزل عليهم الكتب، إنما يؤمرون باتباع التوراة والأحكام التي فيها.

فلما ملك ذلك الملك بعث الله معه (شعياء بن أصفيا)، وذلك قبل مبعث زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام، و(شعياء) هو الذي بشرَّ بعيسى ومحمد عليهما السلام، فقال: أبشري أورشليم، الآن يأتيك راكب الحمار ومن بعده صاحب البعير، فملك ذلك الملك بني إسرائيل وبيت المقدس زمانًا، فلما انقضى ملكه عظمت فيهم الأحداث وشعياء معه، بعث الله عليهم (سنجاريب)[3] ملك بابل، معه ستمائة ألف راية، فأقبل سائرًا حتى نزل حول بيت المقدس، والملك مريض، في ساقه قُرْحَةٌ، فجاء النبي شعياء وقال له: يا ملك بني إسرائيل إن سنجاريب ملك بابل قد نزل بك هو وجنوده بستمائة ألف راية، وقد هابهم الناس وفرقوا، فكَبُرَ ذلك على الملك، فقال: يا نبي الله، هل أتاك وحي من الله فيما حدث فتخبرنا به كيف يفعل الله بنا وبسنجاريب وجنوده؟

فقال: لم يأتِني وحي، فبينما هم على ذلك أوحى الله إلى شعياء النبي أن ائت ملك بني إسرائيل فمره أن يوصي وصيته ويستخلف ـ على ملكه من يشاء من أهل بيته ـ فأتى شعياء ملك بني إسرائيل (صديقة) فقال له: إن ربك قد أوحى إليَّ أن آمرك أن توصي وصيتك، وتستخلف مَن شئت على ملكك من أهل بيتك، فإنك ميت، فلما قال ذلك شعياء لصديقة أقبل على القبلة فصلَّى ودعا وبكى، فقال وهو يبكي وتضرع إلى الله بقلب مخلص: اللهم ربَّ الأرباب، وإله الآلهة، يا قدوس المتقدس يا رحمن، يا رحيم، يا رؤوف، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، اذكرني بعملي وفعلي وحسن قضائي على بني إسرائيل، وذلك كله كان منك

---

(١) زيادة من «ب».

(٢) في «الأصل» بالهاء، وفي الطبري بالتاء المربوطة.

(٣) في «تاريخ الطبري»: (سنحاريب) بالحاء المهملة.

وأنت أعلم به مني، سرِّي وعلانيتي لك وأنت الرحمن، فاستجاب له وكان عبدًا صالحًا، فأوحى الله تعالى إلى شعياء أن يخبر صديقة أن ربَّه قد استجاب له ورحمه، وأخَّر له أجله خمس عشرة سنة، وأنجاه من عدوه سنجاريب، فأتاه شعياء فأخبره بذلك، فلما قال له ذلك ذهب عنه الوجع وانقطع عنه الحزن، وخرَّ ساجدًا، وقال: يا إلهي وإله آبائي، لك سجدتُ وسبَّحت، وكبرَّت، وعظمت، أنت الذي تعطي الملك لمن تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء، عالم الغيب والشهادة، أنت الأول والآخر، والظاهر والباطن، وأنت ترحم وتستجيب دعوة المضطرين، وأنت الذي أجبت دعوتي ورحمت تضرعي.

فلما رفع رأسه أوحى الله إلى شعياء أن قل للملك صديقة / فيأمر عبدًا من عبيده فيأتيه بماء التين فيجعله على قرحته فيشفى، يصبح وقد برأ، ففعل وشفي. ٢٠٥/ب

وقال الملك لشعياء: سل ربك أن يجعل لنا علمًا بما هو صانع بعدوِّنا هذا.

قال الله لشعياء: قل له: إني قد كفيتك عدوك وأنجيتك منهم، وإنهم سيصبحون موتى كلهم إلا سنجاريب وخمسة نفر من كتَّابه.

فلما أصبحوا جاء صارخ فصرخ على باب المدينة، يا ملك بني إسرائيل إن الله قد كفاك عدوك، فاخرج فإن سنجاريب ومن معه قد هلكوا، فلما خرج الملك التمس سنجاريب فلم يوجد في الموتى، فبعث الملك في طلبه فأدركه الطلب في مغارة وخمسة نفر من كتَّابه أحدهم بختنصر فجعلوهم في الجوامع ثم أتَوْا بهم إلى ملك بني إسرائيل، فلما رآهم خرَّ ساجدًا من حين طلعت الشمس إلى العصر، ثم قال لسنجاريب: كيف ترى فعل ربنا بكم؟! ألم يقتلكم بِحَوْلِه وقوَّته ونحن وأنتم غافلون؟

فقال سنجاريب له: قد أتاني خبر ربكم ونصره إياكم ورحمته التي يرحمكم بها قبل أن أخرج من بلادي فلم أطع مرشدًا، ولم يُلْقِني في الشقوة إلا (ذلة في الدنيا وعذاب في الآخرة)، فلو سمعت أو عقلت ما غزوتكم.

فقال صديقة: الحمد لله رب العالمين الذي كفاناكم بما شاء، وإن ربنا لم يُبْقِكَ ومَنْ معك لكرامتك على ربك، ولكنه إنما أبقاك ومن معك لتزدادوا شقوة في الدنيا وعذابًا في الآخرة، ولتخبروا من وراءكم بما رأيتم من فعل ربنا بكم فتنذروا من بعدكم، ولولا ذلك لقتلكم ولَدَمُك ولَدَمُ من معك أهون على الله من دم قراد، لو قتلت.

ثم إن ملك بني إسرائيل أمر أمير حرسه فقذف في رقابهم الجوامع فطاف بهم سبعين يومًا حول بيت المقدس وإيليا، وكان يرزقهم كل يوم خبزتين من شعير لكل رجل منهم، فقال سنجاريب لملك بني إسرائيل: القتل خير مما تفعل بنا، فأمر بهم الملك إلى سجن القتل، فأوحى الله إلى شعياء عليه السلام: أن قل لملك بني إسرائيل يرسل سنجاريب ومَن معه لينذروا مَنْ وراءهم، وليكرمهم وليحملهم حتى يبلغوا بلادهم، فبلغ شعياء الملك ذلك ففعل (الملك صديقة) ما أمر به.

فخرج سنجاريب ومَن معه حتى قدموا بابل فلما قدموا جمع الناس فأخبرهم كيف فعل الله بجنوده، فقال له كهانه وسحرته: يا ملك بابل، قد كنا نقص عليك خبر ربهم وخبر نبيهم ووحي الله إلى نبيهم فلم تطعنا، وهي أمة لا يستطيعها أحد مع ربهم، وكان أمر سنجاريب تخويفًا لهم ثم كفاهم الله، تذكرة وعبرة.

ثم لبث سنجاريب بعد ذلك سبع سنين، ثم مات واستخلف بختنصر، ابن ابنه، على ما كان عليه جده يعمل عمله، فلبث سبع عشرة سنة ثم قبض الله ملك بني إسرائيل صديقة، فمرج أمر بني إسرائيل وتنافسوا الملك حتى قتل بعضهم بعضًا، ونبيهم شعياء معهم ولا يقبلون منه، فلما فعلوا ذلك قال الله لشعياء قم في قومك أوحي على لسانك، فلما قام النبي شعياء أنطق الله لسانه بالوحي، فقال: يا سماء اسمعي ويا أرض أنصتي فإن الله يريد أن يقص شأن بني إسرائيل الذين ربَّاهم بنعمته، واصطنعهم لنفسه، وخصَّهم بكرامته، وفضلهم على عباده، وهم كالغنم الضائعة التي لا راعي لها، فآوى شاردتها، وجمع ضالَّتها، وجبر كسرها، وداوى مريضها، وأسمن مهزولها، وحفظ سمينها، فلما فعل ذلك بطرت فتناطحت كباشها، فقتل بعضها بعضًا، حتى لم يبق منها عظم صحيح يجبر إليه آخر كسير، فويل لهذه الأمة الخاطئة الذين لا يدرون أنَّى جاءهم الخير أن البعير مما يذكر وطنه فينتابه، وأن الحمار مما يذكر الأريّ الذي شبع عليه فيراجعه، وأن الثور مما يذكر المرج الذي سمن فيه فينتابه، وأن هؤلاء القوم لا يذكرون من حيث جاءهم الخير وهم أولو الألباب والعقول، ليسوا ببقر ولا حمير وأني ضارب لهم مثلًا فليسمعوه، قل لهم: كيف ترون في أرض كانت خواءً زمانًا، خرابًا مواتًا لا عمران فيها، وكان لها ربٌّ حكيم قوي، فأقبل عليها بالعمارة وكره أن تخرب أرضه وهو قوي، أو أن يقال ضيع وهو حكيم، فأحاط عليها جدارًا، وشيَّد فيها قصورًا، وأنبط نهرًا، وصنف فيها غراسًا من الزيتون والرمان والنخيل والأعناب وألوان الثمار كلها، وولى ذلك واستحفظه ذا رأي وهمة حفيظًا قويًا أمينًا، فلما أطلعت جاء طلعها خروبًا؟

قالوا: بئست الأرض هذه فنرى أن يهدم جدارها وقصرها ويدفن نهرها ويقبض قيمها ويحرق غرسها حتى تصير كما كانت أول مرة خرابًا مواتًا لا عمران فيها، قال الله: قل لهم: فإن الجدارَ ديني، وإن القصر شريعتي، وإن النهر كتابي، وإن القيم نبيي، وإن الغراس هم، وإن الخروب الذي أطلع الغراس أعمالهم الخبيثة، وأني قد قضيت عليهم قضاءهم على أنفسهم، وإنه مثل ضربته لهم، يتقربون إليَّ بذبح البقر والغنم، وليس ينالني اللحم ولا آكله، ويَدَعُون أن يتقربوا إلي بالتقوى والكف عن ذبح الأنفس التي حرمتها فأيديهم مخضوبة منها وثيابهم متزملة بدمائها، يشيدون لي البيوت مساجد، ويطهرون أجوافها وينجِّسون قلوبهم وأجسادهم ويدنسونها، ويزوقون إليَّ المساجد، ويزينونها، ويخربون عقولهم وأحلامهم ويفسدونها فأي حاجة لي إلى تشييد البيوت ولست أسكنها؟ وأي حاجة لي إلى تزويق المساجد ولست أدخلها؟ إنما أمرت برفعها لأذكر وأسبح فيها.

يقولون: صمنا فلم يرفع صيامنا، (وصلينا فلم تنور صلاتنا)[1]، وتصدقنافلم يُزكّ صدقتنا، ودعونا بمثل حنين الحمام، وبكينا بمثل عواء الذئاب، في كل ذلك لا يستجاب لنا.

قال الله: فاسألهم ما الذي يمنعني أن أستجيب لهم؟ ألست أسمع السامعين وأبصر الناظرين وأقرَب المجيبين وأرحم الراحمين؟ فكيف أرفع صيامهم وهم يلبسونه بقول الزور ويتقوون عليه بطعمة الحرام؟ أم كيف أنور صلاتهم وقلوبهم صاغية إلى من يحاربني ويحادني وينتهك محارمي؟ أم كيف تزكى عندي صدقاتهم وهم يتصدقون بأموال غيرهم؟ إنما آجر عليها أهلها المغصوبين؟ أم كيف أستجيب دعاءهم وإنما هو قول بألسنتهم، والفعل من ذلك بعيد، إنما أستجيب للداعي اللين، وإنما أسمع قول المستعفف المسكين، وإن من علامة رضاي رضا المساكين.

يقولون لما سمعوا كلامي وبلّغتهم رسالتي: إنها أقاويل منقولة، وأحاديث متوارثة، وتأليف مما يؤلف السحرة والكهنة، وزعموا أنهم لو شاؤوا أن يأتوا بحديث مثله فعلوا، ولو شاؤوا أن يطلعوا / على علم ٢٠٦/أ الغيب بما يوحي إليهم الشياطين اطلعوا، وإني قد قضيت يوم خلقت السماء والأرض قضاءً أثبته وحتَّمته على نفسي، وجعلت دونه أجلًا مؤجلًا لا بدَّ أنه واقع، فإن صدقوا فيما ينتحلون من علم الغيب فليخبروك متى أنفذه؟ أو في أي زمان يكون؟ وإن كانوا يقدرون على أن يأتوا بما يشاؤون، فليأتوا بمثل هذه القدرة التي بها أمضيت فإني مظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وإن كانوا يقدرون على أن يقولوا ما يشاؤون فليقولوا مثل الحكمة التي بها أدبر أمر ذلك القضاء إن كانوا صادقين، وإني قد قضيت يوم خلقت السماء والأرض أن أجعل النبوة في الأجراء، وأن أجعل الملك في الرعاء، والعِزَّ في الأذلاء، والقوة في الضعفاء، والغنى في الفقراء، والعلم في الجهالة، والحكمة في الأميين فسلهم متى هذا ومن القائم به، ومن أعوان هذا الأمر وأنصاره إن كانوا يعلمون، فإني باعث لذلك نبيًا أميًا أمينًا ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا صخَّاب في الأسواق، ولا متزيّن بالفحش، ولا قوّال لِلخنَا أسدِّدُه لِكل جميل، وأهب له كل خلق كريم، أجعل السكينة لِباسَه، والبرَّ شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة معقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفوَ والمعروف خلقه، والعدل سيرته، (والحق شريعته)[1] والهدى والقرآن إمامه، والإسلامَ ملَّته وأحمدَ اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلِّم به بعد الجهالة وأرفع به بعد الخمالة، وأشهر به بعد النكرة، وأكثر به بعد القلة، وأغني به بعد العَيْلة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين قلوب مختلفة، وأهواء متشتتة وأمم متفرقة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، توحيدًا لي وإيمانًا وإخلاصًا لي يصلون قيامًا وقعودًا وركعًا وسجودًا، ويقاتلون في سبيلي صفوفًا وزحوفًا، ويخرجون من

---

(١) ساقط من «ب».

ديارهم وأموالهم ابتغاء رضواني ألهمهم التكبير والتوحيد والتسبيح والتحميد والمدحة والتمجيد في مسيرهم ومجالسهم ومضاجعهم ومناقبهم ومثواهم، يكبِّرون ويُهللون ويقدسون على رؤوس الأشراف ويطهرون لي الوجوه والأطراف يعقدون لي الثياب على الأنصاف، قربانهم دماؤهم، وأناجيلهم في صدورهم، رهبان بالليل ليوث بالنهار، ذلك فضلي أوتيه من أشاء وأنا ذو الفضل العظيم.

فلما فرغ شعياء من مقالته عَدَوْا عليه ليقتلوه فهرب منهم، فلقيته شجرة فانفلقت له فدخل فيها، فأدركه الشيطان، فأخذ بهدبة من ثوبه فأراهم إيَّاها، فوضعوا المنشار في وسطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه في وسطها، واستخلف الله على بني إسرائيل بعد ذلك رجلًا منهم يقال له: (ناشية بن أموس)، وبعث لهم أرمياء بن حلقيا نبيًّا، وكان من سبط هارون بن عمران.

وذكر ابن إسحاق أنه الخضر، واسمه أرسياء، سمي الخضر لأنه حبس على فروة بيضاء فقام عنها وهي تهتز خضارًا.

فبعث الله أرمياء إلى ذلك الملك ليسدِّده ويرشده ثم عظمت الأحداث في بني إسرائيل وركبوا المعاصي واستحلوا المحارم، فأوحى الله إلى أرمياء أن ائت قومك من بني إسرائيل فاقصص عليهم ما آمرك به وذكرهم نعمتي وعرفهم بأحداثهم، فقال أرمياء: يا رب إني ضعيف إن لم تقوِّني، عاجز إن لم تبلغني، مخذول إن لم تنصرني، قال الله تعالى: أولم تعلم أن الأمور كلها تصدر عن مشيئتي، وأن القلوب والألسنة بيدي أقلبها كيف شئت، إني معك ولن يصل إليك شيء معي، فقام أرمياء فيهم ولم يدر ما يقول، فألهمه الله عزَّ وجلَّ في الوقت خطبة بليغة، بيَّـن فيها ثواب الطاعة وعقاب المعصية، وقال في آخرها عن الله تعالى: وإني حلفت بعزتي لأقيضنَّ لهم فتنة يتحير فيها الحليم ولأسلِّطن عليهم جبارًا قاسيًا ألبسه الهيبة، وأنزع من صدره الرحمة يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم، ثم أوحى الله إلى أرمياء: إني مهلك بني إسرائيل بيافث، ويافث من أهل بابل ـ على ما ذكرنا في سورة البقرة ـ فسلط الله عليهم بختنصر فخرج في ستمائة ألف راية، ودخل بيت المقدس بجنوده ووطىء الشام، وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم، وخرب بيت المقدس، وأمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم ترسه ترابًا ثم يقذفه في بيت المقدس، ففعلوا ذلك حتى ملؤوه، ثم أمرهم أن يجمعوا مَنْ في بلدان بيت المقدس كلهم، فاجتمع عنده كل صغير وكبير من بني إسرائيل، فاختار منهم سبعين ألف صبي، فلما خرجت غنائم جنده، وأراد أن يقسمها فيهم قالت له الملوك الذين كانوا معه: أيها الملك لك غنائمنا كلها، واقسم بيننا هؤلاء الصبيان الذين اخترتهم من بني إسرائيل، فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فأصاب كل رجل منهم أربعة غلمان، وفرَّق من بقي من بني إسرائيل ثلاث فرق، فثلثًا أقرَّ بالشام، وثلثًا سبي، وثلثًا قُتل، وذهب بناشئة بيت المقدس وبالصبيان السبعين الألف حتى أقدمهم بابل فكانت هذه الوقعة الأولى التي أنزل الله ببني إسرائيل بظلمهم، فذلك قوله تعالى: «فإذا جاء وعد أولاهما

بعثنا عليكم عبادًا لنا أُولي بأس شديد» يعني: بختنصر وأصحابه.

ثم إن بختنصر أقام في سلطانه ما شاء الله ثم رأى رؤيا أعجبته، إذْ رأى شيئًا أصابه فأنساه الله الذي رأى، فدعا دانيال وحنانيا وعزازيا وميشائيل، وكانوا من ذراري الأنبياء، وسألهم عنها، قالوا: أخبرنا بها نخبرك بتأويلها، قال: ما أذكرها، ولئن لم تخبروني بها وبتأويلها لأنزعنَّ أكتافكم، فخرجوا من عنده فدعوا الله وتضرعوا إليه، فأعلمهم بالذي سألهم عنه، فجاؤوا وقالوا: رأيت تمثالاً قدماه وساقاه من فخار، وركبتاه وفخذاه من نحاس، وبطنه من فضة، وصدره من ذهب، ورأسه وعنقه من حديد، قال: صدقتم، قالوا: فبينما أنت تنظر إليه وقد أعجبك أرسل الله تعالى صخرة من السماء فدقته فهي التي أَنْسَتكَها، قال: صدقتم، قال: فما تأويلها؟ قالوا: تأويلها أنك رأيت ملك الملوك، فبعضهم كان ألين ملكًا وبعضهم كان أحسن ملكًا وبعضهم كان أشدَّ ملكًا، الفخار أضعفُه، ثم فوقه النحاس أشدُّ منه، ثم فوق النحاس الفضة أحسن من ذلك وأفضل، والذهب أحسن من الفضة وأفضل، ثم الحديد ملكك فهو أشد وأعز مما كان قبله، والصخرة التي رأيت أرسل الله من السماء فدقته نبيٌّ يبعثه الله من السماء فيدق ذلك أجمع ويصير الأمر إليه.

٢٠٦/ب ثم إن أهل بابل قالوا / لبختنصر: أرأيت هؤلاء الغلمان من بني إسرائيل الذين كنا سألناك أن تعطيناهم ففعلت، فإنا قد أنكرنا نساءنا منذ كانوا معنا، لقد رأينا نساءنا انصرفت عنا وجوههن إليهم فأخرجهم من بين أظهرنا أو اقتلهم، قال: شأنكم بهم، فمن أحب منكم أن يقتل من كان في يده فليفعل.

فلما قرّبوهم للقتل بكوا إلى الله تعالى وقالوا: يا رب أصابنا البلاء بذنوب غيرنا فوعد الله أن يحييهم، فقتلوا إلا مَن استبقى بختنصر منهم دانيال وحنانيا وعزازيا وميشائيل.

ثم لما أراد الله هلاك بختنصر انبعث فقال لمن في يده من بني إسرائيل: أرأيتم هذا البيت الذي خربته والناس الذين قتلْتُ منهم؟ وما هذا البيت؟ قالوا: هذا بيت الله، وهؤلاء أهله، كانوا من ذراري الأنبياء، فظلموا وتعدوا فَسُلِّطْتَ عليهم بذنوبهم، وكان ربهم، رب السموات والأرض ورب الخلق كلهم، يكرمهم ويعزهم، فلما فعلوا ما فعلوا أهلكهم الله وسلط عليهم غيرهم، فاستكبر وظن أنه بجبروته فعل ذلك ببني إسرائيل، قال: فأخبروني كيف لي أن أطلع إلى السماء العليا فأقتل من فيها وأتخذها ملكًا لي فإني قد فرغت من الأرض، قالوا: ما يقدر عليها أحد من الخلائق، قال: لتفعلُنَّ أو لأقتلنّكم عن آخركم، فبكوا وتضرعوا إلى الله تعالى فبعث الله عليه بقدرته بعوضة فدخلت منخره حتى عضَّتْ بأم دماغه، فما كان يقر ولا يسكن حتى يوجأ له رأسه على أم دماغه، فلما مات شقوا رأسه فوجدوا البعوضة عاضَّة على أم دماغه ليري الله العبادَ قدرته، ونجى الله من بقي من بني إسرائيل في يديه، فردوهم إلى الشام فبنوا فيه وكثروا حتى كانوا على أحسن ما كانوا عليه.

ويزعمون: أن الله تعالى أحيا أولئك الذين قتلوا فلحقوا بهم، ثم إنهم لما دخلوا الشام دخلوها وليس معهم عهد من الله تعالى وكانت التوراة قد احترقت، وكان عزير من السبايا الذين كانوا ببابل فرجع إلى الشام يبكي عليها ليله ونهاره، وقد خرج من الناس، فهو كذلك إذ أقبل إليه رجل فقال: يا عزير، ما يبكيك؟ قال: أبكي على كتاب الله وعهده الذي كان بين أظهرنا، الذي لا يُصْلِح دنيانا وآخرتنا غيره، قال: أفتحب أن يردَّ إليك؟ ارجع فصم وتطهر، وطهِّر ثيابك، ثم موعدك هذا المكان غدًا، فرجع عزير فصام وتطهر وطهر ثيابه، ثم عمد إلى المكان الذي وعده فجلس فيه، فأتاه ذلك الرجل بإناء فيه ماء، وكان مَلَكًا بعثه الله إليه فسقاه من ذلك الإناء، فمثلت التوراة في صدره فرجع إلى بني إسرائيل فوضع لهم التوراة فأحبوه حتى لم يحبوا حبه شيئًا قط، ثم قبضه الله وجعلت بنو إسرائيل بعد ذلك يحدثون الأحداث ويعود الله عليهم ويبعث فيهم الرسل، ففريقًا يكذبون وفريقًا يقتلون حتى كان آخر من بعث الله فيهم من أنبيائهم زكريا ويحيى وعيسى، وكانوا من بيت آل داود، فمات زكريا، وقيل: قتل زكريا، فلما رفع الله عيسى من بين أظهرهم، وقتلوا يحيى، بعث الله عليهم ملكًا من ملوك بابل يقال له: (خردوش)، فسار إليهم بأهل بابل حتى دخل عليهم الشام، فلما ظهر عليهم أمر رأسًا من رؤوس جنوده يدعى (بيورزاذان) صاحب القتل، فقال: إني قد كنت حلفت بإلهي لئن أنا ظفرت على أهل المقدس لأقتلنَّهم حتى تسيل دماؤهم في وسط عسكري، إلا أني لا أجد أحدًا أقتله، فأمره أن يقتلهم حتى بلغ ذلك منهم (بيورزاذان)، ودخل بيت المقدس فقام في البقعة التي كانوا يُقرِّبون فيها قربانهم فوجد فيها دمًا يغلي فسألهم، فقال: يا بني إسرائيل، ما شأن هذا الدم يغلي؟ أخبروني خبره، قالوا: هذا دم قربان لنا قربناه فلم يقبل منا فلذلك يغلي، ولقد قربنا منذ ثمانمائة سنة القربان فيقبل منا إلا هذا، فقال: ما صدقتموني، فقالوا: لو كان كأول زماننا لتقبل منا، ولكن قد انقطع منا الملك والنبوة والوحي فلذلك لم يقبل منا، فذبح منهم (بيورزاذان) على ذلك الدم سبعمائة وسبعين زوجًا من رؤوسهم، فلم يهدأ، فأمر فأتي بسبعمائة غلام من غلمانهم فذبحهم على الدم فلم يهدأ، فأمر بسبعة آلاف من شيبهم وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يبرد، فلما رأى (بيورزاذان) الدم لا يهدأ قال لهم: يا بني إسرائيل، ويلكم اصدقوني، واصبروا على أمر ربكم، فقد طال ما ملكتم في الأرض تفعلون فيها ما شئتم قبل أن لا أترك منكم نافخ نار أنثى ولا ذكرًا إلا قتلته، فلما رأوا الجهد وشدة القتل صدقوا الخبر، فقالوا: إن هذا الدم دم نبي كان ينهانا عن أمور كثيرة من سخط الله فلو أنا أطعناه فيها لكان أرشد لنا وكان يخبرنا بأمركم فلم نصدِّقه، فقتلناه فهذا دمه، فقال لهم (بيورزاذان): ما كان اسمه؟ قالوا: يحيى بن زكريا، قال: الآن صدقتموني، لمثل هذا انتقم ربُّكم منكم، فلما رأى (بيورزاذان) أنهم صدقوه خرَّ ساجدًا، وقال لمن حوله: أغلقوا أبواب المدينة، وأخرجوا من كان هاهنا من جيش (خردوش)، وخلا في بني إسرائيل، ثم قال: يا يحيى بن زكريا قد علم ربِّي وربُّك ما قد أصاب قومك من أجلك وما قتل منهم فاهدأ بإذن ربك قبل أن

لا أبقي من قومك أحدًا، فهدأ الدم بإذن الله، ورفع (بيورزاذان) عنهم القتل، وقال: آمنت بما آمنت به بنو إسرائيل وأيقنت أنه لا رب غيره، وقال لبني إسرائيل: إنَّ (خردوش) أمرني أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره، وإني لست أستطيع (أن أعصيه)[1]، قالوا له: افعل ما أُمرت به، فأمرهم فحفروا خندقًا، وأمر بأموالهم من الخيل والبغال والحمير والإبل والبقر والغنم فذبحها حتى سال الدم في العسكر، وأمر بالقتلى الذين قتلوا قبل ذلك فطرحوا على ما قتل من مواشيهم، فلم يظن (خردوش) إلا أن ما في الخندق من بني إسرائيل، فلما بلغ الدم عسكره أرسل إلى (بيورزاذان) أن ارفع عنهم القتل، ثم انصرف إلى بابل، وقد أفنى بني إسرائيل أو كاد (أن يفنيهم)[1]، وهي الوقعة الأخيرة التي أنزل اللهُ ببني إسرائيل، وذلك قوله: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ فكانت الوقعة الأولى بختنصر وجنوده، (والأخرى خردوش وجنوده)[2]، وكانت أعظم الوقعتين فلم تقم لهم بعد ذلك راية، وانتقل الملك بالشام ونواحيها إلى الروم اليونانية إلا / أن بقايا من بني إسرائيل كثروا، وكانت لهم الرياسة ببيت المقدس ونواحيها على غير وجه الملك، ١/٢٠٧
وكانوا في نعمة إلى أن بدلوا وأحدثوا الأحداث فسلط الله عليهم (ططيوس بن اسبيانوس) الرومي، فأخرب بلادهم وطردهم عنها ونزع الله عنهم الملك والرياسة وضربت عليهم الذلة فليسوا في أمة إلا وعليهم الصَّغار والجزية، وبقي بيت المقدس خرابًا إلى أيام عمر بن الخطاب فعمَّره المسلمون بأمره.

وقال قتادة: بعث الله عليهم جالوت في الأولى فسبى وقتل وخرَّب ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾، يعني: في زمان داود، فإذا جاء وعد الآخرة بعث الله عليهم بختنصر فسبى وخرَّب، ثم قال: «عسى ربكم أن يرحمكم» فعاد الله عليهم بالرحمة ثم عاد القوم بشرِّ ما بحضرتهم، فبعث الله عليهم ما شاء من نقمته وعقوبته، ثم بعث الله عليهم العرب كما قال: «وإذ تأذَّن ربُّك ليبعثَنَّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوءَ العذاب» فهم في العذاب إلى يوم القيامة.

وذكر السدي بإسناده: أن رجلًا من بني إسرائيل رأى في النوم أن خراب بيت المقدس على يدي غلام يتيم ابن أرملة من أهل بابل، يُدعى بختنصر، وكانوا يصدقون فتصدق رؤياهم، فأقبل ليسأل عنه حتى نزل على أُمه وهو يحتطب، فجاء وعلى رأسه حزمة حطب، فألقاها ثم قعد، فكلمه ثم أعطاه ثلاثة دراهم، فقال: اشتر بهذا طعامًا وشرابًا، فاشترى بدرهم لحمًا، وبدرهم خمرًا، وبدرهم خبزًا، فأكلوا وشربوا، وفعل في اليوم الثاني كذلك، وفي اليوم الثالث كذلك، ثم قال: إني أحب أن تكتب لي أمانًا إن أنت ملكت يومًا من الدهر، (فقال: تسخر مني؟ فقال: إني لا أسخر منك، ولكن ما عليك أن تتخذ بها عندي يدًا، فكتب له أمانًا، وقال: أرأيت)[1] إن جئت والناس حولك قد حالوا بيني وبينك، قال: ترفع صحيفتك

(١) ساقط من «ب».

على قصبة فأعرفك، فكتب له وأعطاه، ثم إن ملك بني إسرائيل كان يكرم يحيى بن زكريا ويدني مجلسه وأنه هوي ابنة امرأته، وقال ابن عباس: ابنة أخته، فسأل يحيى بن زكريا عن تزويجها فنهاه عن نكاحها فبلغ ذلك أمها فحقدت على يحيى بن زكريا، وعمدت حين جلس الملك على شرابه فألبستها ثيابًا رقاقًا حمرًا، وطيَّبتها وألبستها الحليّ، وأرسلتها إلى الملك وأمرتها أن تسقيه، فإن أرادها عن نفسها أبت عليه حتى يعطيها ما سألته، فإذا أعطاها سألت رأس يحيى بن زكريا أن يؤتى به في طست، ففعلت، فلما أرادها قالت: لا أفعل حتى تعطيني ما أسألك، قال: ما تسأليني؟ قالت: رأس يحيى بن زكريا في هذا الطست، فقال: ويحك سليني غير هذا، فقالت: ما أريد إلا هذا، فلما أبت عليه بعث فأتي برأسه حتى وضع بين يديه والرأس يتكلم، ويقول: لا تحل لك، فلما أصبح إذا دمه يغلي، فأمر بتراب فألقي عليه فرقى الدم، يعني: صعد الدم يغلي، ويلقي عليه من التراب حتى بلغ سور المدينة وهو في ذلك يغلي، فبعث صخابين ملك بابل جيشًا إليهم وأمَّر عليهم بختنصر، فسار بختنصر وأصحابه حتى بلغوا ذلك المكان تحصنوا منه في مدائنهم، فلما اشتدَّ عليهم المقام أراد الرجوع فخرجت إليه عجوز من عجائز بني إسرائيل، فقالت: تريد أن ترجع قبل فتح المدينة؟ قال: نعم، قد طال مقامي وجاع أصحابي، قالت: أرأيت إن فَتحتُ لك المدينةَ تعطيني ما أسألك فتقتل من أمرتك بقتله وتكفّ إذا أمرتك أن تكفّ؟ قال: نعم، قالت: إذا أصبحت تقسم جندك أربعة أرباع، ثم أقِمْ على كل زاوية ربعًا، ثم ارفعوا أيديكم إلى السماء فنادوا: إنا نستفتحك يا الله بدم يحيى بن زكريا، فإنها سوف تتساقط، ففعلوا فتساقطت المدينة ودخلوا من جوانبها، فقالت: كفَّ يدك وانطلقت به إلى دم يحيى ابن زكريا، وقالت: اقتل على هذا الدم حتى يسكن فقتل عليه سبعين ألفًا حتى سكن، فلما سكن قالت: كف يدك، فإن الله لم يرض إذا قتل نبي حتى يقتل من قتله ومن رضي بقتله، وأتاه صاحب الصحيفة بصحيفته فكفَّ عنه وعن أهل بيته، فخرب بيت المقدس وطرح فيه الجيف، وأعانه على خرابه الروم من أجل أن بني إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا، وذهب معه بوجوه بني إسرائيل وذهب بدانيال وقوم من أولاد الأنبياء، وذهب معه برأس جالوت، فلما قدم بابل وجد صخابين قد مات فملك مكانه، وكان أكرم الناس عنده دانيال وأصحابه، فحسدهم المجوس ووشوا بهم إليه، وقالوا: إن دانيال وأصحابه لا يعبدون إلهك ولا يأكلون ذبيحتك، فسألهم فقالوا: أجل إن لنا ربًا نعبده، ولسنا نأكل من ذبيحتكم، فأمر الملك بخدٍّ فخُدَّ لهم فألقوا فيه وهم ستة، وألقى معهم بسَبُعٍ ضارٍ ليأكلهم، فذهبوا ثم راحوا فوجدوهم جلوسًا والسَّبُع مفترش ذراعيه معهم لم يخدشْ منهم أحدًا، ووجدوا معهم رجلًا سابعًا، فقال: ما هذا السابع إنما كانوا ستة فخرج السابع، وكان ملكًا فلطمه لطمة فصار في الوحوش، ومسخه الله سبع سنين.

وذكر وهب: أن الله مسخ بختنصر نسرًا في الطير، ثم مسخه ثورًا في الدواب، ثم مسخه أسدًا في الوحوش، فكان مسخه سبع سنين، وقلبه في ذلك قلب إنسان، ثم ردَّ الله إليه ملكه فآمن، فسئل وهب

أكان مؤمنًا؟ فقال: وجدت أهل الكتاب اختلفوا فيه، فمنهم من قال: مات مؤمنًا، ومنهم من قال: أحرق بيت المقدس وكتبه وقتل الأنبياء، فغضب الله عليه فلم يقبل توبته.

وقال السدي: ثم إن بختنصر لما رجع إلى صورته بعد المسخ وردَّ الله إليه ملكه كان دانيال وأصحابه أكرم الناس عليه فحسدهم المجوس، وقالوا لبختنصر: إن دانيال إذا شرب الخمر لم يملك نفسه أن يبول وكان ذلك فيهم عارًا فجعل لهم طعامًا وشرابًا فأكلوا وشربوا، وقال للبوّاب: انظر أول من يخرج ليبول فاضربه بالطبرزين، فإن قال أنا بختنصر، فقل: كذبت، بختنصر أمرني، فكان أول من قام للبول بختنصر، فلما رآه البواب شدَّ عليه، فقال: ويحك أنا بختنصر، فقال: كذبت، بختنصر أمرني، فضربه فقتله.

هذا ما ذكره في «المبتدأ»، إلا أن رواية من روى أن بختنصر غزا بني إسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريا غلط عند أهل السير، بل هم مجمعون على أن بختنصر إنما غزا بني إسرائيل عند قتلهم شعياء في عهد أرمياء، ومن وقت أرمياء وتخريب بختنصر بيت المقدس إلى مولد يحيى بن زكريا أربعمائة وإحدى وستون سنة، / وذلك أنهم كانوا يعدون من لدن تخريب بختنصر بيت المقدس إلى حين عمارته في عهد كيرش بن ٢٠٧/ب
أخشورش بن أصيهيد ببابل من قِبَلِ بَهْمَن بن اسفنديار (سبعين سنة، ثم من بعد عمارته إلى ظهور الاسكندر على بيت المقدس ثمان وثمانون سنة، ثم من بعد مملكته)[1] إلى مولد يحيى بن زكريا ثلثمائة وستون سنة.

والصحيح من ذلك ما ذكر محمد بن إسحاق.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ﴾ أي: أعلمناهم وأخبرناهم فيما آتيناهم من الكتب أنهم سيفسدون.

والقضاء على وجوه: يكون أمرًا، كقوله: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾[الإسراء: ٢٣].

ويكون حكمًا، كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم﴾[يونس: ٩٣، والنحل: ٧٨].

ويكون خلقًا، كقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾[فصلت: ١٢].

وقال ابن عباس وقتادة: يعني: وقضينا عليهم، و«إلى» بمعنى «على»، والمراد بالكتاب: اللوح المحفوظ.

﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ لام القسم، مجازه: والله لتفسدن ﴿فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ بالمعاصي، والمراد بالأرض: أرض الشام وبيت المقدس ﴿وَلَتَعْلُنَّ﴾ ولتستكبرنَّ، ولتظلمن الناس ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ يعني: أولى المرتين.

قال قتادة: إفسادهم في المرة الأولى: ما خالفوا من أحكام التوراة، وركبوا المحارم.

وقال ابن إسحاق: إفسادهم في المرة الأولى: قتل شعياء بين الشجرة، وارتكابهم المعاصي.

﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ قال قتادة: يعني: جالوت الجزري وجنوده، وهو الذي قتله داود.

وقال سعيد بن جبير: يعني: سنجاريب من أهل نينوي.

وقال ابن إسحاق: بختنصر البابلي وأصحابه، وهو الأظهر.

﴿أُوْلِي بَأْسٍ﴾ ذوي بطش ﴿شَدِيدٍ﴾ في الحرب ﴿فَجَاسُواْ﴾ أي: فطافوا وداروا ﴿خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾ وسطها، يطلبونكم ويقتلونكم، والجوس: طلب الشيء بالاستقصاء، قال الفرّاء: جاسوا: قتلوكم بين بيوتكم.

﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾ قضاء كائنًا لا خلف فيه.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾ يعني: الرجعة والدولة ﴿عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾﴾ عددًا، أي: من ينفر معهم وعاد البلد أحسن مما كان.

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ﴾ أي: لها ثوابها ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَاۚ﴾ أي: فعليها، كقوله تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾[الواقعة: ٩١]، أي: عليك، وقيل: فلها الجزاء والعقاب.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: المرة الآخرة من إفسادكم، وذلك قصدهم قتل عيسى عليه السلام حين رفع، وقتلهم يحيى بن زكريا عليهما السلام، فسلط الله عليهم الفرس والروم، خردوش وطيطوس حتى قتلوهم وسبوهم ونفوهم عن ديارهم، فذلك قوله تعالى: ﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ﴾ أي: تحزن وجوهكم، وسوء الوجه بإدخال الغم والحزن.

قرأ الكسائي ويعقوب[1] «لنسوء» بالنون وفتح الهمزة على التعظيم، كقوله: «وقضينا» و«بعثنا»،

---

(١) ساقط من «أ».

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝٨ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ۝١١﴾

وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر بالياء وفتح[1] الهمزة (على التوحيد)[2]، أي: ليسوء الله وجوهكم، وقيل: ليسوء الوعد وجوهكم.

وقرأ الباقون بالياء وضم الهمزة على الجمع، أي: ليسوء العباد أولو البأس الشديد وجوهكم.

﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ يعني: بيت المقدس ونواحيه ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا﴾ وليهلكوا ﴿مَا عَلَوْا﴾ أي: ما غلبوا عليه من بلادكم ﴿تَتْبِيرًا ۝٧﴾.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد انتقامه منكم، فيردَّ الدولة إليكم ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ أي: إن عدتم إلى المعصية عدنا إلى العقوبة، قال قتادة: فعادوا فبعث الله عليهم محمدًا ﷺ فهم يعطون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۝٨﴾ سجنًا ومحبسًا، من الحصر: وهو الحبس.

قال الحسن: حصيرًا، أي: فراشًا، وذهب إلى الحصير الذي يبسط ويفرش.

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي: إلى الطريقة التي هي أصوب، وقيل: الكلمة التي هي أعدل: وهي شهادة أن لا إله إلا الله ﴿وَيُبَشِّرُ﴾ يعني: القرآن ﴿الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ﴾ بأن لهم ﴿أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ وهو الجنة.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠﴾ وهو النار.

وقوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ﴾ حذف الواو لفظًا لاستقبال اللام الساكنة كقوله: «سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ»[العلق: ١٨]، وحذف في الخط أيضًا، وهي غير محذوفة في المعنى، ومعناه: ويدعو الإنسان على ماله وولده ونفسه ﴿بِالشَّرِّ﴾ فيقول عند الغضب: اللهم العنه وأهلِكْه ونحوهما ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ أي: كدعائه ربه بالخير[2] أن يهب له النعمة والعافية، ولو استجاب الله دعاءه على نفسه لهلك، ولكن الله لا يستجيب بفضله ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ۝١١﴾ بالدعاء على ما يكره أن يستجاب له فيه، قال جماعة من أهل التفسير، وقال ابن عباس: ضَجِرًا، لا صبر له على السَّرَّاء والضَّرَّاء.

(١) في «أ»: (وضم . . .).
(٢) ساقط من «أ».

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ أي: علامتين دالَّتَين على وجودنا ووحدانيتنا وقدرتنا ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ قال ابن عباس: جعل الله نور الشمس سبعين جزءًا، ونور القمر كذلك، فمحا من نور القمر تسعة وستين جزءًا فجعلها مع نور الشمس(١).

وحكى أن الله تعالى أمر جبريل فأمرَّ جناحه على وجه القمر ثلاث مرات فطمس عنه الضوء وبقي فيه النور.

وسأل ابنُ الكوّاء عليًا عن السواد الذي في القمر؟ قال: هو أثر المحو(٢).

﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ منيرة مضيئة، يعني: يبصر بها، قال الكسائي: تقول العرب: أبصر النهار إذا أضاء بحيث يبصر به ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أي: لو ترك الله الشمس والقمر كما خلقهما لم يعرف الليل من النهار، ولم يَدْرِ الصائم متى يفطر، ولم يَدْرِ وقت الحج ولا وقت حلول الآجال ولا وقت السكون والراحة ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ قال ابن عباس: عمله وما قدر عليه فهو ملازمه أينما كان، وقال الكلبي ومقاتل: خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسبه به، وقال الحسن: يمنه وشؤمه.

وعن مجاهد: ما من مولود إلا في عنقه ورقة مكتوب فيها شقي أو سعيد.

وقال أهل المعاني: أراد بالطائر: ما قضى الله عليه أنه عامله، وما هو صائر إليه من سعادة أو شقاوة،
٢٠٨/أ سُمِّي / «طائرًا» على عادة العرب فيما كانت تتفاءل وتتشاءم به من سوانح الطير وبوارحها.

وقال أبو عبيدة والقتيبي: أراد بالطائر: حظه من الخير والشر، من قولهم: طار سهم فلان بكذا، وخص العنق من بين سائر الأعضاء؛ لأنه موضع القلائد والأطواق وغيرهما مما يزين أو يشين، فجرى على كلام العرب بتشبيه الأشياء اللازمة إلى الأعناق.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ﴾ يقول الله تعالى: ونحن نخرج له ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا﴾ وقرأ الحسن ومجاهد ويعقوب «ويَخْرُجُ له» بفتح الياء وضم الراء، معناه: ويخرج له الطائر يوم القيامة كتابًا.

وقرأ أبو جعفر «يُخْرَج» بالياء وضمها وفتح الراء.

---

(١) عزاه السيوطي لعبد بن حميد وابن المنذر. انظر: «الدر المنثور»: (٥/٢٤٨).

(٢) قال ابن كثير (٣/٢٨): (رواه ابن جرير من طرق متعددة جيدة).

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ
فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ
أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾

﴿يَلْقَىٰهُ﴾ قرأ ابن عامر وأبو جعفر «يُلَقَّاه» بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف، يعني: يلقى الإنسان ذلك الكتاب، أي: يؤتاه، وقرأ الباقون بفتح الياء خفيفة، أي: يراه ﴿مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ وفي الآثار: إن الله تعالى يأمر الملك بطي الصحيفة إذا تمَّ عمر العبد فلا تنشر إلى يوم القيامة.

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ أي: يقال له: اقرأ كتابك، قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ محاسبًا، قال الحسن: لقد عدل عليك من جعلك حسيب نفسك، قال قتادة: سيقرأ يومئذ من لم يكن قارئًا في الدنيا.

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ لها ثوابه ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لأن عليها عقابه.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا تحمل حاملة حمل أُخرى من الآثام، أي: لا يؤخذ أحد بذنب أحد ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ إقامةً للحجة وقطعًا للعذر، وفيه دليل على أن ما وَجَبَ وَجَبَ بالسمع لا بالعقل.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ قرأ مجاهد «أمَّرنا» بالتشديد، أي: سلَّطنا شرارها فعصوا، وقرأ الحسن وقتادة ويعقوب «آمرنا» بالمد، أي: أكثرنا.

وقرأ الباقون مقصورًا مخففًا، أي: أمرنا بالطاعة فعصوا، ويحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء، ويحتمل أن تكون بمعنى أكثرنا، يقال: أمرهم الله، أي: كثَّرهم الله، وفي الحديث: «خير المال مهرة مأمورة»(١)، أي: كثيرة النسل(٢)، ويقالَ منه: أمر القوم يأمرون أمرًا إذا كثروا، وليس من الأمر بمعنى الفعل، فإن الله لا يأمر بالفحشاء.

واختار أبو عبيدة قراءة العامة، وقال: لأن المعاني الثلاثة تجتمع فيها، يعني: الأمر والإمارة والكثرة.

﴿مُتْرَفِيهَا﴾ منعَّميها وأغنياءها ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ وجب عليها العذاب ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ أي: خربناها وأهلكنا من فيها.

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات»: (٧/ ٥٦) طبعة التحرير بمصر، والإمام أحمد في «المسند»: (٣/ ٤٦٨)، والبيهقي في «السنن»: (١٠/ ٦٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٠/ ٣٨٧).
قال ابن حجر في «الكافي الشاف» ص٩٨: (رواه عبد بن حميد وإسحاق وابن أبي شيبة والحارث والطبراني وأبو عبيد من رواية مسلم بن بديل عن إياس بن زهير عن سويد بن هبيرة عن النبي ﷺ). وقال الهيثمي (٥/ ٢٥٨): (رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد ثقات).

(٢) قاله أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله في كتابه «الغريب». انظر: «ابن كثير»: (٤/ ٣٤)، البيهقي: (١٠/ ٦٤).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝١٧ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۝١٩﴾

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا يحيى بن بكر، حدثنا الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن عروة بن الزبير أن زينب بنت أبي سلمة حدثته عن أم حبيبة بنت أبي سفيان، عن زينب بنت جحش أنَّ النبي ﷺ دخل عليها فَزِعًا وهو يقول: «لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتِح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلّق بأصبعه الإبهام والتي تليها»، قالت زينب فقلت: يا رسول الله، أنهلَكُ وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث»[1].

قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي: المكذبة ﴿مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ يُخوِّف كفار مكة ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝١٧﴾ قال عبد الله بن أبي أوفى: القَرْنُ مائة وعشرون سنة، فبعث رسول الله ﷺ في أول قرن، وكان في آخره يزيد بن معاوية، وقيل: مائة سنة، ورُوي عن محمد بن القاسم عن عبد الله بن بسر المازني أن رسول الله ﷺ وضع يده على رأسه وقال: «سيعيش هذا الغلام قرنًا»[2]، قال محمد بن القاسم فمازلنا نعدُّ له حتى تم له مائة سنة، ثم مات.

قال الكلبي: ثمانون سنة، وقيل: أربعون سنة.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ يعني: الدنيا، أي: الدار العاجلة ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ من البسط والتقتير ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾ أن نفعل به ذلك أو إهلاكه ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ﴾ في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا﴾ يدخل نارها ﴿مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۝١٨﴾ مطرودًا مبعدًا.

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ عمل عملها ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۝١٩﴾ مقبولاً.

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن، باب يأجوج ومأجوج: (١٣/ ١٠٦)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج برقم ٢٨٨٠: (٤/ ٢٢٠٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٣٩٧).

(٢) أخرجه ابن جرير: (١٥/ ٥٨)، وذكر البخاري في «التاريخ الصغير»: ص٣٩، وأخرجه وأبو نُعيم في «معرفة الصحابة» كما في «التهذيب»: (٥/ ١٣٩).

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ
فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ
إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ
إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا
تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: نمد كلا الفريقين من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ أي: يرزقهما جميعًا ثم يختلف بهما الحال في المآل ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ﴾ رزق ربك ﴿مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ ممنوعًا عن عباده، فالمراد من العطاء: العطاء في الدنيا وإلا فلا حظٌّ للكفار في الآخرة.

﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الرزق والعمل الصالح[1]، يعني: طالب العاجلة وطالب الآخرة ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطاب مع النبي ﷺ والمراد غيره.

وقيل: معناه لا تجعل أيها الإنسان (مع الله إلهًا آخر)[1] ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ مذمومًا من غير حمد، مخذولاً من غير نصر.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ وأمر ربك، قاله ابن عباس وقتادة والحسن.

قال الربيع بن أنس: وأوجب ربك. قال مجاهد: وأوصى ربك. وحكي عن الضحاك بن مزاحم أنه قرأها «ووصَّى ربك»، وقال: إنهم ألصقوا الواو بالصاد فصارت قافًا[2].

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي: وأمر بالوالدين إحسانًا برًّا بهما وعطفًا عليهما.

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالألف على التثنية، فعلى هذا قوله: ﴿أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ كلام مستأنف، كقوله تعالى: «ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ»[المائدة: ٧١]، وقوله: «وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟»[الأنبياء: ٣]، وقوله: «الذين ظلموا» ابتداء، وقرأ الباقون «يبلغن» على التوحيد.

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ٢٢): (وهذا خلاف ما انعقد عليه الإجماع، فلا يلتفت إليه، والخبر رواه أحمد بن منيع عن ابن عباس بسند ضعيف لضعف فرات بن السائب، ورواه الطبري في «التفسير»: (١٥/ ٦٣) عن الضحاك، وفي سنده: أبو إسحاق الكوفي، وهو عبد الله بن ميسرة الحارثي، ضعفه ابن معين وأحمد بن حنبل والنسائي والدارقطني... وهشام الراوي عن أبي إسحاق هذا ـ وإن كان ثقة ـ موصوف بالتدليس، وقد عنعن في هذا الخبر. انظر: «المطالب العالية»: (٣/ ٣٤٨)، «زاد المسير»: الموضع السابق، تعليق (١).

﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ فيه ثلاث لغات، قرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بفتح الفاء، وقرأ أبو جعفر ونافع وحفص بالكسر والتنوين، والباقون بكسر الفاء غير منون، ومعناها واحد: وهي كلمة كراهية.

قال أبو عبيدة: أصل التف والأف الوسخ على الأصابع إذا فتلتها.

وقيل: «الأف»: ما يكون في المغابن من الوسخ، و«التف» ما يكون في الأصابع.

وقيل: «الأف»: وسخ الأذن، و«التف»: وسخ الأظفار.

وقيل: «الأف»: وسخ الظفر، و«التف»: ما رفعته بيدك من الأرض من شيء حقير.

﴿وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا﴾ ولا تزجرهما.

﴿وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣﴾ حسنًا جميلًا ليّنًا، قال ابن المسيب: كقول العبد المذنب للسيد الفظ.

وقال مجاهد: لا تسمِّيهما، ولا تكنّهما، وقل: يا أبتاه، (يا أماه)[1].

وقال مجاهد في هذه الآية أيضًا: إذا بلغا عندك من الكبر ما يبولان فلا تتقذرهما، ولا تقل لهما أف حين تميط عنهما الخلاء والبول كما كانا يميطانه عنك صغيرًا.

٢٠٨/ب ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: أَلِنْ جانبك لهما واخضع، قال عروة / بن الزبير: لِنْ لهما حتى لا تمتنع عن شيء أحبّاه ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ من الشفقة ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ أراد: إذا كانا مسلمين.

قال ابن عباس: هذا منسوخ بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾[التوبة: ١١٣].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد ابن عبد الجبار الرياني، حدثنا حميد بن زنجويه، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن يزيد، عن عطاء ابن السائب، عن أبي عبد الرحمن ـ يعني: السلمي ـ، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «الوالد أوسط أبواب الجنة، فحافظ إن شئت أو ضيّع»[2].

أخبرنا أبو طاهر محمد بن علي الزراد، أخبرنا أبو بكر محمد بن إدريس الجرجاني، أخبرنا أبو الحسن

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة، باب الفضل في رضا الوالدين: (٦/ ٢٤ ـ ٢٥)، وقال: (هذا حديث صحيح)، وابن ماجه في الأدب، باب بر الوالدين: (٢/ ١٢٠٨)، وصححه ابن حبان برقم ٢٠٢٣: ص٤٩٦ من «موارد الظمآن»، والحاكم في «المستدرك»: (٢/ ١٩٧)، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه)، وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»: (٨/ ٥٤٠)، والطحاوي في «مشكل الآثار»: (٢/ ١٥٨)، والإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ١٩٦)، (٦/ ٤٤٥، ٤٤٨)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ١٠)، وصححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم ٩١٤: (٢/ ٦١٨ ـ ٦١٩)، «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤).

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

علي بن الحسين الماليني، أخبرنا حسن بن سفيان، حدثنا يحيى بن حبيب بن عدي، حدثنا خالد بن الحارث، عن شعبة، عن يعلى بن عطاء، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «رضا الله في رضا الوالد، وسخط الله في سخط الوالد»[١].

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي، أخبرنا أبو عبد الله محمد ابن عبد الله الصفار، حدثنا أبو جعفر محمد بن غالب بن تمتام الضبي، حدثنا عبد الله بن مسلمة، حدثنا عبد العزيز بن مسلم، عن يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنةَ منَّان، ولا عاقٌّ، ولا مُدمنُ خمرٍ»[٢].

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد بن بامويه الأصفهاني، أخبرنا أبو سعيد أحمد بن زياد البصري، أخبرنا الحسن بن محمد بن الصبَّاح، حدثنا رِبْعِيُّ بن عُلَيَّة، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُرِيِّ، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أنفُ رجل ذُكِرتُ عنده فلم يصلِّ عليَّ، ورَغِمَ أنفُ رجلٍ أتى عليه شهرُ رمضان فلم يُغْفَرْ له، ورَغِمَ أنفُ رجل أدرك أبويه الكِبَرُ فلم يُدْخِلَاه الجنةَ»[٣].

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ من برِّ الوالدين وعقوقهما ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ أبرارًا مطيعين بعد تقصير كان منكم في القيام بما لزمكم من حق الوالدين وغير ذلك ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ﴾ بعد المعصية ﴿غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي في البر، باب الفضل في رضا الوالدين: (٦/ ٢٥) مرفوعًا وموقوفًا، وقال: (وهذا ـ الموقوف ـ أصح)، وأخرجه ابن حبان برقم٢٠٢٦: ص٤٩٦ من «موارد الظمآن»، وصححه الحاكم: (٤/ ١٥٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ١٢). وانظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم٥١٦: (٢/ ٢٩ـ٣١)، «مجمع الزوائد»: (٨/ ١٣٦)، «الكافي الشاف»: ص٩٨، «كشف الخفاء»: (١/ ٥٢٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٣/ ٢٨، ٤٤) عن أبي سعيد الخدري، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ١٧)، وفيه: يزيد بن أبي زياد وهو ضعيف، وللحديث شواهد كثيرة عن عبد الله بن عمرو وأبي هريرة وأنس. انظر: «سنن النسائي، كتاب الأشربة، باب الرواية في المدمنين في الخمر: (٨/ ٣١٨)، و«سنن الدارمي» في الأشربة، باب مدمن الخمر: (٢/ ١١٢)، وابن حبان: ص٤٩٨ من «موارد الظمآن»، و«المصنف» لابن أبي شيبة: (٨/ ٥٤٤)، و«المسند» للإمام أحمد: (٣/ ٢٢٦)، و«مشكل الآثار» للطحاوي: (١/ ٣٩٥)، وصححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة»: (٢/ ٢٨٥ـ٢٩١)، وانظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٢٦٦).

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب قول النبي ﷺ: «رغم أنف رجل»: (٩/ ٥٣٠ ـ ٥٣١)، وقال: (هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه)، والمصنف في «شرح السنة»: (٣/ ١٩٨)، وأخرج الحاكم القطعة الأولى منه في «المستدرك»: (١/ ٥٤٩)، وأخرج مسلم الثانية منه في البر والصلة برقم٢٥٥١: (٤/ ١٩٧٨)، وله شاهد عن كعب بن عجرة، أخرجه الحاكم في «المستدرك»: (٤/ ١٥٣)، وقال: (صحيح الإسناد) ووافقه الذهبي. وانظر: «إرواء الغليل»: (١/ ٣٦)، «مشكاة المصابيح»: (١/ ٢٩٢)، «الترغيب والترهيب»: (٢/ ٥٠٦ـ٥٠٨)، «الكافي الشاف»: ص١٣٧، «فتح الباري»: (١١/ ١٦٨)، «جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام» لابن القيم: ص٣٤ـ٣٥.

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦﴾

قال سعيد بن جبير في هذه الآية: هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه لا يريد بذلك إلا الخير فإنه لا يؤاخذ به.

قال سعيد بن المسيب: «الأوّاب»: الذي يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب.

قال سعيد بن جبير: الرَّجّاع إلى الخير.

وعن ابن عباس قال: هو الرجّاع إلى الله فيما يحزبه وينوبه.

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: هُمُ المُسَبِّحون، دليله قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ﴾[سبأ: ١٠].

قال قتادة: هم المصلون.

قال عوف[١] العقيلي: هم الذين يصلون صلاة الضحى.

أخبرنا أبو الحسن طاهر بن الحسين الرَّوَقي[٢] الطوسي، أخبرنا أبو الحسن محمد بن يعقوب، أخبرنا أبو النضر محمد بن محمد بن يوسف، حدثنا الحسن بن سفيان، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا وكيع، عن هشام صاحب الدستوائي، عن قتادة، عن القاسم بن عوف، عن زيد بن أرقم قال: خرج رسول الله ﷺ على أهل قُباء وهم يصلُّون صلاة الضحى، فقال: «صلاة الأوّابين إذا رمضت الفصال من الضحى»[٣].

وقال محمد بن المنكدر: «الأوّاب»: الذي يصلي بين المغرب والعشاء.

وروي عن ابن عباس أنه قال: إن الملائكة لتحف بالذين يصلون بين المغرب والعشاء، وهي صلاة الأوّابين[٤].

قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ يعني: صلة الرحم، وأراد به: قرابة الإنسان، وعليه الأكثرون.

عن علي بن الحسين: أراد به قرابة الرسول ﷺ[٥].

---

(١) في «ب»: (عون).

(٢) في «ب»: (الدورقي)، والصواب ما أثبتناه.

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب صلاة الأوابين حين ترمض الفصال برقم٧٤٨: (٥١٦/١)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤٥/٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف»: (٢٦٤/٢).

(٤) راجع هذه الأقوال وغيرها في الطبري: (٦٨/١٥ ـ ٧١)، «زاد المسير»: (٢٦/٥ ـ ٢٧)، ورجح الطبري قول من قال: (الأوّاب: هو التائب من الذنب، الراجع من معصية الله إلى طاعته، ومما يكره إلى ما يرضاه)؛ لأن الأواب إنما هو «فعّال» من قول القائل: آب فلان من كذا، إما من سفره إلى منزله، أو من حالٍ إلى حال، كما قال عبيد بن الأبرص:

وكلُّ ذي غَيْبَةٍ يَؤُوبُ … وغائبُ الموتِ لا يؤوبُ

فهو يؤوب أَوْبًا، وهو رجل آئب من سفره، وأوّاب من ذنوبه.

(٥) وأولى التأويلين بالصواب تأويل مَن تأوّل ذلك أنها بمعنى وصية الله عباده بصلة قرابات أنفسهم وأرحامهم من قِبَل آبائهم وأمهاتهم؛ وذلك أن الله عزَّ وجلَّ عقَّب ذلك عقيب حضّه عباده على برّ الآباء والأمهات، فالواجب أن يكون ذلك حضًّا على صلة أنسابهم دون أنساب غيرهم التي لم يجرِ لها ذكر. انظر: «تفسير الطبري»: (٧٢/١٥).

إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾

﴿وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ أي: لا تنفق مالك في المعصية.

وقال مجاهد: لو أنفق الإنسان ماله كله في الحق ما كان تبذيرًا، ولو أنفق مُدًّا في باطل كان تبذيرًا.

وسئل ابن مسعود عن التبذير فقال: إنفاق المال في غير حقه[1].

قال شعبة: كنت أمشي مع أبي إسحاق في طريق الكوفة، فأتى على باب دارٍ بُني بجصٍ وآجُرٍّ، فقال: هذا التبذير.

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ أي: أولياءهم، والعرب تقول لكل ملازمِ سُنَّةَ قومٍ هو أخوهم ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ جحودًا لنعمه.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ نزلت في مِهْجَع وبلال وصهيب وسالم وخبّاب، كانوا يسألون النبي في الأحايين ما يحتاجون إليه، ولا يجد، فيعرض عنهم حياءً منهم ويمسك عن القول، فنزل: «وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ»[2]، وإن تعرض عن هؤلاء الذين أمرتك أن تؤتيهم ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ انتظار رزق من الله ترجوه أن يأتيك ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ ليِّنًا، وهي العِدَة، أي: عِدْهم وَعْدًا جميلًا، وقيل: القول الميسور: أن تقول: يرزقنا الله وإيَّاك.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ قال جابر: أتى صبي فقال: يا رسول الله، إنَّ أُمي تَسْتَكْسِيكَ دِرْعًا، ولم يكن لرسول الله ﷺ إلا قميصه، فقال للصبي: من ساعة إلى ساعة يظهر، فعُدْ وقتًا آخر، فعاد إلى أمه فقالت: قل له: إن أمي تستكسيك الدرع الذي عليك، فدخل رسول الله ﷺ داره فنزع قميصه فأعطاه إيَّاه، وقعد عريانًا، فأذّن بلال بالصلاة، فانتظروه فلم يخرج، فشغل قلوب أصحابه، فدخل عليه بعضهم فرآه عريانًا، فأنزل الله تعالى: «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ»[3]، يعني: ولا تمسك يدك عن النفقة في الحق كالمغلولة يده لا يقدر على مدها.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري»: (١٥/ ٧٢ـ ٧٤)، «الدر المنثور»: (٥/ ٢٧٤ـ ٢٧٥)، «زاد المسير»: (٥/ ٢٧ـ ٢٨).

(٢) «زاد المسير»: (٥/ ٢٩)، «البحر المحيط»: (٦/ ٣٠)، وفي نزولها أقوال أخرى في المصدرين نفسيهما.

(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول»: ص٣٣٢ـ ٣٣٣، وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» ص٩٩: (لم أجده)، وإذا صدرت هذه العبارة من أحد الحفاظ كابن حجر وغيره كان كافية في الحكم على الحديث بالوضع. انظر: «تنزيه الشريعة» لابن عراق: (١/ ٧ـ ٨)، وتفصيل أوسع في مقدمة التحقيق لكتاب «المصنوع في معرفة الحديث الموضوع» لملا علي القاري: ص٢٥ـ ٢٧.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾ بالعطاء ﴿كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ فتعطي جميع ما عندك ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ يلومك سائلوك[1] بالإمساك إذا لم تعطهم، و«الملوم»: الذي أتى بما يلوم نفسه، أو يلومه غيره ﴿مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ منقطعًا بك، لا شيء عندك تنفقه، يقال: حسرته بالمسألة إذا ألحفت عليه، ودابّة حسيرة إذا كانت كالّة رازحة.

قال قتادة: «محسورًا» نادمًا على ما فرط منك.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ﴾ يوسع ﴿ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يقتر ويضيق ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ فقر ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يئدون بناتهم خشية الفاقة فنهوا عنه، وأخبروا أن رزقهم ورزق أولادهم على الله تعالى ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ قرأ ابن عامر وأبو جعفر «خَطَئًا» بفتح الخاء والطاء مقصورًا، وقرأ ابن كثير بكسر الخاء
١/٢٠٩ ممدودًا، وقرأ الآخرون / بكسر الخاء وجزم الطاء، ومعنى الكل واحد، أي: إثمًا كبيرًا.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ وحقها ما روينا أن النبي ﷺ قال: «لا يَحِلُّ دمُ امرىءٍ مسلم إلاّ بإحدى ثلاث: رجل كَفَر بعد إيمانه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفسًا بغير نفس فيقتل بها»[2].

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي: قوةً وولاية على القاتل بالقتل، قاله مجاهد.

وقال الضحاك: سلطانه هو أنه يتخيرّ: فإن شاء استقاد منه، وإن شاء أخذ الدية، وإن شاء عفا.

﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ قرأ حمزة والكسائي «فلا تسرف» بالتاء يخاطب ولي القتيل، وقرأ الآخرون بالياء على الغائب، أي: لا يسرف الولي في القتل.

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) أخرجه أبو داود في الديات، باب الإمام يأمر بالعفو في الدم: (٦/ ٣٠١) عن أبي أمامة، والترمذي في الفتن، باب ما جاء لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: (٣/ ٣٧٣)، وقال: (حديث حسن)، وابن ماجه في الحدود، باب لا يحل دم امرىء مسلم إلا في ثلاث برقم٢٥٣٣: (٢/ ٨٤٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٠/ ١٤٨)، وأخرج الشيخان عن ابن مسعود نحوه.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾

واختلفوا في هذا الإسراف الذي منع منه، فقال ابن عباس وأكثر المفسرين: معناه: لا يقتل غير القاتل، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذا قُتل منهم قتيل لا يرضون بقتل قاتله حتى يقتلوا أشرف منه.

وقال سعيد بن جبير: إذا كان القاتل واحدًا فلا يقتل جماعة بدل واحد، وكان أهل الجاهلية إذا كان المقتول شريفًا لا يرضون بقتل القاتل وحده[1] حتى يقتلوا معه جماعة من أقربائه.

وقال قتادة: معناه: لا يمثل بالقاتل[2].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ فالهاء راجعة إلى المقتول في قوله: «وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا»، يعني: إن المقتول منصور في الدنيا بإيجاب القَوَدِ على قاتله، وفي الآخرة بتكفير خطاياه وإيجاب النار لقاتله، هذا قول مجاهد.

وقال قتادة: الهاء راجعة إلى ولي المقتول، معناه: إنه منصور على القاتل باستيفاء القصاص منه أو الدية.

وقيل في قوله: «فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ»، إنه أراد به القاتل المعتدي، يقول: لا يتعدى بالقتل بغير الحق، فإنه إن فعل ذلك فوليُّ المقتول منصور من قِبَلي عليه باستيفاء القصاص منه.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ بالإتيان بما أمر الله به، والانتهاء عما نهى الله عنه، وقيل: أراد بالعهد ما يلتزمه الإنسان على نفسه.

﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ قال السدي: كان مطلوبًا، وقيل: العهد يسأل عن صاحب العهد، فيقال: فِيمَ نقضت، كالموؤدة تَسأل فيم قُتلت؟

﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص «بالقسطاس» بكسر القاف والباقون بضمه، وهما لغتان، وهو الميزان صَغُر أو كَبُر، أي: بميزان العدل، وقال الحسن: هو القبان، قال مجاهد: هو رومي، وقال غيره: هو عربي مأخوذ من القسط وهو العدل، أي: زنوا بالعدل ﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾ أي: عاقبةً.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ قال قتادة: لا تقل: رأيت، ولم تره، وسمعت، ولم تسمعه، وعلمت، ولم تعلمه، وقال مجاهد: لا ترمِ أحدًا بما ليس لك به علم.

---

(١) زيادة من «ب».

(٢) وهذه الأوجه في تأويل الآية غير خارجة عن الصواب، وكلها تندرج في معنى الآية، وفي النهي عن الإسراف في القتل، والله أعلم.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ۝٣٧﴾

قال القتيبي: لا تتبعه بالحدس والظن، وهو في اللغة: اتباع الأثر، يقال: قفوت فلانًا أقفوه وقفيته وأقفيته إذا اتبعت أثره، وبه سميت بالقافية لتتبعهم الآثار.

قال القتيبي: هو مأخوذ من القفا كأنه يقفو الأمور، أي: يكون في إقفائها يتبعها ويتعرفها[1].

وحقيقة المعنى: لا تتكلم (أيها الإنسان)[2] بالحدس والظن.

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۝٣٦﴾ قيل: معناه: يسأل المرء عن سمعه وبصره وفؤاده.

وقيل: يسأل السمع والبصر والفؤاد عمّا فعله المرء.

وقوله: ﴿كُلُّ أُولَٰئِكَ﴾ أي: كل هذه الجوارح والأعضاء، وعلى القول الأول يرجع «أولئك» إلى[3] أربابها.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أبو طاهر أحمد بن محمد بن الحسين، أخبرنا أبو علي حامد بن محمد الرّفاء، حدثنا أبو الحسن علي بن عبد العزيز، أخبرنا الفضل بن دكين، حدثنا سعد بن أوس العبسي، حدثني بلال بن يحيى العبسي أن شتير بن شكل أخبره عن أبيه شكل بن حميد قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: يا نبي الله، علّمني تعويذًا أتعوّذ به، فأخذ بيدي ثم قال: «قل: اللهمَّ إني أعوذ بك من شرِّ سمعي، وشرِّ بصري، وشرِّ لساني، وشرِّ قلبي، وشرِّ مَنِيِّي» قال: فحفظتها، قال سعد: المني ماؤه[4].

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: بطرًا وكبرًا وخيلاء، وهو تفسير المشي، فلذلك أخرجه على المصدر ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ أي: لن تقطعها بكبرك حتى تبلغ آخرها ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ۝٣٧﴾ أي: لا تقدر أن تطاول الجبال وتساويها بكبرك، معناه: أن الإنسان لا ينال بكبره وبطره شيئًا، كمن يريد خرق الأرض ومطاولة الجبال لا يحصل على شيء.

وقيل: ذكر ذلك؛ لأن من مشى مختالاً يمشي مرة على عقبيه ومرة على صدور قدميه، فقيل له: إنك لن تنقب الأرض إن مشيت على عقبيك، ولن تبلغ الجبال طولاً إن مشيت على صدور قدميك.

---

(١) انظر: «القرطين» لابن مطرف الكناني، فقد تصرف المصنف بعبارة ابن قتيبة: (١/ ٢٥٦).

(٢) ساقط من «أ».

(٣) في «أ»: (على).

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب في الاستعاذة: (٢/ ١٦٠)، والترمذي في الدعوات: (٩/ ٤٦٤ - ٤٦٥)، وقال: (هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه)، وأخرجه النسائي في الاستعاذة، باب الاستعاذة من شر البصر: (٨/ ٢٦٠)، وصححه الحاكم: (١/ ٥٣٣)، ووافقه الذهبي، وأخرجه المصنف في شرح السنة: (٥/ ١٦٨ - ١٦٩).

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾

أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني، أخبرنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي، أخبرنا الهيثم بن كُلَيب، حدثنا أبو عيسى الترمذي، حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا أبي، عن المسعودي، عن عثمان بن مسلم بن هُرْمُز، عن نافع بن جبير بن مطعم، عن علي قال: «كان رسول الله ﷺ إذا مشى يتكفأ تكفُّؤًا، كأنما يَنْحَطُّ من صَبَبٍ»[١].

أخبرنا أبو محمد الجرجاني، أخبرنا أبو القاسم الخزاعي، أخبرنا الهيثم بن كُلَيب، حدثنا أبو عيسى الترمذي، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي يونس، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «ما رأيتُ شيئًا أحسنَ من رسول الله ﷺ، كأنَّ الشمسَ تجري في وجهه، وما رأيتُ أحدًا أسرعَ في مشيه من رسول الله ﷺ كأنما الأرضُ تُطْوَى له، إنا لَنُجْهِدُ أنفسنا وإنه لَغَيْرُ مُكْتَرِثٍ»[٢].

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ قرأ ابن عامر وأهل الكوفة برفع الهمزة وضم الهاء على الإضافة، ومعناه: كل الذي ذكرنا من قوله: «۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ... كَانَ سَيِّئُهُۥ»، أي: سيء ما عددنا عليك عند ربك مكروهًا؛ لأنه قد عدَّ أمورًا حسنة كقوله: «وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ»، «وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ»، وغير ذلك.

وقرأ الآخرون «سيئةً» منصوبة منونة، يعني: كل الذي ذكرنا من قوله: «وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ»، إلى هذا / ٢٠٩/ب
الموضع سيئة لا حسنة فيه، إذ الكل يرجع إلى المنهي عنه دون غيره، ولم يقل مكروهة؛ لأن فيه تقديمًا وتأخيرًا، وتقديره: كل ذلك كان مكروهًا سيئةً، وقوله: (« مَكْرُوهًا»، على التكرير، لا على الصفة، مجازه: كل ذلك كان سيئةً وكان)[٣] مكروهًا، أو رجع إلى المعنى دون اللفظ؛ لأن السيئة الذنب وهو مذكر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرنا ﴿مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ وكلُّ ما أمر الله به أو نهى عنه فهو حكمة.

﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ خاطب النبي ﷺ في هذه الآيات، والمراد منه الأمة ﴿فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ مطرودًا مبعدًا من كل خير.

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب، باب من صفاته ﷺ الجسمية: (١/ ١١٦ ـ ١١٧)، وفي كتابه «الشمائل المحمدية»: ص٨٥، ٨٦، بهامش شرح الباجوري، وأخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (١/ ٩٦)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٢/ ٣١٩)، وهو حديث صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب، باب في صفة النبي ﷺ: (١٠/ ١٣١ ـ ١٣٢)، وقال: (هذا حديث غريب)، وأخرجه في «الشمائل»: ص٨٥، وصححه ابن حبان: ص٥٢١ ـ ٥٢٢ من «موارد الظمآن»، وأخرجه ابن سعد في «الطبقات»: (١/ ٣٨٠)، وفيه ابن لهيعة، وهو ضعيف.

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب».

أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ
صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا
لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِى الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَٰتُ
السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ
حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم﴾ أي: اختاركم، فجعل لكم الصفوة، ولنفسه ما ليس بصفوة، يعني: اختاركم ﴿بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾ لأنهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ يخاطب مشركي مكة.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ﴾ يعني: (ما ذُكر من)[1] العبر والحِكَم والأمثال والأحكام والحجج والإعلام، والتشديدُ للتكثير والتكرير ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي: ليتذكروا ويتعظوا، وقرأ حمزة والكسائي بإسكان الذال وضم الكاف، وكذلك في الفرقان ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ تصريفنا وتذكيرنا ﴿إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ ذهابًا وتباعدًا عن الحق.

﴿قُل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ قرأ حفص وابن كثير «يقولون» بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء ﴿إِذًا لَّابْتَغَوْا﴾ لطلبوا، يعني: الآلهة ﴿إِلَىٰ ذِى الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ بالمبالغة والقهر ليزيلوا ملكه، كفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض، وقيل: معناه: لطلبوا إلى ذي العرش سبيلًا بالتقرب إليه.

قال قتادة: لعرفوا الله وفضله، وابتغوا ما يقربهم إليه.

والأول أصح، ثم نزه نفسه، فقال عزَّ مِن قائل:

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي «تقولون» بالتاء، والآخرون بالياء ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وحفص ويعقوب «تسبح» بالتاء، وقرأ الآخرون بالياء؛ للحائل بين الفعل والتأنيث.

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ رُوي عن ابن عباس أنه قال: وإن من شيء حي إلا يسبح بحمده.

وقال قتادة: يعني: الحيوانات والناميات.

وقال عكرمة: الشجرة تسبِّح، والأسطوانة لا تسبح.

---

(١) ساقط من «ب».

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾

وعن المقدام بن معد يكرب قال: إن التراب يسبح ما لم يبتلّ، فإذا ابتلّ ترك التسبيح، وإن الخرزة تسبح ما لم تُرْفَعْ من موضعها، فإذا رفعت تركت التسبيح، وإن الورقة لتسبح ما دامت على الشجرة، فإذا سقطت تركت التسبيح، وإن الثوب ليسبح ما دام جديدًا، فإذا وسخ ترك التسبيح، وإن الماء يسبح ما دام جاريًا، فإذا ركد ترك التسبيح، وإن الوحش والطير تسبح إذا صاحت، فإذا سكنت تركت التسبيح.

وقال إبراهيم النخعي: وإن من شيء جادٍ وحيٍّ إلا يسبح بحمده حتى صرير الباب ونقيض السقف.

وقال مجاهد: كل الأشياء تسبح لله، حيًّا كان أو ميتًا أو جادًا، وتسبيحها سبحان الله وبحمده.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا محمد بن المثنى، أخبرنا أبو أحمد الزبير، أخبرنا إسرائيل، عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: كنّا نعد الآيات بركة، وأنتم تعدّونها تخويفًا، كنّا مع رسول الله ﷺ في سفر فقلّ الماء فقال: «اطلبوا فضلة من ماء» فجاؤوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء ثم قال: «حيَّ على الطهور المبارك، والبركة من الله»، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل»[1].

وقال بعض أهل المعاني: تسبيح السموات والأرض والجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء ما دلّت بلطيف تركيبها وعجيب هيئتها على خالقها، فيصير ذلك بمنزلة التسبيح منها.

والأول هو المنقول عن السلف[2].

واعلم أن لله تعالى علمًا في الجمادات لا يقف عليه غيره، فينبغي أن يوكل علمه إليه.

﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي: لا تعلمون تسبيح ما عدا من يسبح بلغاتكم وألسنتكم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ يحجب قلوبهم عن فهمه والانتفاع به. قال قتادة: هو الأكنَّة، والمستور بمعنى الساتر، كقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾[مريم: ٦١]، مفعول بمعنى الفاعل.

وقيل: مستور عن أعين الناس فلا يرونه.

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام: (٦/ ٥٨٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٢٩٠).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٤٣ـ ٤٤)، «زاد المسير»: (٥/ ٣٩ـ ٤٠)، ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله رسالة في «قنوت الأشياء كلها لله تعالى» مطبوعة في «مجموعة الرسائل والمسائل».

وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

وفسره بعضهم بالحجاب عن الأعين الظاهرة، كما رُوي عن سعيد بن جبير أنه لما نزلت: «تبت يدا أبي لهب» جاءت امرأة أبي لهب ومعها حجر، والنبي ﷺ مع أبي بكر، فلم ترَهُ، فقالت لأبي بكر: أين صاحبك لقد بلغني أنه هجاني؟ فقال: والله ما ينطق الشعر، ولا يقوله، فرجعت وهي تقول: قد كنت جئت بهذا الحجر لأرضخ رأسه، فقال أبو بكر: ما رأتك يا رسول الله، قال: «لا، لم يزل مَلَكٌ بيني وبينها يسترني»[1].

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ كراهية أن يفقهوه، وقيل: لئلا يفقهوه ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ثقلًا لئلا يسمعوه ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ يعني: إذا قلت: لا إله إلا الله في القرآن وأنت تتلوه ﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ جمع «نافر»، مثل: قاعد وقعود، وجالس وجلوس، أي: نافرين.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ قيل: «به» صلة، أي: يطلبون سماعه ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ وأنت تقرأ القرآن ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ يتناجون في أمرك، وقيل: ذوو نجوى، فبعضهم يقول: هذا مجنون، وبعضهم يقول: كاهن، وبعضهم يقول: ساحر، وبعضهم يقول: شاعر ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يعني: الوليد بن المغيرة وأصحابه: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ مطبوبًا، (وقال مجاهد)[2]: مخدوعًا، وقيل: مصروفًا عن الحق، يقال: ما سحرك عن كذا، أي: ما صرفك؟

وقال أبو عبيدة: أي: رجلًا له سحر، والسحر: الرئة، أي: إنه بشر مثلكم معلل بالطعام والشراب يأكل ويشرب، قال الشاعر:

أُرانا مُوضِعِينَ لحَتْمِ غَيْبٍ ... ونُسْحَرُ بالطَّعامِ وبالشَّرابِ[3]

أي: نغذّى ونعلل.

﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ/ ٱلْأَمْثَالَ﴾ الأشباه، قالوا: شاعر وساحر وكاهن ومجنون ١/٢١٠
﴿فَضَلُّوا۟﴾ فحاروا وحادوا ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ أي: وصولاً إلى طريق الحق.

---

(١) أخرجه أبو يعلى وابن أبي حاتم. وانظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٤٤)، (٤/ ٥٦٥ ـ ٥٦٦)، «مجمع الزوائد»: (٧/ ١٤٤).

(٢) في «أ»: (وقيل).

(٣) البيت لامرىء القيس. وانظر: الطبري: (١٥/ ٩٦)، «لسان العرب»، مادة «سحر»: (٤/ ٣٤٩).

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ ۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا﴾ بعد الموت ﴿وَرُفَٰتًا﴾ قال مجاهد: ترابًا، وقيل: حطامًا، و«الرُّفات»: كل ما تكسَّر وبَلَى من كل شيء، كالفتات والحطام ﴿أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾﴾

﴿۞قُلۡ﴾ لهم يا محمد: ﴿كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾﴾ في الشدة والقوة، وليس هذا بأمر إلزام بل هو أمر تعجيز، أي: استشعروا في قلوبكم أنكم حجارة أو حديد في القوة.

﴿أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾ قيل: السماء والأرض والجبال[1].

وقال مجاهد وعكرمة وأكثر المفسرين: إنه الموت، فإنه ليس في نفس ابن آدم شيء أكبر من الموت، أي: لو كنتم الموت بعينه لأميتنكم ولأبعثنكم.

﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ﴾ من يبعثنا بعد الموت؟ ﴿قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ﴾ خلقكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾ ومن قدر على الإنشاء قدر على الإعادة ﴿فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ﴾ أي: يحرِّكونها إذا قلتَ لهم ذلك مستهزئين بها ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ﴾؟ أي: البعث والقيامة ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾﴾ أي: هو قريب؛ لأن عسى من الله واجب، نظيره قوله تعالى: «وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا» [الأحزاب: ٦٣].

﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ﴾ من قبوركم إلى موقف القيامة ﴿فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾ قال ابن عباس: بأمره، وقال قتادة: بطاعته، وقيل: مقرين بأنه خالقهم وباعثهم، ويحمدونه حين لا ينفعهم الحمد، وقيل: هذا خطاب مع المؤمنين، فإنهم يبعثون حامدين ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ﴾ في الدنيا وفي القبور ﴿إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾﴾ لأنَّ الإنسان لو مكث أُلوفًا من السنين في الدنيا وفي القبر عدَّ ذلك قليلًا في مدة القيامة والخلود، قال قتادة: يستحقرون مدة الدنيا في جنب القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ قال الكلبي: كان المشركون يؤذون المسلمين فشكوا إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: «وَقُل لِّعِبَادِي» المؤمنين «يَقُولُواْ» للكافرين «ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ»، ولا يكافؤوهم

---

(١) ساقط من «أ». (٢) في «ب»: (قتادة).

﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿٥٥﴾﴾

بسفههم، قال الحسن: يقول له: يهديك الله، وكان هذا قبل الإذن في الجهاد والقتال(١).

وقيل: نزلت في عمر بن الخطاب شتمه بعض الكفار فأمره الله بالعفو(٢).

وقيل: أمر الله المؤمنين بأن يقولوا ويفعلوا التي هي أحسن، أي: الخلة التي هي أحسن.

وقيل: «الأحسن» كلمة الإخلاص: لا إله إلا الله.

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أي: يفسد ويُلقي العداوة بينهم ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿٥٣﴾﴾ ظاهر العداوة.

﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ﴾ يوفقكم فتؤمنوا ﴿أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ يميتكم على الشرك فتعذبوا، قاله ابن جريج.

وقال الكلبي: إن يشأ يرحمكم فينجيكم من أهل مكة، وإن يشأ يعذبكم فيسلطهم عليكم.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿٥٤﴾﴾ حفيظًا وكفيلًا، قيل: نسختها آية القتال.

﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي: ربك العالم بمن في السموات والأرض، فجعلهم مختلفين في صورهم وأخلاقهم وأحوالهم ومللهم.

﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ﴾ قيل: جعل أهل السموات والأرض مختلفين كما فضل بعض النبيين على بعض.

قال قتادة في هذه الآية: اتخذ الله إبراهيم خليلًا، وكلَّم موسى تكليمًا، وقال لعيسى: كن فيكون(٣)، وآتى سليمان ملكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده، وآتى داود زَبُورًا كما قال: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿٥٥﴾﴾ والزبور: كتاب علمه الله داود، يشتمل على مائة وخمسين سورة، كلها دعاء وتمجيد وثناء على الله عزَّ وجلَّ، وليس فيها حرام ولا حلال ولا فرائض ولا حدود.

---

(١) إشارة إلى أنها نسخت بآية القتال أو السيف، وقد سبق في أكثر من موضع إلى أن بعض العلماء أسرفوا في نسخ كثير من الآيات بآية السيف، والحق أنه لا نسخ في هذا كله.

(٢) انظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٣٣.

(٣) في «ب»: (فكان).

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾

معناه: إنكم لم تنكروا تفضيل النبيين فكيف تنكرون فضل النبي ﷺ وإعطاءه القرآن؟ وهذا خطاب مع من يقر بتفضيل الأنبياء عليهم السلام من أهل الكتاب وغيرهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ وذلك أن المشركين أصابهم قحط شديد حتى أكلوا الكلاب[1] والجِيَف، فاستغاثوا بالنبي ﷺ ليدعو لهم، قال الله تعالى: ﴿قُلِ﴾ للمشركين: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أنها آلهة ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ﴾ القحط والجوع ﴿عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ إلى غيركم، أو تحويل الحال من العسر إلى اليسر.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ يعني: الذين يدعونهم المشركون آلهة يعبدونهم.

قال ابن عباس ومجاهد: وهم عيسى وأمه، وعزير، والملائكة، والشمس، والقمر، والنجوم، «يبتغون»، أي: يطلبون إلى ربهم «الوسيلة»، أي: القُرْبة، وقيل: الوسيلة: الدرجة العليا، أي: يتضرعون إلى الله في طلب الدرجة العليا، وقيل: الوسيلة: كلُّ ما يتقرب به إلى الله تعالى.

وقوله: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ معناه: ينظرون أيهم أقرب إلى الله فيتوسلون به، وقال الزَّجَّاج: أيهم أقرب يبتغي الوسيلة إلى الله تعالى ويتقرب إليه بالعمل الصالح ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾ جنته ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ أي: يطلب منه الحذر.

وقال عبد الله بن مسعود: نزلت هذه الآية في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرًا من الجن فأسلم الجنيُّون ولم يعلم الإنس الذين كانوا يعبدونهم بإسلامهم، فتمسكوا بعبادتهم فعيرَّهم الله وأنزل هذه الآية[2].

وقرأ ابن مسعود «أولئك الذين تدعون» بالتاء.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ وما من قرية ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: مخربوها ومهلكو أهلها ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بأنواع العذاب إذا كفروا وعصوا، وقال مقاتل وغيره: مهلكوها في حق المؤمنين بالإماتة، ومعذِّبوها في حق الكفار بأنواع العذاب.

---

(١) في «ب»: (الميتة).

(٢) انظر: «صحيح البخاري»، كتاب التفسير، باب ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾: (٨/٣٩٨)، «الدر المنثور»: (٥/٣٠٥).

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾

قال عبد الله بن مسعود: إذا ظهر الزنا والربا في قرية أذن الله في هلاكها[(١)].

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿مَسۡطُورٗا ٥٨﴾ مكتوبًا.

قال عبادة بن الصامت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال: اكتب، فقال: ما أكتب؟ قال: القدر، وما كان، وما هو كائن إلى الأبد»[(٢)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ قال ابن عباس: سأل أهل مكة (رسول الله ﷺ)[(٣)] أن يجعل لهم الصفا ذهبًا وأن يُنَحِّيَ الجبال عنهم فيزرعوا، فأوحى الله تعالى إلى

٢١٠/ب رسوله ﷺ: إن شئت أن أستأني بهم فعلتُ، وإن شئتَ أن أُوتيهم ما سألوا / فعلتُ، فإن لم يؤمنوا أهلكتهم كما أهلكتُ مَنْ كان قبلهم (من الأمم)[(٤)] فقال النبي ﷺ: «لا بل تستأني بهم، فأنزل الله عزَّ وجلَّ[(٥)]:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ التي سألها كفار قومك ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ فأهلكناهم، فإن لم يؤمن قومك بعد إرسال الآيات أهلكتهم؛ لأن من سنتنا في الأمم إذا سألوا الآيات، ثم لم يؤمنوا بعد إتيانها، أن نهلكهم ولا نمهلهم، وقد حكمنا بإمهال هذه الأمة في العذاب، فقال جلَّ ذكره: «بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ»[القمر: ٤٦]، ثم قال:

﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ﴾ مضيئة بينة ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾ أي: جحدوا بها أنها من عند الله، كما قال: «بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ»[الأعراف: ٩]، أي: يجحدون، وقيل: ظلموا أنفسهم بتكذيبها يريد فعاجلناهم بالعقوبة.

﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: العبر والدلالات ﴿إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾ للعباد ليؤمنوا.

---

(١) أخرجه الطبري: (١٥/ ١٠٧).

(٢) أخرجه أبو داود في السنة، باب في القدر: (٧/ ٦٩)، والترمذي في القدر، باب ما جاء في الرضا بالقضاء: (٦/ ٣٦٨-٣٦٩)، وقال: (هذا حديث غريب)، وفي تفسير سورة «نٓ»: (٩/ ٢٣٣)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح غريب)، وأخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (٥/ ٣١٧)، والطيالسي في «مسنده»: ص٧٩، وفيه عند الطيالسي: عبد الواحد بن سليم، وهو ضعيف. وله طرق يتقوى بها، وصححه الألباني في تعليقه على «المشكاة»: (١/ ٣٤).

(٣) ساقط من «أ».

(٤) ساقط من «ب».

(٥) أخرجه الإمام أحمد في «المسند»: (١/ ٢٥٨)، والحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٣٦٢)، والطبري: (١٥/ ١٠٨)، والواحدي في «أسباب النزول»: ص٣٣٣-٣٣٤)، والنسائي في «تفسيره»: (١/ ٦٥٦)، وزاد السيوطي نسبته للبزار وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» والضياء في «المختارة»، وقال الهيثمي: (رجاله رجال الصحيح)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على «المسند» برقم٢٣٣٣. انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٣٠٦-٣٠٧)، «مجمع الزوائد»: (٧/ ٥٠)، ابن كثير: (٣/ ٤٨).

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ٦٠﴾

قال قتادة: إن الله تعالى يُخوِّف الناس[1] بما شاء من آياته لعلَّهم يرجعون.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أي: هم في قبضته، لا يقدرون على الخروج من مشيئته، فهو حافظك ومانعك منهم، فلا تهبهم وامضِ لما أمرك به من تبليغ الرسالة، كما قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧].

﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ فالأكثرون على أن المراد منه ما رأى النبي ﷺ (ليلة المعراج من العجائب والآيات.

قال ابن عباس: هي رؤيا عين أُريها النبي ﷺ)[2]، وهو قول سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة وابن جريج والأكثرين[3]، والعرب تقول: رأيت بعيني رؤية ورؤيا، فلما ذكرها رسول الله ﷺ للناس أنكر بعضهم ذلك وكذبوا، فكان فتنة للناس.

وقال قوم: (أسري بروحه دون بدنه[4]).

وقال بعضهم: كان له معراجان: معراج رؤية بالعين، ومعراج رؤيا بالقلب.

وقال قوم)[2]: أراد بهذه الرؤيا ما رأى ﷺ عام الحديبية أنه دخل مكة هو وأصحابه، فعجل السير إلى مكة قبل الأجل فصدَّه المشركون، فرجع إلى المدينة، وكان رجوعه في ذلك العام بعد ما أخبر أنه يدخلها فتنة لبعضهم، حتى دخلها في العام المقبل، فأنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾[الفتح: ٢٧][5].

﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ يعني: شجرة الزقوم، مجازه: والشجرة الملعونة المذكورة في القرآن، والعرب تقول لكل طعام كريه: طعام ملعون، وقيل: (معناه: الملعون)[6] أكلها، ونصب الشجرة عطفًا على الرؤيا، أي: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة إلا فتنة للناس، فكانت الفتنة في الرؤيا ما ذكرنا.

---

(١) في «ب»: (العباد).

(٢) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٣) أخرجه البخاري عن ابن عباس، في تفسير سورة الإسراء: (٨/ ٣٩٨).

(٤) راجع فيما سبق، من تفسير السورة: ص٦٥٠، تعليق (١).

(٥) انظر هذه الأقوال في: تأويل الرؤيا في «الدر المنثور»: (٥/ ٣٠٩ـ٣١٠)، «زاد المسير»: (٥/ ٥٣ـ٥٤).

(٦) ساقط من «أ».

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾

والفتنة في الشجرة الملعونة من وجهين، أحدها: أن أبا جهل قال: إن ابن أبي كبشة يوعدكم بنار تحرق الحجارة، ثم يزعم أنه ينبت فيها شجرة، وتعلمون أن النار تحرق الشجرة.

والثاني أن عبد الله بن الزبعري قال: إن محمدًا يخوّفنا بالزقوم ولا نعرف الزقوم إلا الزبد والتمر، وقال أبو جهل: يا جارية تعالي فزقمينا فأتت بالتمر والزبد، فقال: يا قوم تزقموا[1] فإن هذا ما يخوّفكم به محمد، فوصفها الله تعالى في الصافات[2].

وقيل: الشجرة الملعونة هي: التي تلتوي على الشجر فتجففه، يعني الكشوث[3].

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويف ﴿إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ أي: تمردًا وعتوًا عظيمًا.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ أي: خلقته من طين أنا جئتُ به، وذلك ما رُوي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: أن الله تعالى بعث إبليس حتى أخذ كفًّا من تراب الأرض من عذبها وملحها، فخلق منه آدم، فمَنْ خلقَه من العذب فهو سعيد، وإن كان ابن كافرين، ومَنْ خَلَقَهُ من الملح فهو شقي وإن كان ابن نبيين[4].

﴿قَالَ﴾ يعني: إبليس: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ أي: أخبرني، والكاف لتأكيد المخاطبة ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ أي: فضلته عليَّ ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾ أمهلتني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ أي: لأستأصلنَّهم بالإضلال، يقال: احتنك الجراد الزرع إذا أكله كله، وقيل: هو من قول العرب حنك الدابة يحنكها: إذا شدَّ في حنكها الأسفل حبلًا يقودها، أي: لأقودنَّهم كيف شئت، وقيل: لأستولَيَنَّ عليهم بالإغواء ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ يعني: المعصومين الذين استثناهم الله عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[الحجر: ٤٢].

﴿قَالَ﴾ الله: ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾ أي: جزاؤك وجزاء أتباعك ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾ وافرًا مكملًا، يقال: وفرته أوفره وفرًا.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) انظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٣٤، «الدر المنثور»: (٥/ ٣١٠ـ٣١١)، «زاد المسير»: (٥/ ٥٥).

(٣) ذكره ابن الجوزي: (٥/ ٥٦) عن ابن عباس أيضًا. وانظر فيما سبق: تفسير الآية (٢٦) من سورة إبراهيم: ص٥٥٨، تعليق (١).

(٤) أخرجه الطبري: (١٥/ ١١٦) عن ابن عباس موقوفًا.

﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤﴾

وقوله: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ﴾ واستخفف واستجهِلْ ﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم﴾ أي: من ذرية آدم ﴿بِصَوۡتِكَ﴾ قال ابن عباس وقتادة: بدعائك إلى معصية الله، وكل داع إلى معصية الله (فهو من جند إبليس.

قال الأزهري: معناه: ادعهم دعاء تستفزهم به إلى جانبك، أي: تستخفهم)[١].

وقال مجاهد: بالغناء والمزامير[٢].

﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ قيل: اجمع عليهم مكايدك وخيلك، ويقال: «أجْلَبُوا» و«جَلَبُوا»، إذا صاحوا، يقول: صِحْ بخيلك ورجلك وحُثَّهم عليه بالإغواء.

قال مقاتل: استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم، والخيل: الركبان، والرَّجِل: المشاة.

قال أهل التفسير: كل راكب وماشٍ في معاصي الله فهو من جند إبليس.

وقال مجاهد وقتادة: إن له خيلًا ورَجِلًا من الجن والإنس، وهو كل من يقاتل في المعصية، والرَّجْل والرَّجَّالة والرَّاجلة واحد،، يقال: رَاجِلٌ ورَجْل، مثل: تاجِر وتَجْر، ورَاكِب ورَكْب، وقرأ حفص «وَرَجِلك» بكسر الجيم وهما لغتان.

﴿وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ فالمشاركة في الأموال: كل ما أصيب من حرام، أو أنفق في حرام، هذا قول مجاهد والحسن وسعيد بن جبير.

وقال عطاء: هو الربا، وقال قتادة: هو ما كان المشركون يحرمونه من الأنعام كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وقال الضحاك: هو ما كانوا يذبحونه لآلهتهم[٣].

وأما الشركة في الأولاد: رُوي عن ابن عباس: أنها الموءودة.

وقال مجاهد والضحاك: هم أولاد الزنا.

وقال الحسن وقتادة: هو أنهم هوَّدوا أولادهم، ونصَّروهم ومجَّسُوهم.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٢) وأولى الأقوال في ذلك بالصحة، أن يقال: إن الله تعالى قال لإبليس: واستفزز من ذرية آدم من استطعت أن تستفزّه بصوتك، ولم يخصص من ذلك صوتًا دون صوت، فكل صوت كان دعاء إليه وإلى عمله وإلى طاعته، وخلافًا للدعاء إلى طاعة الله، فهو داخل في معنى صوته الذي قال الله تبارك اسمه له: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ﴾. الطبري: (١٥/ ١١٨).

(٣) فكلُّ ما أطيع الشيطان فيه من مال وعصي الله فيه، كإنفاق المال في حرام أو اكتسابه من حرام، أو ذبح للآلهة أو تسييب أو بَحْرٍ للشيطان وغير ذلك مما كان معصيًا به أو فيه، فقد شارك فاعل ذلك فيه إبليس، فلا وجه لخصوص بعض دون بعض.

وعن ابن عباس رواية أخرى: هو تسميتهم الأولاد عبد الحارث وعبد شمس وعبد العزى وعبد الدار، ونحوها[١]. / ١/٢١١

ورُوي عن جعفر بن محمد أن الشيطان يقعد على ذكر الرجل، فإذا لم يقل: «بسم الله» أصاب معه امرأته، وأنزل في فرجها كما يُنْزِل الرجل.

ورُوي في بعض الأخبار: إن فيكم مغرِّبين، قيل: وما المغرِّبون؟ قال: الذي يشارك فيهم الجن[٢].

ورُوي أن رجلًا قال لابن عباس: إن امرأتي استيقظت وفي فرجها شعلة من نار؟ قال: ذلك من وطء الجن.

وفي الآثار: أن إبليس لما أخرج إلى الأرض، قال: يا رب، أخرجتَني من الجنة لأجل آدم، فَسَلِّطْني عليه وعلى ذريته، قال: أنت مسلَّط، فقال: لا أستطيعه إلا بك فزدني، قال: استفزز من استطعت منهم بصوتك . . . الآية، فقال آدم: يا رب، سلطت إبليس عليَّ وعلى ذريتي وإني لا أستطيعه إلا بك، قال: لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظونه، قال: زدني، قال: الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها، قال: زدني، قال: التوبة معروضة ما دام الروح في الجسد، فقال: زدني، قال: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ. . .﴾ الآية[٣] [الزمر: ٥٣].

وفي الخبر: أن إبليس قال: يا رب، بعثتَ أنبياءَ وأنزلت كتبًا فما قراءتي؟ قال: الشعر، قال: فما كتابي؟ قال: الوشم، قال: ومن رسلي؟ قال: الكهنة، قال: وأين مسكني؟ قال: الحمَّامات، قال: وأين مجلسي؟ قال: الأسواق، قال: أي شيء مطعمي؟ قال: ما لم يُذكر عليه اسمي، قال: ما شرابي؟ قال: كل مسكر، قال: وما حبالي؟ قال: النساء، قال: وما أذاني؟ قال: المزامير[٤].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعِدْهُمْۚ﴾ أي: مَنِّهم الجميل في طاعتك، وقيل: قل لهم: لا جنة ولا نار ولا بعث.

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ والغرور: تزيين الباطل بما يظن أنه حق.

فإن قيل: كيف ذكر الله هذه الأشياء، وهو يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ﴾ [الأعراف: ٢٨]؟

قيل: هذا على طريق التهديد، كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، وكقول القائل: افعل ما شئت فسترى[٥].

---

(١) كل هذه الأوجه في الآية داخل في معناها دون تخصيص لوجه من الوجوه.

(٢) ضعيف، أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ. انظر: «كنز العمال»: (١٦/ ٣٥٤)، «تفسير القرطبي»: (١٠/ ٢٨٩).

(٣) عزاه السيوطي للبيهقي في «الشُّعَب» وابن عساكر بنحوه عن ثابت قال: بلغنا أن إبليس . . . انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٣١٣).

(٤) أخرجه ابن الجوزي في «ذم الهوى»: ص١٥٥ من طريق الطبراني في «المعجم الكبير»، وهو منكر، تفرد به يحيى بن صالح، وثبت منه: «وطعامك ما لم يذكر اسم الله عليه». انظر: «سلسلة الأحاديث الضعيفة»: (٤/ ٦٧).

(٥) انظر: «زاد المسير»: (٥/ ٥٩).

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي
لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ
الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾
أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ
وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ
فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ أي: حافظًا مَنْ يوكل الأمر إليه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ أي: يسوق ويُجري لكم الفُلك ﴿فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ لتطلبوا من رزقه ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ الشدة، وخوف الغرق ﴿فِي الْبَحْرِ ضَلَّ﴾ أي: بطل وسقط ﴿مَن تَدْعُونَ﴾ من الآلهة ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ إلا الله، فلم تجدوا مغيثًا غيره وسواه ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ﴾ أجاب دعاءكم وأنجاكم من هول البحر وأخرجكم ﴿إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عن الإيمان والإخلاص والطاعة، كفرًا منكم لنِعَمِه ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾.

﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ بعد ذلك ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ﴾ يغور بكم ﴿جَانِبَ الْبَرِّ﴾ ناحية البر: وهي الأرض ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: يمطر عليكم حجارةً من السماء كما أمطر على قوم لوط، وقال أبو عبيدة والقتيبي: الحاصب الريح التي ترمي بالحصباء: وهي الحصا الصغار ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾ قال قتادة: مانعًا.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ يعني: في البحر ﴿تَارَةً﴾ مرة ﴿أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ قال ابن عباس: أي: عاصفًا، وهي الريح الشديدة.

وقال أبو عبيدة: هي الريح التي تقصف كل شيء، أي: تدقه وتحطمه.

وقال القتيبي: هي التي تقصف الشجر، أي: تكسره.

﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ ناصرًا ولا ثائرًا، و«تَبِيعٌ» بمعنى تابع، أي: تابعًا مطالبًا بالثأر، وقيل: من يتبعنا بالإنكار.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو «أن نخسف، ونرسل، ونعيدكم، فنرسل، فنغرقكم»، بالنون فيهن، لقوله «علينا»، وقرأ الآخرون بالياء لقوله: «إلا إيَّاه»، وقرأ أبو جعفر ويعقوب: «فتغرقكم» بالتاء، يعني: الريح.

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ رُوي عن ابن عباس أنه قال: هو أنهم يأكلون بالأيدي، وغير الآدمي يأكل بفيه من الأرض، ورُوي عنه أنه قال: بالعقل.

وقال الضحاك: بالنطق، وقال عطاء: بتعديل القامة وامتدادها، والدواب منكبّة على وجوهها، وقيل: بحسن الصورة، وقيل: الرجال باللِّحى، والنساء بالذوائب، وقيل: بأن سخر لهم سائر الأشياء، وقيل: بأن منهم خير أُمة أُخرجت للناس[1].

﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: حملناهم في البر على الدواب، وفي البحر في السفن.

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يعني: لذيذ المطاعم والمشارب، قال مقاتل: السمن والزُّبد والتمر والحلوى، وجعل رزق غيرهم ما لا يخفى.

﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ وظاهر الآية: أنه فضلهم على كثير ممن خلقهم لا على الكل، وقال قوم: فُضِّلوا على جميع الخلق إلا على الملائكة، وقال الكلبي: فضلوا على الخلائق كلهم إلا على طائفة من الملائكة: جبريل وميكائيل وإسرافيل ومَلَك الموت، وأشباههم.

وفي تفضيل الملائكة على البشر اختلاف، فقال قوم: فضلوا على جميع الخلق وعلى الملائكة كلهم، وقد يوضع الأكثر موضع الكل كما قال تعالى: «هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ»، إلى قوله: «وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ»[الشعراء: ٢٢١-٢٢٣]، أي: كلهم.

وفي الحديث عن جابر يرفعه، قال: «لما خلق الله آدم وذريته، قالت الملائكة: يا ربِّ، خلقتهم يأكلون ويشربون وينكحون، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة، فقال تعالى: لا أجعل مَنْ خلقتُه بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له: كُنْ فكان»[2].

---

(١) انظر: «زاد المسير»: (٥/ ٦٣)، «تفسير القرطبي»: (١٠/ ٢٩٤)، ورجح القرطبي أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، وبه يُعْرَف الله، ويفهم كلامه، ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله، إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بعث الرسل وأُنزلت الكتب، فمثال الشرع: الشمس، ومثال العقل: العين، فإذا فتحت وكانت سليمة رأتِ الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء، وما تقدم من الأقوال بعضه أقوى من بعض، وقد جعل الله في بعض الحيوان خصالاً يفضل بها ابن آدم أيضًا، كجري الفرس وسمعه وإبصاره، وقوة الفيل، وشجاعة الأسد، وكرم الديك، وإنما التكريم والتفضيل بالعقل كما بيناه. والله أعلم.

(٢) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات»: (٢/ ١٢٢)، والطبراني في «مسند الشاميين»، وأخرجه أيضًا في «الأوسط» من طريق محمد بن ماهان حدثنا طلحة بن زيد عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: «... فكان»، قال: لم يروه عن صفوان إلا طلحة وأبو غسان، تفرد به طلحة بن ماهان، وعن أبي غسان حجاج الأعور، وأخرجه من طريق حجاج في «المعجم الكبير»=

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١)﴾

والأَوْلى أن يقال: عوامُّ المؤمنين أفضل من عوامِّ الملائكة، وخواصُّ المؤمنين أفضل من خواصِّ الملائكة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾[البينة: ٧].

ورُوي عن أبي هريرة أنه قال: «المؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده»(١).

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ قال مجاهد وقتادة: بنبيِّهم، وقال أبو صالح والضحاك: بكتابهم الذي أُنزل عليهم، وقال الحسن وأبو العالية: بأعمالهم، وقال قتادة أيضًا: بكتابهم الذي فيه أعمالهم، بدليل سياق الآية.

﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ ويسمى الكتاب إمامًا كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[يس: ١٢].

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: بإمام زمانهم الذي دعاهم في الدنيا إلى ضلالة أو هدى، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[الأنبياء: ٧٣]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾[القصص: ٤١].

وقيل: بمعبودهم، وعن سعيد بن المسيب قال: كل قوم يجتمعون إلى رئيسهم في الخير والشر.

وقال محمد بن كعب: ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾، قيل: يعني: بأمهاتهم، وفيه ثلاثة أوجه من الحكمة أحدها: لأجل عيسى عليه السلام، والثاني: لشرف الحسن والحسين، والثالث: لئلا يفتضح أولاد الزنا(٢).

= ورجاله ثقات، وله شاهد عند عبد الرزاق في «تفسيره» عن معمر عن زيد بن أسلم قال: (... موقوفًا عليه)، وقال الدارقطني في «العلل»: روى عبد المجيد بن أبي داود عن معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن ابن عمر، فذكر نحوه، قال: (ورواه شريح بن يونس عن عبد المجيد موقوفًا. وهو أصح. ورواه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» وقال: لا يصح. وذكره الخطيب في «مشكاة المصابيح»: (٣/ ١٥٩٧)، وعزاه للديلمي في «مسند الفردوس» والبيهقي في «شعب الإيمان». انظر: «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٢٧٦ ـ ٢٧٨)، «الكافي الشاف»: ص١٠٠.

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» من رواية حماد بن سلمة عن أبي المهزِّم عن أبي هريرة موقوفًا، وأخرجه ابن ماجه من هذه الطريق مرفوعًا: (٢/ ١٣٠١)، وأبو المهزِّم ضعيف، ورواه ابن حبان في «الضعفاء» وأعلَّه بأبي المهزِّم. انظر: «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٢٧٨)، «الكافي الشاف»: ص١٠٠.

(٢) انظر هذه الأقوال وأقوالاً أخرى في: «تفسير القرطبي»: (١٠/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧)، الطبري: (١٥/ ١٢٦ ـ ١٢٧)، «زاد المسير»: (٥/ ٦٤ ـ ٦٥)، «الدر المنثور»: (٥/ ٣١٦ ـ ٣١٧).

وقال الطبري: (وأولى الأقوال عندنا بالصواب قول من قال: معنى ذلك: يوم ندعو كل أناس بإمامهم الذي كانوا يقتدون به، ويأتمون به في الدنيا؛ لأن الأغلب من استعمال العرب «الإمام» فيما ائتمَّ واقتدى به، وتوجيه معاني كلام الله إلى الأشهر أولى، ما لم تثبت حجة بخلافه يجب التسليم لها).

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴿٧٣﴾﴾

٢١١/ب ﴿فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ﴿٧١﴾﴾ أي: لا ينقص من حقهم قدر فتيل[(١)].

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ﴾ اختلفوا في هذه الإشارة، فقال قوم: هي راجعة إلى النِّعَم التي عدَّدها الله تعالى في هذه الآيات من قوله: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ﴾، إلى قوله: ﴿تَفۡضِيلٗا﴾، يقول: ومن كان منكم في هذه النِّعم التي قد عاين أعمى ﴿فَهُوَ فِي﴾ أمر ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ التي لم يعاينْ ولم يرَ ﴿أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٧٢﴾﴾ يروى هذا عن ابن عباس[(٢)].

وقال الآخرون: هي راجعة إلى الدنيا، يقول: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ﴾ القلب عن رؤية قدرة الله وآياته ورؤية الحق، ﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾، أي: أشد عمًى، ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾، أي: أخطأ طريقًا[(٣)].

وقيل: من كان في هذه الدنيا أعمى عن الاعتبار، فهو في الآخرة أعمى عن الاعتذار.

وقال الحسن: من كان في هذه الدنيا ضالاً كافرًا، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلًا؛ لأنه في الدنيا تقبل توبته، وفي الآخرة لا تقبل توبته[(٤)].

وأمال بعض القراء هذين الحرفين، وفتحهما بعضهم، وكان أبو عمرو يكسر الأول ويفتح الثاني، فهو في الآخرة أشد عمى؛ لقوله: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ...﴾ الآية، اختلفوا في سبب نزولها:

قال سعيد بن جبير: كان النبي ﷺ يستلم الحجر الأسود فمنعته قريش، وقالوا: (لا تلم)[(٥)] حتى تلم

---

(١) «الفَتِيلُ» المفْتولُ، وسمي ما يكون في شق النَّواة فتيلًا لكونه على هيئة المفتول، وهو ما تفتله بين أصابعك من خيط أو وسخ، ويضرب به المثل في الشيء الحقير، وناقة فتلاء الذراعين: مُحْكمة.
انظر: «مفردات القرآن» للراغب الأصفهاني: ص٣٧١.

(٢) أخرجه الفريابي وابن أبي حاتم. انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٣١٧).

(٣) «الدر المنثور»: (٥/ ٣١٧).

(٤) ورجح الطبري قول من قال: معنى ذلك: ومن كان في هذه الدنيا أعمى عن حجج الله على أنه المنفرد بخلقها وتدبيرها وتصريف ما فيها، فهو في أمر الآخرة التي لم يرها ولم يعاينها، وفيما هو كائن فيها أعمى وأضل سبيلًا، يقول: وأضل طريقًا منه في أمر الدنيا التي قد عاينها ورآها... ؛ لأن الله تعالى لم يخصص في قوله: ﴿ومن كان في هذه أعمى﴾ عمى الكافر به عن بعض حججه عليه فيها دون بعض، فيوجه ذلك إلى عماه عن نعمه بما أنعم به عليه من تكريمه بني آدم ...). انظر: «تفسير الطبري»: (١٥/ ١٢٨ـ١٢٩).

(٥) في «ب»: (لا ندعك).

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤﴾

بآلهتنا وتمسّها، فحدث نفسه: ما عليَّ أن أفعل ذلك، والله تعالى يعلم أني لها كاره، بعد أن يدعوني حتى أستلم الحجر الأسود[١].

وقيل: طلبوا منه أن يمس آلهتهم حتى يُسْلِموا ويتبعوه فحدَّث نفسه بذلك، فأنزل الله هذه الآية[٢].

قال ابن عباس: فدم وفد ثقيف على النبي ﷺ فقالوا: نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال، قال: وما هنَّ؟ قالوا: أن لا ننحني ـ أي: في الصلاة ـ ولا نكسر أصنامنا بأيدينا، وأن تمتعنا باللات سنة من غير أن نعبدها، فقال النبي ﷺ: «لا خير في دين لا ركوع فيه ولا سجود، وأما أن تكسروا أصنامكم بأيديكم فذاك لكم، وأما الطاغية ـ يعني: اللات والعزى ـ فإني غير ممتعكم بها»، فقالوا: يا رسول الله، إنا نحب أن تسمع العرب أنك أعطيتنا ما لم تعطِ غيرنا، فإن خشيت أن تقول العرب أعطيتهم ما لم تعطنا، فقل: الله أمرني بذلك؟ فسكت رسول الله ﷺ، فطمع القوم في سكوته أن يعطيهم ذلك، فأنزل الله عزَّ وجلَّ هذه الآية[٣]: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ ليصرفونك ﴿عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ ﴿لِتَفْتَرِىَ﴾ لتختلق ﴿عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا﴾ لو فعلت ما دَعَوْكَ إليه ﴿لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣﴾ أي: وَالوكَ وصَافَوْكَ.

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ على الحق بعصمتنا ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ﴾ أي: تميل ﴿إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤﴾ أي: قريبًا من الفعل.

فإن قيل: كان النبي ﷺ معصومًا، فكيف يجوز أن يقرب مما طلبوه، وما طلبوه كفر؟

قيل: كان ذلك خاطرَ قلبٍ، ولم يكن عزمًا وقد غفر[٤] الله عزَّ وجلَّ عن حديث النفس.

قال قتادة: كان النبي ﷺ يقول بعد ذلك: «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين»[٥].

---

(١) أخرجه الطبري: (١٥/ ١٣٠)، وابن أبي حاتم. «الدر المنثور»: (١٥/ ٣١٨).
وذكره الواحدي في «أسباب النزول»: ص٣٣٥، وانظر: القرطبي: (١٠/ ٢٩٩)، قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ٦٧ ـ ٦٨): (وهذا باطل، لا يجوز أن يُظَنَّ برسول الله ﷺ، ولا ما ذُكِر عن عطية من أنه همَّ أن يُنْظِرَهم سنة، وكل ذلك محال في حقه وفي حق الصحابة أنهم رووا ذلك).

(٢) عزاه السيوطي لابن أبي حاتم وابن إسحاق وابن مردويه عن ابن عباس، وعن جابر من طريق الكلبي، وهو ضعيف. انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٣١٨)، وراجع التعليق السابق.

(٣) قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» ص١٠٠: (لم أجده، وذكره الثعلبي عن ابن عباس من غير سند)، وذكره الواحدي أيضًا في «أسباب النزول»: ص٣٣٥، وهذه الروايات كلها أعرض عنها الحافظ ابن كثير رحمه الله ولم يذكرها في «تفسيره».

(٤) في «ب»: (عفا).

(٥) قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» ص١٠١: (لم أجده، وذكره الثعلبي عن قتادة مرسلًا)، وقد تقدم أن هذه العبارة كافية في الحكم عليه بالوضع، وعدم اعتداد المصنف رحمه الله بالجواب وترجيحه غيره يدل على ضعفه عنده، وقارن بالطبري: (١٥/ ١٣١).

﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾

والجواب الصحيح هو: أن الله تعالى قال: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾، وقد ثبَّته الله، ولم يركن، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[النساء: ٨٣]، (وقد تفضل فلم يتَّبعوا)(١).

﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي: لو فعلت ذلك لأذقناك ضعف عذاب الحياة، وضعف عذاب الممات، يعني: أضعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة.

وقيل: «الضعف»: هو العذاب، سُمي ضعفًا لتضاعف الألم فيه.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ أي: ناصرًا يمنعك من عذابنا.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ اختلفوا في معنى الآية، فقال بعضهم: هذه الآية مدنية، قال الكلبي: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كره اليهود مقامه بالمدينة حسدًا منهم، فأتوه وقالوا: يا أبا القاسم لقد علمت ما هذه بأرض الأنبياء، فإنَّ أرض الأنبياء الشام، (وهي الأرض المقدسة، وكان بها إبراهيم والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، فإن كنت نبيًّا مثلهم فأتِ الشام)(٢)، وإنما يمنعك من الخروج إليها مخافتك الروم، وإن الله سيمنعك من الروم إن كنت رسوله، فعسكر النبي ﷺ على ثلاثة أميال من المدينة، وفي رواية: إلى ذي الحُليفة حتى يجتمع إليه أصحابه ويخرج، فأنزل الله هذه الآية، و«الأرض» هاهنا هي المدينة(٣).

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٢) ساقط من «أ».

(٣) قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» ص١٠١: (لم أجده، وذكره السهيلي في «الروض الأُنف» عن عبد المجيد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم . . .).

وقال الحافظ ابن كثير (٣/ ٥٤): قيل نزلت في اليهود إذ أشاروا على رسول الله ﷺ بسكنى الشام بلاد الأنبياء وترك سكنى المدينة.

وهذا القول ضعيف؛ لأن هذه الآية مكية، وسكنى المدينة بعد ذلك، وقيل: إنها نزلت بتبوك، وفي صحته نظر.

وروى البيهقي عن الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار العطاردي، عن يونس بن بكير عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم . . . ـ وساق القصة ـ ثم قال: (وفي هذا الإسناد نظر، والأظهر أن هذا ليس بصحيح فإن النبي ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود، وإنما غزاها امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار . . .﴾. وانظر: «تفسير القرطبي»: (١٠/ ٣٠١)، «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٣٦، هذا، وقد رجح المصنف رحمه الله الرواية الآتية على هذه الرواية.

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾

وقال مجاهد وقتادة: «الأرض» أرض مكة، والآية مكية، هَمَّ المشركون أن يُخرجوه منها، فكفَّهم الله عنه حتى أمره بالهجرة، فخرج بنفسه، وهذا أليق بالآية؛ لأن ما قبلها خبر عن أهل مكة والسورة مكية[1].

وقيل: هم الكفار كلهم، أرادوا أن يستفزوه من أرض العرب باجتماعهم وتظاهرهم عليه، فمنع الله عزَّ وجلَّ رسوله ﷺ ولم ينالوا منه ما أمَّلوا، والاستفزاز هو: الإزعاج بسرعة.

﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ﴾ أي: بعدك، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص ويعقوب «خلافك» اعتبارًا بقوله تعالى: «﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾»[التوبة: ٨١]، ومعناهما واحد[2] ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ أي: لا يلبثون بعدك إلا قليلًا حتى يهلكوا، فعلى هذا القول الأول: مدة حياتهم، وعلى الثاني: ما بين خروج النبي ﷺ إلى المدينة إلى أن قتلوا ببدر.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ أي: كسُنَّتنا، فانتصب بحذف الكاف، وسنة الله في الرسل إذا كذبتهم الأمم أن لا يعذبهم ما دام نبيهم بين أظهرهم، فإذا خرج نبيهم من بين أظهرهم عذبهم.

﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ أي: تبديلًا.

قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ اختلفوا في الدلوك: رُوي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: الدلوك هو الغروب، وهو قول إبراهيم النخعي ومقاتل بن حيان والضحاك والسدي، وقال ابن عباس وابن عمر وجابر: هو زوال الشمس، وهو قول عطاء وقتادة ومجاهد والحسن وأكثر التابعين.

ومعنى اللفظ يجمعهما؛ لأن أصل الدلوك الميل، والشمس تميل إذا زالت وإذا غربت.

والحمل على الزوال أولى القولين لكثرة القائلين به؛ ولأنا إذا حملناه عليه كانت الآية جامعة لمواقيت الصلاة كلها؛ «فدلوك الشمس»: يتناول صلاة الظهر والعصر، و«إلى غسق الليل»: يتناول المغرب والعشاء، و«قرآن الفجر»: هو صلاة الصبح[3].

---

(١) وهو ما رجحه الطبري في «تفسيره»: (١٥/ ١٣٣)، والقرطبي: (١٠/ ٣٠١)، وانظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٣٦.

(٢) أي معنى: «خلافك» و«خلفك» وبالثانية قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو عن عاصم. وسياق المصنف يوحي أن في الأصل سقطًا، وليس كذلك؛ لأنها المثبت في النسخة الخطية القراءة الثانية «خلفك». وانظر: «زاد المسير»: (٥/ ٧٠).

(٣) انظر تفصيل ذلك في: «تفسير القرطبي»: (١٠/ ٣٠٣ ـ ٣٠٧)، «زاد المسير»: (٥/ ٧٢ ـ ٧٤)، «أحكام القرآن» للجصاص: (٥/ ٣١ ـ ٣٢)، «أحكام القرآن» لابن العربي: (٣/ ١٢١٩، وما بعدها).

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ أي: ظهور ظلمته، وقال ابن عباس: بدُوّ الليل، وقال قتادة: وقت صلاة المغرب، وقال مجاهد: غروب الشمس.

﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ يعني: صلاة الفجر، سمَّى صلاة الفجر قرآنًا؛ لأنها لا تجوز إلا بقرآن، وانتصاب القرآن من وجهين، أحدهما: أنه عطف على الصلاة، أي: وأقم قرآن الفجر، قاله الفرَّاء، وقال أهل البصرة: على الإغراء، أي: وعليك قرآن الفجر.

﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ أي: يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، عن الزهري، أخبرني سعيد بن المسيب وأبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تَفْضُلُ صلاةُ الجميع على صلاة أحدكم وحدَه بخمسٍ وعشرين جزءًا، وتجتمعُ ملائكةُ الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر»، ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: «﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾»[1].

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ أي: قم بعد نومك، والتهجد لا يكون إلا بعد النوم، يقال: تهجد إذا قام بعدما نام، وهجد إذا نام.

١/٢١٢ والمراد من الآية: قيام الليل للصلاة. وكانت صلاة الليل / فريضة على النبي ﷺ في الابتداء، وعلى الأمة، لقوله تعالى: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾» [المزمل: ١]، ثم نزل التخفيف فصار الوجوب منسوخًا في حق الأمة بالصلوات الخمس، وبقي الاستحباب، قال الله تعالى: «﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾» [المزمل: ٢٠]، وبقي الوجوب في حق النبي ﷺ[2].

ورُوي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ قال: «ثلاث هنَّ عليَّ فريضة، وهنَّ سنة لكم: الوتر، والسواك[3]، وقيام الليل»[4].

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان، باب فضل صلاة الفجر في جماعة: (٢/ ١٣٧).

(٢) قال القرطبي (١٠/ ٣٠٨ـ٣٠٩): (وفي هذا بُعْدٌ لوجهين:

أحدهما: تسمية الفرض بالنفل، وذلك مجاز لا حقيقة.

الثاني: قوله ﷺ: «خمس صلوات فرضهن الله على العباد»، وقوله تعالى ـ في حديث المعراج ـ: «هنَّ خمس وهنَّ خمسون، لا يبدل القول لديَّ»، وهذا نص، فكيف يقال افترض عليه صلاة زائدة على الخمس؟ هذا ما لا يصح، وإن كان قد روي عنه عليه الصلاة والسلام: «ثلاث عليَّ فريضة ...».

(٣) ساقط من «ب».

(٤) أخرجه الطبراني في «الأوسط»، وفيه موسى بن عبد الرحمن الصنعاني، وهو كذاب. انظر: «مجمع الزوائد»: (٨/ ٢٦٤). =

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي: زيادة لك، يريد: فضيلة زائدة، على سائر الفرائض، فرضها الله عليك.

وذهب قوم إلى أن الوجوب صار منسوخًا في حقه كما في حق الأمة، فصارت نافلة، وهو قول مجاهد وقتادة؛ لأن الله تعالى قال: «نافلة لك»، ولم يقل عليك[1].

فإن قيل: فما معنى التخصيص وهي زيادة في حق كافة المسلمين كما في حقه ﷺ؟

قيل: التخصيص من حيث إن نوافل العباد كفارة لذنوبهم، والنبيُّ ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكانت نوافله لا تعمل في كفارة الذنوب فتبقى له زيادة في رفع الدرجات.

أخبرنا أبو محمد عبد الله بن عبد الصمد الجوزجاني، أخبرنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي، أخبرنا أبو سعيد الهيثم بن كليب، حدثنا أبو عيسى الترمذي، حدثنا قتيبة وبشر بن معاذ قالا: حدثنا أبو عوانة، عن زياد بن علاقة، عن المغيرة بن شعبة قال: قام النبي ﷺ حتى انتفخت قدماه، فقيل له: أتتكلَّفُ هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»[2].

أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، عن مالك، عن عبد الله بن أبي بكرة، عن أبيه، عن عبد الله بن قيس بن مخرمة أنه أخبره عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: لأرْمُقَنَّ صلاة رسول الله ﷺ الليلة[3]، فتوسَّدْتُ عتبته أو فسطاطه، فقام فصلى ركعتين خفيفتين، ثم صلى ركعتين طويلتين، ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما، (ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما، ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما، ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما)[4]، ثم أوتر فذلك ثلاث عشرة ركعة[5].

= وعن ابن عباس أخرجه: الإمام أحمد في «المسند»: (١/ ٢٣١)، والبيهقي في «السنن»: (٢/ ٤٦٨)، والحاكم في «المستدرك»: (١/ ٣٠٠)، قال الذهبي: ما تكلم الحاكم عليه، وهو غريب منكر، ويحيى ضعفه النسائي والدارقطني.

وقال الهيثمي: (أخرجه أحمد والبزار بأسانيد، والطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، وفي أسانيدهما جابر الجعفي وهو ضعيف، وأبو جناب الكلبي مدلس).

وانظر: «نصب الراية»: (٢/ ١١٥)، «تلخيص الحبير»: (٣/ ١١٨)، «فيض القدير»: (٣/ ٣٠٩)، «مجمع الزوائد»: (٨/ ٢٦٤).

(١) راجع: «زاد المسير»: (٥/ ٧٥ـ٧٦)، القرطبي: (١٠/ ٣٠٨ـ٣٠٩)، «أحكام القرآن» للجصاص: (٥/ ٣٢ـ٣٣).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك﴾: (٨/ ٥٨٤)، وفي التهجد، باب قيام النبي ﷺ الليل: (٣/ ١٤)، ومسلم في صفات المنافقين، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة برقم٢٨١٩: (٤/ ٢١٧١)، والمصنف في «شرح السنة»: (٤/ ٤٤)، ورواية الترمذي في «الشمائل المحمدية»: ص١٥٩.

(٣) ساقط من «ب».

(٤) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٥) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه برقم٧٦٥: (١/ ٥٣١ ـ ٥٣٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (٤/ ١٩).

أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، عن مالك، عن سعيد بن أبي سعيد المقبريِّ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه أخبره أنه سأل عائشة ـ رضي الله عنها ـ: كيف كانت صلاةُ رسولِ الله ﷺ في رمضان؟ قال: فقالت: ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضانَ، ولا في غيرِه على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهنَّ وطولهنَّ، ثم يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهنَّ وطولهنَّ، ثم يصلي ثلاثًا، قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، أتنام قبل أن توتر؟ فقال: «يا عائشة إن عينيَّ تنامان ولا ينام قلبي»[1].

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسن الإسفراييني، أخبرنا أبو عوانة يعقوب بن إسحاق، أخبرنا يونس بن هارون بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني يونس وابن أبي ذئب وعمر بن الحارث أن ابن شهاب أخبرهم عن عروة بن الزبير، عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يصلي فيما بين أن يفرغ من صلاة العشاء إلى الفجر إحدى عشرة ركعة، يسلِّم من كل ركعتين، ثم يوتر بواحدة، فيسجد السجدة قدر ما يقرأ أحدكم خمسين آية قبل أن يرفع رأسه، فإذا سكت المؤذن من أذان الفجر، وتبيَّن له الفجر، قام فركع ركعتين خفيفتين، ثم اضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المؤذن للإقامة فيخرج»، وبعضهم يزيد على بعض[2].

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أخبرنا حاجب بن أحمد الطوسي، أخبرنا عبد الرحمن بن منيب، أخبرنا يزيد بن هارون، أخبرنا حميد الطويل، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: ما كنَّا نشاء أن نرى رسول الله ﷺ من الليل مصليًا إلا رأيناه، ولا نشاء أن نراه نائمًا إلا رأيناه، وقال: كان يصوم من الشهر حتى نقول لا يفطر منه شيئًا، ويفطر حتى نقول لا يصوم منه شيئًا[3].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ عسى من الله تعالى واجب؛ لأنه لا يدع أن يعطي عباده أو يفعل بهم ما أطمعهم فيه.

والمقام المحمود هو: مقام الشفاعة لأمته؛ لأنه يحمده فيه الأولون والآخرون.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني، حدثنا حميد بن زنجويه، أخبرنا عبد الله بن يزيد المقري، أخبرنا حياة، عن كعب، عن علقمة، عن عبد الرحمن بن جبير، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد، باب قيام النبي ﷺ في رمضان وغيره: (٣/ ٣٣)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب صلاة الليل برقم٧٣٨: (١/ ٥٠٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (٤/ ٥٠٤).

(٢) أخرجه مسلم في الموضع السابق برقم٧٣٦: (١/ ٥٠٨)، والمصنف في «شرح السنة»: (٤/ ٧).

(٣) أخرجه البخاري في التهجد، باب قيام النبي ﷺ من نومه: (٣/ ٢٢)، وفي مواضع أخرى، وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (٤/ ٤٧).

«إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليَّ، فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سَلُوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا ينبغي أن تكون إلا لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلَّت عليه الشفاعة»[١].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا علي بن عباس، حدثنا سعيد بن أبي حمزة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم ربَّ هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آتِ محمدًا الوسيلةَ والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته، حلَّت له شفاعتي يوم القيامة»[٢].

أخبرنا أبو حامد أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحِيْرِيّ، أخبرنا حاجب بن أحمد الطوسي، أخبرنا عبد الرحيم[٣] بن منيب، أخبرنا يعلى، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبي دعوةً مستجابة، وإني اختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي، وهي نائلة منكم ـ إن شاء الله ـ من مات لا يشرك بالله شيئًا»[٤].

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل قال: وقال حجاج بن منهال: حدثنا همام بن يحيى، حدثنا قتادة، عن أنس أن النبي ﷺ قال: «يُحْبَسُ المؤمنون يومَ القيامة حتى يهتموا بذلك، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا، فيأتون آدم فيقولون: أنت آدم أبو الناس، خلقك الله بيده، وأسكنك جنته، وأسجد لك ملائكته، وعلَّمك أسماء كل شيء، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب وأكْلَه من الشجرة، وقد نهي عنها، ولكنِ ائتوا نوحًا أولَ نبي بعثه الله إلى أهل الأرض.

فيأتون نوحًا فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب، سؤالَه ربَّه بغير علم، ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن، قال: فيأتون إبراهيم، فيقول: لست هناكم، ويذكر ثلاث كذبات كذبهن، ولكن ائتوا موسى عبدًا آتاه الله التوراة وكلَّمه وقرَّبه نَجِيًّا.

قال: فيأتون موسى، فيقول: إني لستُ هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب بقتل النفس[٥]، ولكن ائتوا عيسى، عبدَ الله ورسوله وروح الله وكلمته.

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن برقم٣٨٤: (١/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (٢/ ٢٧٤).

(٢) أخرجه البخاري في الأذان، باب الدعاء عند النداء: (٢/ ٩٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (٢/ ٢٨٤).

(٣) في «أ»: (عبد الرحمن)، والمثبت من «ب» ومن «شرح السنة».

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان، باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته برقم١٩٩: (١/ ١٨٩)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٦).

(٥) في «ب»: (قتله القبطي).

٢١٢/ب فيأتون عيسى، فيقول: لستُ هناكم، / ولكن ائتوا محمدًا عبدًا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

قال: فيأتوني فأستأذن على ربي في داره[١] فيؤذن لي عليه، فإذا رأيته وقعت ساجدًا فَيَدَعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقول: ارفعْ رأسك يا محمدُ، وقلْ تُسمع واشفعْ تُشَفَّع وسلْ تعطه، قال: فأرفع رأسي، فأُثني على ربي بثناء وتحميد يعلِّمنيه، ثم أشفع فيحدّ لي حدًّا فأخرج، فأدخلهم الجنة.

قال قتادة: وسمعته أيضًا يقول: فأخرج فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة، ثم أعود فأستأذن على ربي في داره، فيؤذن لي عليه، فإذا رأيته وقعت ساجدًا فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقول: ارفعْ رأسك يا محمد، وقلْ تُسْمَعْ، واشفعْ تُشفَّعْ، وسلْ تعطه، قال: فأرفع رأسي فأُثني على ربي بثناء وتحميد يعلِّمنيه، ثم أشفع فيحدّ لي حدًّا فأخرج فأدخلهم الجنة، (ثم أعود الثالثة فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه فإذا رأيته وقعت ساجدًا، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقول: ارفع رأسك يا محمد، وقلْ تسمعْ واشفعْ تشفعْ وسل تعطه، قال: فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لي حدًّا فأخرج فأدخلهم الجنة»)[٢].

قال قتادة: وقد سمعته أيضًا يقول: «فأخرج فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة حتى ما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن» ـ أي: وجب عليه الخلود ـ قال: ثم تلا هذه الآية: «﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾» (قال: «وهذا المقام المحمود)[٢] الذي وُعِده نبيكم ﷺ»[٣].

وبهذا الإسناد قال: حدثنا (محمد بن إسماعيل، حدثنا)[٢] سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا معبد بن هلال العنزيُّ قال: ذهبنا إلى أنس بن مالك فذكر حديث الشفاعة، بمعناه، قال: «فأستأذِنُ على ربي فيؤذن لي، ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد وأخِرُّ له ساجدًا، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك وقل تسمع (وسل تعطه)[٢] واشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقول: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلِقُ فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخرّ له ساجدًا وذكر مثله، فيقال: انطلق فأخرجْ مَن كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من الإيمان، فأنطلِقُ فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد، ثم أخرّ له ساجدًا، وذكر مثله، ثم يقال: انطلق فأخرجْ من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان، فأنطلق فأفعل»، فلما خرجنا من عند أنس مررنا بالحسن

---

(١) قال الخطابي في «أعلام الحديث» (٤/ ١٢٥٧): (وقوله: «في داره» يوهم مكانًا، كاللفظة الأولى في القصة المتقدمة، وهي قوله: «وهو مكانه»، ومعنى قوله: «فاستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه»، أي: في داره التي دوَّرها لأوليائه وهي الجنة، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾[يونس: ٢٥]، وكما يقال: بيت الله وحَرَم الله، يريدون بيت الله الذي جعله مثابة للناس، والحرم الذي جعله آمنًا لهم ...). وانظر: «فتح الباري»: (١٣/ ٤٢٨)، و«عمدة القاري»: (٢٤/ ١٣٢).

(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد، باب ﴿وجوه يومئذ ناضرة ...﴾: (١٣/ ٤٢٢).

فسلمنا عليه فحدثناه بالحديث إلى هذا الموضع، فقال: هيه، فقلنا: لم يزدنا على هذا، فقال: لقد حدثني وهو (يومئذ جميع)[١] منذ عشرين سنة كما حدثكم، ثم قال: «ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجدًا فيقال: يا محمد، ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع، فأقول: يا ربي، أتأذن فيمن قال لا إله إلا الله؟ فيقول: وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجنَّ منها من قال لا إله إلا الله»[٢].

ورُوي عن عبد الله بن عمر قال: «إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم، ثم بموسى، ثم بمحمد ﷺ (فيشفع ليقضى بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب، فيومئذ يبعثه الله مقامًا محمودًا، يحمده أهل الجمع كلهم»[٣].

وأخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد)[٤] بن ماموية، حدثنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان، حدثنا محمد بن حموية، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا منصور بن أبي الأسود، حدثنا الليث، عن الربيع بن أنس، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولُهم خروجًا (إذا بُعِثُوا)[٤]، وأنا قائدُهم إذا وَفَدُوا، وأنا خطيبُهم إذا أَنْصَتُوا، وأنا شفيعهم إذا حُبِسُوا (وأنا مبشِّرُهم إذا أَيِسُوا)[٤] الكرامةَ، والمفاتيحُ يومئذٍ بيدي، ولواءُ الحمدِ يومئذٍ بيدي، وأنا أكرمُ ولد آدمَ على ربي، يطوف عليَّ ألف خادم كأنهم بَيْضٌ مكنون، أو لؤلؤٌ منثور»[٥].

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر، أخبرنا عبد الغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثني الحكم بن موسى، حدثنا معقل بن زياد، عن الأوزاعي، حدثني أبو عمار، حدثني عبد الله بن فروخ، حدثني أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيِّدُ ولدِ آدمَ يومَ القيامةِ، وأولُ من ينشَقُّ عنه القبر، وأولُ شافعٍ، وأول مُشَفَّعٍ»[٦].

---

(١) في «ب»: (مجتمع جميعه).

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب كلام الرب عزَّ وجلَّ يوم القيامة مع الأنبياء: (١٣/ ٤٧٣)، ومسلم في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها برقم١٩٣: (١/ ١٨٣ـ ١٨٤).

(٣) أخرجه البخاري تعليقًا في الزكاة، باب من سأل الناس تكثرًا: (٣/ ٣٣٨)، ورواه موصولاً: الطبري في «التفسير»: (١٥/ ١٤٦)، والبزار، والطبراني في «الأوسط»، وابن منده في «الإيمان»: (٣/ ٨٣٣)، وقال: (هذا إسناد ثابت على رسم البخاري).
وانظر: «فتح الباري»: (٣/ ٣٣٩)، «الدر المنثور»: (٥/ ٣٢٥).

(٤) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٥) أخرجه الترمذي في المناقب، باب ما جاء في فضل النبي ﷺ: (١٠/ ٧٩)، وقال: (هذا حديث حسن غريب)، وفي بعض النسخ: (غريب)، وأخرجه الدارمي في المقدمة، باب ما أعطي النبي ﷺ من الفضل: (١/ ٢٦ـ٢٧)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٢٠٣)، وقال: (هذا حديث غريب)، وفيه الليث بن أبي سليم وهو ضعيف. وانظر: «مشكاة المصابيح»: (٣/ ١٦٠٥).

(٦) أخرجه مسلم في الفضائل، باب تفضيل نبينا محمد ﷺ على جميع الخلائق برقم٢٢٧٨: (٤/ ١٧٨٢)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٣/ ٢٠٣ـ٢٠٤).

والأخبار في الشفاعة كثيرة، وأول من أنكرها عمرو بن عبيد، وهو مبتدع باتفاق أهل السنة[١].

ورُوي عن يزيد بن صهيب الفقير قال: كنت قد شغفني رأيٌ من رأي[٢] الخوارج، وكنت رجلًا شابًا، فخرجنا في عصابةٍ نريد أن نحجَّ، فمررنا على المدينة، فإذا جابر بن عبد الله يحدِّث القوم عن رسول الله ﷺ، وذكر الجهنميين، فقلتُ له: يا صاحب رسول الله، ما هذا الذي يحدثون والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾[آل عمران: ١٩٢]، و﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾[السجدة: ٢٠]؟ فقال لي: يا فتى تقرأ القرآن؟ قلت: نعم، قال: هل سمعت بمقام محمدٍ المحمودِ الذي يبعثه الله فيه؟ قلت: نعم، قال: فإنه مقام محمد المحمود الذي يخرج الله به من يخرج من النار، (ثم نعتَ وَضْعَ الصراط ومرَّ الناس عليه)[٣]، وأن قومًا يخرجون من النار بعد ما يكونون فيها، قال: فرجعنا وقلنا: أترون هذا الشيخ يكذب على رسول الله ﷺ[٤]؟

ورُوي عن أبي وائل عن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «إن الله عزَّ وجلَّ اتخذ إبراهيم خليلًا، وإن صاحبكم حبيب[٥] الله وأكرم الخلق على الله»، ثم قرأ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[٦]، (قال: يقعد على العرش)[٧].

(وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، قال: يجلسه على العرش)[٨].

وعن عبد الله بن سلام قال: يقعده على الكرسي[٩].

---

(١) انظر احتجاج الخوارج على نفي الشفاعة لأهل الذنوب، وشبهتهم، والرد عليهم في: «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية»: (١/ ١١٦، ١٤٦ـ١٤٩)، القرطبي: (١٠/ ٣١٠).

(٢) زيادة من «ب».

(٣) ساقط من «أ».

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلاً برقم ١٩١: (١/ ١٧٩).

(٥) في «ب»: (خليل).

(٦) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٥٥): (في الصحيح منه: «وإن صاحبكم خليل الله» فقط في أثناء حديث ـ رواه الطبراني ـ وفيه يحيى الحماني وهو ضعيف).

(٧) ساقط من «ب».

(٨) ما بين القوسين ساقط من «ب»، والخبر عن مجاهد أخرجه الطبري: (١٥/ ١٤٥).

(٩) قال الطبري: (إن القول الأول في تفسير المقام المحمود بالشفاعة هو أولى بالصواب، فقد صحَّ به الخبر عن رسول الله ﷺ . . . وإن كان هذا هو الصحيح فإن ما قاله مجاهد غير مدفوع، لا من جهة خبر ولا نظر؛ وذلك لأنه لا خبر عن رسول الله ﷺ، ولا عن أحد من أصحابه، ولا عن التابعين بإحالة ذلك.

انظر: «تفسير الطبري»: (١٥/ ١٤٥ـ١٤٧)، «تفسير القرطبي»: (١٠/ ٣١١ـ٣١٢).

وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ والمراد من المدخل والمخرج: الإدخال والإخراج، واختلف أهل التفسير فيه:

فقال ابن عباس والحسن وقتادة: «أدخلني مدخل صدق»: المدينة، «وأخرجني مخرج صدق»: مكة، نزلت حين أمر النبي ﷺ بالهجرة[1].

وقال الضحاك: «وأخرجني مخرج صدق»: من مكة آمنًا من المشركين، «وأدخلني مدخل صدق»: مكة ظاهرًا عليها بالفتح.

وقال مجاهد: أدخلني في أمرك الذي أرسلتني به من النبوة مدخل صدق: الجنة، وأخرجني من الدنيا، وقد قمت بما وجب عليَّ من حقها، مخرج صدق.

وعن الحسن أنه قال: «أدخلني مدخل صدق»: الجنة، «وأخرجني مخرج صدق»: من مكة.

وقيل: أدخلني في طاعتك، وأخرجني من المناهي، وقيل: معناه: أدخلني حيث ما أدخلتني بالصدق، وأخرجني بالصدق، أي: لا تجعلني ممن يدخل بوجه ويخرج بوجه، فإنَّ ذا الوجهين لا يكون آمنًا ووجيهًا عند الله.

ووصف الإدخال والإخراج بالصدق لما يؤول إليه الخروج والدخول من النصر والعزِّ ودولة الدين، كما وصف القدم بالصدق، فقال: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[يونس: ٢].

﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ قال مجاهد: حجة بيّنة، وقال الحسن: ملكًا قويًا تنصرني به على من ناوأني[2]، وعزًّا ظاهرًا أقيم به دينك، فوعده الله لينزعنَّ ملك فارس والروم وغيرهما فيجعله له.

قال قتادة: علم نبي الله ﷺ أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان نصير، فسأل سلطانًا نصيرًا: كتابَ الله، وحدودَه، وإقامةَ دينه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ يعني: القرآن ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ أي: ذهب الشيطان، قاله قتادة، وقال السدي: «الحق»: الإسلام، و«الباطل»: الشرك، وقيل: «الحق»: عبادة الله، و«الباطل»: عبادة الأصنام.

﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ ذاهبًا، يقال: زهقت نفسه، أي: خرجت.

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي عن ابن عباس. انظر: ابن كثير: (٣/ ٥٩)، وهو ما رجحه الطبري في «التفسير»: (١٥/ ١٥٠).

(٢) في «أ»: (عاداني). (٣) ساقط من «أ».

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (٨٤)﴾

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا صدقة بن الفضل، حدثنا ابن عيينة، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن أبي معمر، عن عبد الله قال: دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وحولَ البيتِ ستونَ وثلاثُمائة نُصُبٍ، فجعل يطعنُها بعُودٍ (في يده)[1]، ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل»، «جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد»[2].

٢١٣/أ / قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: «من» ليس للتبعيض، ومعناه: وننزل من القرآن ما كلُّه شفاء، أي: بيان من الضلالة والجهالة، يتبين به المختلف، ويتضح به المشكل، ويستشفى به من الشبهة، ويهتدى به من الحيرة، فهو شفاء القلوب بزوال الجهل عنها ورحمة للمؤمنين.

﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢)﴾ لأن الظالم لا ينتفع به، والمؤمن مَنْ ينتفع به فيكون رحمة له.

وقيل: زيادة الخسارة للظالم من حيث أن كل آية تنزل يتجدد منهم تكذيب ويزداد لهم خسارة.

قال قتادة: لم يجالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، قضى الله الذي قضى شفاء ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ﴾ عن ذكرنا ودعائنا ﴿وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ أي: تباعد عنا بنفسه، أي: ترك التقرب إلى الله بالدعاء، وقال عطاء: تعظم وتكبر، ويكسر النون والهمزة حمزة والكسائي، ويفتح النون ويكسر الهمزة أبو بكر، وقرأ ابن عامر وأبو جعفر «وناء» مثل جاء، قيل: هو بمعنى نأى، وقيل: ناء من النوء وهو النهوض والقيام.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ الشدة والضرر ﴿كَانَ يَئُوسًا (٨٣)﴾ أي: آيسًا قنوطًا، وقيل: معناه: أنه يتضرع ويدعو عند الضر والشدة، فإذا تأخرت الإجابة يئس ولا ينبغي للمؤمن أن ييأس من الإجابة، وإن تأخرت فيدع الدعاء.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ قال ابن عباس: على ناحيته.

قال الحسن وقتادة[1]: على نيَّته، وقال مقاتل: على خليقته.

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ...﴾: (٨/ ٤٠٠).

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾

قال الفراء: على طريقته التي جبل عليها.

وقال القتيبي: على طبيعته وجبلّته.

وقيل: على السبيل الذي اختاره لنفسه، وهو من الشكل، يقال: لستَ على شكلي ولا شاكلتي، وكلها متقاربة، تقول العرب: طريق ذو شواكل إذا تشعبت منه الطرق، ومجاز الآية: كل يعمل على ما يشبهه، كما يقال في المثل: كل امرىء يشبهه فعله.

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ۝٨٤﴾ أوضح طريقًا.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي...﴾ الآية.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد، المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا قيس بن حفص، حدثنا عبد الواحد ـ يعني: ابن زياد ـ، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبد الله قال: بينا أنا أمشي مع النبي ﷺ في حَرْثِ[1] المدينة، وهو يتوكأ على عَسِيْبٍ[2] معه، فمرَّ بنفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه، لا يجيء فيه بشيء تكرهونه، فقال بعضهم لنسألنَّه، فقام رجل منهم فقال: يا أبا القاسم، ما الرُّوح؟ فسكت، فقلت: إنه يُوحَى إليه، فقمت، فلما انجلى عنه الوحي، قال: «﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾»[3]، قال الأعمش: هكذا في قراءتنا.

ورُوي عن ابن عباس أنه قال: إن قريشًا قد اجتمعوا وقالوا: إن محمدًا نشأ فينا بالأمانة والصدق وما اتهمناه بكذب، وقد ادعى ما ادعى، فابعثوا نفرًا إلى اليهود بالمدينة واسألوهم عنه فإنهم أهل كتاب، فبعثوا جماعة إليهم، فقالت اليهود: سلوه عن ثلاثة أشياء، فإن أجاب عن كلها أو لم يجب عن شيء منها، فليس بنبي، وإن أجاب عن اثنين ولم يجب عن واحدة فهو نبي، فسلوه عن فتية فقدوا في الزمن الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنه كان لهم حديث عجيب، وعن رجل بلغ شرق الأرض وغربها ما خبره؟ وعن الروح؟ فسألوه، فقال النبي ﷺ: «أخبركم بما سألتم غدًا ولم يقل إن شاء الله، فلبث الوحي ـ قال مجاهد: اثنتي عشرة ليلة، وقيل: خمسة عشرة يومًا، وقال عكرمة: أربعين يومًا ـ وأهل مكة يقولون: وعدنا محمد غدًا

---

(١) موضع الزرع.

(٢) جريدة النخل.

(٣) أخرجه البخاري في التفسير، سورة الإسراء، باب ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾: (٨/ ٤٠١)، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح برقم ٢٧٩٤: (٤/ ٢١٥٢).

وقد أصبحنا لا يخبرنا بشيء، حتى حزن النبي ﷺ من مكث الوحي وشقَّ عليه ما يقوله أهل مكة، ثم[1] نزل جبريل بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾[الكهف: ٢٣]، ونزلت في الفتية[2]: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾[الكهف: ٩]، ونزل فيمن بلغ الشرق والغرب ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾[الكهف: ٨٣]، ونزل في الروح ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[3].

واختلفوا في الروح الذي وقع السؤال عنه[4]، فرُوي عن ابن عباس: أنه جبريل، وهو قول الحسن وقتادة.

ورُوي عن علي أنه قال: هو مَلك له سبعون ألف وجه، لكل وجه سبعون ألف لسان، يسبِّح الله تعالى بكلها.

وقال مجاهد: خَلْقٌ على صُوَرِ بني آدم، لهم أيدٍ وأرجل ورؤوس، وليسوا بملائكة، ولا ناس، يأكلون الطعام.

وقال سعيد بن جبير: لم يخلق الله تعالى خلقًا أعظم من الروح غير العرش، لو شاء أن يبتلع السموات السبع والأرضين السبع ومَن فيها بلقمة واحدة لفعل، صورة خلقه على صورة خلق الملائكة، وصورة وجهه على صورة الآدميين، يقوم يوم القيامة عن يمين العرش وهو أقرب الخلق إلى الله عزَّ وجلَّ اليوم عند الحجب السبعين، وأقرب إلى الله يوم القيامة وهو ممن يشفع لأهل التوحيد، ولولا أن بينه وبين الملائكة سترًا من نور لاحترق أهل السموات من نوره.

وقيل: الروح هو القرآن.

وقيل: المراد منه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنه روح الله وكلمته، ومعناه: أنه ليس كما يقول اليهود ولا كما يقوله النصارى.

وقال قوم: هو الروح المركب في الخلق الذي يحيا به الإنسان، وهو الأصح.

وتكلم فيه قوم فقال بعضهم: هو الدم، ألا ترى أن الحيوان إذا مات لا يفوت منه شيء إلا الدم.

وقال قوم: هو نَفَسُ الحيوان، بدليل أنه يموت باحتباس النفس.

وقال قوم: هو عَرَض.

وقال قوم: هو جسم لطيف.

---

(١) في «ب»: (إذ).

(٢) في «ب»: (ونزل قصّة الفتية).

(٣) أخرجه ابن إسحاق والطبري وابن المنذر، وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في «الدلائل».
انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٣٥٧)، «ابن كثير»: (٣/ ٧٢)، «أسباب النزول»: ص٣٣٨.

(٤) في «أ»: (عنها).

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾

وقال بعضهم: الروح معنًى اجتمع فيه النور والطيب والعلوُّ والبقاء، ألا ترى أنه إذا كان موجودًا يكون الإنسان موصوفًا بجميع هذه الصفات[١]، فإذا خرج ذهب الكل[٢]؟

وأولى الأقاويل: أن يوكل علمه إلى الله عزَّ وجلَّ، وهو قول أهل السنة، قال عبد الله بن بريدة: إن الله تعالى (لم يُطْلِعْ على الروح مَلَكًا مقرَّبًا، ولا نبيًّا مرسلًا)[٣].

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم﴾ (قيل: من علم ربي)[٤].

﴿مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ أي: في جنب علم الله تعالى[٥]، قيل: هذا خطاب للرسول ﷺ.

وقيل: خطاب لليهود؛ لأنهم كانوا يقولون: أُوتينا التوراة وفيها العلم الكثير.

وقيل: كان النبي ﷺ يعلم معنى الروح، ولكن لم يخبر به أحدًا؛ لأنَّ ترك إخباره به كان عَلَمًا لنبوته.

والأول أصح؛ لأن الله عزَّ وجلَّ استأثر بعلمه.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ معناه: إنا كما منعنا علم الروح عنك وعن غيرك، لو شئنا لنذهبنَّ بالذي أوحينا إليك، يعني: القرآن ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾ أي: من يتوكل بردِّ القرآن إليك ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ هذا استثناء منقطع، معناه: لكن[٦] لا نشاء ذلك رحمة من ربك ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ فإن قيل: كيف يذهب القرآن وهو كلام الله عزَّ وجلَّ؟

قيل: المراد منه: مَحْوُه من المصاحف، وإذهاب ما في الصدور.

وقال عبد الله بن مسعود: اقرءوا القرآن قبل أن يرفع، فإنه لا تقوم الساعة حتى يرفع، قيل: هذه المصاحف ترفع، فكيف بما في صدور الناس؟ قال: يسري عليه ليلًا فيرفع ما في صدورهم، فيصبحون لا يحفظون شيئًا، ولا يجدون في المصاحف شيئًا، ثم يفيضون في الشعر[٧].

---

(١) في «أ»: (الأوصاف).

(٢) انظر هذه الأقوال في: «زاد المسير»: (٥/ ٨٢)، الطبري: (١٥/ ١٥٦ ـ ١٥٧)، ابن كثير: (٣/ ٦٢).

(٣) في «ب»: (يطلع على الروح ملكًا مقربًا نبيًّا مرسلًا).

(٤) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٥) انظر: «زاد المسير»: (٥/ ٨٣).

(٦) ساقط من «أ».

(٧) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»، وأخرج نحوه أيضًا موقوفًا عبد الرزاق، ومن طريقه رواه: الطبراني بسند صحيح، ورواه ابن أبي شيبة والثعلبي، ورواه ابن مردويه والواحدي في «التفسير». . =

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل، له دَوِيٌّ حول العرش كدوي النحل، فيقول الرب: مالك؟ (وهو أعلم)، فيقول: يا رب أُتْلَى ولا يُعْمَل بي[1].

٢١٣/ب / قوله جلَّ وعلا: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ لا يقدرون على ذلك ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ عونًا ومظاهرًا.

نزلت حين قال الكفار: لو نشاء لقلنا مثل هذا، فكذبهم الله تعالى[2].

فالقرآن معجز في النظم والتأليف والإخبار عن الغيوب، وهو كلام في أعلى طبقات البلاغة لا يشبه كلام الخلق؛ لأنه غير مخلوق، ولو كان مخلوقًا لأتوا بمثله.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ من كل وجه من العِبَر والأحكام والوعد والوعيد وغيرها ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ جحودًا[3].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ لن نصدقك ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ قرأ أهل الكوفة ويعقوب «تَفْجُرَ» بفتح التاء وضم الجيم مخففًا؛ لأن الينبوع واحد، وقرأ الباقون بالتشديد من التفجير، واتفقوا على تشديد قوله: «فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا»؛ لأن الأنهار جمع، والتشديد يدل على التكثير، ؛ ولقوله: «تَفْجِيرًا»، من بَعْدُ.

وروى عكرمة عن ابن عباس: أن عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث، وأبا البختري بن هشام، والأسود بن عبد المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، ونبيهًا ومنبهًا ابني الحجاج، اجتمعوا ومن اجتمع معهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه

= انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٣٣٤)، «فتح الباري»: (١٣/ ١٦)، «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٢٩١-٢٩٢).
قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ٨٤): (ردَّ أبو سليمان الدمشقي صحة هذا الحديث بقوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا . . .» متفق عليه). ثم قال: (وحديث ابن مسعود مروي من طرق حسان، فيحتمل أن يكون النبي ﷺ أراد بالعلم ما سوى القرآن، فإن العلم ما يزال ينقرض حتى يكون رفع القرآن آخر الأمر).

(١) عزاه في «كنز العمال»: (٤/ ٢٠٣٣) للديلمي في «مسند الفردوس»، وأشار السيوطي إلى أن العزو إليه مؤذن بالضعف. وما بين القوسين ساقط من «ب».

(٢) انظر: «البحر المحيط»: (٥/ ٧٨).

(٣) ساقط من «أ».

وخاصموه حتى تُعذروا فيه، فبعثوا إليه: أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك، فجاءهم رسول الله ﷺ سريعًا، وهو يظن أنه بدا لهم في أمره بدء، وكان عليهم حريصًا، يحب رشدهم حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد، إنا بعثنا إليك لنعذر فيك، وإنا والله لا نعلم رجلًا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعِبْتَ الدين، وسفَّهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرّقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بينك وبيننا، فإن كنت جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جعلنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تطلب الشرف سوَّدناك علينا، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الأمر الذي بك رَئِيٌّ تراه قد غلب عليك، لا تستطيع ردَّه، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه، أو نعذر فيك، وكانوا يسمُّون التابع من الجن: الرَّئِيّ.

فقال رسول الله ﷺ: ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم ولا الشرف عليكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلَّغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

فقالوا: يا محمد، إن كنت غير قابل منَّا ما عرضنا عليك فقد علمتَ أنه ليس أحد أضيق منَّا بلادًا ولا أشد منَّا عيشًا، فسل لنا ربك الذي بعثك فليسيِّر عنَّا هذه الجبال، فقد ضيقت علينا، ويبسط لنا بلادنا ويفجِّر فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا مَنْ مضى من آبائنا، وليكن منهم قصي بن كلاب، فإنه كان شيخًا صدوقًا، فنسألهم عمَّا تقول: أحقٌّ هو أم باطل؟ فإن صدقوك صدقناك.

فقال رسول الله ﷺ: ما بهذا بعثتُ، فقد بلغتكم ما أُرسلت به، فإن تقبلوه مني فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه أصبر لأمر الله.

قالوا: فإن لم تفعل هذا فسل ربك أن يبعث لنا ملكًا يصدقك، واسأله أن يجعل لك جنانًا وقصورًا وكنوزًا من ذهب وفضة يغنيك بها عمَّا نراك، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه.

فقال: ما بعثتُ بهذا، ولكنَّ الله بعثني بشيرًا ونذيرًا.

قالوا: فأسقِطْ السماء كما زعمت، إن ربك لو شاء فعل.

فقال: ذلك إلى الله، إن شاء فعل ذلك بكم فعله.

وقال قائل منهم: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلًا.

فلما قالوا ذلك، قام رسول الله ﷺ وقام معه عبد الله بن أبي أُمية، وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب، فقال: يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا عليك فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أمورًا يعرفون بها منزلتك من الله تعالى فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجِّل ما تخوِّفهم به من العذاب، فلم تفعل،

أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

فوالله لا أومن لك أبدًا حتى تتخذ إلى السماء سلمًا ترقى فيها وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي بنسخة منشورةٍ معك ونفر من الملائكة يشهدون لك بما تقول، وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أن لا أصدقك، فانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينًا لما رأى من مباعدتهم، فأنزل الله تعالى: «وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ»[1] يعني: أرض مكة، «يَنْبُوعًا» أي: عيونًا.

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ بستان ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾ تشقيقًا.

﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم بفتح السين، أي: قِطَعًا، وهي جمع «كسفة»، وهي: القطعة والجانب، مثل: كِسْرَةٍ وكِسَرٍ، وقرأ الآخرون بسكون السين على التوحيد، وجمعه أكساف وكسوف، أي: تسقطها طبقًا واحدًا[2]، وقيل: أراد جانبها علينا، وقيل: معناه أيضًا: القطع، وهي جمع التكسير، مثل: سدرة وسدر في الشعراء وسبأ، «كسفًا» بالفتح: حفص، وفي الروم ساكنة: أبو جعفر وابن عامر.

﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ قال ابن عباس: كفيلًا، أي: يكفلون بما تقول، وقال الضحاك: ضامنًا، وقال مجاهد: هو جمع القبيلة، أي: بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة، (وقال قتادة: عيانًا، أي: تراهم القابلة)[3]، أي: معاينة، (وقال الفراء: هو من قول العرب: لقيت فلانًا قبيلًا، وقبيلًا أي: معاينة)[3].

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي: من ذهب، وأصله: الزينة ﴿أَوْ تَرْقَىٰ﴾ تصعد ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ هذا قول عبد الله بن أبي أمية ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ لصعودك ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ أمِرنَا فيه باتِّباعك ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى﴾ وقرأ ابن كثير وابن عامر «قال»، يعني: محمدًا، وقرأ الآخرون على الأمر، أي: قلْ يا محمد ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ أمره بتنزيهه وتمجيله على معنى أنه لو أراد أن ينزل ما طلبوا لفعل، ولكن الله لا ينزل الآيات على ما يقترحه البشر، وما أنا إلا بشر، وليس ما سألتم في طوق البشر.

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام»: (١/ ٢٩٥ ـ ٢٩٧)، «تفسير الطبري»: (١٥/ ١٦٤ ـ ١٦٦)، «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٣٨ ـ ٣٤٠، «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٦٣ ـ ٦٤).

(٢) ساقط من «أ».

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب».

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾

واعلم أن الله تعالى قد أعطى النبي ﷺ من الآيات والمعجزات ما يغني عن هذا كله، مثل: القرآن، وانشقاق القمر، وتفجير العيون من بين الأصابع وما أشبهها، والقوم عامتهم كانوا متعنتين، لم يكن قصدهم طلبَ[1] الدليل ليؤمنوا، فردَّ الله عليهم سؤالهم.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ جهلًا منهم ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ أراد: أن الكفار كانوا يقولون: لن نؤمن لك لأنك بشر، وهلا بعث الله إلينا ملكًا؟ فأجابهم الله تعالى:

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ مستوطنين مقيمين ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ من جنسهم؛ لأن القلب إلى الجنس أميل منه إلى غير الجنس.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أني رسول الله إليكم[2] ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾.

١/٢١٤ / قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ﴾ يهدونهم ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا الحسن بن شجاع الصوفي المعروف بابن الموصلي، أنبأنا أبو بكر بن الهيثم، حدثنا جعفر بن محمد الصائغ، حدثنا حسين بن محمد، حدثنا سفيان، عن قتادة، عن أنس أن رجلًا قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال النبي ﷺ: «إن الذي أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه»[3].

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) في «ب»: (أني رسوله إليكم).

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة الفرقان، باب ﴿الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم﴾: (٨/ ٤٩٢)، ومسلم في المنافقين، باب يحشر الكافر على وجهه برقم ٢٨٠٦: (٤/ ٢١٦١).

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

وجاء في الحديث: «إنهم يتّقون بوجوههم كلَّ حَدَبٍ وشَوْكٍ»[1]، ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾.

فإن قيل: كيف وصفهم بأنهم عمي وبكم وصم، وقد قال: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾[الكهف: ٥٣]، وقال: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾[الفرقان: ١٣]، وقال: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾[الفرقان: ١٢]، أثبت الرؤية والكلام والسمع؟

قيل: يحشرون على ما وصفهم الله، ثم تعاد إليهم هذه الأشياء.

وجواب آخر، قال ابن عباس: عميًا لا يرون ما يسرهم، بكمًا لا ينطقون بحجة، صمًّا لا يسمعون شيئًا يسرهم.

وقال الحسن: هذا حين يساقون إلى الموقف إلى أن يدخلوا النار.

وقال مقاتل: هذا حين يقال لهم: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا﴾[المؤمنون: ١٠٨]، فيصيرون بأجمعهم عميًا وبكمًا وصمًّا، لا يرون ولا ينطقون ولا يسمعون ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ قال ابن عباس: كلما سكنت، أي: سكن لهيبها، وقال مجاهد: طفئت، وقال قتادة: ضعفت، وقيل: هو الهدوّ من غير أن يوجد نقصان في ألم الكفار؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾[الزخرف: ٧٥]، وقيل: «كلما خبت»، أي: أرادت أن تخبو ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ أي: وقودًا.

وقيل: المراد من قوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾، أي: نضجت جلودهم واحترقت أعيدوا فيها إلى ما كانوا عليه، وزيد في تسعير النار لتحرقهم.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾ فأجابهم الله تعالى فقال:

﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ في عظمتها وشدتها ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ في صغرهم وضعفهم، نظيره قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾[غافر: ٥٧].

﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾ أي: وقتًا لعذابهم ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أنه يأتيهم، قيل: هو الموت، وقيل: هو يوم القيامة ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ أي: جحودًا وعنادًا.

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الإسراء: (٨/ ٥٧٩)، وقال: (هذا حديث حسن)، وأحمد في «المسند»: (٢/ ٣٥٤، ٣٦٣)، والطبري في التفسير، والبيهقي وابن مردويه. انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٣٤١).

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ أي: نعمة ربي، وقيل: رزق ربي ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ﴾ لبخلتم وحبستم ﴿خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ أي: خشية الفاقة، قاله قتادة.

وقيل: خشية النفاد، يقال: أنفق الرجل، أي: أملق وذهب ماله، ونفق الشيء، أي: ذهب.

وقيل: لأمسكتم عن الإنفاق خشية الفقر.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ أي: بخيلًا ممسكًا عن الإنفاق.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ أي: دلالات واضحات، فهي الآيات التسع.

قال ابن عباس والضحاك: هي العصا، واليد البيضاء، والعقدة التي كانت بلسانه فحلَّها، وفلق البحر، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم.

وقال عكرمة وقتادة ومجاهد وعطاء: هي الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والعصا، واليد، والسنون، ونقص الثمرات.

وذكر محمد بن كعب القرظي: الطمس، والبحر بدل السنين، ونقص من الثمرات، قال: فكان الرجل منهم مع أهله في فراشه وقد صَارَا حجرين، والمرأة منهم قائمة تخبز وقد صارت حجرًا.

وقال بعضهم: هنَّ آيات الكتاب[1].

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أخبرني الحسن بن محمد الثقفي، أخبرنا هارون بن محمد بن هارون العطار، أنبأنا يوسف بن عبد الله بن ماهان، حدثنا الوليد الطيالسي، حدثنا شعبة، عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن سلمة، عن صفوان بن عسال المرادي، أن يهوديًا قال لصاحبه: تعال حتى نسأل هذا النبي، فقال الآخر: لا تقل نبيّ، فإنه لو سمع صارت له أربع أعين، فأتياه فسألاه عن هذه الآية: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ»، فقال: لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تأكلوا الربا، ولا تسحروا، ولا تمشوا بالبريء إلى سلطان ليقتله، ولا تسرقُوا، ولا تقذفوا المحصنة، ولا تفروا من الزحف، وعليكم خاصَّة

(١) انظر: «تفسير الطبري»: (١٥/ ١٧١ ـ ١٧٣)، «زاد المسير»: (٥/ ٩٢ ـ ٩٣)، «الدر المنثور»: (٥/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤)، «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٦٧ ـ ٦٨).

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾

اليهود أن لا تعدوا في السبت، فقبّلا يده، وقالا: نشهد أنك نبي، قال: فما يمنعكم أن تتبعوني؟ قالا: إن داود دعا ربه أن لا يزال في ذريته نبي، وإنا نخاف إن تبعناك أن يقتلنا اليهود[1].

﴿فَسْـَٔلْ﴾ يا محمد ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ موسى، يجوز أن يكون الخطاب معه والمراد غيره، ويجوز أن يكون خاطبه عليه السلام وأمره بالسؤال ليتبين كذبهم مع قومهم ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ أي: مطبوبًا سحروك، قاله الكلبي، وقال ابن عباس: مخدوعًا، وقيل: مصروفًا عن الحق.

وقال الفرّاء وأبو عبيدة: ساحرًا، فوضع المفعول موضع الفاعل.

وقال محمد بن جرير: معطى علم السحر، فهذه العجائب التي تفعلها من سحرك[2].

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ قرأ العامة بفتح التاء خطابًا لفرعون، وقرأ الكسائي بضم التاء، ويُروى ذلك عن علي، وقال: لم يعلم الخبيث أن موسى على الحق، ولو عَلم لآمن، ولكن موسى هو الذي علم[3]، قال ابن عباس: علمه فرعون ولكنه عاند، قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل: ١٤].

وهذه القراءة، وهي نصب التاء، أصحُّ في المعنى، وعليه أكثر القراء؛ لأن موسى لا يحتج عليه بعلم نفسه، ولا يثبت عن علي رفع التاء؛ لأنه رُوي عن رجل من مراد عن علي، وذلك أن الرجل مجهول، ولم يتمسك بها أحد من القراء غير الكسائي[4].

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير، سورة الإسراء: (٨/ ٥٨٠)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والنسائي في تحريم الدم، باب السحر: (٧/ ١١١ ـ ١١٢)، والإمام أحمد في «المسند»: (٤/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠)، والطبري في «التفسير»: (١٥/ ١٧٢)، وأخرجه ابن ماجه مختصرًا عن صفوان بن عسال: أن قومًا من اليهود قبّلوا يد النبي ﷺ ورجليه. ورواه الحاكم وأبو يعلى وإسحاق بن راهويه والطيالسي وأبو نعيم في «الحلية» وابن أبي شيبة، والبيهقي في «الدلائل». انظر: «تخريج أحاديث الكشاف»: (٢/ ٢٩٣).
قال الحافظ ابن كثير (٣/ ٦٨): (وهو حديث مشكل، وعبد الله بن سلمة في حفظه شيء، وقد تكلموا فيه، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات، فإنها وصايا في التوراة، لا تعلُّق لها بقيام الحجة على فرعون، والله أعلم).

(٢) «تفسير الطبري»: (١٥/ ١٧٤).

(٣) قال الطبري: (غير أن القراءة التي عليها قراء الأمصار خلافها، وغير جائز عندنا خلاف الحجة فيما جاءت به من القراءة مجمعة عليه). «التفسير»: (١٥/ ١٧٤).

(٤) وكذلك قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ٩٤): (والقراءة الأولى ـ بفتح التاء ـ أصح لاختيار الجمهور؛ ولأنه قد أبان موسى من المعجزات ما أوجب علم فرعون بصدقه، فلم يردَّ إلا بالتعلل والمدافعة، فكأنه قال: لقد علمتَ بالدليل والحجة «ما أنزل هؤلاء» يعني الآيات).

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾

﴿مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ﴾ هذه الآيات التسع ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ جمع بصيرة، أي: يبصر بها.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ قال ابن عباس: ملعونًا، وقال مجاهد: هالكًا، وقال قتادة: مُهلكًا، وقال الفراء: أي: مصروفًا ممنوعًا عن الخير، يقال: ما ثبرك عن هذا الأمر، أي: ما منعك وصرفك عنه[(١)].

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾ أي: أراد فرعون أن يستفزَّ موسى وبني إسرائيل، أي: يخرجهم ﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾ يعني: أرض مصر ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾ ونجينا موسى وقومه.

﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد هلاك فرعون ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ يعني: أرض مصر والشام ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ أي: جميعًا إلى موقف القيامة، واللفيف: الجمع الكثير: إذا كانوا مختلطين من كل نوع، يقال: لفت الجيوش إذا اختلطوا، وجُمْعُ القيامةِ كذلك، فيهم المؤمن والكافر، والبرُّ والفاجر.

وقال الكلبي: «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ»، يعني: مجيء عيسى من السماء، «جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا»، أي: النُّزاع[(٢)] من كل قوم، مِنْ هاهنا ومن هاهنا، لفوا جميعًا.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ يعني: القرآن ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ للمطيعين ﴿وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ للعاصين.

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ قيل: معناه: أنزلناه نجومًا، لم ينزل مرة واحدة، بدليل قراءة ابن عباس: «وقرآنًا فرَّقناه» بالتشديد، وقراءة العامة بالتخفيف، أي: فصَّلناه، وقيل: بيَّناه، وقال الحسن: معناه: فرقنا به بين الحق والباطل ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي: على تؤدة وترتيل[(٣)] وترسّل، في ثلاث وعشرين سنة ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾.

---

(١) انظر: «زاد المسير»: (٥/ ٩٤-٩٥).

(٢) في «أ»: (البراع).

(٣) ساقط من «ب».

﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ هذا على طريق الوعيد والتهديد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ قيل: هم مؤمنو أهل الكتاب، وهم الذين كانوا يطلبون الدِّين قبل مبعث رسول الله ﷺ، ثم أسلموا بعد مبعثه،
٢١٤/ب مثل: زيد بن عمرو بن نفيل، / وسلمان الفارسي، وأبي ذر، وغيرهم[(١)].

﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: القرآن[(٢)] ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ أي: يسقطون على الأذقان، قال ابن عباس: أراد بها الوجوه ﴿سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ أي: كائنًا واقعًا.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ أي: يقعون على الوجوه يبكون، البكاء مستحب عند قراءة القرآن[(٣)] ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ نزول القرآن ﴿خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ خضوعًا لربهم، نظيره قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾[مريم: ٥٨].

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو عمرو بن بكر بن محمد المزني، حدثنا أبو بكر محمد بن عبد الله الجنيد، حدثنا الحسن بن الفضل البجلي، أخبرنا عاصم، عن علي بن عاصم، حدثنا المسعوديُّ هو عبد الرحمن بن عبد الله، عن محمد بن عبد الرحمن مولى أبي طلحة[(٤)]، عن عيسى بن طلحة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَلِجُ النارَ مَنْ بكى من خشيةِ الله حتى يعودَ اللبَنُ في الضَّرْعِ، ولا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنَّمَ في مَنْخِرَيِ مسلم أبدًا»[(٥)].

---

(١) انظر: الطبري: (١٥/ ١٨١)، «زاد المسير»: (٥/ ٩٧).

(٢) وذلك لأن سياق الكلام عن القرآن الكريم، ولم يُجْرِ لغيره من الكتب ذكر ليصرف الكلام إليه، وهذا يردُّ قول من قال المراد به: ما أنزل إلى أهل الكتاب من عند الله. راجع: الطبري: (١٥/ ١٨١)، «زاد المسير»: (٥/ ٩٧).

(٣) وقد وردت فيه أحاديث وآثار عن السلف كثيرة، فمن ذلك عن النبي ﷺ: «اقرءوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا» رواه ابن ماجه برقم(٤١٩٦) في الزهد، وإسناده ضعيف.
وعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه صلى بالجماعة الصبح فقرأ سورة يوسف فبكى حتى سالت دموعه على ترقوته، وفي رواية: أنه كان في صلاة العشاء، فيدل على تكريره منه.
وعن أبي رجاء قال: رأيت ابن عباس وتحت عينيه مثل الشرّاك البالي ـ هو السَّيْرُ الرقيق الذي يكون في النعل على ظهر القدم ـ من الدموع.
انظر: «التبيان في آداب حملة القرآن» للنووي: ص٦٨ ـ ٦٩، وراجع: القرطبي: (١/ ٣٤٢).

(٤) في «ب»: (مولى طلحة)، وفي «شرح السنة»: (مولى آل طلحة).

(٥) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الغبار في سبيل الله: (٥/ ٢٦٠ ـ ٢٦١)، وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، =

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾

أخبرنا أبو القاسم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري، أخبرنا أبو القاسم عبد الخالق بن علي بن عبد الخالق المؤذن، أخبرنا أحمد بن بكر بن محمد بن حمدان، حدثنا محمد بن يونس الكُدَيْمِيّ، أنبأنا عبد الله ابن محمد الباهلي، حدثنا أبو حبيب الغَنَوِيّ، حدثنا بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حُرِّمتِ النارُ على ثلاثِ أعين: عين بكت من خشية الله، وعين سهرت في سبيل الله، وعين غضَّتْ عن محارم الله»[(١)].

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ قال ابن عباس: سجد رسول الله ﷺ بمكة ذات ليلة فجعل يبكي ويقول في سجوده: «يا الله، يا رحمن»، فقال أبو جهل: إن محمدًا ينهانا عن آلهتنا وهو يدعو إلهين! فأنزل الله تعالى هذه الآية[(٢)]، ومعناه: أنهما اسمان لواحد.

﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا﴾ «ما» صلة، معناه: أيًّا ما تدعو من هذين الاسمين ومن جميع أسمائه ﴿فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾.

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هشيم، حدثنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله تعالى: «وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا»، قال: نزلت ورسول الله ﷺ مختفٍ بمكة، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمعه المشركون سبُّوا القرآن ومَنْ أنزله ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: «وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ»، أي: بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن، «وَلَا تُخَافِتْ بِهَا» عن أصحابك فلا تسمعهم ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾[(٣)].

وبهذا الإسناد عن محمد بن إسماعيل قال: حدثنا مسدد عن هشيم عن أبي بشر بإسناده مثله، وزاد:

= وأخرجه النسائي في الجهاد، باب فضل من عمل في سبيل الله: (٦/ ١٢)، وصححه الحاكم: (٤/ ٢٦٠)، وابن حبان برقم١٥٩٨: ص٣٨٥ من «موارد الظمآن»، والإمام أحمد في «المسند»: (٢/ ٥٠٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (١٤/ ٣٦٤).

(١) أخرجه المصنف في شرح السنة: (١٤/ ٣٦٥)، وفيه الكديمي، وهو ضعيف، وفي الباب عن أبي ريحانة، أخرجه الحاكم: (٢/ ٨٣)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٢٨٧): رواه أحمد والطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، ورجال أحمد ثقات، وروى النسائي طرفًا منه، ورواه أبو نعيم في «الحلية»: (٥/ ٢٠٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف»: (٥/ ٣٥٠).

(٢) أخرجه الطبري في «التفسير»: (١٥/ ١٨٢)، وانظر: «أسباب النزول» للواحدي: ص٣٤١، «الدر المنثور»: (٥/ ٣٤٨)، القرطبي: (١٠/ ٣٤٢).

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة الإسراء، باب ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾: (٨/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥)، ومسلم في الصلاة، باب التوسط في الصلاة الجهرية . . . برقم٤٤٦: (١/ ٣٢٩).

﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ أسمعهم، ولا تجهر حتى يأخذوا عنك القرآن[١].

وقال قوم: الآية في الدعاء، وهو قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ والنخعي ومجاهد ومكحول.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا طلق بن غنام، حدثنا زائدة، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ في قوله: «وَلَا تُخَافِتْ بِهَا»، قالت: أُنزل ذلك في الدعاء[٢].

وقال عبد الله بن شداد: كان أعرابٌ من بني تميم إذا سلَّم النبي ﷺ قالوا: اللهم ارزقنا مالاً وولدًا، فيجهرون بذلك، فأنزل الله هذه الآية: «وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ»[٣]، أي: لا ترفع صوتك بقراءتك أو بدعائك ولا تخافت بها[٤]. والمخافتة: خفض الصوت والسكوت، «وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا»، أي: بين الجهر والإخفاء.

أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبّيّ، أخبرنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الخزاعي، أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي، حدثنا أبو عيسى الترمذي، حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن عبد الله بن أبي رباح الأنصاري، عن أبي قتادة أنَّ النبي ﷺ قال لأبي بكر: «مررتُ بك وأنت تقرأ وأنت تخفض من صوتك»، فقال: إني أسمعتُ مَنْ ناجيت، فقال: «ارفع قليلًا»، وقال لعمر: «مررت بك وأنت تقرأ وأنت ترفع صوتك»، فقال: إني[٥] أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان، فقال: «اخفض قليلًا»[٦].

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿أنزله بعلمه والملائكة يشهدون﴾: (١٣/ ٤٦٣).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، الموضع السابق: (٨/ ٤٠٥).

(٣) أخرجه الطبري في «التفسير»: (١٥/ ١٨٤)، وزاد السيوطي نسبته لابن أبي شيبة وابن المنذر. انظر: «الدر المنثور»: (٥/ ٣٥١).

(٤) ورجح الطبري القول الأول الذي قاله ابن عباس؛ لأن ذلك أصح الأسانيد التي روي عن صحابي فيه قول مخرَّجًا، وأشبه الأقوال بما دلَّ عليه ظاهر التنزيل، وذلك أن قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عقيب قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ . . .﴾ وعقيب تقريع الكفار بكفرهم بالقرآن، وذلك بُعْدهم منه ومن الإيمان، فإذا كان ذلك كذلك، فالذي هو أولى وأشبه بقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾: أن يكون من سبب ما هو في سياقه من الكلام، ما لم يأتِ بمعنى يوجب صرفه عنه، أو يكون على انصرافه عنه دليل يُعْلم به الانصراف عما هو في سياقه. «تفسير الطبري»: (١٥/ ١٨٨).

(٥) ساقط من «ب».

(٦) أخرجه أبو داود في التطوع، باب رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل: (٢/ ٩٦)، والترمذي في المواقيت، باب ما جاء في القراءة في الليل: (٢/ ٥٢٦)، وقال: حديث غريب. وإنما أسنده يحيى بن إسحاق عن حمَّاد بن سلمة، وأكثر الناس إنما رووا هذا الحديث عن ثابت عن عبد الله بن رباح، مرسلًا، قال المنذري: (ويحيى بن إسحاق هذا هو البَجَلِيّ السَّيْلَحِينيّ، وقد احتج به مسلم في «صحيحه»)، وصحح الألباني إسناده في تعليقه على «المشكاة»: (١/ ٣٨٠)؛ لأن الذي أسنده ثقة. ورواه ابن حبان في «صحيحه»، والحاكم في «مستدركه». وانظر: «تخريج الكشاف»: (٢/ ٢٩٤ـ٢٩٥).

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ أمر الله نبيه ﷺ بأن يحمده على وحدانيته، ومعنى الحمد لله هو: الثناء عليه بما هو أهله.

قال الحسين بن الفضل: يعني: الحمد لله الذي عرفني أنه لم يتخذ ولدًا.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ قال مجاهد: لم يذل فيحتاج إلى ولي يتعزز به.

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ أي: وعظِّمه عن أن يكون له شريك أو ولي.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا الإمام أبو الطيب سهل (بن محمد بن سليمان، حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا محمد بن يعقوب، حدثنا محمد بن إسحاق الصَّغانيُّ، حدثنا نصْر بن حمادٍ أبو الحارث الوراق، حدثنا شعبة)[1]، عن حبيب بن أبي ثابت قال: سمعت سعيد بن جبير يحدِّث عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله في السَّرَّاء والضَّرَّاء»[2].

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي، أخبرنا أبو الحسن بن بشران، أخبرنا إسماعيل بن محمد الصفار، أخبرنا أحمد بن منصور الرمادي، أنبأنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن قتادة أن عبد الله بن عمرٍو قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله رأس الشكر، ما شكر الله عبدٌ لا يحمده»[3].

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير»: (١٢/ ١٩)، وفي «المعجم الصغير»: (١/ ١٠٣)، وصححه الحاكم: (١/ ٥٠٢)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية»: (٥/ ٦٩)، وعزاه في «المشكاة» للبيهقي في «الشعب»: (٢/ ٧١٤)، وفيه نصر بن حماد وهو ضعيف.
قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٩٥): (رواه الطبراني في الثلاثة بأسانيد، وفي أحدها قيس بن الربيع، وثقه شعبة والثوري وغيرهما، وضعفه يحيى القطان وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح، ورواه البزار بنحوه وإسناده حسن).
وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٤٩)، وضعفه الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة»: (٢/ ٩٣ ـ ٩٤).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف»: (١٠/ ٤٢٤)، والبيهقي في «الجامع لشعب الإيمان» كما في «المشكاة»: (٢/ ٧١٤)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٥٠).
ورواه الخطابي في «غريب الحديث»، والديلمي في «الفردوس» بسند رجاله ثقات، وهو منقطع بين قتادة وابن عمرو.
انظر: «فيض القدير» للمناوي: (٣/ ٤١٨).

أخبرنا أبو الفضل بن زياد بن محمد الحنفي، أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن أحمد الأنصاري، أخبرنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد، حدثنا يحيى بن خالد بن أيوب المخزومي، حدثنا موسى بن إبراهيم بن كثير بن بشر الخزامي الأنصاري، عن طلحة بن خراش، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أفضل الدعاء الحمدُ لله، وأفضل الذكر لا إله إلا الله»(١).

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا عبد الرحمن بن أبي شريح، أخبرنا أبو القاسم عبد الله ابن محمد بن عبد العزيز البغوي، حدثنا علي بن الجَعْد، حدثنا زهير، حدثنا منصور، عن هلال بن بشار، عن الربيع بن عميلة، عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبُّ الكلام إلى الله تعالى أربع: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، لا يضرك بأيهنَّ بدأت»(٢).

* * *

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة: (٩/ ٣٢٥)، وقال: (هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث موسى بن إبراهيم، والنسائي في «عمل اليوم والليلة»: ص٨٤٠ـ٨٤١، وابن ماجه في الأدب، باب فضل الحامدين برقم ٣٨٠٠: (٢/ ١٢٤٩)، وصححه ابن حبان: ص٥٧٨ من «موارد الظمآن»، والحاكم في «المستدرك»: (١/ ٥٠٣) ووافقه الذهبي، وأخرجه المصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٤٩)، وذكره الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة»: (٣/ ٤٨٤).

(٢) أخرجه مسلم في الآداب، باب كراهية التسمية بالأسماء القبيحة برقم ٢١٣٧: (٣/ ١٦٨٥)، والمصنف في «شرح السنة»: (٥/ ٩).

الفهرس